د. سيد مصطفى سالم

تكوين اليمن الحديث

١- اليمن والإمام يحيى

١٩٠٤ - ١٩٤٨

الطبعة الرابعة

١٩٩٣

د. سيد مصطفى سالم

تكوين اليمن الحديث

١- اليمن والإمام يحيى

١٩٠٤ - ١٩٤٨

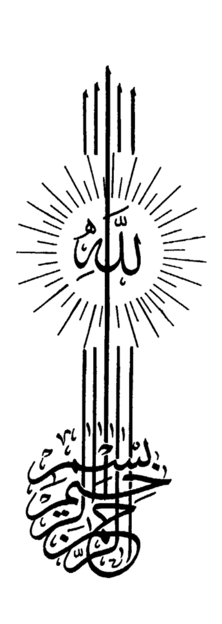
الطبعة الرابعة

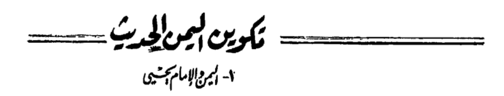
١٩٩٣

تكوين اليمن الحديث
الطبعة الرابعة : ١٩٩٣
الطبعة الثالثة : ١٩٨٤
الطبعة الثانية : ١٩٧٠
الطبعة الأولى : ١٩٦٣

توزيع دار الأمين للنشر والتوزيع

القاهرة : ١ شارع محمد محمود - باب اللوق (برج الأطباء) الدور الخامس - شقة ٥٠٥ - ت : ٣٥٥٨٤٦١
الجيزة : ١ شارع سوهاج - خلف قاعة سيد درويش - الهرم


الله


تكوين اليمن الحديث
١- اليمن والإمام يحيى
١٩٠٤ - ١٩٤٨

الإهـــــداء

إلى

ذكـــرى

الأستاذ الكبير المؤرخ الراحل

محمد شفيق غربال

تقـديم

للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

أرى قبل أن أمضى فى تقديم هـذا الكتاب – أن ثمة كلمتين ينبغى على أن أبدأ بهما ، هما كلمة اعتذار وكلمة شكر .

أما الاعتـذار فأقدمه لجمهور القـارئين ، ذلك لأنى فى كتابة هـذا التقديم أحـاول أن أشغل من هذا الكتـاب صفحات كـان من المقدور أن يشغلهـا قلم أستاذنا المؤرخ الراحل الكريم : محمد شفيق غربال . فقد صاحب شفيق غربال هذا الكتاب منـذ كان فكرة عرضها على تلميـذه « السيد جمال مصطفى سالم » عندمـا كان يطلب العلم عليه فى معهـد الدراسات العربيـة العالية ، كمـوضوع لرسـالة الماجستير فى التاريخ العـربى الحديث من هذا المعهـد . ومضى الأستاذ يتتبع جهود تلميذه ، ويمحض له النصح ، ويمـد له أسباب التشجيع والتوجيه والإرشاد حتى أتم « السيد سالم » رسـالته وسلمها للممتحنين ، وتهيأ لمناقشتها ، وإذا بالقدر يحرمه ويحرمنا جميعًا من أستاذنا الكبير ، ففقدنا بوفاته الركن الركين، والظل الظليل ، والقلب الكبير ، والأستاذية الشامخة .

ونـوقشت رسالـة الأستاذ « السيـد مصطفى سـالم » فى جو عـابق بذكـرى الأستاذ الراحل ، ونـال بها صاحبها درجة الماجستير بتقدير جيد جـدًّا مع توصية المعهد بطبع الـرسالة على نفقتـه ، ونفذ المعهد مشكـوراً توصية اللجنـة ، وهكذا استحالت الرسالة إلى الكتاب الذى يظهـر اليوم والذى قدر لى أن أتولى تقديمه إلى جمهور القارئين .

أما كلمة الشكر فلمؤلف هـذا الكتاب الصديق الأستاذ « السيد مصطفى سالم » الذى طلب إلى أن أتولى هذا التقديم ، وها أنذا أفعل .

وكتاب اليوم فى تاريخ اليمن الحديث ، فهـو يتناول تاريخ هذه الشخصية التى ارتبط تـاريخها بتـاريخ اليمن الحديث والمعاصر منـذ مطلع هذا القـرن إلى قـرب منتصفه ، وهى شخصيـة الإمـام يحيى حميـد الدين . وقـد اختـار المؤلف موضوع رسالتـه قبل أن يقفز اليمن بأحداثه الراهنة إلى سطـح الأحداث العالمية البارزة .

وأشهد أن « السيد سالم » قد تناول موضوعه بروح المؤرخ الموضوعى الجاد ، فعمل قـدر استطـاعته على أن يخلـص نفسه من عـواطف الـرضـا أو السخط ، الحب أو الكـره ، مع حرصـه - فى الوقـت نفسه - على أن يصـدر أحكامـه على الرجال والأحداث التى تناولها فى رسالته فى ضوء ما تجمع له عنها من حقائق .

وما أشـق ذلك على المؤرخ ، المفروض فيـه التمسك بالموضـوعية والنـزاهة المطلقة ، والمطـالب - فى الوقت نفسه - بأن يمسك الميزان ويصـدر الأحكام ، وتزداد هـذه المشقة - خـاصة - إذا كان الموضـوع الذى يتنـاوله المؤرخ بأحـداثه وشخصياته قريب الصلة بالعصر الذى يعيش فيه المؤرخ ، وما أقرب عهد الإمام يحيى بعصرنا .

وصعوبة أخـرى تواجه المؤرخ الذى يتنـاول بالبحث موضـوعًا (معاصراً) هو قلـة (الوثـائق) الرسميـة ، فأكثرهـا لا يزال حبيس الخزائن ، لم يـوضع بعد تحت تصرف الباحثين مما يضيق أفق المادة التاريخيـة أمام البـاحث ، وإن كان من المسلم به أن البـاحث يستطيع أن يستعيض عن هـذا النقص - بوفـرة وافرة من كتابات الصحف والرسائل المنشورة ، على أن يشق طريقه بينها فى حرص وحذر شديين . وأشهد أن صـديقنا الأستاذ « السيد سـالم » قد واجه هذه الصعـوبات التى أشرت إليها ، وغيرهـا ، وشق طريقـه بينها فى صبر وأنـاة وجلد على العمل وإقبـال على البحث ، وهى صفـات نعـرفهـا فى النـابهين من تـلامـذة « شفيق غربال».

لقد شارك الإمام يحيى - حتى قبل أن يلى الإمامة - فى أحداث اليمن وتشكيل مصيره بأكبر نصيب . فعل ذلك وقت أن كانت بلاده لا تزال تحت حكم الأتراك العثمانيين ، أى فى السنوات السابقة على الحرب العالمية الأولى ، وبذلك وضع الأساس لحكم (الإمامة) فى اليمن ، ثائرة على الترك أولا ، ثم مشاركة لهم ثانيًا ، ثم منفردة بالحكم أخيراً ، حتى مصرعه فى سنة ١٩٤٨ .

لقد عاش الإمام يحيى وحكم اليمن فى حقبة طويلة من الزمن امتدت نحو نصف قرن ، ولكن أهمية حكم الإمام ليست مستمدة فقط من طول عهد هذا الحكم ، وإنما هى مستمدة أيضًا من خطورة العصر الذى قام فيه هذا الحكم . العصر شهد انحلال الإمبراطوريات ، وقد أفاد هو نفسه من هذا الانحلال حين أقام - أو حاول أن يقيم - دولة اليمن ، أو ما سماه « المملكة المتوكلية اليمنية » فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، وشملت هذه الموجه بقية الأقطار العربية التى سلمت - حتى ذلك الوقت - من المد الاستعمارى . وحاول الإمام يحيى أن يقى بلاده غوائل تلك الموجة فاصطنع سياسة العزلة حينًا ، و (المضاربة) الدولية حينًا آخر . وعصر الإمام يحيى هو أيضًا - العصر الذى شهد يقظة الشعوب العربية وتطلعها إلى الحرية والديمقراطية والوحدة .

وهكذا وجد الإمام يحيى نفسه وبلاده محوطين بتيارات مختلفة لم يكن لهما بها عهد من قبل . وانتهى الإمام إلى خطة ظل متشبثًا بها حتى مصرعه ، وهى أن يعمل على أن يمسك بين يديه (بمفاتيح) هذه التيارات ، تمامًا كما كان يمسك بين يديه بمفاتيح خزائنه ، وظن أنه بذلك قادر على ضبط التيارات المختلفة التى ناوشته من كل جانب ، والأخذ من كل منها ، ولكن بقدر محدود .

وهكذا عاش اليمن حياة ملؤها التناقض ، ولم يستطع أن يحقق فى هذا العصر الذى اشتدت فيه حركة الأمم والشعوب شيئًا .

وبلغ من خطورة خطة الإمام يحيى أنها استحالت من بعده إلى (نظام) حاول ابنه أحمد ثم حفيده البدر أن يسيرا عليه ، وهما لا يملكان شيئًا من صفات مؤسس الدولة وواضع نظامها ، حتى بعد أن ثبت فشل خطة الإمام يحيى حين راح - هو نفسه - ضحية لها فى ١٩٤٨ . فكان الانهيار ، وهو لا يقل خطورة عن انهيار سد مأرب فى القديم . ولكن إذا كان انهيار سد مأرب قد جلب على اليمن الدمار والخراب ، فالمأمول أن انهيار الإمامة المتوكلية سيفتح أبواب اليمن لتيارات التقدم والنهضة والعزة والحرية .

لقد أسهم الأستاذ « السيد مصطفى سالم » فى خدمة تاريخ اليمن وتاريخ القضايا العربية المعاصرة بقلمه ، تمامًا كما يسهم اليوم إخوانه - من شباب المصريين - فى خدمة اليمن والقومية العربية على أرض المعركة بالسيف والنار . ويقدمون وقودا لها من دمائهم وأرواحهم .

صنع الله لهذا الجيل من المصريين الذى أعده القدر لخدمة العروبة - والإنسانية - بالسيف والقلم جميعًا .

سيدى بشر . الإسكندرية

أغسطس ١٩٦٣

أحمد عزت عبد الكريم

مقـــــدمة
الطبعـــة الرابعـــة

يصعب فى الواقع كتابة مقدمـة رابعة لكتاب من الكتب بعد أن يكون المرء قد أفرغ ما يريد ذكره فى مقدمات سابقة ، وترجع الصعوبة إلى عدة أسباب منها: لمـاذا يعاد طبع كتـاب ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٦٣م ؟ وقد يبـدو أن الإجابة سهلة ميسرة ، وهى أن الكتاب ما زال مقروءًا مـرغوبًا . ولكن الصعوبة تكمن فى هذه السهولة ، إذ أن إعادة طبع كتاب للمرة الرابعة يرجع إلى أسباب أكثرعمقًا ، وخـاصة إذا أعيـد طبعـه كما هو ، ليظل وثيقـة مطبـوعـة لمـا كـان ينشر فى تلك السنوات ، وقد بينت تفسير ذلك خلال مقدمة الطبعة الثالثة .

فيلاحظ أننـا وقد قاربنـا نهاية القرن العشرين ، نجـد أن اليمن - بأجزائه المختلفة - قد مرَّ بمراحل وتطورات متعددة خلال هذا القرن . فقد دخل اليمن هذا القـرن وهو ولاية عثمانية فى جـزء منه ، ومحمية بـريطانية فى جزء آخـر . وقد استقل جزؤه الشمالى عقب الحرب العـالمية الأولى تحت اسم : المملكة المتـوكلية اليمنية . ورغم نشـوب ثورتى ١٩٤٨ ، ١٩٥٥م ، فقد ظل النظام الـذى وضعه الإمام يحيى لحكم اليمن سـائدًا حتى قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢م . وإعـلان قيام الجمهورية العـربية اليمنية . أما الجزء الجنوبى من البلاد ، فقـد ظل يعرف بأنه : عـدن ومحميـاتها ، وعـدن والمحميـات التسـع أو النـواحى التسع ، أو الجنـوب العربـى ، أو الجنوب اليمنى ، حتى نشبت ثـورته فى ١٤ أكتوبـر ١٩٦٣ وحقق استقلالـه فى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧ ، وأعلن قيـام الجمهورية اليمنيـة الديمقـراطية الشعبيـة . وهنا بـدأ يطفو بـالتـدريج - وعبر سنوات - اسميّ الشطـر الشمالى والشطـر الجنوبى - ولـو محليا - على الجمهـوريتين اليمنيتين الفتيتين تعبيرًا عن الرغبة الشعبية والحكومية فى تحقيق الوحدة اليمنية التى قدِّر لها أن تتحقق فى ٢٢ مايو ١٩٩٠م . وإعلان قيام «الجمهورية اليمنية» التى ضمت الشطرين ، والتى ارتضت التوجه الديمقراطى التعددى توجها لها لبناء اليمن الحديث القوى .

وهكذا يتضح تعدد المراحـل التى مرّ بها اليمن بشطريه خـلال هذا القرن

حتى وصل إلى وحدته ، وأصبحت كل مرحلة من هذه المراحل تحتاج إلى دراسة منفردة متعمقة .

وهنا تكمن أهمية إعادة طبع هذا الكتاب ، لا ليتوفر بين يدى القراء والباحثين من المهتمين بتاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، بل لأنه يتضمن تاريخ المراحل الأولى من مراحل هذا القرن ، ولأنه يمهد لى - ولغيرى - كتابة تاريخ باقى المراحل . فهو يحمل فى طياته اللبنة الأولى التى شكلت ملامح تاريخ اليمن فى النصف الأول من القرن العشرين - مهما كانت ملامح هذه اللبنة وطبيعة تكوينها - لذلك اعتبرته الخطوة الأولى التى تحتاج إلى خطوات أخرى حتى يتم تغطية تاريخ اليمن خلال قرننا الحالى .

وكنت قد تمنيت يومًا أن أواصل دراسة الفترة التى توقفت هنا عندها - أى عام ١٩٤٨ - إلى قيام ثورة ١٩٦٢م ، تحت عنوان : « مقدمات ثورة سبتمبر ١٩٦٢ » لأنال بها درجة الدكتوراه ، غير أن أستاذى الكبير المرحوم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم وجهنى إلى أن أخصص دراستى حول تاريخ اليمن فى القرنين ١٦ ، ١٧ الميلاديين ، فامتثلت لهذا التوجيه ، وسجّلت هذه الأمنية فى مقدمة كتابى : « الفتح العثمانى الأول لليمن ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥م » . هذا وما زلت أطمع - أنا أو أحد تلاميذى - أن أحقق هذه الأمنية لنكمل باقى الخطوات .

وأخيرًا ، فإنى إذ أدفع بهذا الكتاب إلى المطبعة للمرة الرابعة فهذا لأنه الحلقة الأولى من حلقات تاريخ اليمن فى القرن العشرين ، فبدون دراسة الماضى لا نستطيع أن نفهم الحاضر أو نترسم خطوط المستقبل ، كما أن الحاضر باستمرار عبارة عن صراع جدلى بين الماضى والمستقبل أو هو بالأحرى نقطة الالتقاء بينهما . فعل يقدر لنا جميعًا أن نخط تاريخ باقى الحلقات ؟

نتمنى ذلك ...... والله الموفق .

القاهرة : أغسطس ١٩٩٣

دكتور

السيد جمال مصطفى سالم

مقدمة

الطبعة الثالثة

يتردد المرء كثيرا عندما يُقْـدِم على إعادة طبع كتاب من كتبه للمـرة الثالثة ، خاصـة إذا كان قد مـرَّ على ظهور هذا الكتـاب لأول مرة حوالى عشرين عـاما . ويرجع هذا التردد إلى عدة أمور منها طـول المدة ، فمن المتوقع أن يكون قد ظهر خلالها كتـابات لمؤلفين آخرين قُـدِّر لهم أن يعالجوا نفس الموضـوع والفترة ، وأنه من المحتمل أن تكون هـذه الكتابات قد أضـافت شيئا جديدا إلى كتـابى . وقد يرجع التردد أيضا إلى أن طبيعة التطـور والتغير فى كافة مجالات الحياة بما فى ذلك مجال التأليف تفرض أن يضـاف إلى مادة الكتـاب ما وجدتـه من جديـد خلال تلك الفترة ، حتى لا أتصف والكتاب بالجمود والتحجر .

لكن هذا التردد سرعان ما اختفـى ، إذ اتضح أن الكتاب ما زال منفردا فى موضوعه وفى الفترة الزمنية التى عالجها ، بل وإضافة إلى ذلك أعتبر أساسا لكثير من الدراسات التى تناولت بعض ما ورد فيـه من نقاط وإشارات ، وتم توسيعها وتعميقها على يد مؤلفين آخرين ، وبرزت بالتالى فى شكل كُتب جديدة أضيفت إلى المكتبة اليمنية .

أما من نـاحية المادة التاريخية الجديـدة التى تعرفت عليها وجمعتهـا خلال تلك الفترة الطويلة ، فكنت قد قررت مبكرا أن أفرد لها دراسات جديدة فى كتب أخـرى حتى لا أزحم هـذا الكتـاب بما وجدت ، وحتى أتـوسع فى دراسـة هـذا

الجديد وتعميقه ، وحتى يظل الكتاب وثيقة لما كان يكتب فى أواخر الخمسينيات وأوئل الستينيات من هذا القرن .

وقد تحقق بعض ما نويته مبكرا فى فترات سابقة ، فقد أشرت خلال فصول الكتاب الذى أقدم له الآن إلى بروز بعض مظاهر المعارضة لحكم الإمام يحيى منذ مبايعته بالإمامة وبعد استقلاله بالحكم ، وأن تلك المعارضة اشتدت بعد عام ١٩٣٤ حتى قيام ثورة عام ١٩٤٨ . لذلك سعدت عندما حصلت على أعداد « مجلة الحكمة اليمانية » وعكفت على دراستها حتى أخرجت عام ١٩٧٦م دراسة خاصة مستفيضة - تتعلق بهذه المعارضة - تحت عنوان : « مجلة الحكمة اليمانية وحركة الإصلاح فى اليمن ، ١٩٣٨-١٩٤١م » (١٣٥٧- ١٣٦٠هـ) . كذلك كنت قد أفردت فصلا خاصا فى الكتاب المقدم له بعنوان « جنوب غرب الجزيرة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى » غير أنى عندما اطلعت على بحث الأستاذ جون بولدرى ، ووجدت أنه يغطى نقصا فى مادة هذا الفصل ، وخاصة فيما يتعلق بأحداث الساحل اليمنى فى الفترة ذاتها ، سارعت إلى ترجمة هذا البحث ، ونشرته مع تقديم فى كتاب منفرد عام ١٩٨١م بعنوان : « العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن إبان الحكم التركى ، ١٩١٤-١٩١٩م » .

أما كتابى الأخير : « وثائق يمنية ، دراسة وثائقية تاريخية » الذى صدر عام ١٩٨٣ ، فهو يحتوى على عدد غير قليل من الوثائق التى تمس تاريخ الإمام يحيى منذ مبايعته بالإمامة إلى خروج الأتراك من اليمن وإعلان الاستقلال ، وهى الفترة التى تمثل الثلث الأول من كتاب : « تكوين اليمن الحديث » . ولقد ألقى نشر نصوص هذه الوثائق وتحليلها والتعليق عليها أضواء جديدة وكثيرة على أحداث تلك الفترة ، غير أن تخصيص كتاب بذاته لهذه الدراسة قد أفسح

المجال لدراستها بإسهاب وعمق ، وكان ذلك أفضل بكثير من إضافة هذه الوثائق إلى صفحات كتابى الحالى .

وأخيرا فإذا كان على المؤلف أن يقف من مؤلفاته موقفا عادلا موحدا مثلما يقف الأب من أبنائه ، فلا يرفع من قدر أحدهم بالنسبة للآخرين ، ولا يظهر اهتماما بواحد منهم على حساب الآخر ، لذلك أبقيت كتابى الأول على حالته التى وُلد عليها لأول مرة طالما استطاع بمفرده أن يقف على قدميه ، وأنه أصبح مرجعا أساسيا لكثير مما ظهر من مؤلفات عربية وأجنبية تعالج نفس الحقبة التاريخية التى تضمنها ، أو لدراسات توسعت فى معالجة بعض نقاط الكتاب الفرعية التى وردت به أو أشار إليها .

لهذا كله حاربت التردد الذى انتابنى ، ودفعت بالكتاب إلى المطبعة للمرة الثالثة .

وبالله التوفيق .

صنعاء : يونيو ١٩٨٤

دكتور

السيد جمال مصطفى سالم

مقدمة

الطبعة الثانية

لا يسعنى فى هذه المقدمة إلا أن أتحدث عن نقطتين هامتين :

النقطة الأولى توضيحية ، تتعرض لعنوان الكتاب وهو « تكوين اليمن الحديث » فقد كان هناك بعض سوء الفهم حوله ، بحجة أن تكوين اليمن حديثًا لا يقف عند حدود عهد الإمام يحيى . ورغم موافقتى على هذا الرأى ، فقد كان المقصود من وراء هذا العنوان هو إبراز كيفية ظهور دولة اليمن الشمالية بشكلها وحدودها الحالية - التى تعرف الآن باسم الجمهورية العربية اليمنية - من خلال أحداث عهد الإمام يحيى . ولذلك فقد احتفظت بعنوان الكتاب وفصوله ومادته كما هى لاتفاقها جميعًا مع ما ذهبت إليه .

والنقطة الثانية تتصل بكلمة الشكر : الشكر لهؤلاء الذين شرفونى بقراءة الكتاب وعلقوا عليه شفاهة أو تحريراً ، وخاصة من اليمنيين الأشقاء الذين من أجلهم ، وبفضل تشجيعهم ، أعيد نشر الكتاب .

والشكر لأستاذى الكبير الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذى أغدق على من عبارات الثناء فوق ما أستحقه عندما شرفنى بكتابة مقدمة الطبعة الأولى ، ولما يغمرنى به من مساعدات وتشجيع منذ ذلك الحين حتى الآن .

وإنى إذ أعيد طبع هذا الكتاب لتتسع رقعة الانتفاع به ، فإنى أرجو أن أوفق فى تقديم المزيد والجديد من دراسات فى تاريخنا العربى الحديث .

القاهرة فى ديسمبر ١٩٧٠

دكتور

السيد جمال مصطفى سالم

مقدمة

(الطبعة الأولى)

كانت « المملكة المتوكلية اليمنية » تعيش فى عزلة تقليدية منذ قيامها بعد الحرب العالمية الأولى ، فعاشت بعيداً عن التيارات الحضارية والسياسة العالمية، رغم ظهورها على المسرح الدولى والعربى ، فى فترات قصيرة متباعدة . وإلى جانب ذلك ، اشتهرت تلك المملكة بالتخلف والجمود ، وأنها تعيش فى حالة بدائية متأخرة ، رغم أهميتها الاستراتيجية والتاريخية وثرواتها الطبيعية . وانعكس ذلك كله فيما قيل وفيما كتب عنها ، فظهر متناقضًا مضطربًا قليلا ، ولم تتناول تاريخها الحديث والمعاصر ، وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الراهنة أبحاث علمية جادة . واقتصرت الكتابات التى ظهرت على كتابات رحالة تعبر عن مشاهدات سريعة ، وانطباعات ولقطات مسافر ، أو كانت كتابات منحازة تدافع عن أوضاع معينة أو تهاجمها ، أو كانت أخباراً تحيطها الشك والريبة ، تتسرب بين حين وآخر لتظهر فى الجرائد والمجلات أو فى الكتب. وكان الفراغ الكبير الذى أحسته المكتبة العربية - أو حتى المكتبات الأخرى - يحتم القيام بأبحاث علمية مختلفة لسد هذه الثغرة . وكان هذا هو الدافع لأن أخصص رسالتى لنيل درجة الماجستير فى دراسة « تاريخ اليمن الحديث » فبدأت العمل فى هذا البحث فى يناير ١٩٥٩ ، وقد انتهيت منه فى مايو ١٩٦١ ، ثم تمت المناقشة فى أبريل ١٩٦٢ .

ولم يكن الأمر سهلا أمامى عندما بدأت البحث ، إذ قامت عدة صعوبات تمثلت فى قلة المراجع والمصادر ، وفى كيفية معالجتها والاستفادة منها ، وذلك نتنيجة الظروف السياسة التى مر بها اليمن فى تاريخه الحديث . وكان الأمر يزداد تعقيداً كلما توغلت فى البحث لما كنت أتكشفه دائمًا من قلة المعلومات فى بعض

النـواحى ، وفى غموضهـا واضطرابها فى النـواحى الأخـرى . ولذلك كنت أقـوم بالجهد المضاعف لأعثر على القليل المتناثر من المادة التاريخية ، التى كان على أن أدقق فى دراستها ، وأقارن بعضهـا ببعض ، حتى أتمكن فى النهاية من رسم خط تـاريخى سليم ، يـربط أجـزاء الـرسـالـة دون الخوض فيما تعـرضـه على المراجع المختلفـة من تفصيلات زائدة ، لا تخدم البحث التـاريخى . وهـذا لا يعنى أنى أهملت النواحى الاقتصاديـة والعمرانية والاجتماعية ، فقد تناولتهـا كثيراً وخاصة بما يوضح جوانب البحث المتعددة . وفى كثير مـن الأحيان ، كنت أشعر باليأس الشديد فى مـواصلة بحث هذا الموضوع ، وبالخوف من عدم الـوصول إلى نتائج مفيدة ، لولا تشجيع المغفور له الأستاذ المشرف ودفعه لى .

* * *

إن أول مـا يلفت النظـر فى تـاريخ اليمـن الحديث والمعـاصر ، هـو قيـام «الدولـة المتوكليـة اليمنية » وبالتـالى شخصية مـؤسسها الإمـام « يحيى بن حميد الدين » ثم الارتباط بينهما . ولهذا الترابط كـان موضوع الرسـالة وعنوانها الأصلى هـو : « أثر الإمـام يحيى فى تاريخ اليمن الحديث » فـالإمام يحيى يعتبر مـؤسس تلك المملكة ، والـذى شكل ملامح شخصيتها المعاصرة . وأفـادنى هذا الترابط من الناحية العمليـة ، إذ جعلت تاريخ حياة الإمام يحيى ، محوراً لـلدراسة تاريخ اليمن الحديث . فإلى جـانب تتبعى لمراحل حيـاته المختلفـة ، منذ تـولى إمامـة الزيـديين عام ١٩٠٤ ، حتى أصبـح حاكما مستقـلا عام ١٩١٩ ، وحتى وفـاته ١٩٤٨ ، فقـد أوضحت كيف انتقل اليمن من ولاية عثمانيـة إلى دولة مستقلـة . وأبـرزت - طوال البحث - مـلامح الـدولة الجـديدة ، ونـوع اسـتقلالها ، إلى جانب مشاكلها العديـدة الداخلية والخارجية ، كما أوضحت دور الإمام يحيى فى مراحل تاريخ هــذه الدولة وسياسـته ، وكيف طبع اليمن فى النهـاية بالطابع الذى عرف به .

وقد تناولت هذه النقـاط فى بابين كبيرين ، اشتمل الباب الأول على تاريخ اليمن تحت الحكم العثمانى أى من سنـة ١٩٠٤ وهـو تاريخ تـولى الإمـام يحيى

الإمامـة ، إلى ١٩١٩ ، واشتمل الباب الثانى على تـاريخ اليمن المستقل أى من ١٩١٩ إلى ١٩٤٨ عند وفاة الإمام يحيى . وقسمت الباب الأول إلى ثلاثة فصول، وحرصت أن يكـون الفصل الأول فصلا تمهيـديًا ، أقدم بـه اليمن نفسه وظـروفه الطبيعيـة والاجتماعية والتـاريخية - تلك البيئـة التى قامت فيهـا تلك الدولـة - وذلك لقلة ما يعـرف عن اليمن ، بالرغم مما قد يبـدو فى ذلك من بعد عن البدء فى الموضوع مباشرة . والفصل الثانى والثالث يتناولان أحداث اليمن تحت الحكم العثمانى ، ورغم وحدة هذه الفترة ووحدة طـابعها العام ، إلا أننى حرصت على تقسيمها إلى فترتين ، فى فصلين منفصلين ، لزيادة التوضيح من ناحية ، ولأن كل منهما تتميز عن الأخرى ببعض المميزات من ناحية أخرى . أما الباب الثانى فقد قسمتـه إلى فصلين فقط ، وأخـذت عـام ١٩٣٤ فـاصـلا بينهما ، لما تم فيـه من أحداث هـامة أثرت فى تاريخ اليمن . وقـد حمل كل من الفصلين طابعًا خـاصًّا تميـز بـه عن الآخـر ، تبعًا لطبيعـة الأحـداث والظـروف التى كـانت فى كل من الفترتين . فـاهتممت فى الفصل الأول بـالحروب والمواقف العنيفة والعـلاقـات السيـاسية ، تلك النـواحى التى تصاحب دائما دولـة جديـدة . أما بعـد ١٩٣٤ فكـانت الـدولة قـد وصلت إلى عهـد من الاستقـرار والهدوء النسبى ، ولـذلك عملت فى هذا الفصل على دراسـة سياسـة الإمام يحيى من النـواحى المختلفة ، وأثره فى خلق شخصية الـدولة اليمنية فى تاريخها المعاصر وقـد قمت بإعادة هذا التقسيم إلى تقسيمات أصغر عند النشر .

وقـد حرصت - نظـراً لقلة المراجع وظـروف الموضوع الخاصـة - أن أقسم الموضوع بعد الفصل التمهيدى إلى فترات زمنية محدودة ، تشكل كل منها مرحلة معينة من مراحل قيام تلك الـدولة وأحسست من البداية بضرورة السير البطىء فى دراسـة الأحـداث وتطـورهـا . فلم أتعمـد مثلا دراسـة العـلاقـات اليمنيـة السعوديـة منذ بدايتهـا حتى تمت تسوية الصلح فى عـام ١٩٣٤ ، بشكل طولى منفـرد فى جـزء خـاص ، بل تعمـدت دراسة هـذه العـلاقـات ضمن أحـداث وعلاقـات أخرى سارت معهـا فى خطوط زمنية متـوازية وذلك لأنى أعتقـد أنه

ليس هنـاك ظواهـر تـاريخيـة ، بل هناك أحـداث تـاريخية تتفـاعل مع بعضهـا البعض، وتؤثر كل منها فى الأخريات ، وتفسر كل منهم الأخرى فى نفس الوقت. وأدى هـذا الفهم إلى أنى قسمت كل فترة من تلك الفترات إلى أقسـام أصغـر ، حتى يتضح فى النهـاية مجرى التيـار العام لتـاريخ هــذه الفترة الهامة من حيـاة الشـعب اليمنى . ورغم عــزلة اليمـن المعـروفة ، فقـد كنت أومن بأن تاريخـه لا ينفصل عن تاريخ الجهات المجاورة ، لـذلك حرصت على التوسع فى توضيح بعض النقـاط من تاريخ الـدولة العثمانيـة ، أو من تاريخ الجزيـرة العربيـة على الأقل التى عاصرت أحداث اليمن .

وأخيراً ، فإنى لا أملك إلا أن أشيـد بما تفضل بـه على أستـاذنـا الـراحل ، المؤرخ الكبير « محمـد شفيق غـربال » وإلا أن أتغنى بما غمـرنى بـه من تشجيع وتوجيه ، وإنى لا أفخر بشىء قدر فخرى بأنى أتممت رسالتى هذه تحت إشرافه ورعايته .

وإنى أتقدم بـالشكر كـذلك إلى لجنة المنـاقشة الأسـاتذة ، الـدكتور أحمد عزت عبـد الكريم والـدكتور عبـد الحميد البطـريق والدكتـور محمد أنيس ، لما تكبـدوه من جهد فى قـراءة الـرسالـة ، ولما أسدوه إلى من تـوجيهـات قيمة عنـد المناقشة .

كما أتقدم بالشكر إلى « معهـد الدراسات العربية » وإلى أساتـذته ورجال إدارته ، وإلى مكتبته النفيسة .

القاهرة فى نوفمبر ١٩٦٢

السيد جمال مصطفى سالم

القسمُ الأول

تمهيـــد

فى جغرافيةاليمن وتاريخه

وأحواله الاجتماعية

أهمية التعريف باليمن :

لا شك فى أن المنهج الأكـاديمى للبحث العلمى ، يحتم البـدء مبـاشرة فى تناول عهـد الإمام يحيى ، وهو موضـوع الرسالة ، ولكن ظـروف اليمن الخاصة ، تفـرض تخصيص فصل مستقل فى أول الـرسالـة أوضح فيـه الأبعاد المختلفـة - الطبيعية والبشريـة والتاريخيـة - التى تغلف الأحداث الـرئيسية للمـوضوع . إذ يعتبر اليمن من أكثـر البلاد التى يجهل العـالم عنه الكثير ، لا من نـاحية تـاريخه وأحداثه المعاصرة فحسب - بل من ناحية جغرافيته وأوضاعه الاجتماعية وموارده الاقتصادية أيضًا . وانعكس ذلك فى كتابات المؤرخين والكتاب المحدثين الذين تناولـوا تاريخ وأوضاع بلـدان الشرق الأوسط المعاصرة ، فنـرى أنهم لم يخصصوا لليمن إلا فصولا صغيره فى كتبهم أو أهملوا الحديث عنه كلية ، وذلك على الرغم من أهميتـه الاستراتيجيـة والتاريخيـة . ويسـد هذا الفصل بعـض الفراغ الـذى شعرت به عنـد بداية البحث ، ويوضح فى نفس الـوقت المؤثرات المختلفة التى ظهر أثرها فى سير الأحداث هناك ، وفى بيان المواقف المختلفة التى شكلت عهد الإمـام يحيى ، تلك المؤثـرات التى لعبـت - وتلعب - الـدور الأكبر فى تـاريخ اليمن الطويل .

جغرافية اليمن[١]:

يـلاقى البـاحث نقصًـا كبيراً عند دراسـة جغـرافيـة اليمن ، فليس هنـاك مصادر أو إحصائيات رسميـة أو غير رسمية يعتمد عليها فى الدارسـة . وهذا ما دفع (فيشر) إلى أن يصف اليمن بأنه إقليم مغلق ، ولم تعـرف طبيعته تمامًا ، وأن الرحـالات العرضيـة لبعض الرحـالة ، تعتبر المصـدر الرئيسى للمعلـومات عن الأحوال الجغرافية[٢] ولكننـا سنحـاول رغم ذلك ، دراسة طبيعـة هـذا الإقليم،

---

(١) يقصد باليمن هنـا ما عرف « بالمملكة المتـوكلية اليمنية » أو مايعرف الآن « بـالجمهورية العـربية اليمنيـة » . ورغم أن اليمنيين أنفسهم يعتبرون أن « اليمن » يضم مناطق واسعـة تمتد مـن عسير ونجران شمالا إلى عدن وحضرمـوت جنوبًـا ، إلا أننى أردد لفظ « اليمن » فقط فى البحث لسهولة التعبير مع إيمانى بما يذهبون إليه فى حدود وطنهم .

(٢) W. B. Fisher ; The Middle East , Methuen & Co., London, 1950, p. 433.

ومعرفة جغرافيته بقدر الإمكان . يمتد اليمن فى الركن الجنوبى الغربى لشبه جزيرة العرب حوالى ٣٠٠ ميلا بين خطى عرض ١٢-١٨ شمالا . وتبلغ مساحته حوالى ٧٥ ألف ميل مربع . ويبلغ عدد سكانه حوالى أربعة ملايين نسمة[١] . أما حدوده السياسية الحالية فهى : من الشمال « عسير » وتتبع المملكة السعودية ، ويمتد خط الحدود من ميناء « ميدى » على البحر الأحمر ، إلى شمال بلدة « صعدة » متبعًا وادى « مخلاف » إلى حدود « نجران » و« يام » الجنوبية . ومن الجنوب ما كان يعرف بمحميات عدن ، وتمتد الحدود بين «الشيخ سعيد » على البحر الأحمر إلى جنوب بلاد « الحجرية » و« ماوية » و«قعطبة » . ومن الشرق « حضرموت » والخط الفاصل هو وادى « بيحان » وبادية « الجوف » الممتدة إلى الربع الخالى ومن الغرب يمتد البحر الأحمر[٢]. ويتضح من هذا أن اليمن ذو موقع استراتيجى هام ، إذ يقع عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، ليقابل القطب الثانى لهذا البحر المتمثل فى قناة السويس.

أما من ناحية التضاريس ، فيمكن تقسم اليمن إلى ثلاثة أقسام : الأول منخفض يمتد على طول الساحل ويسمى تهامه ، والثانى الهضبة ومرتفعاتها الشمالية ، والثالث المنخفض الشرقى ويعرف بالجوف . وسهل تهامه عبارة عن شريط ضيق من الصحراء الرملية التى يشتد حرها ، ويتراواح عرضها بين ٢٠-٥٠ ميلا . أما الهضبة - فهى تميل نحو السهل الساحلى وبها مساحات عريضة يتراوح عرضها بين ٧-١٠ آلاف قدم - أى أنها ليست جبلية وعرة - وبها أعلى قمة فى كل الجزيرة العربية ، وهى قمة النبى شعيب على بعد ٣٠ ميلا غربى صنعاء ، ويقدر ارتفاعها بحوالى ١٤ ألف قدم فوق سطح البحر . وقد

---

(١) Richard H. Sanger ; The Arabian Peninsula, Cornell Univ. Pr., New York , 1954, p. 235.

(٢) المقتطف : مجلد ٩٠ ج ١ ص ١٨-١٩ (عدد يناير ١٩٣٧- من مقالة أحمد وصفى زكريا الذى زار اليمن عام ١٩٣٦ ومكث به ستة أشهر) .

قطعت المجارى المائية سطح الهضبة حيث توجد ظاهرة القنوات المائية ، ولكنها لا تستطيع عبور السهل الساحلى لتصل إلى البحر ، ويعنى هذا أنه ليس باليمن أنهار طويلة ويظهر طفح « اللافا » بوضوح على الهضبة : وتعمل هذه المواد البركانية على خصوبة التربة .

ويتأثر مناخ اليمن بعدة عوامل : منها قربه من خط الاستواء ، واختلاف تضاريسه ، وقربه من مسطحات مائية عريضة مثل البحر الأحمر فى الغرب والبحر العربى فى الجنوب . فعلى الهضبة تنخفض درجة حرارة الشتاء إلى أقل من ٤٠° ف ويظهر الجليد على المرتفعات الشاهخة . أما فى الصيف فترتفع درجة الحرارة للقرب من خط الاستواء ولكن ليس بالدرجة التى تصل إليها فى باقى الجزيرة العربية ، بسبب ارتفاعها من ناحية ، ولوجود فصل مطير متميز من ناحية أخرى يشمل شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر . ورغم صعوبة البت فى مناخ اليمن إلا أنه يمكن القول أن كمية المطر تزيد على ٢٠ بوصة فى السنة فوق أغلب الهضبة ، وقد تصل إلى ٤٠ بوصة على الأجزاء العليا منها . وهناك فصلان لسقوط الأمطار ، ولكن الفترة التى يسقط فيها أغلب المطر هى التى سبق ذكرها لهبوب الرياح الموسمية التى تهب على الحبشة والهند ، أما الفصل الثانى للأمطار فهو فى شهر مارس نتيجة تأثر اليمن بمناخ البحر المتوسط مثل باقى بلاد الشرق الأوسط . ويلاحظ أن المرتفعات هى التى تتأثر بهذه المقادير من الأمطار ، أما السهل الساحلى المتاخم للبحر الأحمر فأمطاره قليلة جداً ، وأقصى ما يمكن أن يرى منه فى فصل الشتاء .

وتبعًا للتغيرات المناخية تتأثر الحالة النباتية ، ففى تهامة - على الساحل - تقل درجة الاخضرار ، فيوجد الصبار وشجر السنط ، وفى الداخل من تهامة لا تتغير المظاهر النباتية كثيراً ، نظراً لانتشار أكمات الرمال والحصى التى كثيراً ما تحملها الرياح العاصفة ، وفوق ٣٠٠٠ قدم تظهر نباتات البحر المتوسط ، وعند

ارتفاع ٤٥٠٠ قدم تبدأ أعظم منطقة إنتاجية .. فتوجد الحبوب حيث توجد التربة الخصبة ، كما توجد أنواع من أشجار الفاكهة والخضروات . وهناك نباتان يستحقان الذكر بشكل خاص[1] ، هما : شجيرة البن التى تنمو على المرتفعات بين حوالى ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ قدم وتشتهر منطقة مناخة التى تقع خلف ميناء « مخا » بزراعته ، والبن يمثل الثروة القومية لليمن منذ قديم الزمن . والنبات الثانى هو القات ، وينمو إلى ارتفاع ١٠ أقدام تقريبًا وتقصر زراعته على ارتفاع ٥٠٠ - ٩٠٠٠ قدم[2] . والجدير بالذكر هو أن الأحوال المناخية ، وجودة التربة ، تساعدان على نمو القطن [3] .

ولا تقل الثروة المعدنية أهمية عن الثروة النباتية ، فيوجد فى الشمال من منطقة صنعاء منجم مهم للحديد . وفى الجنوب وجد الفحم الحجرى بكثرة حتى إنه يبدو على السطح فى منحدارات الجبال ، وفى « صليف » منجم للملح يحوى نسبة مرتفعة من كلوريد الصوديوم تجعله فى مصاف أفضل المناجم فى العالم . وبإيجاز يمكن القول إن اليمن من البلاد الغنية معدنيًّا ، ويحتوى كثيراً من الذهب والفضة والأورانيوم والنحاس والماغنيزيوم والبوتاس .

أما البترول فقد عثر عليه فى منطقة « صليف » وفى منطقة « شبوه » على الحدود الشرقية ويمثل رأس مثلث مع كل من « بيحان » و « عياضة » وهما ضمن المحميات البريطانية[4] .

---

(١) تتشابه ظروف نمو نباتى البن والقات ، وهما يعتبران نباتان متنافسان وخاصة فى الأزمنة الحديثة إذ كان البن طوال تاريخ اليمن يمثل الثروة القومية للبلاد واكتسب شهرة عالمية لجودته وانتشاره . والغلبه الآن للقات لأنه يدر أرباحاً طائلة سريعة ، ولأن أسرة « حميد الدين » أهملت زراعة البن الذى يحتاج إلى عناية أكثر من حيث الإنتاج والتسويق وخلافه . والقات نبات منبه يمضغه اليمنيون ، وله جلسات خاصة وعادة ما تكون بعد الظهر ، ومضغه عادة منتشرة بين كل الفئات والطبقات هناك ، وللإمام يحيى قصيدة مشهورة فى مدحه .

(٢) Fisher ; The Middle East pp. 433-435.

(٣) Hogarth, (D. G.) ; The Nearer East, H. F rowde , London , 1905, p. 140 (1905).

(٤) Jean Jacques berreby La Peninsulsa Arabique, Paris, Payot, 1958, pp 135-136

الحالة الاجتماعية :

تتميز الحالة الاجتماعية فى اليمن بعدة أمور :

أولا - القبيلة هى الوحدة الاجتماعية للمجتمع اليمنى .

ثانيًا - هناك اختلاف ظاهر بين سكان الجبال وسكان السهول فى نواحى الحياة المختلفة .

ثالثًا - شعب اليمن مقسم بين مذهبين كبيرين هما : المذهب الشافعى والمذهب الزيدى .

وقد لعبت هذه الحقائق دورا هامًا فى تاريخ اليمن حتى اليوم ، وهى ترجع فى أصولها إلى جذور تاريخية وجغرافية واضحة .

وسبب وجود وأهمية ظاهرة « القبيلة » هناك ، يرجع إلى أن طبيعة اليمن بأقسامه المختلفة لا تحتمل وجود جماعات بشرية كبيرة تمتد لمسافات طويلة . ولكن حتى لا يختلط الأمر فى الأذهان ، نقول إن لفظ « قبيلة » لا يعنى بالضرورة أن هناك تنقلا أو ترحالا - تلك الظاهرة التى ترتبط دائمًا بكلمة قبيلة - إذ إن القبائل مستقرة مكانيًّا إلى حد كبير فى اليمن ، فقد ارتبطت بالأرض وتعمل أساسًا بالزراعة ، وفى العادة تسكن القبيلة الواحدة عدة قرى متجاورة . وهذا لا ينفى وجود حياة رعوية ، وإن كان ذلك فى نطاق ضيق فى مناطق متفرقة ، وخاصة فى داخل تهامة ، كما لا ينفى وجود ترحال محلى كما هو الأمر بالنسبة لقبائل الجوف فى الشرق الذين ينقلون التجارة بين عدن والداخل - إلى جانب القليل من الزراعة والرعى - على ظهور الإبل . وترجع أهمية النظام القبلى فى اليمن إلى أنه يعنى بالتالى إلى وجود نظم اجتماعية وظواهر نفسية معينة دائمًا ما ترتبط به وبوجوده أشد الارتباط . فالمجتمع القبلى يقوم على نوع من العلاقات والروابط الاجتماعية ، التى تدور حول « وحدة الدم » أو « العصبية » التى تفرض بعض الحقوق والالتزامات المتبادلة ، وتعين أنواعًا معينة من السلوك.

« إذ يدخل أفراد المجتمع القبلى فى صلب ضمائرهم الشعور بالمسئولية والوازع الخلقى بأن يستنكفوا عن القيام بكل عمل يخالف مصالح العصبية »[١]. وهذه الخصائص تعنى أن القبيلة تميل إلى الانغلاق حول نفسها ، وتحاول الاكتفاء الذاتى ، وتنفر من الغريب بوجه عام ، ويقوى ترابطها فيما بينها فى نفس الوقت .

وإلى جانب هذا كله فالحياة القبلية تتميز بأمرين : أولهما أن القبيلة تتمسك باستقلالها الذاتى وتتعصب له أشد التعصب ، فلا تحب أى تدخل خارجى مهما كان نوعه أو مصدره . وثانيهما أن القبليين متعصبون جدًّا لقضاياهم الخاصة ، ولا يبعدون فى تفكيرهم عن نطاق حياتهم اليومية الرتيبة . وهم إلى جانب انغماسهم فى حياة حضارية خاصة يخلقونها لأنفسهم - وهى غالبًا تستمد جذورها من القديم ، ولا تقبل التأثيرات الخارجية بسهولة - فإنهم دائمًا يتعلقون بشىء يتعصبون له ويلتفون حوله ، مثل قضية معينة ، أو مصلحة خاصة ، أو عقيدة بذاتها . ومن البديهى أن نتوقع أن أفراد القبيلة - تحت ضغط الحياة التقليدية الخاصة والمصير الواحد - لا يتحركون أو يتخذون موقفًا معينًا ، إلا بصورة جماعية وكأنهم كتلة واحدة .

أما ظاهرة الاختلاف بين أهل السهول وأهل الجبال فى اليمن ، فهو أمر محقق هناك . ويرجع هذا الاختلاف إلى الظروف الجغرافية التى تختلف من مكان إلى آخر . ففى تهامة - حيث تبلغ الحرارة السنوية حوالى ٨٥° ف ويقل الماء وتنتشر التربة الحجرية - لا توجد إلا مجموعات سكانية صغيرة متناثرة . وهم من البدو بوجه عام ، ويشتغلون بقليل من الرعى والصيد والزراعة . ووجود الموانى المختلفة مثل « المخا » و « اللحية » و « الحديدة » و « غليفقة » يعطى تهامة أهمية كبيرة[٢] بالرغم من فقر أجزائها النسبى .

---

(١) الأمانة العامة لجامعة الدول العربية : حلقة الدراسات الاجتماعية ، الدورة الخامسة ١٦-٢٥ مايو ١٩٥٦ ص ١٦٠-١٦١.

(٢) Hogarth ; The Nearer East p. 154, p. 167.

والأهالى هنا دائمًا يكونون شبه عراة ، وسمر الوجوه ، وذلك لحر بلادهم ولاختلاط دمائهم بالدم الصومالى والحبشى منذ أقدم العصور ، كما أنهم يسكنون بيوتًا من العشش . وفى الداخل من تهامة تتعدد بعض القبائل ذات الشكيمة القوية مثل « الصبيحة » و « الزرانيق » و « القحرى » و « بنى صليل » وغيرهم[1] . أما أهالى الهضبة فهم يختلفون عن أهالى تهامة فى كثير من النواحى ، فنجدهم أقل نحافة ، وأكثر حركة وأشد حيوية ، أذكياء ، من العرب الخلص . وقد فضلهم « سانجر » لا عن باقى أهل اليمن فحسب ، بل عن باقى أهل الجزيرة العربية أيضًا لهذه الصفات الخاصة[2] . وهم يشتغلون بالزراعة أساسًا ، وتتصل قراهم بعضها ببعض ، وبيوتهم مبنية من الحجر وتتكون من طابقين أو ثلاثة ولا يوجد فيها أكواخ مثل تهامة . ويلاحظ أنهم - فوق الجبال العالية - يلبسون جلود الغنم فى الشتاء لشدة البرد . وأهل الهضبة أيضًا أكثر نقاوة من حيث اللغة واللهجة من أهل تهامة ، ويتضح هذا كلما صعدنا مع الجبال[3] . ويرجع هذا بطبيعة الحال إلى اختلاط أهل تهامة بعناصر أجنبية ، بعكس أهالى الهضبة الذين يحتفظون بعزلتهم التقليدية ، إلى جانب اقتصار تراثهم الثقافى على القرآن والأدب العربى القديم . وكلما صعدنا مع الجبال أيضًا نجد أن الجبليين أحد مزاجاً ، وأكثر حركة ، وأشد تعصباً لمبادئهم ، مهما كانت هذه المبادئ ، كما أنهم لا يصبرون على الخضوع لسادة لا يبذلون لهم العطاء ، أو يهملون مصالحهم[4] . وأهالى الجبال - إلى جانب صفاتهم الخاصة - يكونون فى الغالب أصحاب مذهب معين ، يخالف فى العادة مذهب أهل السهل ،

---

(١) المقتطف : مجلد ٩٠ جزء ٣ صفحة ٣١٨ .

(٢) Sanger ; The Arabian Peninsnla, p. 136

(٣) Jacob; Kings of Arabia Mills & Boon , London, 1923, p. 101.

(٤) Hogarth ; The Nearer East, p8 267

إذ إن المذاهب الاجتماعية أو السياسية أو الدينية تلجأ دائمًا إلى التحصن فوق الجبال . وهذه الحقيقة تكرر نفسها فى باقى بقاع العالم العربى ، فيوجد «العلويون» فوق جبل العلويين ، ويوجد «الدروز» فوق جبل الدروز ، ويوجد «الموارنة» فوق جبل لبنان . وعلى هذا الأساس يمكن تفسير أن أهل الجبال الشمالية العالية فى اليمن يعتنقون المذهب الزيدى . ويرجع «جيكوب» وجود الاختلاف المذهبى القائم فى اليمن إلى الاختلافات الطبيعية ، تلك الاختلافات التى تظهر عند سكان كل قطر تنقسم تضاريسه بين سهول وجبال ، والتى تختفى دائمًا وراء واجهات مذهبية أو حزبية أو غيرها . فيقول : «والأسس الجغرافية - لا الاختلافات المذهبية - هى سبب الاختلاف بين هاتين المدرستين المتنافستين ، إذ إن الفرق الدينية المختلفة تختلط فى المسجد الواحد»[١] .

وأهل اليمن عمومًا من المسلمين إلا أنهم ينقسمون أساسًا إلى شيعة - وهم أتباع المذهب الزيدى - وإلى سنة وهم يتبعون المذهب الشافعى[٢] ويقطن الشافعيون السهول والهضبة الجنوبية والوسطى ، ويبلغ تعدادهم ثلثى سكان اليمن . أما الزيديون فيتجمعون أساسًا فوق الجبال ، وخاصة فى شمال الهضبة وهم حوالى ثلث السكان ، ويقبضون على زمام الحكم فى أغلب الأحيان منذ ظهور المذهب الزيدى فى اليمن . وإلى جانب هؤلاء يوجد قليل من الإسماعيلية فى جهات «حراز» ويسمونهم هناك «مكارمة» وهم لا يتبعون الإسماعيلية أتباع «أغاخان» وكان يوجد كذلك أقلية يهودية تسكن أحياء خاصة بهم ، لكنها هاجرت إلى فلسطين المحتلة ، وكان بيدهم معظم صناعات اليمن ، ويؤثرون فى الحركة الاقتصادية[٣] .

---

(١) jacob, Kings of Arabia, p, 110.

(٢) تستميل بعض المراجع العربية لفظى «الشوافع» و «الزيود» مقابل «الشافعيون» و«الزيديون».

(٣) المقتطف : مجلد ٩١ ج ٤ ، ص ٤٦٢ ، (عدد أول نوفمبر ١٩٣٧) .

أما الطبقات فى اليمن فيمكن أن نقول إنها ما زالت تحمل التقسيمات التى كانت عليها فى العصور التاريخية الماضية . وهى مقسمة إلى « السادة والفقهاء ، والقضاة والنقباء والمشايخ والعقال ، وهؤلاء هم علية القوم ، ويلى هؤلاء العوام وأرباب الحرف »[(١)] . وهذه التقسيمات فى الحقيقة لا تقوم على أساس اقتصادى بالمعنى الحديث ، بل هى طبقات اجتماعية تنقسم كل طبقة - داخليًّا - إلى عدة مستويات اقتصادية . فيوجد داخل طبقة السادة مثلا الغنى والفقير على الرغم من أن طبقة السادة نفسها كانت هى أعلى طبقة فى اليمن .

والمجتمع اليمنى - على كل حال - مجتمع يقوم على الأساس الطبقى ، أى طبقات مختلفة الواحدة فيها عن الأخرى فى كل الميادين الاقتصادية والاجتماعية والدينية . وتتألف الطبقة العليا من السادة المعروفين بأنهم من سلالة النبى ، أما المزارعون وأصحاب الحرف والقبائل البدوية فإن كل فئة منهم تشكل طبقة خاصة مقفلة لها وظيفتها الخاصة[(٢)] .

وإلى جانب أن الطبقات اليمنية استمدت وجودها وتشكيلها من الأسس التاريخية القديمة ، فإنها ما زالت تلعب دورها فى تاريخ اليمن الحديث . فهذه الطبقات ما زالت شبه مغلقة ، تحتفظ كل منها بكيانها الخاص ، وتحاول فى نفس الوقت الاحتفاظ بدورها المستمد من تقاليد وعقائد ذات أصل قديم . ونحب أن نتعرض لطبقة السادة - وهى الطبقة العليا ذات السيادة - لندرك أهمية الوضع الطبقى ، ومدى ما يلعبه هناك من أدوار سياسية اجتماعية فى تاريخ اليمن . وتطلق كلمة السيد فى اليمن على المنتسبين لآل الرسول فقط . والسادة هناك كثيرون وأسرهم معروفة وأنسابهم محفوظة . و « السادة » أسمى طبقات اليمن وأوفرها احترامًا واعتزازاً ، وهم القابضون على عنان العقائد والميول ، والمسيرون للآراء والنزعات ، وإذا صادف اليمانى - رفيعًا كان أم وضيعًا -

---

(١) المقتطف : مجلد ٩١ ج ٤ ، ص ٤٦٢-٤٦٣ (عدد أول نوفمبر ١٩٣٧) .

(٢) Jean-Jacques berreby ; La Peninsule Arabiaue, p. 124 .

واحـداً من هؤلاء السـادة وإن صغر سنـه ورق حـاله يهوى على ركبتيـه ويديـه بالتقبيل : وكل الإمارات والعمالات الرفيعة والمقامات والوظائف الدارة فى اليمن هى للسادة بادئ ذى بـدء مهما قلت معرفتهم وكفاءتهم . وكل صـدقات الفطر، والهدايا ، والنـذور الدينيـة فى الأعياد والمواسم ، وغيرهـا من الأوقاف ، تجبى لهم مهما كثـر مـالهم وسعـد حـالهم . والقاعـدة عنـد السـادة أن يصـاهـر بعضهم بعضًا»[1] . ويحتاج هذا القول بعض التصحيح ، فمن نـاحية - نجد أن السادة فى اليمن ، يقـابلـون الأشراف فى مصر ، الـذين يتمتعـون بـاحترام العـامـة وتقديسهم. ومن ناحية ثانية - نجد أن الإمام يحيى استغل هذا الوضع الخاص ، فقرب إليـه بعض أفراد تلك الطبقـة ، ورفع من شأنهم اعتماداً على نسبهم فقط ، مما أوجد فى النهاية مشكلـة الخلاف الشديد بين الهاشميين والقحطانيين - وهـم أهل اليمن الأصليين .

من العـرض الجغـرافى الاجتماعى السـابـق يتضح أن اليمن غنى بثـرواتـه الطبيعية - النباتية والمعدنية - وأن هـذه الثروات لم تستغل بعد الاستغلال اللازم للارتفاع بمستوى سكـانه . وقد جذب أنظار اليونان القـدماء وفرة مياه اليمن ، والاخضرار الدائم الذى يكسـو جهاته المختلفة - بعكس انتشـار اللون الأصفر الـذى يكسو بـاقى جهـات الجزيرة العـربية - ولـذلك فقـد أطلقوا عليـه اسم «العربية السعيدة » أو Arabia Felix كما أن اليمن غنى بإمكانيـاته البشرية ، ولا يشوب هذا القول أن شعبه مقسم بين مـذهبين كبيرين ، أو أنه يضم بين جوانبه سهليين وجبليين ، فهـذه الاختـلافـات تـوجـد فى معظم دول العـالم . وهـذه الاختلافات ذاتها تغنى تلك الدول بتنوع العناصر والاهتمامات ، وتصبح عوامل إيجابية فى رفع شأن الدول ، إذا لم يستغل الحكام والسـاسة هذه الأوضاع لتحقيق مصالح خاصة ، أو للوصول إلى أغراض معينة ، ولم يوسعوا الثغرات بين عناصر شعوبهم . وحديثًا قال المؤرخ الإنجليزى « برى » « فالقول بأن اليمن لا يستطيع

(١) المقتطف : مجلد ٩١ ج ٤ ، ص ٤٦٢-٤٦٣ (عدد أول نوفمبر ١٩٣٨) .

إطعام شعبه قول غير صحيح ، ولا يرجع إلى العوامل الطبيعية أو إلى خمول أهله الـذاتى ، ولكنـه يـرجع إلى اضطـراب الأمن ، والظـروف المعقـدة التى تعتبر السلطات مسئولة عنها »[١] .

المذهب الزيدى :

أشرنـا فيما سبق إلى المذهب الـزيـدى لماما ، ولكنـا نحب هنـا أن نبحث أصـول هـذا المذهب وتـاريخه فى اليمن، لما له مـن أثر كبير فى مجريـات الأمـور هناك.

لقد سـاعد هذا المذهب على خلق وحـدة بشرية مترابطـة فى تاريخ اليمن منذ ظهـور المذاهب هنـاك ، فقـد قـامـت بعض الـدول القـويـة على أسـاسـه واستطاعت أن تمد نفـوذها على مناطق واسعـة فى جنوب الجزيرة العـربية ، وأن تنشر العدل والسـلام هناك . وظهـرت أهمية المذهب فى فترة الاحتـلال العثمانى الأول والثـانى ، إذ كـان هـو التنظيم السيـاسى الـوحيـد ، الـذى اصطـدم بـه العثمانيون فى اليمن . ويمكن اعتباره العصبية التـى قال عنها « ابن خلدون » فى مقـدمته المشهـورة إنها ضروريـة لقيام الـدول وربط بين قوة الـدولـة وقوة هـذه العصبية . ولكن يجب - القول إن العصبية الزيـدية لم تكن دائماً عاملا إيجابيًّا فى قيام تنظيم سياسى فى اليمن فحسب - بل كانت أيضًـا عاملا سلبيًّا ، إذ كانت أحيانًا عـامل هدم واضطراب ، وهذا مـا دفع هانز هلفرتـز إلى القول : «إن أهم أسبـاب اضطـرابـات اليمن أيـام الحكـم العثمانى ، هـو تعلق اليمنيين بفكـرة الإمامة، فالمذهب يبيح بطبيعته فرصة التنازع بين أبناء بيت « على » على الإمامة، فيظهر العديد من الأدعياء ، وتزيـد الفوضى والاضطراب طالما كـانت السلطة العليا ضعيفة »[٢].

---

(١) Bury : Arabia Infelix, or THe Turks in The Yemen , Macmillan & Co, London , 1915, p. 117.

اختصرنا كثيرًا فى هـذا الجزء عند نشر الـرسالة ، ويمكن الـرجوع - لـزيادة الفهم وإكمال بعض النقص - إلى رسالة ماجستير الزميل اليمنى السيد / محمد أنعم غالب التى نشرت قريباً بعد ترجمتها تحت عنوان « نظام الحكم والتخلف الاقتصادى فى اليمن » .

(٢) Hans Helfritz ; The Yemen, A Secret Journey, Allen & Unwin, London, 1958, p. 129.

ولكى نتحدث عن « الـزيدية » ودورها الكبير بشىء من الـدقة والعمق ، يجب أولا أن نعرض لمبادئها وأصولها . هى إحدى فرق الشيعة ، وتنسب لزيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وتتفق مع بـاقى الفرق الشيعية فى بعض الأمـور وتختلف فى البعض الآخر . حقيقـة لقـد حصر أتباعهـا الإمامـة فى أولاد فـاطمة ، لكنهم لم يقصروهـا على فرع معين بل أجـازوا لكل فـاطمى عالم زاهـد شجاع ، سخى ، خـرج بالإمامة ، أن يكون إمـامًا واجب الطاعة سـواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين . أى إنهم يرفضـون فكرة أن لا إمام بعـد الإمام الثانى عشر [١] .

كما أجـازوا . خـروج إمـامين ، فى قطـرين ، يستجمعـان هـذه الخصـال ، ويكون كل واحـد منهما واجب الطاعـة » بل أجازوا أمـراً هامًّـا جدًّا ، وهـو أن الإمـام ليس مـن الضرورى أن يكـون أفضل الموجـوديـن ، بل يجوز أن « يكـون المفضـول إمامًـا ، والأفضل قائمًا ، فيرجع إليـه فى الأحكام ، ويحكم بحكمـة فى القضايـا » : والزيـدية ثـلاث فرق تقـريبًا وهى : « الجاروديـة » و « السليمانية » و« البترية » ولا داعـى للدخـول فى تفصيلات كثيرة عن هـذه الفرق ، أو نـذكر الاختـلافات الطفيفـة بينهـا . ولكن يمكن مثـلا أن نعـرض لرأى السليمانيـة فى الإمـامة ، فهـو يوضح المفهـوم السياسى عنـدهم . فهم يقولـون : « إن الإمامـة شورى فيما بين الخلق ، ويصح أن تنعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين ، وإنها تصح فى المفضـول مع وجود الأفضل » . لـذلك فهم من وجهـة النظر الشيعيـة البحتة يعتبرون خارجين أو متحررين ، فهم مثلا « أثبتـوا إمامة أبى بكر وعمر » وأن الأمـة اختـارتهما ، وهـذا حق اجتهـادى ، وقـد تكـون الأمـة أخطأت فى اجتهـادها، ولكن لا يبلغ هـذا الخطأ درجـة الفسق . ويقـولون كـذلك « وحتى يكون للمسلمين جماعـة ولا يكون الأمر فـوضى بين العامة فـلا يشترط أن يكون

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، مطبعة كلبرت ، لندن سنة ١٩٠٩هـ (١٨٩١م) ص ١٣٥ - ١٣٦ .

الإمام أفضل الأئمة علماً وأقدمهم رأيًا وحكمـة ، إذ الحاجة تنسد بقيام المفضول مع وجود الفاضل والأفضل »[١] وهذا يعتبر تقاربًا شديداً بينهم وبين السنة .

وهذه هـى أهم ملامح « الـزيدية » بـوجه عـام ويمكن أن نستخلص من ذلك حقيقتين هامتين هما :

أولا : أن شروط الإمـامـة عنـدهم هى أربعـة عشر وهى أن يكـون الإمـام مكلفًا، ذكـراً ، حرًا ، مجتهـداً ، علويًـا ، فاطميًـا ، عدلا ، سخيًـا ، ورعًا ، سليم العقل ، سليم الحواس، سليم الأطراف، صاحب رأى وتدبير، مقدامًا فارسًا[٢] .

ثانيًا : أن الزيدية أكثر الفرق الشيعية تحرراً ، وأقربها إلى السنة دون جدال . ويلاحـظ أننا لا نرى أن للـزيديين سـلالة متصلـة بل هى متقطعة وإن كـانت محدودة فى بيت معين . فهم بحق يـؤمنـون بها نستطيع أن نسميـه « الانتخـاب الطبيعى » للحاكم وإن كانوا يحصرونه داخل نطاق محدود .

ولكن هـذه المبـادئ نفسهـا تسمح بـوجـود ثغـرة فى بنـائهم السيـاسى وأصبحت موضـع تأويلات وتفسيرات كثيرة لخدمـة أطماع شخصية . فقـد كان القصد من الشرط الأخير لـلإمامـة - مقدامًا فـارسًا - هو إتـاحة الفـرصة دائمًا للأصلح من بين هؤلاء الأفراد أن يتولى إمـامة الزيديين ، ولكن هذا الشرط نفسه كان عـونًا لبعض الطامعين منهم فى الخروج على الإمـام القائم بالأمر . وهـذا ما جعل أمين الـريحانـى يقـول - من غير فهم لحقيقـة المذهـب - « فهم يجعلـون الإمامة غنيمة لمن يأخذها بالسيف »[٣] . وقد أدى هذا المبدأ بدون شك إلى قيام كثير من الفتن والاضطرابـات منذ دخول المذهـب الزيدى إلى اليمن . وهـذا ما دفع هانـز إلى قوله الـذى سبق أن أشرنـا إليه ، إذ كلما تضعف السلطـة العليـا

---

(١) الشهر ستانى : الملل والنحل ، القاهرة (الطبعة الأولى سنة ١٣١٧هـ ١٨٩٩م) جزء ١ ، ص ١٠٧ - ٢١٦ .

(٢) أمين الـريحانى : ملـوك العـرب ، مطبعـة دار الـريحانى ، بيروت ، ١٩٥١ ، الجزء الأول ، هامش صفحة ١٤١ .

(٣) نفس المرجع ص ١٤٠ .

تتعدد الإمامات وتنقسم الدولة على نفسها ، وسنعرض لهذه المبادئ وآثارها العملية ، عند ترجمة حياة الإمام فى الفصول القادمة .

أما أصل هذه الفرقة فترجع كما قلنا إلى زيد بن على ومن أحفاده القاسم الرسى بن إبراهيم طباطبا ، الذى فر إلى السند ومات هناك سنة ٢٤٥هـ (سنة ١٨٥٩م) فذهب ابنه الحسن إلى اليمن ومن نسله الأئمة الزيديون الذين دعوا لأنفسهم « بصعدة » شمال اليمن ، وأقاموا للزيدية دولة استمرت حتى الآن . وأول من خرج منهم داعيًا لنفسه بصعدة ، يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى ، وتسمى بالهادى وبويع بها سنة ٢٨٨هـ (سنة ٩٠٠م)[١] .

وهكذا بدأت الدعوة الزيدية باليمن فى القرن الثالث الهجرى (العاشر الميلادى) . واختار أئمة المذهب الزيدى اليمن بالذات هربًا من الاضطهاد السياسى ، فأصبح المعقل الحصين لهم ، وذلك لطبيعته الجبلية من ناحية ، ولبعده عن العاصمة الإسلامية (فى بغداد) من ناحية ثانية .

الأتراك العثمانيون فى اليمن قبل الإمام يحيى :

بدأت علاقة الإمبراطورية العثمانية باليمن بعد فتح مصر عام ١٥١٦ ، وذلك عندما وجه العثمانيون أنظارهم نحو الشرق الأوسط والبلاد العربية بالذات ويرجع سبب زحفهم إلى الجنوب بعد أن استقروا فى مصر إلى أنهم ورثوا تركة المماليك ومشكلاتهم ، التى كان منها تحول الطريق التجارى إلى رأس الرجاء الصالح بعيداً عن مصر ، ومحاولة إعادته إليها . ولذلك جهز العثمانيون أسطولا حربيًا فى السويس للزحف به إلى سواحل شبه الجزيرة العربية الجنوبية لمحاربة البرتغاليين ، وإعادة الطريق التجارى إلى مصر . وقد وصل الأسطول العثمانى إلى عدن فى سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨م) وبعد فشل مهمته ضد البرتغاليين

---

(١) عمارة اليمنى : تاريخ اليمن ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

فى الهند ، ركـز قائد تلـك الحملة مجهوداتـه للاستيـلاء على اليمن فدخـل ميناء «المخـا» ثم انتقل منه إلى مينـاء « الصليف » ثم استولى على مـدينة « زبيـد » فى الداخل وأعـدم حاكمها ، وبـذلك تم الاستيلاء على اليمن ، وولى أحد أتبـاعه حاكما وأصبح بذلـك ولاية عثمانية(١) ولم يستقـر الأمـر للعثمانيين فى اليمن إلا حـوالى قرن واحـد . وكان حكمهم فى تلـك الفترة غير مستقر ، فقـد اصطدمـوا بالأئمـة عندمـا بدأوا فى التوسع فى أنحـاء اليمن المختلفة ، واستمـر النزاع بين الطرفين حتى تم إخراج العثمانيين من اليمن عـام ١٠٤٥هـ (١٦٣٥م) عندما سلموا « زبيد » إلى الإمـام المؤيد(٢) «وهو الإمـام المؤيد محمد بن القـاسم الذى بويع بـالإمامة فى عـام ١٠٢٩هـ ، الـذى كان قد أخضع جميع الجهـات اليمنية لسيادتـه ، فتمت لـه السيطرة على الجنوب العـربى من عـدن جنوبًـا إلى صعدة شمالا وذلك عندما استولى على زبيد وخلفه أخوه أحمد عام ١٠٥٢هـ (١٥٤٢م) الذى تنازل عن الإمامة لأخيه إسماعيل عام ١٠٥٤ (١٥٤٤م) بعد وقوع صدام بينهما وبعد أن استقر الأمر للإمام المتـوكل إسماعيل ، استولت جيوشه على يافع وحضرموت ولحج وعدن ، وشمل سلطانـه كثيراً من تهامة ويعتبر عهده من أزهر عهود الإمامة الزيدية فى اليمن »(٣) .

استمر اليمن بعد ذلك لمدة قرنين يتمتع باستقلاله تحت حكم أئمة صغار، والمشـايخ والرؤسـاء المحليين . ودعم الاستقلال النشـاط التجارى المستمـر مع البلاد الأجنبية فانتعشت الأحوال هنـاك . ولم تستمر وحدة المنطقة واستقلالها أو انتعـاش تجارتها وازدهـار الحيـاة بها ، فقـد كـان ذلك يتـوقف على شخصيـة

---

(١) محمـد بن أحمد عيسى العقيلى : من تـاريـخ المخـلاف السليمانى ، مطـابع الـريـاض ، ١٩٥٨، القسم الثانى من الجزء الأول ، ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢) نفس المرجع : ص ٣١٥ - ٣١٦ .

(٣) نفس المرجع : ص ٣٨١ - ٣٨٣ .

الإمام فى العاصمة ، وعلى قدرته على فرض سيطرته على المناطق المختلفة[١] .

فقد أدت التناقضات الداخلية الخاصة باليمن مثل الطبيعة الجبلية ، والعناصر القبلية ، وتنافس المشايخ والأئمة ، واستمرار الحروب والمنازعات إلى ضعف الأئمة الزيديين ، واستقلال القبائل والمشيخات عن أئمة صنعاء .

فثار فى القرن الثامن عشر شريف أبى عريش بتهامة (مقاطعة جازان حاليًا) واستقل عن اليمن ، ثم ثار الحاكم فى لحج فى سنة ١٧٣٢ فاستولى على عدن وأعلن استقلالها[٢] واستمرت هذه الظاهرة تتكرر مما ساعد فى النهاية على دخول قوات محمد على باشا والى مصر إلى اليمن ، بعد انتصار ابنه إبراهيم باشا على الوهابيين فى نجد والحجاز . وقد استقر الحكم المصرى فى تهامة وامتد إلى تعز ، ولكن السياسة الاستعمارية الإنجليزية كانت له بالمرصاد ، فعملت انجلترا على إثارة القلاقل أمام المصريين هناك ، وتمكنت مع القوى الأخرى من إخراج قوات محمد على من البلاد العربية فى عام ١٨٤٠ .

وقد استعاد الأئمة سلطتهم الاسمية تحت سيادة السلطان - فى خلال الفترة من ١٨١٨ إلى ١٨٤٠ - الذى أبقى الحاميات المصرية فى الموانئ الهامة (مثل المخا والحديدة) . ولم يكن للعثمانيين قوة كافية تمكنهم من فرض سيطرتهم على المناطق التى أخلاها المصريون فى البلاد العربية عامة ، ولكنهم تشجعوا أخيراً سنة ١٨٤٩ فأنزلوا قوة حربية فى الحديدة لاسترجاع اليمن . ونجحت الحملة واستطاعت السيطرة على مدن الساحل ، بل وزحفت إلى صنعاء حيث نجحت فى إقصاء الإمام وتعيين آخر[٣] . إلا أن وجودهم فى صنعاء لم يستمر ، وعادوا إلى الحديدة حتى افتتحت قناة السويس سنة ١٨٦٩م .

---

(١) اهتم كل من العقيلى والواسعى فى كتابيهما بذكر أسماء الأئمة وتتبع أخبار كل منهم - منذ ظهور الزيدية فى اليمن حتى الإمام يحيى - ويمكن الرجوع إليهما .

(٢) Hogarth, D. G. 0 Arabia, Clarendon Pr., Oxford , 1922, p.99.

(٣) Ibid, p. 111

شجع فتح قناة السويس العثمانيين على إعادة النظر فى نفوذهم فى الجزيرة العربية ، فأرسل الباب العالى قوات عثمانية تحت قيادة رءوف باشا ليحسم أمر اليمن - فنزل فى الحديدة ، واستطاع أن يصد هجومًا شنه عليه أمير عسير الذى حاول طرد الأتراك من الحديدة . وقد مرض رءوف باشا بعد ذلك ، فنجح خلفه مختار باشا فى دخول صنعاء سنة ١٨٧٢ ، وكان أهم عوامل نجاحه فى صنعاء - إلى جانب قوته المادية - رغبة أهل اليمن فى السلام وسأمهم من حكامهم العاجزين المتنازعين[١] .

فقد كانت الإمامة الزيدية - تلك القوة التى كانت تخط مصير اليمن السياسى - تجتاز محنة شديدة عند عودة الأتراك لضعف الأئمة وحروبهم المستمرة ضد بعضهم البعض ، حتى إن مدينة صنعاء نفسها انقسمت إلى شيع وأحزاب ، أخذت تقاتل بعضها بعضًا بعنف وفى غير هوادة . وكثيراً ما كان بعض الأئمة يستنجد برجال القبائل الذين عاثوا فى الأرض فساداً ، وكان البعض يتنازل عن السلطة وعن الإمامة . وحدث أن انتخب للإمامة بعض المحتالين والمشعوذين فى بعض الأقاليم بعيدا عن الإمامة المركزية[٢] . لهذا فليس غريبًا أن نعرف أن الاحتلال العثمانى الثانى ، ودخول صنعاء سنة ١٨٧٢ صاحب تنازع اثنين من أئمتها ، وأن أهلها كانوا قد سئموا طول المنازعات ، وأن الترك دخلوا اليمن فى وقت كان يحتاج فيه إلى حكم قوى يقر الأمور وينشر الهدوء[٣] .

وبالرغم من الحقيقة السابقة ، فقد وجد العثمانيون صعوبات جمة فى الاستيلاء على سائر جهات اليمن . وقامت ضدهم الثورات المتفرقة العديدة تحت زعامة بعض الأئمة . فقد تقدم مختار باشا الذى خلف رءوف باشا عند

---

(١) Bury ; Aralbia Infeli, P.P. 14-15 .

(٢) سلفانور أبو نتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٤٧ ص ٥٣٠ .

(٣) Bury ; Arabia Infelix, P8 204 .

مرضـه عن طريق « بـاجل » و «عشارة » إلى صنعاء سنـة ١٨٧١ ، واستولى على «عمران » و « كوكبان » و « شبام » ، واحتل فى الجنوب جبل « ريمة » و « تعز » وافتتح طريقًا من الحديدة إلى صنعـاء ، وأسس بريداً إلى « صعدة » و « شهارة » فى الشمال . ولكن بالـرغم من هذا النجاح ، استمـر قيام الثورات ، فقـد حارب حافظ إسماعيل حقى باشا خليفة مصطفى عاصم باشا فى « همدان » و«حاشد» و « اللحية » ولكنـه لم يكن ينجح دائمًا . وفى مـارس سنة ١٨٨٢ نجح بـواسطة محمد عزت بـاشا - الذى نجحت دبلوماسيتـه - على « داعى » قبيلة «يام» كما طارد الإمام شرف الذين الذى كان قد تقدم إلى « عمران » ولكن الوالى تمكن من الحصول على الاعتراف بـالسيادة التركيـة فى « حبور » و « شهـارة » و «صعدة » وامتد الحكم التركى جنوبًا حتى باب المندب . ولم يعن هذا استتباب الأمر لهم ، فقامت ثـورة سنة ـ١٨٩٢م ، وهى أول حلقة فى سلسلة الثـورات العنيفة التى لم تنته إلا سنة ١٩١١ عندما عقـد صلح « دعان » إذ ثارت الحرب ثانية فى الشمال فى ١٨٩٥ - ١٨٩٦ . واستمـرت الاضطـرابـات فى السنتين التـاليتين ، كما أدى الاضطراب فى البحـر الأحمر إلى قيام الطـرادات الإيطالية بعـدة مظاهـرات أمام «الحديدة » سنة ١٩٠٢[١] .

عهد الإمام المنصور :

ويمكن أن نشير بإيجاز إلى حياة الإمـام المنصور والـد الإمام يحيى ، كمثل لتوضيح أحوال اليمن فى هذه الفترة .

يقول العـرشى عند ترجمتـه لحياة الإمام المنصور « ولما تـوفى الإمام الهادى ، خرج من صنعاء المنصور بالله محمد بن يحيى بن محمد بن إسماعيل ، وهو المنظور إليه فى ذلك الـوقت فى الأعيان ، والمشار إليه بـالبنان ، وكان أحد أعـوان الإمام المتـوكل ومن أهل العقد والحل ، مع العلم والفطـانـة والفضل والديـانة ، دعـا بصعدةفى ذى القعدة سنة ١٣٠٧هـ (سنة ١٨٩٠م) ولبت دعوته القبائل وتفرسوا

---

(١) THE ENCYELOPEDIA OF ISGAM; VOL, 4, FART 2, P. 1157.

فى دعوتـه الفرج عما قد حـل بهم من ولاة العجم من العوج »(١) . وهو فى ترجمته الموجزة هذه يشير إلى نقطتين هامتين :

أولا : يصف الإمـام ببعض الصفـات المعينـة ، وإننا نـرى أنها الصفـات المطلـوبة فى الإمـام ، وهـذا يدل على طبيعـة ذلك العصر ، وفكـرة الشعب عن الحاكم الأمثل فى نظره .

ثـانيًـا : أنـه يعبر عن أزمـة اليمن فى تلك الفترة ، ورغبتهـا فى الخلاص والاستقـرار وذلك بقولـه : « وتفرسـوا فى دعوتـه الفرج عما قـد حل بهم من ولاة العجم(٢) من العوج » ويؤيد هذا ما قالـه الجرافى عنه « وكان فارسًا شجاعًا قاد الجيوش إلى « الحيمـة » لإخراج « المكـارمة » منهـا ، وحبس فى الحديـدة فى أيام الـوالى مصطفى عـاصم بـاشـا مع من حبـس من العلماء لانتمائهم إلى الإمـام المتوكل، وكـان مهيب الجانب ، محبوبًـا حازمًا ، وقـد بويع بـالإمامة بعـد الإمام شرف الديـن بالإجماع ، لأن العلماء لم يجدوا من يصلح لـلإمامـة غيره .. وكان فى صنعاء فخـرج منها ، لأنهم ذكـروا له أن أمـر بيعته قـد اشتهر ويخشى عليـه من الأتراك وتبعه ولده » (الإمام يحيى)(٣) .

وقد ذهب الإمام المنصور إلى صعدة ، فاجتمع به العلماء والأعيان وبايعوه، وتلقب بـالمنصور بالله ، ثـم وضع يده على مـا كان قـد جمعه الإمام شرف الـدين لبيت المال استعـداداً لبـدء الحرب مع العثمانيين . وانتقل إلى جبـل الأهنـوم فى شهر المحرم سنة ١٣٠٧هـ (سنة ١٨٩٠م) ومنه أخذ يرسل رجـاله وأتباعه إلى جميع الجهات لبث الدعوة له ، ودعا القبـائل لحرب الأتراك فأجابوه إلى ما طلب «وقد وقع خروجـه من صنعاء وقع الصاعقة على رجال الـدولة ، وذلك لما له من المحبة والنفوذ بين رجال القبائل الـذين يخشون بأسهم ، وكانت قبائل اليمن قد سئمت ضغـط الأتــراك لــذلك سرعــان مــا التفت حــول الإمــام ،

---

(١) حسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسك الختام ، ص ٧٩-٨٠ .

(٢) يقصد العثمانيين .

(٣) عبد الله عبد الكريم الجرافى اليمنى : المقتطف من تاريخ اليمن ، مطبعة الحلبى . القاهرة ١٩٥١ ص ٢٠٧-٢٠٩ .

مما أدى إلى اتجاه القبائل إلى محاصرة صنعاء سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩١)[1] » وقد اشتد الحصار وفشلت القوات التركية أول الأمر فى فكه ، فقد استمر محكمًا لعدة أشهر ، ثم خف الحصار بعد حرب قاسية ، كما سلمت بعض الحاميات التركية الأقل أهمية حتى تمكن أحمد فيضى باشا من استعادة صنعاء بعد معركة شاقة عنيفة تكلفت الكثير[2] .

وتوضح الصورة السابقة مدى توتر العلاقات بين الحاكم والرعية فى اليمن فى هذه الفترة ، وتحفز كل منهما للآخر ، بل إن حصار صنعاء يعبر عن شدة الفوضى التى سادت اليمن حتى استطاعت القبائل الوصول إلى العاصمة نفسها .

فقد انتشرت الحروب ، وسقطت هيبة الحكومة ، واحتل رجال القبائل الكثير من دور الحكومة ، وقبضوا على كثير من المديرين وكبار الموظفين وأرسلوهم أسرى إلى الإمام ، إلا أن أحمد فيضى باشا قد تغلب على هذا الاضطراب ودخل صنعاء سنة ١٣١٠هـ (١٨٩٢م) ، واستمر الإمام المنصور فى «الأهنوم ». وقد وصل فى هذه السنة أحد رجال الدولة العثمانية وهو نامق «بك » لاستطلاع حقيقة الأحوال فى اليمن ، وتقدم إليه كثير من الناس بالشكاوى العديدة ، مما أدى إلى زيادة ضغط فيضى باشا على اليمنيين بعد عودة نامق بك إلى الآستانة . ومن الجدير بالانتباه أن نشير إلى أنه قد جرت عدة مكاتبات بين الإمام المنصور وأحمد فيضى باشا حيث دافع الإمام عن مقدرة اليمن على حكم نفسه ، وأظهر استياء اليمنيين من أعمال موظفى الدولة ، ومقابلتهم الشعب بالشدة . ودافع الوالى عن حسن نية السلطان نحو اليمن وأكد أن الدولة العثمانية لا تضمر أى سوء للبلاد اليمنية ، ولكنها تريد المحافظة على استقلالها وعدم وقوعها فى أيدى الدول الأوروبية الاستعمارية الواقفة للبلاد العربية بالمرصاد[3] . ولم تنتته هذه المكاتبات إلى اتفاق ما ، وعزل أحمد فيضى باشا ، وحل محله حسين حلمى باشا فاستبشر الأهالى به .

(١) عبد الله عبد الكريم الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٥٩ .

(٢) WAVELLO A MODERN PILGRIM INMECCA, LONDON , 1912 P. 200 .

(٣) عبد الله عبد الكريم الجرافى : نفس المرجع ، ص ٢١٠-٢١٧ .

وقد وعدهم بالعدل والأمن وأمر بعزل من أساء التصرف من الموظفين ، وقام فعلا بإصلاحات كثيرة . وحدث أن اعتدى بعض الموظفين المعزولين عليه سنة ١٣١٨هـ (١٩٠٠م) ولكنه شفى من الجرح الذى أصابه . وفى سنة ١٣١٩هـ (١٩٠١م) أرسلت الحكومة العثمانية بعض رجالها لإبرام الصلح بين الإمام والدولة العثمانية ، وانتهت إلى وضع شروط للصلح أرسلت إلى السلطنة لعرضها على الوزارة ، فلم توافق عليها وعزلت حسين حلمى باشا ، وعينت بدلا منه عبد الله باشا واليًا وقائداً للجيوش ، ولكن الحال استمر على ما هو عليه من الفوضى والاضطراب حتى توفى الإمام المنصور بقفلةعذر سنة ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م)[١] .

هذه هى الصورة العامة لحالة اليمن فى هذه الفترة . ثورات واضطرابات عامة مبعثرة ، وقد تتركز أحيانًا بشكل أقوى عند صنعاء نفسها ،ثم محاولات شديدة من جانب العثمانيين للضرب على أيدى القبائل وإخماد هذه الثورات ، ثم التقاء سريع قصير بين الدولة العثمانية وبين الإمام زعيم أكبر قوة سياسية فى اليمن ، ولكنه سرعان ما يفشل ، ويتكرر اضطراب الأحوال وقيام الثورات ، وهذه الصورة المضطربة هى التى أكسبت اليمن فى هذه الفترة شهرته بأنه مقبرة الأتراك[٢] .

والحقيقة أن طبيعة اليمن كانت تحتاج إلى حكم أكثر صلاحا وقوة ، فإلى جانب الوضع القبلى وبعد المسافة عن العاصمة العثمانية ، وضعف العثمانيين العام ، كانت طبيعة اليمن من أكبر عوامل الاضطراب السياسى ، ومن أكبر العقبات أمام الحكم العثمانى هناك . فالجبلى المحلى يمكنه التغلب على أرضه الوعرة وتسلقها والسير فيها فى أى اتجاه خلال ممرات يعرفها هو وحده – وهو ما لا تستطيعه الجيوش النظامية . وحتى هذه الصورة لا تتساوى مع الثورات التى قامت بها قبائل تهامة الشديدة الضراوة ، وذلك بالرغم من أن طرق مواصلاتها كانت أسهل ، بالإضافة إلى وجود مركز إدارى وعسكرى منظم فى هذه السهول

---

(١) عبد الله عبد الكريم الجوافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢١٤.

(٢) JACOB ; KINGS OF ARABIA, P. 40

.القاحلة ، إلا أن موارد المياه كانت تعتبر مشكلة صعبة إلى جانب المناخ القاسى الذى يؤذى الجيوش العثمانية الوافدة من الشمال[١] .

وسبب آخر - أشرنا إليه عند الحديث عن طبيعة القبائل نحب أن نوضحه بصورة أوسع - هو أن العثمانيين عند عودتهم إلى اليمن مرة أخرى كانت تحدوهم الرغبة فى التدخل بصورة أعمق فى شئون ولاياتهم وذلك أخذاً بالأفكار الغربية فى الحكم المباشر ، التى تعتمد على وجود دولة ذات أصول قومية معينة. ولكن طبيعة القبائل - أو بمعنى أدق طبيعة الشعب اليمنى - كانت حينئذ لا تقبل هذه النظريات الحديثة « فكلمة الاستقلال هى التى تحرك مشاعرهم وهم لا يكرهون وجود الدولة ، ولكن على شرط أن تتركهم فى حالهم يتمتعون باستقلالهم »[٢] .

ولكن هل حقيقة لم يقم الترك بعمل إيجابى فى اليمن إلا القيام بهذه الحروب المبعثرة هنا وهناك وإخضاع القبائل واستعراض عضلاتهم ؟

الحقيقة أنهم قاموا ببعض الخدمات فى اليمن . فهم مثلا أول من وضع له خريطة سياسية - أو بمعنى آخر - هم أول من عرفوا اليمن تعريفًا سياسيًّا دقيقا إلى حد كبير . حقيقة ظلت مشكلة الحدود الجنوبية والشمالية لليمن مضطربة إلى حد ما - إلا أن هذا يرجع إلى الظروف العامة المضطربة ، وإلى طبيعة القبائل القائمة على الحدود ، التى لا تعرف معنى الحدود . وقد ظلت هذه المشكلة قائمة إلى عهد الإمام يحيى ، بل مثلت أكبر مشكلة واجهته بعد محاولاته القبض على زمام الأمور فى اليمن . لقد خلق العثمانيون سنة ١٨٧٢ من اليمن ولاية واحدة ، وقسموها إلى أربعة متصرفيات : تعز ، صنعاء ، عسير ، والحديدة ، واستقر الوالى فى صنعاء . وقد قسمت كل منها إلى أقضية ، على رأس كل منها قائممقام ، فكان لواء تعز مقسما إلى أقضية : أ ب ، عدين ، حجرية ، مخا ، قعطبة.

---

(١) BURY ; ARABIA INFELIX, P. 35.

(٢) JACOB ; KINGS OF ARABIA, P. 63.

ولواء صنعاء مقسما إلى جبل حراز ، حجة ، ذمار ، يريم ، رداع ، عمران . أما عسير فكانت تضم أبها ، رجال المع ، قنفذه . بينما كانت الحديدة تضم زبيد ، لحية ، الزيدية ، ريمة ، حجور ، بيت الفقيه ، باجل ، أبو عريش[1] . ولا يعيب هذا التقسيم أنه محتاج فعلا إلى الاستقرار وسيادة الأمن حتى يؤتى ثماره - فهذه ظروف خارجة عن إرادة العثمانيين أنفسهم كما أوضحنا . حقيقة أن يد العثمانيين لم تصل إلى شرقى اليمن الأعلى وشماليــة ، ولا جنــوب اليمن الأسفل فظلت «مأرب » و « صعدة » و « نجران » و « شهارة » و « قفله عذر » وما حولها من القبائل العاتية مثل « حاشد » و « بكيل » و « أرحب » و « ذو حسين » وأمثالها تحت سلطة الأئمة والمشايخ المحليين ، وكذلك كان الحال فى أراضى المحميات التسع فى اليمن الأسفل التابعة لمستعمرة عدن[٢] .

وتبدو أهمية هذه التقسيمات الإدارية بشكل واضح فى دلالتها على فهم الترك لطبيعة اليمن وظروفه ، وأن هذا التقسيم استجابة واقعية لهذه الطبيعة الخاصة . ويدل على هذا أن الإمام يحيى قد أبقى معظم هذه التقسيمات على حالها وأقام عليها حكاما سماهم « عمالا » وهو نفس اللفظ الذى كان مستعملا فى العصور الإسلامية السالفة , وذهب العثمانيون فى اهتمامهم بولاية اليمن إلى أكثر من ذلك ، فقرروا مثلا مد سكة حديدية من رأس الكثيب فى شمالى « الحديدة » إلى « باجل » فوادى « ضفور » « فمفحق » « فسوق الخميس » فصنعاء » . «وعمدوا فى مد هذه السكة إلى إدارة الخط الحجازى ، فقامت هذه الإدارة بالعمل وجلبت آلات وعوارض وقضبان حديدية ، وتقدم الخط من الساحل إلى الداخل نحو ١٥ ك . م . ثم حالت مفاجأة إيطاليا بحرب طرابلس الغرب ومن بعدها الحرب البلقانية والحرب العالمية الأولى دون إتمام بقية

---

(١) JACOB ; KINGS OF ARABIA, P. 68.

(٢) أحمد وصفى زكريا : المقتطف . المجلد ٩٠ ، الجزء الأول ص ٨٠ .

الخط »[١] . وإلى جانب ذلك فطن العثمانيون إلى أهمية مملحة « الصليف » فاستغلوها . كما أعلنوا فى عام ١٨٨٠ عن مناقصة لاستغلال مناجم اليمن وتقدموا بالأموال الطائلة لاستخراج المعادن المختلفة ، ولكن فوضى الأحوال الداخلية قضت على هذا المشروع[٢] . وكذلك قام هؤلاء ببعض المشروعات العمرانية ، لتقديم الخدمات اللازمة للأهالى مثل إنشاء المستشفيات والمدارس - وخاصة فى المناطق الهادئة التى كان يقطنها الشوافع - ولكن هذه المشروعات كانت ضعيفة قليلة لا تفى بحاجة الشعب اليمنى إلى مثل هذه الأمور الضرورية . ومن الجدير بالذكر أن نقول إنهم أقاموا مدرسة « للصنائع » فى صنعاء لتعليم الطلبة بعض الصناعات الصغيرة ، ولكن الإمام يحيى حولها بعد الاستقلال إلى سجن ظل يعرف باسم « سجن الصنائع » .

طبيعة الحكم العثمانى لليمن :

لكن حتى لا ندخل فى تفصيلات كثيرة ، يمكن القول إن الحكم العثمانى تميز بظاهرتين بارزتين ، أو - بمعنى آخر - لقد خضع سير الأحداث لعاملين مهمين :

أولهما : أن العثمانيين كانوا عنصراً لا يختلف دينيًا عن رعاياهم فى اليمن ، وذلك فى وقت كانت فيه السيادة للرعوية الدينية لا للقومية الخاصة وخاصة فى الشرق الأوسط ، بعكس القوميات البلقانية التى كانت تحت السيادة العثمانية . فكانت تسود الشرق العربى فكرة الزعامة الدينية ووجود خلافة تشمل العالم الإسلامى كله ، حتى لقد كان التفكير القومى عند المستثيرين من العرب فى ذلك الوقت مجرد مطالبة بإصلاحات معينة أو مطالب دستورية أو إلحاح للاعتراف بوجودهم كعنصر كبير فى الإمبراطورية له قيمته . ويؤيد هذا مثلا تأييدهم المطلق للانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ ، بل ونرى المتطرفين بعض الشىء من العرب يطالبون باستقلال ذاتى تحت لواء « العثمانية» أو بإمبراطورية

---

(١) أحمد وصفى زكريا : المقتطف . المجلد ٩٠، الجزء الأول ، ص ٨٠.

(٢) Jacob ; Kivgs of Arabia, p. 277 .

ثنائية وخاصة بعد انهيار الامبراطورية فى البلقان (١٩١٢-١٩١٣) .

ولكن حتى هذه الأفكار القومية المهزوزة عند العرب كانت وقفًا على عرب الشمال ، أى فى الشام والعراق ومصر ، وهم أكثر تقدما واحتكاكا بالأفكار الغربية من سكان الجزيرة العربية .

وبناء على ذلك يمكن القول أن اليمنيين بوجه عام - حتى الزيديين - كانوا لايشعرون بالنفور الدينى من العثمانيين نظراً للوحدة الإسلامية ، ومن المهم جداً أن يتضح هذا المفهوم الذى سيتأكد بعد قليل فى مظهرين معينين :

أولا : فى مفهوم الإمام يحيى عن الاستقلال أثناء حروبه ضد الترك .

ثانيًا : فى طبيعة ثورات القبائل ، ونوع مطالبهم الخاصة وهم يثورون تحت لواء الإمام بل وهم يندفعون وراءه .

وقد ذهب البعض إلى أن الزيديين لم يقبلوا الخلافة العثمانية ، وثاروا ضدها لأنها خلافة سنية ، وأن المذهب الزيدى يحصر الخلافة أو الزعامة الدينية فى الأئمة فقط .

وهذا الرأى - فى حقيقة الأمر - مبالغ فيه ، إذ إن هذا الشعور العدائى لم يكن موجوداً إلا عند الغلاة المتعصبين منهم ، وعند الأئمة وحتى هؤلاء كانوا لا يعارضون فى الاعتراف بالسيادة العثمانية - إذا اعترف العثمانيون بزعامتهم الدينية - إلى جانب بعض مظاهر السلطة الزمنية على شيعتهم .

أما الحروب والثورات التى تزعمها الأئمة - والتى شهدها العصر العثمانى الثانى فى اليمن ، والتى قيل إنها تعبير خفى عن رفض الأئمة للسيادة العثمانية تحت ستار محاربة الفساد ، ورفع الظلم - فلم تكن إلا دفاعًا عن مصالح خاصة منبثقة من أوضاع محلية مؤقتة ، وإلحاحًا من الأئمة فى تأكيد زعامتهم الدينية ، والحصول على بعض مظاهر السلطان ، ولكن التناقض بين موقف كل من العثمانيين والأئمة من الحكم ، عمل على إثارة الحروب بينهما . واتضح الخلاف

بين الموقفين منذ اللحظة الأولى لدخول العثمانيين اليمن للمرة الثانية فأعلنوا سياستهم فى برنامج خاص وضعه أحمد مختار باشا الذى تمكن من دخول صنعاء ١٨٧٢ ، واستطاع أن يجعل من اليمن ولاية عثمانية .

ويقضى هذا البرنامج بتضييق الخناق على الأئمة ، وتحويلهم إلى رؤساء جماعات دينية محلية ، فأدى هذا إلى ثورة الأئمة وعملهم على إثارة القبائل ، وذلك لا رفضًا للخلافة العثمانية السنية ، ولكن دفاعًا عن مصالح وأوضاع خاصة بهم . وأهم بنود هذا البرنامج التى تمثل موقف العثمانيين من الأئمة هى(١) :

(أ) حصر نفوذ الأئمة ورجال دعوتهم وجعلهم فى شبه عزلة تحول دون اتصالهم المباشر بالشعب ورؤساء القبائل .

(ب) منع دفع عوائد الزكاة التى تدفع للإمام ، وتقرير ثلاثة آلاف ريالا راتبًا شهريًا للإمام وأسرته .

ثانيهما : أما العامل الثانى الذى أثر فى سير أحداث هذه الفترة ، فهو حقيقة هذا الحكم ذاته . فهو بدون شك حكم دولة قد أصابتها الشيخوخة ، ودب فيها الفساد . وأثر الوضع العام للإمبراطورية على الواقع الخاص فى اليمن، إذ إن مظاهر فساد الموظفين والإدارة العثمانية فى اليمن ، كان من العوامل الهامة فى ثورات الشعب اليمنى ، ومن الجدير بالذكر أن العثمانيين كانوا يعتبرون اليمن منفى للموظفين المغضوب عليهم .

ولكن على كل حال نحب أن نقول إن هذين العاملين المتناقضين المتصارعين هما اللذان حددا نوع الأحداث اليمنية العثمانية فى هذه الفترة

---

(١) العقيلى : من تاريخ المخلاف السليمانى ، القسم الثانى من الجزء الأول ، ص ٥٣٠ .

(١٨٧٢ - ١٩١٨) فالارتباط الديني، أو الجذب الديني من ناحية، والتنافر السياسي القائم على التعفن الإداري من ناحية أخرى هما عناصر الوضع الذي سنتكلم عنه.

أما عن الوضع العام للإمبراطورية فقد كانت التناقضات الداخلية العديدة فيها، كما كانت الأطماع الأجنبية حولها كفيلة بتحطيم هذه الإمبراطورية قبل الحرب العالمية الأولى بزمن بعيد، وخاصة أن هذه الدولة تجمدت على أوضاع قديمة معينة، وحتى الإصلاحات التي حاولت القيام بها - لم تكن تفيد من ناحية - كما لم تكن إيجابية وفعالة من ناحية أخرى.

ويمكن أن يتضح هذا كله بدراسة مشكلات عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦-١٩٠٩) الذي يشغل عهده تلك الفترة المحددة التي ندرسها بالنسبة لليمن. وتتبلور مشكلاته في الحقيقة في كيفية حكم الإمبراطورية الواسعة، بالرغم من التنافر الداخلي والتدخل الأجنبي فرعايا هذه الإمبراطورية الواسعة من ناحية - كانوا مجموعات كبيرة، ذات لغات متعددة، لا يجمع شملهم أية روابط اللهم إلا رباط الخضوع لحكم إمبراطوري واحد.

أما الناحية الثانية: فهي التدخل الأجنبي، والسيطرة الأجنبية، إذ تعرض كيان الإمبراطورية للخطر بشكل جدي من جراء هذا النفوذ الأجنبي، فاحتل الأجانب مناصب هامة في إدارة الإمبراطورية نتيجة الامتيازات المعروفة وتمتعوا بحقوق كثيرة أكسبتهم إياها هذه الامتيازات، مثل محافظتهم على نظام بريدهم الخاص داخل الإمبراطورية نفسها وأكثر من ذلك كانت مالية الإمبراطورية العثمانية نفسها - فضلا عما أصابها من نقص في الإيرادات وسوء تدبير في المصروفات - تحت سيطرة « إدارة الدين العام العثماني » ويتألف مجلسها من ممثل عن كل من بريطانيا وفرنسا و ألمانيا و إيطاليا والإمبراطورية النمسوية المجرية وتركيا.

وبالرغم من ذلك لم تقنع الحكومات الأجنبية بهذا التدخل الكبير بل

كانت تسعى إلى تحطيم الإمبراطورية نفسها وتقسيمها فيما بينها ، وإن كان التنافس حول وراثة أملاك الرجل المريض هو الذى كان يحد من رغبتهم فى تقسيمها ، فعملوا سواء بإرادتهم أو رغم أنفهم على المحافظة عليها أطول مدة ممكنة . وكذلك لعب التخلف الاقتصادى دوراً هامًا ، إذ دعم الاضطراب السياسى ، وعدم الاستقرار القائم . فقد أهملت الطرق البرية والنهرية ، كما أهملت الموارد الطبيعية للبلاد ، ووصلت الزراعة إلى حالة يرثى لها رغم أنها مهنة الأغلبية من السكان ، وتعرضت البلاد لخطر الفيضانات نتيجة عدم الاهتمام بتنظيم الرى والصرف . ووصلت الإمبراطورية العثمانية إلى درجة كبيرة من التخلف الصناعى فى القرنين ١٩ و ٢٠ خاصة وأنها لم تتأثر أو تستفد من الانقلاب الصناعى - الأساس الحديث للحضارة والمجتمع الغربى - بل كانت على العكس ضحية له ، فلم تستطع منتجاتها التى أخرجتها بوسائلها القديمة أن تنافس - حتى فى أسواقها الداخلية - منتجات أوروبا الجيدة الرخيصة[١] .

سياسة عبد الحميد الثانى الإسلامية :

عرف عهد عبد الحميد بكثير من المظاهر الخاصة به ، واعتمد حكمه على الجاسوسية والإرهاب ، وكانت هذه الطريقة فى الحكم نتيجة عدم إيمان عبد الحميد بالحياة الدستورية ، فركز السلطة كلها فى يده . وكان تركيز السلطة فى القسطنطينية قد بدأ منذ عهد السلطان محمود الثانى (١٨٠٨-١٨٣٩) وسار خلفاؤه على منواله .

وعطل عبد الحميد الدستور وألغى البرلمان فى بداية حياته ، وهو الذى جاء للحكم لتنفيذ الدستور ، وقد أدت هذه السياسة إلى تدهور الإدارة والاقتصاد ، وضياع الممتلكات ، وقيام الثورات ، وسيادة الحكم الفردى ، ولسنا بصدد

---

(١) Earle ; Turkey , The Great Power, and the Baghdad Rail Way , Macmillan , New-York , pp. 9 _ 12 (1935) .

التحدث عن عهد عبد الحميد بشكل تفصيلى ، ولكنا نرغب فى إبراز عدة نقاط معينة تساعد على فهم مجرى الأحداث فى الجزيرة العربية عامة ، واليمن خاصة ، وهذه النقاط تنبثق فى جوهرها من التجائه إلى الدين ليرفع من شأنه فى نظر رعاياه ، ويملأ الفراغ السياسى الذى نتج عن موقفه من الديمقراطية ، ويغطى المفاسد الإدارية والضعف الاقتصادى .

وقد نجحت سياسته المعتمدة على الدين ، فى رفع شأنه فعلا - لا فى العالم العربى الذى كان يعنيه عبد الحميد بهذه السياسة فحسب - بل فى العالم الإسلامى أيضًا . بل لا نغالى كثيراً إذا قلنا إن العامل الدينى كان له أثره فى رفع شأن عبد الحميد فى المجال الدولى أيضًا . وقد استغل عبد الحميد - تنفيذاً لسياسته الدينية - تلك الحركة التى هزت العالم الإسلامى فى أواخر القرن التاسع عشر ، واستهدفت بعث الإسلام ، وتحقيق الوحدة الإسلامية ، والتى كانت مدينة بالدرجة الأولى إلى تفكير جمال الدين الأفغانى فى أوج مجده وقوته ونشاطه لكن لم تكن سياسة عبد الحميد الإسلامية قائمة على تبنى أفكار جمال الدين لاقتناعه بها ، بل كانت فى جوهرها ، محاولة من جانب الخليفة السلطان لتأييد سلطته الزمنية فى الدولة العثمانية ، بإعلان حقوقه وامتيازاته كخليفة للمسلمين على حدود أوسع . وكانت خطته ترمى إلى إعادة الخلافة إلى مكانتها اللائقة فيها ، وإقناع الرأى العام بأنها والسلطنة شىء واحد فإذا ما استعادت الخلافة اعتبارها بهذا الشكل ، عمد إلى تسخيرها لتكون دعامة ، ثم قوة دافعة لتحقيق أغراضه السياسية[١] .

وقد حاول عبد الحميد - تحقيقًا لهذه الغاية أيضًا - تغليف نفسه بكثير من مظاهر التقوى والورع ، فاتخذ مكة مركزاً للدعاية له فى موسم الحج ، واهتم

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ترجمة على حيدر الركابى ، مطبعة الترقى ، دمشق ، ١٩٤٦ ، ص ٦٦-٦٧ .

بإنشاء مساجد ، وفتح مدارس الدعاة فى إستامبول . وكان من مظاهر تنفيذ هذه السياسة كذلك - اهتمامه البالغ بمشروع مد السكك الحديدية من دمشق إلى المدينة فمكة . وكان الغرض الظاهرى هو تسهيل الحج ، بينما كان السبب الحقيقى يتعلق بعوامل سياسية وعسكرية . وقد غطت تبرعات العالم الإسلامى ما ينوف عن ثلث النفقات البالغ مجموعها ثلاثة ملايين من الجنيهات .

وهذا يدل على مدى نجاح دعوة عبد الحميد الإسلامية . وهذا المشروع كان من نواح عديدة ، لعبة سياسية رائعة ، لأنه خلق فى جميع أنحاء العالم الإسلامى حماسًا كبيراً ، وعمل أكثر من مشاريع عبد الحميد الأخرى على إعلاء شأن الخلافة . أما من الناحية العسكرية ، فقد أوجد للسلطان وسيلة فعالة للنقل البرى تحمل جنده إلى الجزيرة ، ومنها إلى أطرافها ، وخاصة اليمن المضطرب . وفاق هذا الطريق البرى الطريق البحرى عن طريق قناة السويس ، من ناحية السرعة والسهولة ، إذ كانت السلطنة لا تملك الكثير من السفن السليمة التى تمكنها من تنفيذ سياسة عبد الحميد الحربية فى الجزيرة العربية [1] .

وكان يرغب صادقًا فى مد الخط الحديدى إلى مكة - وربما أبعد من مكة - ولكنه لم يتمكن من ذلك ، وهذا يرجع إلى أوضاع خاصة بالجزيرة العربية ، وإلى السياسة الدولية أيضًا ، كما أن الانقلاب الدستورى شغل الحكومة فى أمور دستورية عطلت قليلا المشاريع العامة .

الانقلاب العثمانى (١٩٠٨) وأثره فى اليمن :

تفاعلت التراكمات من المفاسد والرجعية ، التى سادت عهد عبد الحميد ، وأدت إلى قيام ثورة يولية ١٩٠٨ ، وأسرع عبد الحميد فأعلن الدستور فى ٢٤ من شهر يولية سنة ١٩٠٨ ، عندما قامت جمعية الاتحاد والترقى بثورتها هذه .

---

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب (ترجمة على حيدر الركابى) ص ٧٢-٧٣.

ولكنـه خلع عن العرش ، بعـد أن فشلت محاولتـه الرجعيـة فى أبريل سنـة ١٩٠٩ ضد رجال الاتحاد والترقى الذين ولوا بعده أخاه محمد الخامس .

ويجب أن ندرس أثـر تلك الثورة على سياسـة الحكومة العثمانية ، بـالنسبة لرعاياها العرب عامة - والجزيرة العربية واليمن خاصة .

وهذه الدراسة تعنينا إلى درجـة كبيرة - فهى تفيدنا فى فهم وتفسير أحداث اليمن فى هذه الفترة .

كانت جمعية الاتحاد والترقى جمعيـة سرية شكلها رجال « تـركيا الفتاة » فى «سالونيك » وكـان أفرادها خليطًا من الأجناس والأديـان ، يسوده الترك ، وكان من بينهم أيضًـا جماعـة من العـرب وأكثـرهـم من ضبـاط الجيش ، تعـاونـوا مع زعمائها تعـاونًا وثيقًا بصفتهم رعـايا عثمانيين ، لا بصفتهم عربًـا قوميين ، ولكن العنصر التركى هـو الـذى تغلب بعد ذلـك . وكانت الجمعيـة تحمل فى طيـات نظـرياتها كثيراً مـن الأفكار والآراء والأغـراض ، تتعـدد بتعـدد أجناس وأديـان أفرادها ، ولكنهـا مع ذلك اتحدت فى الدرجة الأولى ، حول غـرض واحد سعت جاهدة لتحقيقه ، وهو القضاء على حكم عبد الحميد ، والوصول إلى إقامة حكم صالح يسعد بـه الرعايا العثمانيون جميعًا ، على أسـاس إدماج الأجناس المختلفة فى بوتقـة واحدة على نحو مـا أراده دستور ١٨٧٦ ، وكانت الكلمـة السائدة فى الجمعية هى كلمة أعضائها العسكريين[(١)] .

ورث رجال جمعية الاتحاد والترقى ميراثًا ثقيلا مـن الأعباء والمفاسد ، وكان عليهم أن يرتفعـوا بأنفسهـم إلى مستوى الأحـداث ، وإلى ما تعهـدوا بحمله من مسئوليـات ، ولكن كان أمامهم ظـروف أخرى معقـدة ، غير التركة التى تخلفت عن حكم عبد الحميد الطويل تمثلت هذه الظـروف أساسًا فى الأحوال السياسية التى تولـوا الحكم فيها ، فقد كانت الحركـات الاستقلالية فى الولايـات البلقانية

---

(١) جورج أنطونيوس ، يقظة العرب ، ص ١٠٧-١٠٨ .

على أشدها من نـاحية ، وكانت الدول الأوروبية قد نفد صبرهـا من ناحية ثانية على هـذه الإمبراطوريـة العجوز ، وتعمل جـاهدة على الاقتطـاع من أملاكهـا . وهكـذا التقت أطماع الدول الأوروبيـة بالـرغبات الجادة فى الاستقـلال فى وقت واحد . فقد استولت النمسا على ولايتى « البوسنة والهرسك » فى أكتوبر ١٩٠٨، وفى الوقت ذاتـه تم انفصال « بلغاريـا » . وبعد ذلك وقع العـدوان الإيطالى فى خريـف سنة ١٩١١ على « طرابلـس الغرب » ، وبعـدها مباشرة قـامت الحرب البلقانية سنة ١٩١٢ .

وهكذا فقدت تركيا جميع ممتلكاتها الأوروبيـة - ما عدا تراقيا الشرقية - إلى جانب طـرابلس وكريت وجزر الـدوديكان . وكانت هـذه السلسلة من الحروب الكثيرة تكلف الدولة نفقات عسكرية باهظة تنوء بها خزانتها المجهدة[١] .

ولكننا لسنـا بصدد الدفاع عن جمعيـة الاتحاد والترقى وأسلوبها فى الحكم ، أو عن تلك الأفكـار التى كـانـت تملأ رؤوس رجـالها والتى كـانت واضحـة فى أعمالهم ، ولكننا نـرغب فقط فى توضيح الفكرتين اللتين تبناهما رجـال الجمعية ، واعتمدوا عليهما ، فظهرت آثارهما فى الحكم ، وكانتـا تدلان على اهتزاز نظرياتهم فى الحكم ، وعدم إدراكهم تمامًا لمطالب العصر الذى ظهروا فيه .

الأولى : هى موقفهم من فكـرة القومية بـوجه عام ، وموقفهم من قـوميات إمبراطوريتهم المختلفة ، وعدم اعترافهم بالمسـاواة بين جميع رعاياهم تحت فكرة «القوميـة العثمانية » وعملهم على تمييز قـومية معينـة على باقى القوميـات . فقد عملوا على تمييز العنصر التركى على باقى العنـاصر المختلفة فى الإمبراطورية من عرب وأرمن وكـرد وغيرهم ، وعملوا جاهـدين على تنفيذ هذه السياسـة ، فسعوا «لتتريك » جميع العثمانيين واستعملـوا فى ذلك كل الطرق المختلفـة ، من ضغط وإرهـــاب إلى صبغ جميع الإدارات والمصـــالح والمدارس فى الإمبراطـوريـــة

(١) جورج أنطنيوس : يقظة العرب ، ص ١١٣ .

بالصبغة التركية ، وجعلوا اللغة التركية هى اللغة الأولى فى جميع البقاع داخل الإمبراطورية ، وأشعل ذلك نار الصراع بين القومية التركية الصاعدة ، التى كانت تحاول أن تثبت وجودها كقومية خاصة لها كيانها المتميز - وذلك نتيجة احتكاكها بالدول والأفكار القومية فى أوروبا - وبين القوميات الأخرى فى الإمبراطورية ، وخاصة العربية التى كانت تتلمس طريقها إلى الوجود ، والتى ساعدها بل ودفعها إلى تطوير نفسها ، ذلك الاحتكاك والصراع بينها وبين القومية التركية . وقد أدى هذا الصراع فى النهاية إلى انهيار الإمبراطورية العثمانية، عندما دخلت الحرب العالمية الأولى ، التى خرجت منها دولة محدودة المساحة ، تضم عنصراً واحداً فقط هو « العنصر التركى » .

الثانية : هى ميلهم إلى سياسة المركزية العنيفة ، وهذا نفسه يعبر أيضًا عن عدم إدراكهم التام لمتطلبات عصرهم . وكانت الإمبراطورية - كما يعتقد - تحتاج فى هذا الوقت إلى سياسة أقرب إلى اللا مركزية والاستقلال الذاتى للولايات والقوميات المختلفة . ولا نلقى هذا الكلام على عواهنه ، إذ كانت الإمبراطورية مترامية الأطراف تنقصها وسائل الاتصال الحديثة من ناحية ، وتضم قوميات مختلفة عديدة ، تحتاج كل منها إلى الشعور بكيانها الخاص من ناحية أخرى ، وذلك فى وقت سادت فيه الأفكار القومية .

فقد لجأ رجال الحكم حينئذ إلى سياسة مستوردة من الخارج ، سياسة خاصة بمجتمع وبيئة وظروف أخرى ، لا سياسة تنبثق من واقع المجتمع العثمانى . فقد تأثر الاتحاديون بأفكار الثورة الفرنسية عامة ، واستعاروا منها الكثير لتطبيقها داخل الإمبراطورية ، وتمسكوا منها بالذات بفكرة « المركزية » بالرغم من الفرق الشاسع بين فرنسا كما كانت سنة ١٧٨٩ ، والمملكة العثمانية سنة ١٩٠٨ ، فتمركز الإدارة فى باريس ، كان استمراراً لتطور تاريخى طويل ، جعل باريس مركزاً ثقافيًا واقتصاديًا ، و أدى إلى توحيد فرنسا سياسيًا وإداريًا ، لكن الوضع كان على نقيض ذلك تمامًا فى المملكة العثمانية ، فإن القوى التى ولدتها اليقظة القومية ، كانت تعمل باتجاه معاكس ، متنافر مع المركز المتمثل

فى القسطنطينية ، لأن المنابع التى تغذى تلك القوى ما زالت قائمة على فوارق اللغة والعادات والأفكار[١] .

كان لوصول الاتحاديين إلى الحكم وظهور أفكارهم الجديدة أعمق الأثر فى تاريخ العرب الذين كانوا أكثر شعوب الإمبراطورية ابتهاجًا بالانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ ، فقاموا بالمظاهرات الكبيرة سواء فى القسطنطينية أو فى العواصم العربية تعبيراً عن فرحهم وتأييداً لرجال العهد الجديد .

وترجم العرب فرحتهم إلى عمل إيجابى تمثل فى تأسيس أول جمعية عربية هى جمعية « الإخاء العربى العثمانى » وتم افتتاحها رسميًّا فى ١ سبتمبر ١٩٠٨ فى اجتماع كبير عقدته الجالية العربية بالقسطنطينية ، وحضره أعضاء جمعية الاتحاد والترقى . وكان أهم أهدافها الرئيسية حماية الدستور ، وتوحيد جميع الأجناس فى ولائها للسلطان ، وتحسين حالة الأجزاء العربية على أساس من المساواة بين العرب وغيرهم ، والعمل على نشر التعليم باللغة العربية داخل الحدود العربية، والمحافظة على العادات العربية . وكانت عضويتها مفتوحة أمام العرب من جميع الأديان ، كما تقرر إنشاء فروع لها فى جميع المقاطعات العربية[٢] . ولكن هذا الإخاء العربى العثمانى لم يستمر طويلا فسرعان ما خلع الاتحاديون قناعهم الذى عاش فترة يغطى أفكارهم العنصرية . وكان الدافع الأول لإظهار حقيقة نواياهم هو انقلاب أبريل سنة ١٩٠٩ الرجعى الذى قام به عبد الحميد ، وكان الدافع الثانى هو توالى الأحداث الجسيمة التى أدت إلى خروج الولايات البلقانية خاصة الواحدة تلو الأخرى من الإمبراطورية العثمانية .

وكانوا من وجهة نظرهم يعتقدون أن المركزية وسيادة قومية واحدة ، أو طبع الإمبراطورية بقومية واحدة ، هو السبيل السليم لإنقاذ الإمبراطورية وإعادة مجدها السالف . ولهذا كان من أول أعمالهم بعد رجوعهم للحكم ، بعد انقلاب عبد الحميد الرجعى ، فى أبريل سنة ١٩٠٩ ، إلغاء الجمعيات التى

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص ٥١١ .

(٢) نفس المرجع : ص ١٠٩ .

أسستها العناصر غير التركية ، ومن بينها جمعية الإخاء العربى العثمانى ، وذلك قبل أن تنقضى ثمانية أشهر على افتتاحها .

وهنا ازداد شك العرب وارتيابهم فى نوايا الاتحاديين نحوهم ، وفكروا جديًّا فى العمل السرى - كأسلوب لحماية قوميتهم العربية التى تريد القسطنطينية القضاء عليها ومحوها تمامًا - إلى جانب الجمعيات المختلفة العلنية التى سمحت الظروف لها بالإعلان عن نفسها وعن عملها ، وخاصة فى خارج نطاق النفوذ العثمانى ، كما كان الأمر بمصر التى كانت تحت الاحتلال الإنجليزى فى ذلك الوقت .

ولا شك أن عرب الجزيرة شاركوا باقى إخوانهم - العثمانيين عامة والعرب خاصة - الفرحة والابتهاج بثورات ٢٠ يولية سنة ١٩٠٨ ، ١٣ - ٢٦ أبريل ١٩٠٩ [١] ، وتمنوا الخير الكثير على يد رجال جمعية الاتحاد والترقى . إلا أن هذا الشعور ، وما ترتب عليه من مواقف عملية ، اختلف اختلافًا بيناً فى الجزيرة العربية عنه فى باقى العالم العربى .

ويرجع سبب الاختلاف إلى أوضاعها الخاصة : فالجزيرة فى ذلك الوقت كانت متخلفة حضاريًّا وثقافيًّا عن باقى الجماعات العربية التى فى خارجها ، وذلك نظراً للظروف الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية فيها . وهذا ينطبق على الجزيرة بوجه عام - فهى تتميز بأنها وحدة سكانية وحضارية واجتماعية واحدة ، بالرغم من وجود بعض اختلافات بين أجزائها داخل هذه الوحدة . وقد أدى هذا الوضع ، الجغرافى الاقتصادى ، إلى تحديد أوضاع اجتماعية خاصة بالجزيرة . فنحن نعرف أن الوحدة الاجتماعية ، فى الجزيرة كلها ، هى القبيلة بكل ما لها من صفات فكرية ونفسية وأوضاع اقتصادية واجتماعية ، تؤدى كلها إلى سلوك ومواقف تختلف تمامًا عما فى العراق والشام ومصر مثلا . كما أدى هذا الوضع الاجتماعى بالتالى إلى تشكيلات سياسية خاصة أيضًا ، فقد كانت الوحدة

(١) Bremond ; Yemen et Saoudia , Paris, 1937 , p. 75.

السياسية فى الجزيرة ، هى الإمارة أو المشيخة المحددة المساحة ، التى تعتمد على النفوذ الأسرى ، الإقطاعى المظهر .

هذا هو العامل الأول فى سير أحداث الجزيرة العربية ، ولكن هناك عاملا آخر خارجيًّا نشأ نتيجة بحث بريطانيا عن محطات ومراكز لها ، فى طريقها إلى الهند ، لتأمين مستعمراتها هناك ، ثم لتأمين هذا الطريق نفسه .

فقد أسرعت إنجلترا بالسيطرة على الممر العربى ، وخاصة هوامشه الساحلية – عدن والسواحل الجنوبية والشرقية – وذلك بسبب الأهمية الكامنة فى استراتيجية الجزيرة العربية . فهى كقوة بحرية ، إنما تسعى أساسًا إلى الاستعمار الساحلى . وعندما شقت قناة السويس ازدادت هذه الأهمية ، وأصبح الممر هو « الشريان الإمبراطورى » إلى المستعمرات الآسيوية[1] . وقد أدى هذا الدافع الاستعمارى إلى تأكيد التفتيت السياسى الموجود فعلا فى الجزيرة العربية ، أو بمعنى آخر كان الاستعمار هو العامل الثانى إلى جانب الأوضاع الخاصة بالجزيرة ، التى أشرنا إليها . ونتيجة للعوامل السابقة يمكننا أن نفهم بسهولة سبب الاختلاف بين أفكار ومواقف أهل الجزيرة ، وبين باقى أجزاء العالم العربى العثمانى .

وظهر هذا الاختلاف أساسًا فى نوع الأفكار « القومية » عند كل منهما وأساليب العمل الإيجابى تنفيذاً لهذه المطالب القومية . ومن التجاوز حقيقة أن نقول إن أفكار أهالى الجزيرة تتصف بأنها « قومية » فى هذه الفترة ، فلم ينادوا بصورة جديدة للحكم ، أو بمطالب معينة مثل اللامركزية بالصورة التى عرضها حزب اللا مراكزية العثمانى ، الذى اتخذ القاهرة مقرًّا له ، أو تحويل الإمبراطورية إلى إمبراطورية ثنائية ، كما نادت بها الجمعية القحطانية .

---

(١) الدكتور جمال حمدان : دراسة فى العالم العربى ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٥٨ ص٢٧ . ويمكن الرجوع إلى هذا الكتاب لزيادة فهم هذه النقطة الهامة ، وهو دراسة متعمقة لجغرافية العالم العربى وأثرها على تاريخ وأوضاع المنطقة .

ولكن أوضاعهم الخاصة جعلتهم يفكرون فى أكثر من أمر ، تبلورت كلها حول مطلب واحد تمسكوا به تجاه الاتحاديين ، وهو أن يتركوا وشأنهم ، يدبرون أمرهم بأنفسهم دون تدخل حكومى - مهما كان نوع هذه الحكومة وجنسيتها - هذا مع رضائهم واعترافهم بالسيادة العثمانية . وكان ذلك تلبية لعقائدهم الدينية المتحكمة ، ونظرتهم المقدسة إلى الخلافة التى أحيا شأنها عبد الحميد ، كما سبق أن عرضنا . وكانت لهم وسائلهم الخاصة التى تختلف عن عرب الشمال أيضًا .

فقد رأينا أسلوب القوميين العرب فى الشام ، والعراق ، ومصر ، يتمثل أساسًا فى تكوين الجمعيات ، والأحزاب السياسة ، وعقد المؤتمرات ، أو الالتجاء إلى التشكيلات السرية ، والاعتماد على المنشورات فى نشر دعوتهم ، إذا لم يتمكنوا من الاعتماد على الصحف والمجلات .

ولكن فى الجزيرة عبر العرب عن عدم رضائهم عن أوضاع الاتحاديين وموقفهم من العرب بالثورات المتصلة ضد الحاميات العثمانية الموجودة فى أراضيهم ، أى كانت الأساليب السلمية فى التعبير عن المطالب القومية مجهولة عندهم ، بل كانوا يلجأون إلى طريقتهم الخاصة التى ألفوها فى منازعتهم الشخصية ، وهى القتال ، والكر والفر ، والالتجاء إلى الجبال والفلوات ، أو الهجوم المباغت وهكذا ... والحقيقة أن حياتهم البسيطة الأولية ، هى التى أوحت لهم نوع تفكيرهم وأسلوب عملهم .

الأوضاع فى الجزيرة العربية وعلاقاتها باليمن :

وهنا يمكن استعراض الوضع فى الجزيرة العربية بصفة خاصة ، حتى تتضح حقيقة الوضع فى اليمن بصورة جلية ، ويبرز فى نفس الوقت مدى تأثر أحداثة بباقى أحداث الجزيرة وأوضاعها .

نالت الجزيرة اهتمام العثمانيين الخاص فى خلال القرن التاسع عشر ، فعملوا على تقوية قبضتهم هناك ثانية . ويرجع تاريخ تعيين الولاة فيها إلى سنة

١٨٤١ حيث عين وال على الحجاز ، بقصد إخضاع البلاد المقدسة إلى نظام مباشر للحكم ، يستند إلى إدارة مزدوجة ، يستمد فيها الوالى سلطته من تأييد الأشراف ، وهم أصحاب السلطة التقليدية فى مكة . كما بعث السلطان - كما رأينا - حملتين عسكريتين بقصد إخضاع اليمن ، الأولى فى سنة ١٨٤٩ ، والثانية سنة ١٨٧٢ . وحاولت السلطنة جادة وضع تقسيم إدارى لليمن ، فوضعوا له حدوداً سياسية معينة لأول مرة .

أما فى شرق الجزيرة العربية ، فقد استطاع مدحت باشا استخلاص الأحساء سنة ١٨٧١ وكان يود التقدم أبعد من ذلك إلى نجد .

أما فى الجنوب ، فكانت بريطانيا قد أقامت حمايتها عليه بالفعل ، من «بريم» إلى «المكلا» على الساحل ، كما فرضت نفوذها على جزر البحرين ، والساحل المتهادن ، السلطنة العمانية ، واحتفظ قلب الجزيرة العربية باستقلاله وإن لم يخل من آثار المنافسات الخطيرة بين القوتين الكبيرتين - تركيا وإنجلترا - فى الجزيرة العربية .

كما استطاعت الإمارة الوهابية أن تستعيد بعض قوتها منذ منتصف ذلك القرن ، وأن تجذب انتباه حكومة الهند الإنجليزية وفرنسا - فضلا عن السلطان العثمانى - ولكن هزيمة فرنسا سنة ١٨٧٠ قضت بفشل مجهوداتها فى الجزيرة العربية . وإلى جانب ذلك فقد بدأت الإمارات الفتية التى ظهرت فى جبل شمر - فى شمال الجزيرة - تجذب إليها الأنظار ، وقد تقرب حكامها آل الرشيد إلى السلطات العثمانية فى العراق ، مما أكد منافستها للرياض التى أصابها الضعف، عندما استولى الأتراك على الأحساء ، بل إن محمد الرشيد استطاع أن يدخل الرياض نفسها بعد سنة ١٨٩١ ، فأصبحت عاصمته «حائل» عاصمة لكل وسط الجزيرة ، ولكن ابنه الذى خلفه سنة ١٨٩٦ ، لم يكن كفؤاً لإدارة هذا الملك العريض ، مما أدى به إلى استقدام الأتراك إلى وسط الجزيرة ، فزحفت قوات عثمانية من العراق والمدينة ، واحتلت مدينة القصيم لفترة وجيزة ، وذلك

عندما بـدأ عبد الرحمن وابنه عبد العـزيز آل سعود يزحفان نحـو الرياض ، وقد أحسا بدنو فرصتهم . وأجبر الاضطـراب فى اليمن قائد القوات العثمانية ومعظم قواتـه فى القصيم على الانسحاب والتوجـه إلى اليمن ، فكان مصير باقى قـواته الضعيفة الهزيمة أمام عبد العزيز آل سعود الذى دخل الرياض ، وبدأ نجمه فى الصعود بين حكام الجزيرة العربية منذ ذلك الحين .

وقبل نهايـة القرن التـاسع عشر ، أخـذت سياسـة السلطـان عبد الحميـد الآسيوية تؤثر فى الجزيرة العربية . فإن الخليفة الذى كان قد صمـم على أن يكون له طـريق خاص إلى المدن المقدسة ، وإلى اليمـن ، قد زاد حامياتـه فى الجزيرة ، وزاد هباته إلى البدو على طول طريق الحج .

وجـاء الاتحاديـون إلى الحكم بعـد ذلك عند القضـاء على عبـد الحميـد ، وبدأت علاقة الاتحاديين بالجزيرة بعملين لهما أهميتهما :

أولا : افتتاح سكـة حديـد الحجاز رسميًـا فى شهر سبتمبر سنـة ١٩٠٨ ، وكان الخط قد بلغ المدينة .

ثانيًا : تعيين الشريف حسين بن على أميراً على مكة[١] .

وترجع أهمية هذين العملين إلى النتائج العملية التى ترتبت عليهما .

فوصـول خط سكة حديـد الحجاز إلى المدينـة ، معناه تأكيد سيـادة ونفوذ الباب العـالى فى الحجاز ، لأنه ضمن له وسيلـة فعالة لنقل الجنـود والمعدات فى أسرع وقت وأسلم طريق . وهذا مـا كان فعلا ، فقد أصبح الحجـاز مركزاً تنطلق منه الوسائل التنفيذية لإخضاع المتمردين فى جهات الجزيرة المختلفة .

أما تعيين الشريف حسين ، فكـان له أهميته وخطـورته كذلك . فقـد رأينا كيف أن الاتحاديين هـم الذين عينوه ، بـالرغم من السلطان عبد الحميـد ، وكانوا

---

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ص ١٠٩ .

يطمعون كثيراً فى أن يكون أداة طيعة فى أيـديهم . وقد ساعدهم الشريف حسين فعلا كما أملـوا فيه ، فسـاعدهم حربيًّا ضد الإدريسى ، وسـاعدهم بنصـائحه واتصالاته بالإمام يحيى سعيًا وراء الصلح بينه وبين السلطان .

إلا أنه سرعان ما دب الخلاف بين الاتحاديين وبين الشريف حسين ، وهذا راجع إلى شخصية الحسين الخاصة التى تتصف بـالطموح والعناد ، إذ عمل منذ وصوله مكة على جـذب القبائل حوله وحول الأشراف ، بعد أن كـانوا قد أهملوا فترة حكم الأشراف الـذين سبقوه . لهذا خشى الاتحاديـون هذه الشخصيـة التى تريد أن تثبت وجودها فى بقعة داخل إمبراطـوريتهم ، فرفضوا وساطته بعد ذلك بينهم وبين الإدريسى والإمام يحيى(١) .

أما فى المناطق الساحلية فى الجزيرة . فقد وجد العثمانيون لهم منافسًا خطيراً فى هذه الجهـات ألا وهى بريطانيا . وكـانت احتياجات إمبراطوريـة الهند تحمل بريطـانيا على البحث عن حلفـاء ومراكز لتمـوين السفن - سواء التجـارية أو الحربية - بالفحم على سواحل جزيرة العرب .

وقـد دفعتهـا محاولة بـونـابـرت باستيـلائه على مصر فى عـام ١٧٩٨ ، إلى احتلال جزيـرة بريم الواقعة فى مدخل البحر الأحمر الجنـوبى . وفى الوقت نفسه تقـريباً عقـدت اتفـاقًا مـع إمارة مسقط الـواقعـة عند مـدخل الخليج العـربى لأسباب تتعلق بمقتضيات التجارة فى الهند .

وقد أثـر حرص بريطـانيا على إنشاء مـراكز لها على طول سـواحل الجزيرة العربيـة ، تأثيراً كبيراً فى تاريخ اليمن الحديث ، ولهذا يجب معـرفة حقيقـة النفوذ البريطـانى ومراكـزه فى الجزيـرة ، حتى يسهل فهم أثـر ذلك على تاريخ الإمـام يحيى.

---

(١) Hogarth ; Arabia, pp, 114-119.

كانت فرنسا ترمى من وراء احتلال مصر جعلها محطة أو خطوة أولى فى سبيل مهاجمة بريطانيا فى أغلى درة فى تاجها - أى فى إمبراطورية الهند - لذلك سارعت بريطانيا سنة ١٧٩٩ ، باحتلال جزيرة بريم (ميون) عند مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، وبالاتصال بشيوخ الجنوب العربى ، وخاصة منطقة عدن لتقيم معهم علاقات دبلوماسية ، وكان ذلك للمرة الأولى فى تاريخ المنطقة .

وواصلت بريطانيا مساعيها لتوطيد هذه العلاقات ، فعقدت شركة الهند الشرقية معاهدة تجارية مع سلطان لحج صاحب النفوذ فى عدن فى ٦ سبتمبر سنة ١٨٠٢ .

وزادت أهمية عدن أكثر فأكثر ، إذ فكرت تلك الشركة نفسها سنة ١٩٢٧ أن تسير سفنها فى رحلات منتظمة إلى مصر ، وهنا رغبت جادة فى امتلاك نقطة على هذا الطريق تجعلها محطًا لها . وكانت الدبلوماسية البريطانية فى هذه الآونة تعلب دوراً خطيراً فى الإمبراطورية العثمانية ، وتتبع سياسة ذكية مزدوجة ، وخاصة أن بريطانيا كانت ترى أن هذه الإمبراطورية الضعيفة لا تستطيع البقاء طويلا ، وأن الدول الأوروبية تطمع فى احتلال أجزاء منها .

فهى ترغب جادة فى الحصول على أجزاء من هذه الإمبراطورية ، وفى نفس الوقت تقف بالمرصاد أمام مطامع الدول الأوروبية الأخرى ، فى الإمبراطورية نفسها ، ولا تسمح لهذه الدول باحتلال أجزاء من أملاك الباب العالى - إلا تنفيذاً لخطتها هى ، ومقابل سكوت هذه الدول عن أعمال بريطانيا استطاعت أن تحصل على موافقة الباب العالى على احتلال ميناء عدن ، وكانت وجهة نظر السلطان هو دفع بريطانيا وإغرائها فى مساندته ضد والى مصر محمد على باشا ، الذى استطاع أن يكون إمبراطورية عربية خارجة على السلطان[1] .

وفعلا أحس « بالمرستون » وزير خارجية بريطانيا حينئذ ، بمدى خطورة

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، الجزء الأول ، ص ٣٨٨ .

وجود قوات مصرية فى الجهات المجاورة لمنطقة عدن هذه قرب مدخل البحر الأحمر الجنوبى ، وكانت القوات المصرية تحتل تهامة اليمن ، منذ مطاردتها للوهابيين من الجزيرة العربية عمومًا .

حاولت بريطانيا شراء ميناء عدن - ولكن سلطان لحج كان يرفض ذلك باستمرار ، عندئذ فكرت بريطانيا فى اللجوء إلى الطرق العنيفة للحصول على هذا الميناء الذى يزداد أهمية لها باستمرار . تقدمت بريطانيا للهجوم على المدينة بإحدى الحيل العديدة التى لا تجد جهداً فى إيجادها ، وسرعان ما افتعلت مبرراً تعتمد عليه ، وضربت عدن واحتلتها فى ١٦ يناير ١٨٣٩ ، ثم عقدوا عدة اتفاقيات مع السلطان فى ٢ و ٤ فبراير ، ثم فى ١٨ يونية ١٩٣٩ وتقضى جميعها بالاعتراف بملكية انجلترا لعدن ، فى مقابل منحة سنوية تبلغ حوالى ٥٦٠٠ ريالا تدفعها بريطانيا للسلطان .

إلا أن الأمر لم يستتب تمامًا بهذه الاتفاقيات ، فقد حاول العرب أكثر من مرة استرداد عدن ، والشيخ عثمان - ذلك الإقليم المتاخم لعدن ، الذى أصبح فيما بعد جزءاً من مستعمرة عدن ، بعد أن اشترتها حكومة الهند من سلطان لحج باسم الحكومة البريطانية فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢[١] - ولكنهم فشلوا دائما .

لم يقتصر نشاط إنجلترا على جنوب غرب الجزير ة العربية ، بل أسرعت إلى الركن المقابل ، إلى جنوب شرق الجزيرة ، فحصلت على بعض الامتيازات فى مسقط عند مدخل الخليج العربى ، وذلك بمقتضى المعاهدة التى عقدت فى ٣١ مايو ١٨٣٩ ، ولكن مسقط فى الحقيقة لم تصبح خاضعة أو تابعة لبريطانيا

---

(١) J C. Hurewitz ; dplomacy in the Near and Middle East, S. Van Naostrand, New York. 1956, Vol, 1. p, 126.

ويروى أحمد فضل بن على العبدلى فى كتابه « هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن » تفاصيل كثيرة عن محاولات إنجلترا لاحتلال عدن يجب الاطلاع عليها (ص١٤٣-١٤٥) وأهمية هذه التفصيلات تتضح فى أنها تمثل وجهة نظر عربية بعيدة عن الادعاءات الإنجليزية ، مع ملاحظة أنه أحد أفراد أسرة العبادلة التى منها سلاطين لحج .

كما كان الحال فى عدن مثلا ، بل كان لها كيانها المستقل المتميز(١) .

وكانت علاقات بريطانيا قد بدأت قبل ذلك سواء مع البحرين أو الكويت . وكانت البحرين تمثل مصيداً للؤلؤ عظيم الأهمية . وقد بدأت هذه العلاقات بين بريطانيا وبين البحرين سنة ١٨٢٠ ، عندما ارتبط شيوخ البحرين بالمعاهدات العامة - الخاصة بمنع القرصنة ومحاربة تجارة الرقيق . وأكد هذا الارتباط معاهدات ١٨٥٦ ، ١٨٦١ ، ١٨٦٨ .

أما اتفاقية ٣٢ ديسمبر سنة ١٨٨٠ بين بريطانيا وشيخ البحرين ، فكانت تقضى بإخضاع سياسة الشيخ الخارجية لبريطانيا ، أو بمعنى آخر - تقضى بالاقتطاع من مظاهر سيادته ووضعه تحت الحماية . فقد تعهد الشيخ بأن يمتنع عن الدخول فى مفاوضات أو عقد معاهدات من أى نوع ، مع أية دولة أو حكومة - غير الحكومة البريطانية - بدون موافقة بريطانيا ، وأن يرفض الشيخ السماح لأية حكومة غير الحكومة البريطانية ، أن تعين لها وكلاء دبلوماسيين أو قنصليين ، أو دعوة مندوبين أجانب للإقامة فى أراضيه ، إذا لم توافق الحكومة البريطانية(٢) . بل عقدت كذلك اتفاقية أخرى بينهما فى ١٣ مارس سنة ١٨٩٢ ، أكدت الشروط السابقة ، بل أوضحت أكثر فأكثر مدى الخضوع الذى جاء فى اتفاقية سنة ١٨٨٠ .

وقد جاء فى الاتفاقية الأخيرة ، أن على شيخ البحرين ألا يدخل فى أية علاقات مع أية حكومة غير الحكومة البريطانية إلا بموافقة بريطانيا .

كما عليه ألا يوافق بأية حال من الأحوال ، على التنازل أو بيع أو رهن أو احتلال أى جزء من أراضيه إلا للحكومة البريطانية(٣) .

---

(١) Hurewitz ; Diplomacy in the Near and the Middle East, Vol. 1, p. 127.

(٢) Wilson ; The persian Gulf, George Allen and Unwin, London 1954, p. 247.

(٣) Hurewitz ; Ibid , p. 299.

أما عـلاقات بريطـانيا بالكويت ، فقـد بدأت مبكرة نسبيًّـا وذلك فى سنة ١٧٧٥ ، عندما كان ميناء الكويت هو الميناء الوحيد الصالح للاستعمال فى هذه المنطقة الصحراوية ، فاستعملته بريطانيـا كمحطة بريد برية من الهند إلى البحر المتوسط وزاد بعد ذلك نفوذ بريطانيـا فى الكويت ، وتأكد بشكل واضح عندما حاول الباب العالى سنة ١٨٩٧ إعادة سيادته الاسمية على هذه المنطقة .

فأسرع الشيخ مبـارك الصباح ، الـذى تـولى الإمارة سنـة ١٨٩٦ ، يطلب حماية بريطانيا ضد هذه المحاولة العثمانية[١] .

وكان هذا انتصاراً دبلوماسيًّا لبريطـانيا على الباب العالى ، بل وحدث بعد ذلك أيضًا مـا أكد هـذه السيادة ، وذلك فى الاتفـاقية السريـة التى عقدت بين شيخ الكويت وبـريطانيـا . وقد تم ذلك عندما حـاولت إحدى الشخصيات الروسية المعروفة ، وهو الكونت كابنست KAPNIST عرض مشروع جديد يقضى بمد خط سكة حديد من شاطئ سوريا على البحر المتوسط إلى الكويت .

هنـا أسرع البارون كيرزون - الـذى أصبح حـاكما للهند بعـد عرض هـذا المشروع بسبعـة عشر يـومًا فقـط - إلى الحصول من الشيـخ على هذه الاتفـاقيـة السريـة ، التى تقضى بعـدم تنـازل شيخ الكـويت عن شىء من أراضيـه ، كما أكدت سيادة بريطـانيا على سياسة الكويت الخارجية . وقـد أصبح هذا الاتفاق السرى علنيًّا بعد سنة ١٩٠٣ ، عندما أثيرت مشكلة خط سكة حديد بغداد بين الباب العالى وألمانيا وإنجلترا .

أمـا اتفاقيـة ٢٣ ينـاير سنـة ١٨٩٩ (١٠ رمضـان سنة ١٣١٦هـ) فهى تقضى بأن يـوافق الشيخ مبـارك ابـن الشيخ الصبـاح شيخ الكـويت ، على ألا يسمح لأية دولـه بإقامـة ممثلين لها فى الكويت دون مـوافقة حكومـة بريطـانيا ، كـذلك تعهـد الشيخ ألا يتنـازل أو يبيع أو يرهـن أو يسمح باحتـلال أى جـزء

---

(١) Wilson ; The Persian Gulf , p. 252.

من أراضية بدون موافقة سابقة من حكومة بريطانيا[١] .

بعد هذا العرض العـام ، يمكن رسم خريطة سياسية لـلأوضاع القائمة فى الجزيرة العربيـة فى تلك الفترة الهامة ، التى سارت أحداثها متـوازية مع أحداث اليمن كما سيتضح فيما بعد .

وأهم ما يحدد خطوط هذه الخريطة ، هو وجود زعماء محليين ، استطاعوا أن يستمدوا كيانهم وسلطتهم من ظروف اجتماعية وتاريخية خاصة بمناطقهم .

فكان هناك الشريف حسين فى مكة ، وعبد العـزيز آل سعود فى الرياض ، والإدريسى فى صبيا فى عسير ، والإمام يحيى فـوق الجبال الشمالية فى اليمن ، وآل الرشيـد فى حائل فى الشمال ، والصباح فى الكـويت . وإلى جانب هـؤلاء كانت هنـاك مشيخـات وإمـارات صغيرة على السـاحل الشرقى والجنـوبى للجـزيـرة العربية .

ولا شك أن العثمانيين والإنجليز كانا يمثلان القوتين الفعالتين فى أحداث الجزيرة حينئذ . فكـانت إنجلترا تحرص على تأكيد نفوذها على السـواحل ، طبقًا لمخططها السياسى الاستعمارى العام .

وكان نفوذ العثمانيين يختلف قوة وضعفًا من مكان إلى آخر فى هذه البقاع ، تبعًا لصلتهم بهذا الأمير أو ذاك ، وتبعًا لقوة الحامية الموجودة فى المنطقة .

وقد عـرفنا موقفهم من الشريـف حسين ، ومدى نفوذهـم عليـه ، علماً بأنه كانت لهم حامية دائمـة قوية فى المدينة . أما فى حائل فكـان أمراؤهم آل الرشيد يعترفون بسيادة العثمانيين عليهـم ، وكثيراً ما كانوا يستنجدون بهم ضـد عدوهم عبد العزيز آل سعود .

أما عبـد العزيـز فكان فى خصـام مع الترك ، لأنهم يسـاعدون آل الـرشيد ضـده فى القصيم ، لذلك قـويت علاقتـه مع الكويت التى كـانت تخضع غير

---

(١) Wilson ; The Persian Gulf, P . 219.

مباشرة لحماية الإنجليز ، فكان الشيخ مبارك الصباح يعتمد على مساندة بريطانيا له ، وخاصة منذ سنة ١٩٠٣ ، وعلى المساندة التى وفرتها له وجود المقيم الإنجليزى منذ ذلك التاريخ . فتعاون الصباح مع ابن سعود على مهاجمة عشائر المنتفق فى العراق ، وكان الأتراك كثيراً ما يستعملونهم . كما هاجم كلا الأميرين - الصباح وابن السعود - جبل شمر أيضًا ، خاصة أن الأمير سعود ابن الرشيد الذى تولى الإمارة سنة ١٩٠٨ ، كان طفلا صغيراً وتولى الوصاية عليه أبناء عمومته . وكان للعثمانيين السيادة العسكرية فى الأحساء إلا أن هذه السيادة لم تدم طويلا . ففى ربيع سنة ١٩١٣ انقض عبد العزيز آل سعود على الأحساء وأخذ « الهفوف » ثم بعد فترة قصيرة استولى على « القاطف » وأخرج الترك - سواء العسكريين أو المدنيين - من هذه المنطقة ، بعد أن مكثوا بها أكثر من أربعين عاما . وهنا بدأ ابن سعود محاولاته فى الاتصال بالانجليز والاستعانة بهم، وكان لأمير الكويت دور فى التقريب بين الطرفين(١) .

أما فى جنوب غرب الجزيرة ، فلم يكن وضع العثمانيين أحسن حالا ، إذ كان الإدريسى والإمام يحيى يتمتعان بوضع خاص فى عسير واليمن ويناوئان الحكومة السيادة والنفوذ ، مما يتعارض مع مبدأ الحكومة ، إذ كانت ترسل القوات والمعدات لإخماد هذه الثورات التى لم تنته فى اليمن إلا فى سنة ١٩١١ ، عند عقد صلح « دعان » وهو خاص بالإمام يحيى فقط .

أما الإدريسى فواصل ثورته ضد الأتراك حتى بعد قيام الحرب العالمية الأولى .

أما نفوذ العثمانيين على الساحل الجنوبى والشرقى للجزيرة ، فكان معدوما تقريبًا ، إذ كان الانجليز هم أصحاب النفوذ الفعلى المباشر فى هذه الجهات ، كما سبق أن بينا .

---

(١) Hogarth ; Arabia, PP. 123-124

القسم الثانى

اليمن تحت الحكم العثمانى

(١٩٠٤ - ١٩١٨)

الباب الأول

الإمام يحيى منذ توليه الإمامة
حتى عقد صلح « عدان »

(١٩٠٤ - ١٩١١)

الفصل الأول

بيعة الإمام يحيى بالإمامة

مولده ونشأته :

ولد يحيى حميد الدين بمدينة صنعاء فى شهر ربيع الأول سنة ١٢٨٦هـ . (يونيـة سنة ١٨٦٩)[١] . وتاريخ ميلاده مختلف عليه بعض الشىء ، فيذهب محمـد حسن فى كتـابه « قلب اليمن » إلى القـول إنـه ولـد سنة ١٢٨٥هـ[٢] ، ويذهب آخرون إلى أنه ولد فى سنة ١٨٧٦م[٣] . ولكن هذه التواريخ المتضاربة لا تعنى الشىء الكثير فنحن نميل إلى الأخذ برواية الـواسعى ، التى يؤيدها كل من الجرافى ونزيه العظم .

وقد صـاحبت طفولته وصباه ، أحـداث قاسية ، وقـد سبق أن أوضحنا فى الفصل السابق طرفًـا من هذه الظروف السياسية والاجتماعيـة والاقتصادية التى صـاحبت نشأة الإمام يحيى الأولى ، فترددت أصـداؤهـا فى نفسه ، وسـاهمت فى تحديد نوع تفكيره واتجاهاته .

تربى الإمام يحيى تـربية خاصة عـربية إسلامية صرفـة ، ويقول أمين سعيد عنـد ترجمة حيـاة الإمـام يحيى « اعتدنـا ونحن نـدون تراجم العظماء من رجـال العصر الحاضر ، أن نـذكـر أسماء المدارس التى تخرجـوا منهـا ، والشهـادات أو

---

(١) عبـد الواسع بن يحيى الـواسعى اليمانى : تـاريخ اليمن المسمى فـرجة الهمـوم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٦هـ . ص١٩٤.

(٢) محمد حسن : قلب اليمن ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٤٧ ص ٩٦ .

(٣) Revue du Monde Nusulman . Tome., 111, p, 52.

الرتب العلمية التى يحملونها ، وأسماء المدارس أو الجامعات التى منحتها . أما فى سيرة الإمام فالأمر غير ذلك ، فنحن موردو أسماء العلماء الذين درس عليهم ونال إجازاتهم بالتدريس - وهى الطريقة التى كانت متبعة فى العصور الإسلامية القديمة ولا يزال بعض علماء الدين الإسلامى يسير عليها »[1] .

ولذلك نرى أن دراسة الإمام يحيى كلها إسلامية محضة لا علمانية ، ونرى الكتاب التقليديين الذين كتبوا عنه ، يذكرون العلماء الذين أخذ عنهم ، فيقولون مثلا إنه أخذ الحديث عن القاضى العلامة المتحدث ... والتفسير عن المفسر الكبير ... ودراسته تنحصر فى فروع العلم الإسلامى البحت ، مثل القرآن والتفسير والحديث وعلم الكلام وأصول المذهب الزيدى وغيرها .

وقد اعتنى والده المنصور بتنشئته تنشئة دينية حربية ، تتفق والدور السياسى الذى كان يعده للقيام به ، وتتلازم مع كون المنصور نفسه أحد كبار السادة الزيديين ، كما اتضح فى الفصل الأول .

عاش الإمام يحيى سنواته الأولى مع والده فى صنعاء ، وكان يشاهد عن كثب مجريات الأمور ، وكان يشارك أباه فى الأحداث مشاركة فعلية إيجابية ، وخاصة بعد أن هاجر من صنعاء معه سنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠م) إلى جبل «الأهنوم» عندما بويع المنصور بالإمامة .

ومما لا شك فيه أن الإمام المنصور ليس هو الذى بدأ طوراً جديداً من أطوار حياته بعد مبايعته وهجرته فحسب ، بل إن ابنه سيف الإسلام يحيى كذلك قد بدأ فترة جديدة فى حياته ، خاصة وأن عمره حينئذ كان قد بلغ نحو واحد وعشرين عامًا ، أى شابًّا يافعا يستطيع أن يدرك كل ما حوله من أحداث ، بل يستطيع أن يشارك فيها مشاركة فكرية ومادية . فنراه قد شارك أباه فى الثورات المتعددة التى قام بها ، كما كان يقوم بالاتصال بالقبائل المختلفة ،

---

(١) أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرين ودولهم ، مطبعة الحلبى ، القاهرة ١٩٣٣ ، ص ١٦٩ .

ويكتل جهودهـا ويحشد رجـالها لمهاجمة صنعاء ، أو للـدفاع عن مـراكز الزيدية المحصنة فى الشمال ضد زحف الأتراك ، وكذلك لمهاجمة مراكز العثمانيين الحربية المتناثرة هنا وهناك .

ويقول الجرافى عند كلامه عن أحداث سنة ١٣٢١هـ . (١٩٠٣) م :

« قـام سيف الإسـلام يحيى ببعض المجهـودات الضخمـة فى الاتصـال بـالقبـائل وتنظيمهـا وتجهيز الجيـوش منهم للـزحف على البـلاد التى تحت يـد الأتراك، وقد تلقاه الأهالى بالطاعة والترحيب »(١) .

وأخيراً يمكن القول إن شخصية الإمام المنصور ، وسياسته ، وأحداث فترة حكمـه - إلى جانب العلماء ، والسـادة الـزيديين الملتفين حـولـه ، كانت كلهـا عوامل عظيمة الأثر فى حياة الإمام يحيى وآرائه وسياسته فيما بعد . وهذا ما يؤدى بنا إلى القول إن عهـد الإمام يحيى ، كان صورة تقليدية وامتـداداً لعهد السابقين من الأئمة ، لتشابه النشأة والظروف والأوضاع .

مبايعته بالإمامة :

« اشتد المرض بـالإمام المنصـور فى سنة ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) وفى شهر ربيع الأول من هـذه السنة توفى إلى رحمة الله بـ « قفلة عـذر » من بلاد حـاشد ، فكتب ولـده سيف الإسـلام يحيى إلى العلماء يستـدعيهم فحضروا ونعى اليهم والده الإمـام ، وطلب إليهم أن يختاروا من يقـوم بالأمر بعـده ، فاتفقت كلمتهم جميعًـا على أن لا يقوم مقـام الإمام أحـد مثل ولـده ، وبايعـوه بـالإمامـة وتلقب بالمتوكل »(٢) .

هذه هى الصـورة التقليدية التى يجب أن يذكـرها مؤرخـو اليمن عن تولى

---

(١) عبد الله عبد الكريم الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢١٥ .
(ويلاحظ أن الجغرافى يكتب تاريخه على طريقة الحوليات) .
(٢) نفس المرجع : ص ٢١٧ .

الإمام يحيى الإمامة ، ولكن هناك كثيرا من العوامل تؤدى إلى اهتزاز هذه الصورة أمامنا . فطبيعة المذهب الزيدى لا تحتم أن يرث الأبناء الإمامة ، والمجتمع اليمنى مقسم إلى قبائل لا يمكن جمع كلمتها بسهولة ، إلى جانب وجود الحكم العثمانى فى اليمن ، ووجود إنجلترا فى المحميات وهما أصحاب مصالح خاصة فى هذه المنطقة.

كل هذه عوامل تجعلنا لا نستطيع أن نقبل الصورة التى رسمها لنا الجرافى عن تولية سيف الإسلام يحيى الإمامة عند وفاة والده بكليتها ، وأن البيعة تمت بهذه السهولة ، أو أنه لم يكن هناك من يعارضها بعد إعلانها .

وهذا ما يدعونا أيضًا إلى رفض ما قاله سلفاتور ابونتى الكاتب الإيطالى عند حديثه عن التولية إذ يقول « ارتقى يحيى عرش اليمن بدون جلبة ولا ضوضاء ، وبموافقة إجماعية . وكان أول عمل قام به ، هو أنه شهر الحرب على الأتراك ، وهاجمهم بعساكره ...[1] .

كما يعطينا الواسعى صورة أخرى عن المبايعة أكثر عمقًا وتفصيلا عن الصورة السابقة - ولكنها تحمل نفس المعنى فيقول « ولما كانت وفاة والده الإمام المنصور بالله رضوان الله عليه فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ ، أجمع من كان بمحروس « قفله عذر » من علماء صنعاء وبلادها ، و « ذمار » و « صعدة » و«حوث » على مبايعتهم له ، فامتنع عن قبول المبايعة له منهم ، وبذل بيعته لمن يرونه أهلا للقيام بها . فما زال أولئك الأعلام فى مراجعة له وإلزامه الحجة بوجوب قيامه بأمر المسلمين والإسلام حتى أسعدهم (بقبولها) وكانت دعوته المباركة فى ٢٠ ربيع الأول سنة ١٣٢٢ هـ ، وتلقب المتوكل على الله رب العالمين ، وضرب على سكته « عصمتى بالله المتوكل على الله » ثم وصلت إليه بيعة جميع علماء هجرة «حوث » ، ومدينة « شهارة » وسائر المدن

---

(١) سلفاتور ابونتى : مملكة الإمام (ترجمة طه فوزى) ص ٥٥ .

و البلـدان وكانت لدعوته الصولة فى جميع البلاد ، ووفدت إليه الرؤساء والمشايخ والأجناد من الأغوار والأنجاد[1] .

وإن كانت هـذه الصورة « الواسعية » تعبر عن المعنى الـذى لا نقبله على عـلاته ، إلا أنها فى نفس الـوقت ، تحمل فى طياتها المعنى الـذى نقصده والـذى سبق أن نوهنـا به . فإن امتناع الإمام يحيى عـن قبول الإمامة « فـامتنع عن قبول المبايعـة له منهم » كان فى المنزلـة الأولى يرجع إلى رغبته فى أن تكـون البيعة على شكل أوسع ، ومن جميـع السـادة والعلماء والمشـايخ فى شتـى جهـات اليمن ، إحساسًا وإدراكـا منه بأهمية جماعية البيعة فى هذا الـوقت الحرج بالذات حتى لا يظهر من يناوئه فيما بعد - أو حتى فى نفس الوقت - فى جهة أخرى من اليمن .

ويؤكـد هذا أنه يعرف جيـداً طبيعة المذهب الزيدى ، ويـدرك بالتفصيل التاريخ الإمامى الطويل فى اليمن الملىء بالتنافس والنزاع بين الأئمة .

ومـا ذهبنا إليـه فى أمر تـوليته تـؤيـده كثير من الأحداث الـواقعية ، فبعـد مبـايعته ، لاقـى الكثير من الصعاب والمضـايقـات التى أثـارها أمـامـه بعض المنافسين الذين ظهروا فيما بعد .

واحتاجت هذه الصعاب وقتًا طـويلا من حكمه لمعالجتها - إن لم نقل إنها كانت من المشكلات التى حددت طبيعة أعمالـه طوال فترة حكمه - فإحساسه بالخوف من المنافسين سيفسر لنا كثيراً من الأحداث التاريخية التى ستواجهنا على مدار البحث . وقد احتاج وجود منافسين لـه منذ اللحظة الأولى لتولية الإمامة ، إلى القيام بحروب مستمرة سواء على الهضبة ، أو فى السـاحل .

فنرى حتى بعـد تولى الإمـام يحيى الإمامـة - نظراً لضعف قـوته ولضعف السيطرة العثمانية على أجزاء اليمن المختلفـة - أن كل شيخ قبيلة أو رئيس قرية يحسب نفسـه الزعيم الـوحيـد فى البلاد ، وأن من الـواجب على الأهـالى طاعتـه وتأدية الضرائب والزكاة له .

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

كما « قام بعض السادة يطالبون بالإمامة ، غير معترفين بإمامة يحيى ، ومنهم أحد أبناء عمومته ، ويدعى أحمد بن قاسم حميد الدين الضحياني »[١] . كما كان هناك أسرة أخرى تنافس أسرة الإمام يحيى على الإمامة هى أسرة شرف الدين التى كانت تعتمد على إثارتها لبعض القبائل الشافعية[٢] .

واستمر ظهور هذه المنافسات حتى بعد أن استطاع الإمام يحيى إخضاع الضحيانى ، وحتى بعد الحرب العالمية الأولى . يقول الريحانى « فعند إعلان الهدنة « سنة ١٩١٨ » وانسحاب الأتراك من اليمن ، تحرك بعض المدعين إلى صنعاء ، فى نفس الوقت الذى تحرك فيه إليها الإمام يحيى ، بل ولجأ بعضهم إلى أعداء الإمام ، وملوك وأمراء البلاد المجاورة ، فكانوا يكاتبون سرًّا الملك حسين ابن على ، والإدريسى ، وحتى الإنجليز ، يطلبون العون منهم ، للتغلب على الإمام يحيى »[٣] .

ويستطرد الريحانى قائلا « إن الحزب المناوئ للإمام يحيى حاول إرسال وفد إلى الحجاز ، سافر رجاله عن طريق مأرب سنة ١٩١٩ ، وقصدهم السفر إلى الحجاز شاكين مستنجدين ، ولكن الإنجليز لم يأذنوا لهم بالمرور ، فرجعوا إلى بلادهم ، وقد سمعت من مصادر شتى ما يدهش ويضحك من أخبار هذه الفئة وأغربها أن الإمام يحيى رشا بعض الموظفين الكبار من الانجليز فى عدن، ليوقفوا أعضاء الوفد ، فحققوا له تلك الرغبة »[٤] . وهذه القصة بالرغم من شكنا فى بعض تفاصيلها فإن لها دلالتها الهامة ، وهى توضح بجلاء ما ذهبنا إليه من أن مبايعة الإمام يحيى لم تكن إجماعية وأنه ظهر

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ١٥٩ .

(٢) General Edouard Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 71 .

(٣) ، (٤) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

لـه بعض المنافسين على الإمـامة بعـد تـوليه لها ، ذلك الأمـر الذى كـان يحدث باستمرار بين الأئمة الزيديين قبل ذلك .

ومن الطريف إمعـان النظر فيما قالـه الريحانى كـذلك بصدد توليـة الإمام يحيى إذ قال « وبعـد وفاة المنصـور ظفر ابنه يحيى المتـوكل على الله بالإمـامة »[1] فنحن لا نعتقد أنه أورد لفظ « ظفـر » إعتباطًا ، بل نرى أنه كـان يقصد أن تولى الإمام يحيى الإمامة كان محفوفا بالصعاب ، فاستعمل هذا اللفظ بدلا من «نال » أو « تولى » .

وقد شهـد شاهد من أهلهـا - كما يقول المثل العربى - إذا قـال أحد تجار صعدة عنـد وصولـه إلى عدن فى أمـور تجارية - عنـدما سئل عن أحـوال اليمن السياسيـة « ... وقد قام إمام ثـان (المعروف أن الأول هو الضحيـانى) فى جهة صعدة فلم يتبعه إلا رجال قليلون ، فأرسل إليه الإمام حميد الدين « يقصد يحيى» قوة سحقته ، فقدم الخضوع والطاعة ، وكذلك الإمام الثالث المسمى القاسمى ، فإنه قد قهر وخضع لحميد الدين .. »[2] .

ويمكن أن نخلص من هـذا كله إلى وجود صعـوبات عـدة قابلهـا الإمام يحيى عنـد مبايعتـه وبعد ذلـك ، وهذا مـا دعانـا إلى منـاقشة روايـات المبايعـة المختلفة .

وأخيراً يمكن أن نخـرج بالنتيجـة الآتيـة : عند وفـاة الإمـام المنصور سنـة ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م) كـان الإمام يحيى يبلغ من العمـر حينئذ حـوالى خمسـة وثلاثين عـامًا ، وأن الفترة التى عاشها فى كنـف أبيه المنصور كانت فـرصة كبيرة للقيام ببعض الأعمال التى أكسبته الشهرة بين الزيديين ، وأن الفترة نفسها مكنته من أن يرى عن كثب طبيعة العلاقـات ، وحقيقة الأوضاع السائدة حينئذ . لهذا

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) الأهرام : العدد ٩٧١٨ الصادر فى ٣ مارس ١٩١٠ (٢٠ صفر سنة ١٣٢٨هـ) ص ١ .

كله استطـاع أن يحصل على مبايعة من كانـوا حوله فى « قفلة عـذر » حيث توفى والده[١] .

إلا أن بيعتـه فى « قفلـة عذر » كـانت غير نهائيـة ، أو بإجماع اليمنيين ، أو حتى كل الزيـديين فقط ، بل كانت مبايعتـه هناك هى نقطة انطـلاق فقط لبناء مستقبله السياسى فى اليمن .

---

(١) روى لنا السيد محمـد أحمد النعمان أحد زعماء الاتحاد اليمنى - بعد مناقشة الرسـالة - أنه سمع من المعمرين بـاليمن أن الإمام يحيى أغلق على المجتمعين - لانتخاب إمام جـديد بعد وفاة المنصور - باب غرفة الاجتماع ، وتـرك « ناصر مبخوت الأحمر » حارسًا عليها فلما سمعهم الحارس يتداولون الرأى فى انتخاب الإمام يحيى أو انتخاب غيره ، هاجم الاجتماع وهددهم بالقتـل وقال « مابش (ليس هناك) إمام غير سيـدى يحيى » . ومن المعروف أن آل الأحمر كانوا من أكبر الثائرين على حكم أسرة حميد الدين فيما بعد .

الفصل الثانى

علاقة الإمام يحيى بالعثمانيين بعد توليه الحكم

ثورته ضد الترك وحصار صنعاء سنة ١٩٠٥ :

لا نتوقع أى تغيير لطبيعة العلاقـات بين الأئمة والعثمانيين - التى رأيناها قبل ذلك - بعد تـولى الإمام يحيى الإمامـة ، بل ظلت العلاقـات كما هى نتيجة استمرار الظـروف والأوضاع ، وبقـائها على حالها ولـذلك فعندمـا تولى الإمـامة انتهج نفس المنهج الذى شاع قبله ، ووقف موقفًا عدائيًا من العثمانيين ليجبرهم على الاعتراف بـوضعـه الخاص . ولهذا يمكن أن نفهم مـا قالـه أمين سعيـد عن أعماله عقب إعلان مبـايعته : « أسرع بإشهار الجهاد ضد الأتراك ودعـا قومه إلى مواصلـة الحرب للتنكيل بالترك الذين سعـوا فى الأرض بالفساد وتـركوا الشرائع وظلموا العباد » ، كما جاء فى منشور أذاعه يومئذ[1] . وقد ذكرت ويفل Wavell فى مقدمة كتابها الذى يتناول أساسًا ثورة ١٩١١م تأييداً لما ذهبنا إليه من أن كلا من فترة حكم المنصور وفترة حكـم الإمام يحيى الأولى بالـذات كانتـا متشابهتين تمامًـا بل تماثلت أحـداثهما ودوافعهما فتقــول : « حتى العشرين سنــة الأخيرة (السابقـة لسنة ١٩١١) بينما كان العرب والترك يتنـازعون حول تقـرير المصير ، كان تاريخ اليمن تاريخ السيف والنـار فهو تسجيل للمعارك والحصار ، أماكن تؤخذ عنوة ، وحاميات تخضع نتيجة الجوع ، ومذابح وحشية وانتقامًا قاسيًا»[2].

تمكن الإمام يحيى بعـد توليه الإمـامة من حصـار صنعاء ، ويقال إنـه كان

---

(١) أمين سعيد : اليمن ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ٢٧ .

(٢) Wavell ; A Modern pilgrim in Mecca, p. v.

معـه حـوالى عشرين ألف يمنى ، وإن الكثير منهم كـان أغلبهـم من القبـائل الشافعية[١] . ورغم أن هـذه الروايـة تحتـاج إلى مناقشـة بعض نقـاطها - وهـذا سيتضح فيما بعد - إلا أننـا الآن نقول إن الحرب اشتدت بين الطـرفين ، وبدأت المدن اليمنية تتساقط الواحدة تلو الأخرى فى يد الإمام وأتباعه ، فسقطت مدينة « عمـران » و « حجة » و« ثـلا » وغيرهـا ، وانتقل الإمـام من « قفلة عـذر » إلى «حـوث » إلى « خمر » إلى « عمـران » ثم إلى « كوكبـان » وهنـا وصلت الأتـراك إمـدادات كثيرة جمعت من مختلف المراكز لفـك الحصار عن صنعـاء ، لكنهم لم يستطيعوا ذلك . ووصلت بعـد ذلك قوة هائلة من الجنـود العثمانيين بقيادة رضا باشا إلى الحديدة ، واتجهت إلى صنعـاء فى استعداد كامل ، وانضم إليها البعض من رجال قبائل « يام » فتلقاهـم أصحاب الإمام فى « الحيمة » و « بلاد البستان » ونهبوا مـا كان معهم من مـؤنة وسلاح ، واستسلمت قبـائل « يام »[٢] ، وقدمت الطاعة لأتباع الإمام الذين ساقـوهم إلى « كوكبان » فأمرهـم بإلقاء السلاح إبقاء على أرواحهم . ووصلت القوات التركية إلى صنعاء فى حـالة يرثى لها ، وكان من جراء ذلك أن زادت الشـدة على من فى صنعاء[٣] . وقد أعطانـا الواسعى وصفًا دقيقًا صريحًا للحالة القاسية التى وصلت إليها حالة اليمن ، وخاصة فى صنعاء، فى تلك الفترة فقال :

« .. تجمعت القبائل على صنعاء وتكاثـرت ، وضاقت على أهلها بما رحبت واشتد الحصـار ، وخرج الناس الصغار والكبـار والنساء والمخدرات ، وقـاسوا عظيم الأهوال ، وبـاعوا جميع الأمـوال والأمتعة والفـراش وكان الثمن فى غـاية الرخص لعـدم (وجود)[٤] المشترى حتى إن بعضهم يـؤجر الحامل إلى السـوق

---

(١) Bremonl ; Yemen et Saoudia, p. 72.

(٢) سيأتى ذكـر قبـائل « يـام » هذه مـرات أخـرى وخـاصـة فى أثنـاء تناول الأزمـة اليمنيـة السعودية.

(٣) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢١٩ .

(٤) لا توجد فى الأصل .

ويعجز عن أجـرته ثم لا يجد مشتريًا ، ثم يأخـذ الحامل نصف ما حمل ، والجوع عم اليمن بسبب الفتن ، وبـا لمحاصرات تـرك الزراع الزراعـة وخلت من اليمن قرى كثيرة مات أهلهـا من الجوع . وفى « خولان » كانوا يأكلـون التبن بعد طحنه ومات فى قـرية « القـابل » خارج صنعـاء ١٦ مائة [١]غير الذين مـاتوا فى سائر القرى حول صنعاء . ووجد فى « سهام » على قارعة الطريق موتى ٥١ نفسًا . وفى داخل صنعاء أمر المفتى[٢] البوليس وطائفة من الجنود أن يهاجموا بيوت التجار ، والأعيان من أهل صنعـاء ومن كان منظوراً إليـه باليسار ، ويأخذ مـا لديهم من الحبوب لأجل عساكر الدولة وأخذ كل شىء يؤكل »[٣] . نعم لقد اشتد الحصار على صنعاء ، وسـاءت الأحوال عمـومًا إلى درجـة كبيرة ، وهنا خـرج بعض كبار الأتراك وبعـض كبار الأهـالى لمقابلة الإمـام فى « كوكبـان » لتسليم المدينـة له ، فأرسل إليهم لإتمام التسليم سيف الإسلام أحمد بن قاسم الدين ثم انتقل هو إلى قرية القابل[٤] . وقد اشترط الإمـام لإتمام الصلح خروج الأتـراك من صنعاء إلى «حراز» على أن يتركوا له ما للحكومة من مال وسلاح ، وعلى أن يقوم الإمام بنقل أمتعتهم وتأمين طـريقهم . وقد استطـاع الإمام أن يـدخل المدينة رسميًّـا فى ٢١ أبريل سنة ١٩٠٥[٥] . وعندئذ أعلنت أكثر البلاد الطاعـة للإمام ولم يبق بأيدى الأتراك سوى مـدينتى « تعز » و « إب » وبلاد « حـراز » و « التهائم » و « قفلة شمر » طبق شروط الهدنة .

حروب فيضى باشا لفض الحصار :

وقـد دامت الحال على ذلك عـدة أشهـر انتظـاراً لـرأى البـاب العـالى فى

---

(١) هكذا وردت فى الأصل .

(٢) كان معروفاً بميوله نحو الترك ومعاداته للإمام .

(٣) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٤) وهى قرية قريبة من صنعاء فى الشمال الغربى منها .

(٥) Bremond ; Yemen et Saoudia, p, 72 .

المفاوضات لعقد صلح يوافق الطرفين ، ولكن الباب العالى كان قد عين فى أثناء ذلك أحمد فيضى باشا واليًا على اليمن للمرة الثالثة ، وهو معروف بشدته وقسوته ومهـارته الحربيـة ، وخبرتـه بالبـلاد ، وكـان حينئذ فى شمال نجـد ، فأسرع عبر الجزيرة - بـالرغم من أنه كـان يبلغ ٧٥ سنة - ممتطياً جواده إلى جـده ومنها إلى الحديدة فوصلها فى ٧ يـونية سنة ١٩٠٥ ، وكان الوضع قـد جمد مؤقتًا بين الإمام وبين العثمانيين فى مراكزهم التى حددت سلفًا . نزل فيضى باشا بالحديدة حيث لحقته الإمـدادات الكبيرة ، وخرج منها إلى « منـاخه » حيث انضمت إليـه باقى القوات العثمانية ، وخاصـة التى كانت فى « حراز » ثم اتجه إلى صنعاء ، وأخضع القبـائل التى قـابلته أثنـاء زحفـه حتى وصل إلى جبل « عصر » المقـابل لمدينـة صنعاء ، فانسحب الإمام ومن معه من صنعاء خـوفًا على أهلها إلى بلاد حاشد ، فدخلها فيضى باشا فى أول سبتمبر من نفس العام[1] . هكذا وصل الوضع بعد أن وصل فيضى بـاشا إلى صنعـاء ، وانسحـاب الإمام منهـا إلى بـلاد حاشـد فى الشمال . ولكنا فى نفس الوقت يجب أن نضيف إلى جانب حجة الخوف على أهل صنعاء كتبريـر ظاهـرى للانسحـاب ، إحساس الإمـام يحيى بأهمية القـوة التى تصاحب أحمد فيضى باشا ، وأنه يمكنه أن يحاصره مع قواته داخل صنعاء ، وأن يقضى عليهم جميعًـا نهائيًـا ، ولذلك أسرع بـالانسحـاب والالتجاء إلى الجبـال الشمالية للتحصن بها .

لم يهدأ الحال عنـد استرجاع صنعـاء ، بل كـان أمام فيضى بـاشـا مرحلـة طـويلـة ليتمكـن من السيطـرة على الأمـور فى اليمن ، فما زالت بقيـة الهضبـة الشمالية فى يد الإمـام ، وما زالت القبائل تعلن تمردها هنا وهنـاك ، لذلك خرج فيضى باشا من صنعاء يريـد إخضاع بقية الهضبة . وهنا اتبعت القبائل التابعـة للإمام حركات عسكرية « فـابية » فكانوا ينسحبون باستمرار ، فيتبعهـم فيضى بـاشـا بغية القضـاء عليهم ، ولكن كـان ذلك يبعـده عن مـراكزه الـرئيسيـة فى

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٠ .

صنعـاء وفى الساحل ، وكـانت القبـائل تـريد أن تقطع صلتـه بصنعـاء وتفنى الجيوش العثمانية بين الصخور الصماء التى لا يعرف مسالكها أحد غيرهم.

وفعلا نجحـت الخطة ، واضطربـت نظم الفرق العثمانيـة ، ونتيجة المرض والإجهاد وقلة الإمدادات تلاشت معنوية الجنود تدريجيًّا فكان النصر (الحقيقى) حليف العرب . وعنـد عودة فيضى بـاشا إلى صنعـاء قابلـه الإمام بقـوة أخرى ، فعرج فيضى باشا على « عمران » ووصل إليها بعـد خسائر فادحة وبعد أن فقد أكثر من نصف جيشه ، ولكنه قام بمجهـودات مضاعفة حتى استطاع أن يرجع إلى صنعاء ، حيث كانت القبـائل قد التفت حولها ثانيـة وحاصرت الحامية التى تركها فيها[1] .

ولكن فيضى بـاشا على كل حـال ، وعلى الرغم مما لاقاه فى حـروبه ، قـد استطـاع أن يستولى على المدن الهامـة التى تحت سيطـرة الإمـام ومنها « شبـام » و«كـوكبان » و « عمـران » و « حجة » وغيرهـا ، ولكنـه فشل فى زحفه على بـلاد «شهارة »[2] .

المفاوضة مع الإمام :

كانت هـذه العمليات الحربيـة الكبيرة المستمرة ، تكلف الـدولة كثيراً من المال والـرجـال ، فضـلا عن أن قضيـة اليمن كـانت تشغلهـا عن المشكـلات الأخـرى الكبيرة الخاصة ببـاقى الإمبراطوريـة العثمانية الـواسعة . لـذلك لجأت الدولة إلى طريق المفاوضة ، وهى فى هـذا تكرر أعمالها السابقة من حرب وثورات إلى هدنـة ومفاوضـة ، كما ذكرنـا من قبل - وستكرر ذلك مـرات أخرى مما يدل دلالة واضحة على عجـزها فى معالجة شئون اليمن . وعلى هـذا أرسلت الحكومة وفـداً لعقـد الصلـح مع الإمـام ، فقـدم الأخير شروطًا معينــة نحب أن نثبتهـا

---

(١) الجراف : المتقطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٠ .

(٢) Jucob ; Kings of Arabia , p 111.

كاملة ، حتى تكون أمام أعيننا جميعًا ، لنعلق عليها ونستخرج منها ما نشاء.

وقد ذكر لهذه الشروط مقدمة ، كما ذيلها بمؤخرة فيقول :

« وافقت مستمداً بعون الله على شرط الصلح ما بينى وبين مأمور سلطان الإسلام ، الذى أدعو الله أن يؤيد ملكة لإطفاء نار الحرب الموقدة ، وأن تستبدل الفوضى والعداوة بالصداقة ، لتسلم البلاد من القلاقل وتحقن الدماء ، وتزول المحن من هذه البقعة ، ويستتب الأمن ويربط المؤمنون برباط الإخاء التى لا انفصام لها ، ويرتفع الظلم من بينهم :

١- أن تطبق الأحكام وفقًا للشريعة الإسلامية الغراء .

٢- أن يعود إلى الإمام حق عزل القضاة وحكام الشرع وتعيينهم .

٣- أن تكون معاقبة الخائنين والمرتشين منوطة بالإمام .

٤- أن تخصص رواتب كافية للحكام والموظفين كى لا تدفعهم قلة ذات اليد إلى الارتكابات (أى ارتكاب المعاصى) .

٥- أن تحال الأوقاف إلى عهدة الإمام لإحياء المعارف فى البلاد .

٦- إقامة الحدود الشرعية على مرتكبى الجرائم من المسلمين والإسرائيليين كما أمر الله تعالى بها وأجراها رسوله والتى أبطلها المأمورون الترك كأنها لم تكن شيئًا مذكوراً .

٧- يؤخذ العشر من المزروعات التى تسقى بماء السماء ، وأما التى تسقى بمياه الآبار فيؤخذ منها نصف العشر بعد أن يقدر ذلك أرباب الخبرة ، وإذا حصل خلاف يرجع إلى الأصول التى وضعها عبد الله بن رواحة فى « الخرص » ويؤخذ عن البقر والغنم والإبل النصاب الشرعى ، وأما الأراضى التى تغل مرتين أو ثلاثة فيؤخذ عنها نصف العشر أو ربعه ودفع ما سوى ذلك من التكاليف .

٨- جباية الأموال المار ذكرها تكون بواسطة مشايخ البلاد تحت نظارة مأمورى الدولة ، وإذا تجاسر أحد على أخذ زيادة عن التكاليف المار

ذكرها فعزله أو تحديد الجزاء له راجع إلى الإمام - ولا يكون للإمام علاقة بقبض الأموال الأميرية .

٩ - تعفى عشائر حاشد وخولان والحدا وأرحب من التكاليف .

١٠- يسلم كل من الفريقين المتعاقدين الخائنين الذين يلتجئون إليه .

١١- إعلان العفو العام فى البلاد كى لا يسأل أحد عن ماضيه .

١٢- أن لا يولى أحد من أهل الكتاب على المسلمين .

١٣- أن تشمل أحكام هذه المواد المار ذكرها صنعاء وتعز وملحقاتها .

١٤- أن لا تتدخل الحكومة فى شئون « آنس » ولا تعارض الإمام فى تعيين المأمورين لهذا القضاء لفقر سكانه وقلة حاصلاتهم ، ولما يخشى من وقوع محظور فى مخالفة مأمورى الحكومة لهم .

١٥- أن تكون المحافظة على هذه البلاد من تعديات الدول الأجنبية راجعة للدولة العلية .

وقد ختم الإمام هذه الشروط بالمؤخرة التالية « إن تنفيذ هذه الشروط فى البلاد اليمنية يكون سببًا لسلامة الأفراد البشرية وترقى البلاد وإحيائها ، فيظهر الأمر بأبهى مظاهره ويحصل منه خير كثير . ولا يخفى أن البعض يستفيدون من كثرة سوق العساكر إلى البلاد اليمنية ، إذ لا يخلو ذلك من الفائدة المادية لهم ، ولعلهم لا يرضون بهذه الشروط لأن باتباعها يستتب الأمن وينقطع ورود العساكر إلى هذا القطر ، فيخسرون بذلك ما كانوا يؤملون . لذلك أطلب صدور فرمان سلطانى يتضمن قبول الشروط المار ذكرها ، كى يطمئن اليمانيون وترتاح قلوبهم ، ولا يعترضنى المأمورون فى إجراء الأحكام التى تخولنيها الشروط وإحالة إدارة البلاد الشرقية التى تشابه بلاد (آنس) إلى عهدتى » . مؤرخ فى ١٣ صفر ١٣٢٤[1] (أبريل ١٩٠٦) .

---

(١) الوسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٠٧-٢٠٩ .

ونحب قبل أن نعلق على الشروط المقدمة من الإمام لإقرار السلام فى اليمن أن نذكر تعليقًا لرحالة عربى زار اليمن على هذه الشروط نفسها بعد أن أثبتها فى كتابه توضيحًا لأهميتها قبل أن نتناولها نحن بالتعليق ، يقول :

« وقد أثبت شروط الصلح ههنا لسببين : **الأول** : ليعلم القارئ الكريم أن جلالة الإمام يحيى لم يكن متعنتًا فى طلباته ولا أراد المحال ، وأنه وضع هذه البنود لتكون ميثاقًا قوميًا لليمن . والثانى : لأن حكومة الإمام المتوكلية الحالية (يقصد الإمام يحيى) طبعًا قد اتخذت هذه الشروط دستوراً لحكمها ، وهى اليوم تسير فى جميع أعمالها بموجب هذا الدستور ولا تخل به فى شىء »[١] .

ومهما يكن موقفنا من هذا الرأى المبالغ فيه والذى سنناقشه فيما بعد ذلك ، فإننا نحب أن نوضح هنا بعض النقاط :

١- هذه الشروط توضح بجلاء موقف الإمام من قضية الاعتراف بالسيادة العثمانية على اليمن ، فهو يعلن رأيه بصراحة وخاصة فى المقدمة . وهذا يجعلنا نؤكد ما ذهبنا إليه فى الفصل الأول من موقف الأئمة من السيادة العثمانية ، ونرفض الرأى القائل بأن الإمام يحيى لا يقبل هذه السيادة .

٢- توضح هذه الشروط مطالب الإمام من وراء هذه الحروب القاسية المستمرة .

٣- أن هذه الشروط معظمها تنظيمية إدارية توضح وجهة نظر الإمام فى طريقة استتباب الأمن فى اليمن ، وفى حل قضيته المزمنة التقليدية .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ١٥٨-١٥٩ .

٤- الصبغة الدينية واضحة جداً فى الشروط سواء فى الشكل أو فى الجوهر وهذا يدل على عقلية الإمام وطريقة تفكيره .

٥- هاجم الإمام السياسة العثمانية الإدارية فى اليمن ، وأن شخصية «المأمورين» أنفسهم هى أسباب إثارة هذه الحروب . ورغب فى إدخال بعض التعديلات على النظام الإدارى ، حتى يرتفع سبب الشكوى المستمرة والحروب الدائمة . ومن اقتراحاته فى هذا الخصوص : رفع المرتبات ، العزل ، فرض الجزاءات ، المراقبة ، وغيرها .

٦- رغم أنه طلب لنفسه بعض الحقوق فى الشئون الداخلية - إلا أنه سلم تمامًا بحق السلطنة فى إدارة الشئون الخارجية للولاية ، وحقها فى الدفاع عنها .

٧- اعتبرت الدولة مطالب الامام انتقاصًا لسيادتها ، وسيكون هذا سببًا لرفض هذه الشروط وعودة الحرب مرة أخرى . وفعلا لم يقدم الإمام هذه الشروط لإرشاد الدولة إلى ما فيه صلاح اليمن وسلامتها فحسب ، بل لقد جعل لنفسه بعض الحقوق والمطالب ، مما يدعونا إلى القول إنه لم ينسَ نفسه ومصالحه أثناء الحروب الطويلة .

٨- يجب أن نلاحظ أن هذه الشروط ستكون دوامًا هى المحور التى تدور حوله مفاوضات المستقبل وشروط الصلح ، وهذا هو سبب أهميتها .

٩- يمكن أخذ هذه الشروط حجة على الإمام نفسه لمناقشته الحساب على ضوئها ، وملاحظة موقفه منها على مر الأيام طوال فترة حياته .

تجدد الثورة وحضور وفد مكة إلى اليمن :

فشلت المفاوضات ورفضت هذه الشروط ، ونحن نميل إلى القول أن سبب ذلك هو أن السلطنة كانت تعتبر هذه الشروط انتقاصًا لسيادتها

- كما سبق أن أشرنا - وخاصة أن السلطان عبد الحميد الثانى كان هو الذى يتولى السلطنة حينئذ ، وهو الذى عرف بمحاولاته الصريحة العميقة لتركيز السلطة فى يده ، والقضاء على مناوئيه ، وعلى أية شخصية تريد أن تحدد سكانها أو تقيم نفسها داخل ملكه العريض . وإن كان من بين الأسباب أيضًا « أن الموظفين الذين أنيط بهم عقد الصلح لم يخلصوا نيتهم وخدعوا حكومتهم لشىء فى نفوسهم ، فوقعت الحرب ثانية وحصلت معارك تشيب من هولها الأطفال فى « خولان » و « البيضاء » و « سنحان » و « رجام » و « ذمار » و «حجة » و«آنس» وغيرها[١] .

عادت الحكومة تحاول مرة أخرى الاتصال الشخصى بالإمام ، وتطرق باب المفاوضات ويمكن تفسير هذه المحاولات بأمرين :

أولا : أن السلطان يحتاج فى واقع الأمر استتاب الحال فى اليمن ، وحل قضيته نهائيًا .

ثانيًا : أن السلطان لا يفهم حقيقة الأمر فى اليمن ، ولذلك يرسل الوفود إلى هناك للمفاوضات ، وتقريب وجهات النظر ، والوقوف على الأسباب الحقيقة لهذه الثورات .

ولهذا أرسل السلطان فى منتصف عام ١٣٢٥هـ (سنة ١٩٠٧م) وفداً من كبار علماء مكة ، وذهب إلى صنعاء « وكتبوا مكتوبًا معناه النصيحة وترك القتال والحث على الصلح »[٢] . فرد عليهم الإمام فى خطاب طويل يعرض فيه وجهة نظره فى قضية اليمن ويشرح مطالبه وأغراضه ، ويقدم بعض الاقتراحات لإنهائها (انظر ملحق ١) .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ١٥٨ .

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢١١ .

كتب الإمام لخطابه مقدمة طويلة بدأها بالبسملة والسلام على رسول الله والثناء عليه ، ثم أخذ يشرح أهمية الدين الإسلامى فى تنظيم الحياة البشرية ، ودور الرسول الكريم فى تبليغ الرسالة وهدى الناس ، ثم يعرض كيف كان الدين سببًا فى رفعة شأن المسلمين وقوتهم ولكنهم تخاذلوا فضعفت شوكتهم وتفرقت كلمتهم - حتى ظهرت الدولة العثمانية إلى الوجود « ومكن الله الدولة العثمانية من الحماية للدين وحفظ حوزته من الكفرة المعتدين » . ثم يعرج الإمام بعد ذلك إلى التنويه عن دور أسلافه فى تاريخ اليمن الذين حكموا اليمن « من المائة الثالثة إلى التاريخ » (يقصد تاريخ كتابة خطابه) وأن هذا ليبرهن على أحقيته فى حكم اليمن - حيث إنه من سلالة الرسول - فضلا عن فخره بدور آبائه وأجداده ، بل ذكر أن أهل اليمن هم الذين يتمسكون بهذه السلالة وذلك لرغبة أهل اليمن فى أن يحكمهم ساداتهم وأولاد نبيهم رضى الله عنهم .. بعد ذلك يعرض العلاقات العثمانية اليمنية وخاصة منذ الفتح العثمانى الثانى لليمن ، ثم يتوسع فى شرح دور أبيه المنصور وكيف أنه ثار ضد مفاسد الولاة وظلمهم ، ثم يتكلم عن دوره هو وأنه استمرار لدور أبيه ، لأن ظلم المأمورين مازال يتضاعف من عام إلى عام ، « وتنوعهم فى المعاصى وارتكاب الشهوات ظاهراً بلا حياء ولا احتشام » بل ويشير إلى اتفاقه مع فيضى باشا السابق ولكن الأخير ينقض هذا العهد ويزداد قسوة فى محاربته للإمام وأتباعه ، حتى اضطر هو أن يصد عن نفسه « وكان ما كان » وهو بهذا يوضح أنه مظلوم ، وأنه هو المعتدى عليه ، وأن الولاة يثيرون عليه غضب السلطان « ويستنجدون منه (من السلطان) الأجناد المترادفة والأموال المتكاثرة ، ويشيرون باستئصال أهل البيت النبوى والدين المصطفوى ، وينسبوننا عندهم إلى الخوارج والرافضة ، وربما يخرجوننا عن دائرة الملة المحمدية . لا والله ما لنا مذهب غير ما كان عليه خير القرون ، والسلف الصالحون ، وإنا لنبرأ إلى الله من الخوارج والروافض وأهل البدع المحدثة ، والمأمورون يعرفون ذلك منا ، لكنه حداهم على ذلك ما جبلوا عليه من حب جمع المال من غير الوجه الحلال ، ولا يتسم لهم ذلك إلا باستمرار القتال والتنقل من حال إلى حال » بل هو يصف للوفد فى خطابه خلق الولاة

الشخصية ويحثهم على التطلع إلى هـذه الأشياء كلهـا ومراقبتهـا فيقول : « وهـم على اللـذات والشهـوات عـاكفـون ، وعلى التفنن فى الفجـور يتنـافس منهم المتنافسون ، فتنكرهم المساجد والجوامع ، ويجحدهم شهر الصوم الذى هو لكل خير جامع ، وتعرفهم الكئوس والأقداح ، وتصافيهم ربات القدود الملاح ، وكل هذا بين واضح سترونه عيانًا إن لم يضرب عنكم الحجاب وتوصد الأبواب » وهو بهذه العبـارة الأخيرة « إن لم يضرب عنكـم الحجـاب وتـوصـد الأبـواب » يثير ملاحظة جـديرة بالاهتمام وهى أن الولاة كانوا يتعمـدون دائمًا إخفاء الحقائق فى اليمن عن الـوفـود والـرسل التى تأتى إليـه لاستطـلاع الأحـوال للـوقـوف على الحقيقة، ويؤكد هذه الظاهرة ويعرضها بالتفصيل فيقول « وكلما خرج أحد منهم (من الـرسل) تلقـاه المأمورون بـالإحسـان وأدخلوا عليـه من يتكلم بمـرادهـم وحالـوا بينه وبين ما هو مأمـور بإمضائه وسيكون ذلك أو نوع منـه معكـم أو قد كان حتى أرسلنا كتبًـا عديدة إلى الباب العالى من طرق شتى لم يعـود (يعد) لنا جـواب رأسًا لاحتفـال المأمورين بـردها عن ذلك البـاب » . ويختم كتابـه أخيراً بتمنياتـه أن ينجح وفد مكـة فى مهمته « إنما نمـد إلى الله أكف الابتهال أن يجعل على أيديكم جبر كسر اليمن الميمون ، وأن يقذف فى قلب سلطان الإسلام الرأفة والرحمة » . وقـد كتب الإمام هذا الكتاب فى ١٨ شعبـان ١٤٢٥ هـ[١] (أكتوبر ١٩٠٧) .

هذا هـو رد الإمام على وفـد مكة ، وهـو دون شك يحمل فى طياتـه الصورة التى حاولنـا رسمها لـلإمام ، والتى عـرفنا بعض خطـوطها العـامة من الشروط السابقة الذكر ، المقدمة منه لإتمام الصلح بينه وبين فيضى باشا . فهذا الخطاب يكمل فى الحقيقة تلك الصـورة ، ويبرز الموقف الذى أراد أن يلتزمه تجاه الـدولة العثمانية على اليمن ، ورغبته فى أن يعترف العثمانيون بوضع خاص له . لكن هذا الخطـاب لم يقدم أو يـؤخر كثيراً فى حل القضيـة اليمنيـة . لكن هذا الخطـاب لم يقدم أو يـؤخر كثيراً فى حل القضيـة اليمنية . واستمرت الأوضـاع مجمدة على ما هى عليـــه ، فكل يحتفظ بما تحت يـديـــه ، إلى جـانب المنـاوشـــات التى

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢١١-٢١٨ .

تحدث هنا وهناك . وسبب ذلك أن العثمانيين لم يسيطروا على الموقف تمامًا فى اليمن ، كذلك كان الأمر بالنسبة للإمام . بل وقامت السلطنة بعد ذلك بعمل إيجابى ، كحل جزئى لقضية اليمن . ففى سنة ١٣٣٦هـ (١٩٠٨م) عزلت أحمد فيضى باشا والى اليمن لموقفه المعروف من اليمنيين ، وعينت بدلا منه حسن تحسين باشا واليًا على اليمن « وقد صلحت فى أيامه أحوال اليمن ، وسكنت الفتن ، ولم يتعرض الإمام وشيعته وأعوانه بأذيتهم وحصل بينه وبين الإمام صلح[١] ، وأن لا يعتدى أحد على الآخر كل فى جهته »[٢] .

الرسل اليمنيون إلى السلطان العثمانى :

وكان هذا العمل - وهو عزل فيضى باشا وتعيين تحسين باشا بدلا منه - عملا حكيما ، إذ كان الأمر فى اليمن يحتاج إلى تهدئة عامة ، فكان لا بد من هذا التغيير . ونجح تحسين باشا فى القيام بالدور المطلوب منه فاعترف بالوضع الخاص للإمام داخل الولاية - رغم أن هذا كان يعنى ضمنًا وجود « دولة داخل الدولة » و « انتقاصًا للسيادة العثمانية » . ولكن كان لا بد من هذا العمل حتى تتمكن الدولة من الوصول نهائيًّا إلى إقرار الأمن فى اليمن . وقد أرسل السلطان فى السنة نفسها يطلب وفداً من كبار رجال صنعاء ، من سادة وعلماء وأعيان «ليتكلموا فيما يصلح اليمن ففرح الناس بذلك » . وصل الوفد إلى استانبول ومكثوا بها مدة طويلة حتى استطاعوا مقابلة السلطان عبد الحميد ولم تدم المقابلة إلا حوالى عشر دقائق . ويرجع ذلك أساسًا إلى فشل الوفد فى عرض القضية التى أتوا من أجلها ، إذ كان الوفد يختلف أساسًا فيما بينه وبين نفسه حول أكثر من نقطة . فمثلا لم يكونوا متفقين على كيفية حل أزمة اليمن ، فالبعض يذهب إلى أنه لا بد من استعمال القوة لإنهائها ، ويرى البعض الآخر أنه لا يمكن أن تهدأ الحال فى اليمن إلا بالطرق السلمية والرجوع

---

(١) يقصد « مهادنة » إذ إن الصلح النهائى لم يحدث إلا بعد ذلك .

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢١٩ ، العقيلى : من تاريخ الخلاف السليمانى ، القسم الثانى من الجزء الأول ، ص ٥٢٧ .

إلى الشرع . ولم ينقسم الـوفد على نفسه حـول كيفية حل أزمـة اليمن فقط - بل اختلف أفراد هذا الوفد حول الغرض من حضورهم إلى استانبول أيضًا .

فكان القليل يدرك حقيقـة الغرض ، وهو عرض قضيـة اليمن عرضًا سليما يخدم به المصلحة العامة ، ولكن أكثرهم كـان يرى أن المثول أمام السلطان فرصة لا تعـوض لنيل مطالـب خاصـة ، كـالحصول على مـراكـز معينـة فى الدولـة أو الشكوى من أمـور تمسهم هم أنفسهم . وهكذا فشل وفد صنعاء ، وعـاد مباشرة بعد هذه المقابلة إلى اليمن أو بالأحرى أرجعهم السلطان مباشرة بعد أن قابلوه .

ولكن السلطان عـاد فكلف الوالى أن يرسل وفـداً آخر من أهل اليمن من رجال الإمـام خاصـة لا من أهل صنعاء كما كـان الأمر فى المرة السـابقة ، ولكن الـوفد الأخير رجع أيضًـا بخفى حنين بعـد أن مكث مدة طـويلـة فى الآستانـة وفشلت محادثاتهم الطويلة لعدة عوامـل سنعـود إلى شرحـها ، كان من ضمنها ما أبـداه بعض رجال الدولة هنـاك من أن « إقامة الحدود فى اليمن خـاصة يخل بالقانون الأساسى (أى الدستور) فى جميع الولايات العثمانية »(١) .

لم تستمر هذه الحالة الهادئة - إلى حد ما - طـويلا ، فقد عزل الوالى حسن تحسين باشا ، وقـد حزن أهل اليمن عمومًا لعـزله ، وتوجه وفـد إلى الآستانة على رأسـه السيد محمـد على الأهـدل للمطالبـة بإرجـاع تحسين بـاشا إلى منصبـه فى اليمن(٢) . ويجب أن يتضح أمر هـام خاص بهذه الفترة الهادئة نسبيًـا وهو أنها لم تكن وقفًـا على اليمن ، بل كانت عـامة شمـلت أغلب الإمبراطوريـة العثمانية وخاصـة العـالم العربى . ويـرجع السبب فى ذلك إلى قيام ثـورة سـنة ١٩٠٨ - التى تكلمنا عنها فى الفصـل الأول - وإلى إعـلانها الدسـتور ورغبتها فى تطبيـق مبادئ جديـدة ، وإلى محاولتها الالتقـاء بعنـاصر الإمبراطوريـة لحل المشكلات المعلقـة . وسرعـان مـا انتهت هـذه الفترة عنـدمـا اتضح ميل الاتحاديين

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٢٠ .

(٢) الأهرام : العدد ٩٧٢٣ الصادر فى ٩/ ٣/ ١٩١٠ (٢٦ صفر ١٣٢٨) ص ٢ .

إلى تطبيق « المركــزيــة » وإلى « تتريك » عنــاصر دولتهــم ، وهنــا تجددت المنــازعــات بين العــرب والترك بشكل أعنف وأعمق ، خــاصــة وأن الخلاف بين العــرب والسلطان قبل انقــلاب ١٩٠٨ كان حــول مفاســد الحكومــة وولاتها أو ماشــابه ذلك ، ولكن الخلاف بينهما بعد هذا الانقــلاب كان حول مبدأ هــام هو «تقرير المصير » فــالعرب يحاولون التمسك بذاتهم المتميــزة ، وقوميتهم الخاصة ، والأتراك يعملون على محاربة هذه النزعــة ، وعلى إذابة العناصر العثمانية المختلفة فى بوتقة الجنسية التركية .

تولى كامل بك متصرف « تعز » أمر الــولاية بعد حسن تحسين باشا ، ولكنه لم يستمر فى الــولاية أكثر من ستــة أشهر ، وتــولى فى نفس السنة فى جمادى الأول سنة ١٣٢٨هـــ (يونيــة سنة ١٩١٠) أحــد رجالات الاتحاديين وهــو محمد على باشا الذى كــان مخلصًا لمبادئه ، والذى حضر إلى اليمن تنفيذاً لسيــاسة خاصة ، وهى القضــاء على كل منــاوأة وكل تمرد فى اليمن ســواء من الإمــام يحيى ، أو من السيــد الإدريسى فى عسير . واتبع سيــاســة العنف والطــرق العسكريــة ، وهنــا تجددت الثورات والحروب فى اليمن ثم عــزل محمد على بــاشا ، وتــولى بعده أحمد عزت باشا الذى تمكن من عقد صلح « دعان » عام ١٩١١ .

الفصل الثالث

أحداث اليمن بعد ثورة سنة ١٩٠٨

ظهور محمد الإدريسى فى عسير :

قبل أن نتكلم عن أحداث اليمن عند الانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ ، يجب أن نتناول الوضع فى عسير ، وذلك لعدة أمور ، منها أنها الجارة المباشرة لليمن بل كانت تعتبر جزءاً منه - على الأقل - حسب التقسيم الإدارى الذى وضعه له العثمانيون فى هذه الفترة - وخاصة بعد ظهور الأدارسة فيها ، ولما لعبوه من دور هام ضد العثمانيين ، سواء فى فترة تفاهمهم مع الإمام يحيى أو فى فترة حروبهم معه .

يرجع تاريخ ظهور الأدارسة فى عسير إلى وقت وصول السيد أحمد الإدريسى إلى صبيا . وهو أحد رؤساء الطرق الدينية ، وكان قبل ذلك مقيما بمكة منذ سنة ١٧٩٩ واعظًا ومرشداً إلى طريقته الأحمدية . وقد أقام فى « صبيا » إلى أن توفى سنة ١٨٣٧م ، واستطاع أثناء إقامته فيها نشر تلك الطريقه الخاصة به . وقد خلف السيد أحمد لأولاده ثروة مادية ومعنوية هائلة ، إذ عاشت أسرته من بعده تتمتع بنفوذ وسلطان عريض يعتمد أساسًا على قبره الذى اعتبر مزاراً من بعده ، فظلت أسرته يحفها هذا الإجلال الدينى العميق مما أكسبها مكانة خاصة[1] . وقد عبر هوجارث عن دور السيد أحمد الإدريسى فى رفع شأن أسرته فى عسير فقال : « .. واستقر أخيراً فى صبيا تحت حكم أشراف أبى عريش ، واعتبر وليًّا من الأولياء المحليين عند وفاته سنة ١٨٣٧ ، وترك ابنه وحفيده يحصلون على الثروة والنفوذ من وراء أهمية قبره الكبيرة »[2] :

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٥ ، ص ٤٢ .

(٢) Hogarth ; Arabta, p. 120 .

أما السيد محمد بن على بن أحمد الإدريسى - وهو الذى استطاع أن يستغل هذا النفوذ الروحى لأسرته ويطالب لنفسه بنفوذ زمنى سياسى ، أو بمعنى آخر هو الذى سيجعل للأدارسة خطورة سياسية يخشاها العثمانيون ، ويجعلهم يرسلون القوات الكبيرة لمحاربته والقضاء عليه - فقد ولد فى صبيا سنة ١٨٧٦ وتلقى تعليمه ما بين الأزهر « بالقاهرة » و « الكفرة » ، مقر السنوسيين فى برقة ، كما ذهب إلى السودان ثم عاد إلى « صبيا » فى أوائل القرن العشرين . وقد أصبح رجلا ناضجًا واسع الأفق واسع الاطلاع بعد هذه الجولات الواسعة وبعد زيارة المراكز الإسلامية الهامة . وترجع بداية ظهوره - كشخصية قوية لها خطورتها - فى أفق عسير ، إلى سنة ١٩٠٧[١].

عندما عاد السيد محمد على الإدريسى إلى صبيا كان مصممًا على استغلال ثقافته الواسعة وقدرته الإدارية على ترقية أتباعه ورفع شأنهم والعمل على سعادتهم لهذا بدأ يجذب إليه أنظار القوى التى يعنيها أمره ، وهى أولا قبائل المنطقة ، وقد أخذت تهتم بأمره عند بداية ظهوره كثيراً بل اعتبروه أحد رجال الدين العديدين أو المتصوفين الذين سرعان ما تنطفئ نجومهم . أما الشريف حسين أمير مكة فقد تجاهله واعتبره « حديث نعمة» سينتهى أمره سريعًا ، وخاصة أن الشريف كان له بعض النفوذ الأسمى - على الأقل - على قبائل المنطقة . أما الإمام يحيى فى اليمن نفسه ، وكان الإمام يحيى ينظر إلى عسير على أنها جزء من اليمن ، كما أن الإدريسى كان قد استطاع نشر دعوته خارج المخلاف السليمانى ، فامتد شمالا وجنوبًا ، حتى إن بعض القبائل المنتشرة حول صعدة اعتنقت تعاليم الإدريسى . ولذلك رأى الإمام يحيى أنه من المفيد

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 70.

أن يـرحب بالتحـالف مع الادريسى وذلك لحمايـة مـؤخرتـه عنـدما يضطـر - الإمام- إلى مهـاجمة الأتراك فى صنعـاء ، وتجبره العمليات العسكـرية بينـه وبين الأتراك إلى الزحف جنـوبًا من معاقله فى شمال الهضبـة اليمنية . ولهذا سيتقارب الاثنان ويتحد عملهما المشترك ضد العثمانيين وإن كان لفترة محدودة[1] .

الأوضاع الداخلية العامة :

أما عن الوضع العام هناك فقد استعرضنا قبل ذلك كثيراً من مظاهر الحالة فى اليمن ، وعـرفنا كثيراً مـن أسباب الاضطـراب ، وأرجعنـا بعضها إلى عـوامل خاصة باليمن مثل جغرافيته وأحوالـه الاجتماعية ، وعوامل خاصة بطبيعة الحكم العثمانى مثل ضعف القـوات هناك وفسـاد الولاة والموظفين ، ومثل عـدم تمكن الأتراك من القبض على زمام الأمور فى كل اليمن ، مما كان يعطى الفرصة للإمام يحيى أو السيـد الإدريسى لـلاتصال بـالقبـائل وجـذبها نحوهما وإثـارتها ضـد العثمانيين وقلنا إن هذه العوامل كلها جعلـت اليمن بما فيها عسير فى حالة ثورة وفوضى مستمرة . وقد استمرت هذه الحالة المضطربة بعد ثورة ١٩٠٨، وبعد أن أفصح الاتحاديون عن حقيقـة سياستهم وقد عبر أحد أشراف اليمن فى مقـالة له فى الأهرام عن هذه الحالة فقـال : « اليمن الآن ليس دار توطن بل هو دار حرب وقتال بين هيأتين تديـران أمورها ، وأهاليها ضياع بين الهيأتين لا يعـرفون إلى أية حكـومة يـرتكنون ، حكـومة الإمـام أو الـدولة العليـة ، كلا الحكـومتين تقبض العوايد الشرعية والعرفية فتراهم فقراء خـائفين .. وفى كل قضاء وناحية مدير أو حاكم ، ومن لـدن الإمام أيضًا عامل وحـاكم ، وللدولة محصلون للمال يطـوفون القـرى للتحصيـل ، ولـلإمـام قبـاضـون فى كل قـريـة »[2] ثم أخـذ يعـدد

(١). Hogarth; Arabia , P. 121

(٢) الأهرام : العدد . ٩٤٧ الصـادر فى الخميس ١٣/ ٥/ ١٩٠٩ (٢٣ ربيع الثانى ١٣٢٧) ص ١ .

سوء حالة الولاة الحكوميين وأنه يجب تغييرهم وأن نور الدستور لم يصل بعد إلى اليمن ، وإن كان فى نفس المقالة كثير من الدفاع عن الترك وأنهم طيبون يحبون الخير للأهالى .

وعبر الإدريسى نفسه أيضا عن هذه الحالة وأسبابها ، وذلك فى خطاب خاص أرسله لأحد أصدقائه فى مصر وهو مؤرخ ٩ رجب سنة ١٣٣٧هـ (يولية ١٩٠٩) وكانت المعارك مستمرة حينئذ بينه وبين القوات العثمانية وفى هذا الخطاب ينفى عن نفسه الإشاعات التى تطلق حوله وخاصة ما يقال عنه إنه يدعى « المهدية » بل يؤكد أنه حريص على « ائتلاف العرب والدولة » ثم يستعرض تاريخ وجوده فى عسير فيقول « إن الفوضى كانت ضاربة أطنابها فى هذه البلاد عند وصوله إليها ، وأن الإنسان كان لا يأمن على حياته ، بل وصل الحال إلى درجة أن الإنسان لا يولع (يضىء) سراج بيته بالليل مخافة من عدو يراقبه فيبصره على النور فيضربه بالرصاص » . ويواصل الإدريسى حديثه عن علاقات القبائل بعضها ببعض وعن استمرار الحروب بينها فيقول : « إن القبائل تطاولت على الحكومة نفسها وعلى القوات العثمانية » . بعد ذلك يشير إلى المجهود الذى بذله فى إصلاح أحوال القبائل وإقرار العلاقات بينها على أسس شرعية سليمة . وأن نجاح أغراضه ، حتى فكر فى الخروج للحج على ألا يعود إلى عسير بل يذهب بعدها إلى مصر هربًا من المصاعب الجمة التى يجدها بين هؤلاء البدو ، وتجنبًا لهذه العلاقات القبلية الفاسدة . إلا أنه رغم ذلك كان يحس ببداية تعلق الناس به والتفافهم حوله « والناس يسعون إلى بابى أفواجًا أفواجًا ، لتلقين الذكر ، والتزام الطاعة الواجبة ، والتوبة مما هم عليه والامتثال لما يقربهم من الله » وأخيرا يرجع الإدريسى سبب الاضطراب القائم فى عسير إلى وجود أشخاص :

« .. لا يرتاحون إلا إذا كانت فيه فتنة بين الدولة والعرب لأجل - مع تجهيزات الدولة - يتكسبون مالا بخدمة العساكر ، والأمر الثانى أن بعضًا

ممن يريدون مخاذلة رعية الدولة حتى يستولوا على البلاد بسياستهم التى تخفى عليكم (يقصد صديقه فى مصر) ومع حالتنا هذه انتظمت البلاد وفات الغرض . ثم إن هؤلاء الوشاة لم يقف بهم الحال حتى يتهمونى بدعوة « المهدية » للاستخفاف بنا و إغضاب الدولة »[١] وتمنى فى نهاية خطابه أن تعرف الدولة المفسد من المصلح وتتحقق الصديق من العدو[٢] .

لكن نحب أن نقول ملاحظة هامة عن سير الأحداث فى اليمن وعسير فى تلك الفترة . وهى أننا لا نستطيع فى الحقيقة تتبع مجريات الأمور فى سلسلة تاريخية واضحة ومعرفة الحقيقة بين هذه الأحداث المضطربة القلقة وذلك لسبب هام ، وهو أن الحكومة العثمانية كانت لا تسمح بتسرب أخبار الجنوب إلى الخارج ، كما لا تسمح بوجود مراسلين يوافون صحفهم بأخبار الحرب فلم يظهر من هذه الأحداث الدامية فى الصحف إلا إشارات قليلة ، كما كانت الحكومة تعمد إلى التصريحات الرسمية لتطمس بها الحقائق . ولم يصاحب الجيوش العثمانية الوافدة إلى اليمن مراسلون حربيون ، وكان الترك يتعمدون هذا كله ويرضون به تمام الرضى ، فكم كانوا يتمنون أن يبقى العالم جاهلا بهذه الأحداث وأن يتركوا بمفردهم يتصرفون فى اليمن كما يريدون[٣] . ويؤكد ذلك « الأهرام » نفسها بأنه لا يمكن الاعتماد على الأخبار الواردة من هذه الجهات لاضطرابها وتناقضها مع بعضها[٤] ، إلا أن هناك بعض الحقائق التى تؤكد شدة الاضطراب والفوضى فى اليمن وعسير فى هذه الفترة ، فقد أرسلت حكومة إيطاليا مذكرة

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٥٦ ، السبت ٢١/٨/١٩٠٩ (٥ شعبان ١٣٢٧) ، ص ١ .

(٢) يلاحظ فى كتابته الصبغة الإسلامية البحتة فغير المقدمة والمؤخرة ذات الأسلوب الدينى التقليدى نجده دائمًا يطلق على نفسه « الفقير إلى الله » و « الحقير » وغيرها .

(٣) Wavell ; A Modern Pilgrim in Mecca, p. V (The preface).

(٤) الأهرام : العدد . ٧٩١ ، الثلاثاء (٢٢/ ٢/ ١٩١٠) ١١ صفر ١٣٢٨ ، ص ١ .

إلى الباب العـالى تطلب منه اتخاذ الوسـائل اللازمـة لحماية رعايـاها فى الحديدة وسائر الأنحاء الأخرى[١] .

موقف الرأى العام التركى بعد سنة ١٩٠٨ من قضية اليمن :

عرفنا قبل ذلك العوامل التـى تدفع الإمام يحيى إلى الثورة . ونحب الآن أن نستعرض مـوقف الأتراك - حكـومة وشعبًا - من قضيـة اليمن - بعد أن عـرفنا موقفهم العام مـن قضية العرب عمومًا - وذلك قبـل أن نتتبع الأحداث العنيفة هناك التى أدت إلى صلح دعان سنة ١٩١١ بين الإمام يحيى والحكومة العثمانية.

كان لـلأتراك - حتى غير الرسميين - مـواقف عدائية صريحة ضـد قضية اليمن ، أو بالأحرى ضد قضية العرب بوجه عام ، إذ كان الاتجاه الصاعد حينئذ عنـد الأتـراك هو التتريك والمركـزيـة كما قلنـا ، لـذا نادوا بهذه الآراء العـدائيـ وصرحوا بها اعتقاداً منهـم أنها وسائل فعالة لحل قضية اليمن . بل من الغريب أن يصل حـد تفكير هؤلاء الأتراك إلى درجـة اعتبار الولايات العربية بما فيها اليمن ، مستعمـرات يمكن أن تقـارن بالمستعمـرات الإنجليزيـة والفـرنسيـة . فيقول أحد هؤلاء الغلاة فى مقالة نشـرتها جريدة « سـنجاق » التركية وترجمتـها الأهـرام إلى العربية ، إن « الانجليـز والفرنسـيين والهولنديين يحتـلون بـلاداً إسـلامية واسـعـة ، وأن عسـاكرهم فى هذه الـولايـات من أهـالى البـلاد أنفسهم وأنهم يحكمـون هذه المنـاطق بكل راحة ويربحـون منهـا ويدخلـون إليـها أسبـاب المدنية » ثـم يتسـاءل عما فعلـه العثمانيون فى ولاياتهـم فيجيب على نفسه قائـلا « إن باليمـن أربعـة مـلايين مسـلم ومع ذلـك فقد خسرت الدولـة عليهم مئات الألـوف من الرجـال والملايين من النقـود دون أن تستفيـد

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٦٦ ، الخميس ٢/٩/١٩٠٩ (١٧ شعبان ١٣٢٧) ص ١ .

منهم شيئًا » وهو يشير بعد ذلك إلى الثورات العديدة والخسائر الفادحة « فإذا علم ذلك فنحن نسأل لماذا أعمالنا تخيب وأعمال الأوروبيين تنجح ؟ ولماذا يقوم الأهالى وهم مسلمون ويشهرون فى وجه عساكرنا السلاح ؟ ولماذا لا يفعل ذلك المسلمون فى الأراضى والبقاع التى يتولاها الأجانب ؟ » ثم يذهب فى إجاباته إلى أن حكومته لا تستعمل الوسائل التى يستعملها الأجانب « فيعتبر اليمانيون وغيرهم أن الرحمة بهم ضعف ، أما الأجانب فيتخذون فى أحكامهم طرقًا عملية حكيمة ، فيدرسون حالة البلاد وطبيعتها ، وعادات أهلها وأخلاقهم وتعطى عساكرهم المرسلة إليها كل التعاليم اللازمة حتى لا يكون وجودهم فى البلاد وصمة عليها وعلى أهلها » وأخيراً يمنطق هذا الكاتب حديثه فينتهى بالنصيحة فى آخر مقاله ، فيطالب الدولة بأن ترسل فرقًا عسكرية إلى العواصم العربية مثل بغداد والبصرة واليمن لإخماد العناصر المتمردة « فيحتلوا نقطًا حربية ويعلنوا الإدارة العرفية ، ويهتموا فى ضبط أحوال القبائل والعشائر حتى تخضع خضوعًا تامًّا » . وكانت هذه النزعة العنصرية التى أوضحها كاتب هذا المقال هى النزعة السائدة عند معظم الترك ، إذ كان اتجاهًا قوميًّا أكثر منه وحدة إسلامية ، بل إن الأتراك المثقفين عارضوا فكرة « الجامعة الاسلامية » لأنهم شعروا أن هذه النزعة تباعد بينهم وبين العناصر غير الاسلامية وخاصة فى البلقان .

حقيقة كان هذا الاتجاه الحديث ناتجًا من الاحتكاك السياسى والفكرى بأوروبا ، ولكنه فى نفس الوقت كان يخالف الأصول التاريخية التى قامت عليها الإمبراطورية العثمانية ، ويناقض الأسباب الحقيقية لاستمرار بقاء هذه الإمبراطورية بأطرافها المترامية كما هى على مر القرون ، ويحطم الأسس الواقعية للعلاقات العربية التركية طوال هذه الفترة . فمن يتحقق من طبيعة الفتح العثمانى للبلاد العربية ، يرى بوضوح أنه لم يكن فتحًا بالمعنى السياسى

---

(١) الأهرام : العدد ١٩٥١١ ، الأربعاء ١٩٠٩/٦/٣٠ (جمادى الثانى ١٣٢٧) ص١ .

المعروف ، يتبعه انتصار وسيادة لغة ، وثقافة ، وتقاليد ، ونظم ، وإدارة الدولة المنتصرة على الشعب المغلوب ، بل كان الفتح العثمانى انتصاراً حربيًا لقوة عسكرية إسلامية على قوة عسكرية إسلامية أخرى ، أو بالأحرى انتصار السلطان العثمانى على السلطان المملوكى سلطان مصر والشام وصاحب السيادة والنفوذ فى الجزيرة العربية .

أما الشعب العربى صاحب التقاليد والثقافة والأوضاع الخاصة فلم يتأثر بهذا الانتصار أو بتلك الهزيمة ، بل أكد العثمانيون بقاء هذه الأوضاع المتوارثة فلم يغيروا شيئًا من مظاهر المجتمع العربى ، وتركوه كما هو ، ولم يشعر العرب إلا بتغير الإدارة والأجهزة المملوكية بأخرى عثمانية ، ثم صارت الحياة العربية كما هى ، وعاد العرب إلى حياتهم السالفة يجترونها مرة ومرات تحت اللواء العثمانى بعد أن اختفى اللواء المملوكى . ولكن عند الانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ كان التطور السياسى والفكرى داخل الإمبراطورية ، الذى سار هادئًا متردداً ، قد وضحت معالمه وبرزت آثاره . وقد أكد الأستاذ ساطع الحصرى ما ذهبنا إليه بقوله : « إن استيلاء السلطنة العثمانية على هذه البلاد العربية لم يكلفها حروبًا كثيرة لأنه لم يستلزم محاربة سكان البلاد وإنما استلزم محاربة الدول المسيطرة عليها فقط » (١). وكانت نعرة الإخضاع بالقوة متغلبة على تفكير الترك بشكل ظاهر وقوى . ففى مقالة أخرى كتبها أحد الضباط الذين خدموا طويلا فى اليمن ، نشرتها جريدة « زمان » التركية – ونقلتها بعد ترجمتها جريدة الأهرام – عن اليمن وأحواله ، وطريقة معالجة أزمته ، جاء فيها « أن الزعيم السيد يحيى قد عرف أن يستفيد من الأغلاط العديدة التى ارتكبتها الحكومة السابقة . وهكذا توصل إلى جرأة كبيرة حتى إنه ليس من الحكمة أن تتفق الحاضرة معه على الشروط التى كانت قد وضعت منذ مدة . على أنه يكفى

---

(١) ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٥٨ .

فرقتين من الجنـود النظامية تحت قيـادة ضابط نشيط لإخماد هـذه الثورة . ولكن يجب العمل بحكمة وسرعة ، لأن الحامية موزعـة فى تلك البلاد من باب المندب حتى تخوم الحجاز ، وعليه فليس بالإمكـان الاستفادة منها فى أول الأمر . ولذلك ينبغى أن تكون الفرقتان المشار إليهما ، بمثابة قوة نقالة (متنقلة) لإعادة الأمن ، وبعـد ذلك تحشد الجنـود فى نقطـة مركـزيـة يمكنها تـأييد الشروط التى تـوافق الدولة. وأهمها أن يسلم الإمام يحيى كل السلاح والذخيرة ، وأن يحل اللجنة التى يرأسها، وهى أشبه بالعصابـات المقدونية ، وأن يسلم المقلقلين الذين يبثون روح الثورة فى البلاد . هذا ما يجب أن تناله الحكومة بالقوة ، ثم يجرى عاجلا ما تحتاج إليه البـلاد من الاصلاحات الاداريـة ، وإلا فما دام الامام يحيى زعيم عصـابات تامة العدد فإن تلك البلاد تبقـى مهددة للأمن والنظام العام »[1]. وواضح من هذه المقـالة الـروح العسكريـة التى تعبر عن صـاحبها خير تعبير . كما أنها خير شاهـد على وجهة نظر الأتـراك فى قضية اليمن ، ومنهـا يتضح رأى الأتراك غير الـرسميين ، فهى رغم أنها لا تـدل مبـاشرة على مـوقف الحكـومـة ، إلا أنها تعبر بجلاء عن الاتجاه العام السائد فى الأوساط التركيـة ، وتشرح موقف الرأى العام من هـذه القضية ، أمـا الغريب فى هـذه المقالـة فهى تلك النظرة المسيطـرة على كـاتبهـا ، فهو مثـلا يـرجع أسبـاب الثورات المستمـرة فى اليمن إلى « أغـلاط » الحكومة السابقة دون أن يفهـم مثلا أن حكومته الحالية - الاتحادية - إنما ترتكب نفس الأخطـاء السـابقـة التى تنبثق أسـاسًا من عـدم فهمهـا صحـة الموقف فى اليمن[2] . وفى نقطة ثـانية يصف الإمـام يحيى والقبائل الملتفـة حولـه ، ويقصد أساسًا الزيديين ، بأنهم « كالعصـابات المقدونية » ، دون أن يفهم كذلك الفارق الشـاسـع بين الاثنين ، إلا أنـه فى الـواقـع يعبر عن وجهـة نظـره فيهـا ،

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٧٥ ، الصادر فى ١٣/ ٩/ ١٩٠٩ (٢٨ شعبان ٢٧) ص١ .

(٢) Rev, du Mus, ; Vol , XXV, p, 279.

وأنـه لا يتضح أمامـه منها إلا الجـــانب الثورى فيها . ثم أخيراً ينصح بـالحل الأمثل عنده ، وهو الإخضاع أولا ثم إجراء بعض الإصلاحات الإدارية ، دون أن ينصح مثلا بـالاتصال بالشعـب اليمنى مباشرة ليتعرف على الأسبـاب الحقيقية للثورة .

موقف الدولة الرسمى بعد سنة ١٩٠٨ :

وتنبئ هـذه الآراء والأفكـار التى ظهـرت فى تلك الفترة - بشكل مبـاشر وغير مبـاشر - عن نيـة الحكومـة تجاه قضيـة اليمن ، فهى أصـداء للاتجاهـات السائدة فى الأوسـاط الحكوميـة . فكانت ثـورات اليمن المستمـرة المتعددة تجبر رجـال الحكومـة على البحث عن حلول لهذه الأزمـة المزمنة ، فتعـددت محاولات الحكومة فى إيجاد هذه الحـلول . وقد وضعت لجنة مجلس المبعوثان لائحة تخـــول الإمـــام يحيى إدارة شئون بعض الأقضية الـداخلية مدة عشرة سنوات تحت رقابة حاكم يعينه البـــاب العـــالى ، وقوات عسكرية عثمانية تعسكر فى تلك الأقضية فيكون شـــأن الامـام يحيى كشـــأن أمير مكة من بعـض الوجوه ، لكـن لم ينته مجلس المبعوثان من درس هـــذا المشروع إلى شىء[1] . ويرجـع هــذا إلى عـــدم استقـرار الحكومـة على رأى معين ، وعدم رضـائهـا واطمئنانها إلى هـذا المشروع الذى يعطى الإمام وضعًا خاصًا ، أو مركزاً معينًا فى بقعة ما داخل إمبراطوريتها، ويـرجع هذا أيضًـا إلى قيام ثـورة العناصر الـرجعية فى أبـريل سنة ١٩٠٩ ضـد الاتحـــاديين .

فلما قمعت هذه الثورة انتخب مجلس المبعوثان لجنة مكونة من نوابه برئاسة مصطفى عاصـم أفنـدى مبعوث الآستانة ، واجتمعت هــذه اللجـنـة مراراً .

(١) الأهرام : العدد ٩٥٠٨ ، السبت ٢٦/ ٦/ ١٩٠٩ (٨ جمادى الثانى ١٣٢٨) ص ١ .

وفى ٧ أغسطس ١٩٠٩ أقرت مشروعًا من ست مواد[1] .

المـــادة الأولى : تقسم ولايـة اليمن إلى ولايتين : سـاحلية وجبليـة ، فتتنـاول الولاية السـاحلية قسم تهامة وهو السهل والسـاحل ، وتتناول الولاية الجبليـة أقضية عمران وحجة والطويلـة وحجور وذمار ويريم وآنس.

المادة الثانـية : تفوض الولاية الجبلية إلى الإمـام يحيى حميد الدين ، والساحلية إلى أحد ذوى الكفاءة والاقتدار .

المادة الثـالثة : يفوض متـولو زمام الإدارة فى الـولاية تفويضًـا تامًا بـانتخاب القضاة والعمال والمأمورين وفقًا لـلأحكام الشرعية ، وانتخاب رجـال الـدرك (الجندرمـة) من الأهلين (ويشترط أن تعـرض أسماء القضاة والعمال والمأمورين على مركز السلطنة) .

المادة الرابعـة : تفوض الولايتان بـالإنفاق من الأموال التى تجبيانها ، فإن بقى رصيـد يرسل إلى مـركـز السلطنة ، ويبـذل قسم منـه فى سبيل الترقيات المحلية .

المادة الخامسة : يكون قضـاء « مناخـة » مركزا للجيش مع إبقـاء قوة كـافية فى صنعاء تحت إمـرة أحد القـواد المقتدرين للمنـاظرة على الأمن العام ، ولكن لا يترك جند فى القصبة التى يتخذها الإمام مركزا له - بل وتوضع قوة من الجند فى تهامة لتأييد الأمن العام .

المادة السادسة : يتطلب من الذوات (الأشخاص) الـذين يعينون فى الولايتين أن يقدمـوا لمركز السلطنـة فى نهاية كل سنـة ميزانيـة تبين فيها الإيرادات والنفقات فصلا فصلا .

---

(١) المؤيد : العدد ٥٨٤٣ فى ١٩٠٩/٨/١٥ .

وقد رفع هذا المشروع إلى مجلس الوزراء فأقره وأمر بعرضه على مجلس المبعوثان الذى عرضه بدوره على لجنة خاصة أدخلت عليه بعض التعديلات وبعد ذلك طبع هذا المشوع ووزع على أعضاء المجلس (المبعوثان) كما نشرت نصوصه فى الجرائد . إلا أن طلعت بك وزير الخارجية الاتحادى ، سحبه من مجلس المبعوثان بعد توليه الوزارة مباشرة ، ووعد بأن يحل قضية اليمن فى أقرب وقت[1] . وهكذا لاقى هذا المشروع مصير المشروعات السابقة وهو عدم التنفيذ وقد عدلت الحكومة عن التنفيذ هذه المرة - كما صرح بذلك طلعت بك فى المجلس - بسبب اشتداد حركة الإدريسى فى عسير فأجلته مؤقتًا حتى تهدأ الأحوال[2] .

ومن الغريب أن كان تعليق الأهرام بعد نشر هذه الشروط وعدم تنفيذها ، هو إرجاعها سبب هذه الاضطرابات إلى « الطبيعة القبلية لأهل هذه الجهات ، وما طبع عليه العرب والقبائل من حب للقتال ، وأخذ الثأر والحروب المستمرة » فقط ، دون أن تشير البتة إلى المفاسد الحكومية ، وذلك التفكير العنصرى الذى يحدد موقف الاتحاديين من البلاد العربية . وهى وإن كانت تشير فى مقالة تالية إلى أن سبب الثورات هو الضرائب وسوء الإدارة التركية إلا أنها تعود مسرعة فتدافع عن حكومة الاتحاد والترقى وتحث العرب على الهدوء ، بل أكثر من ذلك تهدد العرب فى صورة نصيحة فتقول إن « حكومة اليوم عامدة إلى استئصال جرثومة كل الثورات » ثم تعدد الاستعدادات « التحوطات » التى صرح طلعت بك وزير الداخلية الاتحادى أنه اتخذها ، وتعدد القوات والفرق التى سترسلها الحكومة لإخماد ثورات اليمن . ثم تقول « ولو فكر العرب فى هذه الأمور حق التفكير لترددوا كثيراً قبل مجاهرتهم

---

(١) المؤيد العدد ٦٠٣٧ ، فى ١٣/ ٤/ ١٩١٠ .

(٢) الأهرام : العدد ٩٥٦٠ فى ٢٦/٨/١٩٠٩ (١٠ شعبان ١٣٢٧) ص١.

بشق عصا الطاعة ، والهجوم على جنود عازمة على مقاتلتهم لا على الانضمام إليهم كما كان يحدث سابقًا »[١]. والتفسير الوحيد لموقف الأهرام هذا ، وغيرها من الجرائد ، ما أشرنا إليه سابقًا من عدم وجود مراسلين للصحف المختلفة فى اليمن ، وإلى تصميم الحكومة الاتحادية على طمس الحقيقة ، وإصدار البلاغات الرسمية بما تريد .

لم تقف محاولات الحكومة عند حد عرض المشروعات والتنظيمات لتهدئة الحالة فى اليمن ، بل كانت مستعدة تمامًا لمعالجة الأمر بالحزم والقوة . وهناك عديد من الدلائل التى تشير صراحة إلى هذا الموقف ، غير التصريحات الكثيرة بالاستعدادات الضخمة ، وبالقوات التى ترسلها الحكومة فعلاً إلى اليمن صرحت الحكومة مثلا أنها قد أدرجت فى ميزانية عام ١٩١٠ مبلغًا كبيراً لشراء ٢٤ زورقا عسكريًا « لخفر سواحل اليمن »[٢] . وكما وعدت بإرسال ٤٨ زورقًا حربيًا آخر ، إلى تلك الجهات ، لمنع تهريب السلاح[٣] وكانت الحكومة تخاف تهريب السلاح أشد الخوف ، وكانت تشك دائمًا فى أن إنجلترا وإيطاليا تساعدان على تهريب الأسلحة إلى تلك الجهات ، وإلى قبائلها الأشداء المتمردين . بل ولجأت الحكومة إلى وسيلة أخرى لمواصلة الحرب هناك ، فكانت ترفع رتب الضباط إغراء لهم على السفر إلى اليمن ، وتعمد إلى ترقيتهم ، قبل ترحيلهم إلى هناك »[٤] حتى تضمن حسن قيامهم بواجبهم وحتى لا تعدم رجالا ينفذون رغباتها وطلباتها .

---

(١) الأهرام : العدد ٩٥٦٩ فى ٦/ ٩/ ١٩٠٩ (٢١ شعبان سنة ١٩٢٧) ص١ .
(٢) الأهرام : العدد ١٦٥٠ فى ١٠/ ١٢/ ١٩٠٩ (٢٧ ذو القعدة ١٣٢٧)ص١ .
(٣) الأهرام : العدد ٩٦٥٣ الاثنين ١٣/ ١٢/ ١٩٠٩ (٣٠ ذو القعدة ١٩٢٨)ص١ .
(٤) الأهرام : العدد ٩٧٢٢ ، الثلاثاء ٨ مارس سنة ١٩١٠ (٢٥ صفر ١٢٢٨)ص١ .

قضية اليمن فى مجلس المبعوثان :

لم تكن الصحف التركية أو الدوائر الرسمية وحدها هى التى تثار فيها قضية اليمن ، بل كان مجلس « المبعوثان » نفسه هو المجال الثالث ، الذى فرضت قضية اليمن نفسها عليه ، فكانت مثار مناقشات عديدة جادة داخل المجلسين بين النواب العرب وبين أعضاء الوزارة الاتحادية خاصة طلعت بك وزير الداخلية . وكان الأخير مجبراً على الإجابة أحيانًا خضوعًا للنظم البرلمانية ، وكان أحيانًا أخرى يجبر النائب العربى الذى يوجه إليه السؤال على السكوت وعدم المناقشة . فقد حدث أن قام السيد محمد عبد الله مبعوث اليمن فى مجلس المبعوثان فقال : « إن مطالب منتخبيه حقة عادلة ، فهم لا يطلبون شيئًا لا يسع الحكومة أن تمنحهم إياها : فهم يريدون أن تفتح لهم مدارس ، وأن تكون الأحكام بموجب الشريعة الغراء ، وأن تنشأ مجالس صلح تراعى عادات البلاد وتقاليدها . يريدون أن تجبى الضرائب عندهم حسب الطريقة الجارية فى سائر ولايات السلطنة وأن تضمن الحكومة للمشايخ والأعيان المكلفين بذلك رواتب كافية ... وأن تعهد بمناصب الوالى والقائمقام والمدير إلى أعيان اليمن فى النواحى التى ليس لهم فيها أملاك وأن تنشأ جندرمة[1] محلية وتفتح الطرق وسبل المواصلات الجارية التى تجبى ظلمًا واستبداداً ، ثم أعرب عن وجوب تعيين راتب مقرر من الحكومة للسادة من سلالة النبى لأن فقرهم الحالى يضطرهم إلى طلب المساعدة من القبائل . وقد قوبل حديثه بالتصفيق الحاد عندما قال إن اليمنيين لا يريدون الانفصال عن الدولة بل هم يفتخرون بأن يعيشوا فى سلام مع إخوانهم العثمانيين تحت راية واحدة » .

عندئذ قام طلعت بك فشرح خطة الحكومة فى بلاد العرب ، وأوضح موقف الحكومة منها وذكر أن المجلس كان مهتما بدرس مشروع إصلاحى

---

(١) الجندرمة هى قوات الشرطة الخاصة بالمحافظة على الأمن .

خاص باليمن عندما انفجر بركان الثورة هناك فهوجمت الجنود العثمانية وسلبت القوافل وحدث غير ذلك من الحوادث المؤسفة نتيجة تحريضات « الشيخ يحيى والمهدى الإدريسى » - كما قال - اضطره إلى سحب المشروع من المجلس حتى يتمكن من الدفاع عن أجزاء السلطنة ، ووجه حملة عسكرية إلى اليمن . كما قال إن المجلس وافق على هذه « التحوطات » وأن الجنود العثمانية استطاعت إخضاع القبائل الثائرة « وأن الحالة هادئة فى اليمن الآن » .

وأنهى حديثه قائلا بأن مقترحات السيد محمد عبد الله محل اعتبار الحكومة، ولكن الحكومة فى حاجة إلى فترة من الزمن لايمكن تقديرها تمامًا ، وأنها ستعمل على إدخال كثير من الإصلاحات فى اليمن . وكادت المناقشة تنتهى عند هذا ، وصفق له أغلب من فى المجلس حتى المعارضين له ، إلا أن السيد عبد الحميد الزهراوى - نائب عربى ومن رجالات حزب اللامركزية - قد تابع الحملة ضد طلعت بك ، وأعرب عن أسفه لإرسال حملة عسكرية إلى اليمن ، واتهم ناظر الداخلية (طلعت بك) بجهل الأمور ومحاولة إخفاء الحقيقة ، وهنا ثار طلعت بك ونهض صارخًا ، وقال إنه لو سلم بجهله بحقيقة الأمور ودقائقها فى اليمن ، إلا أنه لا يسمح باتهامه بالكذب مطلقًا - ويقصد اتهامه بأنه يتعمد إخفاء الحقائق وتشويهها - وقال مدافعًا عن نفسه « ... أما الكذب فأنا لا أعرفه البتة ، بل أعيده إلى من حاول إلصاقه بى ... » . فصفق الجميع لكلام الناظر وأجبروا الزهراوى على أن يكف عن حملته[1] وكان الاتحاديون عمومًا يلجأون إلى التهريج الخطابى فى المجلس ، وتعمد إحراج المعارضين فى كثير من الأحيان . وكان تشكيل البرلمان العثمانى يساعدهم على كسب هذه المواقف ، والفوز بتأييد مشروعاتهم وقوانينهم فى هذه المجالس النيابية والتى عمدوا على ضمان أغلبيتها إلى جانبهم . فرغم أن الترك لم يكونوا أكبر عنصر فى الإمبراطورية العثمانية عدداً،

---

(١) الأهرام : العدد ٩٧١٠ ، الثلاثاء ٢٢/٢/١٩١٠ (١٧ صفر ١٣٢٨) ص ١ .

وكـان العـرب متفوقين عليهـم فى هذه النـاحيـة إذ يشكلـون أكبر عنصر داخل الإمبراطـوريـة ، إلا أن الترك بما كـان لهم من سيادة وسلطـان ضمنـوا أن تكـون أغلبية مجلس المبعوثان (النـواب) منهم . فالمجلس الذى التأم فى ديسمبر سنة ١٩٠٨، وهو أول مجلس نيـابى بعد الانقلاب ، ضـم ٢٤٥ عضواً منتخبًـا ، كان منهـم ١٥٠ من الأتراك و ٦٠ من العـرب أى" إن كفة الترك كانت راجحـة بنسبة ٥ إلى ٢، أمـا باقى الأعضـاء فكانـوا من الأقليات التى يمكن ضـم أصـواتها إلى جـانب الترك . أمـا فى مجلس الأعيـان (الشيـوخ) الـذى يضم أربعين عضـواً يعينهم السلطان فكان عدد العرب ثلاثة فقط[1] .

كرر طلعت بك تصريحاته السـابقة فى جلسة تالية جـوابًا على سؤال يتعلق بمطالب اليمنيين فقال « إنى توليت نظارة الـداخلية والحكومة مشغولة فى ذلك العهـد بمشروع ينظم شئـون اليمن وإدارتها ولكن علمت بعـد أيـام أن قبيلتين يمانيتين هـاجمتا قـافلة وسلبتـاهـا ٦ آلاف ليرة وقتلتا ١٦ عسكـريًّا ، وأن الثـوار احتلوا عشرة مواقع هنـاك وأضرموا نار الثورة فى تهامـة وعسير وأن إدريسًا يتهدد الحديدة ، فرجوتكم على أثر ذلك كله أن نؤجل كل إصلاح فى تلك البلاد إلى ما بعـد توطيـد الأمن فى ربـوعها ، وبـلاداً مثلهـا تعـاقبت فيها الثـورات لا يمكن إخمادهـا فى أشهـر » ثم أشـار إلى أنه أرسل إحـدى عشرة أورطـة إلى هنـاك وأنها استطاعت تهدئة الحالة نسبيًّا ، وأنه لا يمكن الإصلاح إلا بعد نشر الأمن «ولكن لا يمكن تحديد الزمن الذى يكفى للبدء فى الاصـلاحات » . وقد حدث أن حاز طلعت بك ثقة المجلس بخصوص هذه القضية وأقرت أغلبية المجلس الحكومة فى خطتها[2] .

لم يكن الحال دائمًا هو تغلب الأتراك فى المجالات البرلمانية أو حتى العامة،

---

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ص ١١١ .

(٢) الأهرام : العدد ٩٧٢٥ ، الاثنين ٢٨/ ٢/ ١٩١٠ (١٧ صفر ١٣٢٨) ص ١ .

بل كان يظهـر أحيانًا ومضات لامعـة من المقاومة من ناحيـة العرب ، أو بعض المظاهـر التى تدل على استمرار هذه المقـاومة ، وعلى وجود من يـدافع عن هذه القضية . فمثلا نجد أن طاهـر رجب ، أحد نواب اليمن فى مجلس « المبعوثان » والـوحيـد الذى يعـرف التركيـة قـدم استقالتـه من المجلس ، وأوضح أسبـاب استقالته فيها وهى :

١-أن الحكومة لا تعمل شيئًا لليمن .

٢- أنـه يئس من زملائه النـواب اليمانيين لأنهم يجهلون التركيـة ، فهم لا يستطيعون الاعراب عن أمانيهم وآرائهم (كانت اللغة التركية هى لغة الحديث فى المجلس) .

٣- أن أعماله فى اليمن معطلـة فهو لا يستطيع البقاء فى الآستـانة و إهمال تلك الأعمال .

وقد قبل المجلس استقـالته بعد بحثها ، وبنى موافقتـه على السبب الثالث فقط[1] .

بل وهناك صـور أخرى تعبر عن الصراع المستمر بين العـرب والترك حول قضية اليمن ، بصفتهـا جزء من القضية العربيـة العامة . فقد قامـت المظاهرات الصاخبـة احتجاجًـا على كاتب إحـدى المقالات التى هـاجمت اليمن وأهلها ، وعلى صاحب الجريـدة ، وذلك لأن الترك كانوا كثيراً ما ينـدفعون فى التعبير عن عنصريتهم الخاصـة وفى تحاملهم على العـرب . فقـد جاء فى هـذه المقـالـة التى أثارت الجالية العـربية فى العاصمة العثمانيـة : « ... إن أهل اليمن يعبدون المال وأنهم فى سبيل المال يضحون بكل شىء حتى أعراض النساء .. »[2] .

تجدد الثورة فى اليمن :

كان وصول محمد على باشا إلى اليمن لتولى أموره فى١٢ جمادى الأول ١٣٢٨

---

(١) الأهرام : العدد ٩٦٧٣ الاثنين ١٠/ ١٠/ ١٩١٠ (٨ ذو الحجة سنة ١٩٢٧) ص١.

(٢) ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ص ١٧٩ .

(مايو ١٩١٠)[١]، بداية تجدد الاضطرابات بصورة عنيفة قاسية ، وقد أشرنا إلى أن الوالى الجديد كان أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقى ، أو بالأحرى كان يمثل أفكارهم وسياستهم التى أرادوا تنفيذها فى كل بقاع الإمبراطورية ، فكانت توليته أمر اليمن استجابة طبيعية للأفكار التى تستحوذ على عقول رجال الحكم فى الآستانة ، وللأحداث الجارية فى باقى الإمبراطورية . ولذلك كان من الطبيعى أن نرى اختلافًا واضحًا بين سياسة تحسين باشا ومحمد على باشا ، ومميزات بارزة لسياسة الأخير .

وكان محمد على باشا يؤمن بسياسة خاصة وعقيدة معينة لا يحيد عنها وهى استعمال العنف والشدة فى قمع كل اضطراب يحدث فى اليمن ، والقضاء على شخصية كل من الإمام يحيى والسيد الإدريسى ولو معنويًّا والعمل على استتباب الأمن والسلام بأى ثمن ، ثم أخيراً إجراء بعض الإصلاحات إذا سمحت له الظروف بذلك دون أن تكون هذه الإصلاحات نتيجة رغبة أو مطالبة الامام أو غيره بل ما يراه هو لازمًا فقط . على هذا الأساس نرى أن ملامح سياسته وخصائصها بدأت تتضح بالتدريج . فنراه يميل إلى العنف منذ وصوله ، وبالغ فى الشك والارتياب والسجن لمجرد الشبهة ، وذلك ليشيع الخوف ويضمن الاستسلام ، دون أن يدرى حقيقة طبيعة اليمن أو يعرف حقيقة وضع الإمام فى اليمن . وقد وصف الواسعى هذا الوالى وسياسته عند وصوله فقال : « وكان فكره أنه لا يصلح اليمن إلا الشدة والقسوة فما زال يحبس هذا ويضرب هذا من دون سبب مع تسليمهم لحقوق الدولة وخضوعهم للأوامر والنواهى، ورجع إلى ما كان عليه الوالى فيضى باشا فى حبس من كان بينه وبين الإمام علاقة ولو ادعاء بلا صحة . وفرح بعض المأمورين بهذا للسعى لمن بينهم وبينه أدنى خصومة ألقوا إلى الوالى هذه الفكرة أن هذا الشخص يحب الإمام يحيى فمنذ ذلك يؤتى بذلك الشخص يضرب ثم يحبس وكانت هذه الدعوى مصدقة دون بينه بل قبولا كذبًا . فلما كثر الظلم والفساد ، وحصل لأهل اليمن الجور والاضطهاد، قام الإمام يحيى وبث

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٢٦ .

القبائل فى جميع مراكز اليمن فقام (فقامت) القبائل محاصرين لجميع مراكز اليمن : صنعاء وغيرها »[١] .

وقبل أن نتتبع أحداث هذه الفترة العنيفة يمكن أن تقول إن هذه الأحداث سارت سيراً منطقياً مع نفسها : والٍ جديد بأفكار جديدة، وسياسة خاصة أدت إلى تجدد الاضطرابات واشتدادها بعد هدوئها النسبى .

لكن ما هو سبب التحول الظاهر فى سياسة الدولة نحو اليمن ؟

والإجابة بسيطة تتمثل فيما أشرنا إليه من استتباب الأمر للاتحاديين فى العاصمة العثمانية ، وسيطرة أفكارهم الخاصة عليهم سيطرة كاملة ظهرت فى سلوكهم السياسى وأعمالهم الحربية . ونضيف إلى هذا كله العامل الدولى الذى لعب دوراً هاماً ، فالهزائم السياسية والحربية التى أصابت الإمبراطورية فى هذه الفترة فى ولاياتها الأوروبية ، ثم قيام العلاقات الألمانية العثمانية السلمية ، وتغلغل ألمانيا فى السياسة والإدارة العثمانية ، كل هذا أوحى بل أوضح لرجال الآستانة أن قوتهم وسر بقاء إمبراطوريتهم هو فى الولايات العربية لا الأوروبية ، ولذلك أكدوا العزم على توطيد سيطرتهم هناك وعملوا على القضاء على كل مناوأة . وقد نقلت الأهرام عن جريدة الديلى ميل مقالا للسير وليم مكسويل عن بلاد العرب جاء فيها « والسبب فى هذه الثورة الأخيرة (فى اليمن) بسيط فإن الجنرال فوردرجول[٢] لم يكن أول الذين أبانوا السبب وأشاروا على الترك بأن قوتهم الحقيقة هى فى آسيا الصغرى وبلاد العرب أكثر مما هى فى أوروبا »[٣] .

بدأ الاحتكاك الحاد بين العناصر المحلية فى اليمن وعسير وبين الوالى

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٢) كان يتولى تدريب الجيش العثمانى الحديث حينئذ . .

(٣) المؤيد : العدد ٦٢٨٣ فى ٦/ ٢/ ١٩١١ (الاثنين ٧ صفر ١٣٢٩هـ) ص ٤ .

الجديد ، فتراشق الطرفان بالتهم أولاً ، ثم تحول هذا إلى عراك عنيف ثانيًا . فكان الوالى يتهم الإمام والإدريسى بالخروج على الدولة ، وبالتمرد على الدين نفسه . وكان الأخيران يتهمان الدولة بعدم وفائها بالعهود الكثيرة التى أخذتها على نفسها، ويشكوان ظلم الوالى وفساد الموظفين . وقد جاء فى خطاب من صنعاء إلى أحد التجار اليمنيين فى مصر ونشرته المؤيد « أن الوالى أشاع أنه أرسل الكتب إلى الإمام يأمره فيها بجمع السلاح من قومه وإرساله إلى صنعاء وإلا اعتبره خارجًا على الدولة العلية وجرد عليه حملة تسحقه سحقًا[١] » . كما جاء فى مقالة طويلة كتبتها الطان الفرنسية (بتاريخ ٢٤/ ١/ ١٩١١) ونقلت عنها المؤيد « أن السلطان أبلغ الصحف تأكيده فى بدء الإصلاحات وذكر أن الإمام يحيى والسيد الإدريسى قد مالا إلى العصيان بالرغم من دلائل الرغبة للإصلاح من جانب الحكومة »[٢] .

أما من ناحية الإمام أو الإدريسى فكان لهما أيضًا معاذيرهما أو بمعنى آخر حججهما فى القيام بهذه الأعمال الثورية . وكانا يظهران ذلك فى تصريحاتهما ، أو كتابات من يمثلهما إلى الجهات المختلفة وخاصة الأصدقاء فى مصر ، وقد نشرت بعضها على صفحات الجرائد المصرية ، ويمكن الآن أن نشير إلى بعض هذه الأقوال والكتابات لبيان سبب عودتهم إلى الأعمال العنيفة بعد فترة الهدوء النسبى الذى أشرنا إليه .

ففى رسالة للإمام يحيى إلى أحد علماء الآستانة - وقد كال له العالم التهم وسب مذهبه - قال فيها : « .. أما مسلكنا فهو السعى لإعلان كلمة الله والعمل بما فى كتاب الله وسنة رسوله ونصرة الضعيف وإغاثة اللهيف والأخذ على يد الظالم . وقد علم هذا إخوان الدين وجماعة الموحدين ، كما علموا بالتتبع كذب

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٦٩ السبت ٢١/ ١/ ١٩١١ (٢٠ محرم ١٣٢٩) ص ٤ .

(٢) المؤيد : العدد ٦٢٨٣ الاثنين ٦/ ٢/ ١٩١١ (٧ صفر ١٣٢٩) ص ٤ .

ما ينسب إلينا من الرفض والخروج والبغى والعدوان ، وأنه اعتدى علينا وبغى علينا فخربت حق ديارنا ، وقتلت ظلمًا وعدوانًا رجالنا ، وانتهبت بأيدى الجور أموالنا ، واغتصبت حقوقنا . وقد وقف كثير من علماء الأمصار على كتب مذهبنا فى الأصول والفروع فتيقنوا افتراء الطاعنين فى مذهبنا وأمرهم إلى الله هو أعلم بمن ضل عن سبيله .. » ويستطرد الإمام فيشير إلى معاملة الدولة القاسية لأهل اليمن فهى « لا ترسل لهم إلا آلات الحرب والجنود التى تحمل راية الموت والدمار » ثم يدافع عن نفسه فيقول « .. على أنه لا ذنب لنا إلا ما نبينه من وجوب اتباع الشريعة ، وندعو إليه من السلوك فى مناهجها الوسيعة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .. » ويختم كتابه بمحاولاته السلمية لعقد الصلح وأنه أرسل وفده إلى الآستانة لتقريب وجهات النظر وعرض قضيته أمام السلطان ولكن دون جدوى وفى النهاية يقول إن المسلمين إخوة وإن عليهم الاتحاد (١).

كما أوضح الإدريسى فى رسالة له إلى أحد أصدقائه فى مصر - وهى رسالة طويلة - يستعرض فيها قضيته مع الدولة وتطور أحداثها ، ويشرح فيها السبب العميق فى عودته إلى الثورة ألا وهو نكث الدولة لعهودها وهى نتيجة اضطراب مواقفهم من القضية العربية بوجه عام . ثم يدافع عن التهمة التقليدية التى تلصقها الدولة به وهى الخروج عليها والخوف على هذه البقاع من النفوذ الأجنبى. وقد بدأها بالإشارة إلى فترة الصلح أو التوفيق بينه وبين الدولة عندما كان سعيد باشا متصرفًا على عسير واستطاع أثناءها - وبناء على الهدوء والسلام فى هذه الجهات - أن يجبى الضرائب ويمد أسلاك التلغراف بين المراكز المختلفة وينشئ المحطات التلغرافية ، ويتعاون مع الإدريسى فى تهدئة القبائل . ثم أشار إلى أنه ساعد الدولة أيضًا فى تنفيذ أوامرها بما لديه من نفوذ وقدرة فائقة أثبتها على مر الأيام وظهرت واضحة

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٨٩ الاثنين ١٣ / ٢ / ١٩١١ (١٤ صفر ١٣٢٩) ص ١ .

للعيان فى إخضاع القبائل له وكسر شوكتها والإصلاح فيما بينها ، وقال إن سعيد باشا كان يمنيه دائمًا على لسان الباب العالى بالإصلاح والاعتراف للإدريسى ببعض مظاهر الوضع الخاص فى عسير ، ولكن سعيد باشا عزل وعين مكانه سلميان باشا « الذى غير طريقة المصالحة واتبع طريقة العنف وعدم ملاحظة عادات البلاد ولغتها » وأنكر على الأهالى ما كان وعدهم به سعيد باشا ، وكان هذا نتيجة أن « مأجورو السوء سعوا بالمقاصد السيئة » فتحولت سياسة الدولة ، فاتخذت مكاتب التلغراف « قشلاقات عساكر » بدلا من كونها مكاتب للموظفين ، وخطورة ذلك - التى يدركها الإدريسى - هى أن هذه المكاتب تقع بين الأهالى وداخل جماعاتهم ، فكانت فرق الجنود تخرج إلى القرى وتحرقها وتؤذى أهاليها بالضرب والسجن ، لذلك يقوم الأهالى - البدو والمسلحون والذين ألفوا الحرب والتمرد حفظًا على حريتهم الشخصية - لصد هذا العدوان وتحدث الاحتكاكات العسكرية ، ثم تتضخم هذه الصورة « وتحشد القوات من ناحية الدولة ورجال القبائل من ناحية أخرى لتصبح معركة » . ويشتكى الإدريسى فى رسالته كذلك من فداحة الضرائب وعدم ملاءمتها لحالة البلاد ثم يدفع عن نفسه وعن أهالى عسير من أنهم لا يمكن وقوعهم بسهولة فى أيدى الأجانب . فيقول : « إن البدو الذين لم يألفوا الترك لما يرونه من ضعف الدين فى بعضهم كيف يمكن أن يألفوا الفرنج وهم على غير دينهم »[١] .

يتضح مماسبق موقف الأتراك ورغبتهم الملحة فى الإخضاع التام فقط - طبقًا لسياسة الاتحاديين عامة - دون محاولة الوصول إلى اتفاق يرضى الطرفين . وقد اتبعت الحكومة تنفيذاً لهذه السياسة كل الوسائل الملتوية من حرب ومهاجمة ثم سلام ومراوغة ، ولكنها لم تقبل مطالب اليمنيين .

(١) المؤيد : العدد ٦٣٢٤ الاثنين ٢٧/ ٣/ ١٩١١ (٢٦ ربيع الأول ١٣٢٩) ص ٢ .

ويؤكد هذا ما نقلته المؤيد عن جريدة « جون ترك » حيث تنصح حكومتها - العثمانية - فتقول : « .. إن الحكومة إذا دامت على إصرارها ، وعدم إجابتها لمطلب الإمام فإنها لا شك تكون قد أضاعت كل نفوذها .. وعلى كل فعواقب الأحوال وخيمة لأن أكثر موظفى الحكومة هناك غير أكفاء فهم لايزالون يسيئون استعمال وظائفهم .. »(١) .

وتتكرر وجهة النظر هذه دائمًا فقد صرح أحد المبعوثين فى الآستانة لمحرر جريدة أجنبية أيضًا أن أكبر أسباب الثورة هو صدور وعود كثيرة من الحكومة لليمنيين وعدم تحقيقها لأى من هذه الوعود(٢) .

أما من ناحية أهل اليمن أنفسهم فقد كتبوا كثيراً عن قضيتهم مما يوضح الرأى العام اليمنى أو ما يمكن أن نسميه كذلك . ويجب أن نلاحظ أن بعض هؤلاء الكتاب أوالمتحدثين قد يكونون رجال الإمام أو من الطبقة التى تطمع فى الحكم فى ظل الهدوء والسلام وتحت الاستقلال الداخلى الذى يطمعون فيه جميعًا ولكن هذا لا يمنع من أن كتاباتهم وأحاديثهم تصور إلى حد ما موقف الرأى العام اليمنى من قضيته . وبالاضافة إلى ذلك سوف نوضح موقف بعض القبائل الخاص - الذى يتصف بالاستقلالية ، إما لاختلاف مذهبى أو للمحافظة على مصالح خاصة - من الطرفين المتنازعين . ففى مقالة لعبد المحسن الحسينى الرصاصى اليمنى بمصر نشرها « بالمؤيد » ردًا على مقالة نشرتها جريدة « العلم » التى رفضت نشر مقالته لديها - وهى دفاع عن الإمام يحيى ضد ما اتهمته به « العلم » من الخروج والعصبية الجاهلية - يقول فى نهايتها « نحن كتبنا غير مرة فى مسألة اليمن واقترحنا على دولتنا العلية حفظها الله من كيد الأعداء بعنايته الربانية أنها لو جعلت

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٥٩ ، فى ٨/ ١/ ١٩١١ (٧ محرم ١٣٢٩هـ) ص ١ .

(٢) المؤيد : العدد ٦٢٩٠ فى ١٤/ ٢/ ١٩١١ (١٥ صفر ٢٣٢٩ هـ) ص ١ .

ولاية اليمن تحت أحكام الإمام كما سبق - والقوة العثمانية تكون منفذة لأحكام الإمام الشرعية ، ويكون مركزها الجديد ، وبهذه الطريقة تضارع ولاية اليمن ولاية الحجاز فى السلطة والقوة ، وبهذا تنحسم الإشكالات وتحافظ على هذين العضوين المهابين فى الاسلام ، الترك والعرب وتشتغل باسترجاع ملحقاتها بقوة الرجال من الترك فتعز وترقى ، وذلك لا يكون إلا بجمع كلمة الأمة ولم شعثها وأن لا تشغل مركزها وكتابها الحريصين عليها بمسألة اليمانيين المساكين المسترحمين خليفتهم ورجال الدستور العادلين .. »[1] بل وكتبت « المؤيد » نفسها ، مقالة فى عددها السابق مباشرة للعدد الذى نشرت فيه المقالة سالفة الذكر ، مقالة لها تعقد مقارنة بين سياسة السلطنة وسياسة إنجلترا فى الجزيرة العربية ، وموقف السلطنة المضطرب المتناقض فى هذه الجهات . وهذه المقالة بمناسبة مهاجمة الإنجليز لسواحل عمان وأن أهالى عمان قد أرسلوا « للمؤيد » خطابات كثيرة يشكون من إهمال الدولة لهم إزاء هذا العدوان الإنجليزى . فتعلق الجريدة بأن الدولة العلية لا ترسل إلا السيف والنار للعرب بدلا من أن ترسل لهم المعونة والسند المادى والمعنوى فتقول فيها « أما القائمون بإدارة الدولة العلية فى هذه الأيام فإنهم - سامحهم الله - لا يسمعون عن العرب إلا كلمة السوء فتراهم إذا أرسل لهم إمام اليمن مثلا وفداً ليتفاهم معهم ويناقشهم فى الحل المعقول الذى يمكن أن ينفع المسألة اليمانية يضعون أصابعهم فى آذانهم ويتملقونه بالكلام الفارغ إلى أن يعييه الانتظار فيقفل راجعًا من حيث أتى . وإذا كثر الضغط وساءت الإدارة فى أرض الجزيرة ، وتهدد والى اليمن إمامها لجمع السلاح من قبائله التى لم تطأ الدولة أرضهم فى زمن من الأزمان ، عندئذ تصل كلمة السوء عن العرب إلى آذان الدولة على أجنحة البرق فتجيش الجيوش من العثمانيين لإبادة إخوانهم فى الوطن والدين كما فعلت فى هذه الأيام ، إذ جهزت عشرين طابوراً ، وستتبعها بثلاثين أخرى تنفق عليها - من المال الذى رهنت مستقبل الدولة عند استقراضه ... فانظر إليهم سامحهم الله ... وكيف لا يحسنون استعمال

---

(١) المؤيد : العدد ، ٦٢٧٤ فى ٢٦/ ١/ ١٩١١ (٢٥ محرم ١٣٢٩) ص ١ .

رابطة الوطن ورابطة الدين التى بين جزيرة العرب ، وبين الآستانة ، وكيف يعملون على إماتة ذلك الحب الذى تأصل فى قلوب الأمة العربية نحوهم ويقطعون أوصاله من حيث لا يشعرون . هذا فى الوقت الذى تستميلهم البوارج الإنجليزية (يقصد هنا أهل عمان) باللين والحيلة والهدايا لقبول راية ترفع أو بريد يؤسس فلا يقبلون فتسلط نارها الحاميه على ثغورهم من غير حق[1].

وكانت هذه الرسائل التى تدافع عن قضية اليمن تتوالى على الصحف المصرية لنشرها لتوضيح أسبابها وتطور أحداثها للرأى العام . وهناك رسالة من عبد الله ابن يحيى البدرى ببلاد حاشد مؤرخة ٢٨ ذى الحجة ١٣٢٨هـ (يناير سنة ١٩١٠) موجهة إلى علماء المسلمين - وهى مرسلة إلى عبد المحسن بمصر السابق ذكره - يشرح لهم نقاط هذه القضية ويستحث الهمم للدفاع عنها ويدعو العلماء إلى « الوساطة بين السلطان وبين هذين الرجلين[2]».

وأدلى الأجانب بدلوهم فى تناول القضية العربية عامة والقضية اليمنية خاصة لأنهم كانوا مهتمين اهتمامًا كبيراً بمصير الإمبراطورية العثمانية وبدقائق أحداث أجزائها المختلفة . وكان ذلك تحفزاً لالتهام أجزاء من هذه الإمبراطورية من ناحية ، وتحفزاً من كل منهم أمام الآخر للمحافظة على التوازن الدولى من ناحية أخرى . وكانت إنجلترا من أكبر الدول اهتمامًا بالجزيرة العربية ، ففضلا عما كان لها فعلا حتى هذه الفترة التى نتكلم عنها ، كانت تحاول نشر نفوذها ، وسيادتها على أجزاء أخرى . وقد نقلت المؤيد عن عدد « الطان » الفرنسية الصادر فى (٢٤/ ١/ ١٩١١) رأى أحد الأساتذة بجامعة فيينا وهو من المهتمين بالمسائل العربية » أن الإمام يحيى صاحب النفوذ العظيم فى البلاد الجنوبية تحت أمره على الأقل ٥٠٠٠٠ رجلا وأن السيد الإدريسى جمع فى أول يناير (١٩١١)

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٧٣ ، الأربعاء ٢٥/ ١/ ١٩١١ (٢٤ محرم ١٣٢٩) ص ١ .

(٢) يقصد الإمام والإدريسى .

٤٠٠٠٠ من الفرسان ، وأن جميع هؤلاء الرجال مسلحون بالبنادق الحديثة بالرغم من المجهودات التى تتخذها الحكومة فى السهر على منع تهريب الأسلحة. وقد وهنت عزيمة الدولة نظراً لشدة بأس العرب وصعوبة بلادهم ، وأن الجنود التركية تفر من الحرب فرقًا فرقًا ، وأن تلك الفرق الفارة يتراوح عدد أفرادها بين العشرين والخمسين تاركين سلاحهم وذخائرهم الحربية للثائرين »[١] . ونقلت المؤيد أيضًا ما كتبه السير وليم مكسويل عن بلاد العرب فى « الديلى ميلى » حيث قال عن اليمن « ... وبسبب خصوبة أرضها تختلف أخلاق أهلها عن أهالى باقى بلاد العرب فإنهم سكنوا الدور ... وهم يحقدون على سادتهم الأتراك الذين لم يأتوا إلى اليمن للعمل لما فيه فائدتهم ونفعهم ، ولكن لاستنزاف ما فى أيديهم . واليمنى ككل عربى يخفى فى نفسه احتقاره للتركى . وينظر إليه كالهمجى حيث جرد بلاده من مدنيتها ، وإذا جلست إلى جانب اليمانى يذكر لك عن بلاد العرب أنها كانت مركزاً للعلوم والمعارف كما هى اليوم للدين ... وقد جرى أكثر من جيلين وهما فى تنازع وما سمعت أوروبا بأعمالهما إلا همسًا ، ولم تحول نظرها التفاتا حتى فى هذا الوقت الذى أرسلت فيه الحكومة العثمانية ثلاثين طابوراً وتتساوم فيه مع ألمانيا على أجرة نقله »[٢] .

وفى المقالتين السابقتين وهما على سبيل المثال لا الحصر بعض التعريف ببعض الحقائق ، وبالرغم من بعض نقائصهما مثل المبالغة فى حقيقه العدد الذى ورد فى المقالة الأولى عن جنود الإمام أو الإدريسى ، أو المبالغة والتعميم فى شعور العرب نحو الترك فى المقالة الثانية إلا أنهما فى الحقيقه كافيان إلى حد ما لكشف بعض جوانب أحداث هذه الفترة وتوضيح وجهة نظر الأجانب فى هذه المشكلة .

---

(١) المؤيد : العدد ، الاثنين ٦/ ٢/ ١٩١١ (٧ صفر ١٣٢٩) ص ٤ .

(٢) نفس العدد والصفحة .

أحداث الثورة وحصار صنعاء سنة ١٩١١ :

بعد هـذا العرض العـام السابق ، يجدر بنـا الآن أن نخصص الحديث عن الفترة التى أعقبت الهدوء النسبى ، والتى بدأت بتولى محمد على باشا حكم ولاية اليمن ، والتى انتهت بعقـد صلح « دعان » سنـة ١٩١١ . فالاهتمام بهذه الفترة وتتبع أحداثها أمر ضرورى لبيان المقـدمات التاريخية التى أدت إلى عقد الصلح الذى أدى بدوره إلى ملامح جديدة فى عـلاقات العثمانيين بالإمام . وقد سبق أن ذكرنا أن تولى محمد على باشـا أمر اليمن فى ١٢ جمادى الأول سنة ١٣٢٨ (مايو سنة ١٩١٠) كـان سببًا فى تجدد الحرب بصـورة عنيفة قـاسية . فنجـد مثلا أن المؤيد تنقل عن وكـالة رويتر أن « الإمام يحيى أشهـر الحرب على الأتراك ، وقطع أسلاك التلغـراف بين صنعاء والحديدة ، وينتظـر أن تثور اليمن ثورة عمـومية » وأن « السيـد الإدريسى قـد هـاجم الأتـراك فى عـاصمـة عسير (أبها) وأصبح المتصرف والجنـود فيهـا كمسجـونين من أول ديسمبر الماضى سنـة (١٩١٠) والعصابات (كذا) الثـائرة تتحرك فى كل جهة من جهات اليمن ، وأن متصرف عسير الجديـد لا يزال مقيما فى الحديـدة لأنه عـاجـز عن متابعـة سفره إلى مقـر متصرفيه عسير » . كما ذكرت المؤيد أن « طنين » التركيـة الممعنة فى تركيتها كتبت تعليقًا على هـذه الأخبار المتـواردة جاء فيهـا « أن السلطنة سترسـل لهم (دشًا) بارداً كالذى أرسلته إلى الألبان فى مقدونيا »[1] . وقد أيدت تقارير قناصل الدول الأجنبية فى الحديـدة « أن الإمام يحيى قـد زحف برجالـه نحو صنعـاء، وهو الآن (ينايـر سنة ١٩١١) أوشك أن يصل إلى صنعـاء . وقد وقع بينه وبين العسـاكر عدة مصادمات ولم يعرف حتى الآن مقدار القتلى والمجروحين منها »[2].

ولم تقف الدولة مكتـوفة الأيدى إزاء هذه الأعمال الثـورية بل طلب الوالى

(١) المؤيد : العدد ٦٢٦٩ السبت ٢١/١/١٩١١ (٢٠ محرم ١٣٢٩) ص ٤ .

(٢) المؤيد : العدد ٦٢٧٣ الثلاثاء ٢٤/١/١٩١١ (٢٣ محرم ١٣٢٩) ص ٢ .

سرعة إمـداده بالجنـود والمعدات . وبـذلت الـدولة جهـدها فى نجـدة واليها فى اليمن، فأرسلت إليه الإمدادات المتتاليـة . ونقلت المؤيد عن « الطان » الفرنسية الصـادرة فى ١٤/ ١/ ١٩١١ أى فى نفس الشهر الـذى اشتد تـوهج الحالة فيـه باليمن مـا يفيد « أن حكومة البـاب العالى قررت أخيراً أن تـرسل إلى بلاد اليمن ٣١ أرطة ، ٨ بطـاريات مـدفعية ، مصممـة على استعمال الشدة فى قمـع الثورة التى تأججت نيرانها فى هـذه الأيـام » بل وعلقت الجريـدة على خطـورة هـذا المشروع الحربى الذى تنوى الحكومـة اتخاذه فقالت : « وهذا مشروع خطير يحتاج إلى المال الـوفير ، بل هو من الصعـوبة بمكـان ، ولا تقـوم به تـركيا الحديثـة إلا بمشقات جسيمـة وضحايـا وافرة »(١) . وتتـوالى وصـول هـذه الإمـدادات إلى اليمن، بل ويعتبر حضـور عـزت باشـا إلى هـذا الميـدان حلقة كبيرة فى سلسلـة محاولات الحكـومـة العثمانيـة لإخماد الثـورة هناك وهـذا مـا سنتنـاولـه فيها بعـد بالتفصيل . لم تكن هـذه الصورة هى كل جـوانب موقف الباب العـالى من هذه القضية ، بل كـانت هناك صـورة أخرى ، ولكنها سلميـة فى طبيعتها . فقـد قال مراسل المؤيـد فى الآستانة فى ٣/ ٢/ ١٩١١ « أنـه ما زالت تتـوالى الجلسات فى الباب العـالى للمذاكـرة بشأن المسألة اليمينـة كل يـوم ، كما أنه قد عينـت لجنة مخصوصة مؤلفة من قـدماء المأمورين الملكيين ، والأمراء العسكريين للبحث فى شأن المسألـة ، وقد بلغنى من مصـدر يـوثق به أن الحكـومة قـررت نهائيًا قبـول مطالـب الإمام جميعها ، وأن مـا يرسل من الجيـش إلى اليمن إنما هو للمحـافظة على القسم السـاحلى وإظهار هيبـة الحكـومة فى اليمن تجاه الأجـانب ليس إلا ، وهـذا ما كنت نـوهت به فى الـرسـائل الماضية بقـولى إن المقصود من « سـوق » الجيش(٢) هو عمــل استعراض لا حرب ، والمستقبل كشاف الحقـائق »(٣) حقيقة

(١) المؤيد : العدد ٦٢٨٣ الاثنين ٦/ ٢/ ١٩١١ (صفر ١٣٢٩) ص ٤ .

(٢) مصدرها (يسوق) : ويقصد هنا : إرسال الجيش .

(٣) المؤيد : العدد ٦٢٨٤ الثلاثاء ٧/ ٢/ ١٩١١ (٨ صفر ١٣٢٩) ص ٤ .

يحتاج هذا الحديث إلى تعليق طويل وبيان ماهية اللجنة المخصوصة وعملها إلى غيره ، وكذلك مناقشة هذا الرأى الأخير ، وهو أن أعمال الحكومة العنيفة يقصد منها : « إظهار هيبة الحكومة ليس إلا » فهو على جانب كبير من الأهمية . ولكن ما نقصده هنا هو إظهار موقف الحكومة من المسألة اليمنية بشكليه الحربى والسلمى ، وإن كنا سنتحدث عن هذه اللجنة ، وعن صحة رأى المراسل فيما بعد بالتفصيل .

زحفت القبائل إلى المدن تحاصرها ، وتخربها ، وتنهب منها ما تصل إليه يديها . وقد كتب شاهد عيان إنجليزى - شهد حصار صنعاء - مقالة فى التيمس ونشرتها المقطم فقال : « قد أتيح لى أن أكون فى صنعاء لما كان الإمام محاصراً لها ، وظل الحصار من يناير إلى أواخر أبريل من العام الماضى (١٩١١) وكان عدد المحاصرين يتراوح بين عشرة آلاف وخمسين ألف مقاتل (حقيقة لا يمكن حصرهم تمامًا) ولو هجم الثوار على المدينة بغتة لتيسر لهم فتحها عنوة لأن حاميتها - كانت مؤلفة من خمسة آلاف من المشاه وبعض الفرسان ونحو ٣٠ مدفعًا - لم يكن فى استطاعتها الدفاع عن السور الذى يبلغ محيطه اثنى عشر كيلو مترا » بل ويؤكد الكاتب تلك الظاهرة الغريبة المتكررة ، وهى هروب الجنود العثمانية ، وانضمامهم إلى الثوار فيقول « وحدث أنه لما عصفت ريح الثورة خرج بعض الجنود المحليين من العرب من المدينة ، وانضموا إلى الثوار ، فشدد ولاة الأمور على من تخلف من هؤلاء الجنود فى المدينة واعتقلوهم هم وسائر الذين اشتبهوا فيهم من الأهالى إلى أن انتهى الحصار ، ولم يشددوا إلا فى هذا الأمر ، وتجاوزوا عن سعى الذين سعوا فى نسف الشكنات . ويؤول تسامحهم هذا بخوفهم من قيام الحرب عليهم إذا سقطت صنعاء وانتقامهم منهم ، وحرصهم على حياة الجنود الكثيرين الذين

أسرهم العرب »[١] . ولكن الواسعى يعطينا صورة أعمق وتفاصيل أكثر لحالة الحصار الذى عاناه أهل صنعاء سنة ١٩١١ ، وأعمال الوالى سواء داخلها لحفظ الأمن فيها ، والقضاء على المؤامرات التى يمكن أن يحيكها أهل صنعاء ، أو بمعنى آخر القضاء على مايمكن أن يقوموا به من مد المساعدة للقبائل المحاصرة ، وكذلك أعماله خارجها من حيث تقوية حاميتها ، أو بث الألغام حولها ، فيقول : « وما زال الوالى فى صنعاء يخيف الناس ويمنعهم من الخروج وشدد عليهم ، وأغلق أبواب المدينة ، وأمر البوليس يدورون فى الأزقة وإذا وجدوا شخصين يتكلمان أو يمشيان معًا ضربا وحبسا ، وإذا وجد البوليس فى الليل مكانًا مرتفعًا مضيئًا بالمصباح فى أحد البيوت هجموا على صاحب البيت وضربوه وحبسوه ، ويزعم الوالى أنهم فى الليل يشيرون للمحاصرين بالهجوم على المدينة وما زال الناس فى الخوف والوجل من الوالى . هذا كله سوى ما الناس فيه من المحاصرة والضيق ، وانقطاع الطعام عنهم وسائر المحتاجات ، وامتلأ السجن محابيس ظلمًا ... » بل أشار فى كلامه إلى ظاهرة طبيعية تحدث دائمًا لأناس فى حالة حصار ، وخاصة إذا لم يكن لهم فى الحرب ناقة ولا جمل ، فهم ليسوا من أفراد حامية المدينة كما أنهم ليسوا فى تشكيلات سرية مثلا تعمل لصالح قضية معينة ، تتمثل فى مساعدة المحاصرين أساسًا أو تخريب منشئات داخلية أو غيره مما يصاحب فترات الحصار دائمًا ، قال : « إن الناس اتجهت إلى المساجد باعتبارها ملاذاً يلجأون إليه طوال النهار ، من ناحية لتعطل مظاهر الحياة اليومية العادية من بيع وشراء أو القيام بوظائف رسمية أو غير رسمية ، ومن ناحية ثانية هربًا من رجال الشرطة الذين يشكون ويرتابون فى كل شىء ، وخوفًا مما يتبع ذلك دائمًا من ضرب وسجن » . ويكمل الواسعى وصفه لمجهودات الوالى خارج الأسوار فيقول

---

(١) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء ٢ ، الصادر فى أول صفر ١٣٣٠ هـ (١٨ فبراير ١٩١٣) ص ١٠٦ - ١٠٧ .

« ... وأمر الوالى بخراب البيوت التى حول صنعاء « شعوب » و « الصافية »[١] وضرب المساجد ، وقلع الأشجار . ووضع حول صنعاء دفائن من البارود تسمى ديناميت وأهلكت من أهل صنعاء نفوسًا كثيرة لم يكونوا يعلمون بها إذا وضع أحد رجله عليها صعقت به وصيرته قطعًا . إنما فعل هذا الوالى خشية من العرب إذا هجموا صنعاء . وفى آخر مدة الحصار قرب العرب إلى حول صنعاء ، وعرفوا الدفائن وكانوا يحفرون التراب حفراً لطيفًا ويستخرجون تلك الدفائن ويأخذونها، فندم الوالى وحزن على ذلك »[٢] . وكان الوالى يحاول بين الحين والآخر الخروج لملاقاة هؤلاء المحاصرين ويحدث التشابك وجهًا لوجه بعد أن تطلق آلاف الرصاصات ويقترب كل منهما إلى الآخر .

وبلغت الوحشية أقصاها فى هذا الحصار « فكان بعض الجنود يحضرون معهم عند عودتهم رؤوس بعض القتلى العرب إلى المدينة »[٣] ، ولم تنفرد صنعاء بهذه الحياة الرهيبة ، إذ كان كثير من مدن اليمن محاصرة ، فمنها مثلا مدينة «يريم » وكانا يحاصرها ذو محمد وذو حسين[٤] ، وكان رئيسهم يحذرهم دائمًا من النهب والقتل والهجوم على المدينة ، بل يأمرهم بحصار المدينة فقط ، وأن من خرج من المحاصرين سواء من العرب أو من الترك فهو آمن « فلم يسمعوا بل هجموا على هذه المدينة وحصل منهم الأفعال الشنيعة من النهب والقتل »[٥] .

حملة عزت باشا :

وكان هذا الوضع الملتهب فى اليمن يؤدى بالدولة إلى القيام بالاستعدادات الضخمة لإخماد هذه الثورة بأى ثمن ، فكانت تجمع الفرق العسكرية من

---

(١) تعتبران من ضواحى صنعاء .
(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٢٨-٢٢٩ .
(٣) Wavell ; A Modern Pilgrim in Mecca, p. 277.
(٤) وهما فرعان من قبيلة بكيل ، وكانا من أتباع الإمام .
(٥) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٣٠ .

ولاياتها المختلفة فى الآستانة ثم ترسلها إلى اليمن تباعًا . وكان هذا العمل فى حد ذاته يدل على قصر نظر الدولة ، حيث إن طاقتها الحربية المتمثلة فى قواتها الموزعة على هذه الولايات كانت محدودة للغاية ، إذ كانت الدولة فى ضعف عام، فكان معنى سحب قوة ما من إحدى الولايات يضعف نفوذها فى هذه الجهة . وكان هذا من غير مقابل إذ إن مسألة اليمن كانت لا تحتاج كل هذا المجهود الحربى الضخم بل كانت تحتاج فى الدرجة الأولى إلى الالتقاء مع الواقع اليمنى ، والتفاهم مع الإمام مباشرة . فالواقع أن أهالى اليمن ليسوا جميعًا من الزيديين ، كما أن هؤلاء ليسوا جميعًا أتباعًا للإمام ويحاربون خلفه وحتى القبائل الشافعية التى تثور ضد العثمانيين إنما تثور ضد أوضاع فاسدة من السهل على الأتراك تلافيها وكسب هؤلاء إلى جانبهم . وهذ كله سيتضح بجلاء عند الحديث عن الصلح (سنة ١٩١١) ومعرفة دوافعه ونتائجه ، وكذلك بعد الإشارة إلى الحرب الطرابلسية ، وسبب هزيمة الباب العالى أمام إيطاليا .

ولكن صممت الدولة على إرسال حملة ضخمة لإنهاء هذا الاستعصاء المزمن ، وقد أشرنا إلى ضخامة هذا المشروع وما ستتكلفه الدولة فى سبيل ذلك وما ستنوء به خزانتها من عبء كبير . ولكن قائد هذه الحملة المشير عبد الله باشا توفى وهو فى طريقه من الحجاز إلى اليمن نتيجة « ما كان يعتريه من النزلات الصدرية » فعين الباب العالى عزت باشا رئيس أركان حرب الجيش بدلا منه قائدا لهذه الحملة . وشخصية عزت باشا شخصية جديرة بالتعريف لما قام به صاحبها من دور هام : « هو من أعلى بيوت المجد والشرف فى ألبانيا ، وقد تربى تربية عسكرية عالية فى ألمانيا حتى إن الإمبراطور غليوم كان يفتخر بأن المدارس الألمانية أنجبت مثله من العثمانيين . وكان السلطان عبد الحميد قد نفاه إلى سوريا أثناء حكمه لمدة طويلة ، إذ كان يخشى الشخصيات القوية المستقلة ، ولما زار غليوم سوريا قال فى حديث له إلى والى بيروت إذ ذاك : « إذا كان الجيش العثمانى يستغنى عن عزت باشا فإن الجيش

الألمانى فى حاجة إليه » . فاضطر السلطان عبد الحميد أن يرقى رتبته بعد ذلك ، وأن يرسله إلى اليمن فريقًا على الفرقة الرابعة عشر المقيمة فى الحديدة . وقد سار سيرة حسنة فى بلاد اليمن ، وأحبه أهلها حبًا شديداً ، ولكنه لم يلبث أن أعيد إلى منفاه فى سوريا قبل إعلان الدستور بزمن قليل . ولما أعلن الدستور عين على الفور رئيسًا عامًا لأركان حرب الجيش العثمانى بإجماع رجال الدولة ، على أنه ليس هناك أكفأ منه لهذه الوظيفة العالية[1] » وقال عنه الريحانى عند حديثه عن الصلح « فسعى عزت بما كان له من حنكة وفصاحة وكرم أخلاق إلى مصالحة الإمام . وقد كان عزت كريماً وجواداً ... واستمال الإمام بفصاحته وحذقه »[2] كما قال عنه الواسعى عند حديثه عن الصلح أيضًا أنه هو الذى توصل إلى عقده مع الإمام « وتوفق هذا الدواء (يقصد الصلح) الرجل الشهم الغيور عزت باشا... »[3] .

زحف عزت باشا من الحديدة إلى الداخل قاصداً صنعاء لفك حصارها ، وقد حدثت عدة معارك بينه وبين القبائل المختلفة على طول الطريق ، فلم يكن الطريق معبداً سهلا فى الحقيقة . ويعدد الواسعى بعض المعارك التى وقعت قبل وصول عزت باشا إلى صنعاء فيقول : « ثم خرج عزت باشا من الحديدة والحرب فى طريقه لم يزل منها حرب مشهور فى « مفحق » ثم حرب عظيم فى « بيت السلامى » و « قملان » .. ثم فى « شعبان » مقابل محطة « متنة » التى يسميها الأتراك « سنان باشا » - قامت حرب عظيمة اختلط العرب والترك ووقع الضرب بالسيوف والمدى ، وفى ذلك يقول عزت باشا لو كان للدولة ألف رجل من هذه الرجال لأخذنا أوروبا بأسرها : لم يزل الحرب فى الطريق إلى « رأس عصر » مقابل مدينة صنعاء ... »[4] . وفى

---

(١) المؤيد : العدد ٦٢٩٨ الخميس ٢٣/ ٢/ ١٩١١ (٢٤صفر ١٣٢٩هـ) ص ٢ .
(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جزء أول ، ص ١٤٦.
(٣) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٣٠ .
(٤) نفس المرجع : ص ٢٣١ .

الحقيقـة لقد صـاحبت هـذه المعارك ظـاهرة عجيبـة ، وهى تقليـدية عنـد أهل اليمن، ألا وهى انسحابهم أمام الجيوش التركيـة - إذا أحسوا بقوة عدوهم - إلى جبالهم ومعاقلهم على الهضبة وخاصـة فى الشمال . لذلك يرى البعض أن عزت باشا فى زحفه إلى الـداخل « لم يلق المقاومة التى كان يتوقعها ، فـرغم أنه حارب كثيراً فى طـريقه إلا أن الثـوار لم يـدافعـوا عن معقل من معاقلهـم العديـدة بين الحديدة وصنعـاء مدافعـه تستحق الذكر » . وقـد علق صاحب هـذا الرأى على كلامـه محاولا تفسيره وتحليله فيقـول « وقد دلت النتـائج على أن تقاعـدهم عن مقاومة الجيش كانت من حكمة من الإمـام وليس جبنًا منه ومن رجاله إذ لما بلغ الجيش صنعاء رأى أنه لا يستطيع أن يخطو إلى مـا وراءها » . ولكن رغم أن هذا الرأى يحمـل بعض الصحة إلا أن الحالة لم تكـن بسيطة أو سارت هكـذا بشىء من الرتابة والتنظيم ، فيتقدم عزت باشـا من الحديدة ليجد ثواراً ينسحبون أمامه بعد القيـام بمناوشـة ينظمون بها انسحابهم مثـلا . ولكن الحالة كـانت ملتهبة ، والحرب دائرة على أشـدها ، وخـاصة إذا عـرفنـا أن جزءاً كبيراً من جيش الثـوار الذى يحاصر صنعاء قد انسحب من حول صنعاء فى حوالى منتصف شهر فبراير سنة ١٩١١ لملاقاة قـوات عزت باشا التى كـانت تتقدم من الحديدة ، كما ظلت قوة كـافية من الثوار تحاصر صنعـاء وتبقى حاميتها تحت رحمتهـا . كما حدث فى النصف الثانى من شهـر فبراير هذا أن هـاجم رجال الإمام « النـازلين فى جوار صنعاء قـافلة مـؤلفة من ثمانين جملا تحمل أرزاقًـا ومؤونـة إلى الجنود من حـامية مدينة حجة . وقد قتل اليمانيون خمسين نفراً من الجنـود الذين حاولوا الدفاع عن القافلـة وانهـزم البـاقون ، وفى تلغراف رسمى من متصرف الحديـدة إلى الباب العالى بتـاريخ ١١ فبراير سنة ١٩١١ أن الأميرالاى رضـا بك قاد الستـة طوابير

---

(١) المنـار : المجلـد ١٥ ، جـزء ٢ ، ص ١٠٧ (الصـادر فى أول صفـر ١٣٣٠هـ - ١٩١٢/٢/١٨) .

(٢) Wavell ; A Modern Pilgrim in Aecca, p. 269 .

الموجودة فى « عبـال » إلى « مناخـه » وأن كثيراً من الثوار التحقـوا بجيوش الإمام النازلين إلى أطراف مناخه »[١] . وهكذا سار هذا الزحف من الحديدة إلى صنعاء وسط معارك وحروب ومناوشات عديدة حتى قرب نهاية مارس ، فطرد الثوار من مناخـه بعد تكبـدهم خسائر فـادحة ، ووصلـت مقدمة جيـش عزت بـاشا إلى «سوق الخميس » وكان معنى هذا قرب فك الحصـار القائم حول صنعاء . وقد أظهر الوالى المحاصر ، محمد على باشا نشاطًا مفاجئًا داخل المدينة وعند الأسوار تسهيلا لتقـدم جيش النجدة وقد اشتدت وطأة الحرب فى هـذه المرحلة الأخيرة ، وفى صبـاح ٥ أبريل سنـة ١٩١١ ، تـرك العرب كل مـراكـزهم وانسحبوا نحـو الشمال ، وفى المساء من نفس اليوم دخل عزت باشـا نفسه المدينة ، ومعه قواته . وفى اليوم التـالى أقيم استعـراض كبير للحاميـة ، وللقوة الجديـدة فى المدينة ، فى ميدان أمـام مبنى الحكـومة ، وألقى عـزت باشا خطـابًا فى هـذا الجمع الكبير بما فيهم أهل المدينة . واستقبلـت المدينة القائد المنتصر بـالفرح فأقيمت الـزينات وأقواس النصر ، كما خرج كل أهالى صنعاء وهـم يلبسون أحسن ملابسهم ليحيوا القـائد الجديـد رغم نزول المطـر فـامتـلأت الشوارع بـالنـاس فـرحًا ، بـانتهـاء الحصار[٢] .

لم يكن الـوصول إلى صنعـاء ، وفك حصارهـا هـو نهاية المطـاف بالنسبـة للعثمانيين ، أو حلا لقضية اليمن ، بل كان هـذا العمل فى حد ذاته خطوة لا بد أن يتبعها خطـوات لإنهاء هذا الوضـع والوصول إلى استقـرار نهائى . حقيقة أن الأمر قد أصبح الآن أكثـر تحديدا من ذى قبل ، إذ استطاع عزت باشـا أن يؤكد نفـوذ الدولـة فى الساحل وخـاصة فى الحديـدة ، ثم على الـمــدن والمـــراكز الواقعــة فى الطريق من الحديدة إلى صنعاء ، ولكن هذا كما قلنا لم يعن مطلقًا أن اليمن خضعت تمامًـا للقـائد المنتصر ، بل كـان الإمــام مـا زال لـه النفــوذ

(١) المؤيد : العدد ٦٣٠٤ الخميس ٢/ ٣/ ١٩١١ (أول ربيع الأول ١٣٣٩) ، ص ٥٤ .

(٢) Wavell ; A Modern Pilgrim in Mecca, p. 278.

الأكبر والأوسع على الهضبة ، فمعظم مراكز ومدن الهضبة وخاصة فى الشمال مازالت فى يد رجال الإمام أو القبائل الموالية له .

وكان الإدريسى يشكل خطراً كبيراً أيضا فى عسير ، فهو يجمع حوله كثيرا من القبائل هناك ، ورجاله مسلحون شجعان يؤمنون به ويخلصون لشخصيته القوية . بل استطاع أن يحاصر مدينة «أبها» عاصمة العثمانيين فى عسير سنة ١٩١٠ ، ولم يفك حصارها إلا حملة قوية تعاون فى إرسالها الشريف حسين أمير مكة والعثمانيين فى اليمن . واتفق الطرفان على أن تكون مدينة «الليث» هى نقطة التقائها وانطلاقها ، ولكن هذه الحملة لم تفعل أكثر من فك حصار « أبها » وانسحب الإدريسى إلى المرتفعات ومراكزه الأخرى ، وهو مصمم على أن يبدأ من جديد ويستخلص عسير من الأتراك أو يجبرهم على الاعتراف بوضعه فى عسير أو باستقلال ذاتى « يمكنه من إسعاد أهلها ، ورفع الظلم عنهم »[١] . وقد شجع الإدريسى على القيام بهذا العمل التقارب الذى حدث بينه وبين الإمام يحيى ، وعندما رأى الأخير قد أعلن ثورته العامة وبدأ زحفه إلى صنعاء[٢].

لم يكن الأمر سهلا أمام عزت باشا ، عندما وصل إلى صنعاء ، إذ كان عليه أن يواجه أكثر من عدو ، وهم جميعًا أقوياء ، ولهم أهمية كبيرة ، وعليه أن يحسب حسابهم .

كان هؤلاء الأعداء جميعًا تجمعهم غاية واحدة ، وشعور واحد ، وهو كره حكم العثمانيين . إذ لا يمكن فهم التقارب بين الإدريسى والإمام إلا على هذا الأساس ، فهناك اختلافات مذهبية بينهما ولكن عداءهما للعثمانيين جعل كلاً منهما ينظر للآخر نظرة مادية بحتة ، نفعية فى أساسها ، فكلٌّ يستطيع

---

(١) حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، ص ٤٢ .

(٢) Hogarth ; Arabia, p. 121 .

أن يعتمد على الآخر - من ناحية الشكل على الأقل - فى مضايقة العدو المشترك ومهاجمة قواته ، هذا فضلا عن موقف القبائل الشافعية فى الجهات المختلفة من عزت باشا ، سواء فى الساحل مثل « الزرانيق » و « القحرا »(١) - وهى قبائل مستقلة عن الإمام ولكنها معادية للأتراك فى نفس الوقت - أو فى عسير أو على الهضبة . ويلاحظ أن الإدريسى كان خير من يفهم الروح القبلية ، فهو يعرف أنه لا يمكنه ربط القبائل اليمنية بوجه عام ، وقبائل عسير بوجه خاص ، بفكرة مجردة لمدة طويلة . فطبيعتهم الجبلية القبلية تفرض عليهم نقص قدرتهم على التحمس لفكرة جامدة وباستمرار ، رغم أنهم يستطيعون الحرب - فى أى وقت - لفرض ما يتعلقون به ، لذلك كله لم يجعل الإدريسى لحركته طابعًا دينيًا فحسب - بل طبعها بالواقعية أيضًا ، إذ كان مبدؤه هو « عسير للعسيريين» . كما أنه أحسن استغلال وتوجيه البدوية الأولية مثل تعلقهم بالثأر ، والحرية الذاتية ، والغنائم ، والرغبة فى القتال(٢) . وبناء على هذا الفهم العميق قامت خطورة الادريسى ، وكان الأتراك يخشونه ويحاولون كسر شوكته . أما على الهضبة فلم يكن الأمر يختلف كثيراً ، إذ كانت القبائل هناك تنقسم إلى قسمين : إما قبائل زيدية متعصبة للإمام وينتظرون إشارته - وكان يدفعهم لهذا عوامل أخرى كثيرة غير الوحدة المذهبية وأهمها الفقر الاقتصادى الذى يعانون منه كثيراً - أو قبائل غير زيدية وهذه لها دوافعها الخاصة أيضًا ، فسوء الإدارة العثمانية والضرائب العالية تصيبهم فى صميم حياتهم ، وتدفعهم دفعًا إلى الذود عن حياتهم وأرواحهم .

وإلى جانب هذا كله فقد نجح الإمام فى إغراء أولئك وهؤلاء بالغنائم الوفيرة التى يمكن الحصول عليها إذا شاركوه فى مهاجمة العثمانيين . وأكد

(١) هى نفس القبيلة التى أشرنا إليها من قبل ويكتب اسمها فى المراجع العربية فى عدة صور : القحرا ، القحراء ، القحرى .

(٢) Bury ; Arabia Infelix, p. 36.

« برى » هذا المعنى بقوله « فقد استطاع الإمام مثلا أن يكسب إلى جانبه سكان شرق اليمن السنيين بواسطة الوعد بالغنائم ضد الأتراك السنيين »[١] .

حقيقة أن أهالى وسط الهضبة وجنوبها مثلا ليسوا متعصبين ، رغم أن تفكيرهم الدينى كان قويا بل أقوى مما فى سفوح الجبال أو فى تهامة ، ولكنهم فى نفس الوقت ليس لديهم الوقت الكافى للتعصب للمشكلات المجردة فالأرض لابد من حرثها ، كما أن تغير فصول السنة وسقوط الأمطار وغيرها - أو بمعنى آخر أن النواحى العملية التى تتطلبها معيشتهم اليومية - لا تحتمل مطلقًا الإهمال أو الإمهال بل تتطلب دائمًا رعاية ويقظة . لذلك كانت الحركات الثورية التى تقوم فى صنعاء لا تتمكن من الانتشار فى الريف بسهولة لأن رجال التلال لن يعيروا هذه الحركات اهتمامًا إلا إذا كانت تمسهم شخصيًّا[٢] . ومعنى هذا أنه كان على عزت باشا أن يسرع ليتلاقى مع الواقع فى منتصف الطريق . فكان عليه أن يفهم مثلا أن قليلا من إصلاح الإدارة وتخفيف الضرائب وعدم التدخل فى حياة القبائل يساعده مباشرة على كسب نصف المعركة . كما يمكنه هذا من أن يجعل كثيراً من القبائل تنفض من حول الإمام - الذى يمثل لهم روح المقاومة ضد ظلم الأتراك ومفاسدهم - وكان الإمام لا يستطيع أن يحتفظ بهذه القبائل طويلا فى الميدان دون غنائم يغريهم بها باستمرار . ولكن كان أمام عزت باشا مشكلة خطيرة ، وهى الصورة أو الأوضاع التى كان عليها اليمن حينئذ بعد دخوله صنعاء . فكان عليه أولا أن يسيطر على هذه الأوضاع ، أو يعمل على تهدئتها بطريقة أو بأخرى ، ثم يدخل فى تفصيلات بعد ذلك لضمان استقرار الأمور فى اليمن نهائيًّا .

كل هذه العناصر المختلفة - الإدريسى والإمام والقبائل - كانت أمام عزت باشا وهو فى صنعاء . وكان يرى أن على العثمانيين أن يسلكوا أحد

---

(١) bury ; Arabia Infelix, p. 33.

(٢) Ibid ; p. 34 .

طريقين : إما أن يـواصلوا الحرب بأى ثمن لإخضاع هذه الثـورة بالقوة - مع ما يحتاج ذلك من استعدادات ضخمة ومجهود كبير - وإمـا أن يكونوا أكثر واقعية فيفكـروا فى الاتفـاق مع الإمام - رأس المقـاومـة - وينظـروا فى إجابـة مطـالب الشعب اليمنى بوجه عام .

وقد حـدد الموقف - إلى درجة أكبر - فشـل محمد على باشـا والى اليمن فى حملته التى قادهـا ضد الإمام بعد دخـول عزت باشا صنعـاء وفك حصارها ، إذ خرج محمد على بـاشا بقوة كبيرة لمطاردة الثوار فى الشمال الغـربى ولكنه عاد إلى صنعاء دون أن يحقق نتائج هامة[١] .

---

(١) Wavell ; A Modern Polgrimin in Mecca, p. 285 .

الباب الثانى

الحكم العثمانى منذ عقد الصلح مع الإمام
حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

(١٩١١ - ١٩١٨)

الفصل الأول

مقدمات الصلح

دور عزت باشا ورجاله فى إتمام الصلح :

اختار عزت باشا – الذى كان مزوداً بسلطات واسعة لحل مسألة اليمن بما يراه – طريق الصلح . وقد كان عزت باشا فى اختياره هذا منطقيًّا مع نفسه ، متمشيًا مع الواقع ، مستجيبًا للحظة التاريخية التى يعيشها هو ودولته وأهالى اليمن . فتطور أحداث اليمن منذ تولية الإمام يحيى الإمامة – على الأقل إن لم يكن منذ الفتح العثمانى الثانى – بما تحمل من تناقضات واضطرابات دائمة ، كانت تؤدى إلى ضرورة التهادن والالتقاء مع الواقع اليمنى ، وإلى ضرورة تخلى العثمانيين عن أساليبهم وأفكارهم البعيدة عن هذا الواقع .

وقد سبق أن أشرنا إلى أهمية شخصية عزت باشا ، وعرفنا لمحة من تاريخه الماضى قبل ذلك . والحقيقة أنه لم يكن قائداً محنكا فحسب – بل كان إداريًّا من الدرجة الأولى أيضًا « وقد استغل فصاحته وبلاغته فى التقرب للإمام »[١] . وبالاضافة إلى ما كان له من سلطات واسعة منحها له الباب العالى ، فقد بذل مجهوداً كبيراً فى إتمام عقد الصلح ، وسافر إلى استانبول ليعرض مشروع الصلح على الباب العالى ويحوز رضاه عليه[٢] . هذا غير الشجاعة الأدبية التى أبداها عند مقابلة الإمام لعقد الصلح ، فقد ذهب إلى الإمام فى « دعان » هو وحاشية صغيرة وتوغل وسط آلاف الجنود الإمامية الذين يزأرون باسم

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p, 121 .

(٢) Bury ; Arabia Infelix, p, 16.

الإمام ، حتى أنهى مهمته وسط هذه المظاهرة العسكرية المتعمدة . ففى وصف الواسعى لهذه المقابلة تصوير دقيق لشخصية هذا الرجل الذى لم يرسل من هو دونه ليقابل عدو الأمس واليوم . فيقول : « وقد جمع الإمام بعض قواده ورجاله إلى هذا المحل (دعان) مع عشرات الألوف من العساكر ، وخرج عزت باشا ، ومعه جملة من أركان الدوله من العرب والترك منهم القاضى العلامة عبد الله بن حسين العمرى . ولما وصل عزت باشا ومن معه إلى عمران ، أطلقت المدافع من القلعة فرحًا لا ستقباله لهذا السعى العظيم الذى فيه حياة أمتين ، عربية وتركية . وكان الإمام قد وصل إلى دعان قبل وصول عزت باشا . وقد أرسل الإمام لاستقبال عزت باشا جملة من رؤساء القبائل والمشايخ ، ولما كان بينهم وبين دعان ساعة ونصف ، استقبلهم ألوف من العساكر وهم يطلقون بنادقهم فى الفضاء ، وهى علامة التحية وهم ينشدون الأناشيد الحربية الحماسية وفيها المدح للإمام وللدولة والوطن ، وتسمى بعرف اليمن الزامل.. »(١) .

ولنا أن نتساءل الآن : هل كان عزت باشا - بما كان له من سلطات واسعة ورغبة فى عقد الصلح ومجهودات بذلها فى هذا الشأن - هو الشخص الوحيد الذى قام بهذا المجهود ، أم كان وراءه صف آخر من الرجال الممتازين عملوا معه وساندوه فى إتمام مهمته الكبيرة ؟

الحقيقة أن عزت باشا لم يكن وحده أبداً فى مهمته الحربية السلمية فى اليمن بل كان لعناية الحكومة بالحملة الحربية التى أرسلتها لليمن لإنهاء مسألتها ، أن جعلت لعزت باشا هيئة أركان حرب من الرجال الممتازين. وكانوا رجالا عسكريين فى الأصل ، ولكنهم أظهروا هما عالية فى المجال السياسى والادارى وكان من أعضائها عزيز على المصرى وسليم الجزائرى ، وكانا من خيرة ضباط

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٣٤ .

العرب فى الجيش العثمانى . كما كان على رأس هـذه الهيئة رجل لمع فيها بعـد هو عصمت باشـا ، الذى أصبح رئيسًا للجمهوريـة التركية بعد ذلك . وقـد ساهم عـزيـز المصرى وسليم الجزائرى إلى حد كبير فى المسـاعى التى بـذلت للتـوفيق وأدت إلى صلح دعان (١)، ويمكن أن يبرز الدور الذى قام بـه عزيز المصرى من حديث أحد الضباط الأتراك إلى جريـدة « المفيد » البيروتية والذى نقلته المنار ، فقد جاء فى حـديثه أنه قال « التحق عزيـز بك المصرى بحملة اليمن ، وفى النية أن يوفق بين عزت باشـا والإمام يحيى حقنًا للدماء . وهذه العـاطفة التى وجدها عزيز بك فى قلب عزت باشا سهلت عليـه سبيل الاتفاق مع الإمام . وعزيز بك هو بطل هذا الاتفـاق ، وأؤكد لكم أن هذا البطل هو من أصدق الـرجال الذين خدمـوا الدولـة والأمة معًـا ، فإن خوفـه على دولته من الانقـراض لاشتغالها عن الأمور الخارجية بتجـريد الحملات على أبنائهـا ، وحبه بقاء العرب ذكـراً للدولة تستصرخهم عند الحاجة ، حملاه على عقد الاتفــاق . وقـد تمكــن بطلاقة لسانه من إقناع الإمـام بأن القتال إذا اســـتمر بينه وبين الدولة فإن الأجـانب الذين يتربصون بنـا الدوائر سـوف يستولـون على هذه البـلاد ، وعلى هذه الفكـرة بنى أساس الاتفاق بين عزت بـاشا والإمام يحيى »(٢) . وهذا الحـــديث يعبر أساسًا عن الـــروح الـــتى سادت هيئة أركان حرب عزت باشا والرجـــال المقربين إليه. وهذا مـا قصدناه من ذكـرها هنا أكثـر مما قصدنـاه من بيان دور فرد معـــين أو الحديث عن شخصية بذاتها . وهناك كـذلك شخصية أخرى لها أهميتها وستبرز فى الفترة التى تعقب عقد الصلح مباشرة ، وتستمر معنا - لا حتى نهاية حـكم الأتـــــراك فى اليمـن وأواخـــر الحرب العـــالميـــة الأولى فحسـب - بل

(١) أمين سعيد : اليمن ، ص ٣١ .

(٢) المنـار : المجلد ٥ ، الجزء ٢ ، الصـادر فى أول صفـر ١٣٣٠هـ (٨ فبرايـر ١٩١٢) ص ٥٣-٥٤ .

ستستمر خلال حكم الإمام يحيى نفسه بعد استقلاله نهائيًا . هذه الشخصية هى شخصية محمود نديم بك ، وكان سوريًا ويجيد اللغة العربية ، وكان يد عزت باشا اليمنى فى المفاوضات مع الإمام . وقد تركه عزت باشا خلفًا مدنيًا له فى اليمن عندما عاد إلى استانبول ليعرض الصلح على الباب العالى ويحصل على الموافقة عليه .

موقف العثمانيين عامة من مفاوضات الصلح :

هذا هو الدور الذى قام به العثمانيون الذين داخل اليمن لإتمام عقد الصلح ، ولكن هناك مجهودات أخرى بذلت خارجها ، وفى الآستانة بالذات ، يجب الإشارة إليها . وقد سبق أن تكلمنا عن الآراء التى تظهر هنا وهناك التى تعبر عن كيفية حل المسألة اليمنية ، وأن البعض كان يشير على الحكومة باتباع القوة كطريقة مثلى فى هذا الشأن . وكانت الحكومة تأخذ فى كثير من الأحيان بهذا الرأى وترسل الحملات العسكرية ، ونجدات الحملات . وكان البعض الآخر ينادى بالاتفاق مع الإمام وإجابة مطالبه بقدر المستطاع ، وكانت الحكومة تأخذ أحيانًا أيضًا بعض هذه الآراء . واستعرضنا كل ذلك ولكننا نحب هنا أن نبين أمرين هامين وهما : موقف الأحزاب العثمانية فى مجلس المبعوثان بالنسبة لمسألة اليمن ، وموقف الحكومة السلمى بعد أن أرسلت حملتها الكبيرة هذه إلى هناك ، وهو موقف تمثل فى تأليفها لجنة لبحث مسألة اليمن ضمت كثيراً من العناصر المهتمة المدركة لقضية اليمن .

برز فى مجلس المبعوثان فى هذه الآونة ثلاثة اتجاهات أو ثلاثة أحزاب :

الحزب الأول : هو حزب الاتحاد والترقى ، وكان فى يده أكثرية المجلس وبالتالى النفوذ والسلطان ، فكان لا بد من موافقته حتى يتم انتخاب أعضاء الوزارة ورجالات الدولة . وكان موقفه من مسألة اليمن معروفًا واضحًا ، فهو

المسئول مباشرة عن جميع الأعمال الحربيــة التى تمت فى اليمن ، ومسئـول عن موقف الحكومـة المعاند - لا من هذه المسألة فحسب - بل من القضيــة العربية بوجه عام .

الحزب الثـانى : وهـو الحزب الحر الائتـلافى ، وأكثـر أعضـائه من العـرب والألبان إلى جـانب أعضائه الأتراك ، ولكـن قلة النظام فى هـذا الحزب ، حالت دون ازدياد عدد رجالـه وبلوغه المكانة التى يقتضيها بـرنامجه وتستحقها خطته ، وأهمية القضـايا التى يعتنقها ، مثل الحريـة للعناصر المختلفة فى الإمبراطـورية ، والمسـاواة بينها ، والـلا مركـزيـة الإدارية وغيرهـا . وهذا الحزب لم يصرح ببيـان مفصل عن رأيه فى مسألة اليمن ، وشكل إدارتها فى المستقبل ، إلا بقدر ما يفهم من مجمل البرنامج العام السياسى الـذى نشر عند تأسيس الحزب . وكان موقفه يظهر أسـاسًا فى الوقوف ضـد الحكومة فى المجلس وسـؤالها عن الحالة فى اليمن ومناقشتها فيما يمكن أن تعمله أو فيما يجب عمله ، وغيره من المواقف البرلمانية .

الحزب الثالث : وهو حـزب الأهالى ، وأكثـر رجالـه من الأتراك الاتحاديين الـذين انفصلوا عـن حزب الأكثـريـة فى عام ١٩١٠ ، وكـان يعضـدهـم بعض الأتراك الذين ظلوا على الحياد ، وهو أميل إلى المعارضة . وكان حزبًا منظمًا فعالا. ونحن نـرجع ذلك إلى تشكيله من رجـال تمرسوا عمليًـا على الأساليب البرلمانيـة والمواقف الساسية ، مما جعلهم أكثر فعالية من الحزب الثانى .

وكـان لهؤلاء مـواقف عمليـة بـالنسبة لقضيـة اليمن إذ كـانـوا يتقـدمـون بمشروعات إيجابية مدروسة لحل القضية . وقد نشر لطفى بك فكرى أحد رجال هذا الحزب البارزين ، ومبعوث لواء « درسم » فى جـريدة « إقدام » التركية ، بيانًا عن المسألة اليمنية ، ونقلتـه عنها جريدة المؤيد المصرية ، تضمن لائحـة بقانون أراد عرضها على مجلس المبعوثان لتكون أساسًا يبنى عليه شكل الإدارة فى اليمن وكان رأيه أن الدولـة تتبع وسائل التخدير والحلول الوقتيـة فى حل هذه المسألة .

ولكنـه نصح بأن « يترك تنظيم النظـامـات القانونيـة لـولايـة اليمن نفسهـا » ويقـول « إن هذا أجـدى لأنه يلازم الواقـع ويتجـاوب معـه باستمرار عـن كـثب».

وأخذ يشرح بعد ذلك الطرق والنظم التى يراها فقال : « والطريقة الإدارية التى أستحسنها فى هـذا القانون تـدور حول تعيين وال على اليمن من الآستـانة تكون لـه سلطة واسعـة ، وهو يناظـر على مجلس عمومى يعقد فى مـركز الـولاية مؤلفًـا من سادات القبائل ومشـايخها وفقهـائها ، ومن مندوبى البـلاد اليمانية ، ويعهد إلى هـذا المجلس العمومى بسن تلك القـوانين الخاصة بـالولايـة وأوجه جباية الأموال اللازمة للحكومة ، وعلى مركز السلطنة أن يسد عجز ميزانيتها إذا كان ثمـة عجز ، أو يأخـذ زيادة وارداتها إذا تـوافرت الزيـادة . واشترطت لأجل الاطمئنان على عثمانيـة الولايـة أن تصدر إرادة سنية سلطـانية مصـدقة على كل قـانون يختص بـاليمن » وأرى أن هذا القـانـون إذا أحسن تطبيقه والعمل بـه لا يلبث بضع سنين حتى يأتى بـالثمـرات المطلوبـة » ثم سرد التنظيمات المختلفـة الخاصـة بإدارة الـولايـة والمجلس العمـومى والشئـون الماليـة والمعـارف والأمن والعدل[1] .

هذه هى المواقف المختلفة لأحزاب مجلس المبعوثان والآراء التى لدى كل

---

(١) المؤيد : العدد ٦٣٠٨ الثلاثاء (٧/ ٣/ ١٩١١) (ربيع الأول ١٣٢٩) ص ١ ، ٢ .

من الجدير بالذكـر معرفة أعضاء مجلس المبعوثان هـذا ومعرفة جنسياتهم حتى يمكن فهم موقف كل من هـذه الأحزاب بجلاء وإدراك سبب تغلب الأفكار التركيـة على باقى الأفكـار . نقلت جـريدة المؤيـد (العـدد ٦٤١١ الأحد ٩ يـوليـو ١٩١١) (١٣ رجب ١٣٢٩) عن جـريـدة الحضـارة بيـان بتقسيم المبعـوثين (النـواب) فى المجلس حسب جنسيـاتهم وهـو كالآتـى : ١٥٥ أتراك (منهم ١١٣ عن ولايـات الأنـاضـول ، ٢٧ عن ولايات الرومـايلى ، ١٥ عن الولايات العربيـة) ٥٠ عرب ، ٢٥ روم ، ٢٠ أرناؤوط ، ١٠ أرمن ، ٧ أكراد ، ٥ بلغار ، ٤ يهود ، ٣ من رجال الحرب . ثم قالت الجريدة : ولا ينتظر أن تتغير كثيراً هذه النسبـة إلا إذا دخل أهل جزيرة العـرب أفواجا فى دفـاتر الدولـة فحينئذ يرجى أن يزيد نواب العرب زيادة تذكر .

منهـا ، وهى متبـاينـة عن بعضهـا البعض ، ولكن أهميتهـا أنها تـوضح مـوقف المجلس بكل صـورة بالنسبة لمسـألة اليمن . ولكن كـان هناك موقف حكـومى لابد من الإشارة إليـه ، وهو الذى تبلور فى تشكيل « لجنـة إصلاح اليمن » حتى يتضح الموقف العثمانى بأكمله . قرر مجلس النظـار العثمانى تأليف لجنة لدراسة مسألـة اليمن ، وتقـديـم الاقتراحـات أو التـوصيـات والمشروعـات لحل هـذه القضية، وقد عهد برئاسة هذه اللجنة إلى توفيق بك رئيس دائرة المالّية فى شورى الـدولة ، وكـان قبل ذلك واليًا على اليمن عنـدما سقطت صنعـاء فى يد الإمـام (١٩٠٤ - ١٩٠٥) أما أعضاء اللجنة « فهم سماحة الشيخ محمود أسعد أفندى ناظر الـدفتر الخاقانى ، وفريد باشـا رئيس دائرة المشاة ، وإسماعيل حقى رئيس دائرة اللـوازم العسكريـة ، وغـالب بك مـديـر الأمن العام ، وعبـد المجيـد بك محاسب صندوق التقاعد العسكرى » . وكـان لهذه اللجنة حق استدعاء مبعوثى اليمن إليهـا عند الحاجـة لأخـذ معلومـاتهم عن اليمن والحالـة فيها وكـان أول اجتماع لهذه اللجنة يـوم الأحد ١٩/ ٣/ ١٩١١ ، وكـان عليها أن تقـدم ما تصل إليه إلى وزارة الـداخلية[1] . وقـد انضم إليها بعـد ذلك الأعضاء الآخـرين مثل الفريق يـوسف باشا وكان قـائداً فى اليمن قبل ذلك ، وفى تصريح للشيخ محمود أسعد أفندى ، أحد أعضاء اللجنة ، إلى محرر جريـدة استانبول الفرنسية - نقلته عنها جريدة المؤيد - « أن الإدارة التى تضع الآن خطة للجـرى عليها فى اليمن ليســت من قبيـل الاستقلال الإدارى ، وإن كـانت ذات ســلطة واستقـلال أوســع من ســائر الولايات واستقـلالها » ثـم قال : « إن اللجنــة ســتطلع على جميــع المســتندات والتقارير المقدمــة ســابقًا ، مثــل تقرير حســين حلمــى باشــا الصــدر الأعظم السابق وبعض الآراء المفيدة مثل رأى فيضى

(١) المؤيد : العدد ٦٣٢٤ الاثنين ٢٧/ ٣/ ١٩١١ (٢٦ ربيع الأول ١٣٢٩هـ) ص ٤ .

باشا الذى مكث طويـلا فى اليمن . وأن اللجنة ستبدأ المداولة فى هذا الشأن فى ٢٧/ ٣/ ١٩١١ »[١] . ونحب أن نشير إلى مـلاحظة هـامة وهى أن أمـر تشكيل هذه اللجنـة وتاريخ أول جلسة لها يـدلان على حقيقة هـامة ، وهى أنها تشكلت وبدأت عملها فى نفس الوقت تقريبًا - أو حوالى ذلك الوقت - الذى ذهب فيه عزت بـاشا بحملته الكبيرة إلى اليمـن ، وفى أثناء اشتداد الحرب هنـاك بينه وبين الإمام .

وصل عـزت باشـا إلى الحديـدة فى شهر فبرايـر ثم زحف إلى صنعـاء حتى وصل إليها واستطاع فك حصارهـا فى أوائل شهر أبريل (١٩١١) بينما كان أول اجتماع لهذه اللجنـة مارس ١٩١١ . وهـذا يعنى مبـاشرة أن العثمانيين أرادوا أن يستعملوا أسلوبين فى حل أزمـة اليمن ، الأسلوب الحربى والآخر السلمى ، وأن هـذين الأسلوبين سـارا متـوازيين تقريبًـا ، لا من حيث الـزمن فحسب بل من حيث الأهمية أيضًا .

فنحن نـرى أن عزت باشـا لم يكن يتمكن من الحصـول على موافقـة الباب العالى على الصلح إلا إذا كان فى العاصمة تفكير أو استعداد لعقد هذا الصلح ، أو بمعنى آخر يمكن القول إن عقد الصلح - من ناحية العثمانيين - كان عبارة عن التقـاء بين رغبات الحملـة العسكريـة الموجودة فى اليمن وبين المجهـودات السلمية التى كانت تبذل فى العاصمـة ، وكان هذا التفكير عند كل من الجهتين ينبثق دون شك من واقع الحالـة فى اليمن وثوراتـه التقليدية التـى طبعت تاريخه الحديث تحت الحكم العثمانى . وهذا يـؤدى بنا بالتالى إلى قبـول الرأى القائل - الذى سبق أن ذكرناه فى الفصل السـابق - إن إرسال الجيوش العثمانية إلى اليمن كان بغرض الإرهـاب والتخويف فقط ، وإظهار هيبة الـدولة ، حتى تتمكن من عقد صلح مشرف لها ، وحتى لا يكون لموقفها هـذا فى اليمن أثر فى باقى ولاياتها العربية .

---

(١) المؤيد : العدد ٦٣٣٠ الاثنين ٣/ ٤/ ١٩١١ (٤ ربيع الثانى ١٣٢٩هـ) ص ٤ .

موقف الإمام يحيى

ويمكن أن نستعرض كذلك موقف الطرف الثانى من الصلح ، وهو الإمام يحيى ، ونعرف سبب موافقته على عقد هذا الصلح ، حتى يكمل فهم جميع الظروف والعوامل التى انبثق منها الصلح وشروطه المحددة بالذات .

ظهر خلال البحث موقف الإمام يحيى من الدولة العثمانية ، موقفه بجانبيه الحربى والسلمى .

وفى كل هذه المجهودات ، سواء الحربية أو السلمية ، استطعنا أن نبرز خطًّا واحداً يربط كل هذه المجهودات ويجعلها تسير فى اتجاه واحد ، وهو يتمثل فى التمسك بمطالب معينة . ومطالبة العامة التى وضحت من أحاديثه وكتاباته التى جعلت القبائل اليمنية تلتف حوله ، كانت تتبلور أساسًا حول « مطالبته برفع ظلم موظفى الترك فى اليمن ، وتخفيض الضرائب التى يبالغون فى فرضها ويشتدون فى تحصيلها حتى فى سنى القحط ونضوب موارد الأرض ، وإقامة الشريعة ، وتغيير الموظفين الفاسدين »[١] ، أما مطالبه الخاصة فكانت تتمثل فى إجبار العثمانيين على الاعتراف بشخصه ووضعه الخاص فى اليمن . وكان مع هذا كله يعلن ولاءه للسلطان العثمانى ، وتعلق اليمانيين بالخلافة ، واعترافهم بها فى حالة حصولهم على امتيازاتهم الخاصة بولايتهم[٢] . وتجلت هذه المطالب فى النصين اللذين أوردناهما قبل ذلك وهما : الشروط التى تقدم بها لعقد الصلح بينه وبين فيضى باشا (١٩٠٦) ، وثانيًا : كتابه الطويل إلى وفد مكة ، أو بالأحرى مذكرته لهذا الوفد ، وقد ضمنها كل مطالبه وآرائه .

ومانريد أن نصل إليه هو أن الإمام كان يرغب فى الصلح حتى وهو

---

(١) Rec, du m, musulm, vol IV, ni. 1 (Janv, 1908) p, 96.

(٢) Corresp. d,Oricnt, 4eme , 15.2.1911, p. 155.

يحارب ، أى لم يكن يعنى الحرب لذاتها لكسب انتصارات أمام الأتراك ، بل كان يحارب ليدافع عن نفسه وعن مطالبه - أو بالأحرى - لكى يجبر الأتراك على الاعتراف به وبمطالبه . ويعنى هذا بالتالى أن الإمام كان يوافق على الصلح، بل ويتمناه ، لأن حالة الحرب - بصفتها حالة غير طبيعية فى أى زمان ومكان - كانت تتعارض أساسًا حتى مع مطالبه الشخصية ، ولا نقول هذا الكلام على علاته ، بل يمكن التدليل عليه . فقد قلنا قبل ذلك إن مبدأ اختيار الإمام من بين أبناء فاطمة بنت الرسول ، دون تحديد ابن الإمام الراحل بالذات مثلا ، أتاح الفرصة للمنافسة بين أفراد هذا البيت . وعددنا بعض الذين قاموا لمنافسة الإمام يحيى فى فترات مختلفة ، بدأت مع بداية توليه الإمامة ، واستمرت حتى بعد عقد صلح دعان مع الأتراك والمنافسين - بل كان يريد أن يعقد الصلح مع الأتراك لتأكيد شخصيته التاريخية من ناحية ، وللتفرغ لمحاربة المنافسين من ناحية أخرى. وكان هناك سبب آخر للصلح والسلم ، وهو إحساسه العميق بقوة الترك ، حقيقة تمكن الإمام من دخول صنعاء سنة ١٩٠٥ ، ثم نجح بعد ذلك فى حصارها لعدة أشهر سنة ١٩١١ ، ولكنه كان فى كلا الحالتين ، يحارب حاميات مجهدة مهلهلة ، وكان سرعان ما ينسحب إلى معاقله الجبلية فى الشمال عندما يرسل الباب العالى النجدات القوية . وكان هذا الانسحاب رغم منطقيته مع الخطط الحربية ، يحمل فى طياته معنى الخوف ، والإحساس بقوة الترك العسكرية. لذلك كان دائمًا يعلن أنه يرغب فى الصلح ، ويعيب على الدولة أنها ترسل له القوات الحربية لمحاربته ، مع أنه يعترف بسيادتها .

وبالإضافة إلى هذين العاملين ، كان هناك عامل ثالث يجعل الصلح شيئًا ضروريًا بالنسبة له ألا وهو الوضع القبلى للمجتمع اليمنى ، فهذا الوضع سلاح ذو حدين وهذا يحتاج إلى بعض التفصيل . نعرف أن التشكيل العام للمجتمع هناك هو التشكيل القبلى وأن بعض هذه القبائل زيدية والباقى شافعية

كما نعرف أنه لم تكن كل القبائل الزيدية موالية للإمام بدليل وجود منافسين له من السادة أبناء فاطمة أنفسهم . هـذا من ناحية التقسيم المذهبى ، ولكن هناك ناحية أخرى ، وهى أن الإمام فى ثوراته عمومًا كـان يجد التأييد المادى والمعنوى من القبائل بصفة عـامة تقريبًا ، لأنـه كان يمثل لهم روح المقاومة ، وكـان الرمز الذى يعبر عن استيائهم وسخطهم على الحكم العثمانى ومفـاسده هناك . وكان من نـاحية أخرى ، يستطيع أحيـانًـا أن يجذب إلى جانبـه القبـائل السنية ضـد الأتـراك السنيين للسبب السـابق ، بـالإضافـة إلى إغـرائهم بإعطـائهم الغنـائم الكثيرة التى يحصلون عليها من الترك . ولكن إغـراء الغنائم هذا لم يكن مستديماً أو فعالا دائمًا ، فهو ذو أثر وقتى فقط . فالغنائم معناها المباشر الحرب ، والحرب معنـاهـا الخسران بـالنسبـة لـلإمـام ، حتى وهـو ينتصر ويغنم ويلحق الأضرار والخسائر بالترك ، إذ كان ذلك يكلفه الكثير من الجهد والوقت اللذين يمكن أن يستغلهما فى تثبيت أقـدامـه ، ونفـوذه بين القبـائل عن الطـريق السلمى ، ودون تدخل ، حتى يؤكد مستقبله هناك .

ويؤيـد جيكوب ما ذهبنـا إليه من ناحيـة وضع القبائل الشائك بـالنسبة للإمام - بل قال إنه وضع شائك حتى للترك وللإنجليز - فيقول إن من أسباب موافقـة الإمام على الصلح مثـلا القبائل الزيـدية نفسها ، وأهمهـا قبائل حـاشد وبكيل ، وذو محمد وذو حسين . وهـذه القبائل بـالذات ، هى ذخـر الإمام التى استغلها فى كل حروبـه ، وهى عامل انتصاره ، ولكن هذه القبائل القـوية نفسها - وهى الشىء الـوحيـد المزعج للترك والمقلق لـراحتهم فى اليمن - هى فى نفس الوقت مشكلة بالنسبـة للإمام نفسه - فقوتها هذه تحتاج إلى شخصيـة قوية جدًّا حتى تتمكن من السيطـرة عليهـا ، تملـك كثيراً من الأسبـاب إلى جـانب قـوتها الذاتيـة ، لذلـك كله فرح الإمـام بالصلـح ، لأن الترك كانـوا - بناء على شروط الصلـح - يدفعـون مباشرة الرواتب الشهـرية المتفق عليهـا لهذه القبائل ، والتى كان الإمام مسئولا عن تدبيرها قبل هذا[١] .

(١) Jacob; Kings of Arabia, p. 70 .

العوامل المساعدة فى عقد الصلح :

هذا هو موقف كل من الدولة والإمام ، واتضح أمامنا الآن أن الطرفين كانا يميلان إلى الصلح ونشر السلام فى ربوع اليمن . ولكن كانت هناك عوامل أخرى خارجية ليست خاصة بأى منهما ، ولكنها أثرت فى موقف كل منهما تأثيراً فعالا مما حملهما على الموافقة على عقد الصلح أو الإسراع فى عقده .

العامل الأول ، هو تدخل بعض المعنيين بالأمر كوسطاء لتقريب وجهات النظر ، مثل الشريف حسين أمير مكة ، و « السير » أحمد سلطان لحج ، فقد قام الاثنان بمجهود يذكر فى هذا السبيل .بدأ الشريف بالكتابة إلى « السير » أحمد ، وذلك فى مارس ١٩١١ ، وأخبره أن عزت باشا قد وصل ومعه قوات ضخمة مصمما على إعادة النظام فى اليمن . كما أخبره أن الحكومة طلبت منه أن يلعب دوراً معينًا ضد تمرد الإدريسى فى عسير ، ثم طلب من السلطان أحمد أن يكتب للإمام يحيى بألا يتمادى فى عداوة الترك ، لأن هذا سيعود بالضرر عليه مما قد يحطمه نهائيًا فى وقت قريب ، كما أخبره أن الحكومة طلبت منه أن يلعب دوراً معيناً ضد تمرد الإدريسى فى عسير ، ثم طلب من السلطان أحمد أن يكتب للإمام يحيى بألا يتمادى فى عداوة الترك ، لأن هذا سيعود بالضرر عليه مما قد يحطمه نهائيًا فى وقت قريب ، كما أخبره أن الحكومة ستهتم بأمر الإصلاح فى اليمن . وكتب الشريف مباشرة إلى الإمام ، وتحدث له عن ضخامة قوات عزت باشا . وأخذ يذكره برسالته السامية ، ويحاول أن يقنعه بأهمية وحدة المسليمن وخطورة انقسام المسلمين على أنفسهم فى ذلك الوقت الحرج ، وأنه من واجب كل مسلم أن يعضد خليفة الإسلام « ولو بعقال بعير » وأنه من الجرم أن تبعثر قوى الخليفة فى ميادين جانبية ، وأن هذا ضد العاملين من أجل الدين ، وأن إراقة الدماء تغضب الجد الأعظم ، وهو النبى ﷺ . ثم أضاف أخيراً أنه هو نفسه على وشك التوجه إلى عسير لإخماد ثورة الإدريسى . وقد أسرع السلطان السير أحمد ، بالرد على رسالة الشريف حسين ، ووعد بأنه سيكتب للإمام ، وأنه فرح لسماعه بدخول جيش الباب العالى صنعاء منتصراً ، وأنه يرى أنه لا بد من

بقاء القائد التركى العام هناك حتى لا يتجدد القتال . ولكنه فى نفس الوقت ، عبر عن خوفه من تقدم الترك إلى الشمال ناحية أقاليم الإمام ، لأن ذلك سوف يثير القبائل الزيدية ، ويحدث تصادما عنيفًا بينهما ، فينتشر الحرب والاضطراب فى اليمن . كما حرص السلطان فى خطابه على أن يشير إلى خصائص الزيود ، وأن المتاعب التى يثيرها الزيديون لن تنتهى إلا إذا زالت هذه الأسرة . كما قال إنه يعتقد أن الشريف حسين هو خير وسيط بين الترك والإمام(١) . من هذا يتضح أنه كانت هناك محاولات من جانب الشريف حسين على الأقل لإقناع الإمام بالصلح ، وكذلك كانت له محاولات مع الأتراك ، للتقريب بينهما . ومما لا شك فيه أنه كان لهذه المحاولات أثرها عند الإمام ، إذ كان كلام الشريف مثلا يحمل التهديد والتخويف ، إلى جانب اللين والحيلة كتذكيره بضرورة الوحدة الإسلامية .

والعامل الثانى ، هو الحرب الطرابلسية ، فقد بدأت إيطاليا ضرب «طرابلس الغرب» بالقنابل من البحر ، وبدأت تنزل جنودها إلى الشاطئ بالفعل ، فى أواخر سبتمبر ١٩١١ ، أو بالتحديد فى صباح أول أكتوبر ١٩١١. وأهمية حرب طرابلس هذه برزت فى أمرين : الأمر الأول : هو تعجيل الباب العالى بالموافقة على الاتفاق المقدم من الإمام . ففى منتصف شهر سبتمبر ١٩١١ - وقد وضح تحرش الإيطاليين بطرابلس الغرب ، كما ثبتت نية إيطاليا فى الاستيلاء عليها ، وأن الدول الكبرى تسكت على ذلك - أسرع الباب العالى فوافق على الاتفاق بعد إدخال بعض الشروط الطفيفة «أعاد الباب العالى لعزت باشا قائد الحملة اليمانية مطالب الاتفاق التى عرضها الإمام يحيى ، بعد أن عدل الباب العالى فيها بعض التعديل»(٢) . أما الأمر الثانى :

(١) Jacob ; kmgs of Araba, pp. 118 -119 .

(٢) المؤيد : العدد ٦٤٦٨ الخميس ١٤ / ٩ / ١٩١١ (٢١ رمضان ١٣٢٩هـ) ص ٢ .

فهـو زيادة السخط العـام على سيـاسة الحكـومـة فى اليمن ، وعلى كثرة إرسـالها الجيـوش إلى هناك . فـانهزام الجيـوش العثمانيـة فى طرابلس ، ووقـوع الأخيرة فى أيدى الإيطاليين ، جعلت النواب العرب يستيقنون خطأ هذه السياسة العثمانية، إذ إن الحكـومة كـانت قـد سحبت كثيراً من قـواتها فى طرابلس لتحـارب بها فى اليمن ، ممـا أضعف حاميـة طرابلس وسهل الأمـر أمام إيطـاليا[١] . إزاء ذلـك يمكننا أن نقـول إن حرب طرابلس الغـرب أواخر ١٩١١ ، كـانت من العوامل التى ساعدت على إسراع الباب العالى بالموافقـة النهائية على الاتفاق الذى عقد بين الإمام يحيى وعزت باشا .

كيف توصل عزت باشا إلى عقد الصلح ؟

هناك عدة أمور اتبعها هذا القائد أوصلته إلى ما كان يصبو إليه من نجاح ، منهـا وأهمها نجـاحـه فى مهمتـه من النـاحية العسكـريـة البحتـة ، فهو كقـائد عسكرى ، وضع نصب عينـه إحراز الانتصـارات العسكريـة أولا ، ثم الاتصال بهؤلاء الثوار للاتفاق معهم ، وكان يرغـب فى أن يثبت أن هناك قوة عثمانية قوية لا يستهـان بها أتت اليمن ، وأرادت استرجـاع بعض المدن التى استـولى عليهـا الإمام ، وأنها - رغم قـوتها واستعداداتها الضخمة - مستعدة للتفاهـم للوصول إلى صلح نهائى .

أما الوسيلـة الثانية فهى طريق المفاوضـات والاتصالات الشخصية ، التى بـذلها هو وأركـان حـربه . فقـد أوضحـنا أن رجـال عـزت باشـا ، كانـوا من المهـارة بحيث استـطاعوا إزالـة كل العقبات بين الطرفـين . أمـا الوسيـلة الثالثـة فكـانت الهدايا والـرشاوى ، وقد قال جيكـوب إن كثرة ما أنفقـه فى هذا السـبيل ، دعـا رؤسـاءه فى الآستانـة إلى اتهامه بـالإسراف والتبـذير . ويعـود

---

(١) ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية ، ص ١٨٦ .

جيكوب ، فى مكـان ثان بمنـاسبة الاتفاقيـة أيضًا ، ويؤكـد أن الهدايا المتبـادلة كانت من أهم أسباب الوصول إلى الصلح ، بل ويعبر عن ذلك باستعماله المثل العربى القـائل : « تهادوا تحابوا »[1] ، وأن عزت بـاشا نفذ مثل هـذا المثل . وقد أورد الـريحانى كـذلك عبـارة قصيرة - سبق الإشـارة إليهـا - معبراً عن ذلك ، ولكنها تحمل فى طيـاتها الكثير ، فقال : « وقد كـان عزت كريمًا جواداً فـاستغوى العرب بالمال » ونحن لا نستنكر هذا العمل من عـزت باشا ولا نستغربه ، إذ إن عرب اليمن جماعات فقيرة ، أنهكتها الحروب المستمـرة ، والضرائب ، وما قامت الحرب إلا دفاعًـا عن حيـاتها . لهذا نراها تـرضخ إذا وعـدها قـائد منتصر قوى بتخفيف الضرائب مثـلا ، وإعطــائهم بعض المال لإصـلاح حــالهم وتـرتيب أمورهم . وكذلك أمر الإمام ومشايخ الزيدية ، فهم فى حاجة فعلا إلى المال ، كما هم فى حـاجة إلى السـلام ، وذلك لإعادة النظـام والحياة إلى بـلادهم بعد هـذه الحروب الطويلة .

أما من ناحيـة عزت باشا نفسه فكـان منطقيًّا مع نفسه ، فلماذا لا يستعمل المال ، كما استعمل الســلاح ، مـا دامت الغـايـة واحـدة ، وهى تهدئة الحال والوصول إلى الصلح .

---

(١) يعتبر جيكوب من أهـم الشخصيات الانجليزيـة فى حكومـة عدن الـذين عرفـوا حقيقة الأوضاع فى الجنـوب العربى ، والـذين عاشـوا وشاهـدوا ودرسوا هـذه البقاع ، وذلك فى الربع الأول من هـذا القرن . وقد انعكس هذا كلـه فى كتابه Kings of Arabia فهو ملىء بالآراء الهامة فى قضية الجنوب . وحشد جيكوب كتـابه أيضا بالكثير من الأمثلة والأمثال العربيـة المنتشرة فى جنوب الجزيرة . وأكثر من ذلـك كان يدعو الإنجليـز المهتمين بشئون هذه المنطقة حتى تنبثق سياسيتهم من واقع حياة أهلها . ومن المعروف - ومن الغريب - أن جيكوب كـان يحمل القرآن معه ، ويستشهد بكثير مـن الآيات القرآنية فى حـديثه مع أهالى هذه الجهات .

الفصل الثانى

صلح دعان ونتائجه

عقد الصلح والتعليقات المعاصرة له :

أدت الظروف والعوامل التى بيناها إلى عقد الصلح . وذهب عزت باشا إلى قرية (دعان)[1] لمقابلة الإمام لتوقيع الاتفاق ، وذلك بعد رجوع موافقة الإمام إلى عزت باشا فى صنعاء (ملحق - ٢) .

ونحب قبل أن نتناول هذا النص بالتحليل والتعليق أن نستعرض بعض التعليقات المختلفة حتى يكون تعليقنا شاملا مستوفيًا ، وحتى تبرز الحقيقة بجلاء أكثر .

أشار أمين الريحانى إلى صلح سنة ١٩١١ وشروطه بصورة سريعة ، ولكنه أوضح خلال إشارته هذه بعض الأمور الدقيقة ، فقال : « ... فعقدت معاهدات سنة ١٩١١ مدة عشر سنين ، وكان من شروطها أن يعترف الإمام بالسيادة التركية ، وتقبل الدولة أن لا يكون فى البلاد غير المحاكم الشرعية التى يعين الإمام قضاتها . وقد تعهدت الدولة أن تدفع للإمام ولرجاله السادة ومشايخ (حاشد) و (بكيل) مشاهرات مالية مقدارها ألفان وخمسمائة ليرة ذهبًا . وبما أن الزيود بموجب مذهبهم لا يستوجب عليهم إلا دفع الزكاة لغير الإمام إمامهم كان موظفو الترك يجمعونها باسمه ويقدمونها له بعد خصم اثنين ونصف بالمائة بدل الجباية »[2] . فهو هنا يبرز النقط العريضة فى الصلح ، مثل مدته ،

(١) دعان قرية صغيرة فى الشمال الغربى من « عمران » وهى تقع على قمة جبل .

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، الجزء الأول ، ص ١٤٦.

والاعتراف بالسيادة العثمانية ، مقابل الاعتراف بوضع الإمام الخاص ، المتمثل بوجه خاص فى إشرافه على تنفيذ المسائل الشرعية . تلى ذلك ، إشارته الهامة إلى الاتفاق المالى ، وهو دفع المرتبات إلى الإمام ورجاله . وقد أعجبنا ملاحظته الدقيقة عن كيفية معاملة الزيود من حيث جمع الزكاة . فقد لفتت نظره هذه المعاملة الخاصة كما لفتت أنظارنا ، وسنعرض لها بعد عرض باقى التعليقات .

أما تعليق هانز هلفرتز الألمانى ، فكان أكثر اقتضابًا ، فلم يشر إلا إلى مدة سريان الصلح ، وأنه كان لمدة عشر سنوات بصفة مبدئية ، وأنه كان نتيجة طبيعية للأحداث « إذ تم عقده عندما هدد الإسلام نفسه ، عند هجوم إيطاليا على طرابلس »[1]. وكان هناك تعليق آخر لرجل إيطالى عاش فى اليمن ، واهتم بشئونه ، هو سلفاتور أبونتى . وقد ركز عرضه للصلح من ناحيته الإدارية فقال : « ... وأخيراً اضطر الباب العالى إلى الصلح مع الإمام ، وأمضى معه اتفاقًا فى سنة ١٩١٢ ، تركت للإدارة التركية بمقتضاه مدينة صنعاء ومعظم الأراضى الساحلية ، أما المناطق الأخرى أو الأقاليم الزيدية ، فإنها تركت تحت إدارة الإمام وسلطته الدينية والإدارية ، وعندئذ استبدل القانون التركى الذى كان معمولا به فى البلاد بالشريعة الإسلامية ، ووكل بإدارة القضاء موظفون كان يعينهم الإمام ... » . ولكننا نعارض هذا الحديث فى بعض نقاطه ، أولها ، تاريخ الاتفاق نفسه ، إذ الإجماع متفق على أنه تم سنة ١٩١١ لا ١٩١٢ كما قال هو . وثانيها ، أنه حدد مناطق نفوذ كل منهما تحديدًا لا نوافق عليه. فنحن لا نعرف مثلا لماذا قال (ومعظم الأراضى الساحلية) مع أن الإمام لم يكن له أى نفوذ على الساحل ، ولا يطمع أن يكون له ذلك ، فهذه المناطق غير زيدية ، فكيف يطمع فى

---

(١) Hans Helfritz; The Yemen, A Secrret Journey , p. 124.

(٢) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٥٦ .

مناطق ليس لـه أنصار فيها مع بقـاء الإدارة العثمانية قائمة . ومن نـاحية أخرى أننا إذا سلمنـا بسلطة الإمام الـدينية فى المناطق الـزيدية ، وهـذا واضح تمامًا فى نص الاتفاق - فإننا لا نسلم بقوله « إن المناطق الزيدية تركت تحت إدارة الإمام وسلطته الدينية والإداراية » فقد رأينا مثلا أن موظفى الترك سيجمعون الزكاة من القبائل الزيديـة مقابل ٢ر٥ ٪ مما يجمعونه ، وهذا ينفى تمامًـا وجود أية سلطات إداريـة لـه فى المناطق الـزيـديـة ، ولكنها إذا وجـدت فهى ضمنيـة فقط ، وغير معترف بها سواء من ناحية الأتراك ، أو فى النص نفسه .

وهنـاك كـذلك تعليق يخالف التعليقـات السابقـة ، نقلتـه « المقطم » عن «التيمس » الإنجليزيـة ونشرته المنـار عن المقطم جاء فيـه : « عقدت الحكـومة العثمانيـة صلحًا غير مجيـد مع الإمام يحيى بعـدما رشت زعماء الثـورة بالأمـوال الطائلة ، ووعدتهم بالإصلاح ، فنال الإمام بذلك أكثر مما كان يطمع فيه ، وثبت فى مراكزه حاكمًا على القبائل الـزيدية ، ولم تتغير الحال فيما سوى ذلك عما كانت عليه قبل بـدء القتال . فـالأتراك يملكون صنعـاء وقد استرجعـوا معظم المراكز التى كـانوا يحتلـونها فى الماضى . والإمام يملك « شهـارة » وسائر المعـاقل التى كانت لـه . وقد أطـلق الإمـام أخـيراً سـراح خمسمائة أسير من الجنـود ، ولكنه لم يعد المدافع التى غنمها فى هذه الثورة ، أو فى ثوراته السابقة . واضطرت الحكومة أن تـرسل خمسين ألف عسكـرى بقيادة عـزت بـاشـا ، وهو من أكبر قـوادهـا ، للحصول على هذه النتائج »[1] . ويكمل هـذا التعليــق ، تعليــق جـريدة اللواء ، إذ قـالت : « ... فيستدل من هـــذا الاتفـــاق ، أن الحكومة اعتـــبرت الإمـــام حـاكمًا مستـــقلا لا تتعـرض للبـلاد الواقعـــة تحت سلطتـــه ، وأنهـــا تكفلت لـــه بإصـــــلاح حـــال الـــزيــود المقيمين فى بـلادهـــا . وقـــد كتب

(١) المنار : المجلد ١٥ ، جزء ٢ ، العدد الصادر فى أول صفر ١٣٣٠ هـ (١٨-٢-١٩١٢) ص ١٠٦ .

جلال نورى بك مقالة فى « الجون ترك » انتقد فيها هذا الاتفاق ، وقال إنه لا قوة بعد الآن تمنع الإمام من عقد اتفاق مع أية حكومة شاءها بعد هذا الاتفاق الذى عقدته الحكومة العثمانية معه »[١]. وهناك فى هـذين النصين بعضَ الآراء المبالغ فيهـا ، فلا نـدرى مثـلا ، لماذا اعتبرت « التيمس » أن هذا الصلح (غير مجيـد) بالنسبة للدولة العثمانية ، وبنت باقى التعليق على هذا الأساس المتحامل . فبدل أن تعبر مثلا عن الأمـوال التى منحت للإمـام وكبار رجالـه - كما عبر جيكوب (وهـو إنجليزى أيضًـا) - بأنها هـدايا أو أن الهدف منهـا إصـلاح الأمور بعـد الأحداث الحربية الدامية ، اعتبرتها هذه الجريدة رشوة .

كما نستغرب لماذا اعتبرتـه صلحًا غير مجيد للـدولة مع أننا نعتبره استجـابة واقعية لأمور قـائمة ، وأنه قد تم بعد انتصـار الدولة الحربى على يد عـزت باشا نفسـه صاحب الصلح . ونقصـد بذلك أن الـدولة وافقت عليـه وهى فى حالـة انتصار ، وقد كنا نوافق على رأى الجريدة لـو تم قبل إرسال حملة عزت باشا ، أو تم والإمام يحاصر صنعاء ويضغط عليها . فضـلا عن أن مواد الاتفاق نفسه ، لا تحمل إلا تنظيما للحالـة هناك لضمان الهدوء والاستقرار . وأن بعض المواد تـؤكد بوضوح الخضوع للسيادة العثمانيـة ، كما أن البعض الآخر يقضى بضرورة الرجوع إلى الآستانة ، للحصول مثلا على الموافقة على تعيين حكـام المناطق الزيدية بعد أن يختارهم الإمـام . وهذا الإجـراء رغم أنه إجـراء ظاهـرى فقط ، إلا أنه يـؤكد «عثمانية » ولاية اليمن ، وبقاءها تحت السيادة العثمانية . كما جاء فى نهاية التعليق أن الحكومة « اضطـرت أن ترسل خمسين ألف رجل بقيادة عزت بـاشا ، وهو من أكبر قوادها للحصـول على هذه النتائج » فالجريـدة بذلك تعبر عن الخيبة التى

---

(٢) اللواء : العدد ٣٧٧٩ الصادر فى ٧-١-١٩١٢ (١٧ محرم ١٣٣٠هـ) .

لاقتها الـدولة العثمانية بـأنها تكلفت كثيراً ولم تحصد إلا القليل . ونحن لا نعرف مثلا ، مـاذا كانت تنتظره الجريدة أكثـر من ذلك ، ألم ترسل الدولة هـذه الحملة لتهدئة الحالة فى اليمن من ناحية ، وضمان عثمانيتهـا ، وعدم خروجها على الدولة من ناحيـة ثانية ، وهذا هـو ما توصل إليـه عزت باشا فعـلا عن طريق الصلـح . وكان هذا يعنى تـوفير المال والرجال للدولة ، مع الحصـول على نفس النتائج أما تعليق اللواء فإننا لا نـوافق عليه تمامًا ، إذ كيف تقول « إن هـذا الاتفاق يستدل منه أن الحكـومة اعتبرت الإمام حـاكما مستقلا لا تتعـرض للبلاد الوقـاعة تحت سلطته » . بل بالغت جريدة « جون ترك » فى تصوير هذه الناحية فى قولها : «إنه لا قوة بعـد الآن تمنع الإمام من عقـد اتفاق مع أية حكـومة شـاءها ... » وذلك اعتقاداً منها أن الإمام أصبح مستقلا فعلا بعد هذا الاتفاق ، والغريـب أن اللواء كتبت تعليقها هذا بعد كتابة نص هذا الاتفاق مباشرة وحتى فى نفس الصفحة ، ويظهر منـه أنه ليس هنـاك مطلقًا نصًّـا صريحًا أو غير صريح ، يعبر عما ذهبت إليه ، حقيقى أنه أصبح شخصًا متميزاً فى جزء من الإمبراطورية العثمانية ، ولكن هذا راجع فقط إلى وضعه المذهبى المتميز المستمد من كونـه إمامًا لطائفة دينية ، ولم يصل هذا التمييـز إلى درجة الاستقـلال ، بل إن بعض المواد ، رغم أنها تمنحه بعض الحقوق ، إلا أنها تـؤكد استمـرار خضوعه للسيـادة العثمانية . هـذا وإننا نسأل « جون تـرك » عن السلطة التى منحت الإمـام حق « عقد اتفـاق مع أية حكومة شاءها » .

وهنـاك تعليقان آخـران صادران مـن داخل اليمن نفسه ، ولـذلك فنحن نعتبرهما أكثر واقعيـة وفهما لحقيقة الـوضع فى اليمن . فقد أرسل ضـابط عثمانى شهد بنفسه الحرب والصلح هناك ، رسالة طويلة إلى جريدة « الحقيقة » البيروتية - ونقلتها المنار - جاء فيها : « أن قرية دعـان الواقعة على مسافة خمس ساعات من الشمال الشرقى من قضاء عمران سيكون لها شأن فى التاريخ حيث عقد فيها الاتفـــاق ، وتـم تـــوقيع شروط الصلـح بين الإمـــام يحيى حميـــد الـــدين

وقائد الحملة عزت باشا فانحسم بذلك الخلاف ... وقد نظر عزت باشا إلى المصلحة العامة قبل كل شيء ، ولولا ذلك لما تسنى له الحصول على وفاق ووئام بين طائفتين من المسلمين تقتتلان ، فهيأ للجيش العثمانى عضداً قويًّا يبلغ عدده ثلاثة ملايين لأن الإمام يحكم على هذا العدد ، ويمكنه أن يكون محاربًا مع الجيش العثمانى جنبًا لجنب إذا مست الحاجة . ولا يستبعد القارئ هذا ، فالمثال حسى ظاهر ، وهو أنه لما بلغ الإمام إعلان إيطاليا الحرب على الدولة ، أرسل نبأ برقيًّا إلى مقام الخلافة العظمى يقول إنه مستعد لتقديم مائة ألف مقاتل كاملى العَدد والعُدد .. »(١) .

وهذا الحديث يدل - وخاصة فى أوله - على الفرح ، أو أن عقد الصلح كان عملا جليلا .

ولكن لنا ملاحظة على المبالغة بعض الشيء فى قوة الإمام المادية . حقيقة أن هذا الصلح ضمن انحياز الإمام إلى جانب الدولة ضد القوى الأجنبية فضلا عما سيوفره هذا الصلح للدولة من جهد ومال . وحقيقة أن الإمام دائمًا يؤكد حسن نواياه تجاه السلطنة وخاصة بعد عقد الصلح . وحقيقة أن انحياز الإمام هذا إلى جنب الدولة ، يعنى انحياز قوة مادية كبيرة إلى جانبها ، ولكن هذا كله لا يعنى مطلقًا انحياز شعب اليمن بأجمعه إلى جانب الأتراك فليس للإمام نفوذ إلا على بعض الزيديين ويمكنه أن يجند منهم من يشاء ، ولكننا نشك فى مدى طاعة باقى شعب اليمن للإمام . وإن كنا نرجع سبب ما ذهب إليه هذا الضابط فى حديثه ، إلى أنه رأى - عن كثب - الثورة تشمل أغلب جهات اليمن ورأى الإمام يقف فوق تيارها ويعبر عنها ، فظن

---

(١) المنار : مجلد ١٥ ، ج٢ ، فى العدد الصادر فى أول صفر ١٣٣٠هـ (١٨/٢/١٩١٧) ص١٣٨ ، ١٤٢ .

(٢) ستتضح طبيعة هذا الانحياز فيما بعد .

أن عناصر هذه الثورة جميعها تخضع للإمام - تماما ودائما - أو أنها رهن إشارته . ولكن الحقيقة كما أشرنا ، هى أن الظروف والأحداث التى كانت تعيشها هذه العناصر فى هذه الفترة ، هى التى دفعتها إلى الثورة والانقياد إلى الإمام .

وهذا لا يعنى أن الإمام ، كان يتمكن من تحريك هذه الكتل البشرية فى اليمن كلما أراد : وسيزداد هذا الأمر إيضاحا عندما نتكلم عن نتائج الاتفاق ، ونعلق على مسألة استعداد الإمام لإرسال قوة لمحاربة إيطاليا فى طرابلس إلى جانب جيوش السلطان .

يتضح من هذا العرض لبعض الآراء والتعليقات عن الصلح ، أن البعض وصفه بأنه صلح « غير مجيد » والبعض الآخر ، وصفه بأنه « صلح مجيد » وطائفة ثالثة ترى أنه لم يغير أية أوضاع ، وطائفة رابعة ، ترى أنه أدى إلى نتائج هامة . هذا إلى جانب الاختلاف فى تفسير دوافع عقده ، فالبعض يرى أن الدولة اضطرت إليه ، والبعض الآخر يرى أنه نتيجة التهديدات الأجنبية للإسلام . وهذه الآراء رغم اختلافها وتباينها ، إلا أنها جميعًا هامة فى توضيح وجهات النظر فى الاتفاق ، كما يدعنا هذا إلى الحديث و إبداء الرأى فى مواده وفى أهميته .

أهمية الصلح :

يعتبر هذا الصلح استجابة منطقية للواقع العثمانى واليمنى فى آن واحد ، وهو اعتراف بواقع له جذور تاريخية عميقة . فمن المعروف مثلا أن المذهب الزيدى ظهر فى اليمن قبل ظهور العثمانيين بوقت طويل ، وأنه حظى بتأييد شعبى لم يحظ به العثمانيون طوال حكمهم ، لذلك فإن تلاقى القوتين صاحبتا النفوذ المادى والمعنوى ، فى صلح يعترف لكل منهما بوضعه وحقوقه لا يعنى أن هناك اضطراراً أو تنازلا ، بل هو وصول إلى الحل الذى يضمن لليمن

حياة هـادئة آمنة . ويـؤكد هـذا الكلام ، أن الاتفـاق ، يحمل بين طيـاته جـوهر وخـلاصة كل العـروض والمطـالب والحلـول التى ظهرت قبلـه فى فترات الهدوء النسبى وقيـام المفاوضـات بين الطرفين ، أو فى المشروعـات التى كـانت تنظرهـا الـدولـة لحل قضيـة اليمن ، ولكنهـا لم تكن تنتهى فيهـا إلى رأى نهائى . وهـذا التشابه بين هـذا الاتفاق وبين ما سبقه من عروض وحلـول ، يعنى مباشرة أنه لم يفرض من الخارج ، أو أنـه نتيجة مؤثـرات خارجية ، بل هـو منبثق من أحداث اليمن الخاصة ، وواقع ظـروفه وأوضـاعه ، إلى جانب الأحـداث العامـة الخاصة بالإمبراطورية العثمانية .

وهناك بعض النقاط بـالنسبة لهذا الاتفاق نحب أن نبرزها ، فهى تـؤكد ما ذهبنا إليـه . فهناك بعض المواد العامـة تمثل الرغبة فى إصـلاح الأمور فى اليمن . فمما لا شك فيه ، أن طريقة جمع الضرائب فضـلا عن ارتفاع قيمتها ، كانت من أكبر عــوامل ثـورات اليمن ، لــذلك نصت بعض المواد على أن تخضع قيمــة الضرائب المفروضـة للأسس الشرعية ، وأنـه إذا أساء مـوظفو الحكومـة جمعها ، فإنهم يحاكمون ، وعلى الحكومة معاقبتهم . كما اشترط الاتفاق أن تتنازل الحكومة عن حقوقهـا فى مناطق معينة من اليمن ، فـلا تجمع منها الضرائب نظراً لفقـرها وحالتهـا المضطربـة ، وذلك مدة عشر سنـوات . وهذه كلهـا خطوات هـامة فى تهدئة الحالة هناك ، وإقـرار السلام بطرق عملية سليمة وأكـد هذا الاتجاه بصفة فعـالـة ، أن نصت بعض المواد كـذلـك على إصـدار العفـو العـام عن الجرائم السياسيـة والضرائب المتأخرة التى سبقت عقـد الاتفاق كما اشترط الاتفـاق أنه على الإمام أن يخلى سبيل الـرهائن الموجودين لديـه . ثم أخيراً عمل الاتفاق على توضيح الصورة النهـائية للعلاقات بين أعداء الأمس ، فـأباح لكل من مأمورى الحكومـة وأتباع الإمـام ، أن يتجولـوا فى أنحاء اليمـن بشرط ألا يخلوا بـالسكينة والأمن .

وإلى جـانب هذه المواد ذات الطـابع العـام ، توجـد مـواد أخرى بعضهـا

خـاص بالحقـوق التى اكتسبها الإمـام بنـاء على هذا الاتفـاق ، وبعضها الآخـر خـاص بمظاهـر تبعية اليمن والإمـام للسيادة العثمانيـة . ولكننا نحب تـوضيح ملاحظـة جديرة بـالذكر قبـل الإشارة إلى هذه المواد ، ألا وهى أن هـذا الاتفاق اهتم حقيقة بتنظيم المناطق الزيدية ، أو التى يقطنها الزيديون ، وحدد الواسعى هذه المنـاطق فى بدء حديثـه عن الاتفاق ، ولكن هـذا لا يعنى أن الاتفاق أهمل باقى اليمنيين ، فهناك بعض المواد الخاصة بغير الزيديين . ولكنه اهتم بالزيديين بالذات لأنهم هم الذين لهم أوضاع خاصـة ، ومطالب خاصة ، وبالتالى جاءت هـذه المواد تنظم هذا الـوضع الخاص . أمـا باقـى جهات اليمن ، التى تقطنهـا فئات غير زيديـة ، فهى لا تطلب من العثمانيين إلا قليلا من الإصلاح وتخفيف الضرائب مثلا ، وهـذا ما نصت عليـه بعض المواد صراحة . ولكن لا يـدل هذا بـالتالى - كما ذهب إليـه البعض - على أن مـواد هـذا الاتفاق تعنى مبـاشرة أن اليمن قسمت إلى قسمين : قسم يخضع للعثمانيين ، وآخـر يتبع الإمـام . فهـذا التقسيم لم يحدث سواء من النـاحية الإدارية أو غيرهـا ، بل هذه المواد تعنى فقط أن هناك فئـة من الـرعايـا لهم أوضاع وظـروف خـاصة بهـم ، ويـريدون أن ينظمـوا حيـاتهم طبقًـا لمذهب معين ، وفى نفس الـوقت يعترفـون بـالسيـادة العثمانية ، فجاءت هـذه المواد لتحدد ماهية العـلاقة بين هذه الفئـة الخاصة ، وبين أصحـاب السيـادة العليا ، أو بـالأحرى كـانت هذه المواد تحدد مظـاهـر السيادة العثمانية بـالنسبة لفئة اعترف لها العثمانيون بالـوضع الخاص وهذا يشبه إلى حد كبير وضع الأشراف فى مكة ، فهم يتمتعون بقدر من الاستقلال الذاتى ، أو مـا نحب أن نسميه بـالـوضع الخاص ، ولكنهم فى نفس الـوقت يخضعـون للسيـادة العثمانية، فكانت توجد قوة عثمانية كبيرة فى المدينة ، فضلا عما يقوم به شريف مكـة من خـدمات جليلـة ، لتأكيد السلطـة والنفوذ العثمانى فى هـذه الجهات .

وأكسب هـذا الاتفاق الإمـام بعض الحقوق ، فأعطـاه مثلا حق انتخـاب

حكـام المذهب الـزيـدى ، وانتخـاب رئيس المحكمـة الاستئنـافيـة بصنعـاء وأعضـائهـا ، كما أصبح لـلإمـام حق الإشراف والمراقبـة على الأسلـوب الإدارى للولاة ومـوظفيهم ، فعليه أن يعرض مظـاهر إساءات الموظفين وكيفيـة استغلال نفوذهم - إذا قاموا بذلك - أمـام الولاة . كما أعطيت له المسائل التى تحتاج إلى فهم ودراسة النـواحى الشرعية ، مثل الأوقاف وتنفيـذ الوصايا . إلى جـانب هذا اعترفت المادة (١٥) بـالهدايا التى يمنحهـا الزيـود لإمامهم ، أو مـا يمكن أن نطلق عليـه لفظ « الاشتراكات » . وأدركـت الحكومـة أنـه لا يمكنها منع هـذا الإجـراء حيث إن المذهب نفسـه يقضى بـدفع هـذه الأموال لـلإمـام ، فأقـرت الحكومة هذا الوضع ولكن بعد تنظيمه حتى لا يكون ذلك عملا سريًّا ، فتخفى عليهم حقيقـة مركـز الإمـام ونفوذه بل وثـروتـه . والمذهب لا يفرض دفع هـذه الأمـوال لشخص الإمام ، ولكـن لأنه رئيس حكـومتهم ، وأن الغـرض من دفع الأموال - من وجهة نظرهـم - هو المشاركة فى بناء كيان دولتهم الخاصة .

لكن هـذه الحقوق والمكـاسب لم تمنح اعتبـاطًا أو دون تنظيم ، بل قيـدت جميعها بموافقة الحكومة وتصـديقها ، سواء من ممثلها فى اليمن ، أو من الآستانة ذاتها . فإذا نظرنا إلى إحدى هذه المواد التى تمنح الإمـام هذه الحقوق ، نجدها لا تنتهى إلا وقد قيـدت هذا الحق بمـوافقة الحكومـة ويتضح هذا بـالنظر فى المادة (٣) مثلا . لهذا فنحن لا نميل كثيراً إلى اعتبارهـا حقوقا أو مكاسب ، أو كما عبر البعض بأنها تنـازلات ، بل نرى أنها تنظميـات فقط ، تتطلبها الأوضـاع الخاصة بهذه الجماعات الزيـدية . ويؤكد ما نـذهب إليه بشكل صريح المادة (٧) التى تنص على أن « تتشكل محاكم مختلطـة من حكام الشـافعيـة والزيـدية للنظـر فى دعاوى المذاهـب المختلفة » . فقبـول العثمانيين أن يدخل الـزيديـون للنظر فى الدعاوى ، ليس تنازلا أو رضوخا من العثمانيين ، بل هو استجابة للواقع هناك ، فما دامت هناك طائفة زيدية كبيرة ولها مذهب معين تحتكم إليه فى كل شئونها فما

ضير الحكومة فى الرجوع إلى قضاة هذا المذهب لإنهاء الخلافات المحلية . وهذا أمر طبيعى ، أما غير الطبيعى فكان ما يحدث قبل الاتفاق ، وهو عدم الاعتراف بهذه الأوضاع الخاصة ، واتباع طريق الحرب مما كان يثير الاضطرابات والثورات دائمًا .

وهكذا احتفظت الدولة لنفسها بالتصديق على انتخاب الإمام للحكام والقضاة الزيديين ، وكذلك التصديق على أحكام القصاص ، وتعيين حكام الشافعية والحنفية ، وغيرها من الأمور التى تؤكد استمرار السيادة العثمانية على ولاية اليمن فى الوقت نفسه .

النتائج العامة للصلح :

بقى الآن أن نوضح النتائج العملية العامة لهذا الصلح ، فمما لا شك فيه أنه قد أدى إلى تغيير صورة العلاقات بين الإمام والعثمانيين ، وأنه أحال الحالة الحربية إلى حالة سلمية يسودها الهدوء والتفاهم . وهذا يتضح بالمقارنة بين أحداث الفترة التى سبقته فى اليمن بالأحداث التى أعقبته ، فهاتان الفترتان تحملان لونين مختلفين من حيث العلاقة ، ومن حيث سير الأحداث . وهذا كله يحتاج إلى تفصيل حتى يتضح ما ذهبنا إليه .

يقول أمير الآلاى إحسان بك ، وكان رئيسًا لأركان حرب الفيلق اليمنى ، فى حديث له مع صحيفة « المفيد » البيروتية - ونقلته المنار - أثناء وجوده ببيروت عائداً من اليمن ، عندما سأله مندوب هذه الصحيفة عن فوائد هذا الاتفاق : «إن الإمام وزع منشوراً على جميع القبائل الموالية له يحذرهم من الخروج على الدولة والتعدى على الجنود النظامية ، والانصراف عن مناوأة الدولة إلى الاهتمام بزراعة الأرض . فكان من ذلك أن الجندى النظامى أصبح يروح ويغدو بسلاحه الكامل فى أنحاء اليمن دون أن يعارضه معارض » كما قال تأكيداً للصورة السلمية هذه : « أما الرسوم الأميرية فتجبى بواسطة رجال الإمام الذين يصحبون رجال « الجندرمة » (الشرطة) ، ولم نسمع بعد عقد الاتفاق بشىء مما كان يقع بين الجباة وبين العربان ، الأمر الذى

كان يقضى إلى امتشاق الحسام وسفك الدماء بين الفريقين » . ثم يستطرد هذا القائد فى وصف حالة اليمن وما يحتاجه من مشروعات عمرانية ، وفوائد العناية بأرضه ، واستثمار خيراته فيقول : « أكثر بلاد الدولة أمنًا اليوم هو القطر اليمانى ، غير أن اليمن هى اليوم فى حالة البداوة ، وأن فى خصب أرضه وطيب تربته ، ما يساعد الدولة على نقله من حال إلى حال . والدولة تمد اليوم خطًا حديديًا من «الحديدة إلى « جميلة » وما مدته إلى الآن يقدر بثلاثة كيلو مترات ، إلا أنها ساعية بتسوية الأرض وسط الطريق ، ولكن مد السكة الحديد لا يجدى الأهالى نفعًا ، إذا لم تكن البلاد غنية ، وإذا أتيح لهذه البلاد أن تغنى ، فأرضها ستكون كنز هذه الثروة »[1]. وهذا يدل دلالة واضحة على أن اتفاق سنة ١٩١١ قد أدى إلى حالة من السلام ولو إلى فترة محدودة فقط .

وهناك عمل آخر إيجابى من ناحية الترك لتأكيد السلام ، فقد قامت الدولة بعزل الوالى الذى تمت فى عهده كل الحروب والمذابح السابقة ، وهو محمد عل باشا ، وعينت بدلا منه محمود نديم بك الذى سبق ذكره ، والذى لعب دوراً كبيراً فى إتمام عقد الاتفاق « وفى سلخ جمادى الأول سنة ١٣٣٠هـ (مايو سنة ١٩١٢) عزل الوالى محمد على باشا وعين وكيلا له رجب أفندى الذى كان مكتوبجى ، وفى شهر ذى القعدة تعين محمود نديم بك واليًا فى اليمن »[2] .

ويؤكد سيادة السلام ، عقب عقد الاتفاق ، ما لاحظناه على تغير حديث الواسعى - فى حولياته - فهو لا يذكر - عند الكلام عن سنوات ما قبل الاتفاق - إلا المعارك التى دارت فى اليمن ، أما بعد عقد الاتفاق ، فلا يذكر إلا الأمور العادية التى تحدث دائمًا فى أى زمان أو مكان ، فيقول :

---

(١) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء الثانى ، ص ١٥٥ (من حديث إحسان بك إلى صحيفة المفيد البيروتية) .

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٤٣ .

ثم دخلت سنة ١٣٣١هـ (ديسمبر سنة ١٩١٢) وأحوال اليمن صالحة ما خلا ما بين القبائل من الحدود ونزع الشيطان بينهم ، وكانت الأمطار هذه الأيام قليلة، والأسعار عالية »[١].

وفى مكان آخر يقول « ثم دخلت سنة ١٣٣٢هـ (نوفمبر سنة ١٩١٣) والجدب والقحط عم اليمن (نتيجة قلة المطر) وحصل مرض فى الأطفال والأكثر من الجدرى ، ومات كثير من الأطفال ، وفى هذه السنة قلت الأمطار ، وغلت الأسعار ، وأغاث الله الناس بخروج الدقيق والطعام من الهند والحبش والسودان . وقبض على سارق وقد هجم على بيت فأقر بما سرق فقطعت يده حدًّا بعد الحكم عليه . ورفع إلى الحاكم رجل شرب خمراً ، وأقر بما شرب إقراراً شرعيًّا ، وبعد الثبوت أقيم عليه الحد ، وأقيم على زان الحد الشرعى بعد ثبوته عليه بالإقرار ، واستيفاء الشروط »[٢] وهكذا يستمر الواسعى فى حولياته لا يذكر إلا هذه الأمور الداخلية العادية ، وهو الذى كان لا يذكر إلا الحرب ، «وجهاد الإمام ضد الأتراك . وظلم الأخيرين وتعسفهم ، وكثيراً ما كان يحمل عليهم بشدة دفاعاً عن قضية بلاده » .

أما الرأى الذى يقلل من أهمية هذا الاتفاق فهو رأى الأستاذ توفيق برو ، إذ إنه علق على هذا الاتفاق بقوله : « إنه لم يعد كسبًا يذكر للإمام ، بل يعد إلى حدٍّ ما انتصاراً لفكرة الدولة ، ولا ينطبق قط على أصول اللا مركزية فى الحكم ، حتى ولا على أصول توسيع المأذونية (الصلاحية) الكاملة إلا من ناحية حكم الشريعة بالنسبة للزيود .. » كما قال : « إن هذا الاتفاق لم يكن ليحل مشكلات اليمن حلا حاسماً بل ما لبثت أن ثارت المشكلات من جديد بسبب ازدواج السلطة ، وأن هذا الاتفاق لم يذكر شيئًا عن المشروعات الحيوية العمرانية

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٥٠ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

النافعة والصحية والتعليمية إلى غيره »(١) . وقد أوضحنا رأينا فى أغلب نقاط هذا الرأى فيما سبق ، عند ذكر الدوافع الأساسية التى دفعت كل من الترك والإمام لقبول الصلح ، ولكن ما نحب تأكيده وتوضيحه هنا ، وهو الذى دفعنا إلى رفع قيمة هذا الاتفاق ، هو أنه خلق حالة سلمية فى اليمن لمدة عشر سنوات بين قوتين تتحكمان فى مجرى الأحداث هناك ، ولا نقول إنهما قوتان متساويتان ، بل نقول إن لكل منهما أهميتها ودورها الفعال . وهذه الحالة السلمية ، المعترف بها من الجانبين ، تكفى أن تكون الكسب الوحيد من وراء عقد هذا الاتفاق ، إذ إننا نعتقد أن السلام كفيل بتفجير الطاقات العمرانية فى اليمن ، ويدفع إلى الإصلاح والتعمير ، دون أن يكون ذلك نتيجة نصوص مكتوبة أو اتفاقات معقودة . ولا أصرح فى ذلك من حديث الأميرالاى إحسان بك سابق الذكر إذ جاء فيه أيضًا عند ذكر الخط الحديدى التى تعمل الدولة على مده « .. إن الخط الحديدى يسهل نقل الجنود ، إلا أن الدولة إذا جرت على سياسة عزت باشا ، أصبح هذا الخط اقتصاديًا أكثر منه عسكريًا ، فإن اليمانيين متى قعدوا عن قتال الدولة ، وتعاهدوا معها ، انصرفوا إلى الزراعة والصناعة . وأن ذكاء هؤلاء القوم يساعد كثيراً على انتشار المدنية فى تلك الربوع ، وأن من مصلحة الدولة أن يساس هؤلاء سياسة الحلم ، لا سياسة العنف والشدة . ففى بعض أنحاء اليمن، تنبت الأرض أربع مرات فى السنة ، وبعضها تنبت مرتين ، فإذا عنيت الدولة بزراعة البلاد اليمنية ، كان لها مورد جديد يزيد فى ماليتها . وإنه ليؤسفنى أن أصرح لكم بأن الحكومة أرسلت كثيراً من الأدوات الزراعية ، ولكنها لم ترسل معلمين زراعيين حتى الآن ، وهذا الإهمال كان السبب فى تعطيل هذه الأدوات»(٢). وهكذا يعبر رجل تركى عسكرى مسئول عن أهمية السلام ، إذ كيف ينصرف اليمنيون إلى الزراعة والصناعة ، وإلى استعمال الآلات ، وبالتالى

(١) توفيق برو : العرب والترك فى العهد الدستورى ، ٢٣٦-٢٣٧ .

(٢) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء الثانى ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

الاهتمام بـالصحة والتعليم ، إلا بعـد أن يستتب الأمن فعـلا وتهدأ الحرب ، ويطمئن كلٌّ على نفسه .

والحديث عن السلام هذا يؤدى بنا إلى ضرورة تتبع نشاط الإمام وأغراضه بعد عقد الصلح ، وقد سبق أن قلنا إن الإمام كان يطمع فى الصلح لأمور عدة منها : تثبيت نفوذه فى اليمن ، ليتمكن من القضاء على المنافسين المحليين من ناحية ، وليخلف الأتراك فى اليمن من ناحية ثانية . وكان الإمام يتنبأ بانهيارهم ، فبدأ حملة سياسية فى اليمن ليوسع نفوذه ، فذهب رسله ومبعوثوه إلى كل جهة ليمهدوا له الطريق ، وإن كان وجود الإدريسى فى عسير كان يعوق نشاطه[١] . فيقول جيكوب تأييداً لهذا الرأى : « كان هدف الإمام هو أن يرث نفوذ الترك فى اليمن ، وكان ذلك نصب عينيه دائماً ، وكان يؤمن بأنه سيصل إليه فى يوم من الأيام »[٢] .

ويعبر سلفاتور أبونتى عن هذا المعنى نفسه بقوله « ..أما الإمام يحيى فإنه بعد أن ضمن إعانة سنوية لشخصه ولكبار موظفيه (يقصد أتباعه) من خزانة الدولة العثمانية ، اتخذ لنفسه مقرًّا فى « خمر » حيث أخذ يباشر سلطته ، وينشر نفوذه ويبسطه فى الأراضى التى خصصت له بمقتضى الاتفاق وفى العاصمة نفسها ، بينما كانت عيونه وجواسيسه يتوغلون فى محميات عدن وفى حضرموت ، ومن ذلك الوقت أصبح الإمام يحيى هو الملك الحقيقى فى البلاد ، كان هذا هو غرض الإمام بالتحديد ، والذى حدد نشاطه عقب الصلح حتى خروج الترك نهائيًّا من اليمن ، بل ونستطيع أن نقول إن الإمام يحيى استطاع فى هذه الفترة أن يحدد الخطوط العريضة لسياسته التى ترمى

---

(١) Jacob; Kings of Arabia, p. 133

(٢) Ibid , p. 137.

(٣) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٥٦ .

إلى تأكيد وجوده ومستقبله فى اليمن وهذه الخطوط كانت تتلخص فى :

المحافظة على ماله ورجاله ، فلا يحارب الأتراك ، ويرضى من الغنيمة باعترافهم بوضعه الخاص .

العمل على توطيد نفوذه بالتقرب إلى القبائل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

محاولة القضاء على منافسيه المحليين ، إما بطريقة مباشرة ، وذلك بالتصادم معهم وجهًا لوجه ، كما حدث بينه وبين « الضحيانى » أو غير مباشرة كما كانت الحال فعلا مع « الإدريسى » - حتى عقد الصلح - إذ كان الأتراك يقومون بحرب الإدريسى دون هوادة بغية القضاء عليه نهائيًا ، وكان الإمام يرقب ذلك بفرح دون شك .

وأخيراً العمل على ألا يصطدم بجيرانه الآخرين مثل الإنجليز فى الجنوب أو بالشريف حسين أو ابن السعود فى الشمال .

وكان النضال بين الأتراك وبين الإدريسى يسترعى انتباه الإمام الزائد ، إذ كان يهمه أن يسبق خروج الأتراك من اليمن إبادة منافسه الإدريسى . وكان تفكيره بالنسبة للنزاع الدائر بين الأتراك والإدريسى كما عبر عنه هو كالآتى :

« إذا كان الترك أقوياء بدرجة كافية لإبادة الإدريسى فلا اختصاص لى فى هذه الملحمة ، أما إذا لم يستطيعوا وتعثروا فى ذلك فعلى أن أساندهم[١] . ومن ناحية ثانية لم يكن عند الإمام رغبة التصادم حينئذ مع بريطانيا فى الجنوب بل اكتفى بزعامته الدينية تحت السيادة العثمانية ، وكان كثير من الشوافع حتى من الذين كانوا يتقاضون المرتبات الشهرية من الإنجليز (فى المحميات) كثيراً ما كانوا يتقربون إلى الإمام ، يسألونه أن يفصل فى منازعاتهم الشخصية ، وخاصة وقد زادت الحرب الإيطالية - التركية الشعور الدينى ، فكان رأى هؤلاء

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia , p. 134.

الشوافع أن العرب للعرب لأن هذه الحرب قد هددت وجود الإسلام نفسه[١] » .

ولكن هـذا الاتفاق نفسـه كان لـه رد فعل مخالف ، بالنسبـة للإمـام ، عما عرفنـاه سلفًا : حقيقـة أنه أتاح الفـرصة لـه لنشر نفوذه وتثبيتـه ، ولكنه فى نفس الوقت هز الصـورة الضخمة التى للإمام ، لا بين أتباعه الـزيود فقط ، بل أيضًا بين أهـالى اليمن جميعًا . فمما لا شك فيـه ، أنـه أصبح أقل قـوة وهو فى جـانب الحكومة منه وهو فى وضع معارض لها . إذ إن الذى كان يعنى العرب جميعًا ، هو كونـه الحاكم الشرعى المضطهد لليمن ، وأحد أحفاد « على » المبـاشرين ، لا أنه مولى الحكومـة العثمانية كما أصبح فعلا[٢]. فهو فضـلا عن أنه رضى بـرفع لواء السلام بينه وبين الـترك ، فإنه كان يتقاضـى راتبًـا شهريًّـا لا بـأس به بلـغ «ألف ومـائة ليرة عثمانيـة مـشاهرة وكان لمشـايخ العـربان رواتب مقننـة أيضًـا»[٣] .

وهذا الوضع الجديد يحتاج – لكى يتضح بشكل كبير – أن نعود تاريخيًّا إلى ما قبل هذه الفترة التى نتكلم عنهـا . نحن نعلم أن الإمام سليل أسرة تتربع على قمة الجماعـة الزيـدية فى اليمن ، وعـرفنا أيضًـا أن الإمام يحيى ، وحـوله أتبـاعه الـزيديـون ، كانـوا أكبر قـوة فى اليمن – إلى جانب القـوى الأخرى المتمثلـة فى القبـائل المختلفة ، والتى كـانت تعمل بشكل فـردى محلى مؤقت – حملت لـواء الثورة ضد العثمانيين ، وأدى هذا بالتالى إلى أن تنقـاد له باقى القبائل اليمنية غير الزيدية ، متمثلة فيه روح الثورة والتمرد ضد التعفن الإدارى العثمانى . وقام أبوه المنصـور من قبله بنفس الـدور ، وهذا مـا جعل القبائل مستعـدة دائمًا لتوجيـه

---

(١) Jacob; Kings of Arabia. p. 136 .

(٢) Bury ; Arabia Infeli p. 158 .

(٣) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء الثانى ، ص ١٥٥ .

الضربات للحكومة العثمانية تحت قيادته[١] ، وعرفنا أن هـذا أدى بطبيعة الحال إلى زيادة نفوذ الإمـام يحيى ، وتقوية مركزه فى اليمن ، ولكنـه بعد الصلح ، وقد اعترف به الأتـراك كإمام - وهـذه تعتبر ضربة سيـاسية لـه - ووضعوا بين يـديه القيادة العليا للأمور الشرعية ، أصبح فى مـركز صعب . فهو فى الدرجة الأولى لم يعد « أميراً منفيًّا »[٢] أو أميراً إسـلاميًّا مضطهـداً ، حيث يستطيع أن يستأنف الحروب من أجل « المذاهب الإسلاميـة » فهو الآن فى جانب السلطة الحكـومية التى لم يـرحب بها كثيراً فى اليمـن . كما أن العسيريين لن ينسـوا أنـه استعمل الطوابير العثمانية ضدهم ، عندما كان يسعى لإخضاعهم . ومن ناحية ثانية فإن قبائل اليمـن الشرقية ، التى كـانت تحارب إلى جانبـه وجانب أبيـه ، قد تغيرت وجهة نظـرهـم فيه ، وبدأوا ينظرون إليـه نظرة واقعية - وخاصـة أن الغنائم التى كانت من العـوامل الهامة التى تجتـذبهم إلى الحرب - قد استنفـدت ، وضاعت خـلال فترة الهدوء السلمى التى تمضى دون غنائم جـديدة تـروى عطشهـم ، ولم يعد يـذكرون الآن إلا موتـاهـم الذين لقـوا حتفهم فى أوحال «مناخـة» العبوس القاسية[٣] .

أمـا سكـان اليمن الأوسط فإنهم كـانـوا يجدون فى الشريعـة الإسـلاميـة وتطبيقها - التى نص عليها الاتفاق - بغيتهـم الكبرى ، لذلك تخلوا عن الإمام وانتبهوا إلى شئونهم الخاصة بعـد الصلح سنة ١٩١١ . وعلى كل حال فقد قلت أهميته ، وضعفت قوتـه ، وتخلت عنه القبائل الشافعية - التى سانـدته فى ثوراته وأدت إلى نجـاحه سنـة ١٩٠٥ ، هذا إلى جـانب خروج بعض الـزيود عليـه كما سيتضح فيما بعد[٤] .

---

(١) Bury ; Arabia Infeli, p. 37.

(٢) يقصد بها أنه رغم كـونه الأمير الشرعى ، إلا أنه طرد وسلب حقه بواسطـة عناصر أجنبية مغتصبة .

(٣) Bury ; Ibid, p. 37-38 .

(٤) Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 76.

من هذا كله يتضح أن الإمام ، رغم الفرصة السلمية التى أتاحها له صلح دعان سنة ١٩١١ ، إلا أن الصلح نفسه وضعه فى مركز صعب ، إذ أصبح عليه أن يلعب دوراً مزدوجا ذا وجهين . فهو كقائد روحى ، وسليل الإمام « على » يشعر بالالتزام بأن عليه أن يقف حازما ضد الأتراك فى كثير من أمور المسلمين ، كما عليه أن يظهر بمظهر الزاهد أو الناسك أمام عيون القبائل المتعصبة الملتفة حوله ، والتى تعتبر رصيد قوته وكيانه فى اليمن ، ومع ذلك – وفى نفس الوقت – عليه أن يتعاون مع الفرق التركية وهو فى مقره فى « خمر » لما كان يتقاضاه منهم شهريًا، وتطبيقًا لشروط الصلح .

وكان وجود هذه القوات العثمانية يصطدم أحيانًا بالتفكير الإسلامى القبلى القديم القائم هناك ، وذلك عند ظهور أى تغيير جديد – وذلك رغم التعليمات المشددة من السلطة المركزية فى صنعاء بعدم التصادم – وكان مجرد ارتدائهم الزى الأوروبى يعتبر عملا فاسداً فاجراً أمام هذه القبائل(١) .

فهو أمام القبائل والأتباع يجب أن يتقمص شخصية الزعيم الروحى الذى يدافع عن الشريعة دائمًا أمام خروج الأتراك عليها . وأمام الأتراك الذين يدفعون المرتبات الشهرية ، عليه أن يظهر بمظهر الإمام المتصالح المسالم ، الذى يضمن لهم هدوء القبائل واستتباب الأمن والسلام ، وتنفيذ شروط الصلح . وهذا الوضع المتناقض أمام هاتين القوتين هو الذى هز شخصية الإمام أمام الشعب اليمنى ، وجعلهم يفكرون فى شخصية جديدة يلتفون حولها ، تكون أكثر إيجابية أمام الأتراك ، وأكثر إخلاصًا لرعاية مصالحهم . وكانت هذه الشخصية التى تطلعت إليها الأنظار ، هى شخصية الإدريسى فى عسير ، الذى واصل الحرب ضد الأتراك .

---

(١) Bury; Arabia Infelix, p. 38.

الفصل الثالث

علاقة الإمام بالإدريسى بعد عقد الصلح

تطور نفوذ الإدريسى فى عسير :

قابلت اليمن خبر الصلح بالفرح والابتهاج ، لأنه يعلن بداية عهد سلمى جديد ، ينصرف الناس فيه إلى أمورهم وإلى حياتهم اليومية . وظهر هذا الفرح عندما قرئ الفرمان السلطانى فى صنعاء فى سبتمبر ١٩١٣ ، معلنًا تحالف الإمام مع الدولة « فسار الأهالى فى الشوارع مهللين يطلقون النيران ابتهاجًا بهذا الفرمان »(١) .

ولكن طبيعة الصلح ، وحقيقة الأغراض التى دفعت إلى عقده ، أدت إلى نتيجة هامة ، وهى أن نفوذ الإدريسى قد انتشر بمقدار ما انخفض نفوذ الإمام يحيى بانسلاخ كثير من قبائل الإمام عنه وانضمامها إلى الإدريسى(٢) . والأكثر من ذلك أن بعض قضاة الإمام بدأوا - منذ أوائل سنة ١٩١٣ - يخابرون الإدريسى فى أمر مبايعته ، الذى أصبحت سلطته عامة فى بلاد عسير ، وقسم كبير من منطقة شمال اليمن على أثر مناوشات حدثت بينه وبين رجال الإمام يحيى ، تغلبت فيها رجاله على رجال الإمام ، وأخذوا من بلاد اليمن التابعة للإمام ثلاثة حصون بعدما هدمتها المدافع كما زاد من نفوذ السيد الإدريسى، أن قبيلة حاشد ، التى يعتمد عليها الإمام يحيى اعتماداً كبيراً ، بايعته، وأرسل شيخها «منصور بخيت » جملة رهائن من أبناء زعماء القبيلة إلى «جازان»(٣) عاصمة الإدريسى ، تأكيداً لهذه المبايعة كما هى العادة عند قبائل اليمن»(٤).

---

(١) Bury ; Arabla Infelix, p. 38 .

(٢) الأهرام : ١٠٦٦٦ فى ٣/ ٤/ ١٩١٣ .

(٣) ميناء على ساحل عسير وتكتب أحيانًا « جازان » وأحيانًا « جيزان » .

(٤) المؤيد ، العدد ٦٩٦٦ فى ٢١ / ٤ / ١٩١٣ .

ولكن كيف زاد نفـوذ الإدريسى بهذه الـدرجـة ؟وكيف تغيرت طبيعـة العلاقة بينه وبين الإمام يحيى ؟

والإجابة تحتاج تتبع أحداث عسير منـذ عقد صلح دعان . من المعروف أن الاتفاق العثمانى - الإمـامى ، هذا عقد فى أوائل مايـو ١٩١١ ، فقام الإدريسى فى ١٣ من هذا الشهـر بقطع خطوط التلغراف ، وحاصر قـائده السيد مصطفى عاصمـة عسير ومركز العثمانيين بها - وهى « أبها » - حصاراً عنيفًـا كما استطاع أسر عـدد من الأتـراك ، وغنم كثيراً من الأسلحـة ، ونقل ذلـك إلى عـاصمتهم «صبيا »[(١)] . وهـذا التتـابع الـزمنـى المتقـارب - عقـد الصلح فى اليمن وتجدد الاضطـراب فى عسير - لم يأت عفواً ، بل هـو من الأمور ذات المغـزى العميق ، التى تـدل على وجـود تراكمات عـديـدة سـابقـة أدت إلى وقوعـه فى هـذه الفترة بالـذات، وكأن أحدهما كـان نتيجة مباشرة لـلآخر . فإذا رجعنـا القهقرى بعض الشىء - إلى بـدء ظهـور الإدريسى فى عسير (حوالى سنـة ١٩٠٧) - نجـد أن الإمـام قد بـدأ يهتم بأمره ، ويتحـالف معه على أسـاس أن الإدريسى يمكن أن يحمى ظهـر الإمام عنـدما يزحـف نحو الجنـوب ، مهاجما المراكـز العثمانية ، أو زاحفًا نحو صنعاء وتوطـدت العلاقة بينهما على أساس أن الهدف عند كل منهما واحـد ، وهو محاربـة الـدولة العثمانيـة . ولكن الإمام كـان بعيـد النظر ذا آمـال واسعـة، يطمع فى حكم اليمن كله بمعنـاه الـواسع ، ولهذا كان يـرى أن أمامـه أمرين : **أولهما** : العثمانيون وكـان يرى أن نهايتهم قـد قربت ، فلماذا لا يعمل فى التـو على أن يـرثهم ، ويعمل على تثبيـت مـركـزه فى اليمن ، ولهذا أسرع بعقـد الصلح . **وثانيهما** : الإدريسى ، وكان الإمـام يهتم بمراقبتـه وتطور نفـوذه ، وكان يرى أن نجمـه فى صعود ، وأن نفوذه ينتشر بدرجـة قوية بين القبـائل العسيرية ، لـذلك خاف مـن هذا المنـافس الصـاعد وأحس بخطـورتـه ، وفكـر جديًّـا فى

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 121, Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 77.

وكان الإدريسى يتخذ « صبيا » عاصمة له أيضًا .

التخلص منه والقضاء عليه . وكان الأتراك يقومون بهذه المهمة دون أن يشعروا أنهم يخدمون بذلك قضية الإمام . لهذا كله انحاز الإمام إلى جانب الأتراك وتخلى عن حليفه السابق . وبناء على هذا ، قلنا إن تجدد الحرب فى عسير لم يكن مصادفة فلا شك أن الإدريسى قد فهم أيضًا ما ذهبنا إليه ، لذلك بادر بقطع الأسلاك التلغرافية ومحاصرة « أبها » . وهناك من يذهب أبعد من ذلك - وأهمية هذا الرأى أنه سابق زمنيًّا للصلح ومقدماته - فيذكر أنه ليس ببعيد أن يكون الإدريسى ، الذى كان على اتفاق مع الإمام يحيى ، قد شعر بأن الدولة ستعطى الإمام يحيى من الحقوق ما لا ترتضيه له هو ، فأظهر الجفاء وتحرش بجندها[١] .

وقد أكد أحد الأتراك الرسميين لجيكوب ، عندما تقابلا فى يناير ١٩١٣ - وكان هذا التركى قائمقامًا لمدينة « إب » فى وقت من الأوقات - المفهوم الذى عرضناه عند الإمام ، وغرضه من عقد الاتفاق ، فقال « إن الإمام كان يتصرف لمدى كبير تبعًا لخطة فى ذهنه ، وكان يعمل هذا طالما كان خصمه الإدريسى موجوداً دون أن يقهر ، ولكن بعد أن ينهار الإدريسى فإن الأمور ينبغى أن تتغير، ما دام كل من الترك والإمام لا يثق كل منهما فى الآخر فكلاهما - على أية حال - كانا متفقين (يشير إلى صلح سنة ١٩١١) تحت ضغط ضرورة القضاء على البيت الإدريسى »[٢] والحقيقة أن جميع أفراد البيت الإدريسى قد اشتهروا بالتقوى والصلاح ، وكانوا موضع إجلال اليمنيين واحترامهم ، وكان يرجع إليهم فى كثير من الشئون المهمة ، وهذا هو أهم سبيل مهد للسيد محمد الإدريسى - صاحب هذه الأحداث كلها - الظهور بمظهر السيادة والإمارة فى عسير . وقد لجأ السيد محمد إلى

---

(١) Rev, du Bonde Musulm, V. Ix, Sept, 1909, p.173.

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, p. 50 .

الدين لجذب القبائل إليه « فكان يخاطب النـاس بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبـوية ، ويحثهم على اتبـاع قـواعـد الدين ، والـرجـوع إلى الإسـلام فى أصولـه وبسـاطته ، كما أمـر بـالمعـروف ونهى عن المنكر ، ومنـع الغزو ، وأزال الشقـاق والاختلافات القديمة بين القبائل والعشائر ، وطبق العدالة والمساواة بين الجميع ولم يستملهم ، كما اتهمه البعض باستعمال الفسفور ، والكهرباء ، وغير ذلك من الاختراعات العصريـة الجديدة ، التى لم ترها عـربان اليمن بعد بقصـد إقناعهم بولايته أو نبـوته ، وكانوا يحبونـه لدرجة العبادة والتقـديس وينفذون أوامره بكل طاعـة وارتياح ، والسعيـد منهم هو الذى يتشرف بمقـابلته ويتبـارك بتقبيل يده وركبته »[١] . وهم محقون فى ذلك كل الحق ، فكم قاست هـذه القبائل العسيرية من اضطـراب الأمن وطول المنـازعـات التى تقع بينهم . وقـد عبر هو نفسـه فى خطاب سابق لـه إلى أحد أصدقائه فى مصر عن حالة الفـوضى التى وجدها فى عسير - وقد أوردنا هذا الخطـاب قبل ذلك - وأنه ما أن قدم عسير حتى تغيرت الحال ، وأنه قام بمجهـودات قوية فى سبيل تدعيم الأمن، وخـاصة بعد أن جمع حوله كثيراً من الأنصار .

كما قـال إنـه أعدم حـوالى المائتين قصـاصًـا ، وقطع أيد كثيرة إقـامـة لحد السرقة، وأحل الأمن مكـان الفوضى والاضطـراب . بل اتجه اتجاها أكثـر عمقًا ، فعمل على تنظيم حياة هؤلاء البدو من الناحية الإدارية والقضائية والاقتصادية . وأنه وسع نفـوذه ، فوضع على رأس كل قبيلـة من قبائل عسير قـاضيا وأميرا من قبلـه ، فالأول ينظـر فى الشئـون القـانونيـة ، والثـانى ينظـر فى الشئون الإداريـة والحربيـة ، ويجمع الـزكاة الشرعيـــة للســـيد . وكانت الصـلات بين المركـز والبقـاع الأخرى قائمة بكل دقة . كما نظم الموانى التى كان يحتلهـا ، فجعـل فى كل مينـاء جمركـا لـه « عمال » ومـوظفـون من قبلـه لاستيفـاء الـرســوم

(١) المنار : المجلـد ١٥ ، الجزء السادس ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ (الصـادر فى ٣٠ جمادى الآخر ١٢٣١هـ) يونية ١٩١٣ .

الجمركية من الواردات والصادرات ، وكانت الرسوم التى يتقاضاها أقل من الرسوم التى تجبيها الدولة . وقد نشطت التجارة بين هذ الموانى (ميدى ، وشفيق ، وحبل ، وبركة ، والغور) وبين عدن ومصوع فكانت السفن الشراعية[١] تحمل الضائع محليًا بين هذه الثغور المتقاربة . وكان عند السيد وكيل ، يسمى « يحيى زكريا » وهو بمثابة « رئيس الحجاب » أو « الصدر الأعظم » وآخر أمين لبيت المال واسمه « محمد يحيى » وهو بمثابة وزير للمالية . كما كان له كثير من القواد ، وكانوا يحملون شارات خاصة كل بحسب رتبته[٢].وقد أزعج هذا كله كل من الأتراك والإمام ، بقدر ما أسعد أهالى عسير الذين تمسكوا بالإدريسى ، وحاربوا وراءه بكل ما لديهم من قوة .

علاقة الإدريسى بالعثمانيين :

وقد قاسى الإدريسى من العثمانيين كثيراً ، فكم حاولوا الاتفاق معه ، ولكنهم سرعان ما كانوا ينقضون وعودهم ويعلنوا الحرب عليه ، لأنهم كانوا يؤمنون فى أعماقهم - تطبيقًا لرغبتهم فى تدعيم « مركزية الحكم » فى إمبراطوريتهم - بأنه لا بد من القضاء على هذه القوى المحلية التى تحاول رفع رأسها ، وتطالب بالكيان الخاص داخل الامبراطورية .

وكانت الدولة - تحت ضغط ظروف قاهرة - تقبل أن تتفاوض مع الإدريسى والإمام ، ولكن كانت هذه المقابلات إلى حين فقط ، ثم تعود الدولة إلى الحرب وليس أمام عينيها إلا « المركزية والتتريك » . وفى خطاب طويل من الإدريسى إلى الإمام ، وكان الأخير يدعوه فيه إلى الصلح مع الدولة والتراضى معها « خدمة للإسلام » ويحثه على البعد عن الإيطاليين « أعداء

---

(١) تسمى هناك سنابك .

(٢) المنار : المجلد ١٥ ، الجزء السادس ، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .

الدين » - وكتاب الإدريسى مؤرخ فى ١٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٠ هـ (مارس سنة ١٩١٢) أى بعد أن عقد الإمام الصلح مع الدولة - أخذ الإدريسى يعدد للإمام كيف أنه يرغب فى الصلح مع الدولة ولكنها لا تصدق وعدها معه، فيقول : « أما مادة الصلح بيننا وبين الحكومة ، فمن أول يوم وما ندعو إليه هو الوفاق ، وكلما أرادوا عقد ذلك نقضوه . وكفى بما كان فى المدة الأخيرة ، فإن المذاكرة حصلت بيننا وبينهم فى هذا الموضوع ثلاث مرات ، بل أربع مرات ، بعد وصول رسلهم إلينا ، فإذا أجبنا بما فيه الوفاق ، أعرضوا تيها وكيداً واحتقاراً لنا . فأولى المرات بواسطة محمد توفيق فى مجيئه الأخير . فأجبناهم ذاكرين مواد بسيطة ، لأن فى ذلك الوقت لم يكن قد وقع بيننا وبينهم سفك دماء . وتلك المواد هى أن نكون فى جهاتنا آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، ضابطين للبلاد من الفساد ، مع بقاء مراكزهم ، وإليهم تساق الحاصلات ، وعليهم القيام بما يلزم من معاش القضاة والمترددين فى مصالح البريات ، وأن لا يحدثوا زيادة من القوة فى البلاد وأن يفك أمير مكة صالح بن حسن وصاحبه من الحجاج . وهذه المواد مما يضحك منها ، لأنها لبساطتها لا تكاد أن تكون مطالب ، ولكن أدانا إلى ذلك حب الراحة للبلاد والعباد . فما كان الجواب إلا بنقيض ذلك ، فساقوا تلك القوة التى يقدمها محمد راغب بك ، ومحمد على باشا فى « جازان » وملأوه بالآلاف ، وازدادوا عدوانًا على طلب الحجاج لحبسهم ، كما وقع فى الحبس بعض رجال « ألمع » فى حج هذا العام ، وأشعروا أن العسيرى تابع لإمارة حسين بن عوف (أمير مكة) وأرسلوا

---

(١) هو الشيخ محمد توفيق الأرنؤطى الأصل . من علماء الترك ، جاور فى الأزهر . وعرف السيد محمد الإدريسى فيه . وقد أرسله إليه الاتحاديون أكثر من مرة للتفاهم معه ، وكان من رأيه أن الإدريسى مخلص للدولة ، ولكن الاتحاديين كانوا لا يسمعون لرأيه دائماً أو يأخذون به .

إلينا بطريق مصر فى حين وصول القوة العامة برفق عزت (باشا) أنى إن أردت السلامة ، أفتح لهم الطريق إلى الإمـام التى تمر على طرف البلاد التى بيدينا ففوضنا الأمور إلى الله ، واستعنا به فى مدافعتهم ، وبحمد الله قد كان ما كان » .

« ثانى المرات بواسطتكم (يقصد الإمام) عندما وصل إليكم عزيز (يقصد عزيز المصرى) ووافقنا لكم ، فكان منهم الجواب بالتعليق على ما هو فى حكم المستحيل ، وهو إجابتنا لحضور الآستانة . وقد تحقق لكم من هذا نهاية الإعراض مع أنكم قد بذلتم الجهد ، كما أخبر عزيز عند وصوله مصر لبعض أصدقائنا بذلك ، وبما كررتموه من المراجعة فيها هنالك . ومنع عزت ، وأخذ فى تجهيز نحو تسعة وثلاثين طابوراً ، إلى أن حال بيننا وبينهم الله ، بما تداركنا من رحمته ، فكشف عنا الغمة ، ونجانا كما هو سنته مع عبادة المؤمنين ، وعكس عليهم القضية .

« ثالثها : كان بواسطة السيد « الشراعى » مع بعض إخواننا فأجبنا فكان الجواب منهم بالسكوت .

« رابعها : مع سلميان (باشا) متصرف عسير »[١] .

هكذا استعرض الإدريسى فى خطابه للإمام ، محاولات العثمانيين معه لعقد الصلح ، وأنه كان يرغب فى ذلك ، إلا أنهم كانوا دائماً يراوغون ويرفضون أو يسكتون . ولكنا نحب أن نوضح هنا حقيقة أشار إليها الإدريسى فى خطابه ، وقد تعمدها طبعًا ليذكر الإمام بها ، وهى أن الدولة حاولت المرور

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، جزء ٤ ، ص ٣٠٠ - ٣٠٣ (من كتاب الإدريسى إلى الإمام ، وقد حاولنا أثناء تناول النص أن نضع بعض الكلمات من عندنا بين أقواس زيادة فى الإيضاح.

بجيوشها عبر عسير لمهاجمة الإمـام من هذه الجهة ، ولكن الإدريسى تصدى لهم « وكان ما كان » كما جاء فى خطابه .

وهنا وبعد أن اتضح موقف كل فئة من الفئات المتنازعة فى اليمن ، نحب أن نؤكـد مرة أخرى ، أن العثمانيين رفضوا أن يعقـدوا صلحًا مع الإدريسى ، كما فعلوا مع الإمام . وكان للعثمانيين رأى خاص لابد من توضيحه هنا حتى يمكن متـابعة الأحـداث العثمانيـة العسيرية ، التـى أدت بالإدريسى إلى الانحيـاز إلى جانب الإيطاليين ثم الإنجليز .

ومما لا شك فيـه ، أن نقطـة الانطـلاق التى حـددت لكل منهما طـريقـه واتجاهه هى صلح « دعـان » فقد أثر هذا الصلح تأثيراً أعمق بكثير ممـا يتصوره البعض وجعل كـلا من الـزعيمين يتجـه اتجاهـــا مخالفًــا لاتجاه الآخـر تمام الاختلاف.

وقد شرح الأميرلاى إحسـان بك فى حديثه - سـابق الذكـر - مع مندوب جـريدة « المفيـد » البيروتيـة - والـذى نقلته المنـار - سيـاسـة عزت بـاشـا مع الإدريسى بعد عقـد الصلح مع الإمام ، فقـال : « إن فى عزم عزت بـاشا أن يجرد عليه (على الإدريسى) قوة من الجيش اليمنى (أى الذى فى اليمن) وسنبدأ عما قـريب الحركات العسكـرية فى عسير . ومـن رأى عزت بـاشا أن الإدريسى قـد ادعى «المهـدية » حـديثًا فإذا عقـد القائد معـه (مع الإدريسى) فنسبه ثـابت والإمـامة وراثيـة فى عائلتـه . فإنـه يخشى من ظهور مئـات أمثال الإدريسى أمـا الإمام يحيى ...»[1] . هـذا هو رأى الـدولـة الرسمى فى قضيـة الإدريسى ، فهم يعتبرونه من ناحية « حديث المهدويـة » ويقصدون بذلك من الناحية العملية ، أنه من الممكن القضاء عليه لأن أتباعه قليلين ، يمكن أن يقضوا عليهم دون أن

---

(١) المنار : المجلد ١٥ ، جزء ٢ ص ١٥٨ (من حديـث الأميرلاى إحسان بك بجريدة المفيد البيروتية) .

يصطدموا بتراث تاريخى ، ذى جذور عميقة للإدريسى أو لأنصاره أو لدعوته ، فهم يرون أنه من الأصوب القضاء عليه حتى لا يدعى غيره بالتالى بأن له حقوقًا فى بقعة ما فى الإمبراطورية ، ويطالب الدولة بالاعتراف بوضعه الخاص ورغم أن هذا الرأى منطقى فى حد ذاته ، إلا أنه تجريدى فى جوهره ، لا يمت إلى الواقع بصلة . فما الذى يضير الدولة ، إذا اعترفت بولاة محليين ، وهم أدرى بحكم بلادهم ، كما أنهم فى نفس الوقت ، يعترفون بسيادة الدولة عليهم . ولماذا لا تستعملهم الدولة كموظفين عندها ، فهم خير من الولاة الذين يرسلونهم من الآستانة . فهم أكثر خبرة وأقرب إلى قلوب الأهالى من الولاة الغرباء .

ولكن هذا التفكير ، وهو الاستعانة بأمراء محليين مثل الإدريسى وغيره ، يصطدم مباشرة بفكرة الدولة العامة عن نظام الحكم الجديد فى الإمبراطورية الذى يعتمد على المركزية والتتريك ، لذلك كانوا يحسون دائمًا بضرورة محاربة مثل هذه الأفكار والاتجاهات .

وعلى كل حال ، لقد استعدت الدولة فعلا لمحاربة الإدريسى . فكان هناك خطوة فى سنة ١٩١٢ لتطويق الإدريسى من الجنوب ومن الشمال ، وذلك بين قوة من الحجاز تحت قيادة فيصل بن شريف « مكة » وقوتين عثمانيتين تخرج إحداهما من صنعاء ، والثانية من « اللحية » . ولكن هذه العمليات الحربية المشتركة قد فشلت ، ويرجع هذا بالدرجة الأولى ، إلى نقص الإقدام الذى أظهرته الفرقة الشريفية . ومنذئذ رابطت قوات عثمانية على طول شاطئ عسير - من لحية إلى زهران - تأمينًا للحديدة ، ومنعاً لأى اتصال محتمل بين عسير وقبيلة الزرانيق فى تهامة اليمن ، وهى « قبيلة دائمة الثورة مما يزيد متاعب الأتراك هناك »[(١)] . وكان الأتراك قد أغروا الأمير فيصل بن الشريف حسين ، أنهم سيولونه إمارة عسير إذا تمكن من القضاء على

---

(١) Bury; Arabia Infelix, p. 35-36 .

الإدريسي » وفعلا حاول فيصل استنفار القبائل ضد الإدريسي ومحاربته ، ولكنه فشل وعاد فى أوائل سنة ١٩١٣ بخفى حنين[١] » .

اتصال الإدريسى بالإيطاليين :

والأحداث السابقة الذكر جاءت متأخرة عن اتصال الإدريسى بالإيطاليين وقد تعمدنا تأخير بحث نشأة هذه العلاقة - بينه وبين إيطاليا - وأسبابها وتطورها لأهميتها، وحتى تأخذ حقها من البحث ولأن العلاقة العثمانية العسيرية نفسها هى التى أدت إلى التقارب بين الإدريسى وبين إيطاليا.

ذكرنا أن السيد مصطفى عم الإدريسى ، قد حاصر « أبها » بعد عقد الصلح (سنة ١٩١١) وشدد عليها الحصار ثم احتلها بعد ذلك بقليل .

وكانت فيها حامية مؤلفة من ثلاثة آلاف جندى وثلاث بطاريات ، وعدة مدافع كبيرة ، كما هزم شريف « مكة » الذى أسرع لإعانة « أبها » وإنقاذ حاميتها[٢] . كما هاجم العسيريون مقدمة الجيش التركى ، وكانت تعسكر على بعد ثلاثة أميال من « جيزان » . وكانت مقدمة الجيش هذه مؤلفة من أربعة مدافع ، فقتلوا منها الكثير ، وكان القتال تقريبًا وجهًا لوجه . وقد هرب باقى الجيش التركى فى حالة غير نظامية إلى « جيزان » فتبعهم العرب . وقد استولى الثوار على ٤ مدافع ومدفعى « مكسيم » وألفى بندقية ، وعلى كثير من الذخائر والمهمات . بل مما زاد الأمر سوءاً ، أن ظهرت الكوليرا فى هذه المنطقة ، وأصيب بها حوالى الثمانين وتوفى فعلا أربعة وثلاثون ، كما انتشر الوباء أيضًا فى طوابير الجيش فى مدينة قنفدة »[٣] . ولكن الإمدادات بدأت تتوالى على عسير من الخارج . وفى ٢٠ يوليو ١٩١١ ،

---

(١) المؤيد : ٦٩٦٦ فى ٢١/ ٤/ ١٩١٣ ، ص ٦ .

(٢) المؤيد : ٦٣٨٠ فى السبت ٣/ ٦/ ١٩١١ (٦ جمادى الثانى ١٣٢٩ هـ) ص ٦

Bremond; Yemen et Saoudia , p. 77.

(٣) المؤيد : ٦٣٩٨ فى ٢٤/ ٦/ ١٩١١ ، ص ٦ .

استطاع الأتراك بمعاونة القبائل الموالية زحزحة ستة آلاف بدوى من شيعة الإدريسى كانوا حول « اللحية » ولكن الثوار كانوا لا يزالون يحتلون آبار «جيزان» مما كان يجبر الجنود على أن تجلب مياه الشرب إليها من عدن [١] . وبعد لأى استطاعت الدولة استرجاع مدينة « أبها » فتبع ذلك فرار الإدريسى إلى المرتفعات الجنوبية فى عسير[٢] . ويلخص الجرافى أحداث هذه الفترة التى دفعت بالإدريسى إلى التقارب مع إيطاليا فيقول : « وأرسل (الإدريسى) عمه السيد مصطفى سنة ١٣٢٨هـ لمحاصرة « أبها » فاستنجدت الدولة العثمانية بشريف « مكة » الحسين بن على ، فخرج من مكة فى شهر ربيع الثانى ١٣٢٩هـ وفك الحصار عن « أبها » واعتصم الإدريسى بجبال « فيفا » وفى ١٣٢٩هـ . أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية ، وأخذت فى احتلال طرابلس الغرب ، ثم حولت نظرها إلى البحر الأحمر ، وحاصرت ولاية اليمن ، وأطلقت مدافعها على أغلب موانئ اليمن ، ووقف الأسطول الإيطالى «بجازان» ولما بلغ الإدريسى ذلك ، نزل من « جبال فيفا » إلى « صبيا » وتخابر مع إيطاليا ، وأبدى استعداده لمساعدتها ، فأنزلت إليه كمية من المدافع والبنادق ، واستأنف هو الحرب مع الدولة العثمانية من جديد »[٣] .

ولكن لنا أن نتساءل الآن : لماذا اختارت إيطاليا اليمن وعسير مسرحًا لأعمالها الحربية ؟ ولماذا اختارت هذا الموقف بالذات ؟ ثم أخيراً لماذا تقرب كل من إيطاليا والإدريسى إلى بعضهما البعض ؟ .

ونقطة البدء للإجابة على هذه الأسئلة هى « حرب إيطاليا ضد طرابلس الغرب واحتلالها » فقد بدأت إيطاليا تأخذ أهبتها لاحتلال طرابلس الغرب

---

(١) المؤيد : ٦٤٣٢ فى ٢٧/ ٧/ ١٩١١ ، ص ٦ .

(٢) المؤيد : ٥٤٤٠ فى ١٢/ ٨/ ١٩١١، ص ٦.

(٣) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٤ .

وضمها إلى ممتلكـاتها كجزء من الخطة الاستعمارية الأوروبية التى وضحت بعد مؤتمر بـرلين سنة ١٨٧٨ ، والتى تـرمى إلى تقسيم أملاك « الـرجل المريض » فيما بينها . وقد وضح هذا فى سكوت الدول الأوروبية على أعمال إيطاليا الحربية هذه ضد الدولة العثمانيـة ، ولم تثر هذه الدول الاحتجاجات التقليديـة ضد إيطاليا ، كـالمحافظـة على كيان الإمبراطـورية العثمانيـة ، أو المحافظـة على توازن القـوى الدولى وغيرها . وقد أوضحت جريدة اللواء المصرية هذا السكوت غير الحيادى من جـانب الإنجليـز على أعمال إيطـاليـا الحربيـة بقـولها إنـه « أثنـاء الحرب الطـرابلسيـة ، وكـانت إنجلترا تحتل مصر ، أعلنت إنجلترا أن مصر تبقى على الحيـاد » وكـان هذا بـدون شك ، بقصـد منع اختراق الترك لـلأراضى المصريـة للوصول إلى طرابلس ، وذلك لتأمين جـانب الطليان من ناحية مصر فى الحقيقة «ولكن الإنجليز فى نفس الوقت كانـوا يسمحون للطليان بشراء الجمال من عدن على يـد وكيل لهم فيهـا . وهذا الـوكيل يبتـاع الجمال من العـرب ، دون أن يعلم العرب إلى أين ترسل تلك الجمال ، وكانت الحكومة المحلية فى عدن تغض النظر عن شراء الطليان الجمال ، وتأذن لهم بشحنها . فهل يعد هذا خرقًا للحياد أم لا؟ وهل يصح أن يضيق الخنـاق على العثمانيين فى مصر لحفظ الحيـاد ثم تسكت الحكومة الإنجليزيـة عن اختراق الطليان للحياد فى عدن »[(١)] . وإن كانت هذه الأحـداث خارجـة عن نطاق بحثنـا ، إلا أننـا يجب أن نقول إن إيطـاليا ، وقـد خافت من سريان نار الحرب ضدها إلى باقى العالم العربى تلبية لدعوة الخلافـة العثمانية وإشغـالا منها للقـوى العثمانية المنهكـة فى باقـى أجزاء إمبراطـوريتها أسرعت إلى فتح جبهة حربية أخـــرى فى اليمن وعسير لإشغال الدولة العثمانية وإضعاف مقاومتها بتشتيت مجهوداتهـــا الحربيـــة. ويعبر الواســعى عن هذا بقوله « وفى هـــذه السنـــة ١٣٣٠ هـ (١٩١٢ م) حاصرت إيطاليا سواحل اليمن

---

(١) اللواء : ٣٨٢٢ فى ٥-٣-١٩١٢ (١٦ ربيع الأول ١٣٢٠هـ) ص ٤ .

من جهة البحر الأحمر ، وحصل لتجار الحديدة ضيق شديد ، ورميت الحديدة من البحر ، وقصدت إيطاليا بذلك إشغال الدولة عن طرابلس لئلا تحصل غارة، لأنه لما حصل حرب طرابلس ، ورد تلغراف لعزت باشا إلى صنعاء بذلك»(١) . ولكن فى الحقيقة لم يجد الإيطاليون ما يتطلب منهم عملا كثيراً فى البحر الأحمر ، فقد حاصروا الموانئ ، ما عدا تلك التى فى قبضة الإدريسى ، كما أنهم ضربوا مدينة الشيخ سعيد ، المقابلة لبريم ، بقليل من القنابل وإن لم يحدث هذا خسائر كبيرة(٢) . كما أن فى خطاب الإدريسى للإمام سالف الذكر ، أنهم أغرقوا بعض سفن خفر السواحل العثمانية .

ولكنا نحب أن نقول هنا ، إن هجوم إيطاليا على السواحل العربية لم يكن إلا جزء من خطة عامة ترمى إلى تقليم أظافر الدولة العثمانية ، وذلك لتسهيل عملية احتلال طرابلس الغرب ، فقد أطلقت إيطاليا النيران على ميناء بيروت ، وذلك بحجة وجود سفينتين حربيتين صغيرتين فى الميناء ، وأغرقتهما فعلا ، ولكن الدول الأوروبية كلها احتجت على هذا العمل لأهمية ميناء بيروت التجارية(٣) .

أما لماذا تقربت إيطاليا من الإدريسى فى هذه الآونة ، واستطاعت استغلاله دون الإمام فهذا ما يجب توضيحه . عرفنا أن الإدريسى بعد أن نشر الأمن فى عسير نظم موانيها وشجع تجارتها ، وانتظمت هذه التجارة مع «مصوع» و « عدن » . فكانت موانيه ، لعدة سنوات ، على علاقات وطيدة مع « عصب » و « مصوع » - الميناءان الإيطاليان على الشاطئ الأفريقى المواجه لعسير - فليس غريبًا حينذاك أن كانت إيطاليا تتطلع فى لهفة إلى الوثوب

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٤٦ .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, p. 126.

(٣) اللواء : ١٨٣٢ فى ٥/ ٣/ ١٩١٢ (١٦ ربيع الأول ١٣٣٠هـ) ص ٤ .

إلى الشواطئ الآسيوية العربية المواجهة لأريتريا ، مستعمرتها الأفريقية .

وقد ذكر جيكوب عن كاتب ألمانى فى سنة ١٩١٣ ، معبراً عن هذه الرغبات الإيطالية فقال : « منذ قرن مضى استطاع الإنجليز أن يجعلوا أنفسهم أسياداً فى عدن .. والآن ترمى إيطاليا نظراتها المتطلعة إلى شاطئ العربية الأخضر»[١] . فكأن رغبة إيطاليا فى الوصول إلى هذا الشاطئ كانت رغبة قديمة ، ولها جذورها وأسبابها ، وبناء عليه ، قامت باستغلال هذه الفرصة للتقرب من الإدريسى للاستفادة من موانيه ، ومن منتجات بلاده . ولكن إيطاليا اختارت هذه اللحظة بالذات - لهذا التقرب - لسبب حربى أكثر منه تجارى . حقيقة أنها خافت على التجارة من الضياع ، إذا ضاعت هذه الموانئ من أيدى الإدريسى واحتلتها تركيا ، ولكن إيطاليا خافت فى المقام الأول من أن تستعمل تركيا هذه الموانئ - إذا احتلتها - ضدها ، وتثير لها المتاعب فى مستعمرتها «أريتريا » فبادرت هى بالاتصال بالإدريسى .

أسباب الاتصال :

وهنا يجب أن نعرف أيضًا : لماذا قبل الإدريسى الاتصال بإيطاليا ، رغم اتجاهه الدينى ، وطبقًا لرأيه الخاص ؟

وفى رأينا أن الدولة العثمانية هى السبب فى هذا التقارب بين إيطاليا والإدريسى ، ولا نؤكد هذا الشيء إلا لأن « الدولة تركته خارج الحلقة الإسلامية»[٢] . فقد عقدت الدولة صلحًا مع الإمام ، ولم تقبل أن تفعل نفس الشيء مع الإدريسى ، بل كان رأيها هو القضاء عليه نهائيًا ، وما كانت المفاوضات أو التقارب الذى كان يحدث بينهما إلا كسبًا للوقت ، أو تمييعًا

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 127 .

(٢) Ibid ; p. 152

للثورات العنيفة التى كان يعلنها ضد الدولة . لذلك وجد الرجل نفسه وحيداً فى الميدان . فالإمام - صديقة القديم - أصبح عدوًّا له بعد عقده الصلح (سنة ١٩١١) . والشريف حسين من الشمال يعاود الكرة بعد الأخرى فى الهجوم عليه، هذا فضلا عن موقف الدولة منه . لذلك كان الإدريسى لا يرى حرجًا فى الاستعانة « بالشيطان » لإنقاذ نفسه من هذا الموقف الصعب ، وضد هذا الحصار المضروب حوله من جميع الجهات . وهذا ما حدث فعلا ، وقد عبر جيكوب عن هذا بقوله « إن الإدريسى كان يتحين الفرصة للحصول على مساعدة إيطاليا[١] » .

ولندع الرجل يدافع عن نفسه ، وذلك بما جاء فى كتابه - السابق الذكر - للإمام يحيى الذى يدعوه إلى الاتفاق مع الدولة ومنابذة الأجانب ، وهو فى حديثه هذا يذكر أنه حاول الاتصال بالدولة ، والاتفاق معها ، ولكنها كانت تصده دائمًا ، أو تحاول المكر به . فيقول بعد ذكر المرات الأربع التى اتصلت به الدولة للمفاوضة ، وفشل هذه المحاولات « .. ثم فى هذه المدة مع ما رأينا من فتك الطليان بهم ، أخذنا العطف فأمسكنا كل حركة ، وكتبنا لمن فى مفرزه «ميدى »[٢] إن دهمكم شىء فلكم منا عون ، فكان منهم أن محمد على(باشا) مر بطريق « القنفدة » .. وأخذ يحرق ما وجد فى طريقه من بيوت السادات العلماء ، لأن هذا الرجل أكبر عداوته لأهل الدين ، لأن ما ناله من شرف فى الأستانة (كان) بسبب شنقه لعالم فى «أطنة » أيام تنازع وقع بين المسلمين والنصارى هناك ، ولما قدم « جازان » بالعساكر لم يختر لهم (خسته خانه) إلا جامع تلك البلدة ، ولا يهمه أن تلوث بالنجاسة ، وتعطلت إقامة الجمعة فيه ، وكأنه يظن أن هذه الأسباب فى ارتزاقة النياشين والرتب من

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, d. 127.

(٢) « مفرزة » تعنى حامية صغيرة ، و« ميدى » ميناء يقع على حدود اليمن الشمالية حالياً .

باب « مـن رزق من شيء فليلزمـه » وهذا هـو السبب فى تجهيز مـا وجهناه من الجند إلى الشام(١) ، لأجل مـدافعة هـذا الطغيان ، والمحافظـة على مراكـز أهل الدين والإيمان » .

« وقد حصلت المذاكـرة بيننا وبين هؤلاء الإخوان فى هـذه الأحوال ، إلى أن ساق بنـا الكلام إلى مفـرزة « ميدى » وأخبرنـاهـم أن الطليان قـد ضرب (كذا) قلاع الـدولة ومـراكزها من بـاب المندب إلى جـدة ، وهد (كـذا) تلك الحصون بمدافعه المسلطة ولم يبق إلا هذه القلعـة ، مع أن شيخ البلد التى فيها قد سبقت له جناية من الطليان بواسطـة شهادة سنبوك (سفينة شراعية) طال الخلاف بين الترك والطليـان فيـه ، وتـوقف الأمـر على شهادة هـذا الشيخ وتهددتـه الـدولـة بالشهادة لها فشهد . فإذا قصد الطليان هذه المفرزة ، لا يقتصر عليها بل يتعداها إلى تلك البلد لما جناه شيخها عليهم ، وسابقًا قـد ضربوا هذه البلدة كما عرفته ، ومن المشاهد أن هـذه العساكر ، كجملة من فى كل مـوضع ، إذا ضرب الطليان المواقع هربوا من مواقعهم تلك إلى محلات العـامة ، ولم يدافعوا ولا يضرب مدفع واحد . وقد ضربت هذه القلعة من نحو شهـــر ، وخرجوا منها كما ذكرنا ، وهذا مما أوقـع الناس فى العجب ، فإن الـدولة كما عجـزت عن إصلاح الـداخلية كما يـرجى منها ، عجـزت عن حفظ الخارجيـة والقيام بـا لمدافعـةعلى الرعايـــا ممن قصدهـــم بسوء ، فعجـزت الدولـــة الآن عن هذا وهـذا فما بقى لهـــم إلا أن يسعـــوا النـاس بحسن الخلق لو كانوا يعقلـــون . ثم إنه قد اشتـــد الخطـــب من الطليـــان بمحاصرتهم للحـديدة إلى حالـــة يخشـــى معهـــا أن تحتـــل الحـــديدة ، فتكلمنـــا مع العسكـر الذين فى القلعـة بأن فى بقـائهم بها ضرر

---

(١) يقصد بها هنا الحدود الشمالية ، والشام تعنى الشمال .

(٢) يقد رسل الإمام الذين حملوا الرسالة إليه ، وإنه قد تحدث إليهم فى كل هذه الشئون .

على الإسلام والمسلمين لأن الحديدة إذا احتلت يتبعها ملحقاتها ، من ذلك هذه القلعة ومن المعلوم حسب أصولهم أنه إذا احتلت الحديدة وجاء المحتلون ببوابيرهم لاستلام هذه النقطة تبعًا للمركز ، ومعهم الإذن بالتسليم من كبراء الترك، فإن من هذه النقطة لا يلتفت إلى الإسلام ولا إلى المسلمين ، ولا يهتمون بأمر الوطن بل حالا يعملون الترتيب اللازم فى التسليم إلى المحتلين ، ولو بطريق الحرب مع أهل الوطن بأن يضربوا من القلاع ، وتضرب البوابير من الساحل حتى يتصلوا بالمحتلين ، ويدفعوا لهم موقع الحرب ويسلموا أهل الوطن إلى الأسر ، كما فعلوا فى بنى غازى إحدى متصرفيات طرابلس فإن أهلها عشية احتلال الطليان لما رأوا بوابير الطليان بالساحل أسرعوا إلى مركز الحكومة ليستعدوا للقتال ويودعوا أهاليهم وأموالهم فى مكان أمين فمنعهم الأتراك ، وألزموهم الطمأنينة فرجعوا إلى بيوتهم فلما جن الليل لم يشعروا إلا والمتصرفية بأجمعها صارت عساكر طليانية فقاموا للدفاع ، ولم يمكن الخروج من المنازل إلا للرجال دون النساء والذرية ، وهم الآن تحت قبضة الطليان ، واشتهر أن هذه المعاملة من العساكر بأسباب ما أخذه كبراؤهم من الطليان خفية وبأسباب ذلك استقال الصدر (يقصد رئيس الوزراء) فتبين أن بقاءهم حينئذ فى المواقع الحربية ، لا للدفاع وحماية الثغور ، كما هو اللازم لمن يتولى إمارة المسلمين ، بل للأغراض الفانية ، وبيع البلاد للمصلحة الشخصية فمن ينع الإسلام فلينعه من الترك .. فلما خاطبناهم فى النزول معنا ليبقوا مع العساكر العربية جنبًا بجنب حتى إذا احتلت « الحديدة » ويكون موقع المفرزه « الميديه » بأيدى المسلمين ، يؤدون فيه ما أوجب الله عليهم ، وإن امتنعوا فلا إلزام ، وإن أرادوا اللحاق بكبرائهم فلهم ذلك ، فأبوا هذا وهذا ﴿ **ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله** ﴾ . والعجب من هؤلاء الناس يذكرون أننا السبب فى تركهم للمدافعة ، كما روى عنهم السادة الواصلون ، فليت شعرى من أى وجه . وأى قرب بيننا وبينهم فى المسافة أن يقولوا نخشى أن نصلى بنارين ، إذ فى الأقل بيننا وبين « الحديدة » ثمانية أيام ،

ولو سلـم هذا فما يكون جـوابهم فى احتلال الطليـان لطرابلس . ومـا المانع من المدافعة هنـاك ، مع أن أهل تلك الجهة من المخلصين للحكومة بل هم قـائمون بـالقتال للمحتلين من (حتى) الآن . ومن العجـاب أن الحكومـة قبل أن يحتل المحتلون ، رفعت الأسلحـة والوالى والعسكـر إلا شيئًا قليـلا ، وبعد ذلك لم تمد المجاهدين ولا بدرهم أو نفر »[1] .

بعد عـرض هذا الخطاب الهام ، نقـول إن الإدريسى تعرض فيـه لأمرين : محاولته التقـرب من الترك ، وإسداء النصح لهم من ناحيـة ، ومهاجمته الشـديدة لسيـاستهم ، ولعجزهـم أمام القـوى الأجنبيـة ، بل ما اعتبره خيـانتهم القضيـة الإسلامية مقابل « أغراض فانية » كما قـال ، من ناحية ثانية - تلك القضية التى يدعون أنه خانها لأنه اتصل بالإيطاليين .

وقد أعجبنا فعلا للباقته وذكائه وسعة اطلاعه السياسى . فمن المعروف أن الصدر الأعظم (رئيس وزراء تركيا) كان قد استقال بسبب الحرب الطرابلسية ، وأنه اتهم بأنه متواطئ مع الإيطاليين . هذا فضلا عن أن الأتراك كانوا قد سحبوا كثيراً من حامية طرابلس ، وأرسلوها لليمن ، لمحاربة الإمام والإدريسى .

كيفية الاتصال ونتائجه :

بقى أن نعـرف كيف اتصل الإدريسى بـإيطـاليـا ، وذلك بعـد أن درسنـا أسباب هذا الاتصال ودوافعه . ويشرح الواسعى هـذه الكيفية ، ونذكر هنا نص ما قـاله لأن لنـا بعض التعليقـات على قوله إلى جـانب أهميتـه : « وعند إقـامته (يقصد الإدريسى) بمصر كان له صلة بمحمـد على علوى بك ، مترجم إيطاليا فى دار المفـوضيـة الإيطـالى بـالقـاهـرة ، وهـذه الصلـة والصـداقـة

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، جزء ٤ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٦ (من رسالة الإدريسى إلى الإمام) .

كـانت هي السبب في ظهور نجمـه في عـالم السياسـة . وفي هـذا التاريخ سنـة ١٣٢٣هـ (كذا) كـانت الدولـة العثمانيـة مشتبكة بحـرب مع إيطاليـا لأجل طرابلس الغرب ، ولما كانت حكومة إيطـاليا أرادت إشغال الدولة عنها ، رغبت في إشعال نار جديدة في جهة من الجهـات التابعة للدولة ، فسعى رئيس وزرائها في إضرام نـار في تهامـة ، وقـام محمـد علي علـوي بـك بمـذاكـرة السيـد محمـد الإدريسي فقبل تنفيـذ هـذا المشروع ، خصوصًـا وأن تهامـة تخضع لهذه العائلـة (الإدريسيـة) لما لجده السيد أحمد من الاعتقـاد المشهـور لديهم ، ومع كـون أهل تلك البلاد نـافرة غـاضبة على المأمـورين من الدولة العثمـانيـة من الظلم والجور والفسق وارتكاب المنكرات وترك الواجبات ، فمـن هنا عرف السيد محمد سنوح هذه الفرصة ، فـوافق القيام بمنابذة الدولة في تهامة ، بعـد أن كفلت له الحكومة الإيطالية كل ما يحتاجه من مال وذخيرة وسلاح ومؤازرة ومناصرة في البر والبحر. وكانت تمده من « مصوع » بواسطة بعض مسلميهـا كالشيخ سالم مدير الجمرك، والشيخ طـاهـر الشنيتي الخبير بـاليمن ، والصـديق الحميم لـلأدارسـة ونشبت (كذا) القتال فـأخذ « ميدى » و « جيزان » وكانـت الحكومة الإيطاليـة تساعده من البحر بـرمي القنابل والـرصاص ، وهـو يحاصر العساكـر العثمانية من البر ، حتى استولى على تهامة ، والأكثر من سواحلها ، وجرت حروب كثيرة »[١].

يبين الواسعي كيف تم الاتصال بين الإدريسي وإيطاليا ، ويذكر أن ذلك كـان عن طريق محمـد علي علوي بك ، ونحن وإن كنـا لا نرفض هـذه الروايـة والدور الـذي لعبه محمد علي علـوي لأنه ليس لـدينا ما يمكننـا من رفضها من وثـائق ومـراجع ، إلا أنه يمكن منـاقشتهـا والتقليل من صحتهـا ، ونستطيع أن نقول إن الاتصال كان يمكن أن يتم أيضًا عن طريق أحد التجار الكثيرين (من المسلمين) أصحـاب المصـالح في « مصـوع » و «عسير » والـذين يتصلـون

---

(١) الواسعي : تاريخ اليمن ، ص ٣٤١.

- لظروف تجارتهم - بالطرفين فهذا الطريق أسهل ، لأن الإدريسى لم يقابل محمد على علوى إلا فى القاهرة أثناء وجوده بها منذ سنوات ، قبل قيام هذه الحرب ، كما أن السيد الإدريسى لم يغادر عسير ثانية بعد رجوعه من رحلته الطويلة التعليمية ، والتى تعرف فيها إلى محمد على علوى . ثم إنه عند قيام الحرب الطرابلسية ، ومحاصرة إيطاليا لسواحل عسير واليمن كان الإدريسى ملتجئًا إلى جبال عسير الجنوبية ، بعد أن استرجع العثمانيون ، بمعاونة الشريف حسين ، مدينة « أبها » . ولهذا كله نرجح أن الاتصال تم سرًّا عن طريق أحد التجار أو الأتباع المخلصين أصحاب الخبرة المتصلين بكلا الطرفين ، وإن كان هذا أيضًا لا يعنى أننا نرفض تمامًا رواية الواسعى كما قلنا . ونلاحظ أن الواسعى يتكلم عن الإدريسى - فى هذه الفترة - بروح التحيز ، ويظهر هذا بوضوح فى باقى النص مما يدعونا إلى التحفظ حيث إن الواسعى يحاول إظهار الإدريسى بمظهر الخارج المتمرد على الجماعة الإسلامية (٢).

بعد هذا العرض للعلاقة بين إيطاليا والإدريسى ، نستطيع أن نستخلص نتائجها ونهايتها . فواضح من طبيعة هذه العلاقة أنها مؤقتة ، تمت بين الطرفين لوحدة الغاية فقط ، وهى العداء للدولة العثمانية فى وقت معين . ولكن سرعان ما تمكنت إيطاليا من احتلال طرابلس الغرب ، وأجبرت العثمانيين على الاعتراف باحتلالها هذا فى صلح مهين ، لم يقبله الوطنيون هناك وواصلوا الحرب ضد إيطاليا تحت زعامة السنوسيين . وأدى هذا الصلح إلى انتفاء الغرض من ارتباطهم بالإدريسى ، فتخلوا عنه ، وتركوه وحيداً مما دعاه إلى التلاقى مع قوة أجنبية أخرى، هى إنجلترا ، قوة بدأت أغراضها تتحد مع

---

(١) فى النص السابق خطأ - لعله مطبعى - فى تاريخ قيام الحرب الطرابلسية إذ يذكر أنها قامت سنة ١٣٢٣ والمعروف أنها كانت فى أواخر سنة ١٣٢٩هـ .

أغراضه ، واتفقت معه بالنسبة لموقفها الواحد من الترك . وحدث ذلك التقارب لأن انتهاء النزاع الإيطالى العثمانى لم يكن يعنى نهاية النزاع العثمانى الإدريسى ، وكان معنى هذا أن بدأ الإدريسى حلقة جديدة من تاريخه كانت انجلترا هى المساعد الخارجى له فيها . وقد عبر الواسعى عن هذه النهاية فقال كانت إيطاليا قد شدت أزره (الإدريسى) وعضدته إبان « حرب الدولة العثمانية مع طرابلس الغرب[١]، فلما انتهت الحرب قلبت إيطاليا للإدريسى ظهر المجن ، فانتهت تلك الصداقة بانتهاء الحرب المذكورة .فلما رأى حرج موقفه ، وليس له مساعد ولا معاضد ، والبلاد تخرج من يده التجأ إلى الإنقليز (كذا) وصادقها وبقى حتى آخر حياته وانكلترى تمده بالذخيرة والمال ، للغرض السياسى الذى لا يخفى » . ويؤكد جيكوب نفس هذه النتيجة ، فيقول إنه ناقش أمر الإدريسى سنة ١٩١٨ مع حاكم أريتريا ، فقال له إنهم استعانوا بالإدريسى لإشغال الترك فى هذه الجهات ، وإنه عندما عقد الصلح لم يعد لهم فائدة كبيرة مع هذا المغامر الذى قام بعمل مفيد فى وقت معين[٣]. ولكن جيكوب نفسه يقول فى مكان آخر قبل ذلك : إن الإدريسى لم يساعد الإيطاليين مساعدة فعالة حيث كان مشغولا بمحاربة العثمانيين فى « أبها » عاصمة عسير ، وكان يحاصر حاميتها . وأن القوات المكية والتركية أتت لرفع هذا الحصار ، وأنها عند وصولها إلى « حالى » (بالقرب من أبها) وجدوا كمية كبيرة من الأسلحة مما حصل عليها من إنجلترا وإيطاليا، أو من « الحكومات التى يهمها انهيار الحكومة التركية » كما

(١) المقصود هو « الدولة العثمانية مع إيطاليا فى طرابلس الغرب » .

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٤٣ .

(٣) Jacob ; Kings of Arabia, p. 134 .

قال المكيون حينئذ[1] ولكننا نخالف جيكوب فى تقييمه لمساعدة الإدريسى للإيطاليين ، فلا ندرى لماذا قال إن مساعدته كانت غير فعالة ، وما الذى كان يطلب منه عمله . فنحن نعتقد أن محاربته للأتراك ، وإشغالهم داخل عسير كانت أكبر مساعدة ، أو هى الغرض الأوحد المطلوب منه ، والذى يستطيع أن يقوم به هو .

اختلاف موقف الإمام :

أما الإمام فقد اتخذ موقفًا مخالفًا - كما قلنا - عما اتخذه الإدريسى ، من مسألة الوقوف إلى جانب الدولة العثمانية أو ضدها . وقد قلنا كذلك إن صلح «دعان » كان نقطة الإنطلاق التى اختلف عندها كل من الزعيمين بالنسبة لهذه المسألة . وقد اتخذ الإمام موقفًا إسلاميًّا فى مظهره ، وانحاز إلى جانب الدولة العثمانية . وكانت الحرب الإيطاليه العثمانية هى المحك الأول الذى أوضح هذا الموقف عند الإمام . وقد عبر هو عن هذا الموقف فى كتابه إلى السلطان أحمد - سلطان لحج - عن الصلح ، فقال : « إن الصلح هو ثمرة مجهود أجدادنا العظام » ثم أضاف « إننا وخلفاءنا سنحافظ على عظمة السلطان ، وسنقدم كل تعاون لازم .. وشملت الاتفاقية بصرف النظر عن الاختلافات النظرية ، إننا نعمل على وحدة الإسلام ، وإننا نقاوم عدوان الأجانب ، كما فى حالة اعتداءات إيطاليا على طرابلس »[2] . وقد اتخذ الإمام موقفًا إيجابيًّا ، أو بالأحرى هناك رواية تدل على أنه استعد لاتخاذ موقف إيجابى ، وهى التى سبق أن أشرنا إليها إشارة عابرة قبل ذلك . فيقول الواسعى بعد أن يذكر قيام الحرب الطرابلسية واصفًا موقف الإمام ، بأن الإمام كتب إلى

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 124.

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٤٦ .

الباب العالى يقـول : « إنى مستعد بإرسال مائة ألف كاملـة العدة والعدد»(١) .
وقد ردد البعض هذه القصة ، ففى رسالة الضـابط العثمانى السالفة الذكر ، إلى جـريدة « الحقيقـة » البيروتية التى يصف فيهـا الصلح جـاء فيها : « إنـه لما بلغ الإمام إعـلان إيطاليـا الحرب على الدولـة ، أرسل نبأ بـرقيًّا إلى مقــــام الخلافة العظمى ، يقول إنه مستعد لتقديم مائة ألف مقاتل ، كاملى العدة والعدد »(٢) .

وهذه الـرواية على كثرة ترديـدها وشيوعها ، إلا أن لنـا بعض الاعتراضات عليها . نستطيع أن نقول إن الإمام قد يكون حسن النية فعلا تجاه الدولة العثمانية وأنه تمنى أن يساعدها فى محنتهـا ، إلا أنه كان هناك بعض الظروف التى تعترض تنفيذ أمنيتـه . فمن نـاحية كانـت سلطة الإمامـة الفعلية لا تمتـد إلا على بعض القبـائل الزيـدية ، وحتى هـذه القبـائل كان يشك فى تحمسهـا للحرب خـارج اليمن، وهذا ممـا يجعلنا نشك فى قيمة العدد الـوارد فى هذه الرواية . ومن نـاحية أخـرى . كانت السفـن الإيطاليـة الحربيـة ، تحاصر الشواطئ اليمنيـة ، كما أنها حطمت بعض السفن العثمانيـة التى تخفر هـذه السواحل . ومن نـاحية ثـالثة ، كانت الدولة العثمانية لا تملك السفن الكـافية لنقل مثل هذا العدد من الجنود ، إذ إننا نذكر أنها كانت تستأجـر بعض السفن الأجنبية لنقل جنودها إلى اليمن .
وقد عبر عما ذهبنا إليـه كاتب إنكليزى - كان فى اليمن أثنـــاء حصار صنعاء ، وشهـد الأحداث التى تلتهـا - فى مقالـة له فى التيمس بعـد رجوعـه إلى إنجلترا ونقلتها المنـار - فقال : « ولا يستطيع الـواقف على حقيقـــة أحوال اليمن ، أن يقابــل الأنباء التى وردت من الآستانة عن استـــعداد الإمـــام لتقـديم مائـة ألف مقـــاتــل ليحاربـوا الإيطاليين فى طرابلس الغرب إلا بـالابتسام ، وذلك

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٤٦ .
(٢) المنار : المجلد ١٥ ، جزء ، ص ١٤٢ .
(٣) نفس المرجع : ص ١٠٦ .

لأن سلطة الإمام اسمية أكثر مما هى فعلية ولأن الحكومة العثمانية تعجز عن نقل هؤلاء المتطوعين إلى ساحة الحرب » . ولكن هذا لا يؤثر فى بيان موقف الإمام على كل حال ، وأنه متعاطف مع العثمانية فى هذه القضية ، وإن كنا نؤمن مع جيكوب ، الذى يقول عن تعاطف الإمام مع الدولة أنه كان سلبيًا ، وأنه ظل كالمتفرج ، بينما كان يحاول تدعيم أغراضه فى اليمن[١] ، وهذا التعاطف إلى جانب الدولة يظهر فى موقف آخر ، فقد حاولت إيطاليا الاتصال بالإمام عن طريق سلطان لحج ، ولكن هذا لم يجد نفعًا ، إذ صدهم الإمام ، واتضح هذا فى رده على سلطان لحج ، وكان يرى أن فى تقدم الإيطاليين محاولة من جانب القوى الأوروبية لضرب الإسلام فى الجزيرة العربية ، ثم قال « إنهم (الإيطاليون) يتخيلون أن كل ما هو أبيض أمامهم قطعة من الدهن »[٢] وهو يشير بذلك إلى أنه شخصية قوية لا يمكن استهواؤها كما فعل الإيطاليون بالإدريسى .

ونحن لا نستغرب هذا الموقف عن الإمام ، فهو فضلا عن تعاهده مع الدولة العثمانية فى صلح « دعان » سنة ١٩١١ ، فإن كل مصالحه الخاصة ، وكل إمكانيات تحقيقها ، تتمثل فى بقائه إلى جانب الدولة العثمانية ، فهى تدفع له مرتبًا شهريًا عاليًا ، يساعده على مواجهة أعبائه المتزايدة ، وتحقيق أغراضه فى اليمن ، كما أنها تقوم بمحاربة الإدريسى فى عسير . هذا بالإضافة إلى أن إيطاليا دولة أجنبية ، غير إسلامية ، فالتحالف معها إضعاف لمركزه بصفته زعيما دينيًا إسلاميًا . ومن المعروف أن إيطاليا كانت أقوى وأكثر تنظيما وحيوية من الدولة العثمانية ، لذلك كان يخشى أن يؤدى التحالف معها ، ومناصرتها على الدولة العثمانية ، إلى سيطرتها عليه بالتالى ، مما لا يدع له مجالا

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia , p. 141-142.

(٢) Ibid ; p. 128 .

لتحقيق أغراضه التوسعية الاستقلالية فى اليمن ، والتى يمكن أن يحققها فى ظل الدولة العثمانية المنهارة الآيلة إلى السقوط .

موقف الإدريسى من الإمام والعثمانيين بعد الصلح :

بعد أن عرضنا الكثير من الملابسات والظروف التى أحاطت العلاقات العثمانية الإمامية الإدريسية بعد عقد الصلح ، يمكننا أن نتتبع الخط الذى سارت فيه هذه العلاقات .

عرفنا أن الإدريسى أسرع بإعلان الثورة على الدولة ، فى نفس الشهر الذى عقد فيه الإمام الصلح معها ، وأنه نجح فى احتلال « أبها » عاصمة العثمانيين فى عسير ، وإن كانوا قد استردوها بعد ذلك بمعونة الشريف حسين . وتعددت الحرب بينهما واشتدت ، إلا أن الإدريسى - وقد أخرجه العثمانيون من « أبها » - لجأ إلى جبال عسير الجنوبية ، واتخذها حصنًا له ، وكان ذلك فى شعبان ١٣٢٩هـ (أغسطس ١٩١١) . وظل الحال هكذا مجمداً حتى قامت الحرب الإيطالية العثمانية فى طرابلس الغرب ، فى ٢٩ سبتمبر ١٩١١ (٦ شوال ١٣٢٩هـ) فبدأت إيطاليا أعمالها الحربية على سواحل اليمن وعسير ، وعندئذ أرسل سليمان باشا متصرف عسير خطابا طويلا إلى الإدريسى مؤرخ فى ٢١ شوال ١٣٢٩هـ (١٤ أكتوبر ١٩١١) يدعوه فيه إلى « التصالح مع الدولة العثمانية ضد أعداء الدين » . وقد جاء فيه بعد البسملة ، وبعض الألقاب والتحيات ، وبعض الآيات الدينية التى تحثه على الاتفاق مع الدولة :

« ولا نزيدكم علمًا بهذه العجالة فأنتم لستم كغيركم بل أنتم بدرجة العلم فهلم أيها الأخ فى الدين ، نسعى بما فيه صلاح المسلمين ، وقد بلغنا ما حل بإخواننا المسلمين فى الجهات ، فواجب علينا معشر الإسلام ، الذب عن الوطن، الذب عن العرض ، عن النفس ، عن الدين .

« ويعفو الله عما سلف ، فبادر لندفع هذه البلية ، ونكون يداً واحدة على حفظ حقوق المسلمين . إن الأمة الإسلامية فى أقطار الدنيا ناظرة إلينا ، وعندها الظن الجميل بتعاوننا وتناصرنا ، وها أنا انتظر منك الجواب الشافى الذى يكون فيه حفظ شرف الإسلام ، فإن أجبت فأرسل لنا بسرعة هيئة تعتمدون عليها لنتخابر معها بما يصلح ، وإن شئت بين لنا معا لمكم لدفع أعداء الدين ، فيجتمع الرأى المصيب بما فيه الصلاح إن شاء الله . وإنى عازم بحول الله على مدافعة أعداء الدين ، والجهاد أمام المسلمين مع ما لدى من قوة تزيد عن عشرين ألفًا . ونحن بهذا العزم ، ولو فنى منا الصغير والكبير ، وعلى الله توكلنا وإليه المصير ، فأسرعوا إلينا بالجواب وفقنا وإياكم للصواب ، والسلام »(١)

ويلاحظ على هذا الخطاب الصيغة الدينية الواضحة ، فقد اعتمد سلميان باشا على هذا الميل عند الإدريسى وخاطبه به ، مع تذكيره دائمًا بأن الإسلام فى خطر ، وأنه لا بد من الاتحاد أو التعاون لخدمة هذه القضية الواحدة . عندئذ رد الإدريسى ، دون أن يتوانى ، بكتاب طويل أيضًا مؤرخ فى آخر شوال عام ١٣٢٩هـ - أى فى نفس الشهر - وبدأه كذلك بالبداية الإسلامية التقليدية ، وتكلم كثيراً عن حزنه وأسفه لما بين المسلمين من تنازع وشقاق ، كما ذكر فى كتابه أيضا الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة على ضرورة التآخى والتحابب بين المسلمين بأنفسهم ، إذ ورد كتابكم الكريم ، مسفراً عما تحدو إليه الرغائب من الدعوة للاتحاد فانشرح البال وأسرعت إلى داعيك .. وما ذكرتم من الهيئة ، فقد أرسلنا إليكم أخانا محمد بن يحيى ، ومعه جماعة يتوجهون إلى « رجال ألمع » ولا تطمئن نفسه بالدخول إلى

(١) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٥ ، ص ٣٨٨-٣٨٩ ، (من كتاب متصرف عسير إلى الإدريسى) .

« أبها » فيتفق بجانبكم بأطراف « ألمع الشام » وتحصل المذاكرة .. وإن شرفتم بالقدوم فأهلا وسهلا وغيرنا وغيركم لا يكاد بهذه المقاصد أن يقوم ، ولعلنا أن نكون السبب فى كشف هذه المشاكل من جميع الوجود فى أقرب وقت عاجل ، فترتاح الدولة لا فى هذه الديار بل فى جميع الأقطار والأمصار ، والأمور وإن تشعبت فإن مرجعها إلى الله وبيده الحركة والسكون[1] .. » . وهكذا اتصل الطرفان واتحدت رغبتهم على أساس « خدمة الدين والاتحاد ضد أعداء الإسلام» وهذا يعنى بالتالى أن الحرب الطرابلسية كانت - عند قيامها على الأقل - دافعًا لتلاقى الطرفين ، وتقابلهما للمفاوضة والصلح لمواجهة هذا الخطر الإيطالى.

ويؤكد هذه الرغبة ويثبتها ، وخاصة عند الإدريسى ، أو قل عند الطرفين أن الإدريسى أرسل فعلا إلى قائد حامية « ميدى » كتابًا يعرض فيه التعاون ، مؤرخ فى ٢٣ شوال عام ١٣٢٩ هـ[2] ، فرد عليه القائد يخبره أنه أرسل صورة من كتابه إلى الآستانة ، وأنه سيخبره بردها عند وروده .

كما ختم هذا القائد كتابه بقوله « وربنا يؤلف بين القلوب ويصلح ذات البين ويعيد الإسلام »[3] .

لكن يبدو أن تلك الرغبات الأكيدة فى الصلح ، التى حملتها وعبرت عنها تلك الخطابات المتبادلة ، لم تجد نفعًا ، ولم يصل الطرفان إلى الصلح المطلوب . وهذا ما يشير إليه الإدريسى نفسه فى كتابه سالف الذكر إلى الإمام ، وهو مؤرخ فى ١٦ ربيع الأول ١٣٣٠ هـ (مارس ١٩١٢) . قال وهو يشير إلى مفاوضات الدولة معه بخصوص التفاهم وعقد الصلح :

---

(١) المنار : المجلد ١٦، الجزء ٥ ، ص ٣٨٩-٣٩١ .
(٢) أى فى حوالى الوقت الذى تبادل فيه الخطابات مع سلميان باشا .
(٣) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٥ ، ص ٩١ .

« ورابعها مع سليمان متصرف عسير لما أتـانا جـوابه بعـد أن قامت عليهم فتنة الطليان ، يدعـونا فيه إلى الوفاق ، وأن نكون إخوانًـا ونهجر الشقاق ، فأجبنا عليه بالترحيب والتسهيل فأرسلنا بعض خلص أصحـابنا ، فكان يساجل إلى أن تمكن من أرزاق ومعـاش [١]، لأن فى ذلك الـوقت كـان عـادمًـا . فلما رأى أنـه استغنى تكبر ، وأجاب بـالغلظة وإعداد الطـوابير للمخالفين ، فرجع صـاحبنا بذلك »[٢] فكأن العثمانيين كانوا يقصدون من وراء الاتصال بالإدريسى كسب الوقت ، وتمييع موقفه ، خوفًا من قيامه بأية حركات عدائية وذلك حتى يصل إلى متصرف « عسير » الإمدادات الـلازمة . ويكمل الإدريسى فى خطابه هـذا تتابع الأحـداث أيضًـا فجـاء فيـه : « فلما جـاء جـواب سليمان لـذلك الأخ (يقصـد مندوبه) بالتهـديد وإعداد الطوابير للتربية ، تعجبنا من ذلك ، ومـا زلنا نتوقف عن عمل أيـة حركـة رجـاء أن يهتدوا إلى الصـواب فما كـان إلا مرور محمـد على (باشا) فى شهر ذى الحجة (١٣٢٩هـ) يحرق بيوت السادات والعلماء وأفاضل الناس ، كما قد ذكرنا لكم أول الكتـاب ، فليت شعرى ما نصنع بعد هذا . وهل فيـه إنصاف أعظم من هـذا الإنصـاف حتى من كان لنـا بـالأمس عدوًّا لـدوداً أصبحنا نتقـرب إليه بـالمودة ، لا لشىء بل كان حبًّـا للصلاح مزيـداً ، وهل من العقل بعـد ذلك لنـا أن نـرمى بأنفسنـا إليه ولـو على المهـالك ؟ وهل هـذا من الدين؟ كلا وأصدق القائلين يقول : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾[٣] .

وتتـابع الأحـداث هكذا ، هـو الـذى أدى إلى لجوء الإدريسى إلى جـانب إيطاليا ليدافع عن نفسه . وقد يكون الإدريسى تحرج كثيراً أمام نفسه ، وهو يتفق مع الإيطاليين ، ولكنـه كان مدفوعًا بصـورة أقوى من هذا الحرج ، فالـدفاع عن النفس أولا وأخيراً ، هو الذى دفعه إلى جانب إيطاليا .

(١) يشير بذلك إلى وصول الإمدادات لسليمان باشا .
(٢) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٤ ، ص ٣٠٣ .
(٣) نفس المرجع : ص ٣٠٧

وقد أخذ الإدريسى من إيطاليا - بناء على هذا التحالف - أسلحة صغيرة (بنادق) وذخيرة وذهب[١] ، بما يعنى استعداده لمحاربة العثمانيين . بل أدى مجرى الأحداث العسكرية - بين إيطاليا وقوات الدولة - فى عسير ، إلى زيادة قوته ، وحصوله على المزيد من الأسلحة والذخائر . فعندما أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية ، أسرعت حامية « جيزان » بالهرب إلى الحديدة ، وتركت وراءها السلاح والمؤونة والذخائر والخيام وغيرها ، وذلك « لضيق الوقت وقلة وسائل النقل »[٢] . وهنا أسرع الإدريسى بدخول المدينة ، والاستيلاء على هذه الغنائم كلها ، مما زاد قوته ، وجعله يهاجم الحاميات العثمانية فى تهامة وعسير .

وكان الإدريسى يجد المبررات الكافية لموقفه هذا من الدولة ، وكان يهاجمها بالحجج والبراهين ، كما كان يهاجمها بالقوات الحربية . ففى كتابه للإمام سالف الذكر ، أخذ يذكر تهاون الدولة العثمانية فى أيامها الأخيرة ، وأنها هى المسئولة عن ضياع ممتلكاتهم ، وطمع الأجانب فيها ، ثم قال : « قد عرفناكم بمنشأ هذه الأحوال ، لتعرفوا من هم السبب فى محاق البلاد الإسلامية والاضمحلال ، فهم الأحق بالملامة والتقريع والتوبيخ وسلب الكرامة . ويا ليت شعرى ما المراد منا فى الرابطة التى أشرتم إليها ، فإن كان لقصد التسكين المجرد إلى أن توافق معهم الأمور ثم يثبوا كأن لم يكن بيننا وبينهم صداقة كما كان بالعام الماضى ، إذ قدمنا لهم عشرة آلاف عود للسلك (يقصد أعمدة التلغراف) وأمنا لهم الطرق ، وتعهدنا لهم بالإصلاح حتى صاروا دولة حقيقية ، يروحون ويغدون بكل شرف ، فما كان منهم إلا تدبير الحيلة فى الهجوم للقبض علينا فنجانا الله ، وآل الأمر إلى ما هم فيه من الإهانة والحيرة ،

---

(١) Jacob : Kings of Arabia, p. 125.

(٢) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٦ ، ص ٤٦٧ .

ولا حول ولا قوة إلا بالله »[١] . وهو هنا يبرز أن العثمانيين لا يصدقون وعودهم أبداً ، ويشير إلى فترة السلام بينه وبين الدولة ، عندما كان سعيد باشا متصرفًا لعسير ، وتهادن مع الإدريسى ، ووعده بتحقيق مطالبه على لسان الباب العالى ، فساعده الإدريسى على استتباب الأمن وتهدئة الحال فى عسير .

وعلى كل حال لقد عظم شأن الإدريسى ، وقوى مركزه فى عسير ، وأصبح لديه الكثير من الأسلحة والذخائر والمدافع .. ويجدر أن نحدد قوة الإدريسى فى هذه الفترة ، فهذا يمكننا من فهم المواقف والأحداث التى جاءت بعد ذلك . عبر أحد اليمنيين عن زيادة قوة الإدريسى بقوله : « ولقد تمكن السيد الإدريسى، منذ نشبت الحرب بين الحكومة العثمانية وإيطاليا إلى الآن (المقالة مؤرخة فى ٧/ ٥/ ١٩١٣) من جلب أكثر من مائة ألف بندقية وخمسين مدفعًا ، لأن الطليان كانوا أغرقوا وأسروا بواخر خفر السواحل العثمانية كلها ، فخلا للسيد الجو ، وانتهز الفرصة الثمينة ، واستعد استعداداً عظيما . ولديه الآن أكثر من عشرين مدفعًا من المدافع الكبيرة (مرماها يتراوح بين ١٢-١٤ ك . م .) وهى موضوعة فى الحصون التى أنشأها فى السواحل والثغور التى بيده . وقد تعلمت الجنود العربية استعمال المدافع واستخدامها فى الحروب . ولا يزال عند السيد عشرات من أسرى العثمانيين ، أو الذين التجأوا إليه ، ومعظمهم من المدفعية»[٢]

بقى الإدريسى على موقفه العدائى من الإمام والعثمانيين ، وأخذ ينظم

---

(١) المنار : المجلد ١٦، الجزء ٤ ، ص ٣٠٩-٣١٠ .

(٢) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٦ ، ص ٤٦٧-٤٦٨ ..

شئون عسير ، ويهتم بالموانئ التى تحت يـده ، فنظمها إداريًا ، وحصنها بالمدافع كما نشط تجارتها ، وبقيت هذه الحالة العدائية على أشدها ، إلى أن حاولت الدولة الاتصال بـالإدريسى مرة أخـرى عندما أرسل قـائمقام « اللحيـة » إبراهيم بك خليل بتـاريخ ١٠ مـارس ١٩١٣ ، كتـابًـا لـلإدريسى يطلب فيـه أن يأذن لـه بمقابلتـه . وعندمـا أذن له ، أخبره القـائمقام بأن الـوالى محمود نديـم بك (تولى ولاية اليمن فى جمادى الأولى سنة ١٣٣٠هـ - مـايو ١٩١٢) قد تلقى من الباب العالى أوامره التى تقضى بالاتصـال به للتفاوض فى الصلح ، و « حسم المشاكل وفض الاختـلافـات التى بينـه وبين الـدولـة » . وقبل الإدريسى فتح بـاب المفـاوضات ، فـأسرع القائمقـام إلى اللحيـة ، وأبـرق إلى اللحية فى ٢٧ مـارس ١٩١٣ ، وعندئذ أرسـلا كتابًـا إلى السيد الإدريسى ، يطلبـان فيه حضـوره لثغر «ميدى » ليقترب منهما ، فأرسل الإدريسى من قبله هيئـة من رجاله لمخاطبتهما ، وعلى رأسها أمينه « محمــد يحيى » وأرسل معه خطابًا يطلب فيـه من نديم بك ، أن يبلغـوا كل مـا يـريـدون لهذا الأمين ، وهـو يـوصلـه إليـه « حتى أعلم مـا تريدون»[١] .

وقد لخص الـواسعى هـذا اللقاء فى قولـه « وفى هذا الشهـر (ربيع الأول ١٣٣١ - مارس ١٩١٣) عـزم المذكورون إلى السيـد محمد الإدريسـى لنصحه وإجراء الصلح بينه وبين الإمام ، ويكون رئيسًا على تلك الجهات ، بماهية كافية شهريـة ويكون تحت طـاعة الإمام يحيى ، وكـان الإمام قـد أرسل مع هذا الـوفد رسولا من « السـودة » - شمال صنعاء - التى كان يقيم بها حينئـذ - فلما وصلوا إلى « جيـزان » اعتـذر الإدريسى عن مقـابلتهـم ثم لما لم يجد بـدًا من مقـابلتهم قابلهم ، ولم يساعد بالصلح »[٢] .

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٦ ، ص ٤٦٩ .
(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ٢٥١ .

والواسعي هنا يوضح بعض الأمور الهامة التي لا بد من الإشارة إليها .
أولها : أنه ذكر المبادئ التي على أساسها يقبل العثمانيون الصلح مع الإدريسي ، وهي الاعتراف بوضع الإدريسي الخاص في عسير ، مقابل مرتب شهري يتقاضاه من الدولة ، على أن يقدم الطاعة للإمام يحيى ، وأن يتخلى عن محالفة الأجانب . ثانيها : أن المفاوضة لم تؤد إلى شيء ، ولم يتم الاتفاق المطلوب . ثالثها : أن الإدريسي لم يقابل الوفد إلا بعد تردد ، ونعتقد أن هذا ناتج عن خوفه الشخصي من غدر العثمانيين به .

ولنا أن نتساءل ، لماذا فشلت المفاوضات مع أن هذه العروض التي عرضتها الدولة ليست مجحفة للإدريسي ، فهي متشابهة لما حصل عليه الإمام يحيى نفسه ؟ الحقيقة أن سبب الفشل ، يرجع إلى تغير الأحوال والظروف التي تمت فيها هذه المفاوضات ، ورفضه الخضوع للإمام يحيى . فالإدريسي حينئذ أصبح في وضع مخالف لما كان عليه قبل ذلك بعامين أو ثلاثة على الأكثر ، وكان من الممكن أن يقبل هذه الشروط أو أقل منها في الماضي ، ولكنه الآن أصبح في مركز قوي ، وصاحب نفوذ ثابت متين في هذه البقاع « لأن نفوذه خلال هذه المدة انتشر بين القبائل انتشاراً هائلا ، وأحواله انتظمت ، ورجاله تسلحت ، وقبائله استعدت »[1] .

لذلك كان من المتوقع أن تتغير مطالبه ، ويساعده على ذلك أن هذه الفترة بالذات ، كانت قاسية حرجة بالنسبة للإمبراطورية ، لقيام الحرب البلقانية ١٩١٢-١٩١٣ . ولهذا كله ، لا نستغرب ما يقوله أحد اليمنيين - في مقالة له كتبها في « مصوع » ونشرتها « المنار » المصرية - بأنه علم من رجل كبير من رجال الإدريسي ، أن الإدريسي في مفاوضاته

---

(١) المنار : المجلد ١٩ ، الجزء ٦ ، ص ٤٧٠ .

« الجارية » سيتمسك بالمطالب الآتية :

١- الاستقلال الإدارى التام تحت سيادة الدولة .

٢- أن لا تتدخل الدولة فى شئون موظفى البلاد التى فى قبضة يده ، والتى سيبين حدودها فى المعاهدة .

٣- أن تكون الراية الهلال والنجم مع كلمة التوحيد من جهة ، ومحمد رسول الله من الجهة الأخرى .

٤- أن تكون الجنود محلية ، وعددها كاف لحماية البلاد فى زمن السلم والحرب .

٥- أن تكون الجمارك فى الثغور راجعة إلى الإمارة الإدريسية ، والمعاهدات التجارية مع الدول من حقها أيضًا .

٦- أن تكون الأحكام طبق الشريعة الغراء ، واللغة الرسمية هى اللغة العربية فقط ، بحيث لا تعرف لغة سواها فى التعليم والقضاء والإدارة ، وفى المخابرات الرسمية مع الآستانة .

٧- كل ما ينشأ من المنافع العمومية كالسكك الحديدية والتلغراف فى جهات عسير ، يجب أن تكون لمنفعة الإمارة ، وخاصة بها وخاضعة لها.

٨- أن يصدر بهذا الاتفاق فرمان سلطانى ، قبل أن يجتمع مجلس المبعوثين العثمانى ، يؤتى به من الآستانة على يد مندوب عال ، وعلى سفينة حربية ، ويقرأ باحتفال عام فى المكان الذى يختاره الأمير الإدريسى .

كما كان هناك أيضًا مسائل أخرى خصوصية وفرعية[1] .

---

(١) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ٦ ، ص ٤٧٠ .

وقد علقت المنار نفسها على هذه الشروط تعليقًا واقعيًا معقـولا ، فقالت : « لم يبق للـدولة مع هـذه المطالب إلا اسم السيـادة ، فلا يعقل أن تقبلهـا ، فإن كـانت تعجـز عنه (عن الإدريسى) الآن ، فإنها تفضـل السكوت على إعطـائه فرمـانًا تقيد نفسها بـه . والمعقول أن يكون للدولـة مع الاستقلال الإدارى بعض الحقوق العامـة ، كاشتراط موافقتها على العهود التجاريـة مع الدول وأخذ شىء مما يزيد على نفقات البلاد من دخلها »[1] . لهذا فنحن نرى أنـه من الطبيعى أن تفشل هذه المفـاوضات ، وتستمر حالـة العداء قائمـة لتمسك كل من الطرفين بمطالبـه . وهذه المطالب قـاسية بالنسبـة للدولـة العثمانية كدولـة ، فالإدريسى يشترط رفض أيـة سيـادة فعليـة للعثمانيين على عسير ، وإن كـان يعترف ببقـاء السيادة الاسمية . ويتأكد هذا من مطالبتـه بخضوع موظفى الإمارة له لا للدولة العثمانيـة ، وكـذلك خضوع مـا ينشأ من المنـافع العـامـة كالسكك الحديـديـة والتلغراف والتليفون . بل كان المطلب الأكثر قسوة على الدولة ، هو ما يريده من استقلال تـام فى علاقاتـه الخارجية ، ومعاهـداته التجـارية ، فهذا أمـر لا تقبله الدولـة مطلقًا . وظهـر هذا أيضًـا فى اشتراط محلية الجنـود ، سواء زمن الحرب أو السلـم . ولكننا نبـدى إعجابًا به ، لأنـه اشترط أن تكون اللغة العربيـة هى اللغة الرسمية ، وإن كـان هذا الشرط مما ترفضه الدولـة أيضًا ، سواء من الإدريسى أو من القوميين العرب ، فى باقى البلاد العربية .

كانت هذه المقابلة بين الإدريسى من ناحية ، وبين محمود نديم بك ورجاله ومندوب الإمام من ناحيـة ثانية ، آخر محاولة التقاء بين هـذه الأطراف المتنازعة . وبقيت الحال على ما هى عليه من حـرب ومناوشات « واشتعلت نار الحرب بين أصحـاب الإمـام والأدارسـة فى بـلاد « حجـور » و « خـولان الشـام »

(١) المنار : المجلد ١٦ ، الجزء ١ ، ص ٤٨٠ .

و« رازح » وغيرها »[١]، وهذا يعنى بالتالى أن فشل المفاوضات ، قد أدى إلى العداء الصريح ، والحرب المباشرة ، بين الإدريسى والإمام ، حلفاء الأمس . فقد انقلبت الآن صداقتهما القديمة على أساس المنفعة الذاتية والغرض الواحد ، إلى عداء مستحكم علنى استمر حتى بعد انهيار الدولة العثمانية نفسها .

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٤ .

الفصل الرابع
جنوب غرب الجزيرة العربية
أثنـــــاء الحــــرب العــــالمية الأولى

موقف تركيا وإنجلترا من الجزيرة العربية عند قيام الحرب :

كانت الفترة التى تلت عقد الصلح ، بين الأتراك والإمام (١٩١١) فترة عصيبة بالنسبة للدولة العثمانية . فقد تلى ذلك الحرب الطرابلسية ، ثم سرعان ما قامت الحرب البلقانية التى أخرجت الولايات البلقانية من ممتلكات الدولة . وقبل أن تجف الدماء التى أريقت فى هذه الحرب ، كانت الدولة مجبرة على القيام ببعض الاستعدادات لقيام الحرب العالمية الأولى .

وارتابت إنجلترا من هذه الاستعدادات التى يجريها العثمانيون ، وخاصة أنها كانت تحس بخطورة التغلغل الألمانى فى شئون الدولة العثمانية على مصالحها فى الإمبراطورية المريضة ، وعلى مواصلاتها إلى الهند . وقد توج هذا التغلغل الألمانى فى شئون تركيا عقد معاهدة دفاعية سرية بينهما فى ٢ أغسطس ١٩١٤ .

وكانت المصالح العثمانية الإنجليزية متضاربة بوضوح فى الجزيرة العربية ، إذ تماست هذه المصالح بشكل يثير الاحتكاك والتنازع دائمًا ، لذلك كان من الواضح منذ البداية أن تركيا إذا دخلت الحرب فستكون حتما إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ، وأن الجزيرة العربية ستكون ميدانًا هامًا لأحداث الحرب العثمانية الإنجليزية . وهذا ما حدث إذ بالفعل أعلنت تركيا الحرب على إنجلترا وفرنسا فى ١١ نوفمبر ١٩١٤ (٢٢ ذو الحجة ١٣٣٢هـ)[١] ، وأعلنت انضمامها إلى ألمانيا ، فأصبح العداء صريحًا بينها وبين الحلفاء ، وأسرع كل منهما فى اتخاذ الخطوات الحربية والدبلوماسية لكسب معركة العالم العربى .

---

(١) Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 78.

وازدادت أهمية العالم العربى - كميدان للنزاع العثمانى الإنجليزى - بعد أن دخلت تركيا الحرب . وأصبح موقف العرب أمراً ذا أهمية مباشرة للحلفاء ، وبصورة خاصة لبريطانيا ، لأن تركيا كانت فى مركز تستطيع معه أن تهدد المصالح البريطانية فى نقطتين هامتين ، وذلك بفضل استيلائها على الشام والعراق . أما النقطتان فهما : قناة السويس ، ورأس الخليج الفارسى ، حيث تقع آبار النفط الهامة التابعة للشركة الإنجليزية الفارسية . ولا يجوز إنكار الخطر الذى يهدد بريطانيا فى الجزيرة العربية نفسها ، فإن الأتراك كانوا يستطيعون استعمال ساحل البحر الأحمر الطويل لاتخاذ مراكز عديدة خفية فيه لبث الألغام، أو لإرسال الرسل إلى مصر والسودان وداخل أفريقيا لتوزيع السلاح وإثارة الشعور . وكان فى اليمن حامية - مؤلفة من فرقتين - تستطيع تهديد عدن . أما فى الحقل السياسى « فإن الخليفة السلطان إذا أعلن الجهاد ، ونال تأييد شريف مكة له ، تمكن من تحويل الحجاز إلى مركز لبث الدعاية المهيجة ، لا لتثير البلاد العربية فحسب ، بل لتحرك كذلك الأقوام الكثيرة الإسلامية وغير العربية التى تعيش تحت حكم الحلفاء ، أو على أطراف المناطق التابعة لهم »(١) . ولهذه الأهمية الكبيرة ، كانت الجزيرة العربية مسرحًا للنزاع الدبلوماسى ، كما كانت ميدانًا للحرب ، إذ قامت كل من تركيا وإنجلترا تسعيان لاستمالة أمراء الجزيرة العربية إلى جانبه واستمات الطرفان فى كسب هؤلاء الأمراء سواء لأهميتهم العامة ، مثل الشريف حسين ، أو لأهميتهم المحلية كالإدريسى وابن السعود . ومما زاد الصراع قوة وعنفًا ، أن كلا من الطرفين المتنازعين كان له نفوذه داخل الجزيرة ، فتركيا لها نفوذها المعنوى فضلا عن حامياتها الموزعة هنا وهناك ، كما كان لإنجلترا مناطق نفوذها ومستعمراتها أيضًا وخاصة فى السواحل .

كان النفوذ العثمانى يمتد - فى الجزيرة العربية - على مساحات أوسع

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ، ص ١٤٨-١٤٩ .

من النفوذ البريطانى ، إذ كانت بريطانيا ، تختار النقط الاستراتيجية ويهمها الاستيلاء عليها دون أن تهتم كثيراً بضيق الرقعة المحتلة أو اتساعها . وهذا الفارق المساحى الذى يعتمد على أساس تاريخى ، مع ما كان يصاحبه من نفوذ معنوى للخليفة العثمانى فى الجزيرة ، يجعلنا نقول إن الجزيرة كانت تخضع للنفوذ العثمانى أساسًا ، وأن النفوذ البريطانى كان لا يمثل إلا منافسًا زاحفًا يحتل نقطًا معينة لحماية خطوط مواصلات الإمبراطورية .

أما النفوذ المادى للعثمانيين فكان ضعيفًا بوجه عام ، ولا يتضح إلا حيث توجد القوات العثمانية . وكانت الحامية التركية الموجودة فى الجزيرة مؤلفة من أربع فرق موزعة بين الحجاز وعسير واليمن . كانت سلطة الحسين على القبائل فى الحجاز ، كافية لتشكيل قوة كبيرة من بينها تشترك فى الهجوم على مصر إذا شاء الحسين . وكان باستطاعته أن يجند من البدو ما لا يقل عن الأربعين ألفًا ببنادقهم ، بينما كان يستحيل على الترك أن يتوصلوا إلى إثارة البدو بدون مساعدته . وكانت الحامية التركية فى الحجاز وعسير مؤلفة من فرقتين ، ولكن تمرد القبائل هناك كان قد وصل حدًا لم يتجرأ معه الجند التوغل فى داخل البلاد ، بل ظلوا محصنين فى قلاعهم ومراكزهم البعيدة . لهذا ، ولكى يتوصل الترك إلى تجنيد العشائر ، كان لا بد لهم أولا من الحصول على مؤازرة الحسين ، فإن أيدهم وساعدهم استطاعوا توجيه حامياتهم المحصورة كيفما شاءوا ، بالإضافة إلى تشكيل قوة كبيرة من رجال العشائر يمدون بها القوى التى تتألف منها الحملة المتوجهة إلى قناة السويس . أما الإدريسى فلم يكن له قيمة عسكرية إلا ضمن حدوده المحلية ، فقد كان باستطاعته أن يعطل خطوط المواصلات التركية بين الحجاز واليمن ، وأن يهدد مؤخرة الترك إذا هاجموا عدن . على أن فائدته الكبرى للحلفاء

كـانت فى السـاحل ، حيث يتمكن من الحيلـولـة دون استعمال الترك لشـواطئ عسير الطويلة كقاعدة بحرية معادية .

أما موقف الإمام يحيى بالنسبـة للطرفين المتنازعين فكان من أخطر المسائل التى أثارت اهتمام أولى الأمر فى عـدن . وذلك لأن الصلات الظاهريـة للحامية التركيـة فى اليمن - المؤلفـة من فـرقتين - بـالسكـان ، كـانت وديـة على عكس زملائهم فى الحجـاز . وكان هجـوم الأتراك على عـدن أمراً محتمل الـوقوع ، فإذا وقف الإمام موقفًا مؤيداً منه ، أو اشترك فيه أتباعه قوى الأمل فى نجاحه .

أما فى الجهات المتاخمة للخليج الفارسى ، فإن موقف ابن الرشيد فى شمر ، وابن السعـود فى نجد ، كـان يتوقف بـالدرجـة الأولى على النزاع القـائم بينهما ، وكـان من المسلم به أن ابن الـرشيد سيقف فى صف الترك حـالما تعلن الحرب . إزاء ذلك ، وعندما انضمت تـركيا إلى ألمانيا فى الحرب ، أسرعت إنجلترا تفاوض أمراء العرب لدخول الحرب إلى جانبها ، أو لتضمن على الأقل حيادهم . وكانت المفـاوضـات مستمرة فى سنـة ١٩١٥ مع الإدريسى ، والشريف حسين ، وعبـد العـزيـز آل سعـود . وكان الغـرض من ذلك محاربـة الترك فى الجزيـرة نفسهـا ، وصدهم عـن تأليف كتلة عربيـة يقفون بها فى وجـه بريطـانيا هنـاك ، فيقطعون عليها الطريق إلى الهند .

كـان السيد محمـد الإدريسى أول من لبى الـدعـوة ، فحالف الإنجليـز فى أبريل ١٩١٥ ، ثم ابن السعود ، فعقد معهم معاهدة بعد ستة أشهر تقريبًا أى فى ديسمبر ١٩١٥ ، ثم الشريف حسين فى ينـايـر ١٩١٦[1] . وقـد اختلفت

---

(١) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، ص ٢٢٩ .

هذه الاتفـاقيات عن بعضهـا البعض وإن اتحدت المعاهـدة مع الإدريسى وابن السعـود فى الغـرض ، إذ لم يكن فى وسع الاثنين القيام بـدور كبير ، عسكـرى أو روحى ، ضـد الأتـراك . وكـانت قيمـة الاتفـاقيتين مبنية بـالـدرجـة الأولى على نتائجهما السلبيـة ، إذ قضيا نهائيًّا على أى أمل فى التحـالف بين هذين الأميرين والـدولة العثمانيـة . أما التحـالف مع الشريف حسين فكـان له أهميتـه الكبرى بالنسبة لإنجلترا ، لما للحسين من مركز كبير ومكانة دينية .

كـذلك قـام الترك بـدورهم - بالمجهـودات الضروريـة - لجذب الأمـراء إليهم، فأرسلوا الـرسل إلى داخل الجزيرة ، يحملون الهدايا والعبـارات المعسولة ، إلى أمراء العرب . وقد أثمرت المفاوضات مع ابن الرشيد فوراً ، لأنه كان تواقًا إلى التحـالف مع الترك ، وإن لم يـؤد ذلك إلى نتيجـة سـوى تأييـدهم لـه ضـد ابن السعود ، الذى كـان يخشى بأسه . وقد فضل الإمام يحيـى البقاء على الحياد ، فى هذا التنازع الدائر بين القوتين الكبيرتين. أما الإدريسى فكان عدو الترك اللدود، كما عـرفنـا مـن قبل . وكـذلك كـان الحال مع الشيخ مبـارك بن الصبـاح أمير الكويت ، الـذى كان مرتبطًـا بمعاهدة مع بريطـانيا سنة ١٨٩٩ ، وعقـد معها معاهدة ثـانية عندما قامت الحرب تقضى بقيـام التحالف الفعلى بين الطرفين ، وذلك فى ٣ نوفمبر ١٩١٤ . ولم يفز الرسل الذين زاروا ابن سعود بأى وعد قاطع منه ، وكانت حجته فى ذلك ، ادعاءه الخوف من هجوم بريطانيا على سواحله فى الخليج الفـارسى . وكان فى ذلك الحين يتفـاوض - فى واقع الأمر - مع حكـومة الهند، وقد أدت هذه المفاوضات إلى عقد المعاهدة بينهما فى ديسمبر سنة ١٩١٥ . وكـان الترك يأملـون فى انضمام الحسين إلى جانبهم لما لمركـزه من الأهمية فى الجزيرة

(١) J, C, Hurewitz ; Diplomacv in th Near and Middle East, Vol, II,

العربية إلا أن هذه العلاقات كانت تتحدد دائمًا برغبته الشخصية فى الاستقلال، وباتصالاتـه السرية بينه وبين الإنجليز فى القاهرة ، ممـا أدى إلى ثورته عليهم فى يناير سنـة ١٩١٦ . وعلى هذا فإذا نظرنـا إلى كبار أمراء الجزيرة العـربية الخمسة وجدنـا أن ابن الرشيـد والإمام يحيى[١] ، انحـازا إلى جـانب تـركيـا ، بينما وقف الشريف حسين وابن السعود والإدريسـى ، ينتظرون أن تحقق بريطـانيا وعـودها المغرية حتى يقوموا بإعلان الثورة[٢] .

هذه هى الصـورة الخاصة بـالجزيرة العـربية ، عنـد قيام الحرب العـالمية ، ويجدر بنا هنـا تخصيص البحث عن الحالة فى جنوب غـرب الجزيرة ، حيث تقع اليمن ، وعسير ، وعـدن ومحميـاتها ، أو بـالأحـرى يجب الاقتصـار على تتبع العلاقـات - عند قيـام الحرب وأثناءهـا - بين العثمانيين ، والإمام ، والإدريسى والإنجليـز ، تلك العـلاقـات التى شكلت سير الأحـداث فى هـذه الفترة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبالتالى معرفة ما ستتمخض عنه هذه الأحداث من نتائج عملية شكلت أحداث هذه المنطقة فيما بعد .

القوى المختلفة فى جنوب غرب الجزيرة وعلاقة بعضها ببعض :

كان إعـلان تركيـا الحرب وانضمامها إلى دول الـوسط ، دافعًا جـديداً لهذه الأطراف القائمة فى هذه المنطقة - الترك ، الإنجليز ، الإمام ، الإدريسى - إلى أن يتخذ كل منهم موقفًـا معينًا حيال باقى هـذه القوى ، سواء كان مـوقفًا سلبيًّا أو إيجابيًّا . فمن ناحيـة كان الأتراك قد بدأوا يستعدون لهذه الحرب منـذ فبراير سنة ١٩١٤ ، فـاشتروا أسلحـة وذخيرة من جيبـوتـى ، ونقل وكيلهم فى عـدن هـذه الذخائر على إحـدى السفن المحلية فى عدن إلى الحديدة ، هذا بـالإضافة إلى أن اليمن كـانت مكتظـة بـالأسلحـة والجنـود ، لكثـرة الحروب التى قـامـوا

---

(١) لم يكن موقف الإمـام هو الانحياز التام كما فعل ابـن الرشيد بل سيتضح فيما بعد مـوقفه الخاص .

(٢) جورج أنطونيوس : يقظه العرب ، ص ١٦٣ .

بها هنا وهناك[١] . وكانت قوة الجيش التركى فى اليمن ، كما قدرت فى أبريل سنة ١٩١٤ حوالى ٥٠٠٠ رجل ، وذلك بعد أن نقلت قوات كبيرة منها إلى الميادين الأخرى فى أوروبا وآسيا الصغرى ، بعد عقد صلح « دعان » سنة ١٩١١ مع الإمام. وكان توزيع القوة الموجودة فى اليمن يتغير حسب الأحوال السياسية والأحداث المحلية ، وكان جزء كبير منها موجودا فى صنعاء ، ومع الإمام . وتأتى الحديدة فى المرتبة الثانية من ناحية الأهمية كمركز حربى ، وكانت تخرج منها فرق للمحافظة على اللحية ، وعن مراكز خط اللحية - زهران على طول الحدود العسيرية . وهناك طابور فى « مناخة » موزع بين القلاع والمراكز ، ومنها تخرج السرايا إلى كل منطقة « حراز » و « حجلة » . وقد وضعت باقى الفرق فى المدن الرئيسية ، فى تهامة وفى وسط الهضبة ، وكان هناك مركز تركى قوى فى « الشيخ سعيد » كما كان هناك خط دفاع من « المخا » عبر « تعز » و « ماوية » إلى «قعطبة » وكانت هذه المراكز مرتبطة بعضها البعض بواسطة طرق سهلة[٢] .

لكن هذه القوة زادت عند قيام الحرب ، فيقول جيكوب على لسان أحد الضباط الأتراك : إنه كان باليمن ٣٥ طابوراً تركيًّا ، أى حوالى ١٤٫٠٠٠ رجلا ، وكان أغلبهم من السوريين[٣] . بل زاد الاستعداد ، ووفد كثير من الضباط الأتراك إلى الحديدة ، ومعهم المعدات الحربية . كما قام بعض الضباط من أركان الحرب ، مع بعض مشايخ اليمن ، بالطواف بالحدود الجنوبية لليمن ، وعلم أن الأتراك أرسلوا رسلهم إلى « لحج » للاستطلاع ومعرفة الأخبار ، كما أرسلت المدافع من «صنعاء » إلى « تعز » فى الجنوب . وقام الترك إلى جانب هذه الاستعدادات الحربية ، بمحاولة سلمية لجذب سلطان لحج إليهم ، إذ طلب محمود نديم بك والى اليمن من الإمام يحيى ، أن يسعى فى استمالة سلطان لحج إلى جانب الأتراك ، وأن يكفل لهم وفاء الأتراك بالوعود

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, pp. 158-159 .

(٢) Bury ; Arabia Infelix, pp. 178-179.

(٣) Jacob ; Ibid , p. 168.

والتعهدات التى سيقطعونها للسلطان على بن أحمد . وكان السلطان على ، قد كتب إلى الإمام قبل ذلك يخبره أن الدولة العثمانية خاطرت بكيانها بسبب دخولها هذه الحرب (!؟) وأن معظم أهل الإسلام يكرهون ذلك ، لأن مصالح المسلمين والاسلام مرتبطة بمصالح بريطانيا ، أو على الأقل فليس للمسلمين فى هذه الحرب ناقة ولا جمل » . وقد قام الإمام بمراسلة السلطان على بما طلبه منه محمود نديم بك ، وأرسل هذا الكتاب مع مندوبه السيد محمد على الشريف ، الذى كلفه أن « يكتشف الأحوال فى هذه الجهة[١] . وقد قامت الحكومة التركية فى اليمن بالضغط ثانية على سلطان لحج - لمحاربة الإنجليز - بالوعد والوعيد . فأرسلوا له وفداً فى جمادى الآخر سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) كان من بين رجاله محمد ناصر باشا قائمقام « القماعرة » وكان باقى الوفد من لواء « تعز » . وكانت قد تمت قبل ذلك مقابلة بين مندوب سلطان لحج ، وهو السيد على بن محمد الجفرى ، ومندوب محمد ناصر باشا بهذا الخصوص أيضًا . فيقول السيد الجفرى : وبعد أن تخابرت مع الحاج على الكمرانى (مندوب محمد ناصر) اتفقنا جميعًا على أن نزول الأتراك لمحاربة عدن سيكون ضرراً عائداً على أهل بر اليمن ، بسبب الحصر البحرى ، الذى تضربه بريطانيا العظمى على سواحل اليمن . والأولى أن يسعى مشايخ اليمن فى تسكين حركات الأتراك ، ويقنع السلطان حكومة عدن أن لا تحصر سواحل اليمن ، وتعتبر ولاية اليمن أرضًا عربية محايدة ، وختمنا المقابلة باستصواب هذا التدبير »[٢] .

ويوضح هذا الاتجاه العربى الشكل أمرين : (أولا) أن إنجلترا تتوقع هجوم تركيا على عدن ، وأنها تخشى هذا الهجوم ... و (ثانيًا) أن إنجلترا

---

(١) أحمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٠٧-٢٠٨ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٠٩ .

استطاعت أن تحرك بعض العناصر العربية الموالية لها فى المنطقة - مثل لحج - لخدمة مصالحها بطريق غير مباشر .

أما العلاقة بين العثمانيين والإمام فكانت سلمية فى الغاية ، فلم يستغل الإمام الفرصة للتخلص من حكمهم ، كما أنه فى نفس الوقت لم يناصب الإنجليز العداء ، بل تميز موقفه مع الطرفين بالمصالحة واللجوء إلى الهدوء ، دون أن يقوم بعمل إيجابى واضح لمساعدة أية قوة منها ، وإنما كان يتصرف بحذر ودقة لتحقيق مصالحه الخاصة . وهذا الموقف يحتاج أن نتناوله بمزيد من التفصيل .

يعبر سلفاتور أبونتى عن موقف الإمام يحيى من تركيا وإنجلترا بقوله « وفى أثناء الحرب العظمى الأولى ، رفض الإمام يحيى بشمم وإباء (!؟) كل محالفة اقترحها عليه الإنجليز ، ورغم أنه حارب الأتراك لضمان استقلال بلاده ، إلا أنه آثر أن تقطع رقبته ورقاب أولاده على أن يحالف الكفار [(١)] » . ولكن هذا الرأى - المنحاز - نفسه يحتاج إلى تفسير ، فقد عبر سلفاتور عن موقف الإمام فقط دون أن يوضح سببه أو يشرح دوافعه المادية أو حتى الروحية . والحقيقة ، أنه عند قيام الحرب ، قام الإمام باتخاذ خطوات عملية بالنسبة للعثمانيين ، توضح حقيقة موقفه منهم . فقد كان صلح دعان سنة ١٩١١ ، يقضى بأن يدفعوا مرتبًا شهريًا له ولبعض كبار رجال قبائله واستمروا يدفعون حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، وعندئذ لم يتمكنوا من القيام بما تعهدوا به ، وهذا معناه أنهم أخلوا بأحد شروط الهدنة المعقودة بينهما ، ورغم ذلك لم يحاول الانقلاب عليهم .. كما أنه فى نفس الوقت - وهذا ما ميز موقفه منهم - لم يساعدهم ضد الإدريسى فى تهامة ، ولا ضد الإنجليز فى عدن ، بل كانت المفاوضات جارية بينه وبين الإنجليز فى عدن

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٥٧ .

عن طريق غير رسمى ، وذلك لأن رسوله ذهب إلى لحج لا إلى عدن[١] . وقد حاول العثمانيون فى اليمن تعويض الإمام عن عدم دفعهم المرتبات الشهرية وإرضائه حتى ينحاز إليهم ، فاقترحوا عليه أن يخلوا له صنعاء وضواحيها ، وأن ينقلوا مركزهم إلى تعز فى الجنوب ، ولكن الإمام رفض هذا الاقتراح وسبب ذلك أنه كان يرى أن انتقاله من « شهارة » - مركزه المذهبى الحصين بين قبائله وأتباعه - إلى صنعاء ، سيبعده عن هذه القبائل ، مما قد يؤدى إلى إضعاف مركزه ، أو يؤدى إلى خروجها من قبضة يده . وهذا الخروج كان يخشاه كثيراً وخاصة لأن العثمانيين كانوا يدفعون « المشاهرات » إلى هذه القبائل مباشرة - لا عن طريق الإمام - « مما كان يبعدهم عن سيدهم الأصلى »[٢] . كما نرى أن الإمام كان يخجله الانتقال إلى صنعاء بهذه الكيفية لأن فى ذلك حطًّا لمركزه وكرامته أمام أتباعه ، ويعنى أنه حصل على صنعاء كمنحة من العثمانيين مما لا يليق بمركزه وتاريخه . هذا فضلا عن أن انتقاله إلى صنعاء يعنى مباشرة أنه سيكون تحت قبضة العثمانيين ، فى الوقت الذى يكون فيه بعيداً عن مراكزه الزيدية الحصينة فى الشمال . ولكن رفضه الانتقال إلى صنعاء كذلك لم يكن دليلا على غضبه ، أو تخاصمه مع العثمانيين ، إذ ظل على مسالمته معهم .

أما سبب موقف الإمام المتهادن هذا مع الأتراك ، فيمكن إرجاعه إلى عدة أسباب هامة ، تبدأ كلها تقريبًا من الصلح المعقود بينهما سنة ١٩١١ .

فقد تمسك به الإمام، وتذرع به لدى الإنجليز عندما ضغطوا علية للانضمام إليهم عن طريق سلطان لحج ، ولكننا نرى أن الصلح لم يكن هو كل شيء عند الإمام ، أو أنه كان عائقًا كبيراً إذا أراد أن يقوم بعمل ما ضد العثمانيين. فالإمام حقيقة كان يرى أن الأتراك ليسوا هم أعداءه ، بل عدوه اللدود هو

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ص ١٤٦ .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, p. 154.

الإدريسى ، ذلك المنافس الخطير الذى يزاحم الإمام فى جزء من ممتلكاته - طبقًا لوجهة نظره - لذلك كان يرى أن الإدريسى هو الأولى بالمخاصمة والعداء . ومن ناحية ثانية كان يهمه معرفة موقف الإنجليز وما سيتمخض عنه الصراع بينهم وبين العثمانيين ، ويهمه أن يراقب سير هذه الأحداث ، وهو بعيد عنها ينظر إليها باعتباره متفرجًا فقط ، دون أن يشارك فى أحداثها مشاركة فعالة تؤدى به إلى ضرورة تحمل نتائجها ، سواء كانت هذه النتيجة لمصلحته أو ضده . لهذا كله ، رأى أن من مصلحته الانتظار المشوب بالحذر والاستعداد فهذه هى فرصته لحل مشكلاته ومشكلات مستقبله ، تلك التى تتمثل فى وجود الإدريسى والعثمانيين داخل أراضيه الخاصة ووجود الإنجليز على حدوده .

وهذا المفهوم - وهو الحرص على تحقيق مصالحه الخاصة - كما أنه حدد علاقته مع الدولة العثمانية فهو الذى حدد علاقته مع الإنجليز أيضًا - كما سبق أن أشرنا - فى هذه الفترة الحرجة ، وحدد سير المفاوضات بين الطرفين . وكان يهم الإمام أن يقوم باتصالات سريعة مع لحج والإنجليز لمعرفة موقفهما ورأيهما فى الحرب عن كثب فقد قام الإنجليز بضرب الشيخ سعيد من البحر فى نوفمبر سنة ١٩١٤ ، وذلك ردًا على ما أقامه العثمانيون هناك من تحصينات وتجميع للجنود . وكانوا يرون فى هذه الاستعدادات تهديداً مباشراً لمركزهم الهام الحيوى فى « بريم » وكان غرضهم حربيًا أكثر منه سياسيًا . وقد أزعج هذا الإمام ، ولكنهم أسرعوا بالاعتذار له ، وأكدوا له أن هذا العمل ضرورة عسكرية فقط ، دون أن يكون لهم من ورائه أية أغراض توسعية . وقد أجاب الإمام عليهم بأنه متأكد من عدم رغبتهم فى التدخل فى شئون العرب ، ولكنه يأسف لما حدث فى الشيخ سعيد ، كما قال إن هذا قد أثار شعور العرب فى كل مكان[1] . وذهب مندوب الإمام بعد ذلك إلى لحج فى يناير ١٩١٥ ليتعرف على الحقيقة

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p, 159.

هناك ، فقابل السلطان على ، وحضر هارولد جيكوب هذه المقابلة . وقد عبر المندوب عن اعتذار الإمام لعدم إمكانه الخروج على تعهده مع الترك ، الذين عقد معهم هدنة لمدة عشر سنوات فى سنة ١٩١١[١] . ونحن نرى أن هذه المفاوضات كانت استطلاعية لا تستهدف الوصول إلى شروط أو نصوص معينة ، إذ كان يهم الإمام أساسًا معرفة ما سيقوم به الإنجليز من أعمال حربية ضد العثمانيين فى اليمن ، لأن هذا سيؤثر بالضرورة على مركزه ونفوذه هناك . فهو من ناحية يعرف تصميم الأتراك على ضم لحج إليهم ، ويعرف بالتالى أن هذا ما لا يقبله السلطان على أو الانجليز ، وأنه سيؤدى إلى وقوع الحرب بينهما فى هذه المنطقة . وكان يخشى كثيراً أن يؤدى هذا إلى دخول الإنجليز أراضٍ يمنية يعتبرها ملكا له ، فالحدود مشتركة ، والخطر قريب متوقع فى كل لحظة . وكان ينظر فى نفس الوقت إلى الفرق العثمانية الجاثمة فوق أراضيه بعين الخوف والريبة ، فالحرب بينه وبين العثمانيين لن تؤدى إلا إلى انكماشه وانكماش نفوذه أكثر فأكثر ، ولن يكون ذلك إلا لمصلحه عدوه ومنافسة الإدريسى . ويتضح موقف الإمام الحرج إذا قارنا بينه وبين موقف ابن السعود فى الحرب . فالإمام كان يخاف أن يصبح حاكمًا تحت رعاية إنجلترا كما هو الحال فى المحميات مثلا ، بعكس ابن السعود الذى كان ذكيًا بدرجة كافية مكنته من استغلال إمكانيات بريطانيا، وخاصة المساعدات المالية ، لبناء مملكته العربية دون أن يكون - فى نفس الوقت مثار شك أنصاره الوهابيين فى أن يكون حليفًا « لغير المؤمنين » . ولكن موقع اليمن هو الذى أدى فى الحقيقة إلى اختلاف موقف الزعيمين العربيين فمحمية عدن تقع على حدود الإمام مباشرة ، كما أنها كذلك تشمل أقاليم يعتقد الإمام أنها ملك أجداده ، لذلك كان على الإمام أن يكون يقظًا لحرج موقفه ، وحتى لا يلقى باقى اليمن مصير المحميات[٢] .

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia p. 159 .

(٢) Hans Helfritz ; The Yemen, p. 124.

وهكذا نستطيع معرفة حقيقة الموقف فى الميدان الحربى الصغير فى الجنوب العربى . فتركيا أعلنت الحرب وانضمت إلى دول الوسط ، وبذلك أصبحت عدوة لبريطانيا . وكان لتركيا نفوذها وقواتها فى اليمن ، كما كان لإنجلترا نفوذها وقواتها أيضًا فى عدن والمحميات . هكذا تحدد قطبا المعركة هناك ، وانقسمت باقى القوى الموجودة بين هذين القطبين . فالإمام يحيى وقف موقفًا له طبيعته الخاصة الذى سبق أن أوضحناه ، وإن كان الكثير من المؤرخين وخاصة الأوروبيين يذكرون أنه انحاز إلى جانب تركيا فى الحرب[1] ولكنا نؤيد رأى العبدلى فى هذا الصدد فيقول : « .. أما سياسة الحضرة الإمامية آنئذ فكانت التأنى والتظاهر بالحياد المشرب بالعطف والميل إلى حكومة محمود بك نديم والى اليمن ، دون أن يتعرض لعداء بريطانيا العظمى وحلفائها ، وانتظار الفرص المناسبة للاستفادة من هذه الحرب بمقتضى تغير الأحوال ومساعدة الظروف»[2]. أما الإدريسى فكانت عداوته التقليدية للترك معروفة ، ولا ينتظر منه إلا الوقوف إلى جانب إنجلترا وهو ما حدث بالفعل . وكان موقف سلطان لحج معروف كذلك ، فهو حليف بريطانيا منذ أمد بعيد ، وهى تمنحه مشاهرة كبيرة ، وتعترف به سلطانًا فى لحج ، كذلك كان أجداده من قبله ، ولهذا كان انحيازه إلى صف انجلترا أمراً متوقعًا بديهيًا . وقد رأينا أنه كتب للإمام يستميله إلى جانب إنجلترا « لاعنًا العثمانيين الذين زجوا بأنفسهم فى هذه الحرب ضد بريطانيا الصديقة » . (!؟) .

هجوم الأتراك على المحميات :

كان على العثمانيين أن يقوموا بعمل ما ، فقوتهم فى اليمن فى أوائل الحرب تعتبرشبه محصورة وأصبحت محصورة تماما فيما بعد ، وخاصة عندما أعلن

(١) Lenczowski ; The Middle East in the World Affairs, p. 455.

(٢) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢٠٨ .

الشريف حسين ثورتـه عليهم ، وبعـد أن تحالف ابـن السعـود مع إنجلترا فى ديسمبر سنـة ١٩١٥ . ففى أوائل الحرب - بعـد أن أعلنت تـركيـا الحرب ضـد إنجلترا - قامت الأخيرة بمحـاصرة السواحل اليمنيـة ، وقطعت المواصلات بين باقى الإمبراطوريـة العثمانية ، فلم يكن أمام القوة العثمانيـة فى اليمن إلا الطريق الصحراوى الطويل عبر الحجاز أو نجد ، الذى سد فى وجهها أيضًا بعد ذلك . وهكـذا وجدت نفسهـا محاصرة فى نطاق ضيق لا يحتملهم كثيراً ، فمـوارد اليمن محدودة أنهكتها الثـورات والحروب الطويلـة ، كما أن إقامتهم طـويلا فى اليمن ، واعتمادهم اعتماداً كليًا على مـوارده ، يثير بالضرورة الأهـالى الذين لم ينسـوا تماما منـازعـاتهم السـابقـة مع الأتـراك . فـالعثمانيـون إذن من النـاحيـة النفسيـة والاقتصادية، لا بد لهم أن يبحثـوا عن مخرج وعن متسع يتنفسون فيه الصعداء ، لأنهم توقعوا حدوث ضائقة تطيـح بهم إذا استمرت الحرب طويلا ، وخاصة أن أعداءهم يحيطون بهم من كل جانب . لـذلك قرروا مهاجمة المحميات بل وعدن نفسها ، وكانوا يرمون من وراء ذلك حلا لضائقتهم الاقتصادية المتوقعة . ويؤكد هـذا ما قـاموا بـه من استيـلاء على المحاصيل والأغنـام - كما عبر العبدلى عنـد دخولهم لحج[١] . أما السبب الثـانى فهو عسكـرى محض بناء على خطة الـدولة العثمانيـة عامـة ومن ورائهـا ألمانيا ، وهى طـرد الإنجليـز من عدن واحتـلالها ، واحتـلال جزيـرة بـريم ، وهما مفتاح البحـر الأحمر الجنـوبى ، وبذلك يعطلـون مواصلات بـريطانيا . وكانت مهـاجمة عدن جزءا من خطـة مهاجمة الإنجليز فى مصر والاستيلاء على قناة السويس حتى يحرموا بريطانيا من أهم طريق حيوى فى مواصلاتها الإمبراطورية[٢] . والواقع أنهم لم يستطيعوا إكمال المهمـة المنوطة بهم،

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢١١ .

(٢) Lenczowski, The Middl East in the Word Affairs, p. 61.

فلم يصلوا إلى عـدن ، مما دعـا أمين الريحانى أن يكتب فيها بعـد قائلا : « فعول على سعيد باشـا الجركسى قائد القوات العثمانية فى اليمـن على مهاجمة عدن ولم يكن قصده غير إشغال الانجليز هناك »[١] .

وعلى كل حال سواء أكان غرض سعيد بـاشا - من تحركه ومهاجمته لحج - الوصول إلى عدن نفسها وطرد الإنجليز منها ، أو « مشاغلتهم » فقط هناك ، فقد كان هـذا الغرض العسكرى ، هو الـذى حدد الجهة التى يزحف إليهـا . لذلك اتجه سعيـد بـاشـا إلى لحج دون عسير مثـلا ، وإن كـانت كل منهما تعتبر أرض حـرب ، وكان من الممكن أن يهاجم عسير ، ليحـرم الإنجليز من التحـالف مع الإدريسى أولا ، وليمنعهم من استعمالهم لموانيه فى محاصرتهم ثـانيًا ، ولكنه فضل الميدان الثانى فى الجنوب حتى يهاجم عدوته هجومًا مباشراً .

بعث على سعيد باشا إلى السلطـان على سلطان لحج ، يستأذنه بالمرور عبر بـلاده ، ويعده بـالمحافظـة عليه وعلى ملكـه ، فأبى السلطان لأنـه كان حليفًـا لبريطانيا وخاضعًا لحمايتها .

وكانت بـريطانيا وراء مـوقف لحج ، فهى بدون شك تـرى لحج خط دفاع أول لعـدن ، وأن على لحج أن تعـرقل تقـدم الترك . وكـان نتيجـة هـذا أن بـدأ العثمانيـون زحفهم إلى لحج فـوصلـوا إلى « الضـالـع » فى ١٢ ربيع الأول سنـة ١٣٢٣هـ (فبراير ١٩١٥) . وقـد كتب الأمير نصر إلى السلطان على يصف له الحملة العثمانيـة قائلا : « إن الحركة قـوية وجيوشًا تـركية وإماميـة ويمانية لا لها قـدر (كذا !!) جهـزت عساكـرهـا من طريق اليمن ، وواصلين إلى « قعطبـة » و«ماوية » و « الراهدة » و طريقهم « الدريجة » و « الراهدة »[٢] .

---

(١) الريحانى : ملوك العرب ، ص ٤٠١ .

(٢) المبدلى : هدية الزمن ، ص ٣١٣ .

وقد بدأ الجيش بقيادةعلى سعيد من « ماوية » وقد ضم إلى جيوشه بعض العرب « من قبـائل القماعــرة » و « تعـز » و « جبل صبر » و « العــدين » و « جبلـة » و«إب» و « الحجرية » و « الحواشب »(١). ولكنا نشك فى قـول الأمير نصر بأن جنود الإمـام اشتركت فى الحملة العثمانيـة على لحج ، حيث كان الإمـام يعارض بشدة مهاجمة لحج ، وأن سعيد باشا قام بهذا العمل دون إرادته بناء على الضرورة العسكرية(٣). وإن كنا نـرجح فى نفس الوقت أن بعض أتبـاع الأمام ، أو بعض الذين حاربوا العثمانيين تحت لوائه ، اشتركوا فى الهجوم على لحج ولكن بصفتهم الشخصية لا بصفتهم ممثلين للإمام حيث إن ذلك كان يخالف خطته المرسومة ، التى تـرمى إلى الامتناع عن الاشتراك فى الحرب . ومن نـاحية ثـانية ، كـان هناك أمران هـامان بـالنسبة لهذه الحملـة يمكن الإشارة إليهما . فقـد صاحبهـا - من ناحيـة - حملة دعـاية ضخمـة ، حيث أعلن الأتراك أنهم قـد استولـوا على قناة السـويس ، و « جميـع الإقليم المصرى وأقفلـوا بـاب المنــدب » وذلك ليـوهموا العرب أن عدن هى المحصورة (٤) . ومن ناحية ثانيـة ، فإن العثمانيين استطاعوا أن يـركنوا إلى الإمـام فى ضبط جانب من بـلاد اليمن ، واحتمال جملة من المهـام بصفتـه مفوضًـا من طـرف الخيلفة وهى خـدمـة ثمينـة مكنتهم من أن يتفرغـوا لمحاربـة أعدائهم ، كما تمكنـوا من أن يقترضوا منـه ما احتـاجوا إليـه من الغلال والنقد .

بدأ سعيد باشا - وكانت قواتـه تبلغ ألفى جندى بالإضافة إلى أربعة آلاف يمنى - زحفه داخل لحج ، ولكن لم تحدث معارك مـا حتى ٥ يولية سنة ١٩١٥م (٢١ شعبــان ١٣٣٣هــ) حيـث وقعت معــركــة « الــدكيم » فكـــان

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٤ .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, p. 164 .

(٣) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢١٢ .

(٤) نفس المرجع : ص ٢١١ .

الانتصار حليف سعيد باشا[١] . ويرجع ذلك إلى ضخامة استعداد سعيد باشا من ناحية العدد والعدة ، فى الوقت الذى لم يجمع فيه سلطان لحج إلا حوالى ٢٠٠٠ عربى ، وكانت تكاليف الاحتفاظ بهم إلى جانبه ضخمة لا تتحملها ميزانيته الصغيرة[٢] . ويمكن إرجاع الهزيمة أيضًا إلى قلة عتاد جند لحج ، وعدم نظامهم وتأخر النجدة الإنجليزية التى لم تحضر إلا بعد وقوع الهزيمة باللحجيين فعلا . وقد ساعدت بعض العوامل غير المنتظرة فى تأخر وصول الحملة الإنجليزية ، ووقوع الهزيمة . فقد اشتد القيظ وتعذر الحصول على الماء ، كما هربت جنود إنجلترا من الهجانة ، إذ يقول الريحانى : إنه سمع فى عدن أن الجنود الهندية قد عصت ضباطها لأنهم كرهوا أن يحاربوا إخوانهم المسلمين[٣] . وسواء صح هذا الخبر أم لا فقد تأخرت النجدة وتم انتصار الترك . وقد زحف الترك بعد ذلك إلى « الحوطة » واستولوا عليها . وهنا خرج السلطان على قبل الفجر من المدينة ، فمر بكمين من الجنود الإنجليز « فظنوه من الأعداء وأطلقوا عليه وعلى من معه الرصاص ، فأصابوه بسبع رصاصات وقتل فرسه ، وأعيد مجروحًا إلى القصر ، محمولا على الأكتاف . وكان الأتراك يرمونهم بالبنادق من أطراف المدينة فأصابوا بعض الذين يحملونه بجروح خفيفة ، ووصل السلطان وهو على تلك الحال إلى قرب « الرباط » حيث حملته سيارة إلى عدن »[٤] . وهنا دخل الأتراك لحج ، وفر إلى عدن عدد كبير من أفراد الأسرة المالكة وكثيرون من الأهالى . وقد نودى بالسلطان عبد الكريم خلفًا للسلطان

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢١٦ ، Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 80 .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia , p. 165.

(٣) الريحانى : ملوك العرب ، ص ٤٠١ .

(٤) العبدلى : نفس المرجع ، ص ٢١٧ .

على الـذى تـوفى متأثـراً بجـراحه بعـد وصـولـه إلى عـدن . كـان من أول أعمال السلطان عبد الكريم أنه وجه احتجاجًا شديداً إلى حكومة إنجلترا ، لأنها لم تقم بـواجب المعاهـدة التى بينهـا وبين أجداده ، فقبلت حكـومـة لندن الاحتجـاج وعزلت حاكم عدن ، وقائد الحامية فيها[١] . وفى ميدان آخر كان الإنجليز تحت ضغط القـوات العثمانية الـزاحفة قـد اضطروا إلى إخـلاء « الشيخ عثمان » وهى تعتبر ضاحية لعـدن نفسها - فاحتلها الترك والعـرب فى الحال ، ولكن الإنجليز تمكنوا ثانيـة من احتلالها فى ٢١ يوليو سنـة ١٩١٥ ، بعد أن وصلت إليهم نجدة عسكرية من مصر لإنقاذ عدن ، وللمحافظة على مركزها الهام . ومن المعروف أن حكومـة عدن أرسلت - فى هـذا الوقت الحرج - تستنجـد بفرنسـا فى جيبوتى ، فأمدتها بحوالى ٨٠٠ جندى من مدغشقر ، كما أرسل الجنرال مكسويل - القائد العام فى القـاهرة - فرقة هنـدية للمساعـدة أيضًا[٢] . وبعـد استرجـاع إنجلترا «للشيخ عثمان » يمكن أن نقـول إن العمليات الحربيـة أمـام المدينة (عـدن) لم تتعد المناوشـات بين الجانبين والانسحاب ثانية إلى المراكز الإضـافية . ورغم قلة أهميـة هذه العمليـات فى حد ذاتها إلا أنها اضطـرت الجانبين أن يبقى كل منهما قـوات لا بأس بها أمام القـوة الأخرى ، ممـا عطل العثمانيين مثلا عن الاستفـادة بهذه القوات فى ميـدان آخر كعسير[٣] . وقد استمـرت هذه الحالـة حتى إعلان الهدنـة العـامة سنـة ١٩١٨ لا أمـام الشيخ عثمان فحسب ، بل فى كل الجنـوب العربى[٤] .

وهنـا يمكن القول أن الـوضع كـان قـد تحدد إلى درجة كبيرة ، فقـد دخل الأتـراك لحج واحتلوهـا ، ووقف الإنجليـز من هـذه الحرب العثمانية اللحجيـة موقفًا سلبيًـا باستثناء الحملة الهزيلة التى وصلت متأخرة لمسـاعدة سلطان لحج

---

(١) الريحانى : ملوك العرب ، ص ٤٠٢ .

(٢) Jacob; Kings of Arabia, p. 169 .

(٣، ٤) Bremond; Yemen et Saoudia p. 80 .

أمام القوات العثمانية الضخمة الزاحفة . ولم يحرص الإنجليز إلا على الدفاع عن عـدن و « الشيخ عثمان » لأهميتها الحربيـة وتركـوا لحج للعثمانيين . ولو استثنينـا معـركة « الـدكيم » فى (٥ يوليـو ١٩١٥) التى أدت إلى الاستيـلاء على مدينـة «الحوطة » - عـاصمة لحج ، لوجـدنا أن المعارك التى دارت حـول عدن إنما هى معارك محليـة وغزوات صغيرة ، إذ لم يحاول الأتراك مهـاجمة « عدن » أو « الشيخ عثمان » إلا عند بدء زحفهم ثم سكنوا بعد ذلك عندما ردوا عنها - وكذلك لم ير الإنجليـز فى إخراج الأتـراك من لحج بالقـوة فائدة بـالنسبة للحـرب العظمى ، وهذا ما عبر الجنرال « وليم ولتن » قـائد الجيش البريطانى فى عدن فى منشوره فى مايو سنة ١٩١٦ لتسكين المحميات ، وتفسير سبب تقاعدهم عن مساعدتهم ، فقـال « ليس لضعفنا امتنعنـا عن حـرب الأتـراك الذين فى لحج ، ولكن مملكـة الدولة الإنجليزيـة واسعة جدًّا . ويلزمنا معاملة الميـادين التى فيها العدو واحداً بعـد آخر بـالتعاقب بحسب الخطط التى وضعتهـا .. وعلى كل حال لن تكـون الموقعـة الفـاصلة فى أرض العـرب بل هى فى فـرنسـا[1] . بـل إن الموقـف مـن العثمانيين هـو الذى دفع العبـدلى - وهـو أحـد أمراء بيت سـلاطين لحج - إلى القول إن الترك كـانوا يقصـدون من حربهم احتـلال لحج فقط لا مهـاجمة عدن فقـال : « جاء هـؤلاء الأتـراك من أعالى جبـال اليمن متيقنين بعجـزهم عن أن يمسوا عدن الحصينة بسوء ، فـلا يقصدون غير أذيتنا فى بلادنا »[2] ، ولكنا نعتبر أن هذا القول يعبر فقط عن رأى مواطن لحجى أحزنه وقوع الحرب فى بلاده .

موقف السلاطين والمشايخ من القوى المحاربة :

ويحتـاج بيان حـالة الجمـود الحربى هذه بين الترك والإنجليـز طول مـدة الحرب العالمية إلى توضيح أمرين هامين :

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ص ٢٢٩ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٣٨ .

أولا : موقف المحميات والمشايخ ورؤساء القبائل فى هذه المنطقة من كل من القوتين.

ثانيًا : سير العلاقة بين الطرفين المتحاربين فى هذا الميدان ، بعد استقرار العثمانيين فى لحج طوال مدة الحرب حتى إعلان الهدنة العامة.

عندما أعلنت تركيا الحرب وانضمت إلى دول الوسط ، وقف سلاطين المحميات - وهم مرتبطون مع الإنجليز بمعاهدات تحالف - إلى جانب إنجلترا، وتمنوا انتصارها وخاصة لأنها تدفع لهم المرتبات الشهرية . وقد حاول الإنجليز من جانبهم كذلك تأكيد انحياز هؤلاء المشايخ والرؤساء إلى جانبهم ، فكانوا يتصلون بهم ويذكرون لهم أن دخول تركيا الحرب ضدهم عمل خاطئ ، وأن بريطانيا ليس لها أغراض ضد العرب ، وقد أشرنا إلى منشورهم الذى أصدروه ليؤكدوا احترامهم للحرمين الشريفين وجدة ، وقد ساعدهم كثيراً «السير» على سلطان لحج بما لـه وبما لبيته من هيبة واحترام داخل المحميات وخارجها ، بل كان لصداقته مع الإمام دخل كبير فى موقف الإمام غير المعادى لبريطانيا . وساعد الإنجليز على نشر دعايتهم فى المحميات موقف أهالى عدن منهم ، فقد اتصف بالهدوء والسكينة ، بل الانحياز والدعاية لهم . فقد هاجم السيد عبد الله عيدروس قاضى عدن وشيخها الأكبر تركيا ، وهاجم الخطأ الجسيم الذى ارتكبته - وهو دخول الحرب ضد بريطانيا - « ضد الصديق الحميم للمسلمين، الصديق الذى طالما أعان الباب العالى » كما يصف إنجلترا فى عدن بأنها أحسن وأعدل حكومة عملت من أجل الإسلام وأنهم أصدقاؤها منذ احتلالها لعدن سنة ١٨٣٩[١] .

أما بعد دخول تركيا لحج فقد تغير موقف بعض هؤلاء السلاطين من إنجلترا ، نتيجة موقفها المتميع ، وعدم مساعدتها لهم ضد العثمانيين ، ونتيجة

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, pp. 161-162 .

ضغط الأتراك عليهم المتمثل فى قوتهم الحربية الجاثمة فوق أراضيهم . حقًّا كان موقف الإنجليز بعد دخول تركيا لحج حرجا للغاية ، فهم بتحالفهم مع هؤلاء المشايخ والسلاطين ، كانوا ملزمين بتقديم المساعدة لهم ، ولكنهم وقفوا منهم موقفًا نسبيا هزيلا ، فلم يكن فى عدن من القوات ما يكفى لتقديم هذه المساعدات . وقد وضح عجز إنجلترا فى أنها لم تستطع البقاء فى « الشيخ عثمان » والعودة إليها ثانية ، إلا بعد أن وصلتهم النجدة من الخارج . وسبب عجزهم هذا أنهم - كما عبر قائدهم - لم يكونوا يهتمون كثيراً بميدان الجنوب العربى إذ كانوا لا يرون له أثراً فى سير العمليات الحربية فى الحرب العامة ، بل كانوا يرونه من الميادين الجانبية الصغيرة ، التى يعالج أمرها بسرعة وبسهولة بعد ضمان رجحان كفتهم فى أوروبا ، ولذلك فضلوا السكون والانتظار على الدخول فى معارك خاسرة لا يرجى منها فائدة كبيرة ، وخاصة أنهم كانوا يسيطرون على البحار . وكانوا واثقين من حصانة عدن الذاتية من ناحية ، ومن أن القوات العثمانية الموجودة فى لحج كانت محاصرة من ناحية ثانية ، وإنها بالتالى لا تملك القيام بعمل ذى قيمة . لهذا لم يخافوا خطر هذه القوات بل نعتقد أنهم كانوا ينظرون إليها وكأنها قوة لا بد من الإجهاز عليها ، ولكن لا بأس من تأجيل هذا الإجهاز حتى يتفرغوا لها . وقد يبدو أن هذا الموقف كان على جانب من المعقولية - من وجهة نظرهم - ولكنه لا يروق للأمراء والمشايخ فى هذه المنطقة . فقد كان انتصار الترك فى هذا الميدان الضيق واحتلالهم لبلادهم ، يؤلمهم معنويًّا وماديًّا ويؤذيهم فى حياتهم ، فهم لم ينظروا إلا إلى هذه البقعة الصغيرة من ميدان الحرب العالمية وكأنها هى الوجود كله . ومحقون فى ذلك ، فهى مسرح حياتهم ، ومصدر وجودهم وعالمهم الصغير والكبير فى نفس الوقت ، ولذلك فهم لا يؤمنون إلا بأن بريطانيا تقف موقفًا متخاذلا بالنسبة لقضيتهم مع الترك . لهذا كله ، فقد « اضطر بعض أمراء المحميات مثل الأمير نصر ، والأمير على ابن مانع الحوشبى إلى منافقة الأتراك والتحالف معهم ، وذلك عندما

خذلتهم بريطانيـا ، وبقى الباقى على ولائه ، وخاصة أمير لحج »[١] . وكان كل من هـؤلاء الأمـراء واقعيًّـا مع نفسـه ، ومع ظـروفـه ، فمن وقع منهم تحت وطأة الترك، كان لا بـد له من إعلان ولائه لهم ، أمـا من استطاع الفرار أو كـان بعيداً عنهم ، فكـــان من الطبيعى أن يظل على ولائه لإنجلترا التـى تمنحـــه المال كما تمنحهم جميعًا الأمل فى رجوعهم إلى حياتهم العـادية . فأين يذهـب سلطان لحج مثلا - ما دام لم يقبل الخضوع للعثمانيين ما لم يـذهـب إلى عدن ؟ وبالتالى لماذا لا يرحـب به الإنجليز ، وهـو سليل البيت العبـدلى صاحب الهيبـة والمركز المحترم داخل المحميات وخارجها ؟ وكذلك كان الحال بالنسبة للذين وقفوا إلى جانب الترك .

ويمكن هنا أن نذكر بعض الأمثلة على موقف أمراء ومشايخ المحميات من كل من إنجلترا وتركيـا . فالسلطان الفضلى مثلا اضطـر للإذعان للترك ، وحضر إلى لحج بعد أن رفض الإنجليز مده بالسلاح ، وكذلك فعلت عشيرة يافع . أما أمير الضالع فقد اتخذ موقفًا أكثر جرأة بالنسبة لإنجلترا ، فعندما لم يمنح أية مساعدة من إنجلترا ، أصـدر منشـوراً فى ديسمبر سنـة ١٩١٥ ، يعلن فيـه أن الحكـومـة الإسـلاميـة هـى حكـومتـه ، وأن السلطـان هـــو خليفتـه - يشير إلى السلطـان العثمانى - وأنـه سيطيع من (كانت) طـاعته من طـاعة الله ورسـوله . وقـد برز موقف السلطان على مانع الحوشبى والأمـــير نصر فى إعلان عدائهما للإنجليز ، عندما تخلـــوا عنهما واضطرهما الـــترك للإذعان لهم . وقد نصب ســـعيد باشا على مانع سلطـانًا للحج ، ولكن الأخير لم يقم بدور ما ، بل سرعـان ما رجع إلى عاصمة الحواشب وهى « المسيمر » . أما الأمـــير نصر فقـــد أعلن أن مبدأه هو مجـاراة التيـــار ، فتمثل بالمثل القائل « أينما دارت الزجاجـة درنـــا » . إذ كان يرى أن وطـــأة أقـــدام الأتـــراك أقســـى مـــن طائرات إنجلترا[٢] . أمـــا السلطـــان العـــوذلى فقـــد سره المنشـــور الـــذى أصـــدره الإنجليـــز

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢١٣ .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, p. 170 .

بخصوص احترام الإمام ويؤكد أن الإنجليـز أحسن أصدقاء العرب . وقد صرح قـاضى « بيحان » أن العـرب جميعـا مدينـون لإنجلترا ، وأنـه يجب أن يمدوهـا بـالعون ، وكـان يعلن مثل تلك الأقوال فى المسـاجد والأسـواق العامـة . ولكن الإدريسى فى عسير - وقـد ضايقـة انتصـار الترك - وصف موقف إنجلترا بأنـه ليس ضعفًا بل تـراخيًا منها . وقـد نصح شيخ يافعى « الإنجليـز بضرورة القيام بعمل أى شىء فهذا سيجبر الترك على الخروج مـن لحج ، بل إن المبعوث المكى الـذى زار عدن فى نـوفمبر سنة ١٩١٦ ، قـد عبر عن ضيقـة لسكون الإنجليـز وهدوئهم فى هـذه الآونة ضد اعتـداء العثمانيين على لحج ، والتمس منهم راجيًا أن يقومـوا بعمل فعال فهـذا يؤدى إلى جذب العـرب الذين هم خـارج المنطقة إليهم ، كما يؤدى إلى مواجهة الـدعاية التركية الألمانية »[1] . وكان هـذا المبعوث المكى يخدم بذلك قضية أميره الشريف حسين ، الـذى كان قد أعلن الثورة على الترك ، وكان يضره طبعًا هزيمة الإنجليز فى داخل البلاد العربية أو سكوتهم بهذا الشكل ، فـذلك على الأقل يضعف ثقة أنصـاره فى حليفته بـريطانيـا ، ويفقده الأمل فى كسب أنصار جـدد ، خاصـة وأن حملات الدعايـة التركية الألمانيـة قد استغلت هذا الموقف لصالحها .

أما حالـة هذه المنطقة ، والعلاقة بين هـاتين القوتين فى تلك الفترة فكانت أمراً ملفتًا للنظر .

فقد دفع تجمد الأوضاع جميع هـذه الهيئات والفئات إلى الالتفات والبحث عن مطالب الحيـاة الضرورية ، والعمل على الحصـول على مستلزمـاتها . فبدأت الحالـة تعود إلى مجراهـا الطبيعى ، وبـدأ الناس يعـودون إلى الـزراعة والتجـارة ، واستئنـاف الحياة العـادية « لأن الأهـالى والعساكـر شرعوا يـزرعون ويشتغلـون فازدهرت بالاخضرار والثمار ، تلك البقعة الخصبة ، التى تستقى من فرعى وادى

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p, 171-172,

« دين »[١] . بل الأكثر من ذلك أن القائد التركى سمح للقوافل با لمرور حرة إلى عدن ، لأنه يحصل بذلك على ضرائب انتقـال ، وكان الإنجليز يسمحون بذلك أيضًا ، وذلك بناء على ما قاله جيكوب : « لمصالح أصدقائنا الذين يعتمدون على عدن فى الحصول على احتياجاتهم حتى لا تحدث كارثة »[٢] . وكان غرض الطرفين من ذلك لا يخلو من هدف عسكرى ، وهو الحصول على معلومات عسكرية مفيدة من حيث تحركات كل منهما وقوته وعدد جنوده أو آلاته الحربية ، وكان رجال القوافل يقومون بذلك خير قيام . وعلى كل حال فقد عاد سير القوافل مرة ثانية قبل أن تنتهى الحرب رسميًا ، واستفاد الطرفان من ذلك اقتصاديًا وعسكريًا .

وكذلك - كما قال الريحانى - تم الصلح بين الحلفاء ودول الوسط ، أو بالأحرى بين ممثليهم فى عدن وفى لحج قبل أن تنتهى الحرب بسنتين[٣] .

الأوضاع فى عسير بعد قيام الحرب :

لم يكن الميدان الجنوبى هو الميدان الوحيد الذى كان موضع صدام بين العثمانيين والإنجليز فى اليمن ، بل كانت عسير وسواحل اليمن هى الميدان الثانى . ويمكن أن نفهم لماذا كانت سواحل اليمن ميدانًا حربيًا بين الطرفين المتحاربين ، فإنجلترا دولة بحرية وكانت عظمتها تقوم على أساس سيطرتها على البحار ، ولهذا نراها تحاصر الساحل اليمنى وتضرب بعض مدنه من البحر ، ولكن الذى يجب شرحه ، هو كيف تطورت الأحداث فى عسير ؟ ولماذا أدى هذا التطور إلى انحياز عسير إلى جانب إنجلترا ضد الدولة العثمانية ؟ وكيف سارت أحداث هذه البقعة فى هذه الفترة إلى نهاية الحرب ؟ وما هى النتائج التى ترتبت على ذلك ؟

---

(١) الريحانى : ملوك العرب ، ص ٤٠٣ .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia , p. 169,

(٣) الريحانى : نفس المرجع والصفحة .

عـرفنا كيف أن عـزت بـاشا نجـح فى التفريق بين الإمـام والإدريسى ، كما رأينـا كيف أن صلح دعان سنـة ١٩١١ كان بـداية الخصـام بينهما ، وكان هـذا دافعًا لأن يتحالف الإدريسى مع إيطاليا أثناء اشتعال الحرب الطرابلسية . وبعد أن انتهت هذه الحرب تم التقارب بينه وبين إنجلترا ، ورأينا كيف أن الإمام كان يسره محاربة العثمانيين للإدريسى ، وكان يأمـل أن يتمكنوا من القضاء عليه قبل خروجهم من اليمـن حتى يخلو له الجو حينئـذ تماما . وقـد أدى موقف العثمانين من الإدريسى إلى منابذتهم له وإعلانهم الحرب ضده ، واستمر هذا الموقف حتى إعلان الحرب العالمية الأولى . فكان الإدريسى أول من لبى نداء الإنجليز ، فعقد معهم معـاهـدة فى ٣٠ إبـريل ١٩١٥ ، وكـان أول أمـراء الجزيـرة الـذين أعلن انضمامه إليهم . وعلى كل حال لقد كانت علاقة الإدريسى بالإمام فى أغسطس سنـة ١٩١٤ ، أى عنـد إعلان الحرب العـالميـة الأولى ، متـوترة جـدًّا لتعـارض مطالب كل منهما . وكـان الإدريسى يرى أن تكون له حقـوق السيادة فى منطقته الخاصة ، وكان الإمـام يرفض ذلك[١] . وقد أبـرزت الحرب العالميـة الخلاف بين كل من الأميرين العـربيين ، ودفعت كل منهما إلى اتخاذ موقفـه الخاص . فانضم الإدريسى إلى الإنجليز علانيـة ، بينما ظل الإمام على ولائه للعثمانيين ، وفى نفس الوقت عمل ألا يعلن عداءه للإنجليز ، وألا يكسب عـداء الإنجليز له . ويذكر أن الإمام أرسل فى أواخـر سنة ١٩١٥ رسالـة إلى الكولونيل جيكـوب - المعاون الأول فى عدن - يلتزم فيها بمواقف معينـة تجاه إنجلترا ، ويؤكد فى نفس الوقت إخلاصه لتركيا[٢] . ويـرجع الاختـلاف بين مـوقف الإمـام والإدريسى - من الناحية العمليـة - إلى أسباب جوهريـة . فمن ناحية ، كان وضع الإمـام الدينى يمنعه أمـام أنصاره من أن ينضم للقوى غير الإسلاميـة ضد العثمانين المسلمين وكـذلك تحالفـه مع العثمانيين فى سنـة ١٩١١ ، كـان يفيـده ولـو نظـريًّـا فى

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 160 .

(٢) Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 81.

الوقوف ضـدهم ، بعكس الإدريسي الذى لم يكن ملتزمًـا باتخاذ موقف إسلامى معين ، وقد سبق له أن تحالف مع الإيطالين كما لم يكن متحالفًا مع العثمانيين بل كان معاديًا لهم . ومن ناحية ثانية ، أن نفوذ الإدريسى يتركز أساسًا على الشاطئ فسهل بذلك اتصالـه بالقوى المختلفة ، وخاصـة التى تسيطر على البحر ، مثل إيطـاليا و إنجلترا . أمـا الإمام فكـان نفوذه يتركـز على الهضبة فى الـداخل ، على مسافة تبلغ ١٥٠ ميلا من البحر ، فهو محاط بسياج ضخم من الفرق العثمانية ، وكذلك يقع تحت تأثير الدعاية التركية الألمانية(١) . ولكن هذا السبب أو ذاك ، كـانت أسبابًـا ثانـوية فقط ، فكـان موقفهما - أثنـاء الحرب - ينبثق أساسًـا من رغبتهما فى تحقيق أغراضهما الذاتية ، ويدل على إدراكهما الواعى بكيفية الاستفادة من ظروف الحرب الدائرة .

اتجه الإدريسى إلى نـاحية الإنجليـز ، يرحب بـالمفاوضـة مع حكام عـدن ويسرع بالتحالف معهم ، فعقد معهم معاهدة فى ٣٠ أبريل ١٩١٥ .

ورحب الإنجليز من نـاحيتهم به لضمانه إلى جـانبهم ضد العثمانيين ، كما عدوا تحالفهم مـع الإدريسى عملا وقائيًـا ضد أيـة محاولة معـادية يبـديها الإمام ضدهم(٢) .

وكـانت المعاهـدة المعقـودة بينهما تعكس بوضـوح مطـالب كل منهما من الآخر ، وموقفهما من العثمانيين ومن الإمام يحيـى ، وموقف كل منهما أيضًا حيال الآخر . ويزيد لنا هذه الأمور اتضحاحًا عرض بعض مواد المعاهدة :

المادة الثانية : المقصـود من هذه المعـاهـدة هـو إعلان الحرب على الأتـراك ، وتوطيـد عرى الصـداقة بين حكـومة بـريطانيـا والسيد الإدريسى المذكور آنفًا ، وأعضاء قبيلته .

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p,

(٢) J,C, Hurewitz ; Diplomacy in the Near and Middle East, Vol , 11, p, 12,

المـــادة الثالثـــة : يتعهد الإدريسى بقتال الترك ، وأنه سيجتهد لطردهم من مـواقعهم فى اليمن ، وأن يتعقبهم ، ولـه أن يوسع أراضيـه على حساب الأتراك .

المـادة الرابعـــة : عمل السيد الأساسى يتجه ضد الترك فقط ، ويمتنع عن كل حركة عدائية ضـد الإمام يحيى ما دام هذا لا يضع يده بيد الترك .

المـادة الخامسـة : تتعهد الحكـومة البريطـانية بـالمحافظـةعلى أراضى السيد الإدريسى من كل اعتـداء يقع من قبل أى عدو كـان على السـواحل ، وبضمان استقـلالــه فى أراضيـه الخاصــة ، وباستعمال كل الـوسائط السيـاسية عنـد ختام الحرب فى سبيل تأليف مطالب السيـد الإدريسى مع الإمام يحيى أو أى خصم آخر .

المـادة السادســة : كدليل على تقدير الحكومة البريطانية للأعمال التى سيقوم بها السيد الإدريسى فهى ستعاونه بالمال والمؤونة ، وتستمر فى معاونته طول الحرب ، وستكون هذه المعاونة متناسبة مع ما يقوم به السيد الإدريسى من أعمال .

المـادة السابعـــة : تسمح الحكومة البريطانية للإدريسى أثناء الحصار البحرى المضروب على سواحل تركيا فى البحـر الأحمر أن يتاجر مع عـدن وسـواحلهـا ، وهى تضمـن استمـرار هـذه الحالـة مادامت العلاقة حسنة وموجودة بين الطرفين .

المـــادة الثامنـــــة: تكون هذه المعاهدة نافذة المفعول على أثر موافقة الحكومة الهندية (الإنجليزية) عليها :

وقـد أرخت هـذه المعاهـدة فى يـوم الجمعة ٣٠ أبـريل سنـة ١٩١٥ (١٤ جمادى الثـانى ١٣٣٣هـ) ووقعها السيـد مصطفى بن السيـد عبـد العلى عـن

الإدريسى ، والميجر جنرال « شو » عن بريطانيا - وهو المعتمد البريطانى فى عدن - كما وقعها « هاردنج » حاكم الهند العام[١] . وتضم هذه المعاهدة بعض الحقائق والمواقف التاريخية التى يمكن أن نشير إليها . فهى بوجه عام تبرز غرض إنجلترا من تحالفها مع الإدريسى ، وهو غرض محدود يحدد الدور الذى سيلعبه الإدريسى فى الحرب . وهو دور محلى بحت ، يتمثل فى دفع الإدريسى لمحاربة الترك ، وإشغالهم فى هذه المنطقة ، ومنعهم من استخدام موانيه ضدها . وناحية أخرى يمكن الإشارة إليها أيضًا ، هى أن إنجلترا لم تمنح الإدريسى - فى هذه المعاهدة - سلطة مطلقة ، أو إمكانيات عريضة يمكن استغلالها لصالحه ، ولكنها حددت له ميدان حربه ، كما جاء بالمادة الثالثة « وله أن يوسع أراضيه على حساب الأتراك » . ثم جاء التحديد التام فى المادة الرابعة « ويمتنع عن كل حركة عدائية ضد الإمام يحيى ما دام هذا لا يضع يده بيد الأتراك » فكأنها بذلك حرمت عليه محاربة الإمام يحيى .

والواقع أن الإمام عدو للإدريسى ، كما هو حال الدولة العثمانية إن لم يكن أكثر خطورة ، ولكن إنجلترا تحرمه من استعمال ما سيحصل عليه بمقتضى هذه المعاهدة ضد الإمام ، حيث إن هذا يخالف سياستها العامة التى حددتها فى المادة السادسة . والناحية الثالثة فى المعاهدة هى أن إنجلترا تعهدت - مقابل مجهودات الإدريسى وخدماته - أن تمده بالمال والمؤونة طوال مدة الحرب ، كما تعهدت بالمحافظة على أراضيه وعلى استقلاله من أى اعتداء كان . وبالإضافة إلى ذلك ، تعهدت له بفتح موانيه دائمًا مع عدن ، وهى خدمة جليلة اتضح أثرها أثناء الحرب ، إذ كانت موانيه هى الموانئ الوحيدة المفتوحة فى وقت كان الحصار البريطانى البحرى لسواحل اليمن يخنق الجميع.والناحية الرابعة أن بريطانيا فى هذه المعاهدة ترسم سياستها بالنسبة للأمراء

(١) حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، ص ٣٠٨-٣٠٩ .

العرب بدون استثناء ، تريد أن ترى كل هؤلاء الأمراء فى « حالة سلمية وأخوية ، كل منهم فى منطقتـه ، وكل مـوال للحكـومـة البريطـانيـة » كما جـاء فى المادة السادسة .

قدمت بريطانيـا للإدريسى - بناء على هذه المعاهدة - مسـاعدات مادية حددهـا « جيكوب » بقوله إن إنجلترا مـدته بالأسلحة الصغيرة والـذخائر ، كما أعطته أربعـة مدافع حصـار وثلاثين مـدفع هاون ، ولكنـه ظل يفضل استعمال المدافع التى منحتها له إيطـاليا سنة ١٩١١[١] ، ولعل هذا يرجـع إلى تمرن رجاله عليهـا . بناء على هـذا كله ، أسرع الإدريسى وهـاجم « اللحية » فى مـايو سنـة ١٩١٥ بجيش غير منظم ، ولكنـه لم يستطع التغلغل إلى مـراكـزهـا الـدفـاعيـة الأصلية[٢] . وهنا قـامت بريطانيا فى يـونية سنة ١٩١٥ بضرب هـذه المدينة من البحـر . وكـانت تقصد بـذلك - إلى جـانب ضرب القـوة العثمانية - تـرضيـة الإدريسى ، الذى لم يجف مداد معاهـدتها معه بعد ، وإن لم تكن تقصد فى نفس الوقت ، تـوسيع هذه العمليات الحربية على سـاحل اليمن لنفس الأسباب التى جعلتهـا تستكين فى الميـدان الجنوبـى . ولكن ضرب « اللحية » فى يـونيـة لحقـه مباشرة - فى أوائل يولية - زحف على سعيد باشا إلى لحج واحتلالها كما ذكرنا قبل ذلك .

ويبدو أن الترك أحسوا بقوة إنجلترا بحريًّا ، وأنها ستكسب لا محالة معركة الساحل ، فالبحر طوع أمرهم ، والإدريسى حليفهم ، فاتجهوا باستعداد كبير إلى لحج يقصدون به غزو عدن من ناحية البر . وكانت نظرة القائد العثمانى صائبة فعـلا ، فقد بعـد هـو عن مناطق قـوة الإنجليـز - الساحل وعسـير وهـى مناطـق بحـريـة - وضربهم فى نقطة ضعفهم - وهـى المناطق البريـة - حيث ينقصهـم الجيـوش والاستعـدادات . وقـد أثـار ضرب إنجلترا لمينـاء

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 176

(٢) Hogarth ; Arabia, p. 127

« اللحية » غضب الإدريسى نفسه – وهذا أمر جدير بالملاحظة – إذ كتب إليهم يعبر عن أسفه وألم شعبه لضرب هذه المدينة العربية بالقنابل(١) . ومن الجائز أن يكون الإدريسى حسن النية وأساءه هذا فعلا ، فهو يكره العثمانيين فقط ، ولكن ضرب المدينة قد تناول الجميع بما فيهم الأهالى العرب .

أما ما تلا ذلك من أعمال حربية فى هذه المنطقة فليست ذات قيمة تذكر ، فما هى إلا تحركات ضيقة للمحافظة على المراكز . وكان للعثمانيين عدد ضخم من الجنود فى هذه الجهة على نحو ما أشرنا عند ذكر توزيع الجيش العثمانى فى اليمن . ولكن رغم ذلك لم يقم العثمانيون أو الإدريسى ، على السواء ومن الناحية العملية ، بنشاط حربى يذكر . وعادت بريطانيا فعقدت مع الإدريسى معاهدة أخرى فى ٢٢ يناير سنة ١٩١٧ ، اعترفت فيها بأن السيد الإدريسى قد استولى على جزر « فرسان » من الأتراك ، وأنها أصبحت جزء من ممتلكاته « كما أكدت استقلاله فى جميع هذه الممتلكات » لأنها كانت تعتبره حليفًا لا أميراً محميًا(٢) .

ويمكن تفسير قلة النشاط الحربى فى هذه المنطقة – أو بالأحرى بين الإدريسى والعثمانيين – بخوف كل منهما من الآخر . فالعثمانيون كانوا يقدرون تحالف الإدريسى مع الإنجليز حق قدره ، ويعرفون نتائج اعتدائهم على الإدريسى كما كانوا يدركون قوة الأسطول الإنجليزى ، لذلك لم يفكروا إلا فى الدفاع فقط ، وكانوا يرصون بذلك تمام الرضى أما من ناحية الإدريسى فيمكن القول أيضًا إنه كان يخاف العثمانيين ويخشاهم ، حقا لقد كان مركزه قويا بتحالفه مع الإنجليز ، وكان يمكنه مضايقة الأتراك على الساحل ما دام الأسطول يساعده من البحر ، ولكن الإدريسى بعد حركاته الأولى ارتاب فى موقف إنجلترا منه ، وخاف من انتقام الأتراك بعد ذلك . فهو يعرف أن

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 164,

(٢) Hurewitz ; Diplomrcy in the Near and Middle East, Vol.II, p. 12.

بريطانيا كانت دائماً حليفة السلطان العثمانى ، كما أكدت له الأحداث أن ألمانيا ستهزم فى هذه الحرب ، ولكنـه كان لا يعرف موقف بـريطانيا من تركيـا فى حالة انتصار الأولى الـذى كان مؤكـداً . هل سترجع إلى صداقتها الأولى مع تـركيا ؟ وهل ستتركهـا فى اليمن كما كان الحال قبـل ذلك ؟ وقد أقلقـه هـذا بشدة فهـو يخاف أن ينتهى تحالفه مع إنجلترا بنهاية الحرب ، فى نفس الوقت الذى تبقى فيه تركيـا فى اليمن فتنتقم منه انتقـامًا شـديداً ، وخاصـة إذا تمادى فى جرأتـه عليها الآن. وقد أثـار ارتيابـه هذا ، سكـوت الإنجليز على هجـوم الأتراك على لحج ، ورأيناه يعبر عن هذا بأنه « تـراخيًا وكسلا من إنجلترا لا ضعفًا » أى إنها تقصد التراخى أو الكسل ، وهذا ما يخيفه . لهذا كله ، نرى أن وجهة نظره بدأت تتحدد بشكل واضح ، فكان يـرى أن على إنجلترا أن تعمل على طرد العثمانيين أولا من اليمن ، وعندئذ يخلص هو لإنجلترا تمام الإخلاص . وقد اتضح خوفه وتردده فى موقف لـه دلالته ، وهو أنـه بعد أن استولى على جـزر « فرسان » من يـد الأتراك خاف أن يرفع عليها علمه هو ، فيزيد بذلك ثائرة الترك عليه ، كما خاف أن يرفع العلم البريطانى عليها لأن هذا سيجر عليه اللعنة والسخط ، كما أنه سيتهم بأنه باع هذه الجزر[1] وعلى كل حال لقـد ظل التحالف الإدريسى الإنجليـزى قائماً حتى نهاية الحرب وخروج الترك من اليمن ، بل إلى مـا بعد ذلك ، كما سنرى فيما بعد.

استفـاد السيـد الإدريسى من تحالفـه مع إنجلترا استفـادة ضخمـة من النـاحية الاقتصـادية ، لأن مـوانيه ظلت مفتـوحة فى وقت حـوصرت فيه بـاقى الموانى اليمنية كلها . وقد أفاده هـذا كثيراً ، إذ أصبح المحتكر الوحيد فى المنطقة وتحكم فى التجارة والأسعار ، كما خلصه ذلك من الاختناق والضيق الذى أحس به باقى سكان اليمن ، حتى سكان السواحل منهم .

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, pp. 176-177 .

ويبرز شدة الفاقة والحاجة التى سببها الحصار البحرى للأهالى ، وما ترتب على ذلك من نتائج ، من أن بعض مشايخ القبائل التى تعيش على ساحل البحر الأحمر عرضوا خدماتهم على إنجلترا . بل ذهب شيخ « خوخة »[١] إلى عدن يشكو عدم اهتمام بريطانيا به وبقبيلته ، وعرض استعداده لتقديم الخدمات لها . ولم يقتصر الأمر على القبائل أو المدن الصغيرة ، بل وصل الأمر إلى أن قبيلة الزرانيق - وهى أكبر وأقوى قبيلة على الساحل اليمنى وكثيراً ما كانت تثير القلاقل والاضطرابات للعثمانيين - تقربت كذلك للإنجليز ، وعرضت عليها موانيها لاستغلالها ، وكان الحصار قد أضناهم ، وأوقف تجارتهم، ورفع الأسعار أضعاف المرات ، مما جعلهم غير قادرين على الشراء أو حتى على بيع ما لديهم . ولكن انجلترا فى كل الحالات ، كانت ترفض بلباقة كل هذه العروض لكثرة مشاغلها ، وعدم رغبتها فى توسيع التزاماتها فى هذا الوقت العصيب . وقد أدى هذا الانشغال ، بالإضافة إلى شدة ضغط الحصار ، إلى التجاء الزرانيق إلى فرنسا فى جيبوتى على الساحل الأفريقى المواجه لها ، ولكن هذه رفضت خدماتهم كذلك ، وأحالتهم إلى عدن[٢] .

وقد أصيب العثمانيون والإمام كذلك بوطأة الحصار ، وكانوا يحاولون الحصول على احتياجاتهم من مصادر مختلفة ، وكانت الأرض نفسها من المصادر الهامة مما دفع العثمانيين إلى احتلال لحج ، ثم اتخاذ موقف مسالم فيما بعد ذلك .

وقد عبر الواسعى عن هذه الحالة بقوله : « ودخلت سنة ١٣٣٣ هـ (نوفمبر ١٩١٤) واشتدت الحرب العظمى وامتنعت البوابير البرية والبحرية وأصاب الناس ضرر شديد بسبب ذلك ، ومكثت الحرب خمس سنين إلى

---

(١) وهى من الموانى الهامة على الساحل من ناحية التصدير والاستيراد وما تقدمه من خدمات للسفن .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia, pp. 173-174

نهاية سنة سبعة وثلاثين . واليمن فى الزراعة والثمار هذه المدة قد تحسنت حالها ، ولم ينقطع عنه إلا الغاز والسكر وسائر الأشياء من الزراعة والمأكولات واليمن استغنى بنفسه مع وجود وفرة الفواكه والثمار والعسل الكثير »[١] .

والواسعى هنا لا يعبر عن الضيق المادى الذى أحسه اليمن فحسب ، بل يعبر أيضًا عن لجوء الأهالى هناك إلى العناية بالأرض ، مما زاد من منتجاتها حتى يستطيعوا الاكتفاء ذاتيًا[٢] .

إنسحاب الأتراك العثمانيين من المنطقة :

استمر الوضع هكذا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، حتى أعلنت الهدنة (١٩١٨) وفرض الحلفاء شروطهم ، التى تقضى بتسليم الجنود العثمانيين باليمن والمدينة المنورة وعسير ، مع معداتهم وأسلحتهم . وعندئذ كان على العثمانيين فى اليمن أن يسلموا أنفسهم وأسلحتهم للإنجليز ، وكان ذلك أمراً حتميًّا تفرضه ظروف الحرب العالمية العامة . وهنا ذهب على سعيد باشا قائد القوات العثمانية فى لحج إلى عدن وسلم نفسه ، وكان معه حوالى ألف جندى فاستقبل فيها استقبالا طيبًا ، و « دخل المدينة لا كالمهزوم بل كالفاتح المنصور»[٣] . وقد شهد له « جيكوب » وهو يعتبر عدوًّا له بذلك فقال :

« وقد دخل على سعيد باشا عدن دخول المنتصر ، فقد قابلته الجماهير هاتفة له ، وذلك لأنه حارب بيدين نظيفتين . وكان جنديًّا ممتازاً ، وكذلك إداريًّا من الدرجة الأولى ، وقد أكسبته شخصيته عند زحفه إلى الجنوب كثيراً من الأصدقاء »[٤] . وذهبت الجنود العثمانية فى لحج إلى عدن ، وتجمعت

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٥٨ .

(٢) هذا الحديث يعبر كذلك – غير مباشرة – عن إمكانيات اليمن الواسعة وعن ثرائه الطبيعى مما يؤدى إلى رفاهية شعبه ورفع مستواه .

(٣) الريحانى : ملوك العرب ، ص ٤٠٣ .

Bremond ; Yemen et Saoudia, p, 86 .

(٤) Jacob ; Kings of Arabia, p. 182 .

الجنود العثمانية فى اليمن ، والتى كانت على ساحل البحر الأحمر فى « اللحية » و«الحديدة» . وهنا حملهم الإنجليز إلى عدن كأسرى فمكثوا بها أيامًا ثم نقلوا إلى جزيرة مالطة ثم إلى الأناضول ، وكان تسليم الأتراك هذا بناء على أوامر الأستانة[1] .

ولكن هذه الصورة العامة ، لخروج العثمانيين من اليمن عمومًا ، كانت تحمل فى طياتها تيارات كثيرة من الأحداث ، وتخفى وراءها اختلافات كثيرة وهذه الأحداث لم تكن مفاجئة أو غير متوقعة ، فإن تطور الأحداث اليمنية فى السنوات الأخيرة كانت كلها تتجمع بصورة سريعة ومرتبة للوصول إلى هذه النتيجة الحتمية الهامة ، ألا وهى خروج الأتراك من هذا الجزء العربى وما نتج عن ذلك من نتائج .

وكانت هناك أكثر من قوة لا تعمل على إخراجهم فحسب بل كانت تحرص على أن يكون خروجهم غنيمة لها ، أو كان البعض يحرص على الأقل على ألا يترتب أية أضرار على خروجهم . وكان الإنجليز من النوع الأخير الذين يهتمون أشد الاهتمام بخروج العثمانيين من اليمن ، وكانوا حريصين على ترقب الأحداث التى تتمخض عن ذلك ، إذ كان الأمر يهمهم مباشرة فاليمن يقع على حدود محمياتهم ، ولذلك فهم يهتمون باستقرار الحال هناك كما يهمهم أن يطمئنوا على اتجاه الحاكم فى هذه البقعة المجاورة. وكان اهتمامهم هذا يتركز فى أمرين :

أولا : أنهم كانوا يتوقعون أن يخلف الإمام العثمانيين ، وهو حاكم عربى ومن الإقليم نفسه ، وله شيعته القوية ، وتاريخه المعروف ، وبيته الذى يمتد إلى عدة قرون . هم يعرفون أن الإمام هو الحاكم التالى ، كما يعرفون أن له أطماعه وآماله الخاصة ، وأنه يعتبر أن كل مناطق الجنوب هى أملاكه

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٥ .

وأملاك أجداده ، ولذلك كانوا يترقبون بحذر ما ستتمخض عنه الأحداث . وكان الإمام ينظر إليهم بحذر وتريث ، على نحو ما أوضحنا ، وزاد هذا الحذر وهذا التريث بعد أن عقد الإدريسى معهم معاهدته المعروفة ، وكان هذا أشد ما يخشاه ، فالإدريسى منافسه الكبير فى اليمن ، وكان يهمه أن يقضى عليه بأى حال من الأحوال ، ولا سيما قبل أن يخرج العثمانيون من اليمن . ولكن وقوف إنجلترا إلى جانبه بهذا الشكل التعاهدى ، إلى جانب ما كانت تمده به من المال والسلاح ، كان يعنى مباشرة تعقيد الأمر بالنسبة له ، وإطالة وجود الإدريسى فى هذه المنطقة كمنافس قوى ، له كيانه ونفوذه الخاص . وقد أدى هذا كله إلى توتر العلاقات بين الإمام والإنجليز ، وإن لم يفصح كل منهما للآخر عن شىء ، كما لم يظهر أى منهما أى سلوك عدائى ضد الآخر يعبر عن هذا التوتر القائم فعلا .

ثانيًا : كانت إنجلترا تهتم كثيراً بمسألة الحدود بينها وبين اليمن ، وقد حددت الحدود بين محميات الجنوب وبين اليمن ، أو بمعنى آخر بين منطقة نفوذ إنجلترا ومنطقة نفوذ تركيا فى الجنوب العربى فى سنة ١٩٠٢ -١٩٠٤ وقد أدى هذا الاهتمام إلى التفكير فى ضرورة رجوعهم إلى هذا الخط ، كأول عمل يقومون به بعد خروج الأتراك العثمانيين[١] .

كان الإدريسى هو القوة الثانية التى كانت تهتم بخروج العثمانيين . وكان يرمى إلى أن يستفيد من هذا الخروج ، فيعمل على تحقيق أغراضه . وفى واقع الأمر لقد تلاقت مصالحه مع مصالح انجلترا ، فكلاهما كان يضايقه وجود الأتراك فى اليمن ، وكذلك كان كلاهما يخاف أن يرث الإمام الأتراك ، ويخشى قوة الإمام ونفوذه ، وخاصة بعد أن يصبح مستقلا فى بلاده . وقد أدى هذا

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, pp . 172-173 .

الالتقاء ، إلى أن قام الإنجليز بضرب الحديدة بالقنابل من البحر ، واحتلالها ، ثم تسليمها للإدريسى بعد ذلك . وكان الإدريسى يقصد باحتلال تهامة اليمن بما فيها الحديدة ، حرمان الإمام من الاتصال بالبحر ، وبذلك يضعف قوته ويكسر شوكته .

أما القوة الثالثة ، فهى قوة « الإمام يحيى » الذى كان يعتبر نفسه الوارث الطبيعى لليمن بعد خروج الأتراك منه . وكان قد بدأ تنفيذ خطته - للوصول إلى أغراضه - بمهارة وحذر منذ صلح دعان سنة ١٩١١ - بل منذ توليه الإمامة عام ١٩٠٤ - ولقد قلنا إن موافقته على هذا الصلح ، كانت جزءاً من خطته ليرث الترك .

وعلى الجملة يمكن القول إن التاريخ الذى ورثه الإمام ، وتاريخ الإمام نفسه ، يجعلنا نقول إن توليه الأمر فى اليمن كان أمراً متوقعًا فى هذه الفترة .

موقف الإمام عند الانسحاب :

وقف الإمام موقفًا محايداً أثناء الحرب العالمية - بينا من قبل حقيقة هذا الحياد - وقد تمسك الإنجليز بهذا الموقف بعد انتهاء الحرب ، فبنوا سياستهم على هذا الأساس بالنسبة له . أما العثمانيون فكان لهم موقف آخر ، فمن ناحية ، اعتمدوا على الإمام فى بعض النواحى ، وقد سبق أن بيناها ، كما ضمنوا من ناحية ثانية - وهذا هو الأهم - عدم قيامه بأى عمل عدائى ضدهم ، مما شجعهم على الزحف إلى لحج ، وقد أرضاهم هذا الموقف من الإمام تمام الرضى . ولكن هذا الرضى كان من ناحية الوالى فى الغالب ، أما القائد العسكرى لحملة لحج ، وهو على سعيد باشا ، فكان له رأيه المخالف سواء فى الإمام أو فى موقفه . وكان سبب هذا - كما نعتقد - هو أن سعيد باشا بصفته رجلا عسكريا ، كان لا يشغله إلا الانتصار وإمكانياته ، فكان يود أن ينضم إليه الإمام فى مهاجمة لحج ، أو يوافق على مهاجمتها على الأقل ، ويدفع

بعض أنصاره لمصاحبة سعيد باشا . ولكن الإمام كان قد عارض مهاجمة لحج بشدة ، ووقف موقفًا سلبيًا من الحرب ، مما أغاظ سعيد باشا لأنه كان يدرك أن وقوف الإمام إلى جانبه يعنى الانتصار . هذا التفكير العسكرى أدى بسعيد باشا إلى عدم الموافقة على القيام بأعمال إيجابية لمصلحة الإمام عند انتهاء الحرب . بل أعلن أنه سيسلم البلاد التى تحت يده إلى الإنجليز ، إذا لم يسارع من يهمه أمر الجنوب فى الذهاب إليه ليتسلمها منه . وقد اتهم سعيد باشا فى أنه خان وطنه ، وسلم البلاد للأعداء نتيجة ارتشائه وسعيه وراء المال ، ولكنه رد هذه التهم إلى أصحابها ورماهم بالجبن والتقاعس ، وذلك فى الخطابين اللذين وجهها إلى القوات العثمانية فى صنعاء ردًا على هذه التهم[1] . (انظر ملحق ٣-٤) .

ويوضح على سعيد باشا فى هذين الخطابين لا تقاعس الإمام عن الاشتراك فى محاربة الإنجليز لإخراجهم من عدن فحسب - وهم فى تلك الفترة العصيبة- بل أكد فيهما تقاعس الإمام عن الإسراع إليه عند نهاية الحرب العالمية الأولى ، ليتسلم منه الأراضى التى تحت سيطرته قبل أن يسلمها مضطرًا إلى إنجلترا .

أما الإدارة العثمانية التى فى صنعاء فقامت بأعمال تخدم قضية الإمام . فقد رأى الوالى محمود نديم ، والقومندان أحمد توفيق ، أن يدخل الإمام

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢٥٤ .

ذكر العبدلى فى كتابه (ص ٢٥١-٢٥٥) ترجمة لكتابى سعيد باشا اللذين أرسلهما فى نوفمبر سنة ١٩١٨ إلى أحمد توفيق باشا القائد العام فى صنعاء وإلى حسين باشا المتقاعد الذى كان فى صنعاء أيضًا ، يدافع فيهما عن نفسه ويوضح الخدمات التى قام بها لليمن وأهله .

وقد ذكر العبدلى بين ملاحق كتابه الأصل التركى لهذين الخطابين وهما وثيقتان هامتان يوضحان حقيقة القوى المختلفة - وموقف الإمام بالذات - حيال الأحداث الجارية فى هذه المنطقة . وهما كذلك يلقيان أضواء هامة على سير العلاقات الإمامية الإنجليزية التى سنتناولها فيما بعد .

صنعاء ، وأن يستلم قصر « غمدان » و ما فيه من المعدات . كما أمر القومندان بتسليم الأسلحة والمدافع وكل ممتلكاتهم الحربية للإمام مقابل - كما قالوا حينئذ- ما كان له من ديون عليهم[١] .

وحاول محمود نديم بك - أكثر من ذلك وقرب خروج العثمانيين - أن يبرز شخصية الإمام ، وأن يمنحه مظاهر السيادة والسلطات . ويتضح هذا من كتابه إلى والى عدن المؤرخ ١٦ تشرين ثان سنة ١٩١٨ فقد جاء فيه : « اطلعت على شروط الهدنة المطوية بكتابكم ، وقد أمرتنا حكومتنا قبل الحرب أن تجرى جميع الحركات فى اليمن بالمشاورة مع حضرة الإمام ، وبناء عليه فقد تواجدنا مع حضرته للمذاكرة بخصوص الهدنة ، وكانت نتيجة المذاكرة كما يأتى :

١ - لم يصل إلينا ولا إلى حضرة الإمام أمر من حكومتنا فى حركة العساكر العثمانية بهذه الصورة مع ترك السلاح بموجب المادة ١٦ من شروط الهدنة ، ومع اعتمادنا على صحة تبليغكم العالى فإنكم تسلمون معنا بأنه لا يمكن تحركنا من دون أن يبلغنا أمر .

٢- من حيث إن أمر البلاد فى يد حضرة الإمام فالأمر الوارد إلينا المنقول صورته أعلاه والتلغراف المرسل منه إلى جنابكم العالى المؤرخ ١٠ صفر ١٣٣٧هـ يضمن عدم إمكان خروج فرد واحد من العثمانيين من هنا ذكر أم أنثى فضلا عن العسكر .

٣- فى المادة ١٦ من شروط الهدنة وفى المادة (٥) المصرح بها وفى عموم شروط الهدنة لا يوجد إيضاح ولا حتى إشارة أن تترك الحكومة الملكية أمور الإدارة .

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٥ .

٤- بالنظر إلى أن حقوق إلغاء الهدنة اليوم هذا فى يد حضرة الإمام لا أرى وسيلة لتنفيذ ذلك سوى وصول مأمور مخصوص من دار السعادة وجلب أمر تلغرافى واضح بالشفرة التى بينه وبين الصدارة .

٥- إذا وجب خروج الحكومة الملكية من هنا سواء كان فى أثناء الهدنة أو فى خلال عقد الصلح يتوقف نقل المأمورين وعائلاتهم على تسوية مطلوبات حضرة الإمام ، وينحصر على استحصال رضاة القطعى وعلى تأمين داخلية البلاد . وهذا لا يتأتى إلا بالقوة العسكرية والقوة المعاونة التى يضاف عليهم من طرف حضرة الإمام برضاه واختياره ومع أنى مقتنع بهذه النظرية أرجو استحصال رضاء حضرة الإمام وإبقاء العساكر الموجودة هنا لتأمين داخلية البلاد بموجب المادة (٥) من شروط الهدنة .

٦- حيث إن المادة (١٢) من شروط الهدنة تسمح بالمخابرة الرسمية ، أطلب حق المخابرة مع حكومتى للقيام بواجبى بحكم منصبى المودع فى عهدتى[1].

وهكذا يظهر بوضوح محاولات محمود نديم بك لإبراز أهمية الإمام ، وتمهيده له بكل إخلاص ليخلفهم فى حكم اليمن ، وإخلاصه هذا هو الذى دفعنا إلى أن نذكر نص الخطاب لنرى جميعًا اللهجة التى كان يعبر بها . ففى هذا الخطاب، يظهر بجلاء كيف يحاول أن يثبت للإنجليز ، شخصية الإمام التاريخية، وأنه أصبح الوارث الطبيعى لهم والحاكم الشرعى لليمن بعد خروجهم. ويصل أحيانًا فى خطابة ، إلى أن يوحى إليهم أو يدفعهم إلى أن يتصلوا أو يتفاهموا مع الإمام حاكم البلاد - من وجهة نظره الخاصة - الفعلى والشرعى .

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

وهذا الموقف يختلف تمامًا مع موقف سعيد باشا الذى رفض أن يتحمس للإمام ، كما امتنع عن أن يساهم أية مساهمة فى رفع شأنه - عند انسحاب الأتراك - أو توريثه تركتهم. وهذا الاختلاف فى موقفهما هو الذى أدى إلى اختلاف مجرى حياة كل منهما ، فبينما سافر على سعيد باشا إلى الأناضول كجندى انتهى من مهمته فى بقعة من بقاع الإمبراطورية ، نجد أن محمود نديم بك فعل العكس ، إذ آثر البقاء فى اليمن هو وبعض الموظفين الآخرين من العثمانيين - بلغ عددهم حوالى تسعمائة - تحت ظل حكومة الإمام « المتوكل على الله » . فأقاموا هناك ، وقد أعطاهم الإمام « الرواتب والمعاشات اللازمة » وقد عين بعضًا منهم فى المناصب الحكومية »[1] . ولمعت فعلا بعض الأسماء التركية ممن بقيت فى اليمن ، مثل نديم بك وراغب بك حيث استعان الإمام بخبرتهم فى إدارة مملكته الناشئة .

وعلى كل حال لقد كان للإنجليز موقف آخر يغاير موقف محمود نديم من الإمام . فقد اعتبروا الإمام محايداً ، وبالتالى لا يمكن الاتصال به لأنه لم يكن طرفًا فى الحرب ، وأن أحكام الحرب مرجعها للقوة فقط ، وأن على الترك أن يخضعوا فقط دون شروط ، فهم لا يملكون غير ذلك ما داموا قد انهزموا فى الحرب . وهذا ما حمله كتاب والى عدن رداً على كتاب نديم بك فقد جاء فيه : « أخذت تلغرافكم المؤرخ ١٦ تشرين ثان سنة ١٩١٨ ، فليكن معلومًا لدى أصالتكم أن قوة النفوذ العسكرى فى زمان الحرب مرجحة على كل القوى ، وكذلك عموم شرائط « المتاركة » (شروط الهدنة) التى من طرف العسكرية ليست على تركيا وحدها فقط ، فألمانيا أيضًا قد قبلت تلك « المتاركة » جبراً ، ولذلك لم نرفع الكيفية لأصالتكم ، فلا نرى لزوم أن نذكر أمراً آخر بخصوص الإدارة الملكية ليتوقف أمرها وتابعيتها

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٥ .

Bremond ; Yemen et Saoudia, p, 87,

للعسكرية ، وبما أن حكومة إنجلترا وحلفاءها لا ترى لزومًا لإجراء مقاولة أخرى مع الإمام لكونها لا تعده متفقًا مع تركيا بل تعده محايداً إلى الآن . فقبول تركيا لشروط الهدنة جبر ، وبما أن بين حكومة إنجلترا والإمام وداد قديم ، كنت قد أخبرته بشروط الهدنة من طرف الحكومة ، وبينت له أن الحكومة تنتظر منه بذل المعاونة الكلية بخصوص جلاء الإدارة الملكية وقوة الأتراك العسكرية . وأخبرته أيضًا أن الحكومة الإنجليزية قررت أنها ستحل المسائل المالية والأرضية فى المستقبل . أما الأمر الذى أخذته من نظارتنا الحربية فى لوندرة فيتضمن إرسال عموم المخابرات التلغرافية التى نأخذها منكم من اليمن بواسطتها لأجل نقلها إلى استنبول ومع هذا أعرض احتراماتى الخاصة »[١] .

وقد كان اختلاف وجهات نظر الإنجليز مع الوالى نديم بك بالنسبة لقضية الإمام ، هو سبب ما ثار من مشكلات بعد ذلك بين الإمام والإنجليز على الحدود والممتلكات ، ودافعًا على احتلالهم الحديدة ، ثم تسليمها إلى الإدريسى دون الإمام ، وبالرغم مما أشاروا إليه فى الخطاب السابق من علاقات ودية معه . وسنوضح فيما بعد حقيقة هذه العلاقات ، ونفسر ما قد يبدو من تناقضات هنا .

وإذا حاولنا ترتيب أحداث هذه اللحظة التاريخية الهامة ، نجد أن الإمام دخل صنعاء بناء على دعوة محمود نديم بك فى صفر سنة ١٣٣٧ هـ[٢] . (نوفمبر سنة ١٩١٨) وفى الشهر التالى مباشرة أى فى ربيع الأول سنة

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٦ .

١٣٣٧هـ قام على سعيد باشا بتسليم نفسه وعساكره لوالى عدن[١] ، وفى نفس الوقت تقريبًا كانت الحديدة هدفًا لقنابل الإنجليز من البحر - لأنها حاولت المقاومة ، ونتيجة لتردد نديم بك فى التسليم - ثم احتلتها الجنود الإنجليزية بعد ضربهامباشرة[٢] ، وهكذا تمت أكثر من حادثة تاريخية فى خلال مدة وجيزة . وهى حوادث كان لها أثرها فيما بعد ، فدخول الإمام صنعاء ، كان يعنى أنه صمم على أن يلعب الدور الذى رسمه لنفسه منذ أمد بعيد . وضرب الإنجليز للحديدة ، كانوا يرمون من ورائه وضع أقدامهم فى اليمن ، لمواجهة الإمام بالأمر الواقع حتى يستطيعوا أن يساوموه على الحديدة . وكانوا يعرفون مدى أهميتها له ، وقد انتهزوا هذه الفرصة لوضع يدهم عليها حتى لا يتهموا بالاعتداء بعد ذلك . وادعوا أن الفرق الإنجليزية دخلت الحديدة للمحافظة على السلام والنظام ، وأن المدينة سوف تعود للإمام ثانية ، وذلك كما جاء فى رد والى عدن على الإمام ، الذى احتج على ضرب المدينة وأرسل لهم معبراً عن ذلك[٣] .

وقد وصف الواسعى حادثة ضرب الحديدة بالقنابل واحتلالها بقوله :

« وفى هذه السنة (١٣٣٧هـ - ١٩١٨م) هجم الإنجليز على الحديدة بإحدى عشرة (سفينة) على حين غفلة بعد طلوع الفجر من غير إعلان ولا استعداد ، وضربوها بالمدافع وخربوها ، وذهبت أموال كثيرة ، وفر

---

(١) العبدلى : هدية الزمن ، ص ٢٦٠ .

(٢) Ameen Rihani ; Arabian Peak and Desert , p, 228.

(٣) Ibid ; p, 229,

أهلها إلى التهـايم فى حالة يـؤسف لها ، ولم يأخذوا معهم شيئًـا ، وكل أحد نجا بنفسه ، والمدافع تطلق قنـابلها ، ثم احتل الإنجليـز الحديدة ، وتـراجع الناس ، وصار أكثـر الناس يسكنون الخرائب وفى البيوت القش ، وبعضهم صلح منـزله بما يقدر عليه »[١] .

وهكذا انتهى الحكم العثمانى فى اليمن ليبدأ اليمن عهده كدولة مستقلة .

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٦٢ .

القسم الثالث

اليمن بعد الاستقلال

١٩١٩ - ١٩٤٨

الباب الأول

تدعيم الاستقلال

١٩١٩ - ١٩٣٤

الفصل الأول

نتائج الحرب العالمية الأولى فى الجزيرة العربية

أحوال الجزيرة بعد جلاء الترك :

قبل الترك شروط هدنة مندروس فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ ، وقبلوا الجلاء عن مراكزهم فى الجزيرة العربية بناء على هذه الشروط ، وقد تم انسحاب قواتهم من اليمن وعسير فى أوائل عام ١٩١٩(١) .

وأدى خروج الأتراك عن الجزيرة العربية إلى الكشف عن وجود أكثر من سيد وزعيم عربى ، عمل كل منهم على تدعيم مركزه وسيادته.ولم يكن ظهور هذه الزعامات المحلية فى الجزيرة العربية - بعد الحرب العالمية الأولى - وليد المصادفة ، بل كان نتيجة وجود كيانات صغيرة متفرقة ، كانت تحاول أن تتنفس الصعداء تحت الحكم التركى ، وكانت تعمل حينئذ على تأكيد وتدعيم شخصياتها المستقلة ، وقد اتضح فى القسم الثانى أغلب هذه المحاولات الفردية ضد الحكم التركى صاحب السيادة ، واتضح اختلاف وسيلة كل منهم عن الآخر من أجل تحقيق غاياته الخاصة ، وإن اختلفت كذلك وسائلهم بين سلام وحرب ، أو بين مجاهرة بالعداء ومراوغة فى العلاقات . وهكذا فكأن انتهاء العهد التركى لم يكشف عن وجود هذه الكيانات المستقلة التى ظهرت معالمها أثناء وجوده فحسب ، بل إنه أتاح الفرصة أيضًا لهذه الزعامات أن تعمل بحرية، دون تأثر بالنفوذ التركى بل تدفعها فقط مصالحها الخاصة ، ورغبتها فى البقاء والنمو .

---

(١) Bremond ; Yeman et Saoudia, p. 84 .

ومن أجل هذه المعركة الحيوية التقليدية ، اصطبغت علاقة هؤلاء الزعماء الجدد - بعضهم ببعض - بصبغة التنافس والعداء . لهذا كله يمكن القول إن هذه السيادات الصغيرة دخلت الآن - بعد خروج الترك مباشرة - مرحلة تاريخية جديدة ، اتسمت بمظاهر جديدة تلائم عصر استقلالها .

بعد زوال الحكم التركى من الجزيرة العربية ، برز فى الجزيرة يومئذ خمس إمارات ، أو حكومات تتنازع السيادة والفوز ، هى إمارتا نجد وشمر فى الشمال، ودولة الحجاز فى الوسط ، وعسير واليمن فى الجنوب . وإلى جانب تلك السيادات كانت توجد إمارتان صغيرتان ، الأولى فى الجوف شرقى الشام يسيطر عليها آل الشعلان ، وكانت فى الأصل خاضعة لآل الرشيد فى « حائل » ، فلما ضعف شأنهم جاهرت بالانفصال عنهم ، والثانية إمارة آل عايض فى أبها (وشرق نجد وغربى إمارة صبيا) وقد استقل هؤلاء فى أبها ، وتسلموها من الترك حين جلائهم سنة ١٩١٩[1] .

وكانت مملكة الحجاز هى أبرز هذه الحكومات وأهمها ، وذلك لما لعبته من دور هام إلى جانب الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى ، كما يرجع ذلك أيضًا إلى أهمية الأشراف فى مكة فى العالم الإسلامى فى ذلك الوقت ، لما يحتلوه من مكانة قدسية فى قلوب المسلمين باعتبارهم حماة للمدينتين المقدستين . وقد عبر ابن السعود عن هذا المركز المعنوى الممتاز للملك حسين فى خطبة له فى جمع من علماء مكة بعد دخولها ، وبعد هزيمة الحسين .

---

(١) المقتطف : الجزء ٥ ، المجلد ٨٤ ، ص ٦٠١-٦٠٢- من مقالة لأمين سعيد (الجزء الصادر فى أول مايو ١٩٣٥) .

وسـواء كانت هـذه الكلمات السعوديـة لغـاية سيـاسية ، وهى تهدئة بـال الحجازيين ، أو لكسبهم إلى جانب الفتح الجديـد ، فإنها تدل على ما كان يتمتع به الحسين من شهرة ومكـانة سامية . ولكن هذه الكلمات الـودية لا تنفى وجود العـداء المستحكم - لا بين هـذين الحاكمين فحسـب - بل بين أمـراء الجزيـرة العـربية كلهـا . وقد فشل الحسين - وكـان المأمول أن يلعب الـدور الأهم - فى تدبر الأمر بحكمة ، ورفض الاعتراف بوجود الكيانات العربية الأخرى المستقلة، كما رفض أن يتعامل معها إلا كتوابع له .

فقد أوهمته الأحـداث التاريخية السابقـة لإعلانه ملكًا على الحجـاز ، ومنها وعـود إنجلترا أثنـاء الحرب ، أنه ملك على العـرب ، بل خليفـة للمسلمين . كما سيعلن ذلك فيما بعد بقليل .

وقـد تـوقعت إنجلترا بعد الاعتراف بـه ملكـًا على الحجـاز ، اعتراف جميع الأمراء بتفوقه الاسمى هذا ، ولكنهـا لم تكن تعرف كيف سيقبل هؤلاء « النظراء» هذه السيـادة الاسمية ، وإن كـانت مجرد اسمية . فلم يستطع الحسين أن يمارس أيـة سيادة - كما كـان يظن - على ابن السعود ، أو الإمـام يحيى ، أو الإدريسى ، سواء مباشرة أو غير مباشرة . بل إن الذين كانوا يؤمنون بسيادته ولو كانت سيادة اسمية ، كانوا لا يعرفون معنى الزعامة عند العرب ، فكل ما كان محتمل وجوده ، هو وجود شكـل دويلات متساوية متعادلـة ، فلا توجد ولايـة متغلبة ، وينطبق على الشريف حسين وصف جيكـوب أنه الأول بين نظـرائه فى الجزيـرة العربيـة « Primus Inter Pares» كما مضى يقول :

« حقيقة أن بعض الشـوافع فى محمياتنا أرسلوا الكتب لتهنئـة الحسين بعد قراءتهم إعلانه للحرب ضد تركيا ، ودعوه فى هذه الخطابات « مولانا - سيدنا - أمير المؤمنين - حـــامى حمى الحرمين » ولكن هــــذه الألقــاب لم تكـن تعنى شيئًا»[١].

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 226-227 .

واضح إذن التناقض البين فى أوضـاع الجزيرة العربية ، نتيجـة وجود حكام يسعون أساسًـا وراء مصالحهم الخاصة فقط ، ونتيجة عـدم استفادة الحسين من مركـزه الاعتبارى الهام بالنسبـة لباقى الأمـراء . ومن هنا نشأ الصراع بين الحسين وبين بـاقى الأمراء ، وبين الأمـراء جميعًا فيما بينهـم دون استثنـاء ، فقد كـان لكل منهـم وجهة نظره الخاصة بالنسبة لجيرانه الأمراء . فإن جانب العداء العنيف بين الإدريسى والإمـام ، الذى اتضح من قبـل ، فإن الشريف حسين كان ينفـر من وجود الإمارة الإدريسية على حدوده الجنوبية ، ويعد صاحبها مغتصبًا ، ويرى أن عسير جزء لا يتجزأ من الحجـاز فيجب أن تعاد إليه . وكان هـذا يتعارض طبعًا مع رغبـة الإمام يحيى فى ضم عسير لليمن ، ومعنى ذلك أن الإدريسى كـان بين عدويـن قويين فى الشمال وفى الجنـوب ، يتربصان الفـرص للانقضـاض عليه ، وإلى جـانب هـذا كـان هنـاك عـداء مستحكم فى الشمال بين ابن السعـود وآل الرشيد فى شمر[١] .

وكان الحسين يتحـدث عن الإدريسى بطريقـة متعالية متكبرة ، فقـال عنه ذات مرة « إن الإدريسى رجل لم يعترف بـه أحد ليكون شيئًا على الإطـلاق ، وقد ادعى نفسه شيخًا واستقـر فى مكان لا يحكمه أحد » . كما أنه إلى جـانب إشادته بـالدور القيـادى الـذى لعبه اليمن فى التـاريخ الإسـلامى ، وإعـرابه عن حبـه للإمـام، إلا أن هذا كان مشروطًا بألا يمتدحكم الإمام إلا على الـزيديين فقط . ومن نـاحية أخـرى كـان الحسين لا يتوانى عـن أن يصب جام غضبـه على ابن السعود ، كما كان يغار من نجـاح أى أمير عربى . وقد عبر ابنا الحسين - فيصل وعبد الله - عن وجهة نظر أبيهما ، وكان فيصل من ناحية يرغب فى أن يوحد أهل الجـزيرة تحت رايـة أبيـه « وبذلك يمـوت المتهرطقـين (يقصد الوهابيين) خنقًا فى صحرائهم الداخلية الجرداء » ، وكان يرى أنهم إذا فشلوا فى هذه الخطة ،

(١) المقتطف: الجزء ٥ ، المجلد ٨٤ ، ص ٦٠١ .

فإن كل انتصاراتهم ضد الترك ستذهب هباء . وكان عبد الله من ناحية ثانية ، رغم أنه يكره امتداد الإدريسى نحو الحديدة ، يشك أيضًا فى أغراض الإمام يحيى ، فكان ينظر شزراً ناحية اليمن ، ويعتقد أنه ما دامت انجلترا لم تعقد مع الإمام أية معاهدة ، فإن عليها ألا تظهر أى اعتراض أمام أبيه فى الهجوم على الإمام إذا أظهر هذا أى تمرد . وكان الإمام بدوره لا يعتبر الشريف حسين بطلا تاريخيًا ، فقد سبقه فى الثورة ضد الأتراك ، كما كان يرى أن لقب أمير المؤمنين خاص به وحده دون منازع[1] .

وقد زاد من تناقض الأوضاع فى الجزيرة العربية وجود النفوذ البريطانى فيها بصورتين مختلفتين : الأولى عن طريق عقد المعاهدات ، فكان بين الإنجليز وبين ثلاثة من أمراء الجزيرة معاهدات تنظم علاقاتهم بهم وكان الإدريسى متحالفًا معهم ، منذ أبريل سنة ١٩١٥ ، كما عقدوا مع ابن السعود معاهدة «العقير » فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ ، وقد اعترفت فيها إنجلترا بأن « نجداً » و« الأحساء » و « القطيف » و « جبيلا » وتوابعها هى بلاد ابن السعود ، كما اعترفت به حاكما عليها ، وتعهد هو بأن لا يسلم ولا يرهن ولا يؤجر الأقطار المذكورة ولا قسما منها ، ولا يتنازل عنها بطريقة ما ، ولا يمنح امتيازاً لدولة أجنبية أو لرعايا دولة أجنبية دون موافقة الحكومة البريطانية ، وأن يتبع مشورتها دائمًا بلا استثناء على شرط ألا يكون ذلك مجحفًا بمصالحه ، كما تعهدت له بريطانيا بالمساعدة . أما الإمارة الثالثة فهى إمارة الأشراف فى مكة ، التى انضمت إلى الحلفاء نتيجة المحادثات المعروفة بمحادثات الحسين -

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 228-230 .

مكماهون « وقد اعترفوا بالحسين وباستقلاله التام بدون قيد ، وعاملوه معاملة الند للند »[١] .

أما الصورة الثانية للنفوذ البريطاني في الجزيرة ، فكان النفوذ المادي المباشر في جنوب الجزيرة وإمارات الخليج الفارسي .

ونحن لا نشير إلى خطورة النفوذ البريطاني - بصورتيه - في زيادة التناقضات في الجزيرة لتدخلهم المباشر العلني في شئونها فحسب ، بل إلى تأثير هذه العلاقات غير المباشر أيضًا . فقد كانت تمنح المعونة المالية والسلاح لكل من تعاهد معها ، وكان هذا بالتالي يقوى ساعد هذا الأمير أو ذاك ، مما يؤدى إلى تعصبه في مطالبته بحقه ، وإلى استعماله القوة ، إذا لزم الأمر ، في تحقيق مصالحه الخاصة ، أو في محافظته على هذه المصالح ضد أطماع الآخرين . ومعنى هذا وجود عامل خارجي إلى جانب العامل الداخلي ، عملا معًا على تنمية التناقضات في الجزيرة العربية ، تلك التناقضات التي حددت مجرى أحداث الفترة القصيرة التالية التي ازدحمت بالأحداث والنتائج . وقد تبلور الصراع المحلي الداخلي ، بين أمراء الجزيرة إلى أن أصبح محصوراً في ميدانين : في شمالها بين الملك حسين وابن السعود ، وفي جنوبها بين الإمام يحيى والأدارسة .

الحرب في شمال الجزيرة العربية ونتائجها :

اتخذ الصراع سواء في الشمال أو في الجنوب الصورة الحربية .

وكان النزاع قد وصل في أوائل سنة ١٩١٤ إلى قمته من حيث توتر العلاقة بين الملك حسين وسلطان نجد ابن السعود . وكان الانفجار متوقعًا بين لحظة وأخرى ، إذا لم يحدث أية تسويات بينهما . وكان على بريطانيا أن تقوم بعمل

---

(١) المقتطف : ج ٥ ، المجلد ٨٤ ، ص ٦٠١-٦٠٢ .

هـذه التسويـات إذ كـان الطرفـان من حلفـائها ، كما أنها تمنح كـلا منهما المال والتأييد ، ولكنهـا كانت مشغولـة حينذاك فى تسويـات الصلح فى أوروبا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى . وكـانت نقطة الاحتكاك الأولى بين الطرفين ، التى حولت الحرب من باردة إلى ساخنة ، هى واحة « الخرمة »[1] . وكان ابن السعود يستولى على الواحـة فعلا بعد أن تنازع حـاكمها الهاشمى مع الحسين وانضم إلى الوهابيين . وقـد حاول الشريف أن يستولى عليهـا بالقوة ثلاث مـرات أثناء سنة ١٩١٨ ، ولكنه فشل فى كل هذه المرات . وأعاد الكرة سنة ١٩١٩ ، واستطاع أن يحصل على تأييد بـريطانيا هذه المرة ، واعتقد أنها تستطيع أن تصـد ابن السعود عن تقديم أية مساعدة « للخرمة » إذا هاجمها هو . وقد علم ابن السعود بالتأييد البريطـانى للملك حسين من الحاكـم المدنى فى بغـداد ، وحـذر من أن يخالف رغبة صـاحب الجلالة ملك بـريطانيا وإلا سيفقـد الإعانة البريطـانية الشهـرية وهى حوالى ٥٠٠٠ جنيـه . وكون الملك حسين قـوة ذات شأن من ٤٠٠٠ رجل تحت قيادة ابنـه عبد الله . وجهـزها بـالمدافع والبنادق الآليـة . وتجمعت القوة فى نهاية أبـريل سنة ١٩١٩ عنـد « الطائف » وتقـدمت إلى « الخرمة » عن طـريق «تـربـة » وهنا أسرع ابن سعـود - مخالفًـا رغبـة بـريطانيـا - ليقف إلى جـانـب «الخرمة» وبقى خارجهـا على الحدود النجدية . وكان الأمير عبد الله قـد أرسـل تحذيراً إلى حـاكم « الخرمـة » فرد عليه هـذا بما طمأنه وجعـل جنـده يطمئنون ويـركنـون إلى الراحـة ، ونـام معسكـره فى هـدوء ، إلا أن الوهـابيين قـد باغتوهـم بالليـل ، فتفـرق شمـل الجيش الحجازى ، وفرّ من استـطاع إلى ذلك سبيـلا ، وهـرب عبـد الله نفسـه عنـدمـا أحس بـالخطـر مع أركـان

---

(١) وهى تقع على الحدود الحجازية النجدية على طريق الرياض - مكة .

حربه إلى الطائف ومنها إلى مكة[١] . وقد أدى هذا إلى الاستيلاء على « تربة » أيضًا حيث كانت مسرح هذه المأساة ، وبذلك أصبح الطريق إلى مكة مفتوحًا أمام الوهابيين[٢] . ولكن ابن السعود لم يشأ التقدم بل احتفظ بالمدينتين (خربة- تربة) فقط ، وتجمدت الأوضاع على هذا الشكل إلى حين . وكان هناك أكثر من دافع ، أهمها أنه لا يريد إغضاب بريطانيا أكثر من ذلك ، كما أنه لا يريد إثارة العواطف الإسلامية ضده بمهاجمة المدينتين المقدستين . وكان الشريف حسين فى تدهور مستمر ، فإنه بثورته عام ١٩١٦ ضد الأتراك قد فقد الإعانة المالية التى كانوا يقدمونها له ، كما سحبت بريطانيا إعانتها فى فبراير سنة ١٩٢٠ . وحل به ضيق آخر عام ١٩٢٣ عندما منعت الحكومة المصرية محمل هذا العام من السفر إلى مكة . أما علاقته ببريطانيا فقد ساءت للغاية ، وذلك لأنه رفض إبرام معاهدة فرساى لما جاء فى نص المادة ٢٢ منها ، الذى كان ينص على الانتداب فى البلاد العربية . وهكذا فعندما تجددت الحرب سنة ١٩٢٤ بين الملك حسين وابن السعود ، كان الملك حسين يقف وحده دون معونة خارجية[٣] ، فضلا عن أنه كان واقعًا تحت ضغط الضائقة المالية . وكان من بين أسباب تجدد الحرب المباشرة - بين الحسين وابن السعود - فشل مؤتمر الكويت ، الذى استمر من ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ إلى ٢٦ يناير سنة ١٩٢٤ ، والذى دعت إليه إنجلترا لتسوية منازعات الطرفين . وقد فشل المؤتمر نتيجة إصرار الحسين على ألا يرسل مبعوثين عنه للمؤتمر إلا إذا رد ابن سعود « الحائل » و« الخرمة » إلى الحجاز ، ولأن كل

---

(١) Philby ; Arabia, pp. 268-270 .

(٢) Ibid ; p. 271 .

(٣) M. V. Seton-williams ; Britain and The Arab States, p, 185 .

منهما كان يلقى مسئولية الاضطراب على الآخر[١] . وأعقب هذا ، حدث آخر عجل بمصير الحسين ، فقد أعلن نفسه خليفة للمسلمين ، وذلك فى شرق الأردن فى ٧ مارس سنة ١٩٢٤ ، واعترف به شرق الأردن ، وفلسطين ، وسوريا ، والعراق ، ولكن باقى البلاد العربية احتجت على ذلك[٢] .

أما من ناحية ابن السعود فلم يجد نفسه فى موقف يحسد عليه ، وخاصة بعد فشل مؤتمر الكويت ، فقد كان - أمام ضغط أنصاره الوهابيين - مطالبًا بأن يقوم بعمل إيجابى حاسم ، وقد ساعد على ذلك ، أن بريطانيا ألغت معونتها له فى أبريل سنة ١٩٢٤ ، فوجد نفسه حينئذ فى موقف الحر الذى عليه أن يعمل دون أن يحس بضغط بريطانيا . ولكن إلغاء المعونة أدى إلى نتيجة أخرى ، لعب فيها العامل الاقتصادى الدور الأول . كان ابن السعود يعلم أن موارد « نجد » لا تفى بحاجاته الضرورية فى سبيل إقامة إمارة أو سلطنة مستقلة ، تكتفى بنفسها اكتفاءً ذاتيًا ، لذلك كان عليه أن يبحث عن مصادر أخرى يحصل منها على المال اللازم لدولته الفتية . وهكذا وجد ابن السعود نفسه مدفوعًا - للحرب - تحت ضغط اقتصادى إلى جانب ضغط أنصاره الذين يرغبون فى اتباع سياسة أكثر نشاطًا وإيجابية[٣] . لذلك ففى صيف ١٩٢٤ ، هاجمت قواته بعنف حدود شرق الأردن والعراق ، كما ظهر جزء من قواته أمام الطائف فى سبتمبر ١٩٢٤ ، وعندئذ انسحب الأمير على بن الحسين إلى مكة أمام ضغط الوهابيين عليه ، فدخلها أنصار عبد العزيز بعد وقوع أعمال النهب والسلب والقتل فيها[٤] .

---

(١) Bremond ; Yemen et Saoudia, p. 92.

(٢) Seton-Wolliams ; Ibid, p. 186,

(٣) philby ; Arabia, pp. 303-304 .

(٤) Ibid ; p. 267.

وقبل أن نتتبع خطوات ابن السعود فى فتح الحجاز ، يجب أن نذكر أن ما لقيه أنصاره من نصر فى « تربة » (ليلة ١٧ مايو ١٩١٩) وما غنموه من مال وسلاح قد شجعه على أن يهاجم آل الرشيد ، الذين يشكلون خطراً دائماً بالنسبة له ، وأن يستولى على عاصمتهم فى ٢ نوفمبر ١٩٢١ . وتبع هذا هجومه على إمارة آل الشعلان فى الجوف فاستولى عليها وضمها إلى أملاكه فى سنة ١٩٢٢(١) . كما أن هجوم الشريف على « خرمة » سنة ١٨ و ١٩١٩ ، ثم ما حدث فى « تربة » للجيش الحجازى ، قد أدى إلى خلق حالة اضطراب بين القبائل الموجودة على الحدود الحجازية اليمنية العسيرية ، كما أدى إلى انتشار الدعوة الوهابية بسرعة فى بقاع جديدة ، وكان آل عايض - حكام أبها - فى خصام مع الأدارسة ، منذ أرسل الحسين الحمله التأديبية إليهم فى سنة ١٩١٢م ، لذلك مال هؤلاء إلى جانب السعوديين « - كما تردد الروايات السعودية - وطالبوا بوجود حامية سعودية بينهم على الرغم من أنه لم يكن للسعوديين نفوذ فى عسير منذ أكثر من قرن ، وكان نتيجة هذا المطلب الأخير قيام حملة فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، التى وصلت إلى شاطئ الحجاز ، واحتلت ميناء « القنفدة » واستطاعت إقامة حكم سعودى دائم فى الجهات الجبلية الداخلية»(٢) .

أما من ناحية الحرب النجدية الحجازية ، فقد كان دخول القوات السعودية الطائف بداية نهاية هذه الحرب ، إذ وجد الملك حسين نفسه فى مركز حرج ، خاصة وأن احتلال ابن السعود لحائل ، قد قطع الصلة بين الحجاز والعراق وشرق الأردن ، لذلك تنازل الحسين مضطراً عن عرشه فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٥ وخرج من « جدة » فى يخته الخاص ومعه أسرته إلى العقبة ، وأعلن ابنه الأكبر « على » نفسه ملكا على الحجاز فى جدة . وقد كان هذا الأخير يرى أن الموقف جد خطير ، مما دعاه إلى طلب مساعدة الدول الأوروبية ،

(١) المتقطف ، الجزء ٤ ، المجلد ٨٤ ، ص ٦٠٣ .

(٢) Philby ; Arabia, p. 304-305 .

ولكنها أصمت أذنيها عن مطالبه ، وتركت حكومة الحجاز تدافع عن نفسها . وقد ذهب « على » بعد ذلك إلى مكة لدراسة الموقف ، ولكنه رأى أن ينسحب منها فى حوالى منتصف أكتوبر نظراً لقدسيتها ، ليركز دفاعه فى جدة والشواطئ ، وفى المدينة أيضًا ، حيث توجد حامية حجازية قوية . وهكذا دخلت القوات السعودية مكة دون مقاومة للمرة الثانية فى التاريخ[١] . بدأ زحف الوهابيين إلى جدة ، وبدأ حصارها فى ٦ يناير سنة ١٩٢٥ ، واستمر الحصار لعدة أشهر استطاع الوهابيون أثناءها احتلال المدن والجهات التى حولها . فسلمت « ينبع » فى أول ديسمبر ، والمدينة فى ٥ ديسمبر ١٩٢٥ ، وفى ١٨ ديسمبر تنازل « على » وانسحب إلى العراق للانضمام إلى أخيه فيصل[٢] .

ومن الجدير بالذكر ، أن الإمام يحيى أرسل برقيتين بواسطة قنصل إيطاليا فى جدة ، إلى الملك على والى السلطان عبد العزيز آل سعود - أثناء الحرب بينهما - يطلب منهما إيقاف القتال ، واحترام الأراضى المقدسة ، وقبوله حكمًا بينهما ، وأجاب الملك على بالإيجاب ، بينما أرسل ابن السعود يفيد أنه دعا المسلمين لمؤتمر يبحث أمر الحجاز ، وطلب من الإمام أن يرسل مندوبيه للمؤتمر[٣] .

وهكذا انتهت الحروب فى شمال الجزيرة العربية إلى نتيجتها الطبيعية ، فتوحدت هذه المشيخات والإمارات المتفرقة تحت حاكم واحد . وكان لا بد من توحيد هذه الأجزاء المتناثرة لإقامة دولة لها كيان ذاتى ، يمكنها أن تعتمد على نفسها دون حاجة إلى معونات خارجية ودون الالتجاء إلى الحروب الداخلية المحلية . وهكذا استطاع ابن السعود أن يضم إلى نجد كل من الحجاز

---

(١) Philby ; Arabia, pp. 307-308

(٢) Seton-Williams ; Britain and The Arab States, p. 186.

(٣) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ص ١٩٢ .

وشمر والجوف وأجزاء من عسير فضلا عن ممتلكاته الشرقية ، فأصبح بذلك سيداً لأغلب جهات الجزيرة .

القوى فى الجنوب وطبيعة العلاقة بينهم :

أما الميدان الثانى ، فهو جنوب الجزيرة ، وكان مسرح هذه الأحداث ، عسير واليمن والمحميات . وهو ميدان ينطبق عليه نفس ما ذهبنا إليه عند التحدث عن أحداث الشمال . فقد خلف الترك أوضاعا مضطربة غير مستقرة ، كما كان يوجد أيضًا أكثر من زعيم فى هذه المنطقة ، وكان كل منهم يحاول تثبيت أقدامه ، وتعيين حدوده ، وتدعيم مركزه . وكان العامل الخارجى موجوداً أيضًا - ولكن بصورة أقوى - متمثلا فى وجود بريطانيا . وكان وجودها فى هذا الميدان ذا صورتين ، فهى متحالفة مع أحد زعماء المنطقة وهو الإدريسى ، إذ تنظم علاقاتها معاهدة سنة ١٩١٥ ، كما أن لها وجوداً ماديًّا ملموسًا فى عدن ومحمياتها . وقد شكل هذا العامل الخارجى إلى جانب العامل الداخلى أحداث الفترة التى تلت انتهاء الحرب العالمية ، تشكيلا جعل تاريخها يتجه اتجاهًا خاصًّا ويؤدى إلى نتائج معينة - كما حدث فى شمال الجزيرة - وقد صبغ هذا كله الأعمال الحربية أيضًا . وكان الوضع فى الجنوب أكثر تعقيداً وأشد عنفًا منه فى الشمال ، فعند إعلان الهدنة بين الترك والحلفاء فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٨ ، كان فى الجنوب ثلاث قوى متصارعة وكان لكل منها ظروفها وأوضاعها الخاصة .

أولا : من الشمال إلى الجنوب - الإدريسى ، وكان فى نزاع عنيف علنى حول تقرير المصير مع الإمام يحيى . وكانت قد زادت قوته إلى حد كبير نتيجة تحالفه مع إيطاليا سنة ١٩١٢ ، وحروبه المستمرة مع الحاميات العثمانية فى عسير واليمن ، ثم تحالفه مع إنجلترا أثناء الحرب العالمية الأولى .

ثانيًا : الإمام ، وكان يعمل منذ توليه الإمامة سنة ١٩٠٤ ، على تدعيم مركزه كأحد الأئمة الزيديين الذين يعتقدون أن لهم الحق المطلق فى اليمن

وفى كل الجنوب العربى أيضًا . وكـان اتفاقه مع العثمانيين سنة ١٩١١ جزءاً من هذه الخطة ، فقـد أعطاه هذا الاتفاق فرصـة سليمة هادئة لتدعيم مركـزه وتقوية قبضته ، واستمر الإمام يحافظ على حالة السلام هذه أثناء الحرب العالمية الأولى . وظل هـذا الموقف السلبى للإمـام طوال فترة الحرب العـالمية حتى شـارفت على نهايتها ، فسلم له الأتراك صنعاء ، وسلموا له الذخائر والمعدات التى معهم قبل رحيلهم ، أو بالأحـرى سلموا له كل مـا تحت أيديهم إذ كـانوا - وخاصـة الوالى محمود نديم - يؤمنون بأن الإمام هو الوارث الطبيعى لهم .

ثالثًا : إنجلترا فى عدن ومحمياتها ، وكانت منذ احتلالها عدن سنة ١٨٣٩ ، وإنشـاء مستعمـرة لها فيهـا ، تعتبر نفسها صـاحبـة حق فى هـذه المنطقـة ، وفى المحميـات التى ربطتهـا بمعـاهـدات حمايـة .. وقـد عملت على تنظيم حـدود المحميـات الشمالـيـة مع اليمن خلال عـدة بـروتـوكولات تـوجت سنـة ١٩١٤ باتفاقهـم مع العثمانيين أصحاب السلطة فى اليمن حينئذ . أمـا عند قيام الحرب العـالمية فقـد انتهى العمل بهذه الاتفـاقيات ، وهـاجم الأتراك المحميـات ، ولم يخرجوا منها إلا عند إعلان الهدنة فى أكتوبر سنة ١٩١٨ .

هذه هى أوضـاع القوى الثـلاث فى المنطقة ، وقـد أدت طبيعة العـلاقات بينهم إلى تشكيل الأحداث التالية .

فعند إعـلان الهدنة بين الأتـراك والحلفاء ، تـولت بريطـانيا بـاسم الحلفاء إخراج الأتـراك من الجهات التى كانـوا يحتلونها . وكـان خروجهم يهم بريطـانيا مباشرة لحرصهم على الاطمئنان على مستقبل مستعمرة عدن ، ولرغبتهم فى تأمين حدود المحميات .

وقــد أسرعت إنجلترا إلى احتــلال « اللحيــة » و « الحديــدة » لإجبــار العثمانيين - عندما اتضح تباطؤهم - على الخروج[١] .

---

(١) أمين الريحانى : تاريخ نجد الحديث وملحقاته ، ص ٤١٨ .

كان الإمام يحيى وقتئذ - بعد أن وصل صنعاء وتسلم زمام الحكم فى اليمن أو بالأحرى تسلم ما كان فى حوزة الترك - تحدوه آمال عراض ، ويعتقد أن الآمال التى عمل لها قد حان تحقيقها ، أو قد تحققت فعلا . ولما كانت الحديدة - التى تعتبر جزءاً من ممتلكات العثمانيين التى يجب أن يسلموها للإمام - قد احتلها الإنجليز فى ذلك الوقت ، فقد كتب الإمام إلى المعتمد البريطانى فى عدن يحتج على احتلال « الحديدة » فجاء الرد قائلا : « إننا دخلنا الحديدة لنحفظ فيها الأمن والنظام وسنعيدها إليكم »[1] . وهذا الوعد هو حجة الإمام السياسية فى مسألة استرجاع الحديدة ، وخاصة عندما تعقدت مسألتها بعد أن سلموها للإدريسى . ونحن نرى أن فى الرد البريطانى بعض المراوغة ، فلم يكن غرضهم المحافظة على الأمن والنظام كما يدعون ، ولا إخراج الأتراك فحسب ، بل نرى أن احتلالهم للحديدة كان نتيجة خطة سياسية بعيدة المدى . فهم فى حقيقة الأمر لم يكونوا يريدون التوسع فى اليمن ولا يطمعون فى توسيع ممتلكاتهم فى الجنوب العربى أكثر من المحميات ولكنهم كانوا فى نفس الوقت لا يأمنون كثيراً للإمام ، ويرمون إلى اعتبار « الحديدة » ورقة فى أيديهم يساومون بها الإمام أو الحاكم الجديد لهذا الإقليم المجاور ، فهم يحرصون على سلامة وأمن حدود المحميات ، وبالتالى على الأمن والنظام فى اليمن نفسه ، لذلك كان شخص الحاكم وسير علاقاته معهم ، هو أول شىء يريدون الاطمئنان عليه بعد خروج الأتراك . ومعنى هذا أنهم كانوا يؤمنون بأن الحديدة وسيلة لا غاية . وقد عبر جيكوب أكثر من مرة عن ارتياح إنجلترا لوجود تركيا فى اليمن ، وقلقها من المستقبل إذا خرجت تركيا من هذه المنطقة .

فهى قد تعاقدت معهم على حدود معينة لا يضمنون أن يقبلها حاكم آخر يخلفهم ، كما أن سيادة تركيا ، سيادة واحدة فى المنطقة يمكن الاتصال

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج١ ، ص ١٩٢-١٩٣ .

بها مباشرة للتفاهم معها ، ولكن خروجها من اليمن يتيح الفرصة لظهور أكثر من سيد ، وأكثر من زعيم ، مما يثير المتاعب لإنجلترا ، ويجعل من الصعب عليها الحصول على اتفاق جديد بشأن حدود محمياتها .

بعثة جيكوب إلى اليمن :

وهذا التفكير لدى حكومة عدن هو الذى دفعها لإرسال بعثة سياسية برئاسة جيكوب لمقابلة الإمام . ويعبر جيكوب نفسه عن غرض بعثته بقوله: «وكان غرضنا هو بحث مستقبل البلاد بعد هزيمة الترك ولم يكن هناك ما يدعو إلى عقد معاهدة مع الإمام بل نريد معرفة آرائه »(١) .

وهذا ما ذهب إليه نزيه العظم أيضًا فيقول عن بعثة جيكوب : « كانت غايته من الزيارة الأولى أن يتعرف إلى الإمام ويدرس أحواله ويحاول أن يتفق معه على حدود بعض المحميات »(٢) .

وإلى جانب هذه الأقوال الصريحة فإن اختيار جيكوب لطريق « الحديدة » عند سفره إلى صنعاء دون طريق « ماوية » لأكبر دليل على أن هذه البعثة كانت ترمى إلى الدراسة والتعرف أكثر منها للوصول إلى اتفاقات أو حلول .

والغرض من هذه البعثة يتضح بصورة أكبر عند تتبع أحداث البعثة ، كما يظهر من إصرار جيكوب على اختيار طريق الحديدة دون غيره « فوقع اختيار الكولونيل جيكوب على أن يكون السفر من طريق الحديدة رغماً من نصح أصدقائه بأن يسير من طريق ماوية »(٣) . واختيار طريق الحديدة دون الآخر - رغم ما يحيطه من صعاب ومخاطر - كان نتيجة وجهة نظر

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, 202.

(٢) نزيه العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ١٠٧ . (يقول عن جيكوب إنه قام بزيارتين لليمن ، ولكن الحقيقة أن الزيارة الثانية قام بها جلبرت كلايتون وليس جيكوب).

(٣) أحمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٦٨ .

معينة ، فطريق الحديدة - صنعاء يتيح الفرصة للبعثة بالمرور بأكثر من جهة وبأكثر من طائفة أو جماعة .

فالمعروف ، أن الشوافع يسكنون تهامة ، وهى عناصر لا تتبع الإمام مذهبيًّا، فضلا عن أنه لم يكن قد مد نفوذه على هذه الجهات بعد . ومعنى ذلك أن جيكوب كان يريد الاتصال بالقبائل والجماعات التى لم تكن تخضع لسيادة الإمام المادية أو المعنوية ، مما يفيده فى معرفة إمكانية إنجلترا فى الاستفادة من الأوضاع المتخلفة عن خروج الحكم التركى ، وفى تحديد مدى استفادتها من وجود اختلافات مذهبية بين أهالى هذه البقاع المجاورة . أما طريق « ماوية »[١]، فلن يتيح للبعثة هذه الفرصة ، فهو يمر بقبائل وجهات ، إما تخضع للإمام فعلا - ولو من الناحية المذهبية والمعنوية فقط - وكما أنها لا تعارض فى ممارسة هذا الخضوع لسيادة الإمام ، فهى أميل إلى الارتباط بالأرض والاهتمام بشئون حياتهم الخاصة .

وصلت البعثة الحديدة فى ١٨ أغسطس سنة ١٩١٩ ، تريد التقدم إلى صنعاء ، وهى على بعد ١٥٠ ميلا شمال شرقى الحديدة إلى الداخل[٢] . وكان يحدد الأمر أمام البعثة بعض نقاط معينة ، فالإدريسى يقبض بقوة على عسير ، ويتحفز للاستيلاء على أرض أوسع فى تهامة اليمن . والإمام قد تسلم فعلا ما كان بأيدى الترك من أملاك ، وبسط نفوذه على بعض جهات الهضبة ، أو بالأحرى على بعض الجهات التى تقطنها جماعات زيدية تتبعه فى المذهب ، وتقبل سيادته الزمنية ، ويريد بسط نفوذه على باقى بقاع اليمن دون النظر إلى أنها شافعية أو زيدية .

وقد دفعه الوضع الجديد فى اليمن- بعد خروج الترك - إلى تقوية قبضته على ما بين أيديه من أرض ونفوذ ، وسعى إلى تقوية إمكانياته الجديدة بالتالى

---

(١) على الحدود الجنوبية لليمن على الهضبة .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia , p.202.

« فشجع بعض القوات التركية والموظفين المدنيين على البقاء فى اليمن ومن بينهم الوالى التركى السابق محمود نديم بك وذلك للاستعانة بخدماتهم »(١) .

أما الوضع فى تهامة فكان متروكًا لسكانها من القبائل الشافعية القوية التى كانت تتمتع بالاستقلال والحرية ، ولا تقبل عليها أية سلطات مهما كانت نوعها أو مصدرها ، وكان أهم هذه القبائل الزرانيق والقحرى . وكان الإنجليز إلى جانب ذلك كله يحتلون « الحديدة » و « اللحية » . وقد حاول الإمام أن ينشر نفوذه بطريق سلمى فى الجهات الشافعية ، وكان يهمه أولا وقبل كل شىء ، تأمين طريق تجارته إلى البحر ، فدارت بينه وبين القبائل الواقعة بين « الحجيلة » والبحر - وبوجه خاص قبيلة القحرى ، وهى أقواها - مفاوضات لتأمين مرور الزيديين عبر الإقليم إلى البحر وقد نجح الإمام فى أن يعين له حاكما أو مندوبا فى « باجل »(٢) من بين شيوخ قبيلة القحرى ، إذا كان من عادة الإمام فى أوائل حكمه أن يعين له حكامًا شافعيين فى المناطق الشافعية لكى لا يجرح شعور هذه المجموعات الدينى(٣) .

ويعترف جيكوب بأمر هام يتعلق بهذه المفاوضات ، ومحاولات الإمام لتثبيت أقدامه فى هذه المنطقة فيقول : « لقد كانت رحلتى السابقة لأوانها سببًا فى إقلاق الإمام ، فقد قطعت رحلتى المفاوضات التى كانت دائرة بين الإمام والجماعات الشافعية »(٤) .

وصلت البعثة الحديدة فى هذه الظروف ، وواصلت سيرها إلى صنعاء ، فوصلت مدينة « باجل » فى ٣٠ أغسطس سنة ١٩١٩ ، وهنا قبضت عليها

---

(١) Survey of International Affairs , 1925; Vol. I, p. 321.

(٢) وكانت مركزاً للترك على بعد ٣٥ ميل إلى الداخل من الحديدة .

(٣) Jacob ; Kings of Arabia, p. 202 .

(٤) Ibid ; p. 203.

قبيلة القحرى ، واعتقلتها فى هذه المدينة . ويثير هذا الحادث فى حد ذاته كثيراً من التساؤل :

كيف أسرت هذه البعثة ، وما سبب الأسر ؟ وما موقف الإمام من الأسر ؟ وما هى مجهوداته فى سبيل إنقاذ البعثة لمواصلة سيرها إلى صنعاء ؟ ما موقف عدن من هذه الحادثة ؟ وما هى حالة البعثة أثناء الأسر ؟ وما هو عملها فى هذه المدة ؟ وما هى نتيجة هذا الأسر ؟

والحقيقة أن الإجابة على هذه المسائل كلها تعتبر - فى حد ذاتها توضيحًا لموقف كل من إنجلترا والإمام والإدريسى والقبائل الشافعية فى تهامة من مشكلة « المصير » بعد خروج الترك من اليمن.

كان الإمام يرحب بقدوم البعثة إلى صنعاء للتفاهم معها ، وخاصة فى مسألة الحديدة ، فوعد البعثة أن يمدها بالحرس الخاص بها أثناء رحلتها . واعتمدت البعثة على هذا الوعد ، فلم يكن معها من الحرس إلا خمسة وعشرون جنديًّا تحت قيادة أحد الضباط كانوا مكلفين فقط بحراسة ممتلكات البعثة الخاصة ، بل استطاع الإمام تأمينًا لسلامة البعثة أيضًا أن يحصل على تعهد كتابى من رجال قبيلة القحرى - وذلك قبل وصول البعثة إلى الحديدة - يتضمن ضرورة وصول البعثة بسلام إلى « الحجيلة » حيث يبدأ النفوذ الزيدى[1] . ولكن « القحرى » نقضت العهد ، وقامت بأسر البعثة . وقد عبر أحد شيوخ هذه القبيلة فى قوله الموجه إلى جيكوب عن كيفية أسر البعثة وسببه فقال : « سلم هذه الأسلحة .. أنت سجيننا ، فقد ساقك الله إلى المصيدة .. قل لى أيها المندوب.. هل أنت ذاهب لتسليمنا .. ؟ من البديهى أنه يقصد فى كلامه أن جيكوب متوجه إلى صنعاء لتسلم البلاد للإمام . وجيكوب من ناحيته ، يكرر أكثر من مرة - أثناء حديثه عن بعثته - أن دوافع

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, pp. 203,

أسره تتمثل فى خوف قبيلة القحرى من أن يسلم البلاد للإمام ، وهم الذين يتعلقون بحريتهم ويضحون من أجلها بكل شيء . وقد ذكر هو على لسان أحدهم - ليدلل على مدى علاقة هذه القبائل بالإمام ومدى حرصها على حريتها - فيقول إن أحد مشايخ هذه القبيلة قال موجهًا حديثه له وهو يصرخ بشدة : « بالله .. من هو الإمام ... نحن القحرى رجال القبائل ، لقد منحنا الله الحرية .. نحن وافرو العدد ، وحبوبنا أكثر من الكفاية وبيوتنا آمنة ، ونحصل على « قاتنا » بانتظام من جبل « ريمة » . نحن لا نريد أكثر من ذلك »[1] .
ويؤيد العبدلى رأى جيكوب فيقول : « إن من شروط « القحرى » لفك أسر البعثة أن لا يكون للإمام يحيى سيطرة عليهم ولا على بلادهم »[2] . والغريب أيضًا أن يذكر جيكوب أن قبيلة « القحرى » رفضت أن تأخذ رشوة مقابل أن تفك أسر البعثة ، فيذكر أنهم قالوا : « لا نريد شيئًا من هذا المال الحرام الدنس» ثم يعقب على ذلك مباشرة بقوله : « كنت لا ألوم القحرى لأنهم أسرونا ، فقد كانوا يعتقدون أننى ذاهب لأسلم البلاد للإمام »[3] . ولم توضح المصادر العربية ، مثل الواسعى أو الجرافى أو نزيه العظم ، الدافع الذى جعل القحرى تقوم بهذا العمل ، غير أنهم - وإن لم يعبروا عن ذلك صراحة - يعتبرون هذا العمل نتيجة الطبيعة القبلية البحتة وهى طبيعة السطو والتمرد وعدم إطاعة الأوامر ، وإن كان نزيه العظم يروى قصة طويلة لا تعبر عن الحقيقة كثيراً ، بل ليؤكد رأيه سابق الذكر . فقد قابل اثنين من شيوخ القحرى بعد هذا الحادث بكثير عند زيارته الحديدة - وكان فى زيارة لمدير شرطتها - فلما سألهما عن سبب القبض على بعثة جيكوب وهو ضيف الإمام ، فأجاباه بقولهما : « اتصل بنا أن هذا الرجل جاسوس إنجليزى أتى لبلادنا ليتآمر علينا وعليها ، فخيفة من شره ، وحرصًا على

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 214 .

(٢) Ibid ; p. 206.

(٣) العبدلى ، هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن . ص ٦٢٩ .

البلاد والعبـاد ، أبقيناه عندنـا رهينة ريثما تفاهمنـا مع جلالـة الإمام عن حقيقة أمـره ، ولما جاءنـا رسول الإمـام ينبئنا بـأنه ضيف أتى للمشـاورة والمخابـرة مع جلالته ، أطلقنـا سراحه فى الحال »[١] . ولكن هذا الجواب يعتبر تبريـراً لموقفهم فقط ، وكان يمكن تصديقه ، إذا كانـت البعثة قد واصلت سيرها إلى صنعاء ولم تعد إلى الحديـدة كما سيتضح فيما بعد . ويؤكـد الواسعى عودة البعثـة ، فيقول : «... ثم بعد مـدة نحو أربعـة أشهر ، ووسـائط ، أطلقوا سراحهم نحـو الحديدة راجعين ، وسلمـوا ما معهم من الأمتعـة ، وأصحبتهم قبيلة القحـرى بألفين من رجالها يشيعونهم إلى الحديدة »[٢] . ولكن رغم قول الواسعى ، فإن القصة سالفة الذكر تثير بعـض الشك ، فقد يكون الشيخان صـادقين فى كلامهما أن القحرى أطلقت سراح هؤلاء الأسرى ، ولكن أعضـاء البعثة هم الذين فضلـوا العودة إلى الحديـدة دون أن يـواصلـوا سيرهـم إلى صنعاء . وقـد أثـرنـا نحن هـذا الشك لما سيظهر من نتائج بعد ذلك .

قـام الإمام بمجهـود كبير لتخليص البعثـة من الأسر ، وكـان يعقد آمـالا واسعة على مقابلة الإنجليز وجهًا لـوجه للتفاهـم معهم ، ففى ذلك تحقيق لآماله وآمال أسرته . فكتب عدة خطابات احتجاج ، وكـان يرسل برقيات يومية لشيوخ القحرى يهددهم بـالإبادة إذا لم تصل البعثة إلى غـرضها الذى تنشـــده . وكان يعيب عملهم « بأنهـم انتهكوا الحرمـات ، وأنهـم بذلك وصمـوا الإسـلام بالعـار » كما أرسل الإمام أخـيراً الوالى محمـود نديـم بك حـوالى شهرين فى «باجـل » ليبـذل كل جهـده فى تخليص البعثـة من الأسر ، وقد أعطـى « أبو هادى » ٤٠٠ جنيـه تركـى - وهو أحـد مشايـخ القحـرى ، ومنـدوب الإمــام فى باجـل - ولكن أبـا هــادى لم يكن الـوحيد الـذى يملك الفصل فى

---

(١) نزية العظم . رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ٢٣ .

(٢) الواسعى ، تاريخ اليمن ، ص ٢٦٣ .

(٣) Jacob ; Kings of Arabia, 210.

مصير البعثة . وقد ضايق الإمام طول إقامة نديم بك فى باجل ، واعتقد أنه يلعب دوراً مزدوجًا ، وكانت القحرى لا تثق فيه أيضًا بصفته مندوبًا للإمام[١]. ويؤكد العبدلى مسألة الشك فى إخلاص نديم بك للإمام فيقول : « أخبرنى من أثق به أن أولى الحل والعقد فى صنعاء » يؤكدون عدم إخلاص الوالى محمود نديم للحضرة الإمامية هذه المرة ، ويتهمونه بالاتفاق سرًّا مع قبائل « القحرى » لمنع الوفد من الوصول إلى صنعاء »[٢] ولكن العبدلى نفسه يذكر قبل ذلك أن القحرى أسرت نديم بك مع البعثة[٣].

وقد قامت عدن بمجهود كبير كذلك لتخليص بعثتها من الأسر ، وأرسلت أحد موظفيها السياسيين إلى الحديدة ، وأنفق هذا مالا كثيراً فى محاولاته لكسب الشيوخ المجاورين إلى جانب إنجلترا . وكانت خطته ترمى إلى عزل القحرى عن جيرانها . ولكنه باء بالفشل . وقد ذهب بعض هؤلاء الشيوخ الموالين لإنجلترا إلى « باجل » لمقابلة شيوخها ، فقابلتهم القحرى على شكل مؤتمر ، ولكن كان ردها عليهم عنيفًا ، وعادوا خائبين . ومن أقوال الشيخ يحيى على ، وزميله محمد زيد (من زعماء القحرى) لهؤلاء الشيوخ : « نحن لا يهمنا كم من النقود قد أعطتكم الحكومة البريطانية ... »[٤] . وأرسلت عدن كذلك طائرة فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٩ ، لتتعرف على مركز البعثة وأحوالها فقط ، دون أن تلقى أية قنابل[٥] ، وأخيرا تم فك أسر البعثة فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩١٩ ، بعد ، صلاة الجمعة[٦] .

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia , ; p . 212 .

(٢) و (٣) العبدلى ، هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٦٣ .

(٤) Ibid p. 214 .

(٥) Ibid ; p8 223 .

(٦) Ibid ; p, 234 .

تنائج البعثة وآثارها :

ويمكن أن نجمل باقى الحديث عن هذه البعثة ، وعن حالتها أثناء الأسر، ثم نتائج رحلتها ، فى الإجابة على الأسئلة التالية : ما مدى استفادة كل من إنجلترا والإمام من هذه الأحداث ؟ بل وما مدى استفادة الإدريسى منها كذلك؟ ثم ما هو رد فعل هذه النتائج عند كل من الأطراف المعنية ؟

فبالنسبة لإنجلترا ، نرى أنها لم تخسر شيئًا لعدم إتمام هذه الرحلة ، بل إنها حققت كل أغراضها من إرسال هذه البعثة إلى اليمن . ونحن لا نلقى الكلام على عواهنه ، إذ يمكننا الرجوع إلى نص حديث جيكوب عن غرضه من الرحلة لنتكلم على ضوئه . يقول عن سبب تفضيله طريق الحديدة عن الآخر : « وقد فضلت طريق الحديدة لأقيس نفوذ الإمام ، وقد كان من السهل الحضور عن طريق عدن (يقصد الطريق البرى الداخلى) إذ إن الشيوخ - على طول هذا الطريق - معروفين شخصيًا ، كما كان الطريق نفسه معروفًا ، أما معرفتى بطريق « باجل » (الذى سار فيه) فكانت أقل »(١) ، وهكذا يؤكد جيكوب ما ذهبنا إليه ، وهو أنه استطاع تحقيق ما يريده من الرحلة ، فهو من ناحية كان متروكا فى المدينة - هو وأفراد بعثته - يتمتعون بالتجول داخلها كما يشاءون ، وكانت تصلهم بعض المجلات المصورة من الساحل ، كما أن بريدهم كان منتظما بينهم وبين الساحل .

ومن ناحية ثانية ، كان جيكوب يقوم بنشاط سرى خاص لمعرفة ما يدور حوله ، ومعرفة أسرار الحوادث والتيارات المختلفة ، إذ يذكر أنه كان يغرى عامل التلغراف فى باجل - وكان من أصل تركى - ببعض النقود أو السجائر أو زجاجات البراندى ، لكى يعطيه نصوص الرسائل التى تصل إليه من صنعاء أو التى يصدرها هو إليها . كما يقول إنه كان يتجسس على الاجتماعات اليومية

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia , p, 204 .

التى كان يعقدها شيوخ قبيلة القحرى فى المنزل المجاور للمنزل الذى خصص له[١] . هذا الاطلاع الواعى على الأحداث وعلى الآراء ، كان هو كل ما يبغيه جيكوب من بعثته ، وقد حققه بطريقة أو بأخرى ، وعاد وهو يستطيع أن يعطى تقريراً كاملا - أو قريبًا من ذلك - عن الحالة فى اليمن أو فى تهامة بالذات حيث تتصارع القوى المختلفة .

حقيقة كانت تتضاعف فائدة إنجلترا ، إذا استطاعت البعثة الوصول إلى صنعاء لتقابل الإمام وتعرف آراءه . ولكن ما دامت الأحداث قد حالت دون ذلك فلم يكن هناك ضرر من رجوع البعثة إلى عدن . وبناء على ذلك يمكن القول : إن وجهة النظر السابقة ، هى التفسير الأهم لعدم محاولة بريطانيا إنقاذ البعثة بالقوة . ومن الجدير بالذكر ، أن نقول إنه إلى جانب أن جيكوب نفسه كان العامل فى تهدئة عدن من ناحية البعثة ، فقد كان - كذلك - عاملا فى تهدئة الإمام ، فقد كتب إليه يطلب منه الامتناع عن استعمال القوة فى إنقاده ، لأن ذلك - حسب تفسيره - سيؤدى إلى سفك الدماء ، وأن قدوم الإمام إلى «باجل» سيجعل الإدريسى ينتهز الفرصة للهجوم أيضًا على هذه الجهة والاستيلاء عليها ، وقد شكره الإمام « على هذه النصيحة الأخوية »[٢] . وكانت - هذه النصيحة - فى الحقيقة لا تخدم إلا أغراض جيكوب نفسه ، الذى لا يريد أن يثير المتاعب فى الوقت الذى تأكد فيه على سلامته ، وأنه يتمكن فعلا من فك أسره فى أى وقت إذا وافق على العودة إلى الحديدة لا أن يذهب إلى صنعاء . فهو - للأسباب التى ذكرناها - لم يكن يتعجل الحوادث ، ولا يرغب فى العودة بسرعة أو إنهاء مهمته حالا[٣] .

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 210 .

(٢) Ibid ; p. 210 .

(٣) Ibid ; p. 204 .

أمـا رد الفعل بالنسبـة لإنجلترا فهى لم تشعـر بـه حينئذ ، إذ لم يكن هنـاك شىء يذكر ، وإن كنا نعتبر أن قلقهـا وحيرتها بين القوى المختلفة فى اليمن حتى تسليمها الحديدة لحليفها الإدريسى ، كان مظهـراً من مظاهر رد الفعل لأحداث بعثة جيكوب .

أمـا الإدريسى فقد كـان أكثر حظًـا من الإمام . فهـو من ناحيـة ، حليف إنجلترا التى تحتل « اللحيـة » و« الحديدة » كما أنه سنى المذهب كـأهل تهامة ، وقـريب الاتصـال بهم ، ولهذا كلـه كـان الإدريسى يسعى جـاهـداً لـلاتصـال والتقـرب من قبـائل تهامـة ، فهى العنـاصر القـويـة الفعـالـة فى تـاريخ هـذه المنطقة[1]. وقـد عبر جيكوب عن محاولات الإدريسى هـذه - عنـد حديثـه عن عملـه أثناء وجـوده فى الأسر - فقال إنـه كان يقـاوم زحف الإدريسى الخفى فى تهامه ، الذى كـان يحاول أن يستولى على أكبر قدر ممكن من البـلاد ، بعد خروج الترك من اليمن . وليس بمستغرب أن تتـم اتصالات بين الإدريسى ، وبين تلك القبـائل الشافعيـة ، فهم لا يخضعـون لسياسـة واحـــدة أو زعيـــم واحـد كما يفعــل الـزيود ، بل تتنازعهم الطبيعة القبليـــة ، ويعيشون بطريقـــة ذاتيـــة ، ويرعـــون مصـالحهم وحـريتهم فقط ، ولا يخضعـــون إلا لرؤسائهــــم وتقاليدهـــم . وكانت القحـرى ، التى أثرت فى مجـــرى العـلاقات الإماميـــة العدنيـــة هى إحـــدى تلك القبائـــل . وهناك أيضًـــا قبيلـــة الزرانيـــق التى تسكـــن بين « الحديـــدة » و « زبيد » - وأهـــم مـدنها « بيت الفقيـه » -

---

(١) نعتقد أن هـذا هو الـذى دفع توفيق مفرج ، إلى أن يـذكر فى مقالتـه « بريطـانيا العظمى والعـرب فى « المقتطف » أن أتبـاع الإدريسى هـم الـذين اعترضـوا سير بعثـة جيكـوب وأرجعوها إلى الحديدة » .

المقتطف : المجلد ٥٩ ، الجزء ٣ ، ص ٢٧٠ (عدد أول سبتمبر ١٩٢١ ، ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣٣٩ هـ) .

والتى لم تستطع الدولة العثمانية إخضاعها طوال مدة حكمها لليمن لشدة بأسها « وكانت الدولـة تضطر كثيراً إلى التساهل معها حتى لا تعترض طـريق القوافل والمسافرين ، وتقـدم لكبار شيوخها المال والهدايا باسم الأخـوة والصداقة»[١] .

ويقول عنهـا الريحانى : « والزرانيق أشد القبـائل التهامية بأسًـا ، هم لا يطيعون الإمام ، ولا يطيعون السيد الإدريسى ، ولا يأبهون بـالإنجليز ، فهم مستقلون عن كل حكم ، وكل نظام ، وكل سيـادة ، غير ما لشيوخهم منها . وكـانوا أيام الترك يأخذون المشاهـرات من الدولة ويقطعون مع ذلك أسلاك التلغـراف ، ويقومون بالتخريب .. وهم دائمًا يمثلـون فى رواية تهامة السياسيـة دورين وثلاثة أدوار فى وقت واحد ، ثم يميلون فى النهاية إلى من يزيد فى المال أو فى السلاح »[٢] .

ومن هذا يتضح أن تهامـة كانت تتجاذبها أكثر من جهـة ، فالإدريسى بل والإمام يعمـلان على الاتصال بقبائلها ، والتقـرب منها ، والإنجليز يـرقبون سير الأحداث فيهـا ، ولكنهم كانوا يـرفضون - إلى ذلك الـوقت - العمل إلى جانب دون الآخـر ، ويعملون على تأجيل الانفجـار ، أو قيـام الحرب ، إلى أطول مـدة ممكنة . أما أهل تهامة نفسها فهم قبائل قوية متفرقة ، تحاول الاستفادة بأكبر قدر ممكن من المنـازعـات التى تـدور حـولها ، وهكـذا كـان الجو الـذى يعمل فيـه الإدريسى ، والذى كان عليه أن ينتهـز كل الفرص صغيرها وكبيرها حتى يتمكن من الوقوف أمام عدوه الخطير ، وهو الإمام يحيى . وجـدير بالذكر أنه أشيع عند اعتقال بعثة جيكـوب أن للإدريسى دخلا فى هذا الاعتقال ، لأنه كـان يضايقه حدوث أى تقارب بين الإمام وإنجلترا[٣] .

(١) نزيه العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ٦٦ .

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٣٦٣ .

(٣) أمين سعيد ، اليمن ، ص ٦٢ .

أما بالنسبة للإمام ، فقد كان لنتائج هذه البعثة ورد فعلها أثر كبير عنده ، فلم يقف مكتوف الأيدى إزاء هذا الفشل - من وجهة نظره - بل فسره تفسيراً خاصاً يعبر عن وجهة نظره . وكان الإمام حريصًا على أن يتم التقابل بينه وبين حكومة عدن ، فمطالبه كثيرة ورغباته ملحة ، والإنجليز فى عدن يمثلون له الطرف الآخر فى تحقيق هذه المطالب والرغبات .

وقد تبلورت عنده نتائج رجوع بعثة جيكوب فى أمر هام خطير ، ألا وهو الشك فى نوايا إنجلترا نحوه ، وخاصة لأنه كان يرى أن بعثة جيكوب هذه كانت أول محاولة إنجليزية للتفاهم معه بصفته الحاكم الجديد لليمن ، فكان الأولى بها أن تصر على أن يتم هذا التقابل ، بأى ثمن ، وبسرعة لإقرار الأوضاع بينهما . وقد أثارت عودة البعثة شك الإمام ورجاله فى صنعاء ، إذ دهشوا لما حدث لها واستغربوا موقف إنجلترا السلبى فقالوا : « أتغلب قبيلة عربية حكومة بريطانيا العظمى ؟ الأرجح أنها انقلبت علينا ، فإنها تستطيع أن تبيد «القحرى»[(١)] .

ساءت العلاقات بين الإمام والإنجليز نتيجة لذلك ، وانهارت تلك الصلات الطيبة التى استمرت بين الطرفين طوال مدة الحرب ، والتى أدت إلى أن الإمام لم يلب دعوة سعيد باشا التى طالب فيها كل من فى صنعاء عند نهاية الحرب العالمية الأولى - ممن يهمه أمر الجنوب - إلى الذهاب إلى لحج ليتسلم منه الجهات التى كانت تحت سلطته قبل أن يسلم نفسه للإنجليز فى عدن[(٢)] . وكان الإمام - من ناحية أخرى - يعتقد أنه سيحصل

---

(١) أمين الريحانى ، ملوك العرب ، ج١ ص ، ١٩٧ .

(٢) نعتقد أن من بين أسباب تقاعد الإمام عن تلبيه نداء سعيد باشا خوفه الشديد الدائم من الإدريسى ، فهو يدرك قوة الإدريسى وسر نشاطه فى تهامة اليمن . لذلك تقاعد عن المحميات من أجل تهامة التى لم يتقرر مصيرها بعد ، وكان يهمه للغاية ضمها إليه . ولكن من الجدير بالذكر أن نقول إن موقف إنجلترا فى المحميات عقب الحرب - وهو موقف مضاد لمطالب الإمام - أفقد الإمام تهامة والمحميات معًا .

على أغراضه فى الجنوب بطرق سهلة ، ولكن توالى الأحداث بعد انتهاء الحرب أتت بما لا يشتهى الإمام - أو مما لا يتوقعه - فقد بدأ موقف إنجلترا نحوه يتضح على حقيقته . إذ بدأت ترسم سياستها بما يتفق ومصالحها فى الجنوب - وبنظرة واقعية بحتة - دون مراعاة لتمنيات الإمام أو آماله فى هذه الجهات . وكانت عودة بعثة جيكوب دون وصولها إلى صنعاء أولى مظاهر السياسة الإنجليزية تجاه الإمام بعد الحرب ، لهذا - وقد تأكد من إهمالها له ولأغراضه فى الجنوب - بل وتأكد من ضرورة تصادم أغراضه مع أغراض الإنجليز هناك - بدأ التطلع إلى المحميات ، وهاجم « الضالع » ، فرد عليه الإنجليز بالجلاء عن الحديدة فى ٣١ يناير سنة ١٩٢١ ، وبتسلميها إلى الإدريسى رغم إدراكهم أنها منفذ اليمن الطبيعى على البحر الأحمر[١] .

اختلفت المصادر فى تحديد تاريخ هجوم الإمام على المحميات ، وهل كان بعد فشل بعثة جيكوب مباشرة ، أم إنه كان بعد أن سلم الإنجليز « الحديدة » للإدريسى ، والمصادر التى بين أيدينا - سواء العربية أو الأفرنجية - تختلف حول هذا الشأن اختلافًا بينًا ، فبعضها يذكر أن تسليم الحديدة حدث أولا ، والبعض الآخر يذكر أن هجوم الإمام سبق تسليم الحديدة للإدريسى ، بل ويذكر طرف ثالث أن هذا وذاك حدثا فى وقت واحد . ولكن يلاحظ أن الجميع يتفقون على أن حركات الإمام الحربية فى « الضالع » كانت نتيجة طبيعية لموقف الإنجليز منه ، سواء لفشل بعثة جيكوب أو لتسليمهم الحديدة للإدريسى ، ويدل هذا الإجماع دلالة واضحة على أن الإنجليز لم يكونوا مخلصين أو حتى مطمئنين للإمام ، يقول الجرافى : « ولقد جاء من جراء دخول الأدارسة فى مدينة الحديدة ، بمساعدة الإنجليز ، أن فتح الإمام المتوكل على الله بلاد « الضالع » و« بلاد الشعيب » و « بتريس » وبلاد « الأجعود » وغيرها من

(١) Survey of International Affairs, 1925 ; Vol , I, p. 321 .

النواحى المجاورة لعدن »[١] . أما الـواسعى فيقول : « ثم بعد رجـوع هذه البعثة وعـد الإنجليـز الإمام يحيى أن يسلموا لـه الحديـدة ، ثم انقلب الإنجليـز عن وعدهم ، وسلمت الحديدة إلى صديقهـا الإدريسى ، فغضب من خلفها الوعد ، ثم بادرهم الإمام بمثل معاملتهم ، وأصدر أمره إلى جيش الجنوب بالزحف نحو عدن ، وزحفت الجنود وأخذت أربع جهات من تلك النواحى وهى : «الضالع» و« الشعيب » و « الأجعود » و « القطيب »[٢] .

ويظهر من النصين السابقين أن تسليم الحديدة لـلإدريسى هو الذى دفع الإمام إلى الهجوم على المحميات ، ولكن جيكوب يـذكر غير ذلك فيقول مهاجمًا الإمام – ولكنه فى نفس الوقت كان يدافع عنه – إن هجوم الإمام على المحميات كـان على أثر فشل البعثـة فى « باجـل » فيقول : « يجب أن نقـول إن الإمام كـان معتديًا عنـدما عبرت جيوشه حـدودنا القديمة ودخلت « الضـالع » . وقد فعل ذلك عنـدمـا أحس بوجـود تغير فى سيـاستنـا نحـوه ، عندمـا كـانت بعثتى فى «بـاجل». وأنـا لا أدافع عن عملـه فى « الضــالع » ولكن من السهل أن نعـرف الدوافع التى اضطرته إلى ذلك »[٣] . وهذا قول معتـدل هادئ ، فيه اعتراف بأن عمل الإمـام كـان رد فعل لعمل سـابق من جـانب إنجلترا ، وليس اعتـداء مع سبق الإصرار . ورأى جيكوب رأى رجل إنجليزى مخلص لوطنه ولوظيفته – كان يشغل فى ذلك الوقت وظيفـة المعاون الأول لحكومة عدن – فـلا بد إذن أن نقبل منه – بالرغم من عدم موافقتنا عليـه – قوله إن هجوم الإمام على المحميات كان اعتـداء على ممتلكات الإنجليـز . ويؤيـد الريحانى رأى جيكـوب من ناحيـة أن هجوم الإمـام كان نتيجـة فشل بعثة جيكـوب ، وشك الإمام فى نيـات الإنجليز نحوه ، إذ يقول (الـريحانى) متابعًا الحديث عن دهشة الإمـام من سلبية إنجلترا

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٧ .

(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٢٧ .

(٣) Jacob ; Kings of Arabia, p, 251.

نحـو فشل هـذه البعثـة : « وكـانـت النتيجـة أن الإمـام - وقـد رجح انقـلاب الإنجليز- بادرهم إلى المعاملة بالمثل ، بل سبقهم إلى ذلك فلجأ بعد أن نفذ درع السياسـة إلى السيف إذا أصدر أمـره إلى جيش الجنوب بـالزحف على النـواحى التسع المحمية ، وكان الإمام فى هذه السياسة أو الخطة الحربية يقتدى بالإنجليز، فقد ضربهم فى نـاحية هى قـريبة منه ليخـرجهم من بلاد لا يصل سيفـه إليها ، ضربهم فى نواحى المحمية ليخرجهم من « الحديـدة » أو ليضطرهم أن يسلموها إليه»[1]. وهذا الـرأى - وهو ما نميل إليـه - يتمشى مع الأحداث ، فقـد عادت البعثة دون أن تتصل بـه ، وأثار هذا شك الإمـام ، وهو فى نفس الـوقت حريص على أن يستولى على الحديـدة ، ولكن الوصـول إلى الحديدة - عن طـريق الحرب لإخراج الإنجليز بالقوة - يقابله عقبات كبيرة صعبة . فهو لم يمد نفوذه بعد على قبائل تهامـة ، بل وهناك الإدريسى يسعـى نشيطًا فى سبيل السيطـرة على تهامة ، بما فيها الحديدة ، ليضعف من شأن الإمـام وقوته ، لذلك فالـوصول إلى الحديدة بالقـوة أمر يكـاد يصبح مستحيلا فى هـذه الظروف ، فهـذا يتطلب خطـة معينة وظروف أخرى لم تكن قد واتت الإمام بعـد . لذلك نراه يفضل مهاجمة الإنجليز فى إقليم يهمها ليتخـذه ركيزة يسـاوم بها الإنجليز للخـروج من « الحديدة » التى تهمه كـذلك ، هذا فضـلا عن أنه يعتبر هذا الإقليم - الـذى هاجمه - ملكـا له ولأجداده . ولكن هذه الخطة قد باءت بـالفشل ، لأن الإنجليز من جانبهم قاموا بعمل مضاد عكس ما كان يريده الإمام ، إذ سمحوا للإدريسى بدخول الحديدة وتـركوهـا له . ولكن كـان هناك رد فعل فى عـدن نتيجة هجـوم الإمام هـذا على المحميـات فقـد قـامت لنـدن بتغيير معتمدهـا فى عـدن ، وبتغيير الخطـة تجاه الإمام[2] .

وتدلنـا طريقـة تسليم الحديدة لـلإدريسى على أن الإنجليـز كانـوا ينوون ذلك، وأنه كـان بناء على سياسة معينـة . فقد قام الانجليـز قبل تسليم الحديدة

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج١ ص ١٩٧ .

(٢) نفس المرجع : ص ١٩٨ ، الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٦٣ .

باستفتاء الأهالى رسميًا لاختيار حاكمهم فطلبوا الترك(١) ، فلما أجيبوا بأن هذا مستحيل ، قالوا « نبغى إذاً الحكومة المصرية ، نبغى الانضمام إلى مصر »(٢) ، ثم جاء أحد أعوان المعتمد فى عدن يمثل آخر فصل فى رواية الاستفتاء ، ودعا إليه تجار المدينة وأعيانها ، فسألهم ثانية فأجابوا كما أجابوا سابقًا ، فأفهمهم أن رجوع الترك إلى « الحديدة » أمر مستحيل وكذلك حكم المصريين ، وفى تلك الأثناء - أى قبل انتهاء الفصل الأخير - دخل المدينة نائب السيد الإدريسى على رأس طابور من العساكر الإدريسية ، فختمت الرواية فى الشهر الأول من سنة ١٩٢١ بالاحتلال الإدريسى . وقد استطاع الإدريسى أن يقبض على خمسة من التجار الذين تزعموا الاستفتاء ، ونفاهم إلى « جيزان » وأسرهم سبعة أشهر فيها ، وبعد ذلك دفع بعضهم مالا فداء لنفسه ، والبعض قدم ابنه رهينة . وكان أهل الحديدة فى حيرة من أمرهم « وكانوا يخشون إبداء رأيهم أو رغبتهم فهم لا يبغون الإنجليز كمحتلين ، وإذا قاموا يطالبون الإمام قبل أن يقرر الإنجليز أن يعيدوا الحديدة إليه ، فيضربهم الإدريسى ويستنفر عليهم « القحراء » وقد يغرى بهم «الزرانيق » وإذا قاموا يثبتون حكم الإدريسى فيها ويعلنون رغبتهم رسميًا، فقد يحرك الإمام عليهم إما زيوده وإما من يستطيع استنفارهم واستغواءهم كذلك من الزرانيق(٣) . وعلى كل ، لقد سلم البريطانيون الحديدة للإدريسى على كره من أهلها « الذين كانوا لا يرغبون فى حكم إمام صنعاء ولا إمام صبيا(٤) .

ونحن نعزو ذلك إلى أن أهل الحديدة تجار بطبيعتهم ، لذلك يفضلون العمل فى هدوء بعيداً عن ضوضاء السياسة وخطر المنافسة بين الزعيمين المتنازعين عليها . والحقيقة أن « الحديدة » لم تستفد شيئا من هذه المنازعات ،

---

(١) كانوا يؤمنون لهم الحياة ، وهذا ما يريدونه من الحاكم ، إذ إن الحديدة مدينة تجارية لا سياسية .

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج١ ، ص ٢٦١ .

(٣) نفس المرجع : ص ٢٦٢ -٢٦٣ .

(٤) العبدلى : هدية الزمن فى ملوك لحج وعدن ، ص ٢١٩ .

فقد كانت فى موقف لا تحسد عليه ، فأهلها من ناحية كانوا يميلون إلى الإمام ، ولكنهم لا يرون فى حكم الإدريسى ما يعيد إلى البلد شيئًا من تجارتها وبهائها . كما أن الإدريسى - بعد دخولها - لم يقدم على عمل إدارى أو اقتصادى لتحسين حالها ، وكانت حجته فى ذلك ، أنه لا يضمن أنها ستكون دائمًا فى حوزته ، كما كان الإنجليز لا يهمهم إلا حفظ الأمن والنظام بها .

وكان هناك بعض التجار الذين يبغون الإمام ولا يرضون بالإدريسى ، أو بالإنجليز ، لأنهم لم ينالوا من أحدهما أية تعويضات عن خسائرهم الناتجة من ضرب الإنجليز لها ، فى نهاية الحرب العالمية الأولى . وكان الإنجليز يتملصون من دفع التعويضات بقولهم ، إن ذلك هو واجب صاحب الحديدة يعنون الإدريسى - ولكن صاحب الحديدة كان بحتاج - هو نفسه - للمال ، فمن أين يدفع التعويضات عن الإنجليز ، وهو لا يجمع من أهلها ما يكفى لإدارة شئونها[١] .

وقد فشل الإدريسى فى إدارة المدينة ، أو جذب أهلها إليه ، فقد استبد موظفوه بالسكان ، كما أن المكوس التى فرضت على التجارة كانت باهظة ، لذلك هاجر كثير من التجار إلى عدن ، كما تم القبض على بعض التجار الكبار البارزين وأسروا فى « ميدى » . ونتيجة لعدم الاستقرار الذى لا يتناسب مع مدينة تجارية كهذه ، فإن بعض تجار عدن الذين يعتبرون الحديدة ميدانًا لنشاطهم كانوا يفضلون الإمام الزيدى - رغم اتفاقهم مع الإدريسى من ناحية المذهب الدينى - لأنه « حاكم عادل ازدهرت تجارة اليمن الداخلية تحت سيادته كما أن طرق تجارته آمنة سالمة »[٢] . وذلك بسبب حرص الإمام على نشر الأمن والنظام فى البلاد التى تحت سيطرته .

---

(١) الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

(٢) Jacon ; Kings of Arabia, p. 249.

لقد تعقد الوضع حينئذ فى الجنوب العربى أشـــد التعقيد ، فإنجلترا لا ترضى مطلقًا للإمام أن يمد نفوذه ناحية المحميات ، ولا تقبل أن يبقى فى المحميات التى احتلها فعلا « والتى كان دافعه الأساسى للاستيلاء عليها أن يتخذها رهينة مقابل ميناءى اللحية والحديدة »[1] . وأصبح الإدريسى الآن يمتلك « اللحية » و « الحديدة » وباقى موانى تهامة الهامة » كما أنه يمارس بعض النفوذ على قبائل تهامة القوية ، وبذلك عزل الإمام فوق هضبته . وكان الإمام لا يقبل بقاء الإدريسى فى تهامة أو ثغورها ، هذا فضلا عن رغبته فى عسير نفسها ، وفى المحميات . وقد سبب هذا التعقيد ، وصعب الوصول إلى حلول ترضى هذه الأطراف المتنازعة ، تسليم إنجلترا الحديدة للإدريسى . وكانت عدن تقف موقفًا جامداً من الإمام ، فإنها كانت تعتبر الإمام عدوًا لها ، لأنه لم يساعدها أثناء الحرب ، وتعتبر الإدريسى صديقًا لها ، لما قام به من مساعدات نحوها أثناء الحرب ، وهذا ما كان يعيبه جيكوب نفسه على حكومة عدن[2] . وكان جيكوب يرى رأيًا آخر بالنسبة لأحقية الإمام فى الحديدة - ميناء صنعاء - كما يرى أن عدن ناقضت نفسها بهذا العمل لأنها تدخلت فى توزيع الأراضى والحدود بين الحاكمين المتنافسين رغم أنها وعدت بعدم التدخل ، فيقول : « إن الحديدة لم تكن ملكنا حتى نعطيها لأحد ، كما لم يغنمها الإدريسى من الترك أثناء الحرب ، وكان أول واجب علينا بعد عقد الهدنة مع تركيا أن نبعد الإدريسى عن منطقة أصبحت بالاكتساب للإمام وحده ، إذ إن الحديدة هى الميناء الطبيعى لصنعاء »[3] .

---

(١) Survey of International Affairs, 1928, p. 311 .

(٢) Jacob ; Kings of Arabia . p.248.

(٣) Ibid, p. 241.

الفصل الثانى

العلاقة بين الإمام والأدارسة وإنجلترا حتى ١٩٢٧

العلاقة بين قوى الجنوب بعد تسليم الحديدة للإدريسى :

كان الوضع المعقد فى الجنوب لا يحتمل البقاء كما هو طويلا ، فنلاحظ أن هذا الوضع قد تبلور آنذاك إلى جبهتين : الأولى تضم الإدريسى وحكومة عدن ، ويمثل الإمام الجبهة الثانية ، وكان لكل منهما مطالب معينة لا توافق عليها الجبهة الأخرى ، بما يعنى بالتالى ضرورة قيام الصراع بينهما . وقد اتخذ هذا الصراع صورتين : صورة حربية وصورة سلمية ، وتمثلت الأخيرة - بعض الشىء - فى علاقات الإمام بعدن .

ذكرنا أن الدوائر السياسية فى لندن ، قد اهتزت لهجوم الإمام على المحميات وقامت بتغيير معتمدها فى عدن ، وبتغيير السياسة تجاه الإمام ، وقد نتج عن هذا التغيير استئناف المفاوضات بين الإمام والإنجليز ، وتبادلا الهدايا ، وعين الإمام معتمداً له فى عدن ، وهو القاضى « عبد الله العرشى »(١) وقد أقام مبعوث الإمام فى عدن بصفة دائمة فى عامى ٢٢ و ١٩٢٣(٢) ، ولكن هذه المفاوضات لم تأت بنتيجة ما ، فالإمام تزعجه قوة الإدريسى وسيطرته ، ويريد استرداد الحديدة أولا وقبل كل شىء ، والإنجليز أصبحوا لا يملكون الحديدة ، ولا يعرفون كيف يستعيدونها ، ويطالبون الإمام فى

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٦٣ ، الريحانى : ملوك العرب ، ج ١ ، ص ١٩٨ .

(٢) Survey of International Affairs , 1925, p . 321.

نفس الوقت بالخروج من المحميات . وفى نهاية العامين ، كتب الإمام إلى مندوبه فى عدن قائلا « إذا استطعت أن تعيد فتح طرق التجارة ، وأن تتخلص من الإدريسى فخيراً وحسنًا ، وإذا لم تستطع فعد إلى صنعاء »[1] .

والصورة الحربية بين هاتين الجبهتين تمثلت أساسًا بين الإمام والإدريسى ، فكلاهما منافس للآخر ، وكلاهما يعتبر تهامة - والحديدة بالذات - مسألة حيوية بالغة الأهمية بالنسبة له . فكانت تهامة - بالنسبة للإدريسى - خط دفاع أول وهام بالنسبة لإمارته فى عسير ، وبالنسبة للإمام جزء لا بد منه مكمل لدولته ، إذا أراد أن يدعم كيانه ويرسى قواعد هذه الدولة الناشئة .

ويجب ملاحظة أن جبهة الإمام تعتبر ذات شق واحد يمثلها هو بنفسه . أما الجبهة الثانية فهى ذات شقين : الإدريسى من ناحية والإنجليز من ناحية ثانية . حقيقة أن اتحادهما فى جبهة واحدة ضد الإمام كان وليداً لظروف تاريخية تمتد لعدة سنوات ، إلا أن أحداث كل منهما فى الفترة القصيرة التالية سارت فى اتجاه - لا يخالف الآخر - بل ينفصل عنه ، فعلاقة الإمام بالإدريسى سارت منفصلة تمامًا عن علاقة الإمام بالإنجليز فى عدن ومحمياتها ، بل وتميزت كل منهما بطبيعة وظروف خاصة بها ، فبينما صبغت الأولى بالصبغة الحربية المحضة بين الإمامين المتنافسين ، نجد أن العلاقات بين الإمام وعدن قد اختلفت بين السلام والحرب ، بين المفاوضات للوصول إلى تسويات ودية ، وبين التوتر الذى يؤدى إلى الاعتداء الحربى العنيف .

قام أمين الريحانى عند زيارة هذه البقاع - صنعاء ، جيزان ، عدن ، على التوالى - بعدة محاولات لتقريب وجهات النظر بين تلك الأطراف المتنازعة ، وأرسل من عدن عدة خطابات إلى الإمام ، يخبره بما توصل إليه من نتائج ،

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, , p. 248 .

وكـان يرى أن يقصر الإمـام مطالبـه على استرجاع الحديـدة فقط ، دون الإصرار على طرد الإدريسى من عسير كليـة ، وكذلك طلب الريحانى من الإمـام الموافقة على عقد مـؤتمر فى الحديدة ، أو فى عدن ، يجمع الأطراف الثـلاث ، ولكن الإمام رفض كل هذه الأقـوال والمقترحات ، بحجة أن الإدريسى دخيل ، وليس لـه أية حقوق فى اليمـن - بمعناه الواسـع - ولا يحق لـه بالتـالى أن يتفاوض بشـأن شىء ما(١) .

قيام الحرب بين الإمام والأدارسة :

لكن رغم هـذه المحـاولات الجديـة من جانـب الريحانى لم تخف حـدة الموقف ، واستمرت العـلاقات بين الـزعيمين العربيين قـاسية حتى تـوفى السيد محمـد الإدريسى فى ٢٠ مارس ١٩٢٣ ، وحل محلـه ابنه على . وكـان الأمير على صغير السن لا يقدر على تسيير دفة الأمـور كما كان يفعـل أبـوه ، وخاصـة أن الإمارة الإدريسيـة كانت قد بلغت ذروتهـا منذ احتـلال الحـديدة أوائل سنة ١٩٢١(٢) .

وكانت وفاة محمـد الإدريسى بداية نهاية الأسرة الإدريسيـة كعامل قوى فى سير أحـداث هذه المنطقـة من الجزيرة العـربيـة ففى الوقت الـذى كان الإمـام يواصل فيه مجهوداته الحربية ضد القبائل والجهات تدعيما لسيادته وسلطته ، كان الانهيار قـد بدأ يـدب فى كيان الإمـارة الإدريسية . وكـان من أكبر أسبـاب هذه الظـاهرة الجديـدة هو صغـر سن الحاكم الجديد فهـو من ناحيـة قد عجـز عن الإدارة فسيطر عليه البعض بسهولة ، وأدى هـذا إلى أنه « أقصى رؤساء الحكومة التى أسسهـا والده »(٣) . فبـدأ هؤلاء يعملـون بـالتـالى على تحطيمه ، واتصلـوا بالجهات المعاديـة له تنفيذاً لرغباتهم ، ومن ناحية ثـانية أدى صغر سنه وضعف

---

(١) Ameen Rihani ; Peak and Desert, 239-241.

(٢) Sruvey of International Affairs,1925, V ol, I, p. 322.

(٣) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٣٣ .

شخصيتـه أيضًا إلى المنـازعـات الشخصية داخل الأسرة الإدريسيـة ، ففى ربيع سنة ١٩٢٤ استقـل السيد مصطفى بالحديـدة - وهو ابن عـم الأمير الجديد - وأبعد الأمير على مـؤقتًا عن الإمـارة ، ولكن الأخير تمكن فى أكتوبـر سنة ١٩٢٤ من استعادة « صبيا » عاصمة الإمارة و « الحديدة » . وقد استمرت هذه القلاقل كما هى ، فقد قام السيـد حسن - عـم الأمير على - فى أوائل سنة ١٩٢٦ بإقصاء ابن أخية عن الإمارة . وكانت الهزائم تتوالى حينئذ عليها ، فخرجت الحديدة من أيديها ، مما أدى بالأمير على إلى الهرب نهائيًّا فى مارس من هذه السنة إلى عدن[١] وقد أعطت هذه الانقسـامات الداخلية[٢] الفرصـة لأعداء الإمارة لـلإغارة على ممتلكاتها من جميع الجهات . فاحتل الحجازيون عدة جهات من عسير الداخلية كما نقلت الأهرام عن التيمس أن الـوهابيين احتلوا « الحقوة » التى تبعـد ثلاثين ميـلا إلى الشمال الشرقى من «صبيـا » وأطلقـوا سراح الـرهائن الـذين كـان قـد اعتقلهم الإدريسى ضمانًا للسكينـة ، كما احتـلوا أيضًـا « البيشة » الـواقعة على بعد ٢٥ ميـلا شمال صبيا[٣] . وفى نفس الـوقت اشتد نشاط أعمال الإمـام يحيى الحربية فى تهامة ، فيقـال إن أحد كبار قواد الأمير على وهـو الشريف الحزمى قد انضم للإمام يحيى ، وأخذ يقاتل الأمير على الإدريسى قرب باجل ، كما أثار عليه أحـد كبار شيـوخ « ألمع » والشيخ « هـادى هيج » رئيس العشـائر النازلـة على طريق المواصـلات بين « أبو عريش » والحديـدة » وبالإضـافة إلى ذلك رفضت عشائر « صبيـا » أيضًا تعضيـد الأمـير على ، وهـذا فى الوقـت الـذى كان الإمام يحيـى يواصل انتصاراتـه شمالا وجنوبًا ضد قبـائله المتمـردة عليـه ، والتى لم تقبـل الخضوع للنظم الجديدة[٤] واصل الإمـام زحفه فى تهامة مصمما على القضـاء على الإمـارة الإدريسيـة واسترداد أمـلاكـه منهـا[٥] ، فـأرسـل

(١و٢) Survey of International Affairs, 1925, Vol. I, p. 322.

(٣) الأهرام : العدد ١٤٥٨٠ فى ٢٨/ ١/ ١٩٢٥ ، ص ١ .

(٤) الأهرام ، ١٤٦١٦ فى ١٨/ ٣/ ١٩٢٥ (١٦ شعبان ١٣٤٣ هـ) ، ص ٢ .

(٥) فى كتاب Philby ; Arabain Hiahlands.

ويسجل فيه زيارته لعسير ونجران بعد انضمامهما نهائيا سنة ١٩٣٤ إلى العربية السعودية وصف لثروة عسيرة الزراعيـة ووفرة منتجاتها الغذائيـة ، ولعل هذا هو السبب الأول - إلى جـانب الأسبـاب الأخرى - التى جعلـت الإمام يتمسك بها عن المحميـات ودفعتـه إلى مهاجمتها أولا قبل مهاجمة المحميات .

قسما من جيشه إلى « باجل » وزحف قسم آخر من جبل « برع » واحتل «الحمرة» . وكانت نتيجة هذا التوتر واضطراب الأحوال أن تلقى تجار عدن تلغرافات كثيرة من عملائهم فى الحديدة عن طريق جزيرة « قمران » يحذرونهم فيها من إرسال بضائع إلى الحديدة[١] .

أدت انتصارات الإمام المستمرة فى تهامة إلى عزل الحديدة وحاميتها مما اضطر القائد الإدريسى إلى إخلاء الحديدة هو وحاكمها المدنى ، وترك المدينة مؤقتًا فى عهدة رئيس عشيرة « عبس » ريثما يصل ممثل الإمام يحيى من «باجل». وقبل خروج القائد من المدينة أرسل سبعين ألف ريال فضة من دخل الحكومة إلى «جيزان » بحراً .. وكما روى مصدر موثوق به أن رئيس عشيرة «الوعيدات » المحالف للإمام قد احتل « سوق سبل » التى تبعد عشرين ميلا عن « ميدى» إلى الداخل[٢] . وقد أغرت هذه الانتصارات الإمام على مواصلة الزحف والاستعداد ، فقام بتجنيد عدد كبير من الرجال فى منطقة باجل والحديدة ليزحف بهم نحو عسير التى انسحب إليها الإدريسى بعد ضياع الحديدة . ومن الجدير بالذكر أن نقول إن شيوخ قبيلة الزرانيق العتية قد دخلوا الحديدة ، وعقدوا الصلح مع حاكمها الجديد من قبل الإمام يحيى[٣] . وقد أجمل الواسعى الحديث عن هذه الانتصارات فقال : « ثم وصل السيد عبد الله بن أحمد الوزير واستلم باجل ثم الحديدة من دون حرب ، واستلم الموانئ التى على ساحل البحر الأحمر : « ابن عباس » و « الصليف » و « اللحية » و « ميدى » ثم مدن : « الضحى » والزهراء » و « المغيرة » و « الزيدية » و « المراوعة » وغيرها، وعين الإمام لهذه عمالا وحكامًا ومعلمين »[٤] .

---

(١) الأهرام ، العدد ١٤٦٢٨ فى ٢٥/ ٣/ ١٩٢٥ ، ص ٣ .

(٢) الأهرام . العدد ١٤٦٤٦ فى ٥/ ٤/ ١٩٢٥ (٢١ رمضان سنة ١٣٤٣هـ) ص ٣ .

(٣) الأهرام ، العدد ١٤٦٨٠ فى ٢٧/ ٥/ ١٩٢٥ (ذو القعدة سنة ١٣٤٣هـ) ص ٣ .

(٤) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٧٤ .

اتجاه الأدارسة إلى ابن السعود :

وهكـذا استطاع الإمـام يحيى أن يخرج الأدارسة من الأراضى اليمنيـة التى كانت تحت يـد الترك قبـل خـروجهم ، وأن يحصرهـم فى عسير فقط ولكـن هـذا الانتصار لم يكن يكفيه ، فهو لا يرى للأدارسة حقًّا فى عسير نفسها لذلك صمم على مواصلة زحفه على طول ساحل تهامة إلى ميناء « القنفدة » الحجازى ، الذى رأى أن يرسل إلى ابن السعود بخصوصه ، يقترح عليه أن يتنازل عنه ، ومن ناحية ثانيـة ، ففى مارس ١٩٢٦ ، بعـد أن طرد الأمير حسن الإدريسى الأمير على من صبيا مبـاشرة ، اتجه الإمام إلى « صبيـا » و « جيزان » . وفى خـريف سنة ١٩٢٦ كانت هاتـان المدينتان الهامتان المركزيتان فى إمارة الأدارسـة محاصرتين بالقوات الزيديـة ، وهنا أسرع السيد حسن واتصل بابن السعـود فى فبراير ١٩٢٦ يعرض عليه اعترافه بالحماية السعودية إذا تقدم ابن السعود لإنقاذه من الهجوم المنتظر . ولكن ابن السعـود عـارض هـــــذا الاقتراح ، وأصر أن يبقى محايـداً وسحب حاميـاته ، التى ساعـدت الأمير حسن فى الوصول إلى عـرش عسير - من صبيا وجيزان إلى أبها - مركزه فى عسير وذلك عندما كـانت القوات الزيدية تتقدم إلى هاتين المدينتين[١] . وكانت سياسة ابن السعود ترمى فى هذه الأيام إلى عدم إثارة حروب توسعية أخرى ، إذ إنه لم ينته من حروبه مع الأشراف فى الحجاز ، وكذلك يريد تـوطيد حكمه فى هذه البقـاع ، ويحاول إقناع العالم الإسلامى بأنـه حريص على سلامة الحرمين الشريفين (مكة والمدينة) وهـذا سبب دعوته إلى عقد مؤتمر إسلامى فى مكة للنظر فى شئون هاتين المدينتين المقدستين .

فشل حسن الإدريسى فى إغـراء ابن السعود ليعلن الحمايـة على عسير كى ينقذهـا من الخطر الزيـدى ، وعندئذ أسرع إلى الزيـديين للتفاوض معهم ، على أساس أن تحتفظ الإمـارة الإدريسية بسيـاستها الـداخلية ، إلى جـانب اعترافها

---

(١) Survey of International Affairs, 1925, Vol. I, pp, 322-323 .

بالسيادة الزيدية عليها . ولكن هذه المفاوضات فشلت كذلك ، وبدلا منها عقدت اتفاقية فى أكتوبر سنة ١٩٢٦ ، بين ابن السعود وحسن الإدريسى(١) . وهذه الاتفاقية - التى تعلن الحماية السعودية على عسير - والذى قبل فيها الأمير حسن الحماية السعودية ليتجنب بها الحماية الزيدية - تعتبر بداية وجه جديد - لا فى تاريخ عسير فحسب - بل فى تاريخ العلاقات السعودية اليمنية أيضًا ، إذ أصبحت الدولتان وجهًا لوجه ، وبدأت مصالحهما ومطالبهما تتماس عن كثب . ومن ناحية ثانية يمكن اعتبار أن مشكلة عسير بالنسبة للإمام يحيى لم تنته لصالحه رغم نجاحه السابق فى استرجاع تهامة اليمن حتى (ميدى) وذلك لدخول عنصر جديد قوى فى الميدان قبل أن يسدل الستار على الفصل الأخير منها . وهذا يذكرنا بنص التلغراف الأخير الذى أرسله الريحانى إلى الإمام وهو يغادر عدن ، الذى حذره فيه من الإصرار على طرد الأسرة الإدريسية نهائيًا من عسير ، ومن الجزيرة العربية لأن نتيجة ذلك ستكون ضده(٢) . وهذا هو ما حدث الآن ، فقد عرض عليه الأمير حسن أن يحتفظ بسيادته الداخلية تحت الحماية الزيدية فرفض الإمام ، فكانت النتيجة أن تم إعلان الحماية السعودية على عسير .

بداية العلاقة المباشرة بين الإمام وإنجلترا :

لم تكن هناك علاقات رسمية بين الإمام يحيى والإنجليز فى عدن ، وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وكانت العلاقة بين اليمن وعدن ، تتم بين العثمانيين أصحاب السلطة فى اليمن ، والإنجليز أصحاب السلطة فى عدن ومحمياتها . ولكن بعد خروج الترك من اليمن بدأت العلاقات المباشرة بين صاحب السلطة الجديد ، وهو الإمام يحيى وبين الإنجليز .

وقد فشلت أول محاولة إنجليزية التى تمثلت فى بعثة جيكوب ، وكانت هذه البداية السيئة وما ثار حولها من شكوك ومشاكل بداية أحداث هامة شكلت تاريخ العلاقات اليمنية الإنجليزية حتى وقتنا الحاضر .

---

(١) Sruvey of International Affairs, 1928, p. 319 .

(٢) Ameen Rihani ; Arabian Peak and Desert , pp. 240-241 .

ولا جدال فى أن هذه البداية السيئة ليست وليدة المصادفة ، بل لها جذورها التاريخية ، وتدل دون شك على اختلاف وجهات النظر بين الطرفين ، وأن هذا الاختلاف كان له أعماقه أيضًا .

ينظر اليمنيون إلى حدود اليمن نظرة خاصة واسعة ، فهم يعتبرون كل ما هو « يمين » الكعبة يدخل فى حدود « اليمن » وترسبت هذه النظرة الإسلامية التقليدية عندهم طوال التاريخ الإسلامى ، وتبلورت هذه الفكرة عبر الزمان ، تغذيها الطبيعة الواحدة التى تجمع أجزاء المنطقة ، ويتناقلها الحكام فى «صعدة» وفى « صنعاء » وفى غيرهما حتى وصلت إلى الإمام يحيى وكانت هذه النظرة تتحقق أحيانًا من الناحية العملية - وتخرج من النطاق النظرى - فيستطيع بعض الأئمة الزيديين ، أو غيرهم من الحكام السنيين الأقوياء - الذين تمكنوا من إقامة دول مختلفة متعاقبة - بسط سيادتهم على عسير ، واليمن ، ومنطقة المحميات ، وكانت هذه الحدود التاريخية فى مخيلة الشعب اليمنى دائمًا وما زالت . فلما حقق استقلاله بعد خروج العثمانيين نهائيًا من اليمن ، رأى أن هذا بداية استرجاع الأملاك المسلوبة . وقد عبر الإمام عن أمانى الشعب هذه فى حديث له مع الريحانى فى مقابلة خاصة ، تكلما فيها كثيراً ، وتناولا هذه المسألة وغيرها ، فيقول الريحانى إنه سأل الإمام قائلاً : « أتعلمون يا مولاى كم عدد سكان اليمن ؟ فقال بالتقريب لا بالتحقيق خمسة ملايين » فقلت : « وكم منهم تحكمون؟ فأجاب وهو يبتسم ويضم أنامله إلى كفه : اليسير ، حفنة منهم فقط » ويستطرد الريحانى قائلا : « أما حدود اليمن ، فالإمام لا يعرف منها غير الحدود القديمة التى كانت تشمل عمان وحضرموت . فإذا اعتبرنا هذا التحديد، وفهمنا إشارة الحضرة الشريفة ظهرت لنا مطامحه السياسية بأجلى مظاهرها»(١).

وكان هذا المفهوم لحدود اليمن يؤثر فى سلوك الإمام الشخصى ، فقد ذكرنا قبل ذلك أنه كان مشهوراً بالبخل والتقتير ، ولكنه كان من ناحيته

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج١ ، ١٣٣ .

يعتبر أن هذه الظاهرة لا تعيبه كثيراً أو قليلا ، فهذه الأموال التى يكتنزها إنما يحتفظ بها لليوم الكبير - كما كان يقول - وكان يفسر دائماً هذا اليوم أنه يوم إرجاع حدود اليمن إلى طبيعتها المعروفة . وقد قدر جيكوب هذا التاريخ الطويل للإمام وأسرته ، فعبر عن الأهمية التاريخية التى يحملها الإمام فوق كتفيه والتى كانت بالتالى أكبر دافع له فى سياسته طوال حياته بقوله : « والحقيقة أن شخصية الإمام ليست هى التى أدافع عنها - بالرغم من عدم ظهور حاكم من بيته له قدرته الإدارية منذ سنوات طوال - ولكنى أدافع عن مركزه ونسبه الطويل ، أو مبعنى آخر « إن الرداء هو الذى أحبيه »[1] .

هكذا وكان رأى اليمنيين فى حدود بلادهم هو العامل الأول والأهم فى موقف الإمام بالنسبة لعلاقاته مع إنجلترا فى عدن ومحمياتها . أما العامل الثانى فكان شكه فى نواياهم نحوه إثر فشل بعثة جيكوب . أما العامل الثالث فهو دخول عوامل خارجية فى الميدان سنشير إليها فى حينها أثرت دون شك فى سير العلاقات بينه وبين إنجلترا .

علاقة إنجلترا بمنطقة الجنوب :

أما تاريخ إنجلترا فى جنوب الجزيرة العربية ، فله أساس آخر ، فهو يبدأ بشكل خاص باحتلال الإنجليز ميناء عدن عام ١٨٣٩ ، وما تبع ذلك من المعاهدات والاتفاقيات بين السلطات البريطانية فى عدن وحكام الإمارات خلال القرنين ١٩ ، ٢٠ ، وكانت حوالى التسعين حتى ذلك الوقت . وكان الغرض من هذه الاتفاقيات والمعاهدات ، إيجاد مساحة برية خلف مستعمرة عدن متحررة من تدخل أية دولة أجنبية ومرتبطة بعلاقات ودية مع إنجلترا .

وكان هذا الغرض هو دافع الكابتن هينس-الذى احتل عدن سنة ١٨٣٩ ،

---

(١) Jacob ; Kings of Arabia, p. 247.

وأصبح أول وكيل سياسى لها - فى عقد معاهدة مع سلطان لحج بعد دخوله ميناء عدن ، ثم اتفاقه مع رؤساء قبائل « الصبيحة » و « الفضلى » و « يافع السفلى » و « الحوشبى » . وتعتبر هذه الصكوك النواة التى نمت حولها بالتدريج محمية عدن ، بالرغم من أن معاهدات الحماية الرسمية لم تعقد إلا بعد ذلك بكثير ، وكان أولها مع سلطان « سقطرة » فى سنة ١٨٨٦ م . وكانت بريطانيا تعنى من إقامة هذه العلاقات مع القبائل العربية التى تقطن حول عدن ، سلامة عدن نفسها ، وسلامة الطريق البحرى إلى الهند والشرق . والمعاهدات التى عقدتها بريطانيا مع هذه المحميات تتحد معظمها فى جوهر واحد ، وهى معاهدات بسيطة ذات مواد محدودة ، تنحصر فى أن حماية بريطانيا ستمتد على حاكم الولاية مقابل أن يتعهد هذا بألا يقيم أية علاقات مع أية دولة أجنبية ، وهى فى نفس الوقت تلقى على الحكومة البريطانية مسئولية الدفاع عن هذه المناطق المحمية ضد الاعتداء الخارجى وحمايتهم ضد العدوان أو التدخل ، وظلت هذه الحماية قائمة حتى بدأت الحرب العالمية الأولى ، ففقدت فعاليتها إذ لم تكن هناك فرق عسكرية لصد الهجوم التركى على المحميات حيث كانت إنجلترا مشغولة عن هذا الميدان المحلى بما هو أهم فى مجال العمليات الحربية العالمية . وقد أتاح خروج العثمانيين - كما رأينا - الفرصة للإمام يحيى لأن يجدد مطالبه فى هذه المنطقة فوجد الإنجليز وأهالى المحميات أنفسهم أمام حاكم جديد أكثر عنفًا وأصعب مراسًا مما كان عليه الترك »[1] .

أما وضع هذ المحميات تحت الحكم البريطانى فيصفه الواسعى - وهو يعبر عن وجهة نظر يمنية عربية بحتة - فيقول : « أما المراد بالنواحى التسع ، فهى الإمارات والمشيخات الكائنة فى سفلى اليمن ، وهى التى دخلت شيئًا فشيئاً تحت حماية الحكومة البريطانية على يد والى (عدن) أو بواسطة

---

(١) Sir Bernard Reilly ; Aden and the Yemen , pp. 15-17 .

إليه[١] التى تشرف على الإمارات والمشيخات الآتى ذكرها : لحج ، أبين ، الحواشب ، الصبيحة ، القطيب ، الضالع ، يافع العليا والسفلى ، العوالق ، حضرموت . على أن موقف هذه الإمارات تختلف عن بعضها البعض من حيث وطىء الحماية ونفوذ الحكومة البريطانية وسيطرتها : ولرؤساء الإمارات والمشيخات رواتب شهرية مقررة يتناولونها من خزانة عدن ، على أنها فى حد ذاتها حقيرة لا أهمية لها بالنسبة لسيطرة الإنجليز ولبسط الحماية وما يتفرع عنها من الخنوع والخضوع ، وليس للإنجليز فى هذه الإمارات من احتلال مسلح أو سيطرة عسكرية ، ولكن لها نفوذ أدبى وسياسى لا يحتاج إلى الالتجاء للقوة والاحتلال . ولا يغرب عنك أن رؤساء هذه الإمارات صادقون ومخلصون لحكومة عدن ، ولحج ، والحواشب ، والمكلا ، وأبين ، والضالع معدودات من الإمارات ، ويخاطب رؤساءها بفخر الأمراء ويسمى بعض الرؤساء بلقب السلطان والباقى من الإمارات رؤساء ومشايخ لهم احترام خاص من حكومة عدن . وكانت هذه المحميات التسع سابقًا فى الدولة العثمانية ، وأئمة اليمن تعتبرها نواحى من حيث التقسيمات الإدارية »[٢] .

والحقيقة أنه يمكن التعبير عن سياسة إنجلترا فى المحميات – منذ احتلالها عدن سنة ١٨٣٩ – بأنها غير ثابتة أو محددة ، بل كان للولاة المختلفين من الإنجليز طرقهم المختلفة فى معاملة حكام العرب هناك . ولكن هذه السياسات المختلفة كانت تنحصر فى صفة واحدة ، وهى اتباع سياسة « أقل ما يمكن من التدخل »[٣]. فكانت سياستهم مرنة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وكان لهذه المرونة مظاهر شتى ، مثل المعاهدات الولائية والمشاهرات المالية ومدافع الترحيب والتوديع لمن يجىء إلى عدن

(١) هكذا كما ورد فى النص ، ونظن أنه يشير إلى مندوبى الوالى فى المحميات أو إلى المعاهدات التى تربط هذه الأقاليم بالوالى .
(٢) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٣٣٦-٣٣٧ .
(٣) Jacob ; Kings of Arabia, p. 252.

من السلاطين ، أو يسافر منها ، ثم الألقاب والنياشين ، والتحزب لبيت طامع بالملك على بيت مالك ، أو عكس ذلك . وأهم من ذلك كله حرصهم على استغلال كل أمير ، أو سلطان ، أو شيخ قبيلة كل على حدة . وكانت مصالح إنجلترا توافق تمامًا رغبات هؤلاء ، فكل أمير ، أو شيخ يريد الاستقلال ، وهذا يعطى لها الفرصة فى تنفيذ أغراضها وأطماعها بين أمراء منقسمين ، لا بين جسم له كيان واحد . ورغم تعدد معاهداتهم مع الحكام العرب ، إلا أنهم كانوا حريصين على مطلب معين تكرر فى جميع المعاهدات ، وهو « لا يحق للأمير ، أو السلطان ، أو الشيخ أن يفاوض ، أو يراسل دولة أخرى ، أو يعاهدها أو يقبل مساعدات مالية منها بدون معرفة بريطانيا العظمى وإجازتها . كما لا يحق لهذا المتعاقد معهم أو ذاك ، أن يبيع أو يؤجر ، أو يهب ، أو يرهن شيئًا من أرضه ، أو ملكه لغير الحكومة البريطانية »[1] . ومقابل هذا القيد الخانق كانوا لا يبخلون على هؤلاء السادة العرب بأية أموال أو مظاهر تبجيل ، أو غيره .

ولكن هل هذا التعبير الذى ذهبنا إليه - وهو « القيد الخانق » تعبير صحيح ؟ وما مدى صحته ؟ والإجابة - إذا دققنا النظر - أنه غير صحيح تمامًا إلا من وجهة نظرنا نحن ، إذ كان السلاطين فى هذه المنطقة لا يحسون بهذا الضغط ، كما نشعر به نحن . نعرف أن هذه الجهات تقطنها عشائر قبلية تتصف بالحرص الشديد على الاستقلال الذاتى ، و« المحلية » الشديدة فى التفكير ، والخضوع المطلق لرئيس القبيلة ، أو شيخها فقط ، ثم فقر الأهالى وقناعتهم بالقليل . وقد أدركت إنجلترا هذه الطبيعة ، وعاملت سكان المحميات بمقتضاها وعلى أساسها ، فتركتهم يعيشون فى حرية ذاتية ، ومنحتهم المال والتبجيل وتركتهم يصرفون حياتهم كما يريدون ، ولم تطالبهم إلا بعدم الارتباط بغيرها ،

---

(١) الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ٤١٧ .

وهذا لا يضيرهم فى كثير أو قليل ما دامت إنجلترا تحقق لهم ما يريدون من الحياة وأكثر من ذلك أن إنجلترا حرصت على هذه الأوضاع وعلى بقائها ، وذلك حتى تتمكن من تحقيق أغراضها من خلال هذا التفتيت .

ويتضح الموقف فى المحميات من حديث اثنين من الرحالة العرب - اللذين زارا هذه الجهات - مع سلطان الحواشب . والأول هو أمين الريحانى والثانى هو نزيه مؤيد العظم ، وقد زارا تلك السلطنة - بالترتيب السابق - فى العشرينيات والثلاثينيات من قرننا الحالى . ففى حديث السلطان على بن مانع الحوشبى مع أمين الريحانى أثناء العشاء عند الأول ، قال السلطان يوضح للريحانى أحواله : « أنا بين أربعة يا أمين ، والأربعة يقصرون حياتى ، هذا ابنى وهذه لحيتى البيضاء ، هو ابنى الوحيد يا أمين ولكنى أذبحه والله ولا أسلمه رهينة لأحد . أما الأربعة فالواحد منهم فوق (أى الإمام يحيى) يشهر علينا الحرب لأننا هادئون ساكتون لا نعتدى على أحد ، والآخر تحت (قبيلة الصبيحة وهى إحدى المحميات أيضًا) يغزونا لأنه يظن أننا أغنياء وأن خزانة الإنجليز تحت أمرنا ، والثالث هناك (قبيلة الضالع المحمية أيضًا ، وهى إلى الشرق من الحواشب) ، والرابع (سلطان لحج) عدونا اليوم صديقنا غداً لا نعرف والله متى ينقلب ولم ينقلب ؟ وعلينا أن نحاربهم كلهم ، وإننا والله نحاربهم يا أمين حتى نفنيهم أو يفنونا . لا والله لا نأخذ من القوافل إلا مجيديًّا واحداً على كل جمل ، والإمام يأخذ مجيديين، وصاحب لحج يأخذ ثلاثة . فسأله الريحانى ، وكم تأخذ مشاهرة من الإنجليز؟ فنظر السلطان على إليه ، ويده على لحيته وثلاثة أصابع من الأخرى مرفوعة وقال: ثلاثمائة روبية ، وهى والله غير كاملة يدفعونها كل ستة أشهر .. ونحن علينا أن نؤمن للقوافل الطرق ، وأن نطعم أهلنا ورجالنا .. الإنجليز ضرورة يا أمين . فقال له

الريحانـى ثانية : ولـو دفع لك الإمـام مشاهرة مثـل الإنجليز أتتركهم وتـواليه ؟ فأجاب على الفور : لا والله أنا متعاهد والإنجليز فلا أخلف ، وسأبقى صديقهم دائماً . الإنجليز يا أمين يعقلون ، عندهم حكمة كما عندهم مال . نعلم أنهم غير مسلمين ، والمسلمون إخـوان ، ولكن القلب يعـرف الأخ يا أمين ، والسيـاسة لا تعرف غير الضرورة »[1] .

وهنا عـدة ملاحظـات يمكن الإشارة إليهـا ، فهذا الحديث عـاصر زحف الإمام نحـو المحميات - كما عرفنا قبل ذلك - وهـذا يفسر تحامل السلطان على الإمام ، فهـو يعتبره معتد على هـذه الأقاليم . ومـن ناحية ثـانية ، هـذا الحديث صورة حية للعلاقات بين هـذه القبائل بعضها ببعض فهى فى نزاع قبلى وحروب محلية ، ولكن كـان هذا لا يهم إنجلترا كثيراً ولا يشكل خطراً على مصـالحها ، بل يفيدها من ناحية أنه يعطيها الفرصة للتدخل وفرض نفوذها . ومن ناحية ثالثة ، يتضح هنـا حرص السلطـان على ولائه للإنجليـز . وقد عبر فى حـديثه أن هـذا الحرص كان مجرد تقليد تـاريخى ، وذلك لارتباط آبائه بالإنجليـز ، وأنه لا بد أن يتبع نفس الخطـة . ولكن الواقع أن الظـروف التى عـاش فيها آبـاؤه ، لا تخالف كثيراً الظـروف التى يعيشها هـو فى ذلك الوقت ، وهـذا هو سبب تمسكـه بنفس عناصر هذه الظروف . وهو يعبر صراحـة عن ذلك بقوله : إن الإنجليز ضرورة» ونعتقد أنه لو تغيرت الظروف لتغير الموقف أو لتخلخل تمسكه بهذا الولاء . ومن ناحية رابعة ، يشير السلطان إلى النقطة الهامة التى تنفر هذه القبائل من الإمام ، وهى حرصه على أخذ الرهائن من أقـرب الناس إلى الحاكم كرهينة لضمان موقفه منه وعدم تمرده عليـه . هذه الظاهرة قـاسية فى الحقيقة بالنسبـة لأناس يحرصون على حريتهم واستقلالهم من ناحية ، ويرون التعظيم والتبجيل من الطرف الآخر،

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ج١ ، ص ٩٧ .

أى من الإنجليز ، دون أن تمس كرامتهـم بإعطاء رهينة أو غيره من ناحيـة ثانية . وإلى جانب هذا كله ، كان الإنجليز يمنحونهم المال ، فهذه الجهات فقيرة الموارد وتعتمد على جباية الأمـوال من القوافل عندما تمر بأراضيهم فقط ، وهى لا تفى بحاجاتهم ، لذلك نراهم يحتاجون فعلا إلى النقود الإنجليزية .

أما الحديث الثانى ، فكان بين نزيه العظم وبين ابن السلطان السابق وهو السلطان محسن بن على بن مانع ، الذى تـولى السلطنة بعد وفاة أبيه ، وسترى فى أحاديثه دلالات عميقة لحقيقة موقف هؤلاء من الإمام ومن الإنجليز .

ويـروى نـزيـه العظم الحديـث التـالى الـذى دار بينهما على شكل سـؤال وجواب :

س- كيف أنتم والإنجليز ؟

ج- الإنجليـز أصحاب أبينـا من قبلنـا ، ونحن وإياهم أصحـاب ، وهم يدفعون لنا معاشًا كل شهـر ، وإذا ذهبنا إلى عدن يطلقون المدافع حين وصولنا ، وذلك للترحيب بنا .

س- كيف حالكم مع الإمام ؟

ج- حالنا حسنـة لا أخذ ولا عطاء ، نحن فى أرضنـا وعمال الإمام فى أرضه فإذا تجاوزوا على حدودنا ، نحاربهم والله ، نحاربهم حتى نفنى جميعًا .

س- هل يجـــوز لكم وأنتـم مسلمون أن تحاربوا إخوانكم المسلمين ؟ ألا تخافون الله ومن يوم الله ؟

ج- والله نخاف من الله ومن يومه ، ولكن عمال الإمام قوم ، ونحن لا نريد أن نعاملهم بشىء .

س- ألا تفضلون عمال العرب المسلمين على الأجانب الإنجليز ؟

ج- نحن لا نفضل واحداً على واحد ، وقد عقد آباؤنا مع الإنجليز اتفاقات ، وما دام الإنجليز محافظين على هذه الاتفاقات فنحن معهم .

س- وإذا إتفق الإمام معكم ، ألا ترغبون أن تتفقوا معه ، وهو أفضل من الإنجليز ؟

ج- والله نتفق معه ونحارب الإنجليز أيضًا ، لأننا لسنا قبيلة أحد ، وليس علينا سلطان ، فمن يملأ كفنا قروشًا فهو سلطاننا الحقيقى » .

وأهم ما يلفت النظر فى هذا الحديث ، هو اختفاء النغمة المعادية للإمام تقريبًا ، وهذا يرجع أساسًا إلى تغير الظروف التاريخية التى عاصرت هذا الحديث. فقد أخرج الإنجليز الإمام من المحميات وسويت المشكلات تقريبًا بينهما ، وخاصة بعد عقد المعاهدة سنة ١٩٣٤ ، لذلك تكلم السلطان محسن عن الإمام كشىء بعيد عنه ، ويناقش الوضع معه دون أن تكون بينهما علاقات أو احتكاك فعلى . أما ما دون ذلك فالحديث يحمل نفس معانى الحديث السابق ، وكلاهما يؤيد وجهة نظرنا السالفة الذكر ، ويوضحا حقيقة سياسة إنجلترا فى هذه المنطقة على مر الأيام ، ويوضحا حقيقة الوضع فى المحميات ، وموقف أهلها من السلطات المختلفة .

ظهور مشكلة الحدود الجنوبية لليمن :

وضح إذن الأساس التاريخى لكل من الإمام فى اليمن ، والإنجليز فى المحميات ، ووضح كذلك أن للإمامة جذوراً تمتد لعدة قرون فى تاريخ اليمن ، غير التى للإنجليز الذين يرجع وجودهم فى الجنوب إلى سنة ١٨٣٩ ،

أى منذ احتلال عدن فقط . كما عرفنا وضع كل منهما فى منطقته ، بل الأكثر من ذلك نظرة كل منهما للآخر . وهكذا نرى أن البداية السيئة للعلاقات اليمنية - الإنجليزية بعد خروج الترك ، كانت بداية طبيعية رغم الثوب الذى ظهرت فيه ، وبغض النظر عن كونه طيبًا أو سيئًا .

وكان الإمام يريد أن يتقابل مع إنجلترا وجهًا لوجه للتفاهم على هذه الأوضاع المعلقة ، ولكن إنجلترا لم تكن تطمئن إليه كثيراً ، وتفضل عليه الإدريسى . كما أنها لم تكن تتعجل التفاهم مع الإمام أو الاتفاق معه ، على أساس أنها كانت تعتقد أن حقوقها فى عدن والمحميات شىء مقرر لا يمكن مناقضته أو مسه .

وقد اتخذت مشكلة الحدود مظهرها العملى قبل ظهور الإمام ، وكان النزاع من أجلها يتم بين الأتراك والإنجليز ، وهو النزاع الذى بدأ يتضح عندما بدأت مصالحهما فى الاحتكاك . فقد احتلت إنجلترا عدن سنة ١٨٣٩ ، وعاد الأتراك إلى احتلال تهامة اليمن سنة ١٨٤٩ ثم وصلوا صنعاء سنة ١٨٧٢ ، وجعلوا من اليمن ولاية عثمانية . ومنذ سنة ١٨٧٣ حتى بداية سنة ١٩٠٢ ، كانت الحدود تتذبذب بين النفوذ البريطانى والنفوذ التركى فى اليمن . ولكن بين يناير ١٩٠٢ ومايو ١٩٠٤ ، حددت الحدود بواسطة لجنة مختلطة إنجلو - تركية ، وفى إتفاقية ١٩١٣ الإنجليزية - التركية أرسيت الحدود بينهما . وهكذا ، فإنه عند بداية حرب ١٩١٤-١٩١٨ ، كان داخل شبه الجزيرة العربية مقسما من الناحية النظرية بين قوتين غير عربيتين ، هما بريطانيا والإمبراطورية العثمانية . ولكن هذا التقسيم النظرى - الذى وضع على الخريطة - تجاهل الحقيقة الواقعة ، وهى أن الجزء الأعظم فى كل من مجالى النفوذ ، كان فى يد الحكام العرب والقبائل العربية . فمثلا كان نفوذ السلطات البريطانية لا يمتد أبعد من ١٠ ميل من مدينة عدن

نفسهـا ، فكان حـوالى ٤٢٠٠ ميل مـربع خارج ٨٠ ميل مـربع (وهى مساحة المستعمرة) مقسمـة بين عدد من الزعـامات القبليـة المحلية ، وهذا بـالرغم من وجود معـاهدات حماية مع بـريطانيا . وكـذلك الوضع بـالنسبة للعثمانيين ،فلم يكن لهم نفـوذ فعلى فى كل ممتلكـاتهم ، ولكـن لهم مجال نفـوذ فقط تعترف بـه الحكومة البريطانية[1] . وعلى كل حـال فإن اتفـاقيـة الحدود الأنجلو - تـركيـة (أبـرمت فى مـارس ١٩١٤) قـد عملت على تسـويـة مشكـلات الحدود بين الدولتين وبالرغم من أنه كان للعثمانيين مطالب نظرية على كل الجزيرة العربية، إلا أنهم كانـوا يعترفون من الناحيـة العملية بـوجود الحماية البريطـانية على تسع قبائل متـاخمة لعدن ، أصبحت تعـرف فى المعامـلات الدبلومـاسية بـالمحميات التسع . وقـد عـاش هـذا الاسم طـويـلا رغم أن عـدد القبـائل التى أصبح لها علاقات تعاهدية مع الحكومة البريطانية قد زادت بمرور الوقت كثيراً عن التسع الأصليين[2]. وهكذا ارتضى الطرفان حدوداً معينة تنظمها معاهدة معترف بها ، ولكن بعد الحرب العالمية الأولى ، وبعـد خروج الترك ، كتب الإمام إلى « عدن » يخبرها أنه لا يعترف باحتلال الترك لليمن ، وبـالتالى لا يعترف بالمعاهدات التى عقـدوهـا . وذكر أن أسـلافـه كـانت تحكم كل هـذه الأقـاليم قبل مجىء الترك والإنجليز[3] . وكان الإمـام يرى أن احتلال بـريطانيا وتـركيا لهـذه الأقاليم فى القرن ١٩ كان اغتصابًا ، وأن الحدود تم تخطيطها بين اثنين مغتصبين لا يملكون الصلاحية القـانونية ، وأنه باحتـلاله أجزاء من محمية عـدن إنما يسترجع أملاكا سلبت منـه . ولكن إنجلترا كانت لها وجهـة نظـر مخالفة وتقـدم حججًا مقـابل حجج الإمـام ، فكـانوا يـرون أن أمـلاك الأئمـة الزيـديين - قبل القـرن ١٧ -

---

(١) Survey of International Af airs, 1928, p. 309-310.

(٢) Sir Bernard Reilly ; Aden and Yemen , p. 16.

(٣) Jacob ; Kings of Arabia, p. 242.

كانت محصورة فى « صعدة » فى الطرف الشمالى لمرتفعات اليمن . وثانيًا : أن سلطة الأئمة على كل أجزاء اليمن - أثناء القرنين ١٧ و ١٨ - عندما كان الميدان بكله خاليًا أمامهم - لم تكن فعالة مطلقًا . وثالثًا : أن السلطة التى أسسها الأئمة كانت قد انهارت قبل ظهور بريطانيا لأول مرة فى هذه المنطقة عام ١٨٣٩ ، وقبل ظهور الأتراك للمرة الثانية فى سنة ١٨٤٩ ، الذى كان بناء على دعوة السكان أنفسهم . وأخيراً كان الإنجليز يحتجون دائمًا بأن المذهب الزيدى ليس منتشراً فى كل جهات اليمن ، وأن الزيديين فقط هم الذين يقبلون حكم الأئمة الزيديين[١] . وقد أكمل السير برنالد رايلى أحد حكام عدن (١٩٣١-١٩٤٠) وجهة نظر إنجلترا هذه ، فهو يعتبر أن الإمام بصفته وريثًا للإمبراطورية العثمانية فى اليمن عليه أن يلتزم بالاتفاق التركى -الإنجليزى بخصوص المحميات ، وذلك طبقًا للقانون الدولى . ويعتبر الإمام معتد عندما هاجم « الضالع » فى سنة ١٩٢٠ « والبيضاء » فى سنة ١٩٢٣ « والعوذلى السفلى» فى سنة ١٩٢٦[٢] .

ومما لا شك فيه أن وجود تركيا فى اليمن ، ثم اتفاقها على حدود معينة بينها وبين انجلترا ، أعطى الأخيرة سنداً لأن تتمسك بهذه الحدود بالذات . وكانت إنجلترا حريصة كل الحرص على إيجاد منطقة خلفية لعدن ، خالية من كل نفوذ أجنبى ، وذلك حماية لعدن نفسها . وكانت تعتبر النفوذ العربى الذى يمتد من اليمن نفوذاً أجنبيًّا ، وخاصة بعد التجربة المريرة التى مرت بها أثناء الحرب العالمية الأولى ، عندما هاجم الترك المحميات وطرقوا باب عدن نفسها .

وبناء على ما أوضحناه من مفهومات وأوضاع ، أصبح من اليسير

---

(١) Sruvey of International Affairs, 1928, p. 311.

(٢) Sir Bernard Reilly ; Aden the Yemen , p. 17.

فهم سبب سير الأحداث فى الجنوب فى الطريق الذى اختطته لنفسها . وقد سبق أن أوضحنا أنه كان لـلإمام عند بدء عهد استقلالـه جبهتان : إحداهما فى تهامة مع الإدريسى ، والثانية فى المحميات مع الإنجليز ، ورأينا أن كلا الجبهتين كانتا مرتبطتين ومنفصلتين فى آن واحد ، هذا فضلا عن الجبهة الداخلية .

لعل أول توجيـه عملى لنظر الإمام ناحيـة المحميات - غير ما كان لـلإمام من مطالب نظرية ، هما الخطـابان - سبق الإشارة إليهما - اللذان أرسلهما اللواء على سعيد باشا قائد القوات التركية للإمام ، ولكن الإمام كان قد رأى حينئذ أنه لا يستطيع أن يلبى نداء سعيـد باشا ، فيرسل قواته لاستـلام لحج وغيرها قبل أن يسلمها سعيد باشا للإنجليز ، إذ لم تكن ظـروفه مواتية بعد . فأوضاعه فى اليمن نفسه لم تكن قد استقرت ، هذا إلى جـانب أنه كان غير راغب فى إثارة الإنجليز ضده فى أول عهـد استقلاله بل كان يطمع أن تسير الأمـور فى سلام ، ويأمل أن يساعده الإنجليز فى تحقيق آماله . وكانت أحـواله الداخلية من الأسباب المعوقة له فى أن يفكر فى امتداد خارجى يؤدى بـه إلى اصطدام مباشر مع الإنجليز ، هذا فضلا عن وجود الإدريسى فى عسير . وكـان نجاحه فى تهامة اليمن بعـد دخوله الحديدة فى أبريل سنة ١٩٢٥ نصرا كبيرا لـه . فعبر تهامة سيصل الإمام إلى العالم الخارجى حيث تـزدهـر تجارتـه ، وحيث يحصل على السـلاح لتحقيق بـاقى أغراضـه . وكانت إيطـاليا فى أريتريا على الشـاطئ الثانى للبحـر الأحمر ، تنظر بشغف إلى أن تمد نفـوذها إلى الشـاطئ العربـى الآسيوى المقـابل ، وهكذا كـان وصول الإمـام إلى الشاطئ العربى الآسيـوى المقابل ، وهكذا كان وصـول الإمام إلى الشاطئ بداية عهد جديد فى تاريخ حياته وحياة أمته .

ولكن جبهة عسير كانت تمثل جانبًا واحداً ، وكان الجانب الثانى هو جبهة المحميـات ، حيث يوجـد الإنجليز . وقـد فضل هؤلاء طـريق المسالمة (إجـراء المفـاوضـات) على طـريق الحرب ، نظـراً لكثـرة مشكـلاتهم التى تخلفت

عن الحرب العالمية الأولى ، والتى جذبت انتباههم بعيداً عن قضية اليمن. وكانوا يعتمدون على وجود الإدريسى فى المنطقة ، ويرون أنه قادر على الوقوف ضد الإمام ، كما كانوا يعتمدون على وجود الخلافات المذهبية عند القبائل التهامية الشافعية ، التى كان الإنجليز يحاولون بث روح التمرد والانفصال بينهم وبين الإمام . ورحب الإمام بالمفاوضة ، فأرسل كما قلنا عبد الله العرشى ، مندوبًا له فى عدن ، لإجراء المفاوضات ، ولكنه فشل فى الوصول إلى حل ، وعاد إلى صنعاء سنة ١٩٢٣ بأمر الإمام . ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى حديث الريحانى عن مندوب الإمام فى عدن - عبد الله العرشى - فقد سمع عنه : « أنه كان يتقاضى مرتبه الشهرى من الإمام ، وقيل إنه يقبض من الإنجليز ، وقيل إنه يقبض من الاثنين معًا ، وهذا يدل على عدم وضوح موقفه ، أو عدم نجاحه فى المفاوضات التى يقوم بها ، كما يدل على كثرة المؤامرات والدسائس والجواسيس فى عدن » [١]. وكان الإنجليز على عادتهم يتبعون طرق المماطلة والتسويف مع الإمام « ويحاولون إضعاف نفوذه بواسطة بعض رعاياه غير الراضين بحكمه»[٢] .

فشل طريق المسالمة والمفاوضات ، وبدا أن العلاقة بين الإمام والإنجليز بدأت تأخذ وجهًا آخر بعد أن أخضع الإمام الحديدة لحكمه ، وبعد أن بدأ فى الاتصال بإيطاليا فى أريتريا . وهذا ما حدث بالفعل ، فقد نقلت الأهرام عن التيمس خبراً هاما له دلالته ، يعبر بوضوح عن آثار نجاح الإمام فى وصوله إلى البحر جاء فيه : « يؤخذ من الأنباء الواردة من الحديدة أن رسل

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ج١ ، ض ٨٨ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٠١ -٢٠٢ .

الإمام يحيى عـادوا من مهمة خاصـة من مصوع (كـانت تحت النفوذ الايطالى) وأحضروا معهم جهازاً للتلغراف اللا سلكـى ، وبعض أطباء إيطاليين ، وقنصلا إيطاليًا »[1] . ولا شك أن المهمة الخاصـة المشار إليهـا هنا كـانت الحصول على السـلاح ، ولكن الأهم من ذلك هـو أن الاتصـال اليمنى الإيطـالى - وهـو مـا نقصـد الإشارة إليه - كان بداية لعلاقات طويلة هامة أثرت فى تاريخ اليمن ، وكان هـذا يعنى بـالتالى ظهور منـافس قوى دخـل الميدان أمـام إنجلترا . وهذا الخبر يعنـى فى ذاته ، أن الإمام كان على استعـداد للتعاون مع دولة جديدة ، أو الاستعانة بقـوة جديدة ، ضد قوة أخـرى عـدوة ، أو هى تعاديـه حتى الآن . وقـد شعـرت إنجلـترا بالخطـر فعـلا ، وبدأ بعض العـارفين بأمور الجنـوب العربى من الإنجليز ، يقـدمون النصائح لحكومتهم لاتباع السيـاسة الصحيحة فى هذا المجال ، فى ضـوء الظروف الجديدة . وقد نشرت جريـدة التيمس مقـالا للكولونيـل جيكوب نفسـه - وهـو من أشـد الإنجليـز إحساسًا وفهمًا لمشكلات الجنوب العربـى - نقلتـه الأهرام كذلك ، جـاء فيه : « إن أغراض الإمام يحيى سلميـة ، وهو يتـوق منذ عقد الهدنـة إلى الاتفاق مع الحكـومة البريطـانية ، ولكن العقبـة الكؤود كـانت تسـليم الحديدة ، التى هى مفتـاح اليمن ، إلى منافسه السيـد الإدريسـى ، وقـد أعرب الإمام يحيـى منذ أعوام عديـدة عن تفضيلـه الحكومـة البريطـانية على جميع حكـومـات الدولـة الأخـرى ، وهو يعمل لترقيـة التجارة فى بـلاده ، وبـلاد اليمن أغنى ولاية فى الجزيـرة العـربية وقد استولى الإمام يحيى فى الأيام الأخـيرة على الحديدة . نعم أنـه من المحتمل أن يكـون زمـن المعـاهدات قـد مضـى ، ولكن الحاجـة تدعـو - كما أبلغنـى الإمـام يحيى نفسـه بصريح العبـارة - إلى الاعتراف

(١) الأهرام : ١٤٦٨٠ فى ٢٨ مايو ١٩٢٥ م (ذى القعدة ١٣٤٣هـ) ص ٣ .

باستقـلاله ، و إظهـار حسن نيتنا نحـو أمانيـه ، ولا يمكن أن يصـدق أحد أننا نتلكأ عن ذلك بعد الآن لا سيما أن هنـاك مصالح نرعـاها وهى عرضــة للخطر، فإذا اتفقنا مع الإمـام يحيى فإنه لا يعامل إلا البريطـانيين فقط ، وفى ذلك فائدة متبادلة تعود على الفريقين »[١] .

وجيكـوب هنـا يعبر عن روح إنجليـزى مخلص لإنجليـزيتـه ، فهـو يحث حكومتـه على الإسراع فى التفاهم مع الإمـام ، ويؤكـد أن الإمام لا يمانع فى ذلك بل إنه حريص على إتمامه ، ثم يحذر حكومتـه ولو بطريق غير مباشر من خطورة تـرك الإمام ، أو إهمال مطـالبه ، حتى لا يتم الاتفـاق بينه وبين أيـة قوة أخـرى وخاصة إيطاليا .

بعثة كلايتون إلى الإمام ونتائجها:

وعلى كل حال لقد اتخذت انجلترا موقفًا إيجابيًـا رسميًّا إزاء الوضع الجديد فى اليمن . فقد ذهب سير جلبرت كلايتون إلى صنعاء فى ربيع سنة ١٩٢٦ ، بعد أن نجحت مفاوضـاته مع ابن السعـود من أجل مشكلات حـدوده الشمالية مع العـراق وشرق الأردن . ونجـاحـه مع ابن السعـود هـو الـذى شجع المسئـولين الإنجليز على إرسـاله للتفاوض مع الإمـام يحيى من أجل حل مشكلات الحدود أيضًا[٢] . وكانت بعثة كلايتـون فى صنعاء محط اهتمام حكومة إنجلترا ، ويتضح هـذا من حــديث اللـورد كليردون ردًّا على سـؤال اللــورد لامنجتـون فى مجلس اللوردات بخصوص الوضع فى جنوب الجزيرة العربية ، وقد أخذ اللورد كليردون يشرح تطور الوضع فى الجنوب ، ووصول الإمام للحكم بعد خروج الأتراك ، ثم

---

(١) الأهرام : العدد ١٤٧٢٨ فى ١٤/ ٧/ ١٩٢٥ (٣ محرم ١٣٣٤هـ) ص ٢ .

(٢) H, St, J, B, Philby. Arapia, p.

احتلالـه لبعض أجزاء من محمية عـــدن ، وأن إنجلترا تـرفض الإعتراف بذلك حتى قال : « وتدور المفاوضات منـذ مدة طويلة بين الإمام يحيى والسير جلبرت كلايتـون الذى قابلـه الإمام بمظاهـر الحفاوة ، وكرر لـه رغبته فى توطيـد دعائم الصداقـة بينه وبين بـريطانيـا ، وأعرب عن رجـائه فى أن تسفر المفـاوضات عن تسوية مرضيـة فى النهاية . وتهتم الحكومة البريطانيـة اهتمامًا عظيما بتقرير السير جلبرت كلايتـون لأنها تتوق إلى عقـد اتفاق مـرضٍ فى أقرب وقت »[1] . إلا أن المفـاوضات فشلت ، وعـادت بعثـه كلايتـون دون أن تصل إلى حلـول مرضيـة لمشكلـة الحدود فقـد تشـدد الإمـام فى مفـاوضـاتـه ، وكـان يصر على أن يحتفظ بمطـالبه فى المحميـات ، إذ كان يـرى أنها جـزء من اليمن طبقًا لمفهـوم اليمنيين التقليدى عن الحدود ، ولأنـه هو وأجداده من قبلـه لم يعترفوا بالمعـاهدات التى عقدها الإنجليز مع أمراء وشيوخ المحميات ، فضلا عن عدم اعترافه باتفاقيات العثمانيين مع إنجلترا بشأن حدود اليمن الجنوبية . وقد قال جورج أنطونيوس - صاحب كتـاب يقظة العـرب - وكان أحد أفـراد بعثة كلايتـون للإمـام : « لقد لاحظنا فى الإمام عدم الرغبة فى التفاهم ، وبعدما أقمنا ستة وعشرين يومًا لديه ، نفاوضـه ونسعى لإقناعه بفـائدة الاتفاق والتعاون ، غادرنـا صنعاء لأننا شعـرنا بأنه لا فائدة ترجى من إطـالة الإقامة »[1] وقد كان هناك أكثـر من دافع للإمام للوقوف هـذا الموقف ، فهو فى نشوة الانتصار على الأدارسة ، وأقنعه هـذا بقدرته على أن يحصل عل حقـوقـه بالقـوة ، وزاد يقينـه بهذا أن إنجلترا لم تكن صاحبـه فضل عليه حتى الآن ، وأنه قد توصل إلى مـا وصل إليه من كيان مستقل ووجود مـادى ظاهـر ، بفضل جهوده الخاصـة المستقلة عن مسـاعدة إنجلترا . وهنـاك دافع آخر للإمام ، فقد كان بعض مستشـاريه يشجعونه على أن يتجه إلى إيطاليا فى أريتريا ، فوضعها أكثر أمانًا بالنسبة للإمام ، كما أن تاريخها مازال نظيفًا معه . وكـان وضـع إيطـاليـا ، إلى جـانبـه على الشـاطئ الآخـر مـن البحـر الأحمر ،

---

(١) أمين سعيد ، اليمن ، ص ٦٤ .

يشجعه على أن يجرب المساومة مع إنجلترا ، ويشجعه على التمسك بمطالبه[١] والحقيقة أن وضع إيطاليا بالنسبة للإمام كان أفضل من وضع إنجلترا بالنسبة له ، فلم تكن العلاقات اليمنية الإيطالية تعانى وجود مشكلة حدود ، كما كانت العلاقات مع انجلترا تقع تحت ضغط معاهدات حماية مع المناطق المحمية[٢] . هذا فضلا عن أن إنجلترا كانت تفكر دائمًا - أو كان يهمها تمامًا - أن تحتفظ بالمنطقة الخلفية لعدن تحت نفوذها أو على ولاء لها على الأقل . ولكن إيطاليا كانت تتظاهر - فى ذلك الوقت على الأقل - بأن علاقاتها غاية فى البراءة مع الإمام ، وأنها فقط تريد مساعدته ، ومدة بما يحتاج إليه من سلاح وآلات .

وكان لفشل بعثة كلايتون آثار عملية ظهرت عند كل من الطرفين المتفاوضين . فبدأت إنجلترا تفكر فى اتخاذ موقف أكثر تشدداً مع الإمام ، ستتضح معالمه بعد ذلك بقليل ، وخاصة بعد أن تقربت إيطاليا من الإمام بصورة أقوى ، وعقدت معه معاهدة صداقة وتجارة فى سبتمبر سنة ١٩٢٦ . كما ظهرت فى بريطانيا دعوات صريحة لإصلاح وتعديل سياسة بريطانيا فى الجزيرة العربية ، فقد نقلت الأهرام عن التيمس مقالة لورد لامنجتون التى يعبر فيها عن استيائه من احتلال الإمام للمحميات ، وخزى بريطانيا أمام القبائل المحمية ، ثم قال : « ... إن العلة الأساسية لوجودنا فى هذا الموقف المهين ، هو أن تلك البلاد تابعة لوزارة المستعمرات ، ولكن حكومة الهند هى التى تعين الوالى البريطانى فيها وهو خاضع لحكومة بومباى ، فيجب أن تكون البلاد والوالى فيها تابعين لإدارة خاصة تنشأ للإشراف على شئون الشرق الأدنى ، أو لوزارة الخارجية ، ولا بد من أمرين لبلوغ النجاح فى معالجة شئون الشرق الأدنى : الأول ، أن تترك وزارة المستعمرات بلدانا كان يجب أن لا يكون لها شأن فيها . والثانى . أن ينظم سلك خاص من الموظفين للخدمة

(١) Philby ; Arabia, p. 333.

(٢) Survey of International Affairs, 1928 , p. 313 .

فى أية ناحية من جزيرة العـرب ، ويشترط فيهم أن يحسنوا اللغة العربية وليس فى هذا القول ما يشين موظفى وزارات المستعمرات ، بل هو موجه إلى سوء النظام . إن شبـه جزيـرة العرب قطعـة عظيمـة يسكنها عنصر واحـد يتكلم لغة واحـدة ويديـن بدين واحـد ، ولكن شئونـه تعالجهـا ثلاث سلطـات مختلفة »[1] . كما ظهرت أيضا وجهات نظرية إنجليـزية تقلل من شأن الفشل ، وفيها دعوة خفية إلى التسـاهل مع الإمـام ، ولكنها فى الحقيقـة تعبر عن الـرغبـة فى التمسك فقط بالمصـالح الجوهريـة لإنجلترا فى شبه الجزيـرة مع التخفف من الأعبـاء الأخرى الداخلية بقدر المستطاع . فهى تعتبر « أن اليمن من الـوجهة السياسية لا يحتوى على أقل خطر يهدد الإمبراطوريـة ، وما دامت بريطانيا تحتل عدن وجـزيرة بريم فـلا يمكن أن يهدد الإمام طـريق المواصـلات فى الإمبراطوريـة ». ثم تدعـو إلى التخلى عن حقـوق إنجلترا فى المحميات لـلإمـام ما دام الأمـر كـذلك بالنسبـة للمواصـلات الإمبراطوريـة ، فبهذا يخفف من أعبـاء الإمبراطوريـة التى يقلقها الخوف من التدخـل الأجنبى ، كما أن هذا يمكن إنجلترا من الحصـول على نفوذ سياسى وتجارى أكثر . « وكان أكبر دوافع هذا الـرأى هو أن حكومات ومشايخ القبائل المحمية لا تعير المقيم البريطانـى فى عدن إلا اهتماما ضئيلا وأنها تصرف أمورها وفقا لتقاليدها القديمة »[2]. وكان جيكوب يرى مثـل هذا الرأى ، ونادى به قبل فشل بعثة كلايتون هذه (نشر كتابه سنة ١٩٢٣) . وكان يرى أن إنجلترا تدفع آلاف الروبيـات الهندية سنويًّا لرؤساء المحميـات على شكل مشاهرات أو هـدايا ، ولكنهـا لا تحصل على مقابل منـاسب لهذه المصروفات . فهم يأخـذون هـدايـاهم بكلتـا يـديهم ولكنهم لا يشكـرونها على ذلك ، فهم لا يـريـدونها فى بلادهم ، كما أنهم يذهبـون إلى عدن فى حرية تـامة ولكن لا يجذبهم إلى هناك إلا المنح والهبـات . وقد كتب جيكوب كثيراً عـن عداء أتباع المذاهـب والمعتقدات

(١) الأهرام : العدد ١٥٠٧٠ فى ١٩٢٦/٨/٢٠ (١٢ صفر ١٣٤٥ هـ) ص ٣ .

(٢) الأهرام : (عن التيمس) العدد ١٥٠٦٤ فى ١٩٢٦/٨/١٣ (٥ صفر ١٣٤٥هـ) ص٣.

لبعضهم البعض ، ولكنه كـان يرى أنهم « سوف يتجمعـون حول حـاكم عربى قوى يستطيع أن يعيـد ويدعم المملكة اليمنية السـابقة ، حيث كانت الحكـومة العادلة المنصفة تمتد - ذات مرة - على كل الـزيديين والشافعيين معاً » . أما من الناحية العمليـة فيقول : « إن مصالح إنجلترا فى هذا الإقليم يمكـن أن تركز فى تدعيم مركزنا فى عدن ، وترك الداخل يتطور فى خط عربى ، وأن إنجلترا يمكنها أن تنجح فى بسط نفوذهـا وفى بسط نفوذها إنجاح لتجـارتها فى المنطقة ، فهى لم تستطع استغلال كل طـاقتها التجاريـة بعد فيها » . وأخيراً قال : « إن سيـاستنا يجب أن تكـون : الربح دون الاستيـلاء ، العمل بـدون إثبات وجـودنا ، التطـور بدون السيطرة ، فوقـت تدخلنا قد مضى وسياسة فـرق تسد لا قيمة لها بالنسـبة لنا . كما أن الاحتفـاظ بالعرب الذين يأخـذون المشاهرات فى وجه حـاكم عربى نـاهض ، معناه أننـا نـدفع الإسـلام ضد الإسـلام .. فعـدن فقط هى الأراضى البريطانيـة ، وهى معزولة فى ركن واحــــد ، لذلك فإن تجزئة الـداخل لا يهمنا كثيراً »[١] .

أما أثر بعثة كـلايتون بالنسبة للإمام ، فكان ذا آثـار عكسية عنيفة : « فقد أرسل الإمـام إلى حاكم أريتريـا الإيطالى ليبعـث بمندوبيـه ليقتطفوا ثمـرة فشل بريطانيا »[٢] . وقد لبيت هذه الدعوة بحـرارة دون شك فقد « وصلت الحـديدة (أوائل سبتمبر ١٩٢٦) بعثـة إيطاليـة بـرئاسة حـاكم أسمـرة (غاسبـاريتى) وسـافرت إلى صنعـاء لمقابلـة الإمام يحيـى . وكان من جملـة الهدايا التى تحملهـا للإمام سيارة وطيارة »[٣] . ويبدو أن البعثـة الإيطالية هـذه قد قـوبلت بحفاوة بالغة إذ يقول الواسـعى عن زيارتها لصنعاء « وفى هذه السـنة (١٢٤٥ هـ - ١٩٢٦م) وصل إلى صنعـاء سعـادة الـوالى الفخيم حـاكم المستعمـرات فى

---

(١) Jacob : Kinqs of Arabia, p. 245.

(٢) Phtlby : Arabia, p. 334.

(٣) الأهرام : (عن التيمس) العدد ١٥٠٨٥ فى ١٩٢٦/٩/٧ (٣٠ صفر ١٣٤٥هـ) ص٣.

أريتريا غسباريني لمقابلة الإمام ، وقد حصل له الاستقبال الباهر من يوم خروجه من « الحديدة » إلى « صنعاء » . وكان في كل محطة يستقبل قبائل تلك الجهات ، وفي صنعاء خرج لاستقباله أكابر « صنعاء » وسائر الطبقات وثلة من العسكر والموسيقى في ساحة المنزل الذي أعد لنزوله فيه للضيافة في « بئر العزب »[١] . وكان معه جملة من أكابر رجاله ، منهم وكيله القومندا توري تلامونتي »[٢] .

ويبدو أن هذا الاهتمام الزائد بالبعثة الإيطالية كان يعبر عن موقف اليمن حينئذ لا من إيطاليا فحسب بل من إنجلترا أيضاً ، إذ كان الإمام يرى أن تقربه لإيطاليا هو الأمل الكبير لتحقيق مطالبه في الجنوب العربي فهي قوة يستمد منها السلاح ويساوم بها إنجلترا حتى تقبل مطالبه .

(١) أرقى وأفخم أحياء صنعاء ، ويوجد فيه قصر الإمام .

(٢) الواسعي : تاريخ اليمن ، ص ٢٧٥ .

الفصل الثالث

العلاقة بين الإمام وإيطاليا

عقد المعاهدة اليمنية الإيطالية :

نجحت بعثة غاسبارينى فى عقد معاهدة مع الإمام يحيى ، وهى تعتبر قمة علاقات حرص الإيطاليون على إقامتها مع الإمام (انظر ملحق ٥) .

وقد نشرت جريدة الإيمان هذه المعاهدة - وهى جريدة رسمية تصدر فى صنعاء - كان الإمام ينشر فيها الأخبار الرسمية ، وكانت كذلك الجريدة الوحيدة فى كل اليمن . وقد نقل الواسعى عنها نص هذه المعاهدة (العدد الأول منها - الصفحة الثانية) هذا فضلا عن أنها نشرت فى الجرائد المصرية والسورية والأوروبية حيث كانت مثار حديث وتعليق العالم حينئذ ، لأنها كانت أول معاهدة تعقدها اليمن فى تاريخها الحديث .

وهذه المعاهدة فى الحقيقة وبالرغم من أهميتها فإنها محدودة فى نصوصها،محددة فى أغراضها ، وهى تنصب فى أغلبها على الاهتمام بتنظيم الناحية التجارية بين البلدين وهذا ما يهمها فى المرتبة الأولى ، ولكنها لا تغفل الجانب السياسى فى نفس الوقت ، وقد تركز فى المادة الأولى الاعترف باستقلال اليمن وملكها الإمام يحيى . ويتضح حرص الإمام على الاستفادة اقتصاديًّا من هذه المعاهدة إلى أقصى الحدود بما جاء فى نص المادة الثالثة ، فهذا النص يعنى مباشرة اهتمام الإمام بأشياء معينة يركز عليها ، ويحددها فى نص المعاهدة وهذا لا يدل على أهمية هذه الأشياء بالنسبة له فحسب بل على أنها من أكبر أغراض هذه المعاهدة أيضًا ، كما تنص المادة الرابعة على حرية الطرفين التجارية دون أن تقيدها هذه المعاهدة .

ويلاحظ أنه قد حدد العمل بالمعاهدة لمدة عشر سنوات ، كما اعتمد النص العربى للرجوع إليه إذا نشب خلاف بين الطرفين المتعاقدين من ناحية تفسير إحدى المواد . وهاتان النقطتان جديرتان بالإشارة إليهما ؛ إذ سنلاحظ فى كل معاهدات الإمام التالية بينه وبين الدول الأوروبية ، أنه يحرص على اعتماد النص العربى للرجوع إليه ، كما أنه يحرص على تحديد مدة معينة للعمل بتلك المعاهدات . وهما يعبران فى الحقيقة عن اهتمام الإمام بأن يكون دائمًا فى الجانب الأسلم ، وهذا بالتالى يدل على تخوفه من الدخول فى علاقات خارجية لا يأمن نتائجها تمامًا ، وهو ما سيتضح طوال مدة حكمه .

تطور العلاقات اليمنية الإيطالية حتى عقد المعاهدة :

وملاحظة أخرى هى أن هذه المعاهدة لم تكن وليدة الظروف القريبة القائمة بل كان لها أساسها فى تاريخ اليمن ، وكانت - كما يدل نصها المحدد - تعبر بصراحة وبالتحديد عن أغراض الطرفين منها . فالإمام يحتاج الاعتراف به وباستقلال اليمن تحت حكمه ، ويحتاج إلى من يبيعه الأسلحة والآلات الفنية التى تعينه فى بدء الإصلاحات الداخلية فى اليمن مما عبرت عنه المعاهدة . وكانت إيطاليا لا يضيرها أن تعترف به واستقلاله بل إنها تعتبر ذلك نصرًا لها، وأن هذا سيمنحها فوزًا سياسيًا بصفتها الدولة الأولى التى سيشكر لها الإمام هذا العمل ، وقد شكر الإمام اعترافها به بالفعل ، وأسعده هذا كثيرًا . ويلاحظ أنها أول وثيقة دولية تطلق عليه لقب ملك ، وكان يهمه هذا بالرغم من أنه ظل يحتفظ بلقب إمام ويعتز به لحرصه دائمًا على أن يكون له الزعامة الدينية . كما كانت إيطاليا تريد فتح أسواق تجارية أمام بضائعها وهذا ما سهلته لها المعاهدة . وهى بهذا الفوز السياسى والكسب الاقتصادى ، تحقق غاية أخرى هى بداية التوسع فى مجالات جديدة مثل الشاطئ العربى المواجه لمستعمراتها الأفريقية . وبالأحرى - ومن وجهة نظرها - فإن عقد المعاهدة مع الإمام يعتبر الخطوة الأولى الهامة فى تاريخ توسعها فى جنوب غرب الجزيرة العربية حيث تعمل من أجل ذلك منذ أمد بعيد . وقد علقت جريدة

الديلى تلجراف تعليقًا هامًا نقلته الأهـرام عند عقد هـذه المعاهـدة جـاء فيه : « إن السـنيور جاسبارينى تمكن من عقد معـاهدة اقتصادية مهمـة مع الإمام يحيى حصلت بها إيطاليا على مـزايا اقتصادية مهمة . وعقد هـذه المعاهدة يتوج المساعـى العديـدة التى جعلت إيطاليـا تبذلها بصبر وتـؤدة منذ ثـلاث سنوات للحصـول على مـوطئ قـدم فى اليمن ، فهذا العمـل جزء من سيـاسـة التـوسع الإيطالى فى البحر الأحمر وفى غيره »[1] . ورغم عمق هذا التعليق ودلالته إلا أننا نحب أن نـوضح أن محاولات إيطاليا لـوضع القدم الثـانى على الشاطئ الثـانى للبحـر الأحمر - ألا وهـو الشـاطئ الآسيـوى - للتحكم فى المدخـل الجنـوبى للبحـر الأحمـر ، كانت منـذ مدة أطول من « ثلاث سـنوات » - المشار إليها فى التعليق - إذ كـانت تحـاول منـذ أوائل هـذا القرن ولعـدة مرات ، القفـز من الشـاطئ الأفـريقى للوصـول إلى الآخـر الأسيـوى . وكان أول نجـاح لهـذه المحـاولات عنـدما عقدت معـاهدتها مع الإدريسى ضد الأتـراك سنة ١٩١١ ، وكانت قبل ذلك على علاقات تجـارية بموانئ تهامة فى عسير واليمن بل وحتى فى محميـة عـدن ، كما كـان لها مـركزًا تجاريًـا فى صنعـاء يقيم فيـه أحـد التجـار الإيطاليين بصفـة مستمرة تقـريبًا . وقـد حاول الإيطـاليون التقـرب للإمـام عن طريق سلطان لحج لإثارته ضد الأتـراك أثناء الحرب الطرابلسية ولكنهم فشـلوا فى تحريكـه . وقـد رفض الإمام لأنـه كـان يعتقـد أن تقدم إيطاليـا فى الجزيـرة العـربية كما قـال : « ما هو إلا محـاولة غربيـة لتحطيم الإسـلام فى الجـزيرة » بل كان لـلإيطاليين محاولـة أجرأ من ذلك وفى بقعـة أخرى من هـذه الجهـات ، فقـد اعتقـدوا أن شـاطئ حضرمـوت ميـدانٌ خـالٍ خصب لنشـاطهم ، ولكن إنجـلترا صدتهم عنها حيث إن حضرموت كانـت إحـدى محميـاتها . وقد أقام

(١) الأهـرام : (عن الـديلى تلغـراف) العـدد ١٥١٠٦ فى ١٩٢٦/٩/٣٠ (٢٣ ربيع الأول ١٣٤٥هـ) ص ٣ .

الإيطاليون مستشفى فى « الحديدة » كانت تقدم المساعدات الطبية لليمنيين ، ولكن قيام الحرب العالمية الأولى أدى إلى إنهاء نشاطها . وكانت مستعمراتهم فى شرق أفريقيا من ناحية أخرى ، مجالاً لهجرة العرب من اليمن وباقى جهات جنوب غرب الجزيرة العربية وذلك لفقر أهالى هذه البقاع . وحوالى سنة ١٩٠٦، قاموا بتجنيد الآلاف من عرب اليمن لاستخدامهم فى حروبهم . وكانت إيطاليا تسمح لهؤلاء المجندين بالاشتغال بالتجارة فى غير أوقات قيامهم بالخدمة ، كما كانت تستخدمهم فى الأحراش وفى تعبيد الطرق ، وكانت تدفع لهم المرتبات العالية ، وكان لهؤلاء حق ترك الخدمة بعد عامين[١] .

ومهما كان الأمر ، فقد كانت هذه المعاهدة حقيقة نتيجة تطور طبيعى للعلاقات اليمنية الإيطالية ، كما كانت تمثل حاجة كل منهما إلى الآخر . هذا فضلاً عن أنها كانت - فى حد ذاتها - بداية لعلاقات من نوع جديد فى مظهرها وأغراضها . وقد عبر نزيه العظم تعبيرًا صريحًا عن الدوافع المباشرة العاجلة لعقد هذه المعاهدة فقال : « وقد علمت بصورة خاصة أن جلالة الإمام ما كان ليعقد معاهدة مع إيطاليا لولا حرصه الشديد على جلب سلاح وعتاد من إيطاليا ، ولم توافق إيطاليا بادئ الأمر على أن تجلب له ما يطلبه من السلاح إلا إذا عقد معها معاهدة ولذلك اضطر جلالته إلى عقد المعاهدة . وعلاوة على ذلك منح الحكومة الإيطالية امتيازًا باحتكار بيع الكاز فى اليمن لمدة خمس سنوات ، ولكن لما مضت الخمس سنوات أبى جلالته أن يمد مدة هذه الاتفاقية ، وأصبحت ملغاة ، وعادت تجارة الكاز فصارت حرة، وارتفع عنها الحصر ، وأراد الكثيرون من إنجليز وألمان وروس أن يحصلوا على اتفاقية جديدة بسبب حصر الكاز فرفض جلالة الإمام جميع

---

(١) Jacob : Kings of Arabia, pp 127 - 129.

طلباتهم لأنه شعر بضرر الاحتكار وضرر الأجانب »[١] . ويتضح من النص السابق حاجة الإمام إلى السلاح فاستغلت إيطاليا هذه الحاجة لتصل إلى موقف إيجابى أكثر تحديدًا . لذلك نرى أنها لم تشترط عقد معاهدة فحسب ، بل استطاعت الحصول على موافقة الإمام على احتكار تجارة الكيروسين فى اليمن . فكانت هذه المعاهدة - فى حد ذاتها - فتحًا جديدًا لنوع من العلاقات بين البلدين ، إذ إنها بصورة عامة - فتحت اليمن - أمام النشاط الإيطالى وأنها - كما يبدو للناظر العادى فى تاريخ اليمن - قد أعطت للإمام وضعًا جديدًا وفرصًا أحسن للقيام بسياسة داخلية وخارجية أكثر فعالية . وقد كان هذا هو المنتظر عند عقد المعاهدة ، ولكننا سنناقش هذا كله عند تتبع العلاقات اليمنية الإيطالية فيما بعد .

أثر المعاهدة على علاقة الإمام بالأدارسة :

وقد كان لعقد هذه المعاهدة آثار مباشرة واضحة فى سياسة الإمام وأعماله سواء الداخلية أو الخارجية . ففى المجال الخارجى نرى أن علاقة الإمام الجديدة مع إيطاليا قد أثرت فى سياسته مع جيرانه سواء فى الشمال أو فى الجنوب .

نذكر أن السيد حسن الإدريسى عندما رأى القوات الزيدية تزحف منتصرة على الإمارة الإدريسية تلتهم أملاكها جزءًا بعد جزء ، عرض على الزيديين أن يعترفوا له باستقلاله الداخلى على أن يعترف بسيادتهم عليه ، ولكنهم رفضوا ذلك مما اضطر هذا السيد أن يلجأ لابن السعود مرة ثانية يعرض عليه نفس هذا العرض ، فقبله ابن السعود بعد أن رفضه فى نفس السنة (١٩٢٦) وعقدت بينهما معاهدة الحماية فى أكتوبر ١٩٢٦ ويبدو أن هناك صلة بين رفض الإمام للعرض الإدريسى وبين عقده معاهدة مع

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

إيطاليا ، إذ كانت « مفاوضات الصلح مستمرة بين الإمام يحيى والأمير الإدريسى »[1] ، فى نفس الوقت الذى تمت فيه زيارة غاسبارينى للإمام يحيى فى صنعاء ، تلك الزيارة التى أدت إلى عقد المعاهدة . وهذا الترابط الزمنى بين الحادثين هو الذى يجعلنا نرجح وجود أثر مباشر لعقد المعاهدة على علاقة الإمام بالأدارسة . حقيقة كان الإمام يكره الأدارسة كرهًا عميقًا ، ويود أن يخرجهم كلية من الجزيرة العربية ، ويقول عنهم إنهم أدعياء فى جزء من أملاكه . وكان هذا يخالف ما يذهب إليه سابقًا - قبل الحرب العالمية الأولى - من أنه لا يريد منهم إلا الاعتراف بخضوعهم لسيادته ، وهذا ما رفضه السيد محمد الإدريسى ، ثم عاد فقبله السيد حسن الإدريسى الآن ورفضه الإمام . وحقيقة أن الإمام الآن (سبتمبر ١٩٢٦) كان نشوانًا بانتصاراته على هؤلاء الأدارسة ، وبإخراجهم من تهامة اليمن حتى ميناء «ميدى» ومحاصرته للمدينتين المركزيتين لهذه الإمارة ، وهما « صبيا » و «جيزان ». وحقيقة أن كرهه لهم وانتصاره عليهم ، يؤديان طبيعيًّا إلى أن يرفض أن يكون لهم أى وجود فى الجزيرة العربية مهما كان نوعه . ولكن يبدو أن علاقته مع إيطاليا وزيارة غاسبارينى له كان لهما أكبر الأثر فى رفضه هذا ، إذ كان يرى أن بداية العلاقة مع إيطاليا بصورة تعاهدية فعالة ستؤدى حتمًا إلى زيادة قوته ، وأن هذه المعاهدة ستمكنه من الحصول على ما يريد من السلاح ، وأن هذا بالتالى يجعله فى مركز أقوى يساعده على أن يرفض مطلب الأدارسة ويطمح فى تحقيق انتصارات أكبر . ولكن هذه الآمال اهتزت كلية وانقلبت على عقبيها ، وذلك عند إعلان معاهدة الحماية السعودية على ما تبقى من الإمارة الإدريسية فى أكتوبر سنة ١٩٢٦ ، أى عقب عقد المعاهدة الإيطالية

---

(١) الأهرام : (عن التيمس) العدد ١٥٠٨٥ ، فى ١٩٢٦/٩/٧ (٣ صفر ١٣٤٥هـ) ص ٣. (وجاء فى نفس العدد والصفحة خبر زيارة غاسبارينى للإمام يحيى فى صنعاء) .

اليمنية مباشرة . وضياع آمال الإمام هنا يتضح فى أمرين هامين :

أولاً : كان دخول الأدارسة تحت حماية ابن السعود يعنى بالتالى أن الإمام لن يستطيع أن يمد نظره مرة أخرى إلى هذه البقاع التى كانت قاب قوسين أو أدنى من يديه ، إذ لم يكن الإمام يأمل حتى فى القيام بمناوشة ابن السعود وخاصة بعد أن أصبح هذا الأخير ، الحاكم الأقوى والأهم فى كل أرجائها .

ثانيًا : الخسارة الاقتصادية التى تمثلت فى فقده - إلى الأبد - حقول البترول فى جزر « فرسان » التى أجرها الإدريسى قبيل ذلك لشركة البترول الآسيوية إذ أصبحت الآن تحت الحماية السعودية[1] ، هذا فضلاً عن ضياع ثروة عسير الزراعية التى سبق الإشارة إليها . وكان ابن السعود قد أرسل بعد عقد معاهدة الحماية مباشرة صورا منها إلى الإمام يحيى ليخبره بها ، بل تبع ذلك أنه أرسل فى صيف سنة ١٩٢٧ مندوبًا عنه إلى « صبيا » لمراقبة تنفيذها[2] .

أثر المعاهدة على علاقة الإمام بإنجلترا :

أما بالنسبة لجيران الإمام فى الجنوب - أى إنجلترا - فقد كان لعقد المعاهدة الإيطالية اليمنية معان ونتائج كثيرة كذلك . فمما لا شك فيه أن الإمام كان يرمى من وراء عقد معاهدة مع إيطاليا ، تدعيم موقفه أمام إنجلترا التى تقف منه موقفاً معانداً بالنسبة لمطالبه فى المحميات . فإلى جانب أن هذه المعاهدة ستمده بالسلاح ، إلا أنها كانت عوناً أدبيًا له فى معركته الدبلوماسية مع إنجلترا ، أو بالأحرى اعتقد الإمام أن تعاهده مع إيطاليا سيساعده على التمسك بمطالبه فى المحميات ، وأن من حقه الآن التشدد مع إنجلترا للوصول إلى أغراضه . وقد يعبر « فيلبى » عن هذا المعنى ولكن فى صيغة تعبر عن وجهة نظر إنجليزية إذ قال : « ومن المحتمل أن يكون

---

(١) H, St,Philby : Arabia,PP . 335 _ 336,

(٢) Survey of Internatioal Affairs,1928, P. 320,

الإمام قد قبل هذه المعاهدة ليثير شعور إنجلترا نحوه »[١]، فالإمام فى الحقيقة لا يود أن يثير مشاعر إنجلترا نحوه بالمفهوم الذى ذهب إليه فيلبى ، ولكنه رأى أنه فى هذا تدعيما وتقوية لمركزه أمام إنجلترا .

كان فشل مفاوضات كلايتون وعقد معاهدة مع إيطاليا بعد ذلك بقليل ، حدثين سياسيين فى غير صالح إنجلترا ولو من الناحية التجارية على الأقل فضلا عن الناحية السياسية ، وخاصة وأن إنجلترا كانت تنظر إلى كل شبه جزيرة العرب وكأنها « مجال نفوذ خاص » وتدعى عليها ما يشبه « مبدأ مونرو بريطانى »[٢] .وقد حرصت بريطانيا على إبراز هذا المبدأ ، فى المحادثات السرية بين الحلفاء - أثناء الحرب العالمية الأولى - لتقسيم الإمبراطورية العثمانية بينهم ، إذ كانت سياستها حينئذ هى ضمان موافقة حلفائها على هذا المبدأ[٣] . ولكن رغم ذلك فإنه من الناحية العملية ، نرى أنه عندما عقدت إيطاليا معاهدتها مع الإمام ، فإنها لم تفعل ما يجعل بريطانيا تعترض عليه سواء من الناحية القانونية أو من الناحية الأدبية ، وهذا ما اعترفت به إنجلترا صراحة فى محادثات يناير سنة ١٩٢٧ ، التى اعتبرت أنها استطلاعية بحته ، وأنها تتعلق إلى حد كبير بالمسائل الاقتصادية ، فيما يخص المصالح البريطانية الإيطالية فى البحر الأحمر وبوجه خاص فى السواحل العربية[٤] . وفى ٥ يوليو سنة ١٩٢٨ ، أعلن نائب وزير الدولة لشئون المستعمرات البرلمانى فى مجلس اللوردات ، أن المعاهدة الإيطالية اليمنية لم تؤثر على مفاوضات الحكومة البريطانية مع الإمام ، وأن هناك اختلافاً كبيراً ، فى وجهات النظر بين إيطاليا وبريطانيا ، من ناحية

---

(١) H, St,J . B.Philby : Arabia,P . 33 4.

(٢) Lenczowski : The Middle East in the World Affairs , 466,

(٣) Survey of International Affairs, 1928, p, 313,

(٤) Ibid : p, 314,

مثل الجانب البريطانى فى هذه المحادثات سير جلبرت كلايتون ومثل الجانب الإيطالى المندوب السامى الإيطالى فى أريتريا « « غاسبارينى » :

المصالح ذات الأهمية فى هـــذا الجزء من العالم ، وأنـه ليس هناك حاجــة إلى الخـوف من المصالح البريطانية القـانونيـة ستعاكسهـا السـياسة أو الأعمال الإيطالية[١] . ولكن يبدو أن محادثات يناير وتصريح يوليو سـنة ١٩٢٧ ، يدلان صـراحة على قلـق إنجـلترا ، وخوفهـا الناتج من عقـد المعاهـدة اليمنية لا العكس . فمجـرد حرص إنجلترا على التفـاهـم مع إيطـاليـا على مصـالحها فى السـواحل العربيـة ، دليل قوى على أن هذه المعاهدة قد أثـارت قلق إنجـلترا وانتبـاههـا لهذا الخطـر الـوافـد عبر البحـر الأحمر ، لــذلك سـارعت لاتخاذ الإجراءات اللازمة لتأمين هذا الخطر .

نتائج المعاهدة بالنسبة لإيطاليا واليمن :

ولكن ما مـدى استـفادة إيطاليا من عقـد هــذه المعاهـدة مع الإمـام ؟ وما مدى استفادة اليمن داخليًّا من هذه المعـاهدة كذلك ؟ والإجابة على هذين السـؤالين ، تحتاج إلى تتبع آثـارها على مـر التاريخ ، وهـذا سيتضح طوال عهـد الإمام يحيى . ولكن يمكن الاكتفاء الآن بـالإشارة إلى آثـار المعاهدة مـن هاتين الناحيتين .

يبدو أن اسـتفادة إيطاليـا من وراء هـذه المعـاهدة ، كانت لا تتناسـب مع أهمية المعاهدة التـاريخية باعتبارها أول معاهدة لـلإمام مع دولة أجنبية ، ومع مـا كانت إيطاليـا تنتظره من ورائهـا . فقـد كـانت إيطاليـا تعتقـد أن اليمن سـتكون مستعمرتها الهامة فى شـبه الجزيرة - كما كانت أريتريـا على الشاطئ الإفريقى - ولكنهـا لم تلق نجـاحًا يـذكر فى هــذا المجـال ، ويرجـع هـذا إلى عـدم ثقـة الإمام وخـوفه من وجـود أى نفـوذ أجنبى فى بـلاده[٢] . فـلم يفتـح الإمام فى الحقيقـة اليمن أمام النفـوذ الإيطـالى ليتغلغل بالصـورة التى أرادتهـا إيطاليا ، ولم يتح لها الفـرصة للقيام بتوسـع استعمارى أو اسـتغلالى فى بلاده .

(١) Survey of International Affairs, 1928, p. 314.

(٢) Hans Helfritz : The Yemen, p. 125.

وكانت نية إيطاليا الاستعمارية والاستغلالية واضحة ، وتوقع العالم ظهور نتائج بعيدة المدى ، ولكن كان لموقف الإمام من الدول الأجنبية الذى اتصف بالعزلة عمومًا أكبر الأثر فى إحباطها . وقد وضحت هذه التيارات التى صاحبت عقد المعاهدة فى إشارة قصيرة جاءت فى مقالة طويلة للسيد على رضا العلوى اليمنى نشرتها له الأهرام ؛ إذ يقول : « وأما المعاهدة الإيطالية فهى معاهدة تجارية شريفة ، لا مساس فيها لاستقلال البلاد ، كما يشيعون فى بعض الجرائد . فإن المعاهدة التى عقدت هى فى مصلحة اليمن إذ تساهلت إيطاليا كثيرًا بالقياس على غيرها ، وهى معاهدة تعامل اليمن معاملة الدولة المستقلة كل الاستقلال »[١] . وقد ظل الشعور بأن هذه المعاهدة قد فتحت المجال للنفوذ الإيطالى قائمًا حتى وقت متأخر ، ففى مقالة « للمنار » عن الحرب اليمنية السعودية - عام ١٩٣٤ - إشارة إلى أثر هذه المعاهدة فقالت : ومعروف عنه (الإمام) الحذر الشديد فى فتح أصغر المنافذ للنفوذ الأجنبى فهو لم يتورط إلا فى الاتفاق المعلوم مع دولة إيطاليا ، ولكن هذا الاتفاق علمه ما لم يكن يعلم »[٢] . وهذا الحديث لا يشير إلى رأى صاحبه ، ووجهة نظره من ناحية المعاهدة فحسب ، بل يشير بوضوح إلى وجود نفوذ إيطالى فى اليمن أيضًا .

وهذه الحقيقة لا يمكن إنكارها ، فمما لا شك فيه ، أن إيطاليا أصبحت بعد عقد المعاهدة أقرب الدول إلى قلب الإمام ، وأصبح لها النصيب الأكبر من تجارته ، واستفادت هى من هذه الناحية التجارية ، كما استفادت من الناحية السياسية كذلك ، وخاصة فى ميدان التنافس الاستعمارى بينها وبين إنجلترا فى جنوب البحر الأحمر .

---

(١) الأهرام : العدد ١٥٥٤٦ فى ٤ فبراير سنة ١٩٢٨ (١٢ شعبان ١٣٤٦هـ) .

(٢) المنار : المجلد ٣٣ ، الجزء ٥ ، ص ٣٨٥ (الصادر فى أول جمادى الأولى سنة ١٣٥٢هـ - سبتمبر ١٩٣٣) .

ويعبر السيد على رضا فى مقـاله سالف الذكر عن النشـاط التجارى الذى دب بين الطـرفين المتعاهـدين فيقـول : « عـلائق الطليان التجـارية بحـكومة اليمن على أحسن مـا يـرام ؛ والأدوات الفنيـة التى وردت من إيطـاليـا ، مثل المعـامل وآلات الطحـين والتلغـراف والتليـفونات اللا سـلكية ، توزعت فى جميـع أنحـاء المملـكة ، غـير أن الطيـارات التى وردت سـابقًا من نـوع طرز طيـارات التعـليم للمدرسـة . والمـأمول أن يأتى فى وقت قريب عـدد وافـر من أحسن وأعظم طـراز من طيـارات إيطاليـا المشهـورة ، مع رجـال اليمن الطيـارين الـذين كانـوا قد تـوجهوا لتعـليم فن الطـيران « برومـة » وهم من خيرة شبـان اليمن وأبنـاء أكبر علمائهـا »[1] . ولكن يبـدو أنـه حتى النـاحيـة التجـاريـة من المعـاهـدة لم تكن مفيـدة تمامًـا بـالنسبـة لليمن ، فلم يكسب كل مـا كـان يـرجـوه من المعـاهـدة اقتصـاديًّـا ، وهـذا يـرجع إلى غـرض إيطـاليـا الاستعمارى مـن وراء المعـاهـدة ، وإن كـان هـذا لا ينفـى أيضًـا أنـه حصل على مـا يـريـد من السـلاح ووصلتـه بعـض الآلات ، وكـذلك الفنيين والأطبـاء .

وهناك رأيـان مختلفان فى عـدم استفادة اليمن من الناحيـة التجاريـة . أما الأول فيرى أن عـدم الاستفـادة نـاتج مـن عـدم استعـداد اليمـن لاستخـدام الآلات أو الأخـذ بأسبـاب الحضـارة . والـرأى الآخـر يـرجع عـدم الاستفـادة إلى عـدم صـدق نيـة إيطـاليـا فى المعـاونـة ، وعـدم إخـلاصهـا تجاه حليفهـا . ويـرجع عـدم الإخـلاص إلى أنـه كـان تحالفًـا غير متكـافئ من نـاحيـة القـوة ، وإلى خـوف إيطـاليـا من نتـائج المعـاونة المخلصـة وتعـارضهـا مع أغـراضهـا الاستعماريـة . ويـلاحظ أن كـلا الـرأيين ذكـرا بعـد ١٩٣٠ ، وأنهما لأجنبيين

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى البلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ .

(٢) الأهرام : (من مقالة السيد على رضا) العدد ١٥٥٤٦ فى ٤ فبراير سنة ١٩٢٨ ، ص ١ .

عن اليمن ، وأن رأييها يعبرا عن مشاهدتهما لآثار هذه المعاهدة . وصاحب الرأى الأول هو هانز هلفرتز ، وهو رحالة ألمانى زار اليمن لمشاهدة آثاره فيقول :
«..أرسلت إيطاليا الأطباء ، والفنيين ، والميكانيكيين ، ورجال الطيران .. ولكن الأطباء لم يجدوا مجالاً لهم فى اليمن فاختفوا الواحد وراء الآخر ، وكان نفس الشىء بالنسبة للفنيين لأن البلاد لم تكن معدة بعد للأعمال الميكانيكية . كما أن أغلب الآلات لم تصل للعاصمة ، فإنه من الممكن رؤية صناديق كبيرة نصف مفتوحة ، ومعها أجزاء ميكانيكية وعليها علامات إيطالية ما زالت ملقاة على طول الطريق من صنعاء إلى الحديدة ، حيث كانت القوافل تتخلص من هذه الأحمال الثقيلة غير العادية على طول الطريق . وقد استولى البدو على هذه الصناديق المهجورة ، وبقيت فقط الأجزاء الحديدية التى لا يمكن الاستفادة منها . وعلى كل حال لقد استقبل الإمام هذه المخترعات الحديثة التى وصلت صنعاء بشغف ، فقد كان من بينها الأسلحة التى يريدها . وقد أرسل الإمام بعض الشباب اليمنى إلى مصر ، لدراسة الطيران . كما أسس مدرسة فى صنعاء لتدريس بعض أمور الطيران ، ولكن لسوء الحظ كان الله ضد هذا التجديد (يعبر هنا عن وجهة نظره فى موقف الإمام الدينى ، فيرى أن الإمام اعتقد أن التجديد ضد رغبة الله) فقد سقطت إحدى الطيارات ذات يوم قرب صنعاء ، وكان بها أحد أفراد الأسرة المالكة ، فمنع جلالة الإمام الطيران من اليمن »(١).

ثم يواصل « هانز » كلامه فى تحليل آثار المعاهدة ، وأنه راجع إلى عدم إمكان نقل دولة شرقية متخلفة حضاريًا مثل اليمن طفرة واحدة ، لتعيش فى مستوى أو بمفهوم دولة أوروبية مثل إيطاليا ، أى أنه يرجع عدم استفادة اليمن بمعاهدتها مع إيطاليا إلى وجود فوارق حضارية بين الدولتين

---

(١) Hans Heltritz : The Yemen p. 125 - 126.

المتحالفتين ، ثم يعقب على ذلك بأن الإمام كـان يقيم دعائم حكمه على أساس ديني ، ويخاف دائمًا الاصطدام بين الـدين والتجديد ، حرصًا على القـاعدة التي يقوم عليها حكمه من أن تهتز أو تختل .

أما الرأى الآخر في عدم استفادة اليمن اقتصاديًا من عقد المعاهدة فـكان لنزيـه العظم فيقول : « لم تف إيطاليـا بما جاء فى نص المعاهـدة التى عقدتها مع جلالـة الإمام ، وهـذا دائمًا شأن تعاقـد الضعيف مع القوى . ومثـالاً على ذلك أن جـلالـة الإمام يحيى طلب منهـا بنيـة سليمـة صافيـة شراء بعض الطيـارات الحديثـة ، والمدافع الضخمـة والـرشـاشـات والبنـادق إلى غير ذلك من العتـاد الحربى . فما كـان من الحليفـة الغيورة على مصـالح حليفهـا ، إلا أن جلبت لـه طيارات قديمـة وغير قابلة للاستعمال ، ولمـا طار بها أحـد الطيارين فى صنعاء ، بصحبـة واحـد من السـادة رجال الإمـام سقطت الطيـارة فـورًا ، وقتل السيـد والسـائق ، وكـان لهذه الحادثـة أسـوأ وقع فى نفـوس اليمنيين ، وجعلهم يتخوفون من الطيران والطائرات ، فلا يقـدمون على المجازفة بجلب الطيارات ، ومنع جـلالـة الإمـام بعثة الطلبـة اليمنيـة التى ذهبت إلى إيطـاليـا لـدرس فن الطيران ، والتى عادت إلى اليمن أثنـاء العطلة المدرسية ، من العودة إلى إيطـاليا ثانيـة . ويغلب على ظنى أن الطليان تعمدوا بيع طائرات قـديمة إلى اليمن أولاً حتى لا تستفيد حكـومة اليمن منها شيئًـا ، وثانيًا حتى لا تجازف هذه الحكـومة الفتية فى المستقبل بشراء الطـائرات ؛ إذ من البديهى أن إيطـاليا الطامعـة فى هذا الجزء من البـلاد العربيـة لا ترغب أن تـوجد فيـه حكومـة قويـة لديها معـدات حـربية صـالحة للنزال والقتـال .. »[١] ، ويـواصل نـزيه العظم إعطـاء الأمثلـة فيقـول : « إن البنـادق كـانت غير صالحة لـلاستعمال ، وأنها من طـرز قـديمـة غنمتهـا إيطاليـا من النمسـا فى الحرب العالميـة الأولى ، وكـان يجب إعدامهـا ،

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة جـ١ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

وحتى إذا كانت البنـادق جديدة ، فإنها من النوع الـردىء » . ويعطى مثلا آخر على استغلال إيطاليا ، فقد « باعت معملاً ميكـانيكيًا قديمًا للإمام جلبته له من مصوع ، وكلفتـه الكثير جدًّا على تـركيبه وتصليحـه وترميمـه ولكن دون فائدة ، وذهبت أموال الإمام جزافًا » .

كما يشير فى حديثه إلى البعثـة الفنية الإيطالية لليمـن ، وأنها غير فنية أيضًا فضـلاً عن أنها كانت تسىء معـاملـة الأهالى ، فيقـول عنها : « وقـد شاهـدت بعضهم (الفنيين) وضعـوا مضخة ميكـانيكية على غيل (مجرى المـاء الصغير يسمونه فى اليمن « غيل ») بالقرب من صنعاء ، ليرفعوا ماء هذا الغيل من منبعه إلى مجراه الذى يعلوا عن النبع أيام القيظ لقلـة المـاء ، ولشدة جهلهم رفعوا المـاء إلى علو خمسة أمتـار ، ثم حدروه إلى مجرى المـاء أربعة أمتـار ، وكان بوسعهم أن يرفعوه مترًا واحـدًا ، ويصبوه فى مجرى المـاء ، وبذلك يوفرون عمـلا ووقوداً . وقد لفت نظـر واحد من اليمانيين القـائمين على سير هـذا الأمر ، فأجـابنى أن الحق بيدك ، وقد لفت نظر المهندس الطليـانى غير واحد منا إلى هذه العملية الخاسرة فكان نصيبنا التوبيخ »[١] .

ورغم أن كلا الـرجلين – صاحبا الـرأيين الســابقين – يعــبر عن وجهـة نظره الخاصـة أولاً وأخيرًا ، إلا أننا نرى أن كلا الـرأيين يحمل كثيرًا من الصحة . ويتضـح ذلك من مـوقف الطرفين المتحـالفين من المعاهـدة ، فإيطاليـا تنظـر لليمن وكأنه « مجال نفـوذ » و « موطئ قدم على الشـــاطئ العربى » و « ميـدانًا لمنافســـة إنجلترا فى جنـوب البحـر الأحمــر » و « سـوقًا تجاريًّا » و « توســع جديد » وهــذه الأغراض كلها لا تحمـــل أقل إشـــارة إلى أن إيطاليـا ترغب فى

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة جـ ١ ، ص ٢١٦ .

خدمة الإمام ، ورفع مستوى اليمن ، بل هى إن فعلت ذلك فلن يكون أكثر من وسيلة إلى غايتها .

أما نظرة الإمام فكانت تختلف ، فهو يرى فى إيطاليا : « حليفًا قويًا » و « سندًا أمام عدو عنيد » و « مصدرًا للحصول على الأسلحة » و « ورقة يلوح بها أمام إنجلترا » وأخيرًا « معينًا لتنفيذ الإصلاحات الداخلية » . وكان اليمن يحتاج إلى كثير للنهوض وللسير فى ركب العالم المتحضر ، ولكنه كان فى نفس الوقت يحمل فوق كتفيه تراثًا خاصًا ، وآثارًا تاريخية تزيد من أعبائه ، وكانت تقاليده وتاريخه وتراثه - التى تمسك بها الإمام يحيى - من أكبر العقبات فى سبيل التقدم السريع ، أو تقبل مظاهر الحضارة بالسرعة التى تمكنه من اللحاق بالركب المتحضر حتى فى بقية بلاد الشرق الأوسط .

ونحن لا ننفى ما للمظاهر الداخلية والظروف الخاصة باليمن ، من أثر فى عدم الاستفادة من المعاهدة ، بل نقدر ما لها من آثار على تحديد مدى الاستفادة ، ولكننا لا ننكر فى نفس الوقت نوايا إيطاليا وأغراضها من التحالف ، وأنها السبب الأول فى تحديد مدى الاستفادة أيضًا . ويذهب نزيه العظم نفسه هذا المذهب ، فهو يعيب على المستشفى التى أسستها إيطاليا فى صنعاء ، وأنها كانت فى حالة بدائية ومهملة ، ويهاجم الأطباء الإيطاليين كثيرًا ، ويحملهم مسئولية فساد هذه المستشفى ، وغيرها فى باقى اليمن ، ولكنه فى نفس الوقت لا ينكر أن اليمنيين كانوا لا يؤمنون كثيرًا بالطب والتطبيب ، وخاصة الحديث . إلا أنه يعود للدفاع عن هؤلاء بقوله : « إن هذه الظاهرة منتشرة ، عند كل العرب فى الجزيرة لا عند اليمنيين فقط » . كما يرجع نفور اليمنيين من الطب إلى: « أن الأطباء إيطاليين وليسوا من جنسهم أو دينهم »[1] . ويمكن أن نخلص من هذا كله بنتيجة هامة ،

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة جـ ١ ، ص١٣٠ - ١٣١ .

وهى أن الإمـام - وليس شعـب اليمن - هـو الـذى استفـاد بعقـد المعـاهـدة مع إيطاليا .

وكيفما كان الأمـر فقد كـانت هذه المعاهـدة بداية عهـد جديـد فى تاريخ العلاقـات اليمنية الإيطـالية ، وقـد قام « سيف الإسـلام محمد ابن أمير المؤمنين الإمام يحيى للسياحة إلى إيطاليا ، لمشاهدة تلك الأصقاع والاطلاع على تنظيمها، وكان بصحبتـه جملة من السادة والعلماء والأفـاضل . وبعد شهر رجعـوا ، وكان صحبتهم سعادة الوالى غسباريني حـاكم الأريتريا ، وقد حصل لهم الاحتفالات والاستقبـالات مما يطـول شرحـه »[١] . وكـانت هذه الـزيارة تتـويجًا للعلاقـات الجديدة ، وتدعيماً إيجابيًا لها فى دورها الجديد . وقد استمرت هذه الزيارة من ٢٤ يـونية - إلى ١٣ يـوليو سنـة ١٩٢٧ ، وقد أعطيت البعثـة فرصـة كبيرة لمشاهـدة بعض نـواحى الحياة الإيطـالية ، وزيـارة المنشآت الصنـاعية فى مختلف نـواحى إيطاليا كما استقبلها كل من ملك إيطـاليا ، وكذلك موسيليني »[٢] . وكان لهذه الزيارة نتيجة اقتصادية هامة ، فقد أبرم الطـرفان اتفاقية تجارية إضافية ، خاصة بشراء اليمن للأسلحة من إيطاليا[٣] .

حوادث سنة ١٩٢٨ على الحدود الجنوبية :

بينما كانت علاقـات الإمام بإيطاليا قد بـدأت تسير فى إطار ودى ، كانت علاقـاته مع بـاقى المجالات يسـودها التـوتر بل والفشل . ففى الجنـوب كانت علاقـاته مع بريطانيـا - لاحتـلاله جزءًا من المحميـات - قلقـة مضـطربة ، وخاصة بعد أن فشلـت بعثة كلايتون ، وما تلا ذلك من تقـرب نحـو إيطاليـا ، فى علاقـة تعاهـدية إيجـابية . وكانت إنجـلترا تتخذ موقفًـا معينًـا ، هو رفض مطالب الإمـام فى المحميـات وتـردد أنه بـالرغم من حـرصها على الـوصول إلى

---

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٢٧٦ .

(٢) Survey of International Affairs, 1928 pp. 314 - 315.

(٣) Lenczowski : The Middle East in the World Affairs, p. 457.

تســـوية ودية للأمور المختلـف عليها ، إلا أنها لا تســـتطيع أن تعترف لـلإمام بأى حقـوق فى محمية عـدن ، مهما كانت هـذه الحقوق ، وكـانت تحذره دائماً بأن اســـتمرار احتلالـه لأجزاء من المحميـة ستجعله مســئولاً عن مقابلتهـا لموقفه هـذا بالقوة[١] .

وكانت بريطانيا تستند فى موقفها هذا إلى رغبة القبائل المحمية - كما كانت تـردد دائماً - إذ كـانت تـذهب إلى أن قبـائل محمية عـدن ورؤسـاءهـا المحليين يرفضـــون مطـالب الإمـام فى أقاليمهم ، وبـالتـالى فإن بريطـانيـا ترفض هـذه المطالب لأن قبـولها إياها نقضًا لمحالفتهـا مع هؤلاء[٢] . ويعبر العبدلى - وهـو أحد أفـراد أسرة العبادلـة سلاطين لحج - عن وجهـة النظر الإنجليـزية هـــذه بمثال عملى فيقول : « وكان قد نفـد صبر الردفانيين (من آل القطيب) من سوء معـاملـة أمير جيش « قعطبة » السيـد يحيى (من أتبـاع الإمـام) فكتب الشيخ حســن على[٣] إلى والى عـــدن بـــذلك ، وأن آل قطيب مـا زالـــوا يتمســكون بـالحمايـة ، مخلصين للـدولـة ، ثـم جـاء الشيخ حسن على وزعماء آل قطيب إلى عـدن فأكـــرمهم والى عـدن وأمـرهـم بأن يعـــودوا إلى بـلادهـم ، وأن لا يحـدثوا أى اعتـداء على الحاميـــة الإماميـة التى فى بلاد البـكرى . بل يبـــلغوا الحـكومة عن أى اعتداء جديد حالا . وفى شهر ربيع الثانى، من تلك السنة (١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م) ألقت الطيـارات البريطانيـة على مدن اليمـن منشـــورًا أنذرت فيـه الزيود بأنـه عند حـدوث أى تعدٍّ جديـد من العسـاكر الزيديـة سـيقابل بإلقاء القنابل »[٤] .

---

(١) Survey of International Affairs, 1928 p. 315.

(٢) Railly : Aden and the Yemen, p. 18.

(٣) تـولى الشياخـة بعد وفـاة جـدة فى ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٦هــ - حوالى سبتمبر سنـة ١٩٢٧.

(٤) أحمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٧٣ .

وقد حدث فى ٨ فبراير سنة ١٩٢٨ ، ما حول التوتر القائم بين الإمام وبريطانيا إلى حرب فعلية ، فقد هاجم فريق من جيش الإمام « بلاد آل قطيب واختطفوا الشيخ مقبل عبد الله عم شيخ آل قطيب ، والشيخ آل على فأنذرت الطيارات أمير جيش قعطبة ، أن يرفع النساء والأطفال فى ظرف ٢٤ ساعة ، وابتدأ إلقاء القنابل بعد انتهاء تلك المدة فعلا ، واستمرت ثلاثة أيام »(١) .

وقد أجمل شرح تطور العلاقات بين البلدين فى الفترة الأخيرة ، تصريح المستر إمرى وزير المستعمرات فى مجلس العموم البريطانى فى ١٢ من مارس سنة ١٩٢٨ ، فقال : « إن إمام صنعاء احتل أجزاء من بلاد عدن الواقعة تحت الحماية ، وقد جرت مساوضات منذ بضعة سنوات لتسوية هذه المسألة . ففى سنة ١٩٢٦ ، أرسلت الحكومة البريطانية بعثة إلى صنعاء لهذا الغرض ، ولكن الإمام رفض الانسحاب ، فأبلغ أن الحكومة البريطانية مع رغبتها فى الوصول إلى تسوية ودية للمسائل المختلف بينها وبينه ، لا تستطيع أن تعترف بأن له أى حق فى بلاد عدن المحمية ، وحذرته بأنه إذا ظل يحتل أجزاء منها فإنه يتعرض للمقابلة بالقوة . وعلى الرغم من هذا التحذير توسعت قوات من الزيديين فى تقدمها إلى الأمام فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٧ ، ولم تنسحب إلا عندما أنذرتها الطيارات بضربها ، وعند ذلك ألقت الطيارات أيضاً تنبيهات على أهالى مدن مختلفة فى اليمن بأنه إذا هوجمت البلاد المحمية ، فإن الطيارات تضرب تلك المدن . وفى ٨ فبراير اختطف الزيديون شيخ علوى وأحد أقارب شيخ « قطيبى » وكلاهما يحق لهما بموجب معاهدة أن يتمتعا بحماية الحكومة البريطانية ، وبعد ٤٨ ساعة أرسل تحذير بأن الطيارات ستضرب « قعطبة »

---

(١) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٣٨٣ .

المعروفة بأنها المركز الرئيسى للقوات الزيدية المسئولة عن الاعتداء »[١] . وكانت بريطانيا حريصة دائماً على تأكيــد المعنى الأخير وهو أنهـــا ما كانت لتضرب « قعطبـة » بالقنـابل لولا أنها مـركز رئيسى لتجمع القـوات الزيـدية ، وأن هـذا التجمع هو المسئول المباشر عن انتهاك حرمتها[٢] . وكيفما كان الأمر فقد حدث الضرب بـالقنابل فعـلا . وقد عبر عن ذلك السير صمـويل هور وزيـر الطيران البريطانى فى رده على سؤال فى مجلس العموم البريطـانى وجه إليه فى ١٤ مارس سنـة ١٩٢٨ ، فقال : « إن الطـائرات ألقت القنـابل على معسكـر الزيـديين فى قعطبة خمسـة أيام متفرقـة ، وعلى مركزهـم فى الضالع يومـاً واحداً ، وأن الأعمال الحربية ما زالت مستمرة »[٣] . وسواء كان الإنذار بالضرب لمدة ٢٤ ساعة أو ٤٨ سـاعة ، أو استمـر مدة ثـلاثة أيـام أو خمسة أيـام أو أكثر ، فقـد تحولت الحرب البـاردة بين اليمن وإنجلترا إلى حرب سـاخنة . وبـديهى أن نتصور أن القـوات الجوية البريطانية لم تكن فى معركة جـوية أو ما يشبه ذلك ، فهى لم تعان شيئاً فى هـذه العمليات ؛ إذ لم تكن اليمن تمتلك سـلاحاً قـويًا ممـاثلا ، أو حتى مـدافع مضادة للطـائرات ، فكان الجو خالياً تمامـاً أمام الطائرات البريطانيـة لتلقى ما تشاء ، سـواء قنابل أو منشورات أو حتى زهـوراً جميلة . ويذكـر عبد الله الجرافى سبباً - يعبر عن وجهـة نظر عـربية بحتة - لهذه العمليـات الحربية ، فلم يـذكر قصة خطف هـذين الشيخين المحميين ، بل قال : « وفى سنـة ١٣٤٧ (التاريخ خطأ وصحته ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م) على أثر التجاء بعض أمراء قبائل النواحى الواقعة بجوار عدن إلى حكومة الإنجليز فراراً من أداء بعض الواجبات الزكوية ، ومنهم أمير الضـــالع نصر بن شـــائف الحالمى ، وبعض آل قطيـب ، أرسلت حكـومة عـدن طـائراتها التى ألقت قنـابلها على بعض مـدن اليمن »[٤] ، فهـو

(١) الأهرام العدد ١٥٥٨ فى ١٣/ ٣/ ١٩٢٨ (٢١ رمضان ١٣٤٦هـ) ص ٣ .

(٢) Survey of International Affairs, 1928, pp, 315-316.

(٣) الأهرام : العدد ١٥٥٨٤ فى ١٥/ ٣/ ١٩٢٨ (٢٣ رمضان ١٣٤٦هـ) ص ٣ .

(٤) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٣٧ .

يـرجع السبب إلى فرار بعـض أمراء المحميـات الخاضعين لـلإمام حينـذاك من الواجبات المـالية المفروضة عليهم ، ولكن إنجلترا كانت تعبر عن ذلك دائماً بأن هؤلاء الأمراء يرفضون حكم الإمام فى أقاليمهم ، وهذا ما يجعلهم دائماً يستحثون الإنجليز للدفاع عنهم .

وقد ألقت الطائرات البريطانيـة منشوراً فى ٢٥ رمضان سنة ١٣٤٦هـ ١٧ مارس سنة ١٩٢٨ (يمكن أن نعرض نصه ليتضح الأسلوب الإنجليزى فى هذه الفترة ، وبـالنسبة لتلك المشكلـة ، ونعمق الصـورة التاريخيـة بعـرض جوانبهـا المختلفة ، قالت فيه :

« إلى أهل المذهب الشافعى فى اليمن وفى المحمية البريطانية » .

بعــد الســلام :

أولاً : لقد علمتم أنه بنـاء على انتهاك حرمة المحمية البريطـانية من الإمام والزيود وتعديهم عليها أجبرنا على إلقاء القنابل على حامية الزيود .

ثانياً : بما أن هـذه الحاميات أقـامت نفسهـا بينكم ، فلعلكم قـاسيتم من تأثير هذه القـذائف ما قاسيتم ، فـذلكم ذنب الزيود لا ذنبنـا حسبما قد علمتم بذلك بدون شك .

ثالثاً : كل محل ليس فيـه حاميـة زيديـة لن يصير عليه رمى القـذائف من طياراتنا إلا إذا أعان سكان ذلك المحل الزيود بأى وجه من الوجوه .

رابعاً : لكى تعيدوا (تحتفلوا بالعيد) فى أمان نعلمكم أن طياراتنا لن ترمى القذائف فى أيام العيد ، وذلك بتـاريخ ٢٩ ، ٣٠ رمضان ، وتاريخ ١ ، ٢ شوال سنـة ١٣٤٦هـ الموافق ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ مـارس سنـة ١٩٢٨ إلا إذا حصل شىء من الـزيود يـؤدى إلى لـزوم الضرب ، فإذا حصل رمى بالقـذائف فى تلك الأيام ستعرفون أن الزيود هم المسئولون بذلك .

خامساً : وبما أن طياراتنا ستطير فى تلك الأيام ، ولكن ما لم يحصل شىء من الزيود ، كما ذكرنا أعلاه ، فإن طيرانها سيكون للكشف لا لرمى القذائف . والسلام »[1] .

وقد أردنا ذكر نص المنشور هنا لملاحظة أن بريطانيا تحرص على إبراز أمرين :

أولاً : وجود جماعتين مختلفتين متنافرتين فى اليمن وفى الجنوب العربى بوجه عام هما الشوافع والزيود ، وتحب دائماً تأكيد الخلاف بينهما وإبرازه ، وذلك للاعتماد عليه طبقاً لسياستها « فرق تسد » فهى لذلك توجه المنشور « إلى أهل المذهب الشافعى فى اليمن وفى المحمية البريطانية » وكان يمكنها أن توجه المنشور إلى « أهالى اليمن والمحميات » عموماً دون التخصيص ، لولا هذا الغرض الخاص الذى تسعى إليه دائماً .

ثانياً : تحب بريطانيا - وهذا واضح من نص المنشور كذلك - إلقاء مسئولية قذف القنابل على الإمام وقواته ، وتبرئة نفسها من هذا العمل الوحشى . فتوضح هنا أنها مدفوعة ، ومجبرة ، ومضطرة لإلقاء القنابل ، وأن الزيود هم المسئولون . ولتأكيد ذلك تقول إنها لن تقوم بأعمال حربية جديدة فى أيام عيد الفطر إلا إذا تحرك الزيود بعمل عدائى جديد ، وكأنها بذلك تلبس ثوباً إنسانيًّا جميلا .

ونعتقد أن غرض بريطانيا السياسى من إلقاء مثل هذه المنشورات أهم عندها من غرضها الحربى ، فهى تستغل هذه المناسبات لتأكيد نفوذها بين هذه القبائل ولتعطى نفسها صورة معينة ، وهى أنها الحامية لهم ، الساهرة

---

(١) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

على مصالحهم وحمايتهم ضد الإمام وجنده المعتدين . وكان الإمام بسياسته العتيقة مع قبائل المحميات يعطى بريطانيا هذه الفرصة . فسياسته - سواء مع هذه الجهات أو مع القبائل التى تخضع له فى داخل اليمن - كانت تقوم على القهر التام وأخذ الرهائن ، مما كان يجبر سلاطين المحميات إلى الالتجاء إلى عدن .

وقد كان من جراء هذه العمليات الحربية التى لا قدرة للإمام حيالها أن طلب هدنة لمدة ثلاثين يوماً لإجراء مفاوضات عامة ، فقبلت بريطانيا هذا الطلب بعد أن أفرج الإمام عن الشيخين المحميين ، وبدأت الهدنة فى ٢٥ مارس سنة ١٩٢٨[١] .

« وفى شوال سنة ١٣٤٦هـ (١٢ أبريل ١٩٢٨) توجه السلطان عبد الكريم فضل (سلطان لحج) والميجر فاول معاون والى عدن ، والسيد علوى بن حسن الجفرى إلى تعز للمفاوضة ، ولم تسفر المفاوضة عن نتيجة ، فقد كان أمير جيش تعز لا يملك التفويض للبت فى الأمر ، بل رفع مضمون المخابرة للحضرة الإمامية وعاد السلطان من طريق ماوية برا ، والمعاون عن طريق المخا فكمران فعدن »[٢] . حقيقة كان من عادة الإمام ألا يوافق على أن يعطى مندوبيه أية سلطات لازمة لتمثيله ، بل كان يحرص دائماً على أن يرجع إليه فى كل صغيرة وكبيرة قبل البت فى الأمور ، ولذلك سارت المحادثات فى « تعز » غير رسمية . وقد عرض وفد عدن آراءه واستعداد حكومة « جلالة ملك بريطانيا » لعقد معاهدة محدودة فى أقرب وقت ، وتشمل الاعتراف باستقلال الإمام فى اليمن ، على أن يعترف الإمام بحدود محمية عدن كما كانت ، مع تعديل محدود لصالحه . وتعهدت بريطانيا فيها أيضاً بتقديم المساعدات التى يمكن أن

---

(١) Survey of International Affairs, 1928, p, 316.

(٢) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٣٨٤ .

تقدمها فى حدود ارتباطاتها الدولية . هـذا وقد مدت الهدنة إلى أول يونية لإعطاء الإمام الفرصة للتفكير فى هذا الاقتراح ، ولكن الإمـام عاد وطلب مد الهدنة أكثر من ذلك أى إلى ١٧ يوليـه ١٩٢٨ فوافقت بريطانيـا على هذا المد بشرط أن يخلى الإمام مدينة الضـالع فى ٢٠ يونية[١] . وعندئذ أسرعت بـريطانيا بتـوزيع منشور بـالموقف القـائم بينهـا وبين الإمام على جميع الأمـراء والمشـايخ والسـلاطين فى المحمية - وذلك على عادتها - حتى توضح سلامة نيتها أمامهم ، ونص المنشور هو : « إن الحالـة الحاضرة بين الحكومة البريطانيـة وسعادة الإمام ، هى أنـه بناء على طلب الإمام ، فحكومـة جلالة ملك بريطانيا سمحت بـامتداد أجل الهدنة إلى تاريخ ١٧ شهر جولاى (يولية) سنة ١٩٢٨ الموافق ٢٩ محرم سنة ١٣٤٧هـ على شرط أن سعادة الإمـام يخلى مدينة « الضـالع » فى تاريخ ٢٠ جون (يـونية) سنة ١٩٢٨ الموافق ٢ محرم سنة ١٣٤٧هـ ، كفالة لحسن نيته » حرر فى يونية سنة ١٩٢٨ ، ووقعه الميجر « فاول » قائمقام والى عدن[٢] .

وتحاول إنجلترا فى هذا المنشور أيضاً إحراج الإمام أمام أهالى المحميات مع إظهار أنها فى وداعـة الحمل ، فقد ألقت التبعة كلها على الإمـام ، وطلبت منه أن يظهـر حسن نيته بإخـلاء (الضـــالع) . هـــذا فى الوقت الـذى كان الإمـــام يعتبر (الضـالع) جزءاً مـن أراضيه ، وأنهم مغتصبـون ، وأن احتـلاله لها كلفـه الكثير من الرجـال والأموال ، إذ إنه قـام باحتلالها فى سنـة ١٩١٩ ، واستمر بها حتى سنة ١٩٢٨[٣] .

لهذا كان الإمـام يرى أنـه من الصعب عليه أن يخلى هـذه البقاع بسهـولة ، وهـــذا ما حـدث بـالفعل ، فقـد تجددت الحرب ثانيـة ، وألقت الطـائرات أولاً

---

(١) Survey of International Affairs, p, 316.

(٢) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٨٥ .

(٣) Survey of International Affairs, p, 317.

منشـوراً تحذر بأنها ستلقى القنـابـل على بعض المدن اليمنيـة لإخـراج القـوات الإمامية من المحميـة ، ثم بدأت العمليات الحربية - بعـد إعطـاء فرصة أربعة أيام - فى ٢٥ يونية ، واستمرت حوالى ١٤ يوماً ، ولكنها كانت مدة غير متصلة ، وكان من بينها يـوم هوجمت فيه « تعز » نفسها . وقـد أدت هذه العمليات إلى أن سحب الإمام قواته من الضالع فى ١٤ يولية سنة ١٩٢٨ . وقبل نهاية نوفمبر من نفس السنة ، كان قد تم إخلاء كل البـلاد المحمية . عدا جزء من يافع ، وحوالى نصف إقليم العـوذلى ، كانـا لم يتم الاتفاق عليهما بعـد . وكان الإمام قـد أرسل خطابـاً إلى عدن ، فى سبتمبر سنة ١٩٢٨ ، يطلب إعـادة فتح باب المفـاوضات فـوافقت إنجلترا ، وطلبت منـه إرسـال مندوب لعـدن لبحث مـراحل الاتفـاق التمهيدى[1] .

وقـد أدى إلقاء القنـابل على جنـــوب اليمن ، وفى المحميات ، إلى مـآسٍ كثيرة . وقـد وصف هـذه الأحـداث الأليمـة ، رجل تـركى الأصـــل يـدعى محمـــود مصطفـى ، بقى فى اليمن بعـد خـــروج الأتـراك منه ، وكان معاصراً لما حدث - وقد روى لنزيه العظم وصحبه صورة منها ، حيث كان فى تعز ، وفى المنطقة التى ألقى عليها البريطانيون قنـابلهم - فقال : « طلب البريطانيون من الإمـام أن يتخلى لهم عن « الضـالع » و « جليلـة » و « قعطبـة » وألقـوا بعض المناشـــير على « تعز » و « ماويـة » و « إب » ، فيقولون فيهـــا إنهم سيلقون قنابلهم على هذه البـــلاد إن لم تخل جنـــود الإمام « الضـــالع » و « جليلة » و « قعطبة » . وحـــددوا يوماً للضرب ، ومن البديهى أن جنـــود الإمـــام ما أخلت هـذه الأمـاكن ، لـذلك جـاءت فى اليـوم المذكـور أسراب كثيرة من الطائرات ، وألقت قنـابلها على جميع البـلاد التى ذكرتها ، وألقت القنـابل أيضاً

---

(١) الأهرام : العدد ١٥٦٨١ فى ٣ يولية سنة ١٩٢٨ (١٥ محرم سنة ١٣٤٧هـ) ص ٣ .

على قرية « شهاب » الواقعة بالقرب من « ماوية » فقتلت ولدين ، وضربت قرية « عمر الصعدة » فجرحت أربعة من الجنود . وأما فى « تعز » المدينة الكبيرة الآهلة بالسكان ، فقد كانت الخسارة جسيمة جدًّا ، إذ بلغت نحو ٣٠٠ شخص بين قتيل وجريح ، ومعظمهم من الأولاد والنساء ، وفى « يريم » قتلت امرأتين ورجلين ، وفى قرية « النادرة » امرأتين . ومعظم هذه القرى التى ألقت الطائرات قنابلها عليها ، لم تكن داخلة فى الإنذار ، وعلاوة على إلقاء القنابل كانت الطائرات تمطر الناس فى الطرقات العامة ، وابلاً من رصاص رشاشاتها ، وقد أحدث الرصاص ضرراً جسيماً بأبناء السبيل ، كما هدمت القنابل كثيراً من المنازل والدور فى البلاد التى أنذرت ، والتى لم تنذر ... إن أهالى اليمن من أقصاه إلى أقصاه جزعوا جزعاً عظيماً من الطائرات ، وكانوا حينما يرونها يعدون أمامها ذات اليمن وذات اليسار ، واستولى الخوف والذعر على قلوبهم ونفوسهم »[1] . والغريب أن هناك من كان ينظر إلى أحداث إلقاء القنابل وما يترتب عليها نظرة أخرى ، تتركز أساساً حول نتائج النصر التى أحرزتها هذه الطائرات ، وما نتج عنها من تسوية للمشاكل القائمة ، دون النظر إلى أى اعتبارات إنسانية أخرى .

فيصف العبدلى هذه الأعمال الحربية بطريقة أخرى ، ليقول : إنها ساعدت أمراء المحميات على دخول أراضيهم ، وطرد الحاميات الإمامية ، وإن بعض الضباط الإنجليز كانوا يشاركون هؤلاء الأمراء فى زحفهم على المحميات الإمامية وكذلك ضباط اللا سلكى (لمخابرة الطائرات) .

ثم يذكر أنه لم يكن هناك خسائر كثيرة فى الأرواح بين الجيوش المتحاربة ويرجع ذلك إلى فضل الطائرات ، فيقول : « وكان هذا الاقتصاد

---

(١) نزيه العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

فى سفك الـدماء من فعل الطـائرات التى جـاءت بالعجب ، وروعت الطـرفين المتخاصمين من العرب ، وأعـادت للبلاد الطمأنينة المفقودة منذ انحـدر الباشا على سعيد ... »[١] .

ولكن العبدلى نفسه يصور فى لقطة أخرى ؛ مدى ما أصاب الجنود الزيدية من رعب وخوف من أعمال الطائرات ، فيقول يصور حـالة الحامية الزيدية التى كانت فى الضالع ، وما أصابها من رعـب « وثبت لعـامل الضالع (الزيدى) أن مـا يملك جنده مـن عدد وعـدة وشجـاعة ، لا يجدى نفعـاً فى مقـاومة سـلاح الطيران البريطانى والقـذائف الجهنمية المهلكة ، حتـى سمع من غير واحد من رجـاله مـن يقول لـه : نحن لا نحـارب من فى الأرض ومن فى السماء »[٢] . وقد سجلت هـذه الأحداث فى شعـر عربـى ، وأجمل ما فيـه فى الحقيقة ظهـور تلك الروح العربية القديمة ذات المفهوم الخاص عن الحرب ، وأن الشجاعة هى نزال وجهـاً لـوجه ، كما يظهـر أيضـاً الإحسـاس المرير بـالنقص فى وسـائل الحرب ، وبالذات فى امتلاك الطائرات ، ويتضح هـذا بجـلاء فى قصيدة للقاضى يحيى ابن محمد الاريانى[٣] .

(١) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٨٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٨٦ .

(٣) الجرافى : المتقطف فى تاريخ اليمن ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

يـا بـريطـانيـا رويـداً رويـداً	إن بطش الإلـه كـان شـديـدا
إن بطش الإلـه أهلـك فـرعـو	ن وعـاد من قبلكم وثمـودا
إن هـذا الفسـاد فى الأرض والهدم	لهذه البيـوت ليس سـديـدا
لا تظنـوا هـدم المدائن يـوهى	عـزمنـا أو يلين بـاسـاً صلـودا
إن هـذا هـو التـوحـش إذا جئـ	ـتم بما ليس عندنـا مـوجـودا
فـالنـزال النـزال إن كنتم مـ	ـن لدى الحرب لا يهاب الجنودا
لتروا مـن يبيت منـا ومنكـم	مـوثقـا عنـد خصمـه مصفـودا
إنكم لـو نـزلتمـو لـرأيتم	كل ذى شـدة تـذيب الحديـدا
ورأيتم منـا بكـم فتكـات	صادقـات عظمى تشيب الـوليدا

« قالها القاضى يحيى بن محمد الاريانى فى قصيدته »

وعلى كل حـال لقـد وصل الأمـر فى نهايـة عام ١٩٢٨ ، إلى حـالـة أكثـر استقراراً وهـدوءا ولو من النـاحية الشكليـة ، وهنا اتفق الطـرفان على المفـاوضة ولكن يجب ملاحظـة أن هذا الاستقـرار ، وبدء المفاوضـات ، كان مفـروضاً من جانب بريطانيا فرضاً ، فقـد نجحت فعلا - بواسطة طائراتها - فى حل المشكلة القائمة بينهـا وبين الإمام ، وهى تتمثل أساسا - من وجهة نظرهـا - فى إخراجه من المحميات أولا وقبل كل شىء . وقـد عبر عن ذلك ، فى رد ممثل الحكومة على سـؤال فى مجلس اللـوردات فقـال :«حتى الآن أسفــرت المسـاعى التى بـذلت للـوصول إلى تسـويـة مع الإمـام يحيى عن نجـاح عظيم ، وقد جعلـت قاعـدة المفاوضات معـه ، على أن تعترف الحكومة البريطانية بـاستقلال اليمن استقلالا تامـا ، وأن أى اتفاق يبرم معـه يجب أن يتضمن مادة تعين حــدود اليمـن بلاد الإمام . وقد خـول المعتمد السياسى فى عدن سلطـة تامة للمفاوضـة معه ، وقد سحب الإمـام قـواتـه إلى مـا وراء الحدود التى كـانت الحد الفـاصل بين عـدن والأراضى العثمانية ، فإذا تسنى الاعتراف بـذلك الحد واجتناب مشـاكل أخرى بشأن الحدود يصبح فى الإمكان معـالجة المسائل الأخرى بين بريطـانيا واليمن . وتؤمل الحكومـة البريطانية أن تنتهى المفاوضـات مع الإمام بتسوية مـرضية بعد مدة معقـولة »[١] . وجــاء فى نفس التصريح «وينبغى أن أقــول إن عمليــات الحصاد الآن تتـم فى هدوء ، وأن السوق الأسبـوعى فى «الضالع» فى ازدحام تام ، وأنه يجذب الناس من جهات مختلفة عبر الحدود »[٢].

وهــذا التصريح يعبر عن وجهـة نظـر بـريطـانيـا بصـراحة ، فهى قـد اسـتطاعت إخراج الإمـام من المحميــات ، وهــذا كل مـا يهمهـا ، ويهمهـا

(١) الأهــــرام : العــــدد ١٥٨٢٦فى ٢٩/١١/١٩٢٨ (١٧جـــادى الثانيــة سنـة ١٣٤٧هـ) ص ٣.

(٢) Survey of International Affairs, 1928, pp. 316-317,

بالتالى إقرار هذه الأوضـاع التى وصلت إليها وليكن عن طريق المفاوضة ، وهى فى حاجة إلى هذا الاستقرار ، فهو يحقق مصالحها اقتصاديًا وسياسيًا .

ومن البديهى القـول إن هذا الخط الإنجليـزى اليمنى من الأحداث لم يكن منفصـلا عن باقى مجالات الإمـام السيـاسية . وقـد قلنـا قبل ذلك إن المعاهـدة الإيطاليـة اليمنية كـانت من أكبر العوامل فى تـوجيه هـذا الخط فى الاتجاه الذى سار فيه ، وهذا فعلا ما كـان يتردد دائما فى الأوساط الإنجليزية ، بل إنا نعتقد - وقد أكـدنا هذا من قبل ذلك - أن المعاهـدة اليمنية الإيطاليـة هى التى فرضت على العلاقات اليمنية الإنجليزية الصبغة العنيفة ، إلى جانب العوامل الأخرى . ففى مقالة نقلتها الأهرام عن جريـدة «رفرى» اللندنية فى العدد الصـادر بتاريخ ٩ يولية سنة ١٩٢٨ - أى أثناء وقوع أحداث إلقاء القنابل بالذات - جاء فيها : « إن إصرار اليمن على رفض قبـول مقترحـات الصـداقة التـى تعرضهـا عليهـا بـريطـانيا يعـزى إلى النفـوذ الإيطـالى فى تلك البـلاد» ووصفت توغل إيطـاليـا السلمى فى اليمن فقالت :« إن إيطاليا هى الـدولة التى تنافس إنجلترا فى البحر الأحمر ، وتـرغب فى ترسيخ قـدميها فى بـلاد الإمام يحيى لكى يتحقق حلمهـا فى تأسيس إمبراطوريـة رومانية شرقيـة عظيمة الشأن . ومعلوم أن البحـر الأحمر هو حلقـة مهمـة فى المواصـلات بين الغـرب والشرق ؛ ويلـوح أن طـلاب التـوسع الإيطالى فى روما مصممون على الاستيلاء عليه ، وهذا لا يتسنى لهم على حساب الإمبراطورية البريطانية »[1].

وإلى جانب النفـوذ الإيطـالى المتغلغل - وأثـره فى السياسة اليمنية بـوجه عام وخاصة تجاه بريطانيا - كان هناك عامل الأهالى فى الجنوب العربى ، إذ كان لهم مفهـومهم الخاص فى الحيـاة وفى نظم الحكم وطـرق المعيشـة ، وكـانت

---

(١) الأهرام : العدد ١٥٦٨٦ ، فى ١٠/٧/١٩٢٨ (٢٢محرم سنة ١٣٤٧ هـ) .

كلهـا تؤثـر تأثيراً بالغـاً فى سياسـة الدولتين المتنـازعتين . فقد استعـرضنا كـلام سلطانـى الحواشب وموقفهما من الإنجليـز واليمن ؛ وأهمية القـروش « عندهما » وأن « الأمـراء يخضعـون لمن يمـلأ جيـوبهم بـالمال » ولمن يحقق لهم استقـلالهم الخاص ، ويشعـرهم بـاحترامـه لمظاهـر هـذا الاستقـلال ، دون أن يأخـذ منهم رهائن مثـلا لضمان خضوعهم ، أو يقيم بينهم حـاميات لتأكيد هـذا الخضوع . وقـد حرص الإنجليـز - دون الإمـام - على تفهم الـروح القبلية فى المحميـات ، وحـرصوا تمامـاً على أن يرضـوا هؤلاء الأمـراء بالمنح السنـوية وإظهـار التبجيل والتعظيم لهم ، وتـرك الحرية لهم فى تنظيم حياتهم الخاصـة ، بل حتى فى تسـوية منـازعاتهم المحليـة ، ما دامت هـذه المنـازعات لن تخرج عن حـدودها المحليـة ولن تؤثـر على النفوذ البريطـانى فى هذه الجهـات ، بل قد يستغلـونها لصالحهم فى أحيـان كثيرة . وكـان هـؤلاء الأمـراء والمشـايخ يـرضـون من إنجلترا هـذه المعاملـة ، ويحرصون عليهـا ، بل كانـوا يعتبرون مجرد تركهم وشأنهم فى أمـورهم الـداخلية الخاصـة هـو النظام الأمثل للحكـم ، وكانـوا لا يضنـون مقابل هـذا كلـه بـالاعتراف لإنجلترا بـالجميل والخضـوع . أمـا الإمـام فكـان يعتبر هـذه الجهات ملكـاً خاصًا لـه ولآبائه من قبله ، وبـالتالى لا حق لأمرائهـا فيها إلا إذا أرادوا أن يكـونـوا مـوظفين عنـد الإمـام يقـدمـون « رهـائن » دليـلاً على ولائهم لـه ولحكمه ، وهـذا مـا كان يـرفضـه هـؤلاء الأمراء والمشـايخ المتمتعين بـاستقلالهم الخاص وحيـاتهم المحـدودة المطالب والغـايـات ، والذين كـانت بريطـانيا ترضى لهم هـذه الحيـاة وتحققها لهم . وقـد عبر العبـدلى ، وهـو أحد أفـراد أسرة سـلاطين لحج ، عن مفهـوم المحميـات هـذا ، فيقـول معقباً على الأحـداث التى أدت إلى خـروج الحامية الإمـاميـة من « الضـالع » : « فليحكم الضالع أميرها مستقـلا عن صنعاء ، وساعة الوحـدة العربيـة وإن بعـدت آتية لا ريب فيها ؛ وما من العرب إلا واردها كان ذلك عليهم أمرا مقضيًا . ولن يحول تعـدد ملوك العرب وأمرائهم دون الوحدة العربية ، وإنما يحول دونها طمع قويهم بضعيفهم ونفور بعضهم من بعض ، ولا لوم على الضعيف إذا استعـان لسلامته

بأيـة قوة من الخارج بل اللـوم على ذلك القـوى ، يخنق أخاه فى الـدار ؛ ويهضم حقه لكى يدخل جارهم القوى بصفته فاعل خير ليرفع الخناق عن الرقبة ويفوز بالأجـر والشكر والصـداقة ، ولا يكسب الإخوان إلا المنـافرة والتفـرقة ، فلماذا لم يتسن للسيـد يحيى عامل الضـالع (الإمـامى) أن يـرجع إلى « قعطبة » بكـامل الرضى لا مذموماً ولا مدحوراً لكى يحكم « الضالع » أميرها الحق أخوه الشافعى نصر بن شايـف الحالمى الحميرى القحطانى »[1] . فهو هنـا يعبر - ولكن بنظرة عــربيـة محليــة - تمسكـه الأكيــد بـالاستقــلال الخاص أولا وأخيراً ، ويعطى للمحميات الحق فى الاستعـانة بـالأجنبى فى سبيل حماية هـذا الاستقلال ، وإن كان فى نفس الوقت يدافع عن الوحـدة العربية ، وأنها آتية لا ريب فيها . وهو لم يعط صورة معينـة لهذه الوحدة أو كيفيـة إتمامها إذ لم يكن لمفكرى وكتّـاب هذه الفترة أن يفكروا فى هذه الصورة . فنحن إلى الآن رغم دعوتنا الحارة لفكرة تدعيم القوميـة العربيـة ، لم نصل بعد إلى كيفيـة التدعيم ، وهل يكون ذلك عـن طريق الـوحـدة أو الاتحاد ، أو حتى عن طـريق الإخـلاص لجامعة الـدول العـربيـة ، والعمل بكل الوسائل على تدعيمها وتأكيد نفوذها كمنظمة إقليمية ، أو بالتخلى عنها لعدم قـدرتها على خدمة القضية العـربية . والعامل الثالـث الذى أثر على سير العلاقـات البريطانيـة اليمنية ، هـو مركـز الإمام فى اليمن ذاتـه ، إذ كانت أوضاعه غير مستقرة تماماً ، كما لم تتمكن سياستـه من جذب القبائل إليه . وكان الإمـام يبذل مجهـوداً متـواصلاً لتـدعيم مـركـزه ، فيرسل الحملات التأديبيـة إلى القبـائل المختلفة لإخضـاعها ، وأخـذ الرهـائن منها . ولم يكن أمـر التمرد هـذا متوقفاً على فئة دون أخرى ، فقد تمردت قبائل زيدية على الإمام ، كما كانت تفعل

---

(١) العبـدلى : هديـة الـزمن فى أخبار ملـوك لحج وعـدن ، ص ٢٨٧ (ذكر اسم هـذا الأمير بالكـامل ونسبة إلى قحطـان تأكيداً لعـروبته ، وأنـه ليس غريبـاً ، بل أخاً لا بـد أن ينال حقوقه) .

بعض القبائل الشافعية . كما لم ترفض القبائل الشافعية حكم الإمام ، بل اعترف بعضها بحكمه ، وخاصة بعد طرد الأدارسة من تهامة . فيذكر الجرافى أنه فى : « رجب سنة ١٣٤٥ هـ (يناير سنة ١٩٢٧) قدم سيف الإسلام أحمد ولى العهد إذ ذاك إلى صنعاء ، ومعه جمع وافر من رؤساء عشائر تهامة « كالواعضات » و « عبس » و « بنى نشر » و « حجور » و « بنى قيس » و « الخميسين » و « بنى مروان » و « المسارحة » وأنزلهم فى ضيافة الإمام . وقد قدم هذا الوفد فروض الطاعة باسم البلاد التهامية »(١) . ومعروف أن هذه القبائل شافعية . وفى نفس الوقت كانت حاشد وبكيل الزيديتين - أو بعض بطونهما - تثيران المتاعب له فى شمال صنعاء ، إذ كان من طباع هذه القبائل القوية الميل إلى الحرب لما فيه من غنائم وأسلاب . وكان يدفعهم إلى ذلك طبيعتهم الجبلية من ناحية ، وفقر مناطقهم من ناحية ثانية . وبالإضافة إلى ذلك لم يتمكن الإمام من استغلال طاقتهم وتوجيهها لصالحه . وغلب على الإمام حرصه على تحقيق أطماعه الخاصة التى بدت متعارضة مع مصالح هؤلاء ، فنكل بهم بعد أن تمكن من الوصول إلى أغراضه على أكتافهم . ولكنهم لم يقدروا ظروف الإمام الجديدة وحاجته إلى الهدوء والأمن إقراراً لأوضاع الدولة الجديدة ، كما كانوا أكثر تعصباً من الإمام نفسه ، ولم يسامحوا له اتفاقه مع العثمانيين سنة ١٩١١ ، لذلك فقد كانتا كثيراً ما تعلنان تمردهما عليه(٢) .

وهذا ما ذكره أيضاً الجرافى فيقول : « وفى سنة ١٣٤٣هـ (٢ أغسطس سنة ١٩٢٤ إلى ٢١ يوليو سنة ١٩٢٥) أخمدت ثورة قبائل حاشد ، وتم قهرهم وإجبارهم على الخضوع لأمر أحكام الشريعة وتوريث النساء . وفيها تم فتح بلاد الجوف ، وأخذ رهائن الطاعة والإخلاص . وفى سنة ١٣٤٦هـ (أول

---

(١) عبد الله الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٢) Survey of International Affairs, 1928, pp. 318.

يولية سنة ١٩٢٧ إلى ١٩ يونيـة سنة ١٩٢٨) سار سيف الإسلام ولى العهد من « حجة » إلى « قفلـة عذر » وجمع جيشاً من « حجور » و « بنى عبـد » و « جبل عيـال يزيد » و « بنى صُريم » وغيرهم ، وطالب قبـــائل « العصـيات » من « حـاشد » بتسليم رهـائن الطـاعة فـامتنعـوا ، فحـاربهم حتى أذعنوا وسلمـوا الرهائن »[١] .

والـذى يلاحظ تـاريخ تلك الثورات ، ويقـارنه بتـاريخ حرب الإمـام مع الإنجليز فى المحميات ، يجد أنهما فى فترة واحدة أو متقاربـة مما كان يحرج موقف الإمام ، ويضعف من قـوته أمـام الإنجليز خصـومه الأقويـاء ، الذين كـانوا لا يعانون من تمرد القبائل المحمية عليهم مثلا .

واستغلت إنجلترا أوضـاع اليمن القلقـة ، فيقـال إنها حـاولت الاتصـال ببعض القبائل ، وهى بـذلك لم تخلق شيئاً بذاته ، بل إنها أثـارت وحركت أشياء موجودة يمكن إخمادها لو تركت وشأنها .

ويذكر الإمام أن ثورة قبيلة الزرانيق سنة ١٩٢٨ ، دليل واضح على تدخل الإنجليز . وتـوجد هذه القبيلة على السـاحل بين الحديدة وحدود محميـة عدن ، وكـان خطر تمردهم يتمثـل فى موقعهم هـذا ، إذ كـانوا يستطيعـون قطع طـريق التجارة بين الحديدة وصنعاء .

وقد أثار الإمام قـوة هذه القبيلة وميولها الاستقلالية وامتنـاعها عن إعطائه الرهـائن ، فأرسل إليهم حملة تأديبية فى مايـو سنة ١٩٢٨[٢]لإخضاعهم[٣] . ولم يكن أمـر هذه الثـورة هيناً ، فلم يتمكن الإمـام من القضـاء عليها بسهـولة ممـا اضطـره أن يـرسل ابنـه سيـف الإســلام أحمد على رأس قــوة كبيرة ، زحفت

---

(١) عبد الله الجرافى : نفس المرجع ، ص ٢٣٧ .

(٢) أى أثناء الهدنة اليمنية الإنجليزية التى بدأت فى ٢٥ مارس سنة ١٩٢٨ .

(٣) Survey of International Affairs, 1928, p. 318.

على الزرانيق عن طريق الحديدة ، من مركزه فى حجة ، فاحتل بعض مراكزهم مثل « المراوعة » و « الدريهمة » بعد مصادمات عنيفة . وقد شعر سيف الإسلام حينئذ من خلال أحداث الحرب ووقائعها ، أن الزرانيق متصلون بدول أجنبية عن طريق البحر ، وأنهم يجلبون منها العتاد والسلاح . فبدأ فى توجيه مجهوداته ناحية البحر ، واستولى على الساحل ، واحتل « الجاح » و « الطائف » وميناء « غليفقة » وأقام الحصون وشدد الحراسة على الساحل ، كما استولى على سفن الزرانيق الشراعية ، وأرسلها إلى الحديدة ليمنع أى اتصال ؛ وبذلك استطاع تضييق الخناق عليهم ، ومنع كل مدد خارجى عنهم . فأحس الزرانيق بخطورة الموقف ، ففر شيخهم الأكبر الشيخ أحمد الفتينى ، والتجأ إلى الإنجليز فى جزيرة « قمران » كما استسلم بعض الشيوخ الآخرين لسيف الإسلام دون قيد أو شرط ، وأسر هو كثيراً من هذه القبيلة ، وساقهم مكبلين بالأغلال إلى صنعاء حيث أعدموا هناك . وقد اضطر باقى أمراء القبيلة إلى الالتجاء إلى « بيت الفقيه » التى تعتبر عاصمة الزرانيق - وقام سيف الإسلام أحمد بحصارها فقط - بناء على أمر الإمام - دون أن يهاجمها ، حتى اضطرت إلى التسليم بعد أن عانوا من قسوة الحصار وغلاء الأسعار ، ونقص الغذاء ، وأعطوه الرهائن أسوة بغيرهم من القبائل »[١] .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٦٨ و ٦٩ .

الفصل الرابع
تطور العلاقة بين الإمام يحيى والملك عبد العزيز بن سعود
بعد معاهدة مكة سنة ١٩٢٦

بداية العلاقة بين الملكين :

لم يكن الإمام مشغولاً بثورته الداخلية ، أو بحروبه مع إنجلترا فى المحميات ، أو بعلاقة الحديدة مع إيطاليا فحسب ، بل كانت حدوده الشمالية تشكل جانبًا هامًّا من مشاغله أيضًا . وقد لاحظنا ارتباطًا تاريخيًّا هامًّا بين حادثتين كبيرتين ، إذ ذكرنا أنه فى نفس الوقت الذى كان الإمام يتوج علاقته مع إيطاليا بعقد معاهدة فى سبتمبر ١٩٢٦ ، كان الأدارسة يسارعون بالدخول فى حماية السعوديين ، ويعقدون معهم اتفاقية مكة المكرمة فى ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٦[١] ، (ملحق - ٦) . وقد كان هذا الارتباط الزمنى ذا أهمية كبيرة ، إذ إن الإمام عندما أخذ فى عقد المعاهدة مع إيطاليا حتى يستطيع أن يأخذ منها ما يشاء من الأسلحة لمواصلة انتصاراته فى تهامة ضد الأدارسة ، ظهر له فى نفس الوقت جار جديد قوى بدأ يواجه الإمام وجهًا لوجه .

ومن الصعب تحديد وقت معين أو حادثة معينة تعتبر بداية للعلاقة بين الملكين ، ولكن من الممكن فى نفس الوقت توضيح تطور العلاقات - بوجه عام- قبل الوصول إلى نقطة وقوفهما وجهًا لوجه . يبدو أنه لم يكن هناك أية اتصالات بين ابن السعود والإمام يحيى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وبعد ذلك بقليل ، إذ كان كل منهما مشغولاً بمشكلاته الداخلية ، الأول فى نجد والثانى فى اليمن ، وكانت متاعبهما تنحصر أساسًا فى علاقاتهما بالعثمانيين

---

(١) المنار : جـ ١ ، المجلد ٢٧ ، ص ٧٩٨ - ٧٩٩ .

إلا أن نهاية الحرب وخروج العثمانيين من العالم العربى أديا - كما أوضحنا قبل ذلك - إلى الاحتكاك سلميًا أو حربيًا . فبدأ التصادم الحربى بين الشريف حسين وابن السعود يحتدم ، مما أدى إلى انتباه باقى أمراء الجزيرة - فضلاً عن باقى الشعوب العربية - إلى ابن السعود ، تلك الشخصية الجديدة التى بدأت تفرض نفسها بقوة على كيان الجزيرة العربية . وكان هذا فى نفس الوقت ، بداية علاقات ابن السعود بالإمام يحيى ، فالأول استطاع أن يستولى على الحجاز - وهذا معناه الاستيلاء على المدينتين المقدستين اللتين تهمان كل الشعوب الإسلامية - فكان لا بد من تنظيم العلاقة بين ابن السعود وبين الإمام من أجل الحج . وكان ابن السعود يعلم ضروريات ومقتضيات موقفه الجديد بعد استيلائه على هاتين المدينتين ، ويعلم أن العالم الإسلامى يحتاج بالضرورة إلى أن يطمئن على مصير المدينتين بعد دخولها فى حوزته . لذلك أسرع إلى الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامى فى مكة وأرسل دعوات إلى جميع ملوك وأمراء وسلاطين العالم الإسلامى وبعض رؤساء الهيئات الإسلامية المختلفة ،وذلك للتفاهم حول المسائل التى تخص الحرمين . وكان من بين هذه الدعوات دعوة للإمام يحيى .

وقد تعمدت المنار[1] ذكر نص الخطاب المرسل للإمام يحيى ، وذلك ردًا على «المقطم» الذى أنكر أن ابن السعود أرسله للإمام ، وكانت ديباجة هذا الخطاب تحمل كثيرًا من عبارات التبجيل والمودة .

ولكن لم تكن هذه الدعوة هى أول اتصال بين ابن السعود والإمام يحيى ، بل سبق ذلك بعض الاتصالات حدثت قبل قضاء ابن السعود على الشريف حسين . ولكنها كانت اتصالات غير مباشرة ، أو أنها لم تأخذ شكل الدعوة سالفة الذكر .

---

(١) المنار : المجلد ٢٦ ، الجزء ٧ ، الصادر فى ٢٩ جمادى الآخرة ١٣٤٤ (١٤ يناير سنة ١٩٢٦) ص ٥٤٠ .

ذكرنا قبل ذلك عند استعراض علاقات الملك حسين مع باقى أمراء الجزيرة العربية ، أن علاقاته مع الإمام كانت طيبة بالنسبة لعلاقاته مع باقى الأمراء . فقد كان يعترف له بالإمامة ، ويكره توسع الإدريسى فى تهامة ، ولكنه كان يرى أن نفوذ الإمام لا يمتد إلا إلى الطوائف والجهات الزيدية فقط . وقد حدث فى أواخر سنة ١٩٢١ وأوائل سنة ١٩٢٢ بعض التقارب ، فيذكر الجرافى أنه : « فى سنة ١٣٤٠هـ بعث ملك الحجاز الشريف حسين ابن على مندوبًا إلى الإمام وهو رئيس الأشراف بمكة ، فنزل ضيفًا على الإمام ، ولما أزمع الرحيل رأى الإمام أن يوفد معه بعض أصحابه ردًا للزيارة ، وأرسل معهم قصيدة أنشأها السيد العلامة الأديب يحيى بن على الذارى ، وهى تحث على الوفاق بين الأمة العربية »[١] . بل ويذكر أمين الريحانى نص معاهدة حررت فى صنعاء فى ١٨ رمضان سنة ١٣٤٠هـ (أوائل يونية سنة ١٩٢٢م) بين الشريف حسين والإمام يحيى وكان قسطنطين يني[٢] هو الذى عمل على إتمامها[٣] . وقد عاد قسطنطين ينى بالمعاهدة إلى الملك حسين ليعرضها عليه ، ولكن يبدو أنه لم يتم توقيع المعاهدة ، وأنها كانت غير نافذة المفعول لما تلا ذلك من أحداث داخل الجزيرة العربية أدت إلى القضاء على دولة الملك حسين .

ويجب أن نلاحظ أن سبب هذا التقارب هو انتماء البيتين الحاكمين فى مكة وصنعاء ، إلى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا مما أدى أيضًا إلى التقارب بين الإمام يحيى والعراق فيما بعد . وقد نظمت هذه المعاهدة «المأمولة » العلاقات بين الطرفين وقربت بينهما ، ودعت إلى التعاون والسلام بين البلدين . وهناك مادة خاصة بالتعاون فى حالة وجود عدوان

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٦ .

(٢) زميل الريحانى فى رحلته إلى صنعاء ومبعوث الملك حسين إلى الإمام وأحد ضباط جيشه ، وله قصيدة فى ذم القات ومضغه أرسلها للإمام يحيى .

(٣) أمين الريحانى: ملوك العرب ، ص ٢١٠ - ٢١٤ .

خارجـى على أحد الطـرفين (المـادة الخامسة) وتنـص على أنه : « عنـد ظهور عـدو مشاق للطـرفين إذا لـزم لأحـدهما إمداد من الثـانى فعلى من تطلب منـه الإعانـة إعانـة الطالب بمقدار مـا يدخل تحت إمكـانه من مـال أو رجـال أو سلاح أو معدات حربيـة ، وعلى الطالب للإمداد بالرجـال ، لوازم المطلوبين مع التأمينات اللازمة »[1] . وهـذه المـادة هى التى تهمنـا فى حديثنـا عن عـلاقات الإمام يحيى مع ابن السعـود إذ يمكن القول إنها كانت ذات أثـر مباشر فى سيرة هذه العلاقات .

أدى تغيير الأوضاع فى الجزيرة العربية بعد ذلك ، إلى توسـع علاقات ابن السـعود مع بـاقى أمراء الجزيرة ، سواء كانت علاقـات سـلمية أو منازعـات حـربية . وقـد نـشأت أول علاقة بين الإمـام وبين ابن السـعود أثنـاء الحـرب بين الشريف حسين وابن السـعود عنـدما اعتـدت جمـاعة من الوهـابيين على الحجـاج اليمنيين فى وادى « تنـومـة » جنـوب الحجـاز ، ظنًّـا منهم أن هـؤلاء الحجـاج كـانـوا نجـدة للشريف حسين ضـد ابن السعـود[2] . وهى حـادثة معـروفة يرويهـا كثير من اليمنيين ، ولا خـلاف بينهم إلا حـول عـدد هؤلاء الحجـاج وعـدد الذين اسـتطاعوا الفـرار . فالبعض كان يذهب إلى أنهم كانوا حـوالى ثمـانية آلاف غير ألفى حضـرمى وغيرهم من البلاد القريبة من اليمن، والبعض الآخـر يذكـر أنهم كانـوا حـوالى سـتة آلاف أو خمسـة آلاف . أمـا الذين سـلموا من القتـل فقد قيـل إنهم سـبعة أو خمسـة أشخاص فقط . ويذكـر الجـرافى أنهـا وقعت أثناء مـوسم حج سـنة ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) أما نزيه العظم فيـذكر أنهـا وقعـت سـنة ١٣٤٠هـ (١٩٢٢م) . وعلى كل حـال فقصة هـذه الحادثة هى أن الحجـاج « ذهبوا بـرًا من اليمن لتأدية فـريضة الحج ويذكـر أنهم كانوا جميعًا عـزلاً من السلاح ، ولمـا وصلوا إلى « تنـومة » اعترضهم

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، ٢١٣ .

(٢) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٢٦ .

كمين من الإخوان الوهابيين ، وأصلوهم نارًا حامية فلم يسلم منهم إلا سبعة أو خمسة أشخاص كانوا متأخرين قليلاً عن رفقائهم . وسلب الإخوان جميع أمتعة هؤلاء الناس وتركوهم ممددين على الأرض ، وعادوا بغنائمهم فائزين » .

ويواصل نزيه العظم حديثه عن هذه الحادثة ، وأنه حاول التحرى عن سبب هذا الاعتداء فى مختلف الجهات والبلاد ، وبعد الاتصال بالمسئولين وغير المسئولين تحقق : «أن لبعض الأجانب ضلعًا فى هذه المؤامرة ، وقد كانوا يتوخون منها إثارة الفتنة بين السلطان عبد العزيز والإمام يحيى ، وامتداد نار الحرب من الحجاز إلى اليمن . فقد ذكر عند ابن السعود بأساليب شتى ، وعن طرق عديدة، أن الملك حسين استنجد بالإمام يحيى ليقاتل معه ضد ابن السعود، فاعتذر الإمام عن الدخول فى الحرب بصورة رسمية علنية ، ولكنه أوفد هذا الجمع الغفير بصورة حجاج لكى يتطوعوا فى الجيش الحجازى . ويبدو أن ابن السعود أخذ بهذه الدعاية ، وأمر جنده أن يبيدوا هذا الوفد . وكان أول نتائج هذه الحادثة توتر العلاقات بين الإمام وبين السلطان عبد العزيز وامتنع الحجاج اليمنيين عن تأدية فريضة الحج بعد ذلك ، إلا أن هذه النتائج سويت فيما بعد عندما عادت بينهما العلاقات لتسوية الحدود المشتركة ، وقد قيل إن ابن السعود دفع دية الحجاج الذيت قتلوا[1] .

ومن مظاهر الاتصال الأولى أيضًا ، أن الإمام يحيى حاول التدخل فى نهاية الحرب النجدية الحجازية ، فأبرق للملك الحسين بن على والسطان عبد العزيز يعرض عليهما وساطته لإنهاء الخلافات القائمة . وكذلك بدت أن حدودهما تتقارب عندما كان ابن السعود يتوسع جنوبيًا إلى حدود اليمن

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيد .

أثناء حربه مع الحجاز ، فاستولى ابنه فيصل على إمارة آل عائض داخل عسير ، مما أدى إلى ظهور هذا الجار القوى المنتصر على مشارف حدود اليمن الشمالية ليشكل خطرًا جديدًا بالنسبة للإمام يحيى ، أو على الأقل لتصبح مسألة جديدة تشغل بال الإمام .

وتوضح كل تلك الأحداث السياسية السابقة نشأة وتطور العلاقات بين صنعاء والرياض ، وتعتبر كلها مقدمات لوقوف هذين العاهلين أمام بعضهما وجهًا لوجه بعد أن تماست حدودهما . وقد كان دخول الأدارسة تحت الحماية السعودية هى النقطة التى بدأت العلاقات عندها تأخذ شكل خلاف ، ثم نزاع ثم اشتباك .

إعلان الحماية السعوية على عسير وأثر ذلك على العلاقات :

عندما تم عقد معاهدة مكة المكرمة بين ابن السعود وحسن الإدريسى ، أرسل الأول على الفور نسخة من نصها الكامل مع كتاب منه إلى الإمام يحيى ، يرجوه أن يصدر الأمر إلى قواده بالكف عن مهاجمة الأدارسة لأنهم أصبحوا تحت حمايته . وقد كانت قوات الإمام فى ذلك الوقت بالذات ، تحاصر - أو هى قاب قوسين أو أدنى من احتلال - مدينتى صبيا وجيزان ، أهم مركزين للأدارسة . وكانت مفاجأة عنيفة فوجئ بها الإمام ، فلم يكن أمامه إلا أحد أمرين : إما أن يقر المعاهدة ويعترف بها ، وبذلك تفلت الإمارة من يده ، وإما أن يأمر قائد جنده فى تهامة عبد الله بن الوزير بمواصلة الزحف ، فيصطدم بابن السعود ويدور القتال بينهما . ولكنه رأى أن يقر الأمر الواقع ، وأبلغ قائده بإيقاف الحرب ، ثم لبى دعوة ابن السعود إلى المؤتمر الإسلامى فى مكة[1] . وكان الإمام يرى أنه يجب تسوية مشكلة عسير هذه مع ابن السعود تسوية سلمية، وذلك لأن باقى

(١) المقتطف : المجلد ٨٤ ، الجزء ، عدد أول مايو سنة ١٩٣٣ (١٧ محرم سنة ١٣٥١) من مقالة لأمين سيد ، ص: ٦٠٤ .

ظروفه السياسية والحربية لم تكن تساعده على مواجهة ابن السعود بالقوة . حقيقة كان مداد معاهدته مع إيطاليا لم يكن قد جف بعد ؛ وكان يأمل أن تكون المعاهدة عضدًا له فى مواجهة مشكلاته السياسية والحربية ، لكن لم يكن قد أتيحت له الفرصة بعد للاستفادة منها . كما أنه لم يكن ينتظر مطلقًا أن تنزل إيطاليا قواتا لمساعدته فى حروبه المختلفة ؛ بل كان كل ما ينتظره منها هو إمداده بالسلاح والعتاد . وقد أشرنا قبل ذلك إلى أن الإمام كان مشغولاً بإخماد الثورات التى كانت تظهر هنا وهناك داخل اليمن نفسه بين الجماعات الشافعية أو الزيدية . فضلا عن مشكلاته مع إنجلترا فى المحميات ، وتوترالعلاقات بينهما كما رأينا .

تبادل الوفود بين البلدين :

اتخذ الطريق السلمى بين العاهلين مظهرًا خاصًّا ، هو المفاوضات عن طريق إرسال المندوبين . وكان أول هذه الوفود هو الوفد السعودى الذى حمل نص معاهدة الحماية إلى صنعاء لعرضها على الإمام ، وقد وصل إلى صنعاء فى ٣ ذى الحجة سنة ١٣٤٥هـ (يونية ١٩٢٧م) وبقى فيها إلى أواخر المحرم سنة ١٣٤٦هـ (يولية ١٩٢٧م) .

وقد دارت بين الوفد وبين الإمام يحيى من ناحية ، وبينه وبين مندوبى الإمام من ناحية أخرى مباحثات طويلة خلال جلسات عديدة بلغت سبع عشرة جلسة . كان موقف الجانب اليمنى أنه يعتبر عسير جزءًا من اليمن ، وأن الأدارسة غاصبون ودخلاء فى هذه المنطقة ، وأنه لا يعترف بما كان من انضمام بلاد آل عائض إلى نجد ، ولا بما كان من بسط الحماية على المقاطعة الإدريسية[1] . وقد جاء فى تقرير الوفد السعودى - بعد عودته إلى بلاده - المؤرخ فى أول ربيع أول سنة ١٣٤٦هـ (سبتمبر ١٩٢٨) ما يوضح

---

(١) وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات اليمنية السعودية ، ص ١ - ٢ .

وجهة النظر السعودية فى أمر عسير : « وخلاصة مطالب المندوبين اليمنيين التى لم يحيدوا عنها ، ولم يتحولوا عن إبدائها طيلة مدة المفاوضات ، أن بلاد عسير ونجد جزء من بلاد اليمن . فأوضحنا للمندوبين أن بلاد الأدارسة قسم من تهامة عسير ، وأن عسير ليس من اليمن وأنه ليس لأئمة الزيود أى حق من الحقوق فيه ببراهين تاريخية علمية ، وأن حدود هذه المقاطعة تمتد من « مخا » إلى « زبيد » إلى مركز « باجل » من جهة الجبال ، وأن هذه القطعة بحدودها المبينة قسم واحد لا يتجزأ ، وكانت خاضعة للسيد محمد على الإدريسى أيام حكمه وهى داخلة ضمن الحدود التى شملتها معاهدة جلالة الملك (عبد العزيز) مع السيد حسن ، ولذلك فإننا نعتبرها من حقوق جلالة الملك كلها ونطالب بإعادة ما هو منها تحت حكم الإمام يحيى إلى المقاطعة الإدريسية .. »[1] وتبدو المغالاة فى التقرير ، إذ ليس من المعقول أن يوافق الإمام على التنازل عما حارب من أجله سنوات – ونقصد تهامة اليمن التى يريد منه الوفد السعودى أن يعيدها للأدارسة – كما أنه من الناحية الجغرافية لا يمكن تصور وجود دولة كاليمن تبقى معلقة فوق الهضبة فى الداخل دون أن يكون لها منافذ على البحر تطل منها على العالم الخارجى ، أى أن تهامة اليمن كانت تمثل لباقى أجزاء اليمن ، تكاملا عضويًّا لا بد منه لقيام دولة مستقلة يمكن أن تعيش . ولكن يبدو أن هذا المطلب السعودى ، كان من باب المحاورات الدبلوماسية فقط حتى يجبر الإمام على قبول الوضع الجديد .

وعاد الوفد السعودى – دون اتفاق – إلى مكة المكرمة ، وعرض على الملك عبد العزيز خلاصة أعماله ، فصدر إليه الأمر بالرجوع إلى صنعاء للاتفاق على إبقاء الحالة الراهنة ، ووضع الترتيبات التى تؤدى إلى تعيين حدود فعلية بين المقاطعة الإدريسية وعسير ونجران من جهة ، وبين اليمن من

(١) وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات اليمنية السعودية ، ص ٣ .

جهة أخرى . وقد عاد الوفد السعودى مرة ثانية إلى صنعاء ، واستمرت جلساته خلال شهرى ديسمبر سنة ١٩٢٧ . ويناير سنة ١٩٢٨ . وكانت الحدود التى يعرضها للاتفاق عليها تدل على تغير أساسى فى حديث الوفد ، فقد كان يعمل فعلاً على إقرار الوضع الراهن . إلا أن تركى ابن ماضى (أحد رجال الوفد السعودى) أرسل خطابًا إلى الملك عبد العزيز ، فى صنعاء مؤرخ ٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٤٦هـ (أبريل سنة ١٩٢٨) يشرح له بعض الأمور ، جاء فيه : « توجهنا إلى صنعاء اليمن لتجديد المفاوضات مع الإمام يحيى وزعمائه فبموجب مطالعة خادمكم حول تلكم المفاوضات أحببت أن أشرح لكم بعض ما يحسن ذكره منها : الإمام يحيى ذو مطامع غريبة ومراميه بعيدة ، كلما تكلمنا معه فى النقطة الممكنة لحل المشكل زاغ عنها ، وإن كان يقول قولاً بأنه يطلب الائتلاف فله مقاصد بعيدة . فتحقق لدى خادمكم أنه متربص للدوائر عن مقصد ، وله آمال لا سمح الله بتحقيقها ، وليس له مقصد عدوان فى الوقت الحاضر ، ولا يريد حسم المادة والاعتراف بحدود معلومة له وعليه، بل يريدها مسالمة ومكاتبة بغير نتيجة . ولا يزال يطلب فى حل عقد اتفاقية مكة ، وكم أوضحنا له ، وأفدناه أن الإدريسى فى قطعة من بلاد عسير ، وأنه مسلم استجار بأخيه فأجاره سابقًا ولاحقًا حتى طالت المحاورات بيننا وبينه ، ثم بيننا وبين مندوبه إلى نهاية أربعة وخمسين يومًا . ونحن مقيمون فى صنعاء فلم يكن له عذر عن إرسال مندوبين من طرفه لجلالتكم ، ونرجو الله أن ينهى الأمور على ما يرام . . »[1] .وقد انتهت مفاوضات الوفد الثانى بالاتفاق على أن يرسل الإمام يحيى مندوبين عنه إلى الملك ابن السعود ، لشرح وجهة نظر اليمن . وقد أرسل الإمام لابن السعود رسالتين ، يخبره بأنه سيرسل مندوبين عنه لهذا الغرض ، كما ذكر فيها رغبته فى توطيد العلاقة بين البلدين ورد كيد الداسين »[2] .

---

(١) وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات اليمنية السعودية ، ص٩ - ١٠ .

(٢) نفس المرجع : ص ١١.

وعاد الوفد السعودى إلى مكة المكرمة ، ومعه ثلاثة من اليمنيين يمثلون الإمام فى رمضان سنة ١٣٤٦هـ (مارس سنة ١٩٢٨) ، وقاموا بمفاوضات هناك ولكنها كانت قصيرة وغير منتجة ، وذلك لأن أفراد الوفد اليمنى كانوا مختلفين على الرئاسة من جهة ، وعلى مدى صلاحية الوفد من جهة ثانية ، وذلك لأنه لم يكن له من الصلاحية ما يجيز له البت فى أى موضوع من المواضيع[١].

وقد حدثت فى هذه الأثناء أن أرسل الملك ابن السعود إلى الإمام يحيى كتابًا مؤرخًا فى ٤ محرم سنة ١٣٤٧هـ (٢٤ يونية سنة ١٩٢٨) يخبره بأخبار المحادثات بين الوفدين السعودى واليمنى ، ويجدد علاقات الصداقة بين البلدين ، إلى أن يقول : « .. وإنى قبل أن أختم كتابى هذا ، يجب أخوكم أن يشرح لكم الثلاث مواد الآتية لأنها هى المحور الذى سيدور عليه كل اتفاق فى المستقبل .

أولا : إننا نحب الاتفاق مع حضرتكم ، ونرى أن ذلك أنكى للعدو وأسرُّ للصديق .

ثانيًا : إنه ليس لنا أغراض أو مطامع سواء فيما يتعلق بشخصكم أو بوطنكم وكل ما نرمى إليه هو السعى للاتفاق وراحة وطنكم ورعيتكم .

ثالثًا : إننا بقدر ما نستطيع سنمنع كل ما يوجب سوء التفاهم أو يحدث المشكلات بيننا وبينكم ، وإننا سنبذل جهدنا فى توطيد السلام إلا ما يوجبه الدفاع عن الكرامة والشرف . . . وكل ما لدينا قد أبديناه شفاها لمندوبيكم »[٢] .

---

(١) هذه هى عادة الإمام دائمًا إذ لم يكن يجعل لمندوبيه - فى أية مفاوضات - الصلاحيات اللازمة للبت فى الأمور . وكان يحتم عليهم دائمًا الرجوع إليه فى كل شىء ، وقد يرجع هذا إلى رغبته الشخصية فى البت فى كل صغيرة وكبيرة بنفسه - وهذا ما كان يتبعه فى جميع شئون دولته - وإلى عدم ثقته بأحد .

(٢) وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات اليمنية السعودية ، ص٥ - ٦ .

وهكذا عـــاد الوفد اليمني من مكة دون أن يحــقق شــيئًا يذكــر ، ولــكن كان هنـاك أمر أصــبح شــيئًا واقعيًّا إلى حــد كبير ولبعض الـوقت ، هـو أنـه بــدا على الطرفين أنهمــا اعــترفا ولو مؤقتــا بـاتباع سيــــاسة المحافظـة على «الوضــــع الراهن » وأخــذ كل منهمـا يعمل على تقـوية قبضــته على ما تحت يــده من القبـائل والجهات ، وينظم ســـياسته و إدارته في هــذه الجهـات . وقد استمر هذا الوضع حوالى ثلاث سنوات أى حتى سنة ١٩٣١ حين ثارت حادثة جبل « العَـرو » مما أدى مـرة أخرى إلى تجديـد المنازعـات و المفاوضـــات حتى قـامت بين البلدين حـــرب « الســبع أســابيع » التى انتهت بمعـاهدة ســنة ١٩٣٤م بين البلدين .

ولكن هنـاك بعض الأمـور التى نـريـد أن نشير إليهـا ، أهمهـا أن بـدايـة العلاقات بين البلدين ، وسيرها فى هذا الخط بالتحديد ، لم يكونا وليدى الصدفة بل كانت بدايـة طبيعية فى صورتها وجوهرها . ويتبلور هـذا فى أنها كانت نتيجة توسع كل مـن الحاكمين فى بقاع الجزيرة العـربية تماست حـدودهما ، وتشابكت مصالحهما ، مما أدى إلى التصــادم . وفرضت هذه البداية بالتـالى خطًّا معينًا تسير فيه العـلاقات الفتية المتوتـرة ، اتصف بالشد والجذب حول بقــاع معينة ، ادعى ملكيتها كل من الطرفين .

ومن ناحية ثـانية ، كانت علاقة الطرفين بعضهما ببعض تتأثـر تأثرًا مباشرًا بعلاقة كل من الطـرفين بانجلــترا، وكانت للأخـــيرة عـلاقات خاصـــة بكل من صنعاء والرياض كل على حدة . وقد لعبت هذه العلاقات دورًا هامًّا فى سير علاقات اليمن مع الســعودية . ولم يكن هـــا الأمر غريبًــا فلإنجلترا مصـالح فى كل من جنـوب اليمن وشمال السعـوديـة ، كما يهمهـا أن تحافظ على عـلاقـاتها ومصالحها لدى هذين العاهلين . وقد بـدأت العلاقات السعودية الإنجليزية فى التوتر بعـدما أقامت إنجلترا دولتين هاشميتين على حـدود ابن السعود الشمالية وأخذت ترعاهما . وبفضل العداء التقليدي بين السعوديين والهاشميين ، ونتيجة

لقيام منازعات وحروب قبلية على حدود هاتين الدولتين مع السعودية ، رأت إنجلترا نفسها - لخدمة مصالحها الخاصة - مضطرة إلى التدخل دفاعًا عن مصالح العراق وشرق الأردن وتدعيماً لمركزيهما . وقد اضطرت إلى استعمال الطائرات فى فض التجمعات القبلية الوهابية على حدود هاتين الدولتين ، إلا أن هذا النزاع لم يستمر طويلاً ، وتمكنت إنجلترا بفضل مجهودات ومفاوضات سير جالبرت كلايتون من أن تعقد معاهدة مع ابن السعود فى مايو سنة ١٩٢٧ . وقد قضت هذه المعاهدة على المنازعات المحلية ، وأدت إلى اعتراف انجلترا باستقلال الدولة السعودية الجديدة ، كما عملت على تسوية جميع الأمور المعلقة بين البلدين وكانت انجلترا تهتم اهتمامًا واضحًا بعقد هذه المعاهدة لوجود مصالح عديدة لها فى الجزيرة العربية ، كان لابد من الاطمئنان عليها بعد التوسع السعودى العريض ، الذى وصل إلى مناطق النفوذ الإنجليزى فى الجزيرة وخارجها وقد وقعت المعاهدة بجدة فى مايو ١٩٢٧ ، وتبودل الإبرام فى سبتمبر سنة ١٩٢٧ (ملحق ٧) . والذى نريد أن نصل إليه هنا ، هو أن العربية السعودية كانت قد سوت مشكلاتها مع إنجلترا ، وأنهت حروبها فى الشمال ، قبل التصادم مع اليمن ، أو قبل أن تدخل فى علاقات جديدة مع اليمن . فقد حضر الوفد السعودى الأول إلى صنعاء فى يونيو سنة ١٩٢٧ ، أى بعد توقيع المعاهدة الإنجليزية السعودية بشهر ، وبعد الاطمئنان على استقرار باقى مشكلات ابن السعود ، وبالأحرى لقد فرغ ابن السعود من المشكلات المحيطة به قبل أن يلتفت إلى الإمام يحيى .

ولكن الأمر كان عكس ذلك بالنسبة لليمن ، فقد واجه الإمام ابن السعود عندما كان مشغولاً باشتباكاته مع جارته انجلترا فى الجنوب . ويتضح هذا بالنظر فى تاريخ سير كل من علاقات الإمام مع جارتيه فى الشمال وفى الجنوب . ففى الوقت الذى كان الوفد السعودى الأول والثانى فى صنعاء يفاوض الإمام ومندوبيه كانت الطائرات البريطانية تلقى بقنابلها على جيوش الإمام فى المحميات حتى إنه اضطر أن يسعى للهدنة مع إنجلترا وأعلنت

فعـلا فى ٢٥ مارس سنة ١٩٢٨ ، وهو نفس الشهر الذى توجه فيه وفده هو إلى مكة المكرمة مع الوفد السعودى الثانى .

ولا شـك أن هذه الوحـدة الزمنية هى التى أثرت فى عـلاقات الإمام مع ابن السعـود ، وفى سير المحـادثـات والنقط التى تنـاولتهـا هـذه المحـادثـات . وانشغال الإمام فى أحـداث حدوده الجنوبية - التى كانت ملتهبـة بالصورة التى عرضنـاها - يجعلنا نـؤمن بصحة بعض ما جـاء بتقرير « تـركى بن ماضى » إلى مليكـه ابن السعـود حيث يقـول عن الإمام « ... وليـس له مقصـد عـدوان فى الوقت الحاضر ، ولا يريد حسم المـادة والاعتراف بحدود معلومة له أو عليه ، بل يريدهـا مسـالمة ومكاتبـة بغير نتيجـة » . فقـد يكون سـبب موقف الإمام هذا الذى وصفـه « تركـى » هو عدم رغبـة الإمام فى البـت فى مشكلة حيـوية تخص حدوده الشمالية عنـدما كان يحارب عند حدوده الجنوبيـة ، فكأنه بذلك أراد أن يكسب وقتًا ، ويسوف فى حل قضيته مع الجنوب . وكان هذا هو نفس الأمر مع إنجلترا ، فموقف الإمام بالنسبة لها تأثر بطبيعة علاقته مع ابن السعود .

وقـد شعر الإنجليـز أنفسهم بهذه الحقيقـة ، واعتقدوا في هـذه الفترة « أن نتيجة مفاوضات الإمام مع ابن السعـود ستكون العامل الهام فى رسم سياسته فى المستقبل تجاه بريطانيا »[١] .

---

(١) Survey of International Affairs : 1928, P 319 .

الفصل الخامس
موقف الإمام بالنسبة لمشاكل الحدود

الإمام والاتحاد السوفيتى :

لم يكن لإنجلترا تأثير مباشر على سياسة الإمام تجاه جاره فى الشمال فحسب ، بل كان أيضًا لها تأثير كبير على سياسته تجاه القوى الخارجية الأخرى . ويتضح هذا فى تعاهده مع الدول الأجنبية المختلفة ، وإن كان سرعان ما يحرص على أن تكون هذه المعاهدات ، محدودة للغاية فى أغراض معينة ، ويخضع موادها – عند التنفيذ – لوجهة نظره هو ، وطبقًا لما يراه فقط مما يقلل فى النهاية من أهمية هذه المعاهدات ، ويضعف بالتالى مدى استفادة اليمن منها . وكانت علاقته مع إنجلترا من أسباب موقفه هذا ، فهو يخاف النفوذ الأجنبى والقوى الأجنبية بكل صورها وأشكالها – وكانت إنجلترا صورة حية تمثل أمام عينيه كل ما هو أجنبى – ولكنه فى نفس الوقت ، كان يحتاج إلى قوى أجنبية تسانده فى مقاومته لإنجلترا وفى نيل مطالبه منها . فكأنه فى الحقيقة كان يخاف النفوذ الأجنبى ولكنه كان يشعر بالحاجة إليه فى نفس الوقت .

وهذا هو الدافع الأساسى الذى أدى به إلى عقد معاهدة « صنعاء » مع الاتحاد السوفيتى فى أول نوفمبر سنة ١٩٢٨[١] ، أي عند اشتداد المنازعات الحربية مع إنجلترا ، وهذا ما جعل البعض يذهب إلى القول إن هذه المعاهدة أدت إلى ازدياد شعور الإمام بالقوة أمام تهديد إنجلترا ، مما جعلها تصر على

---

(١) Survey of International Affairs, 1930, PP. 170_ 171,

استعمال طائراتها ضده لإخراج قواته من المحميات[1]. ولكن كانت هناك عوامل أخرى أدت إلى هذا التقارب اليمنى السوفيتى ، فمن الناحية الدولية كان عام ١٩٢٨ ، هو عام انعقاد المؤتمر السادس للكومنترن[2] ، والذي بدأ به الاتحاد السوفيتى ما سمى العهد الثالث الذى واجهت موسكو الشرق فيه بشكل يائس بعض الشيء . وكان الاتحاد السوفيتى يرى أن بريطانيا هى التى تمثل رأس الاستعمار فى العالم ، ولكنه كان يشعر فى نفس الوقت - ومن وجهة نظره « النظرية » البحتة - أن الشرق الأوسط ليس معدًا إعدادًا كافيًا لنشر نفوذه فى ربوعه ، إذ كانت هذه البقاع ، إما واقعة تحت النفوذ البريطانى أو الفرنسى مباشرة وهذا الأغلب الأعم ، أو متأثرة سياسيًا وحضاريًا بوجود هذا النفوذ فى أقاليم مجاورة قريبة . وكان يرى أن حالة هذه المنطقة عمومًا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية تتصف بالتخلف والتأخر ، مما جعل الاتحاد السوفيتى يشعر بأنه أمام وضع معين من الصعب عليه التوغل فيه ، ولكنه حاول فى نفس الوقت ، إقامة علاقات تجارية وسياسية مع اليمن والسعودية ، وذلك لأنهما كانتا الدولتين الوحيدتين العربيتين اللتين خرجتا من الحرب العالمية الأولى وهما متمتعتان بالاستقلال التام . وقد أمد الاتحاد السوفيتى العربية السعودية بكثير من البضائع اللازمة ، وأنشأ له قنصلية فى جدة ، وعمل على إغراق الأسواق بالبضائع المختلفة ، مما أثار ضده باقى تجار وقنصليات جدة ، وهذا اضطر بالتالى الحكومة السعودية إلى الحد من نشاط التجار السوفييت[3] وهكذا كان اختيار السوفييت للعربية السعودية ولليمن كمجالى نشاط لهم أمرًا طبيعيًا ، إذ لم يتمكنوا من إيجاد أية فرصة

---

(١) Philby : Saudi Arabia, P. 334,

(٢) والترلاكور : الاتحاد السوفيتى والشرق الأوسط (ترجمة لجنة) الطبعة الأولى -بيروت- أغسطس سنة ١٩٥٩ ص ٩٨ .

(٣) Philby : Ibid, P. 334,

لمد نفوذهم إلى البلاد العربية الأخرى . وقد عبر أحد أفراد الوفد إلى اليمن فقال : « نرغب أن نعقد معاهدة تجارية مع الإمام يحيى ، إذ لا يخفى عليكم أن بلادنا واسعة ومحصولاتنا كثيرة وأبواب العالم الخارجي مغلقة فى وجوهنا ، فنحن نسعى لإيجاد أسواق جديدة ، وهذه البلاد من جملة البلاد التى يمكننا أن نعمل معها، ونجد فيها أسواقًا تجارية »[1] .

وقد تمكن الوفد السوفيتى من عقد معاهدة صداقة وتجارة مع الإمام سميت بمعاهدة « صنعاء » ، وذلك فى أول نوفمبر سنة ١٩٢٨ (١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٧) . (انظر ملحق ٨) .

ويعتبر الإمام أول من أقام علاقات سياسية مع الاتحاد السوفيتى ، فعقد معه هذه المعاهدة التى عقدت فى وقت مبكر جدًّا بالنسبة لبلدان الشرق الأوسط . وقد حقق الإمام من ورائها أغراضه السياسية والاقتصادية ، فاعترف به الاتحاد السوفيتى وباستقلاله وباستقلال بلاده كما نظم معه التبادل التجارى والعلاقات السياسية .

وكانت مدة سريان المعاهدة عشر سنوات ولكنها لم تجدد بعد مرور هذه المدة ، فقد سحب الاتحاد السوفيتى كل هيئاته الدبلوماسية التى تعمل فى المجال العربى سنة ١٩٣٨[٢] .

وكان دافع الاتحاد السوفيتى الجديد ، هو فشله أمام النفوذ الإيطالى والألمانى اللذين تغلغلا فى المنطقة العربية بوجه عام . فقد كانا يمثلان أمام الشعب العربى المنقذ والمحرر من الاستعمار الإنجليزى الفرنسى ، فقد تغلغل النفوذ الإيطالى فى اليمن واستطاعت إيطاليا تجديد معاهدة سنة ١٩٢٦ مع الإمام ، فى الوقت الذى سحب فيه الاتحاد السوفيتى دبلوماسييه ، واختفى نشاطه تقريبًا فى اليمن إلى أن تجدد ثانية بعد ذلك بمدة طويلة فى سنة ١٩٥٥ .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٨ .

(٢) Philby : Saudi Arabia, P. 334,

وكيفما كان الأمر فقد كان للبعثة التجارية السوفيتية نشاط كبير فى اليمن ، وقد أثبتت وجودها إلى حد كبير ، ونافست بشدة باقى الفئات التجارية فى الحديدة مما كان له أثره السيئ على تلك الفئات . فكانت هناك مثلا جماعة من اليونانيين يعرفون بـ« إخوان ليفراتو » تشترى البن بأرخص الأثمان من الأهالى ، ثم تبيعه فى الأسواق الخارجية بالسعر الذى تريده ، وهكذا كانت تتحكم فى سعر البن اليمنى سواء فى الداخل أو الخارج ، وذلك لقلة رأسمال التجار الوطنيين وعدم درايتهم بالعالم الخارجى وأسواقه ، ولكن « الشركة التجارية الروسية » - هكذا كان يدعى الوفد السوفيتى فى اليمن - أخذت تضارب تجار البن وغيرهم من التجار بشتى البضائع . ويصف نزيه العظم هذا النشاط التجارى للشركة التجارية الروسية فيقول : « وقد رأيت سماسرتها فى الطريق يبتاعون البن رأساً من القرويين ، وقد جلبت شيئاً من السلع المختلفة كالسكر والأرز والدقيق والكاز والخشب والكبريت والأقمشة إلى غير ذلك من البضائع الكثيرة ، واستولت على الأسواق التجارية ، وثبتت أثمان الحاجيات بعدما كان التجار يتلاعبون بها كيفما شاءوا . وقد كان لهذه السياسة أثر بعيد فى اليمن ، وأخذ بها معظم التجار وصاروا يمتدحون هذه الشركة ، ويثنون عليها أطيب الثناء . وقد اهتمت الحكومة الروسية كثيراً بأمر اليمن ، وصارت تسير بواخرها من أوديسا فى البحر الأسود إلى خليج فارس فى العجم ، فتمر هذه البواخر بالبحر الأحمر وتقف بالحديدة فى ذهابها وإيابها ، وتنقل البضائع والحجاج بأثمان بخسة لا تزاحم . وقد ضربت بعملها هذا ، السفن التجارية الصغيرة التى تسير بين شواطئ البحر الأحمر ضربة قاضية لأن أصحاب هذه السفن كانوا يستنزفون أموال التجار ، ويتقاضون منهم أجوراً غير معقولة لنقل بضائعهم ، ولذلك لما أتت هذه الشركة الروسية حول التجار نظرهم نحوها ، وانصرفوا عن غيرها ، ولا تأتى سفينة روسية إلى الحديدة إلا وهى ملأى بشتى البضائع والحاجيات ، وتعود من الحديدة ملأى بالجلود والبن »[1] .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٨٠ .

وفى حقيقة الأمـر كان التقـارب اليمنى السوفيتى يمثل جـانباً من الصراع الدولى بين الاتحاد السوفيتى وبين الدول الغر بيـة وخاصة إنجلترا ، وقد بدأ هذا التنافس الدولى قبل ذلك بسنوات . فمن المعروف أن الاتحاد السوفيتى قد اعتمد له قنصلا فى جدة فى ١٩٢٤ لدى بلاط الملك حسين ، كما كان الاتحاد السوفيتى أول دولة اعترفت بابن السعـود ملكاً على الحجاز بعد طـرد الأسرة الهاشمية سنة ١٩٢٥ . وقـد حـاول هذا القنصل أن يعمـل من مقره فى جـدة ، على الاتصـال بالعناصر المتمردة غير الراضيـة فى حوض البحر الأحمر ، ونشر النفوذ السوفيتى . وبناء على اقتراحه ، بدأت السفن السوفيتيـة تبحر بانتظام سنة ١٩٢٧ فى البحر الأحمر وغيره لخدمة أغـراض الحج ، كما عرضت البضـائع السوفيتيـة فى الأسواق بحوالى نصف تكاليفهـا ، وفى سنة ١٩٢٧ افتتح فرع الشركة « التركيـة الروسية » فى جدة ، لكن سرعـان ما عطل ابن السعـود نشاطها كما ذكـرنا . وقـد أدى هذا النشـاط إلى عقد المعـاهـدة مع السـوفييت فى أول نوفمبر سنـة ١٩٢٨ ، وتعيين قنصل تجارى فى صنعـاء . ولكن إنجلترا إنقاذاً لمصـالحها فى الجزيـرة العربيـة ، ومنافسة للنفـوذ السوفيتى الممتد هناك ، سارعت إلى رفع مفـوضيتها فى جدة إلى درجة سفارة ، وقد قـامت بهذه الحركة حتى تضمن لوزيرها المفـوض هناك مركز عمادة الهيئة الدبلوماسية فى بلاط الملك ابن السعود[١] .

أحوال الإمام بعد حوادث سنة ١٩٢٨ :

فى نهايـة عام ١٩٢٨ ، أصبح وضع الإمـام السياسى محـــدوداً إلى درجـة كبيرة ولكن لم يكن هــذا التحــديد يعنى الاستقــرار أو الـوصــول إلى حلـول وأوضـــاع مـرضية . فقد وصلت العلاقـات اليمنية الإنجليزية حينئـذ إلى حالة أكثر وضوحـاً ، إذ أعادت إنجلترا حدود محمياتها إلى ما كـانت عليه أيام الحكم العثمانى لليمن وذلك بقـوة طائراتها . وقـد أرضاها هـذا الوضع الـذى وصلت

---

(١) Survey of International Affairs, 1939 - 1946 : pp. 488 - 489

إليـه ، فمما لا شك فيه أن دخـول الإمـام المحميات أثـر على النشاط التجـارى البريطانى مع الحديدة ومع الـداخل - سواء فى المحميات أو فى اليمن - وذلك منذ ١٩١٩ حتى ١٩٢٨ - ممـا أعطى الفرصـة لازدهار نشاط قـوى أخرى مثل النشاط الإيطالى والأمريكى[١].وكانت هذه المنافسـات تضايقها كثيراً فهى دولة تجاريـة أساسـاً ، كما كانت تعتبر تلـك الجهات مجالا لنفـوذها الخاص ، لـذلك كانت تطمع فى إقرار الأوضاع ، ولكن بما لا يتعارض مع مصالحها ونفوذها . أما الإمام فقـد كان مجبراً - أمـام الهزائم الحربية على حـدود المحميات - على طلب فتح بـاب المفـاوضـات مع إنجلترا ، وذلك فى سبتمبر سنـة ١٩٢٨ لتســويـة الأوضاع بين الدولتين[٢] .

وفى نفس الوقت كـان وفد الإمام إلى مكـة قد عاد دون الوصـول إلى نتائج حاسمة ، وظل الوضع معلقاً بين الدولتين - اليمنية والسعودية - منذ أواخر عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٣١ ، عندما وقعت حادثة جبـل « العَرو » . وظل الطرفان - خـلال هـذه الفترة - يحـــاولان تقـويـة قبضتهما على مـا تحت أيـديهما من الممتلكات ، وقد ارتضيا بقـاء الوضع الراهن على ما هو عليـه ، أملا فى الوصول إلى وضع نهائى مستقر .

أما من الناحية الدولية ، فقـد أصبح للإمام معاهدتان مع دولتين كبيرتين : مع إيطـاليـا سنـة ١٩٢٦ ، ومـع الاتحاد السـوفيتى سنـة ١٩٢٨ . ونحب بهذه المناسبـة أن نؤكـد أن الإمـــام لم يكن يهتم بـالناحية الـدولية إلا اهتمامـاً ضئيلا للغاية ، ولم يكن ينظر إليها إلا كوسيلة لحل مشاكله وتدعيم مركزه دون أن يؤمن بفوائدها الأخرى فى تطـوير بلاده . وهذا يعنى أنه لم يعقـد هاتين المعاهدتين إلا تحت ضغط ظروف معينـة دون إيمان منه بضرورة إقامة عـلاقات دبلومـاسية مع البلاد الأخرى .

---

(١) Survey of International Affairs, 1928, p. 312.

(٢) Ibid : 1928, p. 317.

ولم تكن أحداث اليمن الداخلية منفصلة عن باقى أحداث حياة الإمام السياسية ، بل لا يمكن فهم سياسة الإمام الخارجية إلا إذا تتبعنا الأحداث الداخلية جنباً إلى جنب مع باقى أحداث الإمام ، ذلك أن كلا من الناحيتين يتبادل التأثير فى الأخرى ، فذبذبات الوضع الداخلى هى تعبير عن أحداث السياسة الخارجية ، التى تؤثر بالتالى فى ظهور الذبذبات نفسها .

ويتضح هذا التأثير المتبادل والفهم الخاص له ، إذا تتبعنا أحداث اليمن بعد استقرار الأوضاع مؤقتاً على الحدود الجنوبية عام ١٩٢٨ ، ودققنا النظر فى ملاحظة التوافق الزمنى بين أحداث الداخل والخارج . ففى أواخر سنة ١٩٢٩ ، أى بعد إخماد ثورة الزرانيق ، أرسل الإمام حملة لإخضاع الجهات شرقى صنعاء . وكانت هذه البلاد لم تخضع بعد لحكمه ، وكانت تتمتع باستقلالها تحت حكم رؤسائها . ويقول الجرافى عن هذه الحملة : « وفى سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩) تم فتح بلاد « الجوبة » و « حريب بيحان » من مشارق اليمن ، وقد سار إليهما الشريف عبد الله الحمزى الذى رتب أحوالهما ، وقد وظف الإمام بهما العمال والحكام »[1] . واستمرت محاولات الإمام هذه « ففى سنة ١٣٥١ هـ (أواخر سنة ١٩٣١) سار عبد الله الوزير وعبد الله الحمزى وعدد كبير من رجال الجيش النظامى لفتح « مأرب » فدخلوا من بلاد « خولان » وكانت طريقهم من «صرواح » . وقد استولى الجيش المظفر على « مأرب » بعد معارك دامية اشتبك فيها الجيش اليمنى مع قبائل « عبيدة » بوادى « ذنقة » وقد احتل الجيش الإمامى المراكز الرئيسية »[2] .

ولم يقتصر أمر هذه الحملات على بلاد الشرق لإتمام فتحها وإخضاعها لحكم الإمام ، بل أرسل بعضاً منها إلى جهات أخرى حتى يضمن خضوعها لحكمه « ففى ١٣٥١ هـ (أواخر سنة ١٩٣٢) سار سيف الإسلام أحمد

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٤٠ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٤١ .

لتأديب قبـائل « دهـم » الذين لم يـدخلـوا فيما دخل فيه قبـائل اليمن من تسليم رهائن الطاعة ، ولا أمنت بلادهم من طغيان أهل الفساد ، ولما وصل إلى الجبل الأسود الـذى وراءه أرض قفر تمتد حتى الجوف ويحصل فيها السلب والنهب ، أمر ببنـاء ثكنات للجنـود يقيمون فيهـا لحفظ الأمن ، ولضمان استقـرار الحالة ، ومنع أرباب الفساد من ارتكاب الإجرام .. وسرعان ما وصل إليه أشراف الجوف ورؤساء « ذى حسين » وغيرهم ، فأخبرهم أن الغـــاية والغرض من مجيئه مـا هو إلا إصـلاح أهل البلاد ، وتأمين الطـرقـات ، وإقامـة الشريعة المطهـرة . وطلب منهم الـرهائن المختارة فأذعنـوا لما طلب ، ثم ظهـر الخلاف من « ذى حسين » أهل جبل « برط » فـزحف عليهم الجيش المتوكلى وهزمهم شر هزيمـة ، وقد مثل بين يـدى ولى العهد أكـابـر « ذى نـوف » الذين ليس لهم عمـل إلا غزو قبـائل المشرق ، وقد تمتـد غزواتهم فى بعض الأحيـان إلى نجد ، ولهم فى ذلك حكـايات غـريبـة .. وبلغت الرهـائن من « ذى محمـد » و « ذى حسين » و « بنى نـوف » نحـــــو ٣٠٠ شخص ، وأرسل ولى العهد بعض من يثق بهم من أفـراد الجيش لحصر عدد المواشى والنخـيل فلم يعترضهم أحد. وفى ذى القعدة سنة١٣٥١هـ (مارس ١٩٣٢) بلغ سيف الإسلام ولى العهـد أن شرذمة من « وائلة » التابعين لذى محمد لم يسلكوا مسلك الطاعة فأمر عامل « برط » بالزحف عليهم ، فتقدم على رأس قـــوة إلى محـــــل « الفرع » فاستنجدوا بقبـــائل « يام » وخـرجوا إلى أطراف « الفرع » واشتعلت نار الحرب بين الفـريقين . وواصل ولى العهد إرسال الإمـدادات فانهزمت « يـام » وفر رجـالها ، ولم يقفـوا إلا فى « نجران » . ثم أعـد سيف الإسلام ولى العهد الجيـوش الجـرارة وأمر بـالزحف على وادى « نجران » وفى محرم سنـة ١٣٥٢ هـ (أبـريل - مـايـو ١٩٣٣) تقدم الجيش المتـوكلى على نجران ودخلها عنوة ، وفرت قبـائل « يام » منها لا تلوى على شىء وغنم الجيش كثيراً من أموال المكارمة »[1] .

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٤٣ .

ورغم أن الجـــرافى - يمنى الأصــل - مؤرخ نصب نفســــه للدفــاع عن الإمام يحيى ، إلا أننـا حرصنا على ذكـر روايته نفســها عن محـــــاولات الإمام لإقرار السلام وفـرض سيطرته داخـــل اليمن ، وهى محاولات ذات صفـة حربية عنيفـــة .

ورغم أنه يبدو من هـذه الرواية أن هذه الجهات متمـردة ثائرة ، وأن الإمام يقـوم بواجبـه الشرعى ويلجأ إلى العنف لإخضـاعها لسيطـرتـه ، إلا أن الروايـة نفسهـا توضح بين طيـاتها حالـة هذه القبـائل وسبب ثوراتها ، وسيـاسة الإمـام تجاهها واستيلائه على الغنائم والرهائن منها .

حادثة جبل « العرو » سنة ١٩٣١ على الحدود اليمنية السعودية :

تجددت الأزمـات الحادة بين الإمـام يحيى والملك ابـن السعـود بعـد فشل البعثة اليمنيـة إلى مكة سنة ١٩٢٨ ، عندمـا وقعت حادثة العـرو فى صيف سنة ١٩٣١ . فقد حدث أن احتلت قوات الإمـام جبل « العرو » على حدود عسير ، وأخذت بعض الرهائن ، كما حـرضت القبائل على التخلى عن ارتباطهم مع ابن السعود[١] .

وهـذه الحـــادثة فى حد ذاتها تعبر عن أمـور بـالغة الأهميـة ، فحتى ذلك الـوقت لم تكن هناك حـدود معينة ثـابتة يمكن أن يقف عنـدها نشـاط كل من الطرفين ، كما لم تكن هنـــاك كذلك خرائط معتمــدة يمكن الرجـــوع إليهـــا عـــند وقـوع اخـــتلاف أو تعـدّ[٢] . وتدل هـــذه الحـادثة كذلك على أن أهـالى هذه المنـــاطق لم يكونوا قـــد استقروا بعـــــد على وضـــع معين سواء تحت حـــكم الريـاض أو صنعاء ، ممـا كان يتيح الفـرصة لكـلا العاهلين أن يـدعى

---

(١) Survey of International Affairs, 1939 - 1934, p.313.

(٢) Philby O Saudia Arabia, p. 322.

لنفسه حكم هذه الجهات . وكان لكل منهما حججه وبراهينه ، وكانا ينظران إلى هذه البقاع التى تقع على الحدود المشتركة وكأنها ملك مستباح فلا مالك لها ، وبالتالى فعلى الطرفين أن يتسابقا فى وضع أيديهما عليها ليضع كل منهما الآخر أمام « الأمر الواقع » خاصة وأن كلا الطرفين كان يؤمن ضمنيًّا بسياسة بقاء الوضع الراهن على ما هو عليه إلى أن تتم تسوية نهائية . ونتيجة لهذا كله وقعت حادثة « العرو » وكان من الصعب حينئذ تحديد الجانب المعتدى ، وإن كان قد اتضح فيما بعد أن اللوم يقع على القائد السعودى الذى انتهك حرمة الحدود اليمنية على غير قصد منه(١) . فقد حدث أن أرسل أمير « جيزان » السعودى إلى مليكه يخبره أن قوات الإمام يحيى قد تقدمت إلى جبل « العرو » التابع للمنطقة الإدريسية ، وأخذت الرهائن من أهله ، وأن عمال الإمام يحيى يرسلون الكتب إلى رؤساء قبائل المقاطعة يدعونهم فيه إلى الطاعة للإمام يحيى ، ونقض عهدهم مع الملك ابن السعود وذلك بصورة صريحة .

وهنا بدأ الملك ابن السعود يراسل الإمام ، وأخبره أنه يستبعد أن يكون هذا التعدى نتيجة صدور أوامره بالزحف إلى جبل « العرو » فأجابه الإمام بأن أهالى العرو هم الذين طالبوه بالتقدم إليهم (لتعليمهم الدين) ويستسمحه إذا كان قد حدث تعدٍّ على المناطق المشمولة بالحماية السعودية .

وهنا اقترح الملك ابن السعود عقد مؤتمر من مندوبى الطرفين لتسوية المشكلة . وبدأت الاجتماعات بالفعل ، وجرت المفاوضات ، ولكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة قاطعة ، مما دفع الإمام إلى أن يرسل للملك ابن السعود ،

---

(١) Philby : Saudi Arabia, P. 322.

بأنه يترك حل النزاع بين يديه ، وذلك بعد فشل المندوبين فى الوصول إلى حل حاسم مقبول[١] .

وبعد هذه الاتصالات والمفاوضات الطويلة التى امتدت إلى نهاية العام (١٩٣١) وافق الملك ابن السعود على التخلى عن مطالبه فى هذه البقعة ، وتنازل عنها للإمام يحيى . وتلا ذلك عقد عدة اجتماعات بين مندوبى الطرفين مرة أخرى لعقد معاهدة صداقة وحسن جوار ، وقعت فى ١٥ ديسمبر ١٩٣١[٢] . (انظر ملحق ٩) .

وقد عبر العاهلان عن فرحهما وتقبلهما لمواد المعاهدة ، وأبرق الإمام يحيى بموافقته للملك ابن السعود الذى رد عليه فى ١٥ رمضان سنة ١٣٥٠ (يناير سنة ١٩٣٢) بالموافقة أيضاً ، إلا أنه طلب منه أن يرسل مندوبين للتفاوض معهم بشأن بعض الملاحظات على المعاهدة ، فقبل الإمام ولكنه طلب تأجيل سفرهم إلى موسم الحج أى فى ذى الحجة سنة ١٣٥٠ هـ (أوائل أبريل سنة ١٩٣٢) . وقد كانت هذه المراسلات تحمل روح الود والصداقة وتدل على التفاهم التام[٣] . ويتضح من قيام هذه المشكلة وما انتهت إليه ، عدم رغبة كل من الإمام والملك فى توسيع المشكلة وأخذها مأخذ الجد ؛ إذ سرعان ما وافق الملك ابن السعود على التنازل عنها كما رأينا ، كما وقف الإمام منها نفس الموقف إذ ترك حل الأمر بين يدى الملك ابن السعود ، وكان لا يفعل ذلك أبداً إذا كان الأمر ذا أهمية بالنسبة له ، أو إذا كان قادراً على الوقوف موقفاً أكثر إيجابية وحزماً . وإننا نرجع سبب وقوف

---

(١) وزارة الخارجية السعودية : بيان العلاقات اليمنية السعودية (الكتاب الأخضر) ص ١٦ .

(٢) Survey of International Affairs, 1934, p. 313.

(٣) وزارة الخارجية السعودية : الكتاب الأخضر ، ص ٢٤ - ٢٥ .

الملكين هذا الموقف المتهادن السلمى إلى أنهما لم يريدا الدخول فى حرب غير مضمونة من أجل بقعة أرض صغيرة غير ذات أهمية كبيرة على الحدود ، إلى جانب ما كان لكل منهما من مشكلات خاصة . فابن السعود لم يكن - كما يذكر فيلبى - بالحاكم الذى يندفع من أجل تحديد دقيق لحدود أرض بلا مالك ، حيث إنه كان يؤمن بضرورة ترك مثل هذه الأماكن لاستقلالها الواقعى -الفوضوى بعض الشىء - حتى تؤدى أوضاعها الداخلية الخاصة إلى وقوعها تحت سلطته ليتمكن من مباشرة سلطاته فيها كاملة[١] . لذلك لم يتحمس كثيرًا للتشدد مع الإمام يحيى . أما بالنسبة للإمام فلم يكن أمامه كذلك إلا أن يكون مسالماً غير متحمس للدخول فى توتر جديد مع ابن السعود من أجل جبل « العرو » فضلاً عن مشكلاته فى الجنوب مع إنجلترا .

مفاوضات اليمن مع إنجلترا والسعودية :

كانت إنجلترا قد نجحت فى هذه الأثناء فى العمل على جمع هذه الجهات مرة أخرى تحت سيطرتها ونفوذها ، بعد أن تخلخل هذا النفوذ خلال السنوات السابقة التى تلت الحرب العالمية الأولى . فعملت على عقد مؤتمرين فى خلال ١٩٢٩ ، ١٩٣٠م ، فى لحج حضرها سلاطين وأمراء ومشايخ هذه المحميات ، ووقع المجتمعون ميثاق التضامن « على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » وتشكيل مجلس تحكيم لحل مشكلاتهم بصورة ودية . وقد افتتح المؤتمرين والى عدن ، ولكن رأس جلساتها سلطان لحج . كما كان والى عدن ورجال حكومته وضباط الطيران البريطانى على رأس المدعوين فى الحفل الذى أقامه سلطان لحج فى حديقة قصره بهذه المناسبة .

---

(١) Phiby : Saudi Arabia, P. 321.

وكـانـت انجلترا كذلك قـد أجبرت الإمـام على إخـــلاء ســبيل رهـائن المحميات حسب تعهداتـه السابقة فى « يوم ٢٠ رجب ١٣٤٩هـ (أكتـوبر سنة ١٩٣٠) وكان يومًا تاريخيًا فى لحج »[١] .

وقد اتصفت علاقة الإمام مع انجلترا -بعد حوادث سنة ١٩٢٨ العنيفة- بالهدوء وسلـوك طريق المفاوضات ، فقـد اقـترح الإمـام فتح بـاب المفـاوضات بين الطـرفين وذلك فى سبتمبر سنـة ١٩٢٨ . وقـد أدت هـذه المفـاوضـات إلى اقتراح عقـد معاهـدة،وعهد إلى بـريطانيـا « أن تضع الأسس المناسبـة للتعاقـد بشأنها » وذلك فى أكتوبر سنة ١٩٣١ . ولكن الإمـام قام باحتلال جزء من إقليم « العوذلى » مرة أخرى ، بعد أن كان قـد خرج منه أثناء أحداث ١٩٢٨ . وقبض الإمام على حوالى أربعين رهينًا ، إلا أن هـذا لم يمنع من استمرار المفاوضات بين البلدين . وقد صرح نائب وزير المستعمـرات فى مجلس العموم فى ٢٨ يونية سنة ١٩٣٣ . بأن هناك ثلاثة شروط لعقد المعاهدة هى :

أولاً : الجلاء عن كل إقليم المحمية .

ثانيًا : الإفراج عن رجال قبائل المحمية .

ثالثًا : رفع القيود عن التجارة بين اليمن ومحمية عدن[٢] .

وقد أدى الـوصول إلى تسـوية مرضيـة ، واتفاق على هـذه النقط ، إلى عقد المعاهدة بينهما فى فبراير سنة ١٩٣٤ ، وهو ما ستتناوله بالتفصيل فيما بعد .

صاحبت هـذه العلاقـات اليمنية الإنجليزيـة علاقـات أخرى بين اليمن والسعودية ، واتخذت كذلك شكل المفاوضات فى هذه الفترة بالذات .

فبعد أن انتهت حادثة جبـــل العرو إلى النتيجة التى رأيناهـــا ، رأى الملك ابن السعود استئنـاف المفاوضات حتى يصل الطرفـان إلى تسوية نهائية بـالنسبة

---

(١) العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢) Survey of International Affairs, 1934, p.309 .

للحدود . وقبل أن يرسل للإمام مندوبين للتفاوض معه فى هذا الشأن ، قام « ابن رفادة » بثورة داخلية فى شمال الحجاز فى مايو سنة ١٩٣١ ، مما عطل إرساله المندوبين . وقد انشغل ابن السعود فى إخمادها ، وزاد الطين بلة أنه اكتشف أن بعض ثوار الشمال سالفى الذكر ، وجدوا فى اليمن ملجأ سياسيًّا يساعدهم على استمرار القيام بأعمال الثورة ، واتخذوا ميناء «اللحية» اليمنى القريب من الحدود السعودية مركزًا لنشاطهم ضد الملك ابن السعود[1] . وقد خوطب الإمام فى أمر هؤلاء الثوار فكان رده غير قاطع ، بل طلب من الملك ابن السعود الموافقة على أن يجير هؤلاء اللاجئين ، وأعرب عن عدم قدرته على منع هؤلاء من القيام بأعمالهم العدائية ، وبث الدعاية ضد ابن السعود . وقد زاد هذا من ضيق الملك ابن السعود إذ كان يعتبر ذلك ضد معاهدة « العرو » (١٩٣١) التى تنص على تسليم اللاجئين إلى حكومتهم، لهذا أرسل إلى الإمام خطابًا مؤرخًا ٨ جمادى الثانى ١٣٤١هـ (نوفمبر سنة ١٩٣١) يقترح فيه وضع تسوية قاطعة لهذه المشكلات جاء فيه .. « إن أكبر ما نخشاه بقاء الحال على حالها الحاضر ، وهذا ليس فيه مصلحة عاجلة ولا آجلة لنا ولكم ، ولا للعرب ولا للإسلام ولا المسلمين . ومن أجل هذا أوفدت الذين يحملون كتابى هذا لأعرض على الأخ وضع اتفاق بيِّن يثبت: **أولاً** : الحدود فيه بيننا وبينكم ، بشكل بيِّن واضح لا يحتمل التأويل والشك . **ثانيًا** : أن نتفق على التساعد والتعاضد فى سائر المواقف العدوانية التى تكون علينا وعليكم سواء من الداخل أو الخارج ، وذلك على شروط أساسات بيِّنه وفى حالات معينة نبينها . **ثالثًا** : نبين موقف صلات أمراء حدودنا وحدودكم ، وصلاحيتهم فى المخابرات ، ومساعدة بعضهم بعضا فى الأمور التى هى من صلاحياتهم ، ويكون الرجوع إلينا وإليكم فيما فوق ذلك من الأعمال . **رابعًا** : يسرى هذا التعاقد بيننا وبينكم ونتعهد عليه نحن وإياكم

---

(١) Survey of International Affairs, P. 314, Brémond 0 Yémen et Saoudia, P. 104,

على أنفسنا وأنفسكم وبلادنا وبلادكم وورثائنا وورثائكم ويصبح أمرنا واحدا وكلمتنا واحدة وعائلتينا كأنها عائلة واحدة مصداقًا لقوله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ . وهذه أهم الأسس التى نرى أن يتم الاتفاق بيننا وبين الأخ عليها »[١] . وقد وافق الإمام على حضور المندوبين ، كما رحب بهذه النقاط الأربع وأرسل إليه خطابًا فى ٧ رمضان ١٣٥١هـ جاء فيه : « وكل ما لديكم من الإحساسات التى أثارتها الحمية الإسلامية فذلك هو عين ما لدينا.. ونحن نوافق على ما أوضحتموه من الأربع مواد مع إلحاق ما يلزم ، إنما الذى فى النفس مسألة الحدود فهى المفتقرة إلى حسن النظر ، فالمرجو من حضرتكم عطف النظر إلى ذلك .. »[٢] . وهكذا قبل الطرفان أن يتقابل مندوبهما للتفاوض فى وضع تسوية نهائية للمشكلات القائمة بينهما ، إلا أنه حدث ما لم يكن فى الحسبان مما عطل هذا التقابل وأخره إلى حين ، فقد قام الأدارسة بثورة ضد الحكم السعودى في نوفمبر سنة ١٩٣٣ . وهنا يحسن الوقوف قليلاً لبحث أسباب هذه الثورة .

ثورة الأدارسة :

عرفنا أن الإمارة الإدريسية قد شملت فى حياة محمد الإدريسى(١٨٧٦ - ١٩٢٣م) عسير وتهامة اليمن إلى جنوب ميناء الحديدة ، ولكن الإمام استطاع استرداد تهامة حتى « ميدى » ولم يستطع التقدم أكثر من ذلك لدخول حسن الإدريسى فى حماية ابن السعود حفاظًا على ما تبقى له من الإمارة وذلك فى أكتوبر سنة ١٩٢٦ . إلا أن ابن السعود قام بخطوة أكثر إيجابية فى سبيل تقوية قبضته على الإمارة الإدريسية التى تحت حمايته حتى يأمن سلامة حدوده . فقام فى نوفمبر ١٩٣٠ بتحويل حمايته على الإمارة الإدريسية إلى نظام أصبح حسن الإدريسى فيه مجرد رمز فقط ، ووضعت

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص٣١ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٣٢ .

الإمارة تحت إدارة موظفى ابن السعود مباشرة . وقد ضايق هذا السيد حسن الإدريسى ، فقام بتحريض القبائل العسيرية على الثورة ، واستطاع بمساعدتها أن يهاجم ميناء جيزان فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٢ .

وفى ١٧ نوفمبر دخل الإدريسى المدينة وقبض على الأمير السعودى وسجنه ، وأرسل فى نفس الوقت إلى الملك ابن السعود يعترف له بما حدث ، ويتهم أمير جيزان السعودى فهد بن زعير ، ويعلن شكه فى ولائه . فاقترح ابن السعود إرسال لجنة للتحقيق فوافق الإدريسى ، ولكن اللجنة رأت فى تقريرها أن الإدريسى مستعد للمقاومة ومتحفز لها . وهنا قامت القوات السعودية بمهاجمة « جيزان » وتمكن من احتلالها ثانية ، فتقهقر الإدريسى إلى صبيا ، ولكن القوات السعودية أخرجته منها قبل نهاية فبراير سنة ١٩٣٣ ، ففر حسن الإدريسى عبر الحدود إلى اليمن والتجأ به . وفرار الإدريسى لا يجعل دخول ابن السعود « جيزان » و « صبيا » مرة أخرى انتصارًا حاسمًا على الثورة الإدريسية ، لأن قائد الثورة أصبح بعيدًا عن متناول يده ، كما هربت بقايا القبائل الثائرة إلى جبال جنوب عسير على الحدود . أى التجأوا إلى معاقل من الصعب مطاردتهم فيها حيث إنهم أكثر خبرة بمسالك هذه الجبال ، وأكثر تمرنا على الحرب فيها من الجيش السعودى ، لهذا ظلت الثورة الإدريسية مسألة شائكة أمام الملك ابن السعود ، وكان لا بد من القضاء على عناصرها حتى يأمن شرها ، لذلك احتل تسليم الإدريسى جانبًا كبيرًا من المفاوضات اليمنية السعودية .

طالب ابن السعود الإمام يحيى بتسليم اللاجئين من الأدارسة ، وبدأت المراسلات بينهما بهذا الخصوص ، ولكن الإمام كان دائمًا يطلب العفو لهؤلاء اللاجئين ، فاتفق الطرفان أخيرًا على عقد مؤتمر بين مندوبيهما فى « ميدى » . وظهر فى هذه الأثناء تسوية - رفضها الأدارسة وبالتالي الإمام - ترمى إلى بقاء الوضع كما كان عليه قبل نوفمبر سنة ١٩٣٠ ، عندئذ أعلنت الحكومة

السعودية من ناحيتها فى ١٤ أبريل سنة ١٩٣٣ ، أن الملك ابن السعود وافق - دون أن يتعارض ذلك مع معاهدة العرو - على بقاء السيد الإدريسى فى إقليم من أقاليم الإمارة بشرط أن يقدم الإمام ضمانًا لحسن سلوك الإدريسى وتصرفاته ، على أن يدفع ابن السعود مرتبًا شهريًا للإدريسى[1] .

وكانت هذه التسوية نتيجة موقف الإمام ، فقد أظهر رغبته فى التوسط لهؤلاء اللاجئين ، وكان الملك ابن السعود يهمه أولاً وقبل كل شىء أمرين ذواتىْ أهمية بالغة : أولهما : المحافظة على صداقة الإمام ، أو بمعنى أدق عدم إثارة مشكلات جديدة على حدوده مع الإمام حتى يتفرغ لمشكلاته الخاصة ، وثانيهما، عدم قيام الإدريسى بأعمال عدائية ضده ، ويهمه - حتى يضمن ذلك - أن يكون الإدريسى تحت قبضة يده ولكن إزاء رفض الإمام قبل ابن السعود وجود الإدريسى لدى الإمام بشرط ضمان عدم قيامه بنشاط عدائى ضده . أما من ناحية الإمام فكان يرى أن وجود الإدريسى تحت قبضته فرصة ذهبية ومكسبًا كبيرًا بالنسبة لعلاقاته مع ابن السعود ، إذ يمكنه أن يساوم ابن السعود دائمًا بالأدارسة ، كما يمكنه أن يهدد بدفعهم إلى إثارة متاعب للسعودية على الحدود فى عسير ؛ وبالأحرى كان الإمام يرى بقاء الأدارسة فى اليمن تهديدًا مباشرًا لجاره الملك ابن السعود ، وأنهم ورقة رابحة فى يديه يمكن أن يلوح بها للحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب .

انتهت أزمة الإدريسى بالصورة التى أوضحناها ، ولكن هذا لم يكن يعنى الوصول إلى عقد تسوية نهائية ، فأرسل ابن السعود إلى الإمام يسأله عما إذا كان قد غير رأيه بالنسبة لإرسال وفد إلى صنعاء لعقد اتفاق نهائى ؛ فأجاب الإمام بالنفى ، ورحب بقدوم الوفد السعودى إلى صنعاء ، بل

---

(١) Survey of International Affairs, 1934, p. 315.

عبر عن رأية فى أن يطلق الملك ابن السعود العنان لوفده لحل كافة الأمور بين الجانبين خاصة مسائل الحدود[1] . وقد وافق ابن السعود على إرسال الوفد بالرغم من أن مشكلة نجران كانت قد بدت فى الأفق ؛ بل كان الإمام قد بدأ فى احتلالها فعلاً .

النزاع حول نجران :

بدأت مشكلة « نجران » كمشكلة قائمة بذاتها عندما تقاربت الحدود بين الدولتين سنة ١٩٢٦ ، وعندما دخلت عسير فى حماية الملك ابن السعود ، ولكن وضعها ظل شائكًا مضطربًا منذ ذلك الوقت ؛ إذ تمسك أهلها باستقلالهم . ورأى ابن السعود - بالرغم من أنه كان يرى أنها جزء من نجد أن تظل متمتعة باستقلالها الذاتى حتى تظل حاجزًا بين أملاكه وأملاك الإمام ، ولكنه كان فى نفس الوقت لا يقبل أن تقع « نجران » تحت نفوذ منافسة الإمام . إلا أن أحداث اليمن الداخلية أدت إلى التوسع فى نجران نفسها ؛ أو هكذا يحب المؤرخون اليمنيون تفسير دخول القوات الإمامية نجران ، بعكس السعوديين الذين رأوا أن دخول القوات الإمامية نجران كان اعتداء واضحًا على الأملاك السعودية ، فقد ذكر الجرافى - كما رأينا - أن ولى العهد سيف الإسلام أحمد ذهب إلى حدود بلاده الشمالية لإقرار الأمن هناك وتنظيم أمورها ، ولكن أعماله الحربية هناك أدت إلى فرار إحدى القبائل إلى نجران واستنجادها بقبائل « يام » التى انهزمت وفرت إلى (نجران) نفسها ، مما دفع سيف الإسلام إلى ملاحقتها حتى هناك بجيوش جرارة فهزمها وغنم منها الكثير وذلك فى محرم سنة ١٣٥٢هـ (مايو سنة ١٩٣٣) . « وفى شهر جمادى الأولى من هذه السنة (أكتوبر سنة ١٩٣٣) أرسل ولى العهد فرق

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ؛ ص ٣٣ .

الجيش المتوكلى إلى وادى (نشــور) ثم أصـدر أمره إليها بـالزحف على مـدينة (بدر) (وهى المدينــة الثـانية الهـامة في نجـران) فوســع ذو الأغـــراض الخــلاف بـين حـكومتى اليمن ونجــد ، وكان ما كان من إرســال البعوث بين الطـرفين ، حتى تفاقم الشر وبـدأت الحرب بين الحكـومتين العربيتين فى تهامـة وجبال عســير ونجران ... »[1] . وهكذا أظهر الجرافى - اليمنـى - أن دخــول القـوات اليمنية كـان نتيجــة وجــود اضطـرابات داخليـة فى اليمن أدت إلى مطاردة المتمـردين - ومن استنجـدوا بهم - فى نجـران نفسهـا . كما ذكر الجرافى أيضًا - وهـذا يتضح فى أثنـاء المفاوضات - أن دخول نجران كـان بحجة إقرار السـلام ، وتعليم أهلها أصـول الـدين الإســلامى . وقبـائل (يام) هـذه التى تقطن نجـران ، تقـع بـلادهم على مسـافــة ١٨٠ ك.م. من (أبها) فى الجنـوب الشرقى ، وعلى مسافة ٧٠ ك.م. من صعدة في الشمال الشرقى .

وتعـد نجران من القطـاعـات الهـامة في الجـــزيرة العـــربية ، ومن أهـم مـدنهـا (نجـــران) و (بدر) وتقع مدينـة نجـــران على وادى نجـــران الذى تنحدر إليه ســـيول بلاد قحطان وجبـال نجــران فى الشـــرق . وقبائل (يام) تدين بالمذهب الإسماعيلى ، وهـو من المذاهب الباطنية ، وشـــيخ مشـايخ هذه القبائل يسمى (هبـة الله) وهو ذو شخصية هـامة ، ويجمع بين رياســـة قبائل (يام) الإداريـة والدينية ، ومنهم قبـائل تسكن مقاطعـة (حــراز) و (منـاخة) داخل اليمن ، ولهم فيها أملاك ونفوذ ، ويسمى رؤساؤهم هناك باسم « الداعى » وهم على طرفى نقيض مع الزيـدية . ويعيشـــون على ذرى الجبـــال المنيعـــة ، وللدعـاة منازل ضخمة البناء ذات طبقـات متعددة ، مقـامة فى مواقع منيعـــة وعليها أبراج قوية للدفاع عنهـــا . والدعـاة فى اليمن يتبعـون مشـيخة (يام) فى عســير ، ويأتون بربع أمـوالهم إلى الشـيخ هبـة الله . وقـد حـاول الإدريسى

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٤٤ .

ذات مرة أن يتفق مع قبائل « يام » ضد الدولة العثمانية فلم يوافقه هؤلاء على ذلك خوفًا على مصالحهم فى جبل (حراز)[١] .

وكيفما كان الأمر ، فقد كانت وجهة النظر اليمنية فى دخول نجران تخالف وجهة النظر السعودية ، التى كانت ترى أن دخول الواحة عبارة عن اعتداء يمنى عليها . وكان لوجهة النظر الأخيرة صدى فى بعض الجرائد المصرية حينذاك ، فذهب المنار إلى أن « دخول نجران ومحاولة تحريض القبائل فى عسير والهجوم عليها سببه الرئيسى هو ولى العهد الشاب العسكرى المتوثب (هو الإمام أحمد فيما بعد) وأنه هو الذى قد يكون يزين لأبيه أن الفرصة سانحة للتحريض ، وأن على الجيش المتوكلى احتلال ما يريد احتلاله من البلاد لوضع الملك عبد العزيز أمام الأمر الواقع كما حدث فى جبل العرو ، فيضطر للاعتراف به لما هو عليه من العسرة المالية التى تحول دون تجهيز جيش عرمرم يكافح به الثورة الجديدة ، وما وراءها من الجيش اليمنى مع شدة حرصه على اتفاق الحكومتين »[٢] .

ولكن دخول نجران كان مثارًا لتوتر جديد على كل حال ، فقد دفعت شكوى أهالى نجران ابن السعود إلى اتخاذ موقف حازم ، فأرسل قائده خالد بن لؤى - بطل معركة « تربة » - إلى هناك بجيش كبير من الإخوان ، ولم يثبت الجيش اليمنى فعاليته أمام هذا الهجوم السعودى ؛ إذ انسحب بعد قتال خاطف[٣] .

---

(١) الأهرام : العدد الصادر فى ٢٤/ ١/ ١٩٢٥ ، ص ٢ (من مقالة بعنوان مذكراتى عن بلاد العرب للفريق سليمان شفيق كمال باشا أحد نظار وزارة الحربية العثمانية) .

(٢) المنار : الجزء ٥ ، المجلد ٢٣ ، فى جمادى الأولى ١٣٥٢هـ (سبتمبر ١٩٢٣) .

(٣) Philby : Arabian Jubilee, , P. 185.

أما الوفد السعودى إلى صنعاء ، الذى حضر إليها فى مايو سنة ١٩٣٣ ، واستمر بها حتى الأسبوع الأول من أغسطس سنة ١٩٣٣ ، فلم يتوصل إلى شىء بل لاقى صعوبات كثيرة ، طوال هذه الفترة(١) . فتذكر التقارير السعودية ، أن الوفد السعودى ما كان يدخل الحدود اليمنية من جهة « ميدى » حتى « شاهد معالم الزينة والفرح تعلنها الحكومة اليمنية رسميًا ابتهاجًا باحتلال نجران ، غير ناظرة إلى ما فى ذلك من عدم اللياقة والإنصاف ، وإلى أنه قد يقف عثرة فى سبيل الصداقة التى تعمل حكومة جلالة الملك على غرسها »(٢) .

المفاوضات اليمنية السعودية فى صنعاء :

وجدير بنا هنا أن نستعرض بعض ما جاء بمحاضر جلسات هذه المفاوضات بين الوفدين اليمنى والسعودى حتى نقف على حقيقة وجهة نظر كل من الطرفين ، ونعرف سير هذه الحر ب الدبلوماسية التى تحولت فيما بعد إلى حرب ساخنة .

عبر الوفد اليمنى فى الجلسة الأولى عن سبب موقفه السابق من ثورة الإدريسى ، فقال : « إن الحكومة اليمنية كان لا يمكنها السكوت إزاء هذه الثورة خوفًا من أن يلجأ الإدريسى إلى الأجانب ليستعين بهم فمن المعروف أن الأدارسة أعداء الإمام الألداء ، ولكنه قبل أن يلتجئوا إليه خوفًا من تدخل الأجانب ، على أن يفتح بعد ذلك باب المفاوضات بخصوصهم مع الملك ابن السعود » . ولكن الوفد السعودى كان له وجهة نظر أخرى ، فكان يرى أن الإدريسى فى حالته هذه يعتبر بؤرة فساد ومصدر خطر : « لأنه بمقدار رمية سهم من حدودنا (السعوديين) وعنده رجال مفسدون يعملون لإثارة الفتنة ، وهو عدونا وعدوكم ، ولا يتورع من إلقاء

---

(١) Survey of International Affairs, 1934,. P 316.

(٢) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٣٣ .

الفساد بين البلدين . وربما يقال إن بقاءه هناك نافع لكم ومؤيد لسياستكم فهذا قول عدو ، فنحن نجلب دقة نظركم (نظر الوفد اليمنى) فى هذا الخصوص اتفقنا أو لم نتفق فى المسائل الأخرى ، لأن بقاء الإدريسى فى هذا المحل خطر على السلم بيننا وبينكم . ولذلك نقترح عليكم إما أن يكون عندنا فى المدينة تحت ضمانة جلالة الملك أو يجلب إلى صنعاء ، فإن كان قصدكم إكرام الضيف فصنعاء بها الهواء العليل والماء السلسبيل فتحلونه محل الضيف الكريم . . »[1] . وقد كان الطرفان متفقين على أن الإدريسى مصدر خطر على البلدين ، وأنهما يخافا اتصاله بالأجانب ، ولكن الوفد اليمنى من ناحيته طمأن الوفد السعودى بأن الإدريسى لا يقوم بأى نشاط فى ذلك الوقت ، وأن الإمام أخذ عليه تعهد بذلك .

أما فى الجلسة الثانية وكانت خاصة بالحدود ، فكان الوفد السعودى يرى «أن مسألة الحدود لم تعد مشكلة بعد ، فمعاهدة العرو قد ثبتتها ، إذ لم يكن معقولاً أن تعقد معاهدة بين دولتين قبل الإقرار بالحدود » . وأننا نعتقد أن الوفد السعودى كان يعنى بحديثه هذا حرصه على بقاء الحدود القائمة كما هى ، وأن كل ما يريده هو عقد معاهدة يعترف بها الطرفان لتأكيد وتثبيت الوضع الراهن . ولكن الوفد اليمنى كان يرى غير ذلك ، فهو لم يعترف بعد بأن تكون عسير جزءا من السعودية ، بل يريدها لليمن ، ويرى أن الملك ابن السعود لم يعتبر عسير جزءًا من بلاده إلا لأن الإدريسى لجأ إليه ، بالرغم من أن الإدريسى أصلاً يعتبر غاصبًا لحقوق الإمام . أما وقد تغير الوضع الآن ، واختفى الإدريسى من المنطقة فلا بد أن ترجع الحقوق إلى أربابها ، أى إن على الملك عبد العزيز أن يعيد عسير إلى الإمام . ولكن الوفد السعودى قطع كل أمل أو طريق أمام الوفد اليمنى فى رجوع هذه البلاد إلى اليمن ، إذ كان يرى أنها ليست جزءًا من اليمن ، وعرض

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٣٨ - ٤٠ .

تاريخ اليمن وعسير ، وأثبت أن عسير كانت مستقلة تحت سلطة رؤسائها المحليين طوال تاريخها الإسلامى حتى قال : « . . هذه حقائق ثابتة لا نريد أن نبحث فيها ، ومع ذلك فالبلاد التي تحت يدنا هى اليوم فى يد حكومة عربية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، أخذتها بتضحيات جسيمة من مال ورجال ، وليست بأجنبية عنها لا فى اللغة ، ولا فى الأصل ولا فى الديانة ، ولا فى العقيدة ، فمتى تكلمنا فى هذا الباب لم نصل إلى فائدة معكم ، ولذلك لا نريد الخوض فى هذا . ومع هذا فنحن مستعدون - لرفع المشاكل بيننا - بأن ننظر إذا كان لكم اقتراح فى مبادلة وادٍ أو شعيب أو بعض قبيلة منقسمة تضم إلى أحد الطرفين فى مقابلة الشطر الآخر على الحدود ، فلا بأس أن نبحث فى ذلك ، وبعد درسنا الموضوع نفيدكم بالجواب ، إما سلبًا أو إيجابًا ، وغير هذا لا يمكن البحث فيه »[1] . وهذا يؤكد وجهة النظر السعودية ، ورغبتهم فى إقرار الوضع الراهن على الحدود كما هو ، مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة لمنع أى اضطراب فى المستقبل . وقد طلب الوفد السعودى فى الجلسات التالية إيجاد حل قطعى بالنسبة لمسألة الإدريسى، ومسألة نجران ، إلا أن رد الإمام على لسان وفده لم يكن قاطعًا .

وفى الجلسة الثالثة بالذات ، أخبر الوفد السعودى أن بعض القوات اليمنية دخلت « نجران » لضبط « بعض المواقع وتعليم الناس أمور الدين » لذلك بدأ الوفد السعودى يصر على الحصول على معلومات كافية عما حدث فى نجران ، كما أصر على أن يظهر الوفد اليمنى موقفه بصراحة فى مسألة نجران هذه . وقد أوضح الإمام غرضه من دخول نجران فى خطابه إلى الوفد السعودى والذى قرأه الوفد اليمنى فى الجلسة الثالثة وجاء فيه :

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٤٤ - ٤٥ .

« . . . وأى حكمة أو مصلحة دينية أو دستورية بإهمال أمر « يام » وتركهم يعيثون فساداً . وأى ضرر من إصلاحهم وارشادهم ورفع فسادهم وعدوانهم ، وأملنا أننا لو نحتاج إعانة لإكمال إخضاعهم لكان منا الاستمداد من حضرة جلالة الملك (يقصد ابن السعود) ... »[1] .

وأخيراً عاد الوفد السعودى إلى مكة بعد فشله فى المفاوضات ، وأرسل معه الإمام خطاباً إلى الملك ابن السعود يشرح فيه وجهة نظره فى مسألة الإدريسى ودخول نجران . فرد عليه الملك ابن السعود وطلب منه توضيح موقفه بصراحة ، وكان رداً قاسياً بعض الشىء ، مخالفاً قليلاً للروح الودية التى كانت تسود المراسلات السابقة بينهما . وسبب هذه اللهجة الجديدة هو طول المفاوضات - من ناحية - دون الوصول إلى نتيجة ، فى نفس الوقت الذى تقوم فيه الاضطرابات على الحدود - من وجهة النظر السعودية - نتيجة عدم وجود معاهدة نهائية لتسوية هذه الأمور كلها . ومن ناحية ثانية فإن تقرير الوفد السعودى الأخير الذى فشل فى مفاوضاته مع الإمام أثار ابن السعود ، وجعله يطالب الإمام باتخاذ موقف حاسم إزاء النقط المعلقة بينهما. فقد جاء فى تقرير هذا الوفد - وكانت لهجته كلها هجومية على الإمام - « ... ومع شديد أسفنا لعدم وصولنا إلى ما تمنيناه ، فإننا نعلن رضاء ضمائرنا من شىء واحد ، وهو أننا وفقنا إلى إزالة تلك الحال المبهمة بيننا وبين الإمام يحيى ، وأزلنا قناع الريب والنفاق بصورة لا تترك للشك مجالاً ، ولحكومتنا بعد الوقوف على الحقائق أن تختط منهاجاً ثابتاً تسير عليه فى المستقبل لأجل صيانة منافعها وحفظ أملاكها إلى أن تتبدل ذهنية القابضين على زمام الأمر فى اليمن ، وتأتى طوارق الحدثان بما تجبرهم على مصالحتنا ومسالمتنا ، ومعرفة أن هناك أمة عربية تتطلع إلينا وإليهم ،

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٤٧ .

وتطلب منا ومنهم الاتفاق والاتحاد على ما فيه عز للعرب والإسلام وكبت للأعداء والأخصام .. » وواصل التقرير هجوماً قاسياً على الإمام يحيى ، وأظهره أنه حاسد طامع فى الأملاك السعودية . ثم أخذ يشرح أسلوب الإمام فى سياسته نحو السعودية : « ... إن الإمام يحيى يكرهنا ويخافنا ، ولكنه يحترز من محاربتنا ومجابهتنا وجهاً لوجه وخطته التى يسير عليها تتلخص فى أنه يعمل على إفساد القبائل والأهالى التابعين لنا ، ويستعمل من أجل ذلك الغرض وسائل عديدة منها إثارة بعض اللاجئين إليه من رعايانا ، ومنها دعاة المذهب الزيدى الذين لهم صلات مع أشخاص فى بلادنا ، ثم إذا اعتقد أن الفرصة سانحة أجهز على قطعة من أملاكنا سواء بالحرب أو بالدس أو بالتظاهر بتحكيم جلالتكم - كما حصل له فى مسألة العرو - والمماطلة والمراوغة والتسويف من الوسائل الفعالة التى يلجأ إليها ، غير أن غايته القصوى مرتكزة على انتظار فرصة الفتن الداخلية ، أو الاشتباك مع إحدى الدول ، للوصول إلى ما يتمناه من أغراض »(١) . وكانت قسوة هذا التقرير ، بالإضافة إلى تقارير ولاة الملك ابن السعود على الحدود ، التى تفيد بأن هناك تحركات مريبة من جانب القوات اليمنية على الحدود ، وأنهم يكتشفون باستمرار مؤامرات واتصالات عديدة بين القوات اليمنية ورجال القبائل فى الجانب السعودى ، وأنهم يحرضونهم ضد الحكم السعودى ، كان هذا كله دافعاً لابن السعود لإصدار أوامره فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٣٣ بحشد الفرق على حدود اليمن(٢) . وقد لجأ إلى ذلك خوفاً من قيام أية مفاجآت غير منتظرة . ولكن المراسلات بين الملكين استمرت كما كانت - بالرغم من حشد الجيوش - وإن كانت قد اتخذت طابعاً أكثر حزماً ، وذلك لأن الملك ابن السعود كان حريصاً على الوصول إلى تسوية نهائية من ناحية ، ولأن الإمام رأى أن حشد الجيوش السعودية على الحدود اليمنية يعنى

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) Survey of International Affairs, p. 316.

ضرورة اتخاذ موقف حاسم لإنهاء المشكلات المعلقة بينه وبين الملك ابن السعود ، إذ كان الإمام يشكو دائماً من أن بعض الفرق السعودية تتجاوز الحدود ، وكان الملك عبد العزيز يرد بالنفى ، ويطلب منه فى نفس الوقت توضيح موقفه فى النقاط الثلاث المعلقة . وقد أوضح ابن السعود فى رسالة مؤرخة فى ١٥ شعبان سنة ١٣٥٢ هـ (٢ ديسمبر ١٩٣٣) :

« هناك أمور ثلاثة عرضناها على سيادتكم مراراً ونكررها الآن وهى :

أولاً : أن تحددوا الحدود بيننا وبينكم بصورة قطعية ، وتكتب بعهد مكتوب .

ثانياً : نجران تنازلنا فى أمره وقلنا أن تكون قطعة محايدة .

ثالثاً : طلبنا إعادة الإدريسى طبق المعاهدة ، وأفدناكم إن كان ذلك صعباً فتكون إقامتهم فى صنعاء تساهلاً منا ومحبة فى الراحة ... والسلم والحرب متوقف على كلمة تقولونها إما نعم وإما لا ، وهذا يوضح الموقف ويحل المشكل »[1] . وقد وافق الإمام فى خطاب له رداً على خطاب ابن السعود على نقل الإدريسى إلى صنعاء ، ولكنه طلب من ابن السعود أن يوافق على نقله إلى « زبيد » حيث إن برد الأولى شديد ، فوافق ابن السعود على ذلك . وقد أوضح الأخير – رداً على سؤال الإمام عن كيفية تحديد الحدود – أن الحدود يجب أن تكون كما وضعها الوفد السعودى الأول بالإضافة إلى ما لحق ذلك من التعديل عند وقوع أحداث « العرو » . وقد أدت هذه الاتصالات إلى أن الإمام اقترح حلاً لمسألة الحدود هو : (ربط معاهدة حبية سلمية دينية لمدة عشرين سنة يثبت فيها كل من

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٨٥ – ٩٦ .

الطرفين على مـا بيده فعلا من البلاد) . فـوافقه ابن السعود قـائلا : (وإنا نقبل ونؤيد اقتراحكم ، ونقبل أن تثبت الحدود التى بين الطـرفين ، ويكون لكل فريق ما تحت يـده من البلاد ، وأن تعقد بيننـا وبينكم معاهدة صـــداقة »[١] . وكان اقتراح الإمام هـذا فى ٨ ديسمبر سنة ١٩٣٣ . إلا أننـا نريـد أن نشير إلى خطورة هـذا الاقتراح ، فهو مـن ناحيـة يعتبر تسليما وتنـازلا من الإمـام عـن حقوقـه فى عســير ، ومن ناحية أخـــرى يفتح البـاب ولو سرًّا لمؤامـرات ودسـائس كثيرة للحصـــول على أكبر قـدر ممكن من النفـــوذ والبقـــاع حتى يمكن المطالبـة بـالسيطـرة عليهـا ، وهـــذا يفتح البـاب بالتـالى للمبـاغتـة وإثـارة القبـائل وتحريضها لكسب أرض جديدة ومواجهة الطـرف الآخـر بالأمر الواقـع . وهذا ما حدث بالفعل ، ففى أثناء تبادل الخطابات بين ابن السعود والإمام كان حاكم عسير السعودى الجديـد « حمد الشويعـر » يبرق للملك باستمـرار عن تحركات الفرق اليمنيـة على الحدود ، وأنها بدأت تتقدم إلى جنـوب جبال عسير ، وتحرض رجـال القبائل على التخلى عن معـاهـداتهم مع ابن السعـود ، وتأخـذ الرهـائن والجزية لحساب الإمام[٢] .

وقد تعددت برقيات حمد الشويعـر التى تصف نشاط القوات الإمامية على الحـدود وفى جنوب عسير ، فيذكر فى إحـــدى بـرقياته أن الإمام حرض آل خالد و « آل سلمة » للهجـــوم على « بنى مالك » وهم جميعاً من أتبـاع ابن السعود . وقد رهنت القبيلتـان المذكورتـان عند سيف الإســـلام عشرة أنفـــار وأعطاهم عشرة صناديق مـؤونة حربية وأوعـدهم بعسكر ، ثم علق على هـــذه العمليات بأن الإمـام يقصــــد من ذلك : « تحريض الجبـــال لكى توقـــع بهم ، ويكونـون أعـــداء لنـا مـن جهة ، ومن جهة ثانية يريد أن يشغلنـا بهم عن نفســه » . وفى برقيـــات أخــــرى ذكـر « الشويعـر » للملك ابن السعود أنـه قبض على كتب

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٩٠ - ٩٣ .

(٢) Survey of International Affairs, 1934, p. 316.

من السيد حسن الإدريسى إلى مشايخ القبائل في عسير يحرضهم على الثورة ، كما ذكر له أنه قد وصل جبل « العبادل » أربعمائة من جند الإمام غير الذين حضروا من قبل ، وأن قصدهم مهاجمة « صامطة » وذكر له غير ذلك من الأمثلة. وكان الملك ابن السعود يرد دائماً على واليه « حمد الشويعر » باتخاذ التدابير اللازمة ، على أن يكون ذلك دون تَعَدٍّ ، خوفاً من الوقوع فى الخطأ والتسرع فى الهجوم ، وكان الملك فى نفس الوقت يعده بوصول الإمدادات الكبيرة لتقوية مركزه فى هذه الجهات . وكان الملك ابن السعود يراسل الإمام يحيى فى نفس الوقت بخصوص هذه التحركات المريبة ، وكان الإمام يرد عليه بما لا ينفى وقوع مثل هذه الحوادث ، بل يذكر أنها رد على تحركات القوات السعودية ، وتطمين للأهالى الذين أصابهم الفزع من هذه التحركات . ثم أخبره فى خطاب قال إنه أمر ابنه سيف الإسلام « بالكف عن كل تحرك وعدوان وتجاوز » وطلب من الملك ابن السعود اتخاذ خطوة مشابهة ، وإصدار أمره إلى قواده بالكف عن القيام بأية حركة ..

واستمرت هذه الاتصالات البرقية بين الملكين رغبة فى القضاء على حالة التوتر السائدة على الحدود ، وتمهيداً لعقد مؤتمر لوضع التسوية النهائية . وقد رأى الملك ابن السعود أن يكون المؤتمر فى « أبها » وذلك لأمرين كما قال : « نظراً لوجود ولدنا ولى العهد فيها ، والثانى نظراً لتوفير المواصلات البرقية فى « أبها » مع الوفد ، فنرجوكم قبول اقتراحنا »[1] . وقبل الإمام الاقتراح فعلاً وعقد فى أبها فى ١٦ فبراير سنة ١٩٣٤ ولكنه فشل وعاد التوتر من جديد[1] .

مؤتمر « أبها » :

عقد مؤتمر « أبها » (فى عسير) بين مندوبى الطرفين فى ١٦ فبراير ١٩٣٤ ، إلا أنه لم ينته إلى شىء . ففى ٢٢ مارس سنة ١٩٣٤ أعلنت الحكومة السعودية

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية ، ص ٩٤ - ١١٧ .

(٢) Survey of International Affairs, 1934, p. 316-317.

فشل المفاوضات وأنه قد صدر الأمر لولى العهد بالتحرك لاسترجاع إقليم عسير التى توغلت فيه الفرق الزيدية (اليمنية)[1] . والحقيقة أن المقدمات التى سبقت عقد المؤتمر كانت تنبئ بفشله . رغم أن الأمل فى نجاحه كان كبيراً . فقد صرح الوزير المفوض السعودى فى لندن فى وزارة الخارجية الإنجليزية ، أن الملك ابن السعود سيحافظ على سياسته السلمية فيما يتعلق بإمام اليمن ، وأنه من جانبه مصمم على ألا يتخذ سياسة عدائية ، وكان المعروف فى دوائر لندن أن ابن السعود كان موجوداً حينئذ فى الرياض ، وأنه خطب فى نحو عشرة آلاف من جنوده فحتم عليهم التذرع بالصبر والابتعاد عن جميع الأعمال العدائية[2] .

إلا أن الملك عبد العزيز كان قد أصدر أمره بتعيين ولى عهده الأمير سعود قائداً فى الجنوب ، كما أصدر أمره إلى ابنه الثانى الأمير فيصل - نائب الملك فى الحجاز ووزير الخارجية السعودية - بالسفر إلى السواحل والإشراف عليها وكانت الاستعدادات والحركات الحربية مستمرة كذلك على الحدود من الناحية اليمنية ، فقد قيل حينئذ إن قسماً من قوات الإمام قد اجتاز حدود تهامة عسير لمهاجمة قبائل « بنى مالك » و « العبادلة »[3] . هذا فى الوقت الذى كان جيش ابن السعود يقف متأهباً على طول الحدود بين عسير ونجران مزوداً بكميات وافرة من الأسلحة والذخائر[4] .

وهكذا انعقد مؤتمر أبها وسط جو مشحون بالآمال ولكنه محوط بالتحرش والاستعدادات فى نفس الوقت . وكان سبب فشل هذا المؤتمر ، هو

---

(١) Survey of International Affairs, 1934, p. 316-317.

(٢) الأهرام : العدد ١٧٦٤٧ فى ٢٤ يناير سنة ١٩٣٤ (٨ شوال ١٣٥٢ هـ) ص ٤ .

(٣) الأهرام : العدد ١٧٦٤٠ فى ١٦ يناير سنة ١٩٣٤ (٣٠ رمضان ١٣٥٢ هـ) ص ٦ .

(٤) الأهرام : العدد ١٧٦٤٧ فى ٢٤/ ١/ ١٩٣٤ (شوال ١٣٥٢ هـ) ، ص ٤ .

اختلاف وجهتى نظر الوفدين المجتمعين حول النقط التى يجب بحثها دون غيرها ، اعتقاداً منهم بأن الملكين قد توصلا إلى حل بعض المسائل دون البعض الآخر ، وأنه يجب بحث النقاط التى لم تحل بعد فقط .

وكان الوفد السعودى يريد أن يبدأ المؤتمر مباشرة مناقشة مسألة (نجران) أما باقى الحدود فكان الوفد يرى أنها محددة باتفاقية مكة المكرمة (سنة ١٩٢٦ بين السعودية والأدارسة) ثم ثبتت هذه الحدود فى الاجتماع الذى عقد من أجل مسألة (العرو) . وكان يرى أن هذه الحدود كانت مرعية من الجانبين إلى أن هاجم الإمام (نجران) . ولكن الوفد اليمنى رفض فكرة أن هناك اتفاقا عقد بخصوص مسألة الحدود ، ورأى أن تسوية (العرو) لم تحل إلا مسألة معينة .

وقد استمر الحال هكذا فى الجلسات الخمس التالية ، وفيها نوقشت مسألة نجران مناقشة غير مجدية ، إذ كان كل من الطرفين متمسكاً بأحقيته فيها ، وأنها جزء من بلاده ، وكان كل من الطرفين يقدم الحجج والبراهين لإثبات ذلك[١] .

---

(١) ذكر صلاح الدين المختار فى كتابه « تاريخ المملكة العربية السعودية فى ماضيها وحاضرها » « الجزء الثانى - ص ٩٦ - ٤٠٠ » بعض الوثائق ليثبت تبعية « نجران » للمملكة العربية السعودية ، منها : « عهد سعود الكبير إلى أهالى نجران وسائر « يام » بأنه متبع لدين الله وليس بمبتدع ويدعوهم إلى التمسك بمبادئ الإسلام » . ومنها أيضاً عهد الإمام فيصل بن تركى - جد الملك عبد العزيز - لأهالى نجران بناء على طلبهم - وهو بتجديد عهد الإمام سعود الكبير وتأكيده ، وبإعلان ولائهم لآل سعود . ومنها أخيراً عهود الملك عبد العزيز - لضمان ولائهم له . ولكننا نرى أنه لا يمكن الاعتماد عليها كثيراً فى إثبات تبعية هذه الجهات للسعودية - وإن كنا لا ننفيها أو لا نعترف بوجودها وأهميتها ، بل نعتقد أن الولاء المشار إليه كان دينيا أكثر منه سياسيا ، وأن « نجران » كان يهمها أن تعيش مستقلة بذاتها على أن تعلن - دون أن تجد غضاضة فى ذلك - ولاءها للحاكم الأقوى فى الجزيرة العربية لتتمتع بحمايته . ويتضح هذا الرأى الأخير فى عهد فيصل بن تركى لهم إذ جاء فيه : « ومن بغى عليهم وطلبوا منا المساعدة ما ندخرها عنهم بجنود المسلمين » .

وقد تضمن رد الوفد السعودى دائماً الناحية العملية ، إذ كان يذكر أن الإمام لم يدخل نجران إلا منذ أشهر ، وأن أهالى نجران استنجدوا بابن السعود وقاموا يحاربون جند الإمام مما يدل على عدم تبعية نجران لليمن . وكان الوفد السعودى يميل إلى جانب (حياد نجران) .

لكن الوفد اليمنى رفض هذا الاقتراح أيضاً رغم أن الوفد السعودى كان يهدد دائماً بأن السلم أو الحرب متوقف على قضية نجران .

وكان الوفد اليمنى على وجه العموم لا يرى ضرورة فى تحديد الحدود ، الأمر الذى يصر عليه الوفد السعودى ، إذ كان الأول يرى - على لسان رئيسه عبد الله الوزير « أن البلدين كالجسم الواحد ولا لزوم لتعيين الحدود لأن كل من تحت يده شىء فهو معلوم أنه له » إلا أن الوفد السعودى هدد بقطع المفاوضات إذا لم توضح الحدود توضيحاً تامًّا ، مع ذكر النقط التى يمر بها خط الحدود المقترح . وقد انتهت الجلسة السادسة والأخيرة دون الوصول إلى نتيجة ما ، فتبادل الملكان المكاتبات مرة أخرى - وكان الوفدان ما زالا فى (أبها) وتشدد ابن السعود فى كتبه للإمام يطلب التوضيح والصراحة . فطلب أن يقابل ابن الوزير الملك ابن السعود ، إلا أن الأخير رفض وأصر على إخلاء جبال عسير ، والبت فى مسألة الأدارسة ونجران . ولما لم تؤد المكاتبات كذلك إلى نتيجة ، أمر ابن السعود بعودة الوفد السعودى[1] .

---

(١) الكتاب الأخضر : وزارة الخارجية السعودية (من تقارير الوفد السعودى إلى ابن سعود) ص ١٤٢ - ١٤٥ .

الفصل السادس

الحـــرب اليمنيـة السعودية

قيام الحرب والعوامل التى أثرت فى سيرها :

أشـــاع إعلان الحكـومة السعـودية فى ٢٢ مـارس ١٩٣٤ فشل محادثات مؤتمر (أبهـا) ذعراً كبيراً فى كـل الأوســاط المهتمة بـالأمر ، كما شـاع حينئذ خـبر قيام الحرب بين الـدولتين . فقد ذكرت الأهـرام أن وكـالة رويتر أذاعت فى ليـلة ٢٢ مـارس أن رحى القتـال قـد دارت بين الدولتين على طــول خـط الحـــدود . وأيدت المفوضيــة الســعودية فى لنــدن هـذا النبـأ[١] ، إلا أن الحــرب لم تنشــب عشية فشــل المؤتمر ، بل دارت محـادثات لا ســلكية بين الملكين ، حتى وجه الملك ابن السعود إنـذارًا نهائيًّا للإمام أيـده بتعبئة الجيـوش على الحدود ، وحـــدد فى إنذاره يومًـا معينًا لقبول شروطـه وهـو يوم ٥ أبريـــل (ســنة ١٩٣٤) . وأصــدر فى نفس الــوقت أمـره إلى ابنيـــه – فيصـــل فى تهـامة عســـير ، وســعود فى نجـــران – بأن يعبروا الحدود فى ذلك اليوم إذا لم يصدر أيـة تعليمات أخرى ، ويبـدو أن القدر تـدخل فى اللحظات الأخيرة ، إذ هبت عاصفة رملية هائلة استمرت ثلاثة أيام ، عطلت الاتصالات اللا سلكية ، فبـدأ القائدان الحـرب دون انتظـار أوامـر أخــرى ، وذلك فى الموعـد المحدد ، أى فى ٥ أبريـــل[٢] . ويبـدو أن هـــذا التاريخ هـو التاريخ الصحيح لقيـام الحرب ، فقد أصدرت المفـوضية السعودية فى لنـدن مرة أخرى بيانًـا رسميًّا فى ٥ أبـر يل (١٩٣٤) قالت فيـه : « إن جـلالة الملك ابـن السعود بعـد أن يئس من الوصول إلى اتفاق مرضٍ مع الإمام يحيى أصـدر أمره إلى ولى عهده الأمير سعود

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٧٠٥ ؛ فى ٢٣ مارس سنة ١٩٣٤ (٧ ذو الحجة سنة ١٣٥٢) ص ٦ .

(٢) Philby : Saoudi Arabia, P. 322 - 323,

بأن يـزحف بجنوده لمهـاجمة القوات الأماميـــة للإمـام يحيى ، وقـد تقدم الأمير فيصـل بن ســعود ابن أخى الملك إلى « باقم » وأطرافهـا ، كما تقـدم ابن أخيه الأمير خالد بن محمـد إلى « نجـران » و « صعدة » وتقـدم حمـد الشـويعر أمير تهامة عسير إلى « حـرض » واحتلها ، وتقـدم الأمير فيصل ، ثانى أنجـال الملك عبد العزيز على شاطئ تهامة لتولى القيادة فيها ، على حين أن الأمير محمد النجل الأصغر للملك قد زحف من نجـد بقوة احتياطية لإمـداد أخيه الأمير سعود[١] . وهذا التصريح فضـلاً عن أنه يؤكـد إعلان الحرب حينئذ ، إلا أنـه - إلى جانب ذلك - يـوضح الاستعدادات التى اتخذهـا ابن السعـود ، ويشرح تحرك قواتـه . ويثير هذا كلـه بعض التساؤل ، ويـدفعنا إلى عـرض أوضاع كل مـن الطرفين ، ونقط قوته وضعفه .

هناك بعض النقـاط تدل على اختلاف البلـدين وتناقض أوضاعهما ممـا قد يؤدى إلى الحـرب ، ولكن هناك مســائل أخرى متشـابهة تجبرهما على الجنـوح إلى الســلم . فمن المعـروف أن الزيديين في اليمـن شـيعة ، والسـعوديين فى نجد من أهل الســنة ، بل من الوهـابيين الغـلاة فى هـذا المذهب . وكان غالبية أهالى اليمن جبليين وزراعـا مستقرين ، بينما كـانت غالبيـة أهالى نجـد يقطنون البرارى ، كما أنهم بدو . وبينما كان نفوذ ابن السعود موزعًا فى منطقة واسعة ذات أرض فقيرة ، فإن إقليم الإمام - وهـو أقل مساحـة إذا قارناه بـالسعوديـة - كان يتميز بتركز ســكانه . وهـذه المتناقضـات قد تؤدى الدينيـة منها إلى الحرب ، على حين تـؤدى الأخـرى إلى السلم . فـالاختـلافـات الجغرافيـة مضـافًا إليهـا الاختلافـات فى كثافة السكـان يترتب عليها مسـاواة مادية فى قـوة الرجلين ، إذ ستكون نتيجة الحرب دائمًا غير قاطعة بين قوتين إحداهما جبلية والأخرى بدوية. وإلى جانب ذلك كـان هناك بعض التشـابه فى ظروف الملكين ، ممـا يدفعهما إلى

(١) الأهرام : العدد ١٧٧١٧ ؛ فى ٦ أبريل سنة ١٩٣٤ (٢١ ذو الحجة سنة ١٣٥٢) ص ٤ .

السلم ، فمثلاً لم يكن الزيديون أو الوهابيون فى بلديهما أكثر من العنصر الحاكم ، وأن كلاً من الإمام يحيى والملك عبد العزيز يعملان حساب الأجنبى ، ويخشيان عناصر الثورة - فى داخل بلديهما - التى تتحين الفرص . فمثلاً رأينا أن الإمام يحيى واجه سنة ١٩٢٨ ثورة الزرانيق ، وكذلك ظهر من يتحدى حكم الملك عبد العزيز ، فظهرت عدة ثورات ، وبلغ التمرد منتهاه فى ثورة « فيصل الدويش » و « فرحان بن مشهور » فى الإحساء ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، وابن رفادة فى شمال الحجاز فى سنة ١٩٣٢ . وهذا بالإضافة إلى علاقات كل منهما الخارجية وخاصة مع بريطانيا ، تلك العلاقات التى تجبر كل منهما على أن يتريث قبل الدخول فى معارك أخرى[١] . وقد عقدت عدة مقارنات بين كل من الطرفين وظروفهما ، فنقلت الأهرام عن (التيمس) من مقال افتتاحى بها إشارة إلى هذه الناحية فقالت : « . . لقد انتصر الوهابيون بسهولة على جميع الأعداء الذين التقوا بهم حتى الآن ، غير أن الجنود اليمانيون الذين يواجهونهم الآن لأول مرة ، خصوم معروفون بالإقدام والبسالة والنشاط ، كما عرف ذلك التراث عنهم بما تكبدوه من الخسائر فى حرب سنة ١٩٠٤ وما بعدها ، وقد جمع الإمام ثروة كبيرة من المال ، ففى وسعه أن يدفع مرتبات رجاله وهم مسلحون تسليحًا حسنًا »[٢] . . . وقد جاء فى نفس عدد الأهرام نقلاً عن « المانشستر جارديان » مقالاً جاء فيه : « إن معظم الموظفين البريطانيين الذين لهم خبرة بشئون بلاد العرب يعتقدون أن الجنود اليمانيين الذين يعيشون فى الجبال لا يمكن قهرهم فى بلادهم ، .. والواقع أن اليمانيين والوهابيين أشبه شيء بالزيت والماء ، وهما مختلفان »[٣] . وقد تكررت هذه المقارنة بين قوة البلدين أكثر من مرة فى الجرائد الإنجليزية ، حتى بعد أن بدأت الحرب فعلاً بينهما فنقلت الأهرام عن « المانشستر جارديان » مقالاً

---

(١) Survey of International Affairs, 1934,pp. 311 - 313.

(٢) ، (٣) الأهرام : العدد ١٧٧٠٧ فى ٢٥/ ٣/ ١٩٣٤ (٩ ذو الحجة ١٣٥٢هـ) ص ٤ .

هامًّا تناول هذه النقطة جاء فيــه : « إنه من الصـعب التكهن بنتيجة الحـرب في بـلاد العــرب (كانت الحــرب قـد بدأت قبـل ذلك بأيام) فـالملك ابن السـعود مقـاتل بارع ، ولكن موارد بلاد اليمن غنيـة جـدًّا ، وفوق ذلك فإنه إذا كانت « نجـران » تبعـد أكثر مـن أربعمائة ميـل عن مكة فإنهـا لا تبعـد إلا مائتى ميـل عن عاصمـة اليمن ، وعلى ذلك فمواصـلات ابن السـعود معها أصعب من مواصـلات الإمام . ووراء أسـباب النزاع الظاهرية متاعب تتعلق بالمذاهب، وبـوسائل الحياة الحديثـة . فالمسـلمون المتعنتـون من أنصار الملك ابن السـعود يكرهون اليمانيين لأنهم يعدونهم من المبتدعة ؛ كما يحتقرونهم لاختلافهم عن بدو الصحـراء وعلى الأرجح سـتكون هـذه الحرب الصغيرة حاميـة الوطيس »[١] . وكـانت هذه التعليقـات كلهـا تـدعو البعض إلى التنبـؤ بمصـير هـذه الحرب ، ومـتى سـتنتهى ، فقد نقـلت الأهـرام عـن جـريدة « المورننج بوسـت » تعليقًا صغيرًا لكنـه يدل على الفهم العميق للوضع هناك ، إذ قـالت : « إن النزاع سينتهى متى بسط الملك ابن السعـود نفوذه على المنـاطق الصحـراويـة السهلـة ، وإن كـان هنـاك من يعتقـد أنـه لا يقنع بأقل من بسط سلطاته على كل بلاد اليمن »[٢] . وقد بنت هذه الجريدة تعليقها على أساس أن الوهـابيين حقيقة محاربون أقـوياء ممتازون ؛ ولكن في الصحـراء فقط ، لأنهم بدو أساسًـا ، ولهذا سيضطرون إلى وقف القتال عنـد احتلالهم السهل السـاحلى لأنه لن يكـون أمـامهم بعـد ذلك إلا الجبـال الـوعـرة التى سيلجأ إليهـا اليمنيـون بالضرورة دفاعًا عن أنفسهم وبلادهم ، وبالتالى فإن الاختلاف الموجود فعلاً بين طبيعة الفـريقيين المتحـاربين هو الذى سـيحدد نهـاية هـذه الحـرب كما سنرى فيها بعـد .

ولـكن قبل أن نواصـل تتبعنـا لأحـداث هـذه الحرب ، نحب أن نشير إلى

---

(١) الأهرام : الصادر فى ٨ أبريل سنة ١٩٣٤ ، ص ٤ .
(٢) الأهرام : العدد ١٧٧٢٤ فى ١٥/ ٤/ ١٩٣٤ (أول محرم ١٣٥٣هـ) ص ٥ .

نقطة هامة كثيرًا ما تثير عدة تساؤلات : فكيف تقوم حـرب عنيفـة بين دولتين عربيتين إسـلاميتين تدعى كل منهمـا أنها راغبـة فى السـلام . ولا ترحب بزج المسـلمين فى حـرب ضـد بعضهم البعض ؟ ولماذا قـامت هـذه الحـرب فى هـذا الوقت بـالـذات؟ ولماذا لم تنشـب حـرب بين اليمن وإنجـلترا فى عـدن بدلاً مـن الحـر ب اليمنيـة - السـعودية بالرغم مـن وجود مشكلات حـدود فى جنوب اليمن أيضًا ؟ وما هو موقف إنجلترا من هـذه الحرب وكذلك موقف باقى الدول العربية الإسلامية ؟

معاهدة صنعاء سنة ١٩٣٤ بين الإمام وإنجلترا :

وللإجابـة على كل هـذه الأسـئلة لا بـد أن نوضح أولا الموقف بين الإمـام وإنجلترا حينئذ . نذكر أن الإمام قـد طلب بعـد أحداث سـنة ١٩٢٨ العنيفة ، فتح باب المفاوضات مع إنجـلترا . وقد اسـتمرت المفاوضات رغبة فى الوصول إلى اتفاق نهـائى بينهمـا ، ورغم أن الإمام - كما ذكرنا - قـد دخـل أجـزاء من إقليم العـوذلى خـلال سـنة ١٩٣١ ، وقبض على بعض الرهـائن منهـا ، إلا أن انجلترا آثرت استمرار التفاوض ، ثم وضعت شروطًا لإتمام الاتفاق النهائى ، وكان مـن الطبيعى أن يتضمن هذا الاتفـاق خـروج الإمام من كـل المحميات ، وإعادة الرهائن ، وقبول الحدود السابقة .

وهكذا استمـرت المفاوضـات وطالت حتى أوائل سـنة ١٩٣٤ ، حيث عقـدت معاهـدة أنجـلو - يمنيـة فى صـنعاء فى ١١ فـبراير سـنة ١٩٣٤[١] . وتطور هـذه الأحداث على هـذا المنوال يثير التساؤل كـذلك ، فالطرفـان قبلا التفاوض ، وحرصًا عليه للوصـول إلى الاتفاق النهائى دون أن يميلا إلى الدخول فى معـارك حـربية عنيفـة . وكانت حجتهمـا فى اتخـاذ هـذ الخـط بالذات أن

(١) Survey of International Affairs, 1934, p, 312.

الإمام كان مشـغولاً بمشـكلات أخرى داخلية وخارجيـة لا تقل أهمية عن مشـكلته مع إنجلترا ، لذلك فهو بالتـالى غير مسـتعد لفتح جبهة جـديدة فى الجنـوب . وكان يدرك من ناحيـة أخرى أن إنجلترا ليسـت لها أطماع خـاصة داخل اليمن ، إذ أن إنجلترا كـانت لا ترغب فى التـوسع أو الـدخول فى معـارك حـربية ضـد الإمام لأنها إذا فعلت فستثير ضـدها بـاقى الدول الأوروبيـة ذات المصالح فى هذا الإقليم .

وكان اليمن نفسـه من وجهة نظـر إنجـلترا إقليمًا لا يثير طمعهـا فيه ، لا لأنه إقليم فقـير بل للمشـكلات الخاصـة سـواء أكـانت خارجيـة - وقد أوضحنـاها - أم داخليـة ، فهى لم تنس بعـد مـا لا قاه الترك من متـاعب أثنـاء وجودهم فى اليمن . لهذا كله كـانت إنجلترا حقيقة لا تطمع فى احتلال اليمن ، بل كان كل مـا يهمنا ألا يثير اليمن أيـة متاعب لها فى المحميـات ، كما يهمها فى نفس الوقت أن تحتفظ با لمحميات تحت سيطرتها بـاعتبارها منطقة خلفية تحمى ظهـر مسـتعمرة عـدن ، وكان كل مـا تـريده من الإمـام هـو أن يتخـلى عن مطالبـه فى هذه المحميـات ؛ وكان الإمـام من ناحيتـه يتمنى لو تقبل إنجـلترا عقـد معـاهدة لتسـوية هـذه المشـكلات على نحـو يرضى الطـرفين ؛ وكان يـدفعـه لهذا ، إمكانيـاتـه المحـدودة القليلة التـى لا تقوى على مـواجهـة جميع مشكلاتـه مع الجهات المختلفـة حتى يتفرغ لمعالجة الشئـون الداخليـة ، وكانت انجلترا تـرى هـذا أيضًـا بالنسبـة لـوضعها فى المحميـات حتى تقوى قبضتهـا ونفوذها هناك . لذلك تـلاقت الرغبتان فى السلم ، إلا أن مشكلة تخطيط الحدود بينهما كانت كما هى ، وكـان لا يؤمل فى معـالجتها بسهولـة ، أو فى وقت قريب . لذلك نرى الطرفـين يميـلان إلى عقـد معـاهدة تعلق فيهـا مشـكلة الحـدود إلى حـين ، يمـكن حلهـا بطريقـة مرضـية ، دون أن يعطـل ذلك إقامـة عـلاقـات وديـة - سـياسية واقتصـادية - بين البـلدين على أسـاس وجـود

معاهدة تنظم هـذه العلاقـات . وقـد حققت معاهـد صـنعاء فى فبراير سـنة ١٩٣٤ هـذه الرغبة . وكيفما كان الأمر فقد كانت المعاهـدة إقرارًا للوضع القائم - على الأقـل من ناحيـة الحـدود - أكثر منهـا تسـوية لهـذه المشـكلة، هـذا وقـد شملت المعاهـدة أيضًا بعض النقاط الأخرى التى لا بد من وجودها بين بلديـن أو حـكومتين متجـاورتين إقليميًّا ، مثـل حسـن الجوار والتبـادل التجـارى .

وقد توصل إلى عقد هـذه المعاهـدة الكولونيل « رايـلى » المقيم البريطانى فى عـدن حينئذ (انظر ملحق ١٠) .

ولم يصـدق على هـذه المعاهدة إلا فى ٤ سبتمبر ١٩٣٤ ، بـالرغم من أن التوقيع عليها كان فى ١١ فى فبراير من هـذا العام وكان أهم شـروط التصـديق إتمـام جـلاء قـوات الإمام عن ٦٤ قرية فى إقليم العوذلى وثمانيـة قرى فى إمـارة الضـالع والإفراج عن الأسـرى والـرهائن من أهـالى المحميات ، وإعـادة فتح طريق التجـارة بين المحميات البريطـانية واليمن . وقـد أتم ، كما يقول « رايلى » «خط حـدود سـنة ١٩٣٤ - الذى اتفق على أن يكـون كما هو موجـود على الطبيعـة Status quo - حـرية بـلاد العوذلى والضـالع وهى بـلاد تربطهـا بريطـانيا معـاهدات حمايـة ، ولكنـه لم يحرر سـلطنة « البيضـاء » بالـرغم من وقوعهـا فى الجانب البريطانى من خط الحدود الأنجلـو - تركى ، وذلك لأنها لم ترتبط بمعـاهدة حمـاية مـع بريطانيا »[1] . ولـذلك يعتبر إقليم « البيضاء » هـو الإقليم الوحيد الذى استطاع الإمام أثناء كل منازعاته مع بريطانيا أن يضمه إلى بلاده كما يعتبر التعديل الوحيد الذى أدخل على الحدود الأنجلو - تركية بالرغم من الحروب الطويلة بين الطرفين .

---

(١) Sir Bernard Reilly : Aden and The Yemen, p.18.

اعتبر الإنجليز أن معاهدة صنعاء هذه أهم حدث محلى بعد الاستيلاء على عدن سنة ١٨٣٩ . وقد أقيمت حفلة كبيرة لاستقبال المستر رايلى عند عودته إلى عدن اشترك فيها الأهالى العرب ، وتقدمهم عدد كبير من الشيوخ والرؤساء(١) . كما جاء فى تصريح رسمى صرح به السير جون سيمون وزير الخارجية البريطانية حينئذ ردًا على الأسئلة التى وجهت إليه بمناسبة عقد المعاهدة ، أن حكومته تعدها مرضية للغاية ، ثم أثنى على الجهود التى بذلها الكولونيل رايلى المقيم البريطانى فى عدن الذى رأس الوفد البريطانى إلى صنعاء(٢) .

وهذه المواقف والتعليقات تجذب انتباهنا ، وتدفعنا دفعًا إلى التعليق على مواد هذه المعاهدة بعد استعراض موادها ، وتجعلنا نتساءل عن أهمية هذه المعاهدة ، وهل هى حقًا تحقيق للآمال المرجوة ؟

يمكن اعتبار عقد هذه المعاهدة تحقيقًا لآمال معلقة ، وإن كنا نقول هذا بكثير من التحفظ الذى سيتضح فيها بعد . كانت إنجلترا تطلب من الإمام الابتعاد عن المحميات والتخلى عن مطالبه فيها ، وفتح طريق التجارة بين المحميات واليمن ، وهذا كله فى جو يسوده السلام وحسن الجوار بين البلدين .

وكانت إنجلترا ترغب جادة فى عقد معاهدة مثل تلك التى عقدها الإمام مع إيطاليا أو الاتحاد السوفيتى ؛ إذ كان يضايقها دخول منافسين لها فى الجزيرة . لذلك حرصت على أن تنص فى المعاهدة على أن تعامل معاملة الدول الأكثر رعاية ، وذلك حتى لا تسبقها إيطاليا فى هذا المضمار. و كان الإمام يحتاج فى نفس الوقت ، إلى اعتراف إنجلترا به وباستقلاله

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٦٧٢ فى ١٨/ ٢/ ١٩٣٤ ، ص ٥ .
(٢) الأهرام : العدد الصادر فى ٢٧/ ٢/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

واستقلال بلاده ، فهو يهمه تأكيد هذا الأمر دوليًّا ، وإن كان يبدى تخوفه من الدخول فى علاقات خارجية ، كما كان يشعر أن ذلك يدعم مركزه فى الداخل . وكانت انجلترا تشعر برغبة الإمام هذه ، وكانت تلوح له دائمًا بأنها مستعدة للاعتراف به وباستقلاله إذا وافق على عقد معاهدة معها . وقد نصت المادة الأولى على ذلك لأن إنجلترا لم تكن قد اعترفت بعد بالإمام أو باستقلاله .

وهناك أخيرًا ملاحظة هامة خطيرة على هذه المعاهدة ، وهى أنها تركت موضوع الحدود مفتوحًا فلم تبت فيه ، بل تركت أمرها حتى يتم التفاوض بشأنها فى خلال مدة العمل بهذه المعاهدة التى حددت بأربعين عامًا .

وهذه المدة طويلة تخالف فى الحقيقة عادة الإمام فى تحديده مدة معاهداته مع الدول الأجنبية بعشر سنوات فقط فى الغالب . وليست الخطورة فى طول المدة فحسب ، بل فى ارتباط هذا الطول بحل مشكلة الحدود ، أى فى أن تظل مشكلة الحدود معلقة دون حل طوال هذه المدة الطويلة . وتنبثق هذه الخطورة من نقطة هامة يجب ملاحظتها ، وهى أن الأجزاء المتنازع عليها من المحميات كلها ، ستبقى تحت نفوذ إنجلترا طوال هذه المدة أو حتى يعقد بشأنها حلاً مرضيًّا . وهذا هو الخطر ، إذ أن ذلك سيعطى إنجلترا أكبر فرصة لتثبيت أقدامها فى المحميات ، وتنظيم وتدعيم الداخل بشكل يبعده تمامًا عن باقى أجزاء اليمن .

وستتمكن هى خلال هذه المدة من كسب سلاطين هذه الجهات إلى جانبها ، بالدعاية المغرضة الطويلة الهادئة دون أن يكون لليمن حق الاتصال بهم من الناحية الرسمية وذلك بناء على شروط المعاهدة .

وهـذا يجعلنـا نقول إن إنجـلترا هى التى فـازت بعقـد هـذه المعاهـدة وليس الإمـام . كما يجعلنـا نقول إن الكسـب ليس متبـادلاً أو متسـاويًا ، فانجـلترا وصـلت إلى بغيتهـا التى حـاربت من أجلهـا من سـنة ١٩١٩ إلى ١٩٣٤ ، وهى عـدم السماح للإمـام بدخـول المحميـات أو التنـازل له عن شيء منهـا .

كانت إنجـلترا طوال المدة السابقة تعتبر مدعية ، ومغتصبـة ، ومعتدية، أى دولة بدون وجود شرعى فى هـذه البـلاد - على الأقل من وجهة نظر الإمام - أمـا الآن (١٩٣٤) فقـد أصـبحت دولـة لهـا حقوقهـا ، وأصـبح وجودهـا شـرعيًا ، وذلك لأنها انتزعت اعتراف الإمام بـوجودهـا فى المحميات حتى تتم تسوية مرضية بينهما . وكان هذا هـو كل ما تطلبه وترتضيه ، وهو أن يبقى الإمام خارج حـدود المحميات - على أسـاس وجود معـاهدة - وألا يثير لهـا فى هذه الجهات من المتاعب ما يعطل نشاطها هناك . وهى إذ تضمن ذلك فمن السهل عليها كسب أهالى المحميات إلى جانبها ، إذ ستكون بمفردها فى الميدان ، فتقول ما تشـاء ، وتغفـل مـا تريـد ، وتعمـل جـاهدة على المبـاعدة بين اليمن والمحميـات . وإلى جانـب ذلك فلا ضير عليها من الدخـول فى مفاوضـات طويلـة غير مجدية كسبًا للـوقت ، وللأهـالى ، وللنتائج المفيـدة المؤكدة . وعلى هـذا فـلا نبالغ إذا اعتبرنـا أن معاهدة ١٩٣٤ كـانت بداية النهـاية بالنسـبة لمطالب أو حقوق الإمام فى المحميات ، وذلـك لأنه سـلم لإنجلترا بحقوق جمة عندما وقع هـذه المعاهدة ، و إن ظل الإمام لا يؤمن بـذلك ، بل كان يعتقد أن تـوقيع المعـاهدة لا يعنـى أكثر من تأجيـل البت فى مشكلة الحدود أو مـوضـوع ملكية المحميات .

وستتضح آثار هـذه المعاهـدة على مر الأيام ، فقـد عملت بريطـانيا على تنظيم المحميات وتقوية قبضتها عليها ، حتى إذا أحس الإمام بخطورة الموقف، كانت إنجلترا قـد أصبحت هى صاحبـة اليد العليـا فى كل المواقف وأصبح لها الانتصار دائمًا فى معارك المحميات سواء كانت هذه المعارك سـاخنة أو باردة ،

بل واستمرت انجلترا فى تقوية قبضتها هناك حتى خرجت علينا بعدة مشروعات لتنظيم خضوع هذه المحميات لها ، كان آخرها إعلان قيام اتحاد الجنوب العربى ، وذلك قبل أن يصل الطرفان إلى تسوية مرضية ، وقبل أن تنقضى مدة سريان المعاهدة .

وهذا هو موضع الخطورة فى هذه المعاهدة ، وهى خطورة قد يقال إنه لا يشعر بها تمامًا إلا بعد أن توضع المعاهدة موضع التنفيذ ، ويمر عليها بعض الوقت ، فتظهر نوايا إنجلترا بوضوح . ولكن هذا الحديث مردود عليه ، إذ إن الخطر نابع أساسًا من ترك المحميات لإنجلترا تتصرف فيها كما تشاء ،ومن الاعتماد على حسن نية إنجلترا ورغبتها فى الوصول إلى حل مرضٍ للطرفين ، إذ كان لا يجب الركون إلى ذلك ، أو على الأقل كان لا يجب إتاحة الفرصة لها فى هدوء لتنظيم أمورها ، ولتقوى قبضتها عليها دون إثارة المتاعب لها فى هذه البقاع .

و لكن هذا الحديث يجعلنا نتساءل : ألم يكن أمام الإمام إلا أن يقبل ذلك سواء أكان مجبرًا أو مختارًا ؟ وهل قبوله هذا الوضع تعتبر أحسن موقف يمكن لأى سياسى أن يقفه فى هذه اللحظة بالذات ، وتحت نفس ظروف الإمام حينئذ ؟

الحقيقة أنه لا يمكن الإجابة على هذه الأسئلة بسهولة ، بل الأفضل أن نوضح الظروف والمقتضيات بقدر الإمكان قبل الإجابة على هذه الأسئلة ، إذ من الصعب وضع أجابات قاطعة نهائية بالنسبة للمسائل التاريخية بوجه عام .

وضحنا قبل ذلك مشاكل الإمام الداخلية ، وكانت تحتاج منه – من وجهة نظر الإمام – أن يكون حذرًا منتبهًا دائمًا ، فليس له أن يغمض عينيه عنها ، حتى وهو يعالج باقى مشكلاته الأخرى . ووضحنا كذلك مشكلته مع الملك ابن السعود ، وفصلنا فى عرض تطور أحداثها ومفاوضاتها غير المجدية ، وذكرنا كذلك أن ابن السعود ، كان يلح على الإمام فى الوصول إلى حل

بالنسبة لهذه المشكلات المعلقة ، إلا أن الإمام كان لا يقبل الوصول إلى حل على حساب أن يتنازل عما يطالب به فى عسير أو نجران ، وكانت الأمور فى فبراير سنة ١٩٣٤ - أى عند عقد المعاهدة الأنجلو - يمنية - قد وصلت بين الملكين إلى قيام تحركات وتحرشات على الحدود . وإزاء هذا كله كان الإمام فى حاجة فعلاً إلى إصلاح علاقاته وأوضاعه مع أى من هذه الجهات المختلفة الكثيرة . وهنا أسرعت إنجلترا باستغلال الفرصة ، فالإمام فى وضع حرج ، ومشكلاته كثيرة متعددة متناثرة ، وإمكانياته محدودة لا تمكنه من مواجهتها كلها فى آن واحد . ففكرت عندئذ فى أن تعرض عليه السلام والهدوء من ناحية حدوده الجنوبية ، مع تأجيل البت فى مسألة الحدود المعلقة بينهما . وكان هذا أحسن عرض يمكن أن تعرضه بريطانيا عليه ، ولم يكن أمامه ما هو أحسن من هذا العرض نفسه - إذا افترضنا أنه كان يريد أن يواجه مشكلاته منفردة الواحدة تلو الأخرى- وإذا نظرنا إلى الأمور بمنظاره هو - لذلك نجده يقبل العرض السلمى الذى عرضته إنجلترا عليه حتى يتفرغ لمشكلة حدوده الشمالية مع السعودية ، وينتهى فيها إلى حل حتى يعود مرة أخرى لإنهاء مشكلته مع إنجلترا ، ويكون قد أصبح أكثر تفرغًا وأكثر قوة . ومن ناحية أخرى فقد جرب الإمام قوة بريطانيا وفعل طائراتها السحرى ، وأنه لا قبل له بها ، فكان لا يأمل إلا فى الطريق السلمى فى حل مشكلاته معها ، أو فى القيام بأعمال سرية خاصة ضدها لإثارة المتاعب فى وجهها ، وكلا الطريقين يحتاجان وقتًا ، وهو يفتقد الوقت ، لذلك رأى أن يكسب من إنجلترا كل ما يستطيع حتى يتفرغ لها . وناحية ثالثة قد تثور عند البعض ، وهى أن وضع المحميات الداخلى واختلافها المذهبى مع الإمام هى التى دفعته يائسًا للتسليم أمام إنجلترا هكذا ، ولو بصورة وقتية وإلى حين ، كما حدث بالفعل ، ولكن الحقيقة - كما نعتقد - وكما ذكرنا أنه إذا كان هناك موقف خاص للمحميات معاد للإمام ، فهو ليس نتيجة الاختلاف المذهبى بل كان نتيجة

سياسة الإمام وسلوكه إزاء الأوضاع الخاصة لهذه الجهات ، إذ كانت تحتاج نوعاً من الحكم والمعاملة - سبق الكلام عنه - اتبعته إنجلترا ولم يقبله الإمام . أما القول بأنهم شوافع وهذا يتعارض مع خضوعهم للإمام ، فهذا قول مردود عليه ، فهناك أكثرية شافعية تعيش داخل اليمن ، قبل البعض حكم الإمام كراهية والبعض الآخر قبله طواعية ، وأصبح الزمن كفيل بصهر كل هذه المجموعة في بوتقة الدولة الواحدة ، بل أصبح الشوافع فى اليمن أسلس قيادة من جماعات زيدية جبلية كثيرة تمردت على حكم الإمام وأثارت له المتاعب .

وهكذا يمكن القول - من وجهة نظر الإمام أيضاً - إن الظروف التى أحاطت بالإمام حينئذ ، والأحداث المتزاحمة أمامه فى ذلك الوقت ، كانت كفيلة بأن تجعله يقبل عرض إنجلترا لأنها ستمنحه السلام من ناحية ، ومن ناحية ثانية ستؤجل له البت فى مسألة الحدود ، وكان هذا كل ما يتمناه فى هذه اللحظة .

ولكن هنا يثور سؤال ملح طالما راود من تعرض لتاريخ اليمن فى هذه الفترة ، كما ظهر فى الصحف المعاصرة حينئذ : وهو لماذا لم يتفق الإمام مع السعودية بدلا من إنجلترا ، حتى يتفرغ للأخيرة ؟ ومن الصعب الإجابة عن هذا التساؤل ، دون بسط بعض النقاط لعلها تستطيع توضيح جوانب الإجابة المطلوبة .

فمن الناحية الأولى ، كانت كل من إنجلترا والسعودية - من وجهة نظر الإمام - تمثل عدوًا له ، فكلتاهما طامعة فى بلاده - كما يعتقد - وكلتاهما تغتصب فعلا جزءاً من اليمن الكبير كما يتصوره هو . وهذا هو أول اعتبار يجب أن نضعه أمامنا عند الإجابة على السؤال سالف الذكر . وهذا الاعتبار نفسه قلل بدون شك من الوضع الخاص للسعودية

- بالنسبة للإمام - وأنها دولة عربية إسلامية شقيقة ، فهى قد تساوت - أو هكذا اعتقد الإمام - مع إنجلترا فى كونها معتدية على أملاكه وبلاده . ومعنى هذا أن الإمام استطاع أن يبعد - عند النظر فى ملكية الأقاليم المختلف عليها - أثر عروبة السعودية وإسلاميتها على علاقات البلدين . وهذا ليس دفاعاً عن موقف اليمن ، أو هجوماً على موقف السعودية ، بل هو تعبير عن الواقع فقط .

ومن ناحية ثانية كان وضع السعودية بالنسبة للإمام مختلفاً عن وضع إنجلترا بالنسبة له ، وهذا يتضح باستعراض الأوضاع حينئذ على حدود اليمن . كانت إنجلترا قد توصلت فى هذه الأثناء إلى استتباب فعلى بالنسبة إلى حدودها ومصالحها ، فقد أجبرت الإمام على الخروج من المحميات وكان هذا هو كل ما يهمها ، فكأن الوضع فى جنوب اليمن فى الحقيقة كان مستقرًّا من الناحية العملية - نظراً لقوة إنجلترا وأعمالها الحربية السابقة - ولا ينقصه إلا شكلٌ شرعىٌّ من الناحية النظرية ينظم العلاقات والأوضاع القائمة . أما بالنسبة للحدود الشمالية ، فكان الوضع غير مستقر من الناحية العملية أو النظرية ؛ إذ كان كلا العاهلين ينادى بحقوقه فى هذه المناطق ، ولكنهما لم يتمكنا - كما فعلت إنجلترا - من أن يضع كل منهما الآخر أمام الأمر الواقع فيحتل إقليماً معيناً ويجبر الآخر على الاعتراف به ، ولهذا ظل الأمر معلقاً دون الوصول إلى نتائج نهائية .

ومن ناحية ثالثة ، كانت الأقاليم المختلف عليها فى الشمال ، أكثر غنى من الناحية الإنتاجية - كما ذكرنا قبل ذلك - عن المحميات فى الجنوب ، وقد يكون هذا هو الذى أشعل الصراع ، وجعل كلا من الملكين يحرص على أن تكون تحت سيادته .

وهكذا يمكن اعتبار النقاط السابقة ، هى الأساس الذى تعتمد عليها إجابة السؤال ، أو أنها - دون وضع إجابة نهائية قاطعة - توضح جوانب الموضوع دون البت فيه .

وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه النقطة بالذات مثار تعليق ، فقد نقلت الأهرام عن « الديلى تلغراف » الإنجليزية رسالة لأحد محرريها جاء فيها : « لقد انتهى الإمام الآن من توقيع المعاهد مع بريطانيا ، وتسوية المسائل التى كانت موضوع النزاع ، لذلك فقد يرى أن الفرصة سانحة الآن ، لمحاولة البت فى الأمور المعلقة بينه وبين الملك ابن السعود »[١] . ورغم أن هذا التعليق يوضح النقطة الهامة التى سبق الإشارة إليها ، إلا أنه فى الحقيقة لا يعنى تماماً الدعوة إلى قيام حرب ، بل يذكر أن الفرصة - ونرى نحن أن الفرصة هنا تعنى التفرغ - أصبحت أكثر ملاءمة ليتخذ خطوة أكثر جرأة لإقرار الأوضاع على حدوده الشمالية . ولكن لا مناص من الاعتراف بأن التحسين النسبى فى علاقات كل من الإمام يحيى مع بريطانيا ، وكذلك الملك عبد العزيز مع الدولتين الهاشميتين على حدوده الشمالية فى هذه الأثناء (سنة ١٩٣٤) قد جعل التوتر بينهما أكثر حدة ، ومعنى هذا بالتالى أن توقيع المعاهدة الأنجلو - يمنية فى ١١ فبراير سنة ١٩٣٤ ، أدى إلى زيادة الحدة بين اليمن والسعودية »[٢] .

أحداث الحرب اليمنية السعودية :

بدأت الحرب عنيفة قوية وخاصة من الجانب السعودى الذى كان مدفوعاً بشدة ، ولم تحاول القوات السعودية القيام بأى هجوم مباشر على

---

(١) الأهرام : الصادر فى ٥/ ٤/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

(٢) Survey of International Affairs, 1934, p. 312.

جنوب جبال عسير ، حيث أثبت رجال القبائل - التابعة للإدريسى - قدرتهم على الثبات حتى قبل أن تصل إليهم الإمدادات اليمنية ، وأصبحوا أكثر قدرة على المقاومة والحرب بعد أن وصلتهم هذه القوات . وقد ركز الوهابيون جهودهم أساساً على قطع الاتصال بين جبال عسير وبين اليمن ، وقاموا بحركة التفاف من ناحية تهامة وكذلك من ناحية الداخل ، وفى النهاية ركزوا عملهم فى تهامة نفسها من جانب وفى نجران من جانب آخر . وقد تجنبوا بوجه عام الحرب فى الجبال لأن اليمنيين جبليو الأصل ، أو بمعنى آخر أكثر دربة على الحرب فى الجبال[١] .

عرفنا قبل ذلك أن الأمير فيصل كان على رأس القوات التى عليها أن تحارب فى تهامة ، أما الأمير سعود فكان عليه الحرب فى جبهة نجران . وكانت تحركات الأول وانتصاراته أسرع بكثير من الثانى ، وذلك راجع إلى طبيعة ميدانى الحرب فى كل جهة . فكان تقدم الأمير سعود بطيئاً نظراً لوعورة الإقليم ، وخوفاً من أن تقطع خطوط مواصلاته مع مراكزه الأصلية فيهاجمه العدو من الخلف ، إلا أنه على كل حال ، استطاع أن يصل بسهولة إلى « باقم» أول قرية يمنية هامة على الطريق الرئيسي إلى صنعاء[٢] . ورغم انتصارات الأمير سعود فى جبهة نجران ، إلا أن نزيه العظم يذكر أن القوات اليمنية قد انتصرت تحت قيادة سيف الإسلام أحمد على جيوش الأمير سعود فى معركة جبل «باقم » المشهورة على حدود نجران ، وأن هذه المعركة كانت السبب الحقيقى فى توقف القتال وعقد الهدنة ثم المعاهدة[٣] . وقد عقب نزيه العظم حديثه عن المعركة بقوله : « إنه لا يجب الدخول فى تفاصيل الحرب ، فإن ذلك ليس فى مصلحة أحد ، وأنه

---

(١) Survey of International Affairs, 1934, p. 317.

(٢) Philby O Saudi Arabia, p. 323.

(٣) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى البلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٣٢١ .

حريص على تقريب وجهتى نظر العاهلين العظيمين » . هذا التعقيب لا يجعلنا نعتمد على روايته - انتصار سيف الإسلام - كثيراً بالرغم من أهمية دلالتها عند تتبع سير أحداث هذه الحرب . ورغم أننا لا نحب أيضاً الدخول فى تفاصيل الحرب - لا لما ذهب إليه نزيه العظم ، بل لقلة الوثائق والمراجع التى يمكن الاعتماد عليها - إلا أننا نرى أنه من الأفضل رسم اتجاهاته بوجه عام .

كان النصر حليف القوات السعودية فى هذه الحرب السعودية اليمنية ، ففى ٩ أبريل ١٩٣٤ أعلنت الحكومة السعودية أن حركة التطويق حول جنوب جبال عسير قد توجت بالنجاح . وفى ١٢ أبريل من نفس العام أبرق الإمام إلى الملك عبد العزيز آل السعود يطلب الهدنة ، وذكر أنه قد أصدر أوامره لقواته بالجلاء عن نجران ، وعندئذ وضع ابن السعود أربعة شروط لإعلان الهدنة ، وهى : الجلاء عن نجران ، تسليم الرهائن التى أخذها الإمام من القبائل الخاضعة لابن السعود ، قطع العلاقات بين اليمنيين وبين هذه القبائل ، تسليم السيد حسن الإدريسى طبقاً لمعاهدة ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ . ولضمان تنفيذ هذه الشروط لم يتوقف ابن السعود عن الحرب بل واصلت قواته زحفها ، بل أصبح تقدمها أسرع من ذى قبل . ففى ٢٧ أبريل استطاعت الحكومة السعودية أن تعلن إتمام احتلال نجران ، ودخول ميناء « ميدى » (على الحدود) وتبع ذلك دخولهم « اللحية » فى أول مايو ، ثم دخلوا « الحديدة » فى ٤ مايو . ومن المعروف أن دخولهم المدينة الأخيرة كان بدون حرب فقد كانت قوات الإمام قد انسحبت إلى الجبال . وبعد هذه الانتصارات وجد الوهابيون أنفسهم على أبواب « صعدة » (المركز الزيدى الهام) فى جبهة نجران ، وعلى أبواب صنعاء نفسها فى جبهة تهامة . وقد كان من الممكن أن يقود هذا الانتصار العسكرى ابن السعود إلى مهاجمة قلب المملكة

اليمنيـة ، ولكنـه كـان يـدرك حقيقتين هامتين ، كـانـا فى صـالحه ، ولكنهما قـد يفقـدان أهميتهما إذا واصل زحفـه فى اليمن . فهـو قـد حـارب فى أرض سهلـة مفتـوحة ، شعـر جنده فيهـا أنهم فى أقاليم غير غـريبة عنهم . كما أن تقـدم ابن السعود كان فى وسط جهات صديقة لـه ، أو على وجه التحديد كان أهالى تهامة السنيين والعناصر الإسماعيلية فى نجران ، لا يعارضون فى تقدم الوهابيين إليهم ، أو على الأقل لا يجدون غضاضـة ما فى خضوعهم للسيادة الجديـدة التى يمثلها ابن السعود.ومن نـاحية ثانيـة ، فدخول قـواته المناطق الجبليـة - أى إذا فكر فى مهـاجمة صعدة وصنعـاء - فإن معنى ذلك أنـه سيحارب اليمنيين فى أقـاليمهم الجبلية ، وهـم أكثر خبرة بالحرب فى هذه الجهات . لهذا كله فقد وافق ابن السعود على الهدنة فى ١٣ مـايو ، وفى ١٨ مايـو عقد مـؤتمر للصلح فى « الطائف »[١] . وفى ٢٠ مايو عقدت معاهـدة الصلح فى نفس المكان . وقد قبل ابن السعود مد الهدنة لعدة أيـام بعد انتهاء موعـدها فى ٢٩ مايو ، وذلك بنـاء على طلب الإمام حتى يتم تنفيذ الشروط المتفق عليها[٢] .

ولكن الحرب رغم سرعة وقائعهـا وقصر مدتها ، كانت ذات أهمية كبيرة فى سيـاسـة كل من البلـديـن . وأهميتهـا فى الحقيقـة لا تـرجع إلى الأعمال الحربيـة فحسب ، بل إلى النتائج التى ترتبت عليها ، وإلى الأحداث التى صاحبتها ولهذا يجب أن نتنـاول عدة نقـاط لتوضيح الظـروف والملابسـات التى صاحبت هـذه الحرب قبل بحث نتائجها .

ما هو سبب قصر مدة الحرب وسرعة أحداثها ؟ وما هو سبب توقفها ؟

ما هو موقف البلاد العربية من هذه الحرب ؟

---

(١) تقع فى جنوب الحديدة ، وهى غير « الطائف » الشهيرة التى فى الحجاز .

(٢) Survey..., 1934, pp. 317-318.

ما هـو موقف الـدول الأوربية الكبرى ذات المصـالح فى هذه المنطقـة من هذه الحرب ؟

تمخضت العلاقـات اليمنية السعـودية منـذ بدايتهـا عن هذه الحرب ، أو بمعنى آخـر كانت هـذه الحرب عبارة عن نهاية لنـوع من العلاقـات نشأت بين بلدين تشـابكت حدودهما على غير أساس سليـم مستقر . وقد رأينـا أن المسألة الوحيـدة المعلقة بينهما هى مسألة الحدود ، ومنهـا نشأ التوتر الـذى رأيناه ، ومن أجلها قامت الحرب أيضاً ، فلما أحرز ابن السعـود انتصاراته بما يضمن له تحقيق مشكلاتـه بالنسبة لهذه الحدود ، ولمـا سلم الإمام بكل مطالبـه وخاصة عنـدما وقعت « الحديـدة » فى يد القـوات السعوديـة ، رأى أنـه لا داعى للاستمـرار فى حـرب لا يحمد عقبـاهـا ، خـاصة وأنها كـانت على وشك الـدخـول فى مرحلـة جديـدة. أما سبب تلاحق أحداث الحرب وسرعتهـا ، فيرجع إلى استعداد جيش ابن السعود بـالمعدات اللازمـة ، وحربه فى مناطق سهلـة مفتوحة تشبـه بلاده ، وتـلائم جنـوده البـدو . هـذا غير أن الإمـام ، وقـد رأى قـوة الجيش السعـودى المهاجم ، لم يشأ - كما نعتقد - أن يدخل معه فى معارك حامية فاصلة ، لا ينتظر أن ينتصر فيهـا حيث إنها تدور فى منـاطق لا يجيـد جنـوده الحرب فيها ، لـذلك فضل الانسحاب إلى الجبـال والتحصن فيها ، بدلا من أن يفقد جيشـه فى تهامة ذات الحر الشديد . وبالأحرى نحب أن نـذكر أن العامل الجغرافى كان من أهم العوامل فى سير أحداث هذه الحرب بالسرعة التـى رأيناها كما أنه أيضاً كان من أهم أسباب توقفها .

حقق ابن السـعود فى فترة الحـرب الوجيـزة الكثير ، واستطاع الاستيلاء على الأقاليم التى فشل فى الحصـول عليها بالطريق الدبلـوماسى ، كما استولى

على أراضٍ أكثر مـن ذلك بكثير . وهنـــــا - ونتيجـة العــــــــوامل الأخــرى - ولأن الإمـام قبل كل شروطه - فضـــــل السـلام على الاستمرار فى الحــرب .

ونحن هنـا لا نعتقـد كثيراً أن ابن السعود كـان يطمع فى احتـلال اليمن ، ويرغب فى ضمـه لبلاده ، فهو من ناحيـة يشعر بأن لليمن كيانـه الخاص ، وأنه كان يحتفظ بهذا الكيان المتميز على مر التاريخ ، لذلك كان ابن السعود لا يميل إلى الدخـول فى مغامرة من هـذا النوع فى أجزاء تبعـد عن عاصمته « الـرياض » كثيراً ، وتختلف عن باقى بلاده فى عدة نواحٍ .

أما من ناحية اليمن ، فقد كان فى استطاعة الإمام أن يمد أجل هذه الحرب - رغم الهـــزائم الحربيـة - إذا رفض شروط ابن الســـــعود . وكان بـإمكان الإمام تحــــــويل هذه الحرب إلى حرب « عصابـات » - مثلا - لا تنتهى بين الجبال - كما حدث زمن العثمانيين - إذا واصل ابن الســـعود الحــرب فيها ، أو إذا كان ابن السعود قد أصر على شروطه إذا رفضها الإمـام ، إلا أن الإمــــام آثر الســـــلم تحت ضغط الهزائم المتـوالية . كـذلك أحس الإمام أن الأقـاليم المتنازع عليها فى عســـير ونجـــــران - والتى كانت شروط ابن الســـعود لا تتضمن إلا تسـوية شئـونها - لا تحمل له إخـلاصاً صـادقاً أو ولاءً حقيقيًّـا ، لذلك كان لا يميـــل إلى الاستمرار فى حـــرب ستكلفه الكثير دون أن يتحقق من الفـــوز .

وقد كـان لنظام جيش ابن السعـود وحسن تدريبـه وسرعة تقـــــــدمه فىتهامة ، أثـر كبير فى إنهاء الحرب وتوقفهـا . فقد شـاع حينئذ - عنـدما دخـل الجيش السعـودى مينـاء الحديـدة - أن الإمام يحيـى قد تـوفى ، وأن نـار الثـورة

قد شبت فى صنعاء ، وأن سيف الإسلام أحمد لجأ إلى الفرار[١] ، ورغم خطأ هذه الإشاعات - كما اتضح فيما بعد - إلا أنها تعبر عن حدوث شيء من الفوضى والجزع فى اليمن ، وهذا هو طبعاً مما دفع الإمام إلى قبول الصلح . وكان للقوى الأجنبية أثر فى وقف الحرب سيتضح فيما بعد .

موقف العالم العربى من الحرب اليمنية السعودية :

أثارت الحرب بين اليمن والسعودية جزعاً كبيراً فى العالم العربى ، فأسرع عندئذ واتخذ موقفاً إيجابيًّا مشرفاً . ولكننا يجب أن نفرق بين جهتين فى العالم العربى : **الأولى** : الحكومات العربية ، **والثانية** : الهيئات والطوائف والمنظمات الشعبية . وكان هناك فرق بين كل من الجهتين : فالأولى ، آثرت الموقف السلبى ولم تسع للتوسط ، بل ظلت تعلن حيادها أو تدعى ذلك حتى نهاية الحرب . وقد يرجع ذلك إلى أن أغلبها كان واقعاً تحت النفوذ الغربى ، فلم يكن لها حرية العمل فى المجال الدولى . وكان الملك فؤاد - ملك مصر حينئذ وأقوى شخصية فى العالم العربى - يمكنه القيام بعمل إيجابى هام مثل التوسط - وقد طلب الإمام منه ذلك فعلا - إلا أنه آثر الحياد محتجًّا بأنه لم يعترف بالملك ابن السعود بعد[٢] . أما الهيئات والطوائف والجمعيات العربية والإسلامية فقد أخذت على عاتقها مسئولية التدخل والتوسط لإنهاء هذه الحرب . وقد كان دافع هذه الجماعات دافعاً دينيًّا قوميًّا بحتاً ، إذ أحزنها قيام الحرب بين دولتين عربيتين إسلاميتين كانتا فى ذلك الوقت هما الدولتين الوحيدتين المستقلتين بين الدول العربية . وكانت الشعوب العربية تعلق عليهما - اليمن والسعودية - آمالا عريضة

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٧٤٣ فى / ٥/ ١٩٣٤ (١٩ محرم ١٣٠٣ هـ) ص ٥ .

(٢) الأهرام : العدد الصادر فى ٦/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ (عن جريدة الطان الفرنسية) .

فى تحرير باقى الدول العربيـة . وقد عقدت هذه الجماعات المؤتمرات ، وأصدرت البيـانات ، كما أنها أرسلت الـوفود مـن كبار الشخصيـات البارزة للتـوسط بين الملكين المتحـاربين . وبرز زيـادة التعـاطف الشعبى العـربى مع أحداث هـذه الحرب فى عـدة صور ، تمثلت فى الاجتماعـات وإصـدار التـوصيات والنـداءات وإرسال الوفود والممثلين وغيرها .

ونشرت الأهرام محضر الاجتماع الذى عقد فى دار الشبان المسلمين بالقاهرة لبحث مســـألة الحـــرب الســـعودية اليمنية فى ١٧ ذى الحجة ١٣٥٢ هـ (٢/ ٤/ ١٩٣٤) . وقـد حضر هـذا الاجتماع كثير من العلماء والصحفيين وكثير من أعضـاء الهيئات المختلفة ، مثـل جمعية الشبان المسلمين ، والاتحاد العـربى ، وجمعية الإخـوان المسلمين ، وجمعية المحافظـة على القرآن ، والجمعية العـامة لمنع المسكرات ، ولفيف كبير من السوريين والفلسطينيين والمغـاربة والأندونيسيين . وقد قرئ فى هذا الاجتماع نص التلغـراف الوارد من الإمام يحيى المؤرخ أول أبريل ١٩٣٤ الموجه إلى السكرتير العام للاتحاد العربى العام بالقاهرة ، وقد جاء فيه :

« وقد أمرنا الآن مندوبنا السيد عبـد الله الوزير ورفاقه الموجودين بـ« أبها » أن يبلغـوا جـلالـة الملك عزمنـا على التفـاهم الشفهى فالإســـــلام يسألكم إيفـــــاد رجل تعتمدون ديانته وإنصـافه إلى مكة المكرمة ، لمرافقة السيد عبد الله الوزير .. » .

وقـد انتهى هذا الاجتماع : « بعـد بحث مسألة النـزاع بين عاهلى الجزيـرة العربية » إلى :

أولاً : انتخاب الدكتور عبد الحميد سعيد للسفر إلى مكة المكرمة .

ثانياً : تأليف لجنة مركزيـة بالقاهرة للاتصال بالدكتـور عبد الحميد سعيد أثناء قيامه بمهمته ، وللعمل لتأييده بكل الوسائل المشروعة .

ثالثاً : إرسال برقية إلى كل من الإمام يحيى وابن السعود بالتماس الكف عن الحرب ، والرضا بالتحكيم حقناً لدماء المسلمين[١] .

وقد آثر الاتحاد العربى أن يرسل مندوباً عنه ضمن وفد المؤتمر الإسلامى بالقدس ، بعد أن عرف أن الهيئة الأخيرة ستوفد وفداً خاصًّا بها ، لأنه رأى أن تعدد الوفود قد يؤدى إلى توزيع الجهود[٢] . وكان إلى جانب هذه الجهود الجماعية جهوداً فردية أخرى تقوم بها شخصيات بارزة فى المجتمع المصرى حينئذ ، فقد أرسل حمد الباسل باشا (أحد زعماء حزب الوفد المصرى السابق) برقيتين إلى كل من الملكين المتنازعين ، وذلك بناء على طلب رئيس المجلس الإسلامى الأعلى بفلسطين ، وقد جاء فيهما :

« فزع المسلمون لكارثة الحرب ، ويأملون وقفها ، ومن الشجاعة تجنب تناحر الإخوة . أرجو جلالتكم باسم العرب المصريين الهدنة حتى تتم مساعى وفد المؤتمر الإسلامى »[٣] .

وقد شارك الأمير عمر طوسون فى هذا المجال أيضاً ، وقد جاءه برقية من الملك سعود - ردًّا على برقيته له - يشكره فيه على غيرته الإسلامية ، ويؤكد له كرهه للحرب ، ويلقى التبعة على الإمام يحيى[٤] .

وقد أخذ المؤتمر الإسلامى بالقدس على عاتقه أكبر قدر ممكن من المسئولية ، فقد بدأ بالكتابة المطولة إلى كل من الملكين المتحاربين يدعوهما إلى السلام ، كما أخبرهما بنية تكوين وفد للتوسط بين الفريقين المتنازعين ، وأنه بدأ يعد الأسماء اللازمة لتشكيل هذا الوفد . وقد

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٧١٤ فى ٣/ ٤/ ١٩٣٤ (١٨ ذى الحجة ١٣٥٢هـ) ص ٤ .
(٢) الأهرام : العدد ١٧٧١٤ فى ٣/ ٤/ ١٩٣٤ (١٨ ذى الحجة ١٣٥٢هـ) ص ٤ .
(٣ ، ٤) الأهرام : العدد ١٧٧١٤ فى ٣/ ٤/ ١٩٣٤ (١٨ ذى الحجة ١٣٥٢هـ) ص ٤ .

اتفق الـرأى أخيراً على أن يتكـون الــوفـد من الحاج أمين الحسينى (فلسطين) رئيس المؤتمر الإسـلامى ، ومحمـد على علــوبـة بـاشـا (مصر) والأمير شكيب أرسلان (سـوريا) وأحـد كبار رجـال العراق العسكريين اتفق عليـه فيما بعد . وقد تقرر سفر هذا الوفد بالطائرة إلى السعـودية حرصاً على موعد وصوله ، وكان الوفد يحاول أن يضم إليه هاشم بك الأتاسى أو ياسين باشا الهاشمى وقد انضم الأول فيها بعـد[١] . وممـا يدل على نشـاط المؤتمر واهتمام العـــالم العـربى بهذه الحرب ، أن المؤتمر أبـرق إلى شكيب أرســـلان - وكـان فى جنيف حينئـذ - بالتـوجه إلى مكـة فأسرع بتلبية الدعـوة ، وتوجه إلى مصر للســـفر منها - من ميناء الســـويس - إلى جـــدة[٢] . وقـد داوم وفـد المؤتمر فى السعـوديـة على مكاتبة مركزه الرئيسى فى القــدس ، ومـوافاته بالأخبار باستمرار . والحقيقى أنه يمكن الاستدلال مـن هذه المكاتبـات على مدى نشـاط هذا الـوفد واتصـالاته الواسعة .

وكانت حركة المشاركة فى جهود الـوفد مستمرة ، فقد سافر جميل مردم بك وعفيف الصلح بك ، وهما من الـزعماء السوريين ، إلى الحجـاز فى منتصف شهر مـايـو ، وضما مجهـودهما إلى مجهــود وفـد المؤتمر الإسـلامى . كما لم تقتصر هـذه المجهـودات على الناحيـة السياسيـة فحسب ، بل سافـر كذلك بعض الأطبـاء والممرضين إلى مكة المكرمة للعناية بالجرحى والمرضى فى الجيش السعودى ، كان من بينهـم الدكتور توفيق الشيشكلى نائب حماه ، والـدكتور مدحت البيطار ، وقد شارك هؤلاء أحد الصحفيين هو رشيد الملوحى[٣] .

شارك هذا الوفد أحداث الحرب اليمنية السعودية حتى النهاية، فقد سافر إلى اليمن عندمـا أعلنت الهدنة وهـدأت الحالة ، بل شـارك ابن الوزيـر فى سفره

---

(١) الأهرام : العدد الصادر فى ٦ و ٧ أبريل ١٩٣٤ ، ص ٤ و ص ٥ .

(٢) الأهرام : ٩/ ٤/ ١٩٣٤ .

(٣) الأهرام : ٩/ ٥/ ١٩٣٤ ص ٤ .

إلى الحديدة لإتمام المفاوضات وعقد معاهدة الصلح ، وقد حضر بعض أعضائه هـذه المفـاوضـات ، وهـم أمين الحسينى وهـاشم الأتـاسى والأمير شكيب أرسلان[١] . وأخيراً عاد الوفد إلى السويس فى أواخر شهر يونية وأوائل شهر يولية ١٩٣٤[٢] . ومما لا جـدال فيه أنه كان لهذا الـوفد مجهود لا ينكـر ، فهو على أقل تقديـر ، تعبير عملى قوى عن موقف العـالم العربى إزاء هذه الحرب ، وانزعـاجه لقيامها ، ومحاولاتـه التوسط لإنهائها ووقفها . وهذا بالـرغم من أن هناك من يرى أن تأثير أعمال هذا الـوفد المباشر لم يكن كبيراً على الأحداث السيـاسية والحربية التى وقعت[٣] . ولكننا نرى أن هذا القول لا يقلل من أهميـة هذا الوفد وزيارته ، بل إننـا - على الأقل - سنرى أن معـاهدة الصلح ستعكس مـوقف هذا الـوفد وأثره من الناحية النظرية والفكرية .

ولم يكن الوفـد وأعماله أو البرقيات المختلفـة ، هى كل آثار ودلائل مـوقف العالم العـربى إزاء هذه الحرب ، فقـد شاركت الصحف مشـاركة قـوية فى إنهاء هـذه الحرب . فظهرت المقـالات الطويلة تدعـو إلى السلام والصلح ، ورغم أن بعض الصحف قد هاجمت أحـد الطرفين ، وكان البعض الآخر يـرد على هذا الهجوم ، فإن هذا كله لا يقلل من دور الصحـافة إزاء هذه المشكلة القـائمة . فقد عبأت الصحف الشعور العـربى ضد الحرب بوجـه عام ، وخاصـة بين دولتين عربيتين إسلاميتين ، بل كانت هـذه الحرب فى الحقيقة مثاراً أو محكًّا لظهور أفكـار قومية ذات أصاله بعيدة . فقــد نوقش أثناء هذه الحـرب إمكان قيــام وحـدة عربية ، وتكرر الحديث عـن إمكان قيــام علاقـات سليمة بين البـــلاد العـربية ، بل دعت « المنـــار » إلى قيام حكومة عربيـة واحــدة ، أو قيـــام تنظيم عام يحقق الوحـــدة والســـلام بين الشعوب العـربية ، ونحب أن نذكـر هنا نص رأى المنـــار فى هذه الناحيـة ، بالرغم من أنهـــا بالـذات كانت معروفـة - حينئذ -

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٧٨٠ فى ٩/٦/ ١٩٣٤ (٢٧ صفر ١٣٥٣هـ) ص ٦ .

(٢) الأهرام : فى ٢٦/ ٤/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

(٣) Survey of {nternational Affairs, 1934, p. 318.

بميولها نحو السعودية ، فكانت تهاجم أحياناً الإمام يحيى ، وتصوره بأنه الداعى للحرب ومثيرها ، قالت : « يجب أن تكون للجزيرة العربية كلها حكومة واحدة، بل للأمة العربية إذا أمكن فهذه سياسة الشرع ومقتضى العقل وتجارب الأمم ، فإن لم يمكن إخضاعها لحكومة واحدة من غير فتنة ترجح فيها المفسدة على المصلحة ، فالواجب أن يكون التعدد فى الصورة والشكل ، مع الوحدة فى السياسة والقصد »[1] .

موقف الدول الأوروبية من الحرب اليمنية السعودية :

اهتمت الدول الأوروبية الكبرى بهذه الحرب كذلك ، وكان هناك مظاهر عملية لهذا الاهتمام ، كما كان للعالم العربى أيضاً ، وإن اختلف الاهتمامان - فى الشكل والغاية - بعضهما عن بعض . وقد تجلت اهتمامات الدول الغربية فى عدة مظاهر ، أهمها إرسال السفن الحربية إلى الحديدة ، وكذلك الاتصال بالملكين ، هذا فضلا عن التصريحات والتعليقات الكثيرة التى ظهرت أثناء الحرب .

أسرعت الدول الأوربية ذات المصالح الحيوية فى البحر الأحمر ، بإرسال سفنها الحربية إلى الحديدة ، وهى إنجلترا وإيطاليا وفرنسا[2] . وكان يدفعهم ظاهرياً عدد من الحجج تذرعوا بها ، منها تهنئة القائد السعودى الأمير فيصل لانتصاره الخاطف ، ومنها تسهيل أعمال هذا القائد فى الحديدة ، بعد أن دخلها. وقد كان من المعروف أن هذا الاهتمام المفاجئ - الذى أظهرته الدول الكبرى فى اليمن - هو الذى صد الملك عبد العزيز بن السعود عن زيادة التوغل داخل اليمن[3] . ومن ناحية أخرى ، لقد صاحب هذه المظاهرة البحرية ظاهرة عامة ، وهى أن هذه الدول لم تكن متفقة فيما بينها على

---

(١) المنار : المجلد ٣٤ ، جزء أول ، فى ٢٩ المحرم ١٣٥٩ هـ (مايو ١٩٣٤) ص ٨٠ .

(٢) Bremond : Yemen et Saoudia, p. 113.

(٣) Philby : Saudi Arabia, pp. 323-324.

الإجراءات التى يجب أن تتخذها[1] . ولا شك أن سرعة زحف القوات السعودية من ناحية ، وصعوبة غزو جبال اليمن من ناحية أخرى ، إلى جانب اختلاف وتضارب مصالح هذه الدول فيما بينها ، كانت سببًا فى عدم اتخاذ الموقف الموحد إزاء هذه الحرب .

وقد كان لكل من إنجلترا وإيطاليا وفرنسا . مصالح وعلاقات ذات أهمية فى هذه المنطقة، فإنجلترا تحتل عدن ، وتفرض نفوذها على محمية عدن المتاخمة لليمن ، كما أنها قد توصلت فى فبراير سنة ١٩٣٤ إلى عقد معاهدة صلح مع الإمام يحيى ، لذلك كان يهمها كل ما يحدث من تغيرات أو أحداث على حدود محمياتها ، وكان لا بد لها من الا هتمام بالحرب اهتمامًا كبيرًا مباشرًا . أما إيطاليا فهى إلى جانب وجودها فى أريتريا، وإلى جانب أطماعها الاستعمارية فى جنوب البحر الأحمر بوجه عام ، واليمن بوجه خاص ، كانت الدولة الأولى صاحبة النفوذ الأعلى فى اليمن ، فهى ترتبط بالإمام بمعاهدة صنعاء (فى سبتمبر سنة ١٩٢٦) لمدة عشر سنوات ، ولذلك كانت تعتبر نفسها صاحبة المصالح الهامة ، وكان عليها بالتالى الاهتمام بأية أحداث أو تغيرات تحدث فيه ، كما كانت تنظر إلى هذه الحرب وكأنها مظهر من مظاهر الصراع الاستعمارى بينها وبين إنجلترا . أما فرنسا فقد كانت تهتم بالحرب لخوفها على مصالحها فى جيبوتى ، وعلى مصالح رعاياها المسلمين فى المدينتين المقدستين . ولكن هذه الأغراض الظاهرية كانت تغطى وراءها حرصها الشديد على مراقبة نشاط إنجلترا وإيطاليا فى المنطقة ؛ وكانت تخشى أن يفوزا بمكاسب استعمارية جديدة فيها .

حقًا لقد كانت الحرب السعودية اليمنية ، محكًا لتوضيح التنافس الدولى التقليدى بين كل من تلك الدول الأوروبية الثلاث .

---

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٩٦ .

كانت إنجلترا - نظرًا لأهمية وحيوية مصالحها هناك - هى السباقة فى اتخاذ المواقف العملية ، فقد انتهزت هذه الفرصة للاتصال بالملكين المتنازعين ، وأبدت نصيحتها للفريقين ، وأوصتهما بأن يتبعا خطة الاعتدال . وقد قام بهذا كل من الكولونيل « رايلى » الذى أوفدته الحكومة إلى صنعاء، والسير « أندروريان » وزيرها المفوض فى جدة . وكانت هذه الاتصالات ، عقب تقدم القوات السعودية ، وقربها من جزيرة « قمران » وهى تجاه الشاطئ اليمنى ويشرف عليها حاكم مدنى بريطانى . وكانت بريطانيا تقيم فيها محجرًا صحيًّا للحجاج الوافدين من بلدان الشرق الأقصى ، ولم يكن قد بت فى ملكية هذه الجزيرة بعد ؛ إذ كانت لا تزال تحت تصرف الدول الموقعة على معاهدة لوزان[١] . ولكن رغم اهتمام إنجلترا المبكر ، إلا أنها لم تظل الوحيدة فى هذا المجال ، فقد لحقتها باقى دول أوروبا ، المهتمة بالبحر الأحمر . فبدأت تظهر الدعوات الصريحة للتدخل بعد قيام الحرب بقليل ، وبدأت الصحف الغربية تحث حكوماتها إلى ضرورة التدخل لحماية مصالحها . فقد نقلت الأهرام مقالاً هامًّا عن جريدة « البتى باريزيان » الفرنسية تشرح فيه أسباب قيام الحرب ، كما تحدثت عن تطور علاقة الدولتين حتى قالت : « يجب أن ننتظر الحوادث القريبة التى يظهر أنها ستكون على أعظم جانب من الخطورة فى السياسة الإسلامية ، لأن السيطرة على مكة والمدينة لا تهم الدول العربية وحدها ، بل تهم أوروبا الاستعمارية أيضًا . ولذلك فإن من مصلحة فرنسا وإنجلترا وإيطاليا أن يرقبوا تطور النزاع بين الوهابيين واليمانيين عن كثب ، لأنه نزاع يمكن أن يحدث أعظم تأثير فى العالم الإسلامى »[٢] . ورغم أهمية هذه الدعوة فإنها تخفى وراءها أطماعًا استعمارية أخرى ، عبرت عنه بشكل أوضح جريدة « الديلى تلغراف » فبدأت توضيح ما قد يترتب على التوسع السعودى ، واحتمالات نتائج هذه الحرب ، وكان

---

(١) الأهرام : العدد : ١٧٧٣٨ فى ١٨/ ٤/ ١٩٣٤ (٤ محرم سنة ١٣٥٣هـ) ، ص ٦ .
(٢) الأهرام : العدد : ١٧٧٣٢ فى ١٢/ ٤/ ١٩٣٤ (٢٨ ذى الحجة ١٣٥٢هـ) ص ٤ .

تصريحًا يعبر عن ضرورة الاهتمام بالحرب ، وترقب أحداثها لاتخاذ مواقف عملية ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، فقالت: « إنه إذا انتصر الملك ابن السعود انتصارًا تامًّا ، وتلا ذلك ضم بلاد اليمن إلى أملاكه الحالية ، فإنه ينشأ إذ ذاك موقف على أعظم جانب من الأهمية ، لأنه سيكون سيدًا على الجزء الأكبر من شبه الجزيرة ، ومن المحتمل أن يشتعل شعبه حماسة بفكرة الجامعة العربية ، ومعنى هذا إيجاد اتحاد من جميع البلاد العربية الحالية ، عدا مصر تحت زعامته الأدبية على الأقل . وقد يكون تأثير هذه الفكرة فى سوريا وشرق الأردن عظيمًا ، فعلى الدول الأوروبية التى لها علاقات بالعرب مثل بريطانيا وفرنسا وإيطاليا أن تفكر فى هذا تفكيرًا جديًّا »[1] . وتواصل الأهرام نقل آراء الصحف الإنجليزية فذكرت أن جريدة « التيمس » أخذت فى شرح الآثار المترتبة على التوسع السعودى – وخاصة فيما يهم إنجلترا بالذات – فقالت : « هناك فى الشمال ثلاثة بلدان ارتبطت معها بريطانيا بالتزامات وتعهدات وهى العراق وفلسطين وشرق الأردن ، وفى الجنوب توجد ولاية عدن الواقعة تحت الحماية البريطانية . وإلى جانب ذلك ستقوم دولة عربية جديدة يحكمها ملك يتسلط على جميع الطرق المؤدية إلى مكة مع طرق القوافل العظيمة للحجاج ، ويمكنه جباية الضرائب فى نقط كثيرة منها ، وستدخل كذلك الخطوط الحديدية الموجودة والتى فى النية مدها تحت سيطرته . على حين توجد فى الشمال – ضمن حدود العراق – منابع الزيت العراقية التى يطمع فى الاستيلاء عليها[2] » . وكان لوصول الأخبار الرسمية بانتصارات الملك ابن السعود فى تهامة اليمن إلى لندن والعواصم الأوروبية ، أثر كبير فى إثارة المناقشات حول مستقبل مصالح هذه الدول فى جنوب غرب الجزيرة العربية على ضوء الأوضاع الجديدة المترتبة على انتصارات ابن السعود . وقد أرسل مراسل الأهرام الخاص برقية من لندن فى

---

(١) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٤ فى ٤/ ٥/ ١٩٣٤ (٢٠ محرم سنة ١٣٥٣هـ) ص ٥ .

(٢) الأهرام : نفس العدد والصفحة .

٤/ ٥/ ١٩٣٤ إلى جـريدته ، تصور لنـا الهمسات والمناقشات التـى تدور فى الأوسـاط الدبلوماسـية هنـاك . ورغم أنه ذكر أن المسـئولين الرسميين فى لندن لا يصـرحون بموقف معين انتظارًا للأحداث ، واعتمادًا على علاقاتهم الودية مع الملك ابن السـعود ، إلا أن هـذا لا ينفى وجـود اهتمام كبير بهـذه الحـرب ونتائجهـا وآثـارها ، فيقـول : « . . فالمقـامات السـياسية تكثر من البحث والمناقشـة فيها قد يكون لهـذه الصـدمة (انتصـار السـعودية) التى أصابت المطامع الإيطالية فى البلاد العـرب مـن الأثر فى خطـة السـنيور موسـولينى ، كما أنها تشـير (الدوائر السياسية فى لندن) إلى ما قد يكون لانتصارات القوات السـعودية من الأثر فى مصالح فرنسـا فى سـوريا . ولكن المصالح البريطا نية هى أكثر عـرضة للتأثـر ، إذا رعينا صـلات بريطـانيا بشرق الأردن وفلسـطين والعـراق والمحميـات البريطانيـة فى عـدن . والـواقع أن بعضهـم يقـول ، إن ازدياد هيبـة الملك ابن السـعود ونفوذه من شـأنه أن يشـجع عرب فلسـطين على التطلع إليـه ، لمعاونتهم فى مـوقفهم ضـد اليهـود . أما إمـارة شرق الأردن الضعيفة ، فـلا تعد سـدًّا قويًّا فى وجـه امتداد نفوذ الملك ابن السـعود ، بل تعـد على كل حـال بمثـابة وسـيلة اتصـال صالحة بين الـزعماء السـعوديين والوطنيين العـرب فى فلسطين ، الذين قد تعززت بطبيعـة الحـال آمالهم بهـذه الزيادة فى هيبـة العـرب ، وفوق ذلك لا يبعـد أن تكون منـابع الزيت الغنية فى العراق من العوامل التى تغرى الجامعـة العربية ، وتحملها على البحث عن موارد جـديدة لملء خـزانتها . وتـرى بعض المقـامات أنـه من المحتمل أيضًا تسـلط القوات السعودية على شاطئ البحر الأحمر الشرقى كله ، وهذا يعد عاملاً جديدًا لا بد أن يؤثـر - من وجهـة النظر الحـربية - فى كل بحث يجرى فى المستقبل فى العلاقات بين مصر وإنجلترا ، خصـوصًا فى مسألة الأماكن التى تـرابط فيها القوات البريطـانية فى مصر »[1] وأهمية هـذه التكهنات التى ظهـرت فى الدوائر السـياسية فى لنـدن ، أنهـا تبين بوضـوح الاحتمالات التى تثيرها انتصـارات

(١) الأهرام : ٥/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

ابن السعود فى اليمن ، ورغم أنها قد تكون احتمالات بعيدة المدى إلا أنها تعبر بصراحة عن موقف إنجلترا وأطماعها ومصالحها فى الشرق العربى فى تلك الفترة . فهى دون شك تخشى قيام وحدة عربية تحت لواء السعودية ، لأن ذلك يهدد مصالحها ومصالح باقى الدول الاستعمارية فى هذه المنطقة أيضًا . وخوف إنجلترا من قيام الوحدة ينبثق من خوفها على طرق مواصلاتها ومصادر البترول و المراكز العسكرية المختلفة ، وخاصة فى مصر ، بل ومن زيادة تعقيد المشكلة الفلسطينية .

ولكن هل هذا الاهتمام الكبير الذى ظهر فى عواصم الدول الأوروبية الثلاث ، سواء فى دوائرها السياسية أو فى صحفها ، يعبر بصراحة عن :

موقف حكومات هذه الدول الثلاث الرسمى إزاء هذه الحرب ؟

وعن اتفاق هذه الدول فيما بينها لاتخاذ موقف موحد بالنسبة لطرفى الحرب مادامت الحرب قد هددت أطماعها جميعًا ؟

وهل اهتمت هذه الدول بتلك الحرب لأنها ظاهرة تهدد السلام فى المنطقة ؟ أم لأنها خطر مباشر على مصالح وأوضاع هذه الدولة أو تلك ؟

وما دامت دوافع اهتمام هذه الدول واحدة ، وهى المحافظة على مصالحها ، فهل تشابه موقفها بالنسبة لطرفى الحرب - السعودية واليمن - ؟ أم إن هذه الدول اختلفت فيما بينها فى موقفها من كل هذين الملكين لاختلاف مصالحها ؟

مثل هذه الأسئلة الكثيرة ، تحتاج إلى بحث طويل لمعرفة مواقف تلك الدول من هذه الحرب ، التى تعتبرها فرصة عملية لإظهار أطماع ومواقف كل من الدول الثلاث من الشرق العربى فى تلك الفترة ، ولتوضيح مظاهر التنافس الاستعمارى فى بلاد العرب حينئذ ..

رغم أن فرنسا كانت أقل الدول الثلاث من ناحية مصالحها فى الجنوب غرب الجزيرة بوجه عام ، إلا أنها كانت ترقب باهتمام شديد - للأسباب التى ذكرناها - مجرى الأحداث فى بلاد العرب . ولكن وزارة الخارجية الفرنسية لم تحرك ساكنًا حتى أرسلت إيطاليا وإنجلترا السفن الحربية إلى الحديدة ، ففكرت هذه فى حذو حذوهما[١] .

أما انجلترا فقد كانت أكثر اهتمامًا لحيوية مصالحها هناك ، وانعكس آثار هذا الاهتمام فى صحفها وفى دوائرها السياسية ، لذلك كان موقفها الرسمى أكثر تحديدًا . فقد أدلى وزير خارجيتها فى مجلس العموم فى ٢٧ مايو سنة ١٩٣٤ ، بحديث هام يعبر عن موقف إنجلترا الرسمى ، فقال إن الحكومة البريطانية تراعى فى خطتها الحياد الدقيق بإزاء النزاع القائم ، الذى من أجله تتخذ الحكومة البريطانية التدابير التى تراها ضرورية لحماية أرواح الرعايا البريطانيين وأملاكهم والأشخاص الذين تحت حمايتها فى المنطقة التى يتناولها القتال[٢] .

وكان الأمر يهم إيطاليا كما يهم انجلترا تمامًا ، فقد بعث مراسل الديلى تلغراف فى روما يقول أنه علم أن إيطاليا لا توافق على سقوط اليمن فى أيد أخرى ، وهى تنظر بعين القلق ولا سيما إذا طال أمد الحرب أو اشتد وطأتها[٣] . كما يذكر مراسل الأهرام فى روما أن الدوائر السياسية هناك ، تذهب إلى أن إرسال ثلاث بوارج إلى مياه الحديدة ناشئ عن وجود كثير من الإيطاليين فى هذه المنطقة ، حيث توجد مستودعات كثيرة للبن ، وعدد من المستشفيات الإيطالية . وترى هذه الدوائر أن إيطاليا لا يمكن أن تقف موقفًا من شأنه إيجاد سوء التفاهم مع انجلترا ، التى لها أيضًا مصالح

---

(١) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٧ فى ٧/ ٤/ ١٩٣٤ (٢٤ محرم سنة ١٣٥٣هـ) ص ٤ .
(٢) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٨ فى ٨/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .
(٣) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٦ فى ٦/ ٥/ ١٩٣٤ (٢٣/ ١/ ١٣٥٣هـ) ص ٤ .

عظيمـة فى تلك عظيمـة فى تلك المنطقـة ، وأنه يحسـن بالدول العظمى أن تتفق على انتهـاج خطـة واحـدة بإزاء الأحـوال الحاضرة فى جـزيرة العـرب[١] . وقد نقلت الأهـرام تعبير جريدة الـديلى تلغـراف عن هـذا الموقف المحـدد لكل من الدولتين ، فقالت إنـه : « لما للحكومتين البريطانية والإيطالية من المسـتعمرات القريبة من منطقـة الحـرب فى جزيـرة العـرب ، فقد كانتا على اتصـال وثيق فيما يتعلـق بهـذه المسـألة منذ نشـوب الحـرب . وليس معنى هـذا أن إحـدى الدولتين تنوى التـدخل فى النزاع ، إن كل ما يهمها هو حمـاية مصـالحها فقط »[٢] .

وجدير بالذكر هنا الإشارة إلى قـوة أخرى رابعة اهتمت بالحـرب الدائرة هناك اهتمامًا كبيرًا أيضًا ، ألا وهـو الاتحاد السوفيتى . فقد نبهت جـريدة إيفننج ستاندرد إلى وجـود هـذا الاهتمام ، وإلى مصـالح الاتحاد السوفيتى فى الجزيرة العر بيـة . وقد نقلت الأهرام هـذا التنبيه عن تلك الجريـدة ، التى استدلت على ذلك بأن روسيا كـانت أولى البلاد التى رفعت قنصليتهـا فى جدة إلى مفـوضية ، وأن السوفييت كـانوا قد أرسلوا إلى اليمـن أكثر من بعثة علمية وتجاريـة ، يعتقد البعض أنها لا تخلوا من أغراض سياسية[٣] .

مظاهر التنافس بين انجلترا وإيطاليا :

وعلى كل حـال لقـد ترجمت هـذه المواقف المختلفة - وخاصـة من جـانب إنجـلترا وإيطـاليـا - إلى عمـل إيجـابى هـام . فقـد أرسـلت كل من الدولتين سـفنها الحـربية إلى مينـاء الحـديدة ، إذ لم تشـأ كل منهمـا أن تقفـا مكتوفتى اليـدين إزاء هـذا الحرب ، لأنها تهدد مصالحها فى المنطقـة من ناحيـة ، ولتضـارب هـذه المصـالح والأطماع فيما بينهما من ناحيـة ثانيـة . وقـد

(١) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٨ فى ٦/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .
(٢ , ٣) الأهرام : العدد : ١٧٧٤٩ فى ٩/ ٩٣٥ ، ص ٤ .

اتخذتا موقفًا أكثر إيجابيـة وجرأة ، فعندما اقتربت قـوات الأمـير فيصـل من الحـديدة ، أنزلت كل من الدولتين بعض جنـودها إلى المدينـة نفسها لحماية رعـايـاها كما ذكرنا . ولكن اسـتتباب الأمن بسـرعة فى المدينـة ، وإعـلان الملك ابن السـعود أنـه كفيـل بالمحافظـة على أرواح رعايـاهما وممتلكاتهم اضطرتا إلى سـحب جنودهما مرة أخـرى إلى السـفن ، مع بقـائها أمام الحـديدة . وقد نشرت جميع صحف روما فى ١١/ ٥/ ١٩٤٣ بيانـًا شـبه رسمى عن الحـالة فى الجـزيرة العـربية ، يعـرض مصالح إيطاليـا هناك ، وأن لهـا علاوة على بعض المنشئات الصحية التى يدبـرها أطبـاء إيطاليون ، مصالح اقتصاديـة لشركات الملاحـة الإيطاليـة ، وأن هـذه المصـالح تعلـل التدابير الاحتياطية التى اتخـذتها - كما اتخـذتهـا انجـلترا - بعـد انسحـاب القوات اليمنيـة من تهـامة . وأخـذ البيـان يعـدد التـدابير الحربيـة البحـرية التى اتخـذتها إيطاليـا ، وعـدد السفن التى أرسـلتها إلى هناك ، ثم اسـتطرد قائلاً إن إيطاليا أنزلت - كما أنزلت إنجـلترا - فصـيلة من بحاراتهـا لحماية الرعايا الإيطاليين فى الحـديدة، ولكنـه ذكر أخـيرًا أن دخـول القـوات السـعودية فى الحـديدة ، بقيـادة الأمـير فيصـل الـذى كفـل حيـاة الأجـانب وأملاكهم ، وتحسـن الحـالة فى المنطقة إلى حـد لا يبعث على القلق ، حمـلا إنجـلترا وإيطاليا على اسـترجاع قواتهما[1] . وهـذا البيـان ، فضـلاً عما يذكره من التدابير التى اتخذت ، فإنه يصور بصراحة روح المنافسـة الموجـودة بين إنجـلترا وإيطـاليا ، وأن كل منهما كانـت حريصـة على ألا تنفـرد أيهما بعمـل ما دون الأخـرى .

وهنـا يتضح أمر هـام بالنسبة لهذه المنافسـة الاستعمارية التى تخفى وراءها أغراضًا متناقضة ، فمن المعروف أن إنجلترا وإيطاليا حاولتا اتخاذ مواقف عملية متشـابهـة ، وأن كل منهما حـاولت ألا تنفـرد الأخـرى بعمـل ما ، كما امتنعا عن

(١) الأهرام : فى ١٢/ ٥/ ١٩٣٤ .

الانحياز إلى أحد طرفى الحرب دون الآخر ، ولكن بعد أن تقدمت أحداث الحرب ، وبعد أن أصبح الأمر أكثر وضوحا ، بدأت كل من الدولتين الكبيرتين تظهر ميلها إلى جانب - اليمن أو السعودية - دون الآخر ، وزاد هذا وضوحًا بعد دخول القوات السعودية « الحديدة » .

ولتوضيح ذلك يمكن القيام باستعراض تاريخى سريع لعلاقة كل من الدولتين الأوروبيتين بكل من الملك عبد العزيز والإمام يحيى . فإيطاليا كان لها معاهدة مع الإمام من سنة ١٩٢٦ ، ورفع هذا من شأنها وقوى نفوذها فى اليمن ، ولكنها لم يكن لها إلا قنصلية عادية فى جدة كباقى الدول المختلفة . أما إنجلترا فكانت لها - من ناحية - معاهدات مع كل من الملكين العربيين ، ولكنها لم تكن تنسى طبيعة علاقتها مع كل منهما من ناحية ثانية . إذ كانت ترى أن الملك ابن السعود أسلس قيادة وأقل عنادًا من الإمام يحيى ، كما أن الأول ليس له مطالب الثانى فى منطقة عدن المحمية. وهنا نستطيع أن نقول إن إنجلترا قد بدأت تنحاز أو تميل إلى جانب السعودية ، بينما مالت إيطاليا إلى جانب اليمن . وكان كل من الملكين العربيين يمثل - من وجهة نظر إنجلترا وإيطاليا - قناعًا للمنافسة بين هاتين الدولتين فى حقيقة الأمر .

ويجب ملاحظة أن هذا كله لا يتناقض مع ما سبق أن ذكرناه من أن موقف كل من هاتين الدولتين الأوربيتين الرسمى كان الحياد ، وعدم التدخل أو الانحياز ، لأن ميل كل من الدولتين إلى جانب دون الآخر لم يترتب عليه أية مواقف عملية تدل عليه .

بدأت الصحف الإنجليزية تكيل التهم إلى إيطاليا و إلى نواياها وأعمالها، وكانت الصحف الإيطالية تقوم بنفس العمل كذلك . فقد حدث بعد قيام الحرب بحوالى شهر - وقد اتضح هزيمة القوات اليمنية - أن أشارت جريدة

«مورننج بوست » الإنجليزية ، إلى أن هناك بعض الأجانب باليمن يعملون لحساب دولة أجنبية - وكانت تقصد إيطاليا بطبيعة الحال - وأنهم شجعوا الإمام يحيى على خطته التى تنطوى على التحرش وإثارة العداء مع جاره القوى الملك ابن السعود . وأشارت الجريدة إلى أن ما يعزز هذه الأقوال الشائعة ، هو وجود عدد من الأوروبيين أسروا مع اليمنيين فى المعارك الأخيرة بل تتابع الجريدة بعد ذلك تهكمها على محاولات إيطاليا فى مد نفوذها فى الجزيرة العربية ، وذلك بالاعتماد على الإمام يحيى فتقول إن : « الرهان وضع على جواد خاسر »[١] . ولكن جريدة « الطان » الفرنسية كانت ترى رأيًا آخر عكس ذلك تمامًا ، فقالت إن هذه الأحاديث من قبيل الحدس والتخمين : « فكون المصالح الإيطالية التي وجدت فى عهد الإمام ، وكون الجيش المتوكل يتدرب على أيدى مدربين إيطاليين ، كل ذلك لا يكفى لجعل الملك ابن السعود والإمام يحيى موضوعا لاصطدام نفوذين عظيمين يحاولان التزاحم فى بلاد مسيطرة على مدخل البحر الأحمر »[٢] . ولكن بريطانيا كانت تحسب ألف حساب لما ستقوم به إيطاليا ، إذا تمت هزيمة الإمام نهائيًا ، وكانت تخشى نتائج ذلك ، فقد جاء فى جريدة « المانشستر جارديان » فى مقالة طويلة عن هذه الحرب ، أنه : « إذا كان السنيور موسولينى قد راهن على الجواد الخاسر ، فليس معنى هذا أنه سيتحمل خسارته بسهولة ، وإن كان ليس لدينا ما يدعونا إلى الزعم بأن إيطاليا ستتدخل فى شئون بلاد العرب »[٣] . ولم تكن الصحف الإيطالية أقل نشاطاً من الصحف الإنجليزية ، بل كانت

---

(١) الأهرام : فى ٥/ ٥/ ١٩٣٤، ص ٥ .
(٢) الأهرام : فى ٦/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .
(١) الأهرام : العدد : ١٣١٧٧٥٣ فى ١٣/ ٥/ ١٩٣٤ (آخر محرم سنة ١٣٥٣هـ) ص ٦ .

تكيل التهم لإنجلترا كذلك ، وتصفهـا بالطمع ، فقد ذهبت جريـدة « رستودل كارلينو » الإيطالية ، إلى أن إنجلترا تبذل للملك عبـد العزيز معاونة عظيمة فنية وعسكريـة ، كما تقول إن فى اليمن ثروة معدنيـة مهمة - وخصوصـاً منابع بترول غـزيرة - وهى التى تسعـى إنجلترا إلى وضع يدهـا عليهـا ، وذلك بمساعـدتها الحاضرة للملك ابن السعود[1] .

ولم يقتصر الاتهـــام على كل من الـدولتين الاستعماريتين بعضهما لبعض ، بل تحول الأمـر إلى أبعـــــد من ذلك بكثير . فقـد بـدأت كل منهما - وقـد اتضـح ميل كل منهما إلى جانب أحـــد الملكين المتحاربين - تقذف بالسباب والتهم إلى الملك الذى تنحاز إليـه منافستها . فبدأت صحف إيطـاليا - بعد أن تأكـدت انتصـارات ابن السعـود وبعـد أن أظهـرت إنجلترا ميلهـا إليـه - تهاجم ابن السعـود نفسـه ، وتصفـه بأنـه طـامع فى امتلاك الجزيـرة العـربيـة ، وأن اليمنيين يقـاومـون بشـدة هــذه الأطماع . هـذا بـالـرغم من أنها كـانت تلتـزم - بـوجـه عـام - خطـة الحيـاد بين الملكين المتحـاربين[2] . وكـانت صحف إنجلترا أكثـر جـرأة بـالنسبة للصحـف الإيطاليـة بـالـرغم من مـوقف الحكـومـة الإنجليـزيـة التى كـانت تعلن الحيـاد دائماً . وقـد سـارت الصحف الإنجليـزيـة فى تعليقـاتها فى خط يتمشـى تماماً مع سير الأحـداث ، فعنـدمـا بـدأت الحرب ، كـانت تعبر دائماً عن قلقهــا ، وتنـاقش أوضـاعهـا فى الجزيـرة العـربيــة ، وتثير التكهنـات حـول نتـائج انتصــارات ابن السعــود . إلا أنـه بتطـور أحـداث الحرب ، فقـد بـدأت نغمـــة جـديـدة تظهــر فى تعليقـاتها ، فبـدأت تقـارن بين شخصية كـل من الملكين العربيين ، ثـم تقارن بين عـلاقـة إنجلترا بـالملك ابن السعـود وعـلاقتهـا بالإمـام يحيى . وأخـذت أخيراً تجاهـر

---

(١) الأهرام : العدد ١٧٧٥٣ فى ١٣/ ٥/ ١٩٣٤ (آخر المحرم ١٣٥٣ هـ) ، ص ٦ .
(٢) الأهرام : العدد ١٧٧٥١ فى ٢١/ ٥/ ١٩٣٤ ؛ ص ٦ .

- عندما تم انتصار الملك ابن السعود ودخل الحديدة - بتفضيل ابن السعود على الإمام ، وبتفضيل تعامل إنجلترا مع الأول عن تعاملها مع الآخر .

وأعلنت صراحة عندما تم إعلان الهدنة ، بأنه من الأحسن والخير لإنجلترا ، أن يحكم ابن السعود اليمن ، وأن عليه أن يواصل حربه حتى يستولى على اليمن كلية . وهذا الخط الواضح لموقف الصحف ، وبالتالى الرأى العام الإنجليزى ، ينبثق أساساً من موقف إنجلترا التاريخى السابق من كل من الملكين العربيين . وقد تساءلت جريدة « الأوبزرفر » الإنجليزية فى مقال لها هام ، عما يحدث لو تمكن الملك ابن السعود من اجتياح اليمن وضمه إلى ملكه الواسع ، فأجابت على تساؤلها هذا : بأن ولاية عدن المحمية ستكون جارته من الجنوب بدلا من اليمن ، وفى مثل هذه الحالة لا تقع متاعب لأن العلاقات بين بريطانيا والمملكة السعودية حسنة ، فعلاقات الملك ابن السعود الدبلوماسية مع العراق المستقل ، وإمارة شرق الأردن التى تحت الانتداب البريطانى ، علاقات مرضية ، وقد رحب البريطانيون بقيام مملكته المزدوجة من نجد والحجاز - وهى المعروفة الآن بالمملكة السعودية - ولم يتبرموا منها .. فإذا تمكن الزعيم العربى (ابن السعود) من أن يشيد لنفسه مملكة ثلاثية بإدخال اليمن إلى ملكه ، فإن العلاقات بين إنجلترا وبلاد العرب لا تزداد صعوبة ، لأنه أسهل على المرء أن يتعامل مع شخص واحد من أن يتعامل مع بضعة أشخاص »[١] . وأكدت مجلة « سبكتيتور » الإنجليزية هذا المفهوم ، فقالت : « إن الملك ابن السعود صديق إنجلترا ، ويدل تاريخه المجيد فى فتح بلاد العرب على أن الرعايا البريطانيين يكونون دائماً تحت رعايته فى مأمن ، من أن يكونوا فى أى جزء آخر من شبه الجزيرة ... فإذا فرض

---

(١) الأهرام : فى ٧/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

واستطاع الملك ابن السعود فى النهاية أن يضم بلاد اليمن إلى أملاكه ، ويصير بذلك جاراً لمنطقة عدن ، فإنه ليس هناك ما يدعو إلى الزعم بأن خطته نحو بريطانيا التى سارت على وتيرة واحدة منذ قبل الحرب لم يطرأ عليها أى تغيير ، أو تتحول عن خطة الصداقة والمودة »[1] . وكانت الصحف البريطانية لا تعبر عن عدم خوفها من امتداد نفوذ السعودية فحسب ، بل كانت ترحب به فى اليمن أيضاً ، وتهاجم الإمام ، وتنتقد بقسوة مواقفه السابقة منها . وقد عبرت « المانشستر جارديان » الإنجليزية عن هذا الموقف بصراحة ؛ إذ جاء فى مقال افتتاحى لها عن الحرب الدائرة إشارة هامة إلى طبيعة علاقاتها السابقة بالإمام ، وأهمية المعاهدة التى عقدتها معه ، وأن مشكلة الحدود لم تحل بعد بينها وبين اليمن ، وأن ابن السعود إذا تم انتصاره فإنه سيرث هذه المشكلة وهو شخص ترتاح إليه ، حتى قالت أخيراً : « .. ولا ريب أن وجود حاكم قوى عادل فى جوار عدن ، التى لها أهمية لا تقدر كمحطة لتموين البواخر بالفحم ، خير من رجل ضعيف طاغية محب للنزاع والمشكلات »[2] . بل ظهر أكثر من ذلك ، فعندما عقدت الهدنة فعلا بين الملكين رحبت جريدة « المورننج بوست » بها لأنها فى الحقيقة - رغم كل شىء - يهمها هدوء اليمن واستقراره ، لأنه يجاور مباشرة محمية عدن ، ولكنها قالت : « إنه من المشكوك فيه أن ابن السعود يرغب فعلا فى احتلال اليمن كله ، وهو ما كان يجب عليه عمله إذا استمرت الحرب إلى النهاية وخلع الإمام »[3] . وهى تعبر هنا بطرف خفى عما كان على ابن السعود عمله ، وهو الاستمرار فى الحرب . وتلاحقت تعليقات الغرب على أحداث الحرب اليمنية السعودية ، بالرغم من الهدنة وإجراء المفاوضات بين الطرفين المتنازعين . فترى الصحف الكبرى الإيطالية مثلا ، تجد نفسها

---

(١) الأهرام : فى ١١/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤.
(٢) الأهرام : فى ١١/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .
(٣) الأهرام : فى ١٦/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٥ .

مضطـرة لإرسـال مـراسلين خصـوصيين لموافـاتها بـالأنبـاء ، وذلك : « لأن أحداث الجزيـرة العربيـة كانـت تشغل بال المقـامات السيـاسية والـرأى العام الإيطالى »[١] . وكـذلك كان الـرأى العام الإنجليـزى - فضـلا عن حكومتـه - يـواصـل اهتمامــه بهذه الأحـــداث ، فقـد نقلت الأهـــرام عن جـــريـدة « الأويـزرفـر » مقـــالا هـامـا تقـارن فيـه بين الملك ابـن السعـود والإمـام يحيى وتـوضح مـا بينهما من فـوارق . ونـلاحـظ أن هـذه المقـالـة ظهـرت بعـد وقف الحرب فعـلا بحـوالى خمسـة عشر يـومـاً ، فكـان الأجـدر بـالجريـدة ألا تحاول إثارة ضغائن كما فعلت، بل تحاول بحث النتائج التى وصلت إليها المفاوضات، وهـذا مـا يـدفعنا إلى الاعتقـاد بأن إنجلترا كـانت تـرغب فى إزاحـة الإمـام من اليمن وإحـلال ابن السعـود محلـه لأنه - مـن وجهة نظـرهم - على عـلاقـات وديـة معهم . وقـد عبرت المقـالـة عـن هـذا كلـه بصراحـة ، فقـد جـاء فيهـا : « .. ويصعب جـدًّا معـــاملـة الإمــام لأنـه يمتعض من كل تجديــد ، ويكـره التقـدم الحديث والآراء الجديــدة ، ولا يمكن الاعتماد على كـلامـه لأنـــه يعـد اليـوم وينكل بـوعـده غداً ، ويماطل ، ويتردد ، ويبـدل آراءه تكـراراً ولا يمكنـه أن يـوحـى بـالحماسـة إلى رجـالـه لقلـة مـا فيـه من الصفـات التى يعجب بها العـــرب ، فهــو متـــلاعب مكـــار فى حين أن الملك ابن السعـــود حـــاذق بـــارع ، وهــو متنـــاه فى البخل وعبــد العـزيــز سخى ، أمـــا إنجلترا فخير لها أن يحكم الملك عبـد العزيـز اليمن لأن الإمام يحيى كـان دائماً عدوًّا لـلإنجليز . وأثنـاء الحرب العالميـة عاون الأتـراك على مهـاجمة عدن ، وكـان فى الست عشرة سنـة الأخير يهدد دائماً حـدود عـدن ، ويأبى المسـالمة أمـا الملك عبـد العـزيـز فصـديق لـلإنجليـز ، وقـد نشر الأمـن والسـلام فى بـلاد العـرب بحكم قـوى عادل »[١] .

---

(١) الأهرام : فى ٢٦/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٦ .

(٢) الأهرام : فى ٢٨/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

ولكن لنا أن نتساءل الآن ، هل كان لموقف العالم الغربى من الحرب - خاصة إنجلترا وإيطاليا وفرنسا - أثر فى قيام الحرب من ناحية ، وفى سير أحداثها من ناحية أخرى ؟

فى الحقيقة لا يمكننا البت فى إجابة معينة إذ من الصعب تحقيق ذلك لقلة الوثائق فى هذا الشأن ، ولكننا فى نفس الوقت يمكن أن نجزم بأن موقف هذه الدول الحربى البحرى ، كان سبباً هامًّا فى وقف الحرب . أما من ناحية أثرها من قيام الحرب ، فإننا نحب أن « الأسباب الرئيسية لهذه الحرب نبعت محليًّا على الحدود بين الدولتين العربيتين »[1] . وهذا الحديث ليس بغريب ، فقد ذهب إليه الكتَّاب الإنجليز أنفسهم ، فقد نقلت الأهرام عن جريدة « إيفننج ستاندرد » الإنجليزية مقالا هامًّا جاء فيه : « إن بعض الدوائر السياسية فى أوربا تميل إلى تصوير حرب بلاد العرب بأنها فى أساسها فوز لبريطانيا على إيطاليا ، لأن بريطانيا أيدت ابن السعود وأيدت إيطاليا الإمام يحيى . ولكن هذه الأقوال ليست صحيحة لأن الحرب والسلم فى بلاد العرب من شئون العرب وحدهم »[2] .ولكن رغم صحة هذا الرأى وتأييدنا له : إلا أنه يجب أن نضيف إليه نقطة هامة ، وهى أن السلم والحرب فى بلاد العرب من شأن العرب وحدهم ، إلا إذا تعارض ذلك مع المصالح الأجنبية ، فالعالم الغربى ترك فعلا أجزاء الجزيرة العربية الداخلية تتطاحن كما تشاء ، ولكنه لم يسمح لهذا التطاحن أن يمتد إلى الأجزاء التى تحت نفوذه .

الصلح ومعاهدة « الطائف » بين اليمن والسعودية :

انتهت الحرب تقريباً عندما دخلت القوات السعودية « الحديدة » فى النصف الأول من شهر مايو سنة ١٩٣٤ ، هذا غير التوقف المؤقت عند « باقم »

(١) Survey of International Affairs, : 1934, p. 320.

(٢) الأهرام : فى ٢٣/ ٥/ ١٩٣٤ ، ص ٤ .

فى جهـة « نجـران » حيـث كـان الأمير سعـود هنـاك يستعـد لهجــوم شــامل . وقـد أعلن الإمـام - عنـدمـا انسحبت قواتـه من تهامـة - قبـول شروط الهدنـة كما وضعها ابن السعـود ، وهى إخلاء جبال عسير ونجـران ، وتسليم الأدارسة ، وعقـد معاهـدة . وقـد تقابل منـدوبو الـدولتين فى « الطـائف » فى ١٨ مايـو ، ودارت المفاوضـات فى جو ودى ، وكان رئيس الـوفد اليمنى هو السيـد عبد الله ابن الـوزير ، وتمت المفـاوضة تحت رعـاية لجنـة صلح مكونـة من رجالات وفـد المؤتمر الإسلامى ، السابق الإشارة إليه ، وكان يـرأسها محمد على علوبة باشا من مصر والسيـد شكرى القـوتلى من سوريـا ، وقد أظهـر ابن الوزيـر أنه مفـاوض قدير ومسئـول ، بالرغم من أنه كان ملـزماً باستشارة الإمـام باللا سلكى فى كل مرحلـة ، وفى كل نقطة أثناء سير المفـاوضات»(١) . وقد وقع المنـدوبين نصوص المعاهـدة فى ٢٠ مايـو ، وكان موعـد انتهاء الهدنـة فى ٢٩ مايـو ، إلا أنها مدت عدة أيـام لأن الإمام يحيى لم يكن نفـذ شروط الصلح بعد»(٢) . حقيقة قـد تأخر إبـرام المعــاهـدة من الملكين ، وظهـرت عــدة تكهنـات تفسر مــوقف الإمــام المتردد من عقد المعـاهدة ، فقـد ذهب فيلبى مثلا إلى أن السبب ، هـو أن الإمام كان إلى آخر لحظـة لم يكن لديه المـال الكـافى لدفع الغرامة المــالية التى فرضها ابن السعود لتغطية مصاريف الحرب(٣) . وذهب مراسل الأهـرام فى روما إلى أن السبب هـو مـوقف نجـل الإمـام سيف الإسـلام أحمد ؛ إذ كـان غير راض على شروط الصلح(٤) . وقـد أشيع حينئـذ - ورددت الصحف وخـاصـة الغـربيـة هذه الإشـاعات - أن سيف الإسلام أحمد كان يعمل على خلع والـده والجلوس

(١، ٣) H St J. B. Philby : Arabian Jubilee, p. 186.

(٢) Survey - 1934 : p. 312.

(٤) سبق أن ذكـرنا أن نـزيـه العظم قـال إن سيف الإسلام أحمد انتصر على الأمير سعـود فى معركة جبل « باقم » وأن هذا سبب وقف الحرب ، وقد يكون هذا - إذا افترضنا صحته - سبب موقف سيف الإسلام من الصلح .

مكـانه ، بحجـة ضعف قـوة الإمـام وشيخوختـه ، وكـان يدفعـه فى هـذا بعض خاصتـه الذين حولـه ، كما أن فريقاً من أنصـاره كانوا يمنونـه بوصول مسـاعدة مـن الخارج[١] . وقـد أثـار تبـاطـؤ الإمــام فى تنفيـذ الشروط التسـاؤلات ، واكفهـر الجو ثـانيـة بغيـوم الحرب ، وقيل إن الاستعـدادات للـوثـوب بـدأت من جديـد ، من الناحيتين ، بل ذهب بعض المعلقين إلى أن الجانـب اليمنى قد اتخذ الهدنـة فـرصـة للتأهب والاستعـداد ثـانيـة . وقـد شهـدت « الطـائف » عرضـاً عسكريّـا كبيراً استغرق ساعتين شـاهده الملك عبـد العزيـز آل سعود . وكان المغزى من هذا العرض ، هـو إظهار عزم الملك ابن السعود على الاستمرار فى الحرب ، إذا نكث الإمــام بـوعـده ولم ينفـذ شروط الهدنـة . وقـد أعلن ابن السعـود موعـداً نهائيًا أخيراً فى ٢٨/ ٥/ ١٩٣٤ لتنفيـذ جميع الشروط[٢] . وكـان ابن السعـود يحرص على توضيح مـوقفه أمـام العالم ، وخـاصة بحجـة الاحتفال بتوقيع المعاهدة ، ولشرح الوضع القائم ، وموقف الإمام المتردد . ولكن فى صباح اليـوم التـالى - أى عنـد نهايـة الإنـذار - وصل رد الإمـام بقيـامـه بتنفيـذ الشروط الموضوعة[٣] . وقـد بـدأ الجانبـان بـالفعل فى تنفيـذ هـذه الشروط بعـد ذلك ، فبدأ جلاء القـوات اليمنية عن جبال عسير قبل نهاية مايـو ، وفى ٥ يونية أعلنت الحكـومـة السعـوديـة أن الأدارسـة قـد وصلـوا إلى مـركـز قيـادة الأمير فيصل فى الحديـدة ، وأنهم فى طـريقهم إلى مكة ، وقـد أبـرم الملك ابن السعـود المعـاهـدة فى ١٨ يـونيـة ، ووقعهـا الإمــام فى ١٩ يـونيـة . وفى ٢٣ يـونيـة نشر نص المعـاهـدة فى وقت واحـد ، فى مكـة وصنعـاء والقـاهـرة ودمشق . وفى ٢٧ يونية ، أعلنت الحكومة السعودية أنـه قد تم جلاء الزيديين عن الأقاليم المحتلة فى عسير ، وأن اليمن قـد وفى بكل الشروط المتفق عليها ، وأنـه تبعـاً لذلك فقـد

(١ ، ٢) الأهرام : العدد ١٧٧٥٦ فى ٢٥/ ٥/ ١٩٢٤ (١٢ صفر ١٣٥٣ هـ) ص ٤ .

(٣) Philby : Arabian Jubilee, pp. 186-187.

أفرج الملك عبد العزيز عن المسجونين اليمنيين الذين قبضت عليهم القوات السعودية فى تهامة ، وأن الملكين سيفرجان عن الأسرى الذى فى أيدى كل منهما ، والذين أخذوا من نجران . وفى ١٤ أغسطس أعلنت الحكومة السعودية أن القوات السعودية قد جلت عن الأقاليم التى خصصتها المعاهدة لليمن[٢] . (انظر ملحق ١١) .

ويلاحظ فى هذه المعاهدة الهامة ناحيتان : ناحية شكلية ، وناحية موضوعية . فمن الناحية الأولى ، نلاحظ أن هذه المعاهدة طويلة إلى حد كبير ملفت ، وهذه هى نقطة الانطلاق فى حديثنا عن ناحيتها الشكلية . فالمعاهدة قد تضمنت كثيرًا من النقاط والموضوعات التى كان يمكن وضعها فى « اتفاقيات » أو « بروتوكولات » ملحقة من غير أن تذكر فى صلب المعاهدة نفسها ، هذا إذا وضعنا فى الاعتبار الشكل « الدبلوماسى الدولى للمعاهدات . فتحديد الحدود مثلاً من الأمور الهامة التى يجب أن تنص عليها المعاهدة ، ولكنها لا يجب أن تذكر بالتفصيل فى صلب المعاهدة نفسها ، بل يجب أن يفرد لها ملحقًا أو بروتوكولاً خاصًا توضح فيها النقاط التى يمر بها خط الحدود المشار إليه فى المعاهدة . وكذلك أيضًا التنظيم الخاص بتبادل المجرمين واللاجئين السياسيين ، وضرورة تسليمهم للدولة الفارين منها ، فيجب أن يتضمنه اتفاق خاص . ومن ناحية أخرى فهناك مواد تنظيمية بحتة لا توضع بالشكل التفصيلى التى وضعت به فى نص المعاهدة ، مثل تنظيم البريد والاتصال اللا سلكى ، وتعبيد الطرق وتنشيطها ، فهذه الأمور كان من الممكن وضعها فى شكل خاص بها كاتفاقية تجارية أو ملحقا خاصًا بتنظيم هذه الأمور الأولية البديهية المفصلة التى وضعت بالمعاهدة . ونقيس على ذلك الكثير من مواد هذه المعاهدة ، إذ نلاحظ فيها بوجه عام التفصيل والتطويل الذى كان يمكن إنجازه فى مو اد قليلة مركزة ، على أن يكون هذا التفصيل فى مو اضع

---

(١) Survey ...1934 : P.381.

أخرى كالملاحق أو الاتفاقيات الخاصة . ولكننا لا نعطى أهمية كبيرة لهذه الأمور الشكلية ، وخاصة أننا نعتقد أن النقص فى ناحية الشكل ، يرجع إلى عدة أمور منها أن الدولتين ليستا أعضاء فى عصبة الأمم ، كما أنهما حديثتا العهد بشئون العلاقات الخارجية والأمور الدبلوماسية ، أما المعاهدات التى سبق أن عقدتها كل منهما فكانت مع بلاد لها تاريخ طويل فى عقد المعاهدات . وقد يكون سبب التفصيل و التطويل أيضاً فى المعاهدة هو حرص البلدين على أن تتضمن المعاهدة كل الأمور الدقيقة التى تهمهما .

أما من الناحية الموضوعية - وهذا هو الأمر الهام - فقد أدت المعاهدة إلى تحقيق الشىء الكثير فى الحقيقة ، وكان على رأسها خروج نجران وعسير من حوزة اليمن . ولكن الكاتب الإيطالى « سلفاتور أبونتى » وصفها بقوله : « ومعاهدة الصلح التى أطلق عليها اسم معاهدة الطائف ، لم تكن إلا أنشودة من أناشيد الوحدة العربية »[1] . وقد كان هناك دوافع وأغراض بعيدة جعلته يصفها بهذا الوصف البعيد عن النظرة الفاحصة أو البحث الموضوعى ؛ تتبلور فى أنها أبقت اليمن أو معظمه تحت سلطة الإمام يحيى صديق إيطاليا ، وأبعدت ابن السعود صديق إنجلترا عن المنطقة ، وقد سبق أن أوضحنا هذه الأمور .

وكان يرى أن هذا الصلح كان أغرب من الحرب ، فرغم قسوة الحرب والانتصار الذى حققه ابن السعود ، إلا أن الصلح جاء بغير ما كان يتوقعه كل المراقبين أو المعلقين سواء من العرب أو الأجانب عمومًا . ولكنه لم يوضح سبب ذلك ، واقتصر على إثباته بنصوص من المعاهدة نفسها ، والشروط التى وضعتها والنظم التى أقامتها . والحقيقة أن هذه المعاهدة قد أقامت قواعد ثابتة وأسسًا متينة لعلاقات البلدين بعضها ببعض ، وهذا هو سبب أهميتها .

---

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٦ .

فإذا ألقينا نظرة سريعة على مواد المعاهدة ، نجد أنها لم تكن معاهدة صلح خاصة فحسب ، بل كانت معاهدة عامة نظمت العلاقات بين المملكتين العربيتين المتجاورتين بشكل دقيق . وقد جاء فى تعليق خاص للأهرام ما يؤكد ما ذهبنا إليه ، إذ قالت .. « فأهمية معاهدة « الطائف » ليست فيما قد يؤدى إليه من توسع وانكماش فى أملاك إحدى الدولتين ، بل فى تعيين الحدود وتثبيتها بينهما بشكل لا يترك أقل مجال للخلاف فى المستقبل » ثم أشارت بعد ذلك إلى أهمية وحدة التمثيل الخارجى الذى كان فيها ، والاتفاق عند عقد المعاهدات ، وعدم السماح للدسائس ضد الأخرى . واستطرد التعليق بعد ذلك ينوه عن الصداقة والأخوة التى نصت عليها المعاهدة كما أخذ يدافع عنها « بأن كل ما يقال عكس ذلك فهو كيد الكائدين »[1] . وقد يكون سبب دفاع الأهرام الحار عن المعاهدة ، رغم أنها لم تكن قد أذيعت بعد ، هو مقال « المستر فيلبى » الذى نشرته « الديلى ميل » عن المعاهدة ، والذى قال فيه إنه قد حصل على موادها بطريقته الخاصة . وقد نقلت الأهرام حديثة الذى جاء فيه أن المعاهدة تدل على أن الملك عبد العزيز بن السعود قد بسط حمايته المستترة على اليمن ، واستدل على ذلك ببعض المواد ،مثل المادة التى توجب اتخاذ جبهة واحدة تجاه كل الأمور الاقتصادية المشتركة ، والمادة التى نصت على ألا يعقد أحد الطرفين معاهدة مع طرف ثالث تؤثر فى مصالح الفريق الآخر إلا بعد التشاور التمهيدى التام بينهما ، وكذلك المادة التى تنص على أن تمثل السعودية اليمن فى الخارج وتنوب عنها فى المؤتمرات الدولية ، أو التى تنص على تبادل المعونة الحربية إذا دعت الضرورة إلى حماية المصالح السياسية المشتركة ، والدفاع عن استقلال العرب ضد كل عدوان أو خطر خارجى[2] ، ولكن نصوص المعاهدة نفسها - عندما أذيعت - كانت تكذب كل هذه الأقوال ، فالاشتراك فى التمثيل الخارجى يعتبر تفكيرا

(١ ، ٢) الأهرام : فى ١٦/٦/١٩٠٣ ، ص ٤ .

تقدميًا من وجهة النظر العربيـة ، لأن هـذا معناه وحدة السياسة العربية الخارجيـة ، كما أنه يـؤدى إلى تخفيض تكاليف التمثيل الخارجى - وخاصة بالنسبة لبلدين مثل السعودية واليمن - دون أن يكون فى ذلك وصاية ما أو حماية مقنعة . وقد أكدت هـذا المعنى ، المادة ٢٠ التى جاء فى نهايتها : « كما أنه لا يمكن أن تفسر بحجز حرية أحدهما أو اضطراره لسلوك هـذه الطريقة » . أما ضرورة التشـاور التمهيـدى التام بين البلـدين قبـل أن تعقـد إحداهما معاهـدة خاصـة مع طرف ثـالث ، فلم يرد أيضًا أية إشارة تـدل عليه ، إذ إن نص المـادة (١٥) - الخاصة بهـذا الأمر - لا يحمـل أى معنى للوصـاية أو الحمايـة بل هـو ضرورة بين بلدين عـربيين لهمـا مصـالح واحـدة ، وأغـراض سياسية واحـدة .

وقد سارت الـدولتان فى تثبيت الحدود التى نصت عليها المعاهـدة سـيرًا حثيثًا ، حتى تقضى على أسباب التوتر الذى ساد علاقتهما منذ سنة ١٩٢٦ إلى ١٩٣٤ . لذلك تألفت لجنـة حدود من مبعوثين مسئـولين من كلٍّ من الطرفين ، للقيام بهذا التخطيط طبقًا للأسس التى وضعتهـا المعاهدة نفسهـا . وقد راعت اللجنة فى التنفيـذ الدقة مع مـلاحظة مصالح القبـائل المنتشرة على طول الحدود حتى لا تثار هناك أية شكوك فيها بعد ، فى ولاء أو تبعية إحدى القرى أو القبائل لأحـد الطرفين . وفى خـلال عـام ١٩٣٥ انتهى عمل اللجنـة من ناحيـة تثبيت أعمدة الحدود ، وقد بلغ عدد الأعمدة ٢٤٠ عمودًا على طول الخط الممتد ، وهو حـوالى ٤٠٠ ميل من شـاطئ البحـر شمال « ميدى » إلى حـافـة الـربع الخالى . وحـدث فى العـالم التالى بعض التغيرات الـلازمـة حتى يتـلاءم خط الحدود مع الواقع بشـكل أدق . وقد راعى الطرفان كـذلك المـادة الخاصة بتحريـم إقامة الحصون فى مسافة ٥ ك.م. فى كل ناحية من الحدود[1] .

ويتبـادر إلى الذهن هنـا سـؤال هام قد تردد عنـد إبرام المعاهـدة ، وهو :

(١) Phiby : Arabian, Jubilee, pp. 187 _ 188.

كيف ظهرت هـذه المعاهدة فى هذا الثـوب الودى الأخوى مع أن هنـاك انتصارا وهزيمة ؟ ولمـاذا كان هناك ميل إلى التسامح والصـداقة من الجانبين فأسرعا إلى الاتفاق على هذا الشكل المرضى من وجهة النظر العربية على الأقل ؟

والإجابـة على هذا السـؤال لا تحتاج منا بحثًـا طويـلاً ، بل تحتاج فقط أن نعود إلى أسبـاب قيام الحرب وأغـراضها ونتـائجها . وقد يتضـح من استعراض الأحداث السابقة ، أن الملك عبد العزيز قـد تمكن من تحقيق مطالبه كلها عندما تم انتصاره ، وعنـدما وافق الإمام يحيى على شروطـه لوقف الحرب . ويتضح من ناحية ثانية - وكان ابن السعود يعلم ذلك علم اليقين - أن الحرب كانت لم تبدأ بعـد ، فزحف القـوات السـعودية السريـع فى تهامة كـان نتيجـة تقهقر وفـرار القـوات اليمنيـة إلى الجبال للتحصن بها حتى تتمكـن من الدخـول فى معـارك حقيقية فـاصلة فى ميـادين تجيد الحرب فيهـا . ومن ناحيـة ثالثـة اتضح تدخـل الدول الأوروبية ، وأثر ذلك فى وقف الحرب . كـل هذه النواحى مجتمعة جعلت ابن السعود يـوافق على الصلح ما دام قد حقق أغـراضه ، وبالتـالى دفعته إلى أن ينتهز الفرصة حتى يضع المعاهدة التى يرغب فى عقدها منذ أمد طويل .

ولهذا كلـه أيضًـا فإننـا لا نعتبر هـذا الصلـح جـاء مفـاجأة ، أو أن هـذه المعاهـدة جاءت بغير مـا كان متوقعًـا ، بل كانت فى الحقيقة استجـابة صـادقة لوقائع الأحداث حينئذ وللظروف والأوضاع المحيطة بهـا .

وهكذا كـان عام ١٩٣٤ ، عـامًا متميـزًا فى تاريخ حيـاة الإمام السيـاسية حيث استطـاع تسويـة مشكلاتـه المعلقة تسـوية نسبيـة ترضيـه ، فقد تـم عقـد المعاهـدة مع السعـودية فى يونيـة ١٩٣٤ ، كما عقدت معـاهدة « صـنعاء » مع إنجلترا فى فبراير من نفس العام ، ثم أبرمت فى سبتمبر .

الباب الثانى

الإمام وبناء اليمن الحديث

١٩٣٤ - ١٩٤٨

الفصل الأول
مظاهر سياسة الإمام الخارجية

علاقة الإمام بجارتيه بعد معاهدتى سنة ١٩٣٤

تعتبر الفترة التاليـة (١٩٣٤ - ١٩٤٨) من حكم الإمام يحيى فى اليمن ، فترة استقرار وهدوء بـالنسبة للفترات السابقة من حكمه . فقد رأينـاه فى سنواته الأولى (١٩٠٤ - ١٩١١) يحارب العثمانيين ليستخلص منهم اعترافًا بـوضعـه الخاص المتميـز فى اليمن . وتــلا خـروج الترك من اليمن فترة ســادهـا العنف والاضطراب أيضًـا ، فقد كـان عليه أن يخوض معارك جـديدة من أجل تـوطيد حكمه ، وتأكيد استقلاله فى اليمن .

انتهت هذه المراحـل القلقة المضطربـة من حياة الإمــام السياسيـة فى سنة ١٩٣٤ ، إلى حالـة أكثر وضـوحًا واستقـرارًا فإلى جانب انتهـائه من متاعبـه مع الأدارسـة واقتطاعـه أكبر جـزء ممكن من إمــارتهم وضمها إلى نفـوذه ، تمكن من إخضـــاع الجهات المختلفة فى اليمن . وفى المجال الخارجى استطـاع الإمام أن يقوم ببعض الجهود التى أكدت استقلالـه من ناحية ، وأدت إلى استقرار حدوده وتوضيحهـا من ناحية أخـرى . فقد عقـد المعاهدات المختلفـة مع بعض الدول الأجنبية وخاصة إيطاليا والاتحاد السوفيتى تأكيدًا لاستقلاله وشخصيته الدولية ، كما توصل أخيرًا إلى عقـد معاهدتين متتـاليتين فى عام واحد هـو عام ١٩٣٤ مع كل من إنجلترا والمملكة السعـودية . وكانت هاتـان المعاهدتان خـاتمة المطاف بالنسبة لمشكلات الإمام الجادة العنيفة . حقيقة أنهما لم يؤديا إلى سلام أو استقرار دائمين ، وأنهما لم يكونـا فى صالح اليمـن ذاته ، إلا أنهما أديا إلى تميـز واضح بين فترتين من حكم الإمام .

وقـد اعتبر مستر رايلى الـذى مثل عـدن فى عقـد معـاهـدة « صنعـاء » (١٩٣٤) أنها نقطة تحول فى العلاقات اليمنية الإنجليـزية « ولو إلى حد ما » كما قال . وقد عينت كلا الحكومتين عددًا من الموظفين لتسوية مسألة الحدود ، وكان عملهم الاتصـال الدائم بعضهم ببعض لفض المنـازعات والمشكـلات المحلية التى تنشأ فى هـذه الجهـات . ولهذا رأت السلطتـان فى صنعـاء وعـدن ، أن العلاقات بين البلدين سارت سيرًا حسنًا لعدة سنو ات ، وأن كلاً منهما انصرف إلى الاهتمام بأحوال بلاده الداخلية[1] .

وقد أدت المعـاهـدة اليمنية السـعودية كذلك إلى اسـتقرار الأمور بين الملكين ، ولم تنشـأ أية مشـكلات حـدود أو غيرها بين البلديـن حتى نهاية حكم الإمام يحيى . فقد عمل الطـرفان ، بعد توقيع المعـاهدة مباشرة ، على إنهاء الترتيبات الـلازمة لاجتماع لجنـة الحدود المشتركة ، وتم تخطيط الحـدود فى العام التالى (١٩٣٥) بل وتم رسم أول خريطة للحـدود اليمنية السـعودية ١٩٣٦ . ومنـذ ذلك الـوقت لم تنشأ مشكـلات حـدود هـامـة استعصى حلهـا بمعـرفـة السلطات المحليـة للطرفين . وكـانت المشكلة التى يمكن أن تثـور ، والتى كان الإمام بالذات يتـوجس خيفة من وقوعها ، هي بناء الحصـون فى المنطقة المحرمة -خمسة كيلومترات من الحـدود على كـلا الجانبين - ولكن لم تحـدث مخـالفات من هـذا النوع . وقد سـاعد على ذلك ، العـلاقة الحسـنة بين عبد الله بن الوزير - الذى عقد المعاهدة نيابة عـن الإمام ، والذى عين حاكمًا لتهامة واتخذ الحديدة مركزًا له ، والذى كان المسـئول عن الحـدود الشمالية - وبين تركى بن ماضى حاكم جيزان فى الجانب السـعودى مـن الحدود . وقد هاجم ثلاثة من اليمنيين الملك عبد العـزيز بن السـعود بخناجرهـم أثنـاء طوافه حول الكعبـة فى موسم

(١) Sir Bernard Reilly : Aden and the Yemen, p. 19.

حج سنة ١٩٣٥ ، إلا أن الأمير سعود ولى العهد ، استطاع أن يقى والده هذه الضربات ، ويتلقاها هو مما أدى إلى إصابته بعدة ضربات فى ظهره وكتفيه ، وقد استطاع الحرس قتل هؤلاء الثلاثة بالرصاص[١] . ولم تؤثر هذه الحادثة فى العلاقات كما كان متوقعًا ، وخاصة أنها وقعت فى العام التالى لتوقيع المعاهدة مباشرة .

وقد أثبت التحقيق أن المعتدين لم يكونوا مدفوعين من طرف حكومة اليمن ، بل كانوا يطلبون الثأر لبعض أقاربهم الذين قتلوا أثناء الحرب اليمنية السعودية السابقة . وسرعان ما أغفلت هذه الحادثة ، وتبادل أبناء البلدين الزيارة وذهب اليمنيون إلى مكة للحج . وكان ابن السعود كذلك يرسل المبعوثين إلى الإمام من آن لآخر لدراسة المسائل الهامة بين الطرفين[٢] . وكانت أهم هذه الزيارات تلك التى ذكرها الجرافى فى حولياته فقال : « وفى سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠) وصل صنعاء لزيارة الإمام سمو الأمير محمد ابن الملك عبد العزيز بن السعود فى حاشية كبيرة ، وكان يرافقه فى هذه الرحلة بشير السعداوى مستشار الملك عبد العزيز ، وطاهر رضوان من كبار موظفى وزارة الخارجية للمملكة السعودية . وقد استقبل رجال الحكومة اليمنية هذا الوفد أحسن استقبال ، وكان الغرض من هذه الزيارة تقوية روابط الصداقة والأخوة بين الحكومتين العربيتين والعاهلين العظيمين . ولقد كان لهذه الزيارة شأن عظيم ، إذ دلت على ما يشعر به العاهلان العربيان من ضرورة التضامن والتفاهم ولا سيما فى هذه الأوقات »[٣] . ويبدو أن

---

(١) Philby : Saudi Arabia, pp. 324 _ 325.

(٢) Phtlby : Saudi Arabia, pp. 188 _ 189.

(٣) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٣٥٢ .

الزيارة كانت خاصة بتبادل التفاهم حول موقف البلدين أثناء الحرب العالمية الثانية .

أظهر الإمام - فى الفترة التى تلت عقد المعاهدتين مع إنجلترا والمملكة السعودية سنة ١٩٣٤ - نشاطًا ملحوظًا فى عقد المعاهدات مع مختلف الدول . ويبدو أن سبب هذا النشاط كان الهدوء والتفرغ الذى أحس بهما الإمام حينئذ ، وكان دافع الإمام لعقد تلك المعاهدات عاملين : أحدهما سياسى والآخر اقتصادى ، فقد اشتملت جميع معاهداته دون استثناء هذين الغرضين . ويدفعنا هذا إلى القول بأن دافع الإمام - فى عقد هذه المعاهدات - كان توطيد مركزه الشخصى دوليًا ، والحصول على اعتراف الدول به وباستقلاله . وكان يدرك أن هذا يثبت أقدامه فى الداخل ومن ناحية أخرى كان يهدف إلى تنظيم علاقاته الاقتصادية مع هذه الدول للحصول على احتياجاته .

وتتضح هذه النقاط إذا استعرضنا بإيجاز المعاهدات التى أبرمتها مع الدول الأجنبية فى هذه الفترة .

كان أولها - من الناحية الزمنية - معاهدته مع هولندا ، ووقعت فى ٢ مارس سنة ١٩٣٣ (ملحق ١٢) . وكذلك عقد معاهدة مع أثيوبيا فى ٢٢ مارس ١٩٣٥ (ملحق ١٣) ثم معاهدة أخرى مع فرنسا وقعت فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦ (ملحق ١٤) . وكانت هذه المعاهدات جميعًا تحمل فى ديباجتها ، فضلاً عن مادتها الأولى ، الاعتراف الصريح باستقلال اليمن والإمام يحيى ، وتنص على أن المعاهدة بين ندين متساويين ، وكان هذا هو أهم أغراض الإمام فى عقد معاهداته . وكانت هذه المعاهدات تنص كذلك على سيادة السلم والصداقة بين البلدين المتعاهدين . ففى المادة الأولى من معاهدته مع فرنسا مثلا نصت على أن « تعترف حكومة الجمهورية

الفرنســـية بدون قيد ولا شرط بأن مملكــة اليمن دولـة حـرة ذات ســـيادة واســتقلال »كما جـاء فى المادة الثانية من نفس المعاهـدة أن « يسود سلم ثابت وصداقـة دائمة بين حكومة الجمهـورية الفرنسية وصـاحب الجلالة ملك اليمن وحكومته ورعاياها »[1] . وتتكرر هذه المـادة فى بـاقى هذه المعاهدات ، فنصت المـادة الأولى من معـاهدته مع بلجيكا مثـلاً (ملحق ١٥) على أن : « يسود بين المملكة البلجيكيـة وبين المملكة اليمنيـة سلام عـام ومحبة دائمـة »[2] . وهنـاك نقطة هامة تكمل الناحية السياسية فى هذه المعاهدات ، جاء ذكرها فى جميع هذه المعـاهدات دون استثنـاء ، وهى الإشـارة إلى أنه سيقـام علاقـات دبلـوماسيـة وسينشأ سفارات وقنصليـات فى البلدين المتعاقـدين دون الإشارة إلى وقت معين لإتمام ذلك . وأهميـة هذه المـادة تتضح فى أنـه من المعـروف دوليًا أن يلى عقـد المعاهدة الأولى بين بلـدين - إن لم يسبق ذلك - إقامة علاقات دبلـوماسية على مستوى سفـارات أو مفوضيات أو حتى قنصليـات ، ولكن نلاحظ عكس ذلك بالنسبة لليمن ، فلم يترتب على هذه المعـاهدات إنشاء سفارات أو قنصليات ، بل اكتفى الإمـام بالإشـارة إلى إنشائهـا فيها بعـد فقط . وهـــذه الظاهـرة التى شملت كل هـذه المعاهـــدات تشـير دون مـواربة إلى موقف الإمـام بالنســبة للأجانب عمومًـا وأنه كان لا يسمح بإقامة هيئات أو جـاليات أجنبية فى اليمن بصـــفة دائمـة ، إذا كان يخشى وجـود مثل هذه الهيئـات ، ويخاف وجودهـا فى بلاده . وتمثل هـذه النقطة التى أشرنا إليهـا المـادة الخامسة من المعاهـدة اليمنية الأثيوبية مثـلا - مع وجودها فى باقى المعـاهدات - إذ جـاء فيهـا « ســـيكون من الفـريقين الســـاميين المتعاقديـن فى الوقت المناســـب وبمـوافقتهما إنشاء سفارة وقنصليات ، وإلى أن يكون إنشاء العلاقات السياسية والقنصليات هذه ،

---

(١) الـدكتور أحمد فخـرى : اليمن ماضيهـا وحاضرهـا ، ص ٢٣١ - ٢٣٣ (نص المعاهـدة اليمنية الفرنسية) .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٣٤ - ٢٣٦ (نص المعاهدة اليمنية البلجيكية) .

يتفقان على أن يعطى لـرعايا كل منهما المقيمين فى بـلاد الفريق الآخر المسـاعدة والصيانة اللازمة »[١] .

أما النـاحية الاقتصـادية فى معـاهدات الإمـام مع هـذه الدول فقـد برزت بـوضـوح أيضاً ، وتمثلت فى عـدد من المواد فى كل معـاهـدة ، وهى مـواد تنظم العلاقـات التجارية بين اليمن وبين هـذه البلاد ، وتوضح كيفيـة معاملة رعـايا وتجـارة هذه البلاد المتعـاهدة . ومثال ذلك ما جاء فى المعاهـدة اليمنية الهولندية وهى نصوص مكررة فى كل معاهدات الإمام - فقد نصت المـادة الثالثة من هذه المعاهدة على أن : « كل من رعايا الفريقين الساميين المتعاقدين الذين يقصدون التجارة فى بـلاد الفريق الآخـــر يكونـون تابعين للقوانين والأحكـام المحلية ، ويستمتعون بنفس المعـاملة التى يتمتع بها رعـايا الدولـة الأكثر رعـاية من كل الوجوه ، وكـذلك تعامل سفن كل من الفريقين المتعاهـدين وشحناتها فى موانى الفريق الآخر بنفس المعاملة التى تتمتع بها سفن الـدولة الأكثر رعاية وشحناتها من كل الوجوه » . كما تنص المادة الرابعة من نفس المعاهدة على أن: «حاصلات أرض كل من الفـريقين المتعـاهـدين ومصنـوعاتها تعـامل فى دخـــولها إلى بـلاد الفريق الآخـــر ، فيما يتعلق بتعيين مقاديـر الرسوم والضرائب الجمركية وأخذها بنفس المعاملـة التى تعامل بها حـاصلات ومصنـوعات الدولـة الأكثر رعـاية ، وكذلك تأكيدا لهذا تعـامل حاصـلات الأرض والمصنوعات التى تخرج من بلاد أحـد الفـريقين إلى بـلاد الفـريق الآخـــر فيما يتعلق بتعيين مقـاديـر الرســـوم والضرائب الجمركيـة وأخذهـا بنفس المعـــاملة التى تعــــامل بها حـاصلات الأرض والمصنوعات التى تخرج إلى بلاد الدولة الأكثر رعاية »[٢] .

---

(١) نزيـه مؤيـد العظم : رحلة فى بـلاد العربيـة السعيدة ، جـ١ ، ص ١٨٩ - ١٩١ (نص المعاهدة اليمنية الأثيوبية) .

(٢) نفس المرجع : ص ١٠٩ - ١١١ (نص المعاهدة اليمنية الهولندية) .

وهكذا يلاحظ أن هذه المعاهدات تتصف فيما بينها بالتشابه والوحدة من ناحية الشكل والغرض التى ترمى إليه . وقد تحددت مدد هذه المعاهدة كلها بخمس سنوات فقط ما عدا المعاهدة اليمنية الفرنسية فكانت مدة العمل بها عشر سنوات .

ظاهرة العزلة :

وهذا المضمون المحدد بدرجة كبيرة لهذه المعاهدات يجعلنا نسأل : لماذا ذهب الإمام إلى هذا التحديد الواضح فى معاهداته ؟ وما هى الدوافع والنتائج لهذا التحديد ؟ وهل استطاع الإمام أن يحقق أغراضه من التحديد ؟ وما الآثار التى ترتبت على هذا التحديد بالنسبة لسياسة اليمن الخارجية عموماً ؟

كانت أغراض الإمام عندما بدأ يتطلع إلى عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية أغراضاً محدودة للغاية ، لذلك جاءت هذه المعاهدات تمثل أغراضه خير تمثيل . وقد أوضحنا هذه الأغراض ، ولكننا نحب أن نشير باهتمام إلى أنه كان يتعمد تحديد هذه الأغراض ، ولا يرغب فى توسيع علاقاته الخارجية . وهذا بالتالى يجعلنا نعتقد أن هذه الدول الأربع السابق الإشارة إلى معاهداتها معه هى التى سعت إلى التعاهد ، وهى التى طلبت عقد هذه المعاهدات ، فقام هو بفرض طبيعة سياسته - فى المجال الخارجى - على هذه المعاهدات . ولا نعتقد أن الذى حدث هو العكس ، أى إن الإمام هو الذى سعى للتعاقد مع هذه الدول ، أو كان ذلك بناء على طلبه ، ولكن رغبة هذه الدول ثم موافقتها على شروط الإمام فى عقد المعاهدات هى التى أدت إلى إتمام عقد هذه المعاهدات . وسنرى أن بعض الدول قد رفضت هذه الشروط المحدودة - مثل الولايات المتحدة الأمريكية - فلم تبرم أية معاهدة مع الإمام إلا بعد ذلك بكثير . ويؤكد ما نذهب إليه من أن الإمام كان يقصد تضييق علاقاته بالخارج

أنه لم يعقـد أية مـعاهدة مع الدول العـربية المستقلة مثل مصر ، فلم نـر له معـاهدة إلا مع الـعراق سنـة ١٩٣٠ ، والسـعودية سنـة ١٩٣٤ ، ولم يبرم معاهدة أخرى حتى وفاته سنة ١٩٤٨ . ويظهـر بوضـوح سياسة الإمام هذه إذا قارنا بينه وبين جاره الملك ابن السعود ، فنـرى الأخير قد توسع كثيراً فى علاقاته الخارجيـة ، وأبرم الكثير مـن المعاهـدات مع الـدول المختلفة ، وسمـح بوجـود الهيئات الـدبلومـاسية فى بلاده ، بل وتبـادل التمثيل السياسى مع هـذه البلاد ، بعكس الإمـام الـذى ضيق نطـاق علاقـاتـه بـالخارج ، ورفض تبـادل التمثيل السياسى مع جميع دول العـالم ، فلم يكن هنـاك ممثلين دبلوماسيين دائمين للـدول الأجنبية فى اليمن ، ولم يـرسل هـو كذلك ممثلين لـه إلى الخـارج[١] . وانطبق هـذا أيضاً على جـارتيه - إنجلـترا فى عـدن والمملكة السـعودية فى الشـمال - بعد أن سـوى مشـكلاته معهما . وقـد أظهـر الإمـام رأيه هذا عنـدما رفض اقتراح إنجلترا أثنـاء المفاوضـات التى سبقت عقد المعـاهدة بتعيين ممثل لها فى صنعـاء لمراقبـة تنفيذ المعـاهـدة ، وللتشـاور والتفـاهم بـاستمـرار مع الإمـام من جـانبه - بعـد رفض اقتراح إنجلترا هـذا - تعيين موظفين للحـدود لحل المشكلات التى تنشـأ محليًّا دون الحـاجة إلى إقـامة ممثلين دبلومـاسيين فى صنعاء[٢] . وقد كـان الضابط البريطـانى المنوط بـه حل مشكلات الحدود المحليـة يزور صنعاء من حين لآخـر لمناقشة هـذه المسائل مع الإمام ووزرائه هناك[٣] .

---

(١) Journal of The Royal Central Asian Society, Vol. XXVII, 1940, p. 31.

(٢) Reilly : Aden and the Yemen, P. 19.

(٣) Journal of The Royal Central Asian Society8 Vol. XXVII, 1940, p. 31.

يتضح من هذا أن الإمام فرض صورة معينة على سياسة اليمن الخارجية ألا وهى « العزلـة » التى عاشها اليمن طوال حكمـه الطويل نتيجة طبيعة سيـاسته المتعمدة فى النواحى الخارجية .

وهذه الصفـة – وهى « العزلـة » – تتطلب منا بحث عـدة نقاط هى : هل كان الميل إلى العـزلة نتيجـة عوامل شخصيـة خاصة بـالإمام كجـزء من طبيعته ومزاجه الخاص ؟ أم إنها تمثل طبيعة شعب اليمـن ؟ أو إنها كانت تلبية لعوامل عامة وفترة زمنية معينـة ؟ وما هى طبيعة هذه العزلة ؟ ومـا هى نتائجها فى داخل اليمن وخارجها ؟

لا شك أن الإمام كـان يتحمل مسئوليـة عزلة اليمـن عن العالم الخارجى . ولكن هل كـان الإمام نفسـه نتاج ظـروف وأوضـاع معينة خـاصة بـاليمن ؟ أو بمعنى آخـر ، هل كان الإمـام يحيى لا يستطيع أن ينهج مثل هـذه السياسـة فى النواحى الخارجيـة إذا كان هذا النهج نفسـه يتعارض مع طبيعـة الشعب الذى يحكمه .

وعند منـاقشة هذا الـرأى ، نقول إننـا نعتقد أن طبيعة حكم بلـد ما ، دائماً تكون نتيجـة لظروف وأوضاع هـذه البلد ، من سيـاسية واقتصاديـة واجتماعية ، ودائماً يكون سلـوك الحاكم وسياستـه مرتبطين أشـــد الارتباط بأوضـــاع البلاد الخاصـة ، ويكون فى الحقيقـة ملبيًّا لحاجاتها فى هـذه الفـترة التاريخية أو تلك . ففى حالـة وجـــود نوع معين من الحـــكم فى بلد ما ، فإن هذا يعبر عـن طريقة معيشة شعب هذا البلد ، وعن حـاجته لقبضة قوية – فى حالـة الحـكم الفردى مثـــلا – لتنقـذه من الفوضى الضـــاربة فى بـلاده وتعمل على تطويـره بشكل سريع . وغالبـاً يستسلم الشعب راضياً لهذا النـوع من الحكم ، وغالباً مـا يستمر هـــذا الحـــكم حتى يستنفذ جميع أغـراضه ، وهنـــا – إكمالاً لحديثنا هـــذا – ينقلب هـذا الحـكم أو ذاك إلى حكم رجعى ، وتظهر عنـاصر جديـدة تطالب بتغييره وتحـل محـــله .

وهذا الحديث لا ينفى فى الحقيقة مسئولية الإمام عن فرض العزلة على اليمن ، لأننا إذا افترضنا أن طبيعة الشعب وظروف فترته التاريخية ساعدت الإمام على اتباع خطة معينة فى النواحى الخارجية ، فإن هذا لا يعنى أن يتجمد الإمام عند هذه الخطة ، بل كان عليه أن يعمل على تطوير شعبه وتوجيه طاقاته وإمكانياته إلى ما فيه فائدته ، وخاصة لأن القائد دائماً يمثل الطليعة والقدوة الحسنة بالنسبة لشعبه ، لا أن يتجمد عند موقف معين ويصبح عقبة فى سبيل تطوير شعبه وارتقائه . وهنا يجب علينا تفصيل الحديث حتى تتضح المعانى وأثر العوامل المختلفة التى طبعت اليمن فى النهاية بطابع العزلة .

اتخذ الإمام موقفاً خاصًا فى سياسته الخارجية واستطاع بذلك أن يبعد اليمن عن المجال الدولى ، وكان دافعه هو خوفه الدائم من الأجانب ، وما يتوقع حدوثه إذا سمح بالإقامة الدائمة لهم فى اليمن . وقد عبر عن خوفه هذا وعن موقفه من إقامة علاقات خارجية فى حديث له مع نزيه العظم ، فقال : « إنه يخشى كثيراً أن يعقد أية اتفاقية مع الأجانب لأن هذه الاتفاقية ستكون فى يوم ما من جملة الأسباب التى تحدو بالأجانب إلى التدخل فى شئون اليمن »[1] . وعلى الرغم من أنه رفض وجود هيئات دبلوماسية أو حتى جاليات بصفة دائمة فى بلاده ، فقد سمح بوجود أفراد من جنسيات مختلفة كانوا يفدون لليمن لقضاء أغراض مؤقتة ينصرفون بعدها مباشرة . وكان لا يأذن لهؤلاء الأجانب بدخول اليمن إلا بعد أن يتلقى عنهم معلومات طيبة ، وينزلون حين وصولهم إلى صنعاء فى منزل يختاره لهم بنفسه ، وكان يعتبرهم ضيوفاً عنده هو . وكانوا يقيمون فى صنعاء طوال المدة المسموح لهم بها شبه مأسورين ، فلا يقابلهم أحد إلا بأمر الإمام . وكانوا يعاملون نفس المعاملة

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢٤٥ .

منذ دخولهم حدود اليمن حتى يصلوا إلى صنعاء ، إذ يظلون فى أيدى عمال الإمام - أى فى أيد رسمية - حتى وصولهم إلى الإمام أو حتى خروجهم من اليمن نهائيًا ، وكان هؤلاء الأجانب يقيمون أثناء مرورهم بالمدن الكبرى فى منازل الضيافة الحكومية ، أما فى القرى فكان رؤساؤها ينزلون فى بعض البيوت الخاضعة للحكومة ؛ وكان يرافقهم بعض الجند بصفة دائمة أثناء وجودهم فى اليمن[١] . وكان موقف الإمام هذا يشمل كل من هو أجنبى عن اليمن ، وكان يعتبر العرب والشرقيين عموماً أجانب أيضاً ، بل كان يتوجس منهم خيفة ، إذ كان يعتقد أن العرب أو الشرقيين الذين يفدون إلى بلاده جواسيساً للدول الأجنبية ، لهذا كان لا يسمح لأحد منهم بدخول اليمن إلا بعد التأكد من نواياه[٢] . ولكن لم يكن هذا الموقف العام من الأجانب يعنى خلو صنعاء منهم بل العكس صحيحاً ، فقد كانت عاصمة اليمن دائماً تمتلئ بهم بصورة مستديمة ولكن كما قلنا على شكل أفراد أو وفود يحضرون لأغراض مؤقتة قصيرة الأجل ، وينصرفون بعد قضائها مباشرة . وكثيراً ما كان يجتمع أكثر من وفد من مختلف البلاد فى صنعاء ، إما للمفاوضة وإما لأغراض تجارية . ولكن نزيه العظم يشير إلى سبب آخر ، كان يدفع الأجانب للحضور إلى اليمن فيقول : « والغاية الحقيقية هى التجسس ، وبديهى أن يتخذ الأجانب جميع الأساليب والوسائل للمجىء إلى صنعاء ، لأن جلالة الإمام لا يسمح للدول الأجنبية بأن ترسل سفراء أو قناصل أو ممثلين دبلوماسيين لليمن ، ولذلك ترسل هذه الدول أناساً من رعاياها بين الفينة والفينة ليشاهدوا عن كثب حالة اليمن »[٣] . أى كانت هذه الصور لحضور الأجانب رد فعل لموقف الإمام منهم .

---

(١) Journal of The Royal Central Asian Society, Vol. XXVII, 1940, p. 29.

(٢) أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ، ص ٨٧ .

(٣) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

العزلة الاقتصادية ومظاهرها :

ولم يقف خوف الإمام من الأجانب عند هذا الحد ، أى عند الشكل السياسى ، بل كان يخشى وجودهم فى اليمن بشكل عام ولو كان لأغراض اقتصادية . فقد كان الإمام لا يوافق على منح الأجانب عموماً أى امتيازات للبحث والتنقيب عن مصادر الثروة المعدنية فى بلاده ، أو القيام بمشاريع اقتصادية وإقامة مؤسسات وشركات داخل اليمن ، وإن كان يعلم أن هناك بعض الفوائد ستعود عليه وعلى اليمن نتيجة هذه المجهودات الاقتصادية الأجنبية . وكان يكتفى بالمجهودات اليمنية الخالصة فى هذا المضمار ، رغم ضآلة هذه المجهودات الوطنية ، ورغم أنه لا يقوم بعمل إيجابى لتشجيعها .

ويروى نزيه العظم حادثة تدل على موقف الإمام هذا ، فيقول « إن بعض الوفود الأجنبية حاولت الحصول على امتياز استثمار مملحة « الصليف » الواقعة على مسافة ٨٠ كيلو متراً من شاطئ الحديدة ، ولكن الإمام رفض أن يعطى هذا الامتياز لأى منهم . وقد تباحثت مع جلالته فى هذا الشأن ، وسألته : لماذا ترفضون يا صاحب الجلالة إعطاء رخصة باستثمار هذه المملحة ، فقال : « ألا تعلم يا بنى أن سبب استعمار الهند والصين وغيرهما من البلاد الشرقية الضعيفة هو منح حكومات هذه البلاد للأجانب رخصا باستخراج الملح وزيت الكاز وغيرهما من المصالح إننى أفضل أن نبقى أنا وشعبى فقراء نأكل القصب (يقصد الحشائش) ولا أدخل الأجانب أو أمنحهم امتيازات مهما كان فى إدخالهم البلاد من الفائدة والثروة »[1] . ويذكر نزيه العظم نفسه فى مناسبة أخرى أنه طلب من الإمام أن يكلف ابنه سيف الإسلام محمد (ثانى أنجال الإمام وحاكم الحديدة حينئذ) الاهتمام بمملحة الصليف ، وقام سيف الإسلام محمد فعلاً بإرسال كميات من ملح « الصليف » كنماذج إلى عدن

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ١٨٣ .

والهند وغيرها للبحث عن أسواق ، إلا أن وفاة سيف الإسلام محمد المبكرة قضت على هذا الاهتمام ، وهكذا انتهى المشروع(١) .

لم يكن موقف الإمام من السياسة الخارجية وخوفه من الأجانب موقفاً منفصلا عن موقف بعض الفئات من شعبه ، فهم كانوا ذوى حساسية كبيرة ضد الأجانب عموماً حتى بالنسبة للإيطاليين الذين كانوا يعتبرون حلفاء الإمام المخلصين . وكان من بينهم من يقيم بصفة دائمة فى اليمن ، كما كان منهم الكثير من الفنيين الذين يستعين بهم الإمام ، إلا أن هؤلاء كانوا يشعرون بخوف دائم أثناء وجودهم فى اليمن ، كما كانوا يشعرون دائماً بالغربة ، بل إنهم كانوا يشكون لحكومتهم فى روما خوفهم المستمر من أن تقطع رؤوسهم وبأنهم غير مرغوب فيهم بشكل مخيف(٢) . وفى حديث لنزيه العظم أيضاً مع بستانى حديقة المنزل الذى استضافه فيه الإمام أثناء وجوده فى صنعاء ، ما يدل دلالة واضحة على تيقظ الشعب اليمنى بالنسبة لكل ما هو أجنبى ، واهتمام هذا الشعب سواء الغنى أو الفقير بهذه القضية وخاصة بالنسبة للإنجليز(٣) .

ولا شك أن هناك عدة أسباب أدت إلى هذا الخوف ، وأدى هذا بالتالى إلى العزلة كموقف متميز لاتقاء شر الأجانب . وأول هذه الأسباب هى الطبيعة الجبلية لليمن ، فباستثناء الساحل الضيق وما له من اتجاه طبيعى تجاه البحر نجد أن باقى شعب اليمن يتميز بأنه جبلى الأصل ، وهذه الطبيعة الجبلية تتميز بصفات معينة سواء فى اليمن أو فى غيره ، حقيقة أن سكان الهضبة الوسطى والجنوبية قد ارتبطوا بالأرض ومالوا إلى الاستقرار ، أى تخلوا عن كثير من الصفات الجبلية التى تحمل فى جوهرها النفور من الغريب أو الجديد ،

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ١ ، ص ٢٤٥ .

(٢) Clare Hollingworth 0 the Arabs and the West, p. 116.

(٣) نزيه مؤيد العظم : نفس المرجع ، ص ١٠٥ .

إلا أن سكان الجبال المرتفعة ما زالوا يتمسكون بعاداتهم وتقاليدهم الجبلية . والجبليون فى العادة يتعلقون بشدة بحرياتهم الذاتية ، ويبذلون جهدهم للدفاع عنها ، ويكرهون أى تدخل خارجى فى شئونهم سواء كان هذا التدخل من جهات إسلامية أو غير إسلامية ، ويفسر هذا موقف اليمن من العثمانيين . وهم أيضاً كثيراً ما يكتفون ذاتيًا بما تحت أيديهم ، أو أنهم يتعاملون مع السهول المجاورة تعاملا محدوداً سواء فى صورة حرب وسلب أو فى صورة تجارة وسلام . وعادة ما يكون أهل الجبال مقسمين إلى وحدات قبلية إذ إن الجبال لا تسمح بقيام وحدة اجتماعية أكبر من ذلك . وطبيعة القبيلة ، وطبيعة علاقتها الخارجية معروفة أيضاً بأنها محدودة . والجبلى بطبيعته حذر يتوجس خيفة دائماً نظراً لطبيعة موطنه المحلى غير الممتد أمام البصر ، فطبيعة المرتفعات توحى دائماً بأنها تخفى وراءها مفاجآت . وهذا الحديث ينطبق على جميع الجهات الجبلية مثل اليمن واسكتلندا ، لهذا : « كان الإمام وشعبه يخافون أى تدخل ولو من أجل البحث عن البترول أو إقامة الصناعات أو غيره »(١) .

والسبب الثانى ، هو التجارب التاريخية القاسية مع الأجانب ، فلا شك أن اليمنيين قاسوا الكثير خلال حروبهم الطويلة مع العثمانيين ، ثم تلا ذلك علاقاتهم مع إنجلترا وقد اتسمت بالعنف والوحشية فقاسوا مرارة استعمال الطائرات ضدهم . كل هذه التجارب جعلتهم يميلون إلى الانكماش والاكتفاء بأمنهم وحريتهم ، ولو أدى هذا إلى أن يعيشوا حياة فقيرة من الناحية المادية ، وخاصة أن الإمام لم يكن يعطى شعبه فرصة التطلع السلمى المفيد والاتصال العلمى الهادى . وهذا الموقف ينطبق كذلك بالنسبة للعالم العربى ، فقد كان

---

(١) Freya Stark : The Arab Island, pp. 26-28.

احتكاك الإمـــام بـا لمملكة السعوديـة وحربه معهـا دافعاً لأن ينفـر من العرب عموماً ، وخاصة إذا عرفنا أنه كان لا يثق بهم ، إذ كان يعتقد أن من يفد منهم إلى بـلاده إنما هو جـاسوس للبـلاد الأجنبية . وكـان الإمام أيضـاً يشعر بأن هـؤلاء العرب ليسـوا بالقوة اللازمـة التى ينبغى أن يكونوا عليها حتى يمكنهم تعضيده ضد عدوتـه التقليدية إنجلترا[١] . وكـانت إيطـاليا - حليفتـه الأولى التى كـان يعتمد عليهـا كثيراً - غير مخلصـــة لـه ، وكان يشعر بمحاولاتها للتدخـــل فى شئونه والضغط عليـه ، كما أنها لم تكن تمده بكل ما كان يشعر بالحاجة إليــــه ، كما سبق أن صـور ذلك نـزيـه العظم عنـدمـا تحدث عن طبيعـة المسـاعـدات الإيطالية له .

والسبب الثالث ، هـو المذهب الزيدى ، ولا نقصد بـذلك طبيعة المذهب حيث إنـه مذهـب مغلق ، فالمذهب الـزيـدى مـذهب مفتوح ، ويعتبر أقـرب المذاهب الشيعية إلى السنة كما أوضحنا قبل ذلك ، ولكننا نقصد أن هذا المذهب الخاص ساعد الإمام على أن يوحى إلى شيعته بـأن يشعروا بالتميز والوحدة وسط باقى المذاهب الإسلامية الأخرى وخاصة المذهب السنى . وقد رأينا أن الزيديين الأوائل قـد لجأوا إلى اليمن باعتبـاره حصناً يقيهم عـداوة الخلافة الإســـــلامية السنية ، فكانت هذه البداية الخاصة دافعاً إلى عزلتهم .

والسبب الرابع ، هو حـالة اليمن الداخلية منذ تولى الإمـام يحيى الإمامة ، فهى حالة قلقة مضطربـة ، وقع فيها كثير من الأحداث التى دعت الإمام إلى أن يحترس من وجود أجانب فى اليمن خوفاً مـن تدخلهم فى شئونه فمن المعروف أن الإمام منـذ توليه الإمـامة وهو يقـوم بحروب عديـدة ســـواء فى الداخل أو فى الخارج ، فحارب العثمانيين والإنجليـز والسعوديين ، كما حارب القبـائل اليمنية المختلفة . وهو كحاكم يحاول فرض سيطرته على بلاده اصطدم بأكثر من جهة ،

---

(١) Philby : Arabian Jubilee, p. 189.

فعندما كان يحارب العثمانيين شعر بأيديهم تدفع القبائل اليمنية ضده ، وتؤلبهم عليه ، وتعمل على إيجاد فرقة داخلية بين الشافعية والزيدية وبعد خروجهم ودخول الإمام فى حرب مع إنجلترا ، شعر بدسائسهم كذلك فى إثارة بعض القبائل ضده . وكانت هذه المنافسات والثورات تشكل خطراً كبيراً يهدد كيانه هو . وهذا التدخل الدائم غير المباشر ، جعله يفكر جديًّا فى محاربة فكرة وجود أجانب بصفة دائمة فى بلاده خوفاً من نشاطهم ، وعمل على قطع كل صلة بين شعبه وبين هؤلاء الأجانب . هذا فضلا عن أن سياسة الإمام نحو قبائل اليمن - سواء شافعية أو زيدية - ومحاولاته المستمرة فى القضاء على ثوراتها عليه ، كان عاملاً كبيراً فى جذب اهتمام الإمام نحو الداخل ، والانصراف عن المجال الخارجى .

والعامل الخامس ، هو طول مدة حكم الإمام وتقدمه فى السن ، فلا شك أنه كان يرى أنه أصبح من الصعب عليه بعد عام ١٩٣٤ ، أن يغير من طبيعته أو أن يفكر فى عمل تطوير جديد لسياسته الخارجية ، أو بالأحرى كان يخشى من أى تطوير أو الإقدام على جديد خوفاً من النتائج غير المتوقعة وهو فى هذه السن المتقدمة فيهدم بذلك كل مجهوداته السابقة . وبمعنى آخر ، وبعملية حسابية سريعة ، يمكن أن نفهم أن عمر الإمام بعد أن سمحت له الظروف الداخلية والخارجية بأن يفكر فى توسيع نشاطه فى المجال الخارجى ، لم يكن ليمكنه بأن يطمئن إلى إحداث أى جديد ، بل كان يدفعه إلى الاستكانة إلى ما أقامه من أوضاع وأشكال بالنسبة لسياسته عامة ، وخاصة أنه كان يميل إلى الجمود ويخشى التجديد .

فقد تولى الإمامة سنة ١٩٠٤ ، وكان حينئذ يبلغ من العمر حوالى ستة وثلاثين عاماً ، فإذا أضفنا إلى عمره هذا ثلاثين سنة أخرى أى حتى سنة ١٩٣٤ ، فيصبح عمره ستة وستين عاماً ، وهذا السن من الصعب معه القيام

بالتطوير والتجديد وخاصة إذا كان سن رجل مثل الإمام من حيث النشأة والظروف . وقد استمر الإمام يحكم اليمن حتى عام ١٩٤٨ ، أى حتى بلغ من العمر ثمانين عاماً ، وهذه الفترة (١٩٣٤ - ١٩٤٨) التى تجمد فيها الإمام على سياسته الثابتة السابقة كانت كفيلة بأن تطبع اليمن بطابع العزلة التى عرفت عنه فى التاريخ الحديث ، هذا إذا سلمنا معه أن الفترة الأولى من حكمه ، كانت مليئة بالحروب والاضطراب .

كان الإمام يرمى من وراء العزلة المحافظة على استقلاله واستقلال بلاده ، وتأمين نفسه وبلاده من مؤامرات الأجانب ودسائسهم ، وكان يرى أن لديه الكثير من العوامل التى تدفعه إلى اتخاذ هذا الموقف ، كما كان يشعر أن لدى بعض فئات شعبه بعض الخصائص التى يمكن أن يستغلها ويؤكدها ليثبت دعائم العزلة . وهذا ما دفع بعض الذين اضطروا أن يروا الأمور من خارجها إلى القول : « إن الإمام كان يستند أساساً على عداوة الأهالى لكل ما هو أجنبى ، وكذلك على تعصبهم الدينى ، وعلى عدم الأمن المتفشى فى البلاد »[(١)] .

ولكن لنا أن نتساءل الآن : هل العزلة هى الوسيلة الطبيعية للمحافظة على الاستقلال ؟ وهل مجرد إبعاد الأجانب عن اليمن معناه إبعاد خطرهم ؟ وهل العزلة ظاهرة تلائم العصر الحديث ؟

وقبل أن نجيب على هذه الأسئلة علينا أن نوضح أن العوامل السابقة التى ذكرناها - والتى دفعت الإمام إلى اتخاذ هذا الموقف - ليست تبريرات نذكرها دفاعاً عن الإمام وسياسته هذه ، بل هى تفسيرات فقط أوردناها لنبين الأسباب

---

(١) Hans Helfritz : The Yemen, a Secret Journey, p. 16.

والظروف التى جعلته - من وجهة نظره هو - يلتزم العزلة حتى نكون أكثر موضوعية عند الحكم عليه .

فمن المعروف أن العزلة تعنى التخلف والجمود ، لا فى الأزمنة الحديثة فحسب بل طوال التاريخ أيضاً . فالاتصال بين الدول هو السبيل الوحيد لانتقال الحضارة من مكان إلى آخر ، كما أنه الدافع القوى لتطور هذه الدول وتسابقها فى مضمار الحضارة . كما أن وسائل الاتصال الحديثة المتعددة قربت المسافات إلى درجة كبيرة بين البقاع المختلفة مما جعل الاعتزال موقفاً يثير السخرية والاشمئزاز ، لأنه يظهر الدولة التى تقف هذا الموقف بمظهر الدولة التى لا تعى طبيعة العصر ، وتتشبث بتأخرها وتخلفها بحجة المحافظة على الاستقلال .

والعزلة التى تعنى الابتعاد عن التيارات السياسية والحضارية العالمية ، والسلبية التى يقصد منها عدم المشاركة فى هذه التيارات ، والتقوقع من أجل تحقيق الاستقلال الخاص بعيداً عن خطر هذه التيارات ، كل هذه الأمور تؤدى فى حقيقة الأمر إلى التخلف والجمود ، لا إلى الاستقلال والأمن . وقد ذهب نزيه العظم إلى مهاجمة العزلة من هذه الزاوية - رغم أنه كان يؤيد الإمام فى أحاديثه عن العزلة ، وفى كيفية موقفه من الأجانب لخطورتهم - فيقول : « إن نظرية العزلة التى لا يزال أمراؤنا وملوكنا محافظين عليها ظنًّا منهم أنها تبعدهم عن الخطر وتحمى بلادهم من التعديات ، أصبحت فى هذا العصر نظرية بالية لا تسمن ولا تغنى من جوع .. وبديهى أن الجزيرة ضعيفة بالنسبة إلى الأمم النصف راقية ، وبديهى أنها مطموع فيها من قبل الأجانب والدول المعظمة ، وليعلم سادتنا الأمراء والملوك بأن وسائط الدفاع الأولية التى يملكونها ، لا تصد

غارة الفاتحين عن بلادهم ، ولا ترد هجمات الطائرات والغازات السامة ، فلا يفل الحديد إلا الحديد ، فعليهم أن يعدوا للأمر عدته »[١] . وهكذا يشير نزيه العظم إلى امتعاضه من سياسة العزلة ، وعدم جدواها فى مختلف المجالات ، وإن خشى أن يوجه الكلام مباشرة إلى الإمام ، وأعطاه شكلا عامًّا ، فالإمام بهذه السياسة حرم البلاد من نعمة الاتصال بالدول الأجنبية المتحضرة ، ورفض الاستفادة من خبراتها الفنية فى تطوير بلاده معتمداً على إمكانيات الضئيلة المحدودة فى قضية التطوير ، مما أقعد اليمن عامة عن اللحاق بركب الحضارة الحديثة ، وجعله يعانى النقص الشديد فى مختلف نواحى حياته . وقد انطبق أيضاً موقف الإمام هذا - أعنى عدم استفادته من الخبرات الأخرى - على الدول العربية الأكثر حضارة بالنسبة لليمن مثل مصر وسورية . وإذا كان قد استعان ببعض الخبراء العرب مثل وصفى زكريا[٢] ، إلا أن هذه الأمثلة كانت على شكل فردى ضعيف . وقد يقال إن الإمام استعان بإيطاليا ، وأحضر منها الآلات والفنيين ، ولكن لا يجب أن ننسى أن استعانة الإمام بإيطاليا كانت ذات صفة سياسية فى المقام الأول ، فقد تحالف مع إيطاليا من أجل أن تعاضده ضد إنجلترا . وكانت خطته بوجه عام هى : « الاستعانة بحكومة إفرنجية

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) المقتطف : عدد أول يناير ١٩٣٧ (سافر أحمد وصفى زكريا إلى اليمن سنة ١٩٣٦ بناء على طلب الإمام يحيى لمدة ستة أشهر بصفته مستشاراً زراعيًّا وقام بفتح مدرسة زراعية وجلب من مصر والشام وإيطاليا مشاتل وغرس ألوفا منها على اختلاف أنواعها وكتب عدة عجالات ونشرات ورسائل فى الموضوعات الزراعية الحديثة مما يفيد اليمنيين ، ولكن الإمام لم يستفد من هذه المجهودات والتوصيات بل أهمل أمرها . وقد كتب عدة مقالات عن اليمن فى مجلة المقتطف بعد عودته) .

على أخرى وهى خطة فى السياسة تجوز ، وقد تفيد إذا وقف صاحبها عند حد »[١] . ولكن هذه الصفة الأساسية فى سياسة الإمام كانت خطراً عليه ، فقد كانت إيطاليا أيضاً مثل إنجلترا ذات أغراض استعمارية . وبالرغم من أن هذه الخطة قد أفادته من الناحية السياسية إلى حد ما فإنها قد انقلبت عليه ، إذ أن إيطاليا وبريطانيا كانتا تسعيان لتحقيق مصالح خاصة من وراء منافستهما فى هذا المجال ، ولذلك نراهما تحاولان تقريب وجهات نظرهما ، وتتفقان فى سنة ١٩٣٨ على كيفية الاستفادة وعدم التصادم ، وغرض الإمام السياسى من تحالفه مع إيطاليا ، وأغراض إيطاليا الاستعمارية ، ودخولها فى منافسات دبلوماسية مع إنجلترا ، كل ذلك ضيع فوائد التحالف بين اليمن وإيطاليا من الناحية الاقتصادية .

وقد أثرت سياسة تضييق الاتصال بالعالم الخارجى على تجارة البن أيضاً ، فرغم أنه كان المحصول الرئيسى لليمن ، وكان العامل الهام فى زيادة الدخل القومى ، إلا أنه كان نهباً لاحتكار شركة يونانية فى الحديدة ، وذلك نتيجة سياسة العزلة والقناعة بأقل العلاقات الممكنة . فقد اعتمد الإمام فى تصريف البن على بعض التجار الأجانب المقيمين فى الحديدة مثل إخوان « ليفراتو » - وهم جماعة من اليونانيين - وكانوا يشترون البن من الفلاحين مباشرة ثم يبيعونه للخارج بالأسعار التى يرونها ، وكانوا بذلك يتلاعبون بالأسعار ويحققون أرباحاً باهظة . وقد ساعدهم على ذلك أنهم كانوا همزة الوصل الوحيدة بين منتجى البن داخل اليمن وبين العالم الخارجى ، وذلك لأن رأس مال التجار الوطنيين كان قليلا ، وكانت معرفتهم بالعالم الخارجى وأسواقه محدودة»[٢] . وهكذا أعطى الإمام

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ .

(٢) نزيه العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٧٩

الفـرصة لاحتكـار تجارة البن وتحقيق الأرباح ، دون أن يستفيـد الدخل القـومى اليمنى شيئاً يذكر .

لم يكشف مـدى تـلاعب هؤلاء التجـار ، ومـدى استفادتهم مـن سياسـة الإمـام حيال العـــالم الخارجى ، إلا حضـور الشركـة الـروسية إلى اليمن بعـد معاهدة ١٩٢٨ ، حيث عملت على تثبيت الأسعار وتخفيضهـا مما أحس بفائدته صغار المنتجين .

ونقصد من هذا كله أن الإمام عندما ضيق اتصالاته بالدول الأجنبية أضاع على نفسـه وعلى بـلاده فـرصـة الاستفـادة من تنـافس هـؤلاء الأجـانب ، ومن عروضهـم المختلفة لتطوير بلاده .

هكذا اتضـــح خطـر العزلة وخطـر دوامها ، إذا سلمنا أنهـــا قد تفيد فى فترة معينة محـــدودة فى تاريخ دولة ما . ولكن كان من الصعب الخروج من هذه العزلـة بشـــكل فجـائى فج فتفتح أبواب البـلاد للاستغـلال والنفــوذ الأجنبى دون حـذر ودراسة لحاجـات البلاد ، ودون التـدرج فى إقامـة علاقـات دبلوماسية . ونحن نؤمن أنـه لا بد من الاستعداد قبـــل الخـــروج من هذه العـزلة ، من نـاحية نشر التعليم والـوعى القـومى حتى يكون ذلك حصنـاً يقى البـــلاد خطـورة علاقـات خـارجيـة ، وفتح البـلاد لـلاستغـلال الأجنبى الاقتصادى . ويوضـــح الريحانى هـذه النقطة فيقول « إن فى العزلة قوة نأسف على دوامها ، ولكننا نأسف على زوالهـــا إذا كان التعـــليم الوطنى لا يحـــل محلهـــا ، فيكون فيه قـــوة جديدة لأهل اليمن تضاعف ما فقدوه ، ولا بد مع التعليم من تحسين الصلات وتمكينهـا بين الحضرة الإماميـة وسائر العرب »[١] . وهـــو بهذه الجملـــة الأخيرة ، يحدد كـــذلك المجـــالات الخارجيـــة

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ١٦٤ .

الآمنة التى يمكن أن يخرج إليهـا الإمام من عـزلته ، ألا وهى البلاد العـربية ، أو على الأقل يشير بأن عليه أن يبدأ بتمكين علاقـاته بها عندما يفكر فى الخروج من هـذه العزلـة حتى تكون بـداية طيبـة وخروجًـا آمنًا إلى العـالم الخارجى ، وحتى يستفيـد من خبرات وتجارب العـالم العربـى فى الميدان الـدولى ، فـلا يتخبط فى عـلاقاتـه الجديدة مع الـدول الأجنبيـة ، فيقع تحت نفوذهـا سواء السيـاسى أو الاقتصادى .

مظاهـر التنـافس الدولى فى اليمن حتى نهاية الحـرب العـالمية الثانية (١٩٣٤ - ١٩٤٥)

ويقـودنا الحـــديث عن ســياسة الإمام الخـارجية وسياســة العزلة التى اتخذها ، إلى بحث طبيعـة علاقتـه مع إيطـاليا وبريطانيـــا . وكانت العـــلاقة اليمنيـة الإيطاليــة تعتـبر مقياســًا لطبيعة العلاقـات الإيطالية البريطـانية ، ومعنى هـــذا أن أى تحسن فى العلاقـات الإيطاليـة البريطـانية مثـلا كان يؤدى مباشرة إلى تقليـــل التدخـــل الإيطالى فى شـئون اليمن وبالعكس[١] . وتتضـح خطـورة هـــذه المنافســـة على سياسة الإمـام ؛ إذا عرفنـــا أن هـــذا التنـافس اســـتمر طوال فترة حكم الإمام ، وكـانت إيطاليـا فى تلك الفـترة الأخـــيرة قد بلغت شـــأنًا كبيرًا فى المجـال الاستعمارى ، واتضح هذا فى تحديها لعصبة الأمم وقيامها بـالحرب ضد الحبشة فى أكتوبـر ســـنة ١٩٣٥ . وقد أثـارت هذه الحرب الرعب فى العـالم العربى أجمع وخاصـــة الجـزيرة العربيـة ، وزادت من مخـاوف الإمام يحيى ، وخاصــــة لأن جميع التعليقـات المعاصـرة كانت تشــير إلى أن اليمن ســـيكون الهـدف الثـانى لإيطاليـا بعـــد الحبشـــة أثنـاء توســعها الاستعمارى . ولم تـكن أحـداث الحــرب الإيطاليـة الحبشية أو التعليق عليها

---

(١) Lenczowski : The Middle East in the World Affair, p. 458.

قد انتهى بعد ، عندما انتهت مدة العشر سنوات الخاصة بالعمل بالمعاهدة الإيطالية اليمنية التى عقدت فى سبتمبر ١٩٢٦ . وهنا حاول الإيطاليون تجديدها إلا أن الإمام تردد طويلاً ، ودارت مفاوضات استمرت عامًا كاملاً فلم يتم تجديدها إلا فى أكتوبر سنة ١٩٣٧ ، بعد أن زارت بعثة إيطالية اليمن للتفاوض مع الإمام[١] . وكان تردد الإمام وتسويفه ، وإلحاح الإيطاليين وضغطهم لتجديد المعاهدة ، وخاصة وهم فى هذه اللحظة المنتصرة ، وهم أيضًا يمثلون إحدى الدول الكبرى فى ذلك الوقت ، كان هذا كله دافعًا لهم على أن يرسلوا السنيور غاسبارينى - بطل المعاهدة الأولى - للتفاوض لتجديد المعاهدة . وكان غاسبارينى قد نقل من منصبه فى أرتيريا ، وعين فى مجلس الشيوخ تقديرًا له ، فحضر إلى صنعاء فى صيف ١٩٣٧ يحمل كثيراً من الهدايا ، وكان بينها دبابتان حربيتان للجيش اليمنى و ٢٠ ألف بندقية وأربعة مدافع لمقاومة الطائرات وآلات لا سلكية[٢] . ومن البديهى أن نتوقع أنه صاحَب هذه المحاولات وعودًا كثيرة بالإمدادات الحربية والفنية ، كما حدث تلويح بقوة إيطاليا وعظمتها ، وبقدرتها الكبيرة على مساندة الإمام فى قضيته مع إنجلترا ، لهذا كله رضخ الإمام ووافق على تجديد المعاهدة . وقد سبق هذا التجديد أيضًا مناورة دبلوماسية قام بها وزير إيطاليا المفوض فى جدة ، إذ قابل الملك ابن السعود فى مايو سنة ١٩٣٦ ، وأخبره رسميًا بنجاح حملة الحبشة ، وقدم له هدية كبيرة عبارة عن ست طائرات لستة من الطيارين السعوديين الذين أتموا تعليمهم حديثًا ، كما أكد لابن السعود أن إيطاليا ليس لديها أية أغراض عدوانية تجاه الجزيرة العربية . وقد أخبره أيضًا أن إيطاليا تنوى تجديد معاهداتها مع الإمام يحيى ، كما دافع عن موقف إيطاليا من عصبة الأمم وتحديها لها ، بأن عصبة الأمم عصبة إنجليزية[٣] . وهذه المناورة

---

(١) Lenczowski : The Middle East in the World Affairs, p. 458.

(٢) أمين سعيد : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٢٠٤ .

(٣) Phıby : Arabian Hiqh land, p. 82.

سبقت محاولة إيطاليا مع الإمام ، إذ من المعروف أن الملك السعودى كان يعارض النفوذ الإيطالى فى اليمن ، ودائمًا كان يحذر الإمام من تغلغل هذا النفوذ ، وكذلك كان العالم العربى يعبر كثيرًا عن خوفه مع مطامع إيطاليا فى اليمن . والواقع أن تجديد المعاهدة الإيطالية اليمنية كان يعتبر قمة النفوذ الإيطالى فى اليمن ، وقد تبع تجديد المعاهدة إرسال الكثير من الفنيين والأطباء . وكان لهم قدر كبير هناك[1] ، بالرغم من أنهم كانوا مكروهين من الشعب اليمنى بسبب عجرفتهم[2] . وقد أثار هذا الفوز الإيطالى الكبير إنجلترا ، وكانت الدعاية العدوانية بين البلدين قد بلغت أشدها فى هذه الجهات ، لذلك رأت إنجلترا أن تغير سياستها ، وعملت على تقريب وجهات النظر مع إيطاليا . فانتهزت فرصة تغير الوزارة الإنجليزية فى أبريل سنة ١٩٣٧ وبدأت المفاوضات بين البلدين لتسوية الخلافات بينهما ، وقد نجحت فى ذلك وعقدت اتفاقية معها فى ١٦ أبريل سنة ١٩٣٨[3] . وقد اختص ملحق هذه الاتفاقية الثالث باليمن والمملكة السعودية ، وجاء فيه أن الحكومتين توافق على ألا تعقد أى اتفاق كما لا تقومان بأى عمل من شأنه أن يمس بأى شكل من الأشكال استقلال أو سلامة المملكة العربية السعودية أو اليمن ، وألا تسعى أى منهما للحصول على مركز ممتاز ذى صفة سياسية فى هاتين الدولتين . وقد ذكرتا كذلك أن من مصلحتهما ألا تبسط أى دولة أخرى أى نفوذ خاص أو فرض مركز ممتاز لها فى هاتين الدولتين . وقد اتفقتا أيضًا على أن من مصلحتهما أن يسود السلام بين المملكة العربية السعودية واليمن ، وألا تتدخل أى دولة فى حالة وقوع نزاع بين الدولتين المذكورتين . وقد حرصت الدولتان كذلك على الاتفاق فيما بينهما على أوضاع جنوب الجزيرة العربية (أى المحميات وحضرموت) وعلى مصالحهما فيها، فتعهدت بريطانيا بألا تقوم بإنشاء تحصينات أو أعمال عسكرية ذات صبغة هجومية ، وألا تجند الأهالى إلا

(١) Survey, 1939 1946, p. 354,

(٢) Freya Stark 0 The Arab Islanp, 34,

(٣) Survey , 1939 1946, p.348,

للمحافظة على النظام والدفاع المحلى ، وتتعهد أيضًا بأن تحتفظ بالاستقلال الذاتى للزعماء العرب الذين تحت حمايتها . وقد صرحت الحكومة الإيطالية من جهتها بأنها لن تحاول الحصول على نفوذ سياسى فى هذه المنطقة ، كما تعهدت بريطانيا بأن تضمن للمواطنين الإيطاليين والرعايا القاطنين فى هذه الجهات حرية الإقامة والتجارة وفقًا للأحكام المرعية[1] . وهكذا استطاعت الدولتان الأوربيتان تسوية نزاعهما الطويل الخاص بالجزيرة العربية . وقد استطاعت بريطانيا أن تكسب الكثير من وراء هذه الاتفاقية ، ولم تمنح إيطاليا أى حقوق أو مكاسب فى نفس الوقت . فهى فى الحقيقة لم تتعهد بشىء يخل بنفوذها أو يتعارض مع سياستها فى الجزيرة ، بل لقد ترجمت سياستها القائمة فعلا فى الجزيرة فى شكل نصوص فى هذه الاتفاقية ، دون أن تنقص شيئًا من نفوذها،فهى مثلاً لا تريد كسب نفوذ جديد فى الجزيرة العربية ولكن يهمها الاحتفاظ بما لها فعلاً وخاصة فى جنوبها ، كما يهمها أيضًا أن توقف إيطاليا نشاطها لكسب أى نفوذ سياسى فى الجزيرة وهى عندما حرمت على نفسها وعلى إيطاليا السعى للحصول على مكاسب سياسية فى الجزيرة ، كانت فى الحقيقة تحارب المساعى الإيطالية بطريق غير مباشر دون أن تمس سياستها ومصالحها .

ويجب أن نتصور أن ما جاء بخصوص عدم إقامة تحصينات فى المحميات أو تجنيد الأهالى هو تضييق على حريتها فى العمل فى هذه المناطق ، فهى لا تنوى فعلاً إقامة تحصينات هجومية، كما أنها لا تعتمد على الأهالى فتجندهم لأغراض هجومية أيضًا ، وحتى إذا رغبت فى ذلك فإنه يمكنها إقامة هذه التحصينات باعتبار أنها ذات صفة دفاعية ، أو تجند الأهالى بحجة استخدامهم فى حفظ النظام والدفاع المحلى ، وهذا كله يبيحه لها نص الاتفاقية نفسها . ولم تؤثر هذه الاتفاقية كذلك على سياسة إنجلترا العامة فى البحر الأحمر ،

---

(١) Survey , 1939 1946, p.348,

وعلى ما تتخذه هناك من تدابير حربية وذلك بحجة أنها تدابير دفاعية . ويتضح هذا من رد الوزير المدنى لوزارة الحربية على سؤال وجه إليه فى مجلس العموم عن أثر هذه الاتفاقية فى التدابير الخاصة بأعمال الدفاع فى مالطة وبور سعيد والبحر الأحمر ، فقال إنه لم يوقف أى تدبير من تدابير وزارة الحربية الخاصة بأعمال الدفاع الجديدة فى مالطة وبور سعيد والبحر الأحمر عقب عقد الاتفاق[١] . وفضلاً عن أن إنجلترا لم تخسر شيئًا نتيجة عقد هذه الاتفاقية ، وخاصة فى البحر الأحمر والجزيرة العربية - بالرغم من أن كثيرًا من ساسة بريطانيا اعتبروا أن هذه الاتفاقية هى تهدئة عامة لإيطاليا من جانب بريطانيا ، وأنه لا يجب الارتباط بها لأنها تحط من قدر بريطانيا - فإن إنجلترا قد كسبت الكثير . فقد ضمنت فعلا توقف الدعاية العدائية التى كانت تذيعها المحطة الإيطالية «بارى» (BARI) التى كانت تذيع باللغة العربية ، فقد نصت الاتفاقية على الامتناع عن تبادل الدعاية العدائية[٢] . وفوز بريطانيا فى هذا المجال ذو اعتبار كبير ؛ إذ إن محطة « بارى » هذه كانت تمثل خطرًا كبيرًا على نفوذها فى الشرق العربى الذى كان مهيأ للتأثر بأى دعاية ضد إنجلترا ، نتيجة تاريخه التقليدى معها وكرهه لها .

وكما ذكرنا قبل ذلك كان التحالف اليمنى الإيطالى - من وجهة النظر الإيطالية - يمثل جزءًا من التنافس الاستعمارى بين إيطاليا وبريطانيا ، فإننا نجد أن أيطاليا تؤيد وجهة النظر البريطانية - بعد عقد الاتفاقية (سنة ١٩٣٨) - بالنسبة لأحداث الحدود اليمنية العدنية المعروفة بأحداث « شبوة » . فقد علقت الصحف الإيطالية حينئذ على احتلال الإمام لبعض أجزاء منطقة الحدود الشرقية الجنوبية بقولها : « إنه من الغريب أن يلجأ

---

(١) الأهرام : العدد ١٩٥٦٤ فى ٢/ ٣/ ١٩٣٩ (محرم ١٣٥٨) ص ٨ .

(٢) Lenczowski 0 The Middle East in the World Affairs, p. 458,

الإمام يحيى إلى نقض معاهدة ١٩٣٤ بينــه وبين إنجـلترا التى عقــدت لمـدة أربعين ســنة ، بســبب الخلاف حــول ملكية بعض مناطق الحدود » و ذكرت « الأهـرام » كذلك عن جــريدة إيطاليـة ، أن الجــريدة الأخــيرة بعــد أن أشــارت إلى نشــاط بعض الموظفين الإنجــليز فى هــذه الجهات اليمنيـة ، ذكرت أنه بموجب اتفاق ١٦ أبريل سنـة ١٩٣٨ تعهدت حكومة لندن لإيطاليا بألا تقـوم فى اليمن بأى عمل من شأنـه أن يعود بـالضرر على اســتقلال هـذه البلاد وسلامة أراضيها[1] . وكأن هذه الجريدة تقصد أن نشاط مـوظفى بريطانيا هذا نشاط شريف مشروع ، وأن بـريطانيا لا يمكن أن تعتدى لوجـود اتفاق سنة ١٩٣٨ بينها وبين إيطاليا .

كانت اتفاقية ١٦ أبريل سنة ١٩٣٨ - التى لم تعرضها بريطانيا على مجلس عمـومهـا إلا متأخـرًا حيث أقــرهـا فى سبتمبر سنـة ١٩٣٨ - تســوية عـامـة للمشكلات المعلقة بين بـريطانيا وإيطاليا فى ذلك الـوقت ، الذى تكثفت فيها سحب الحرب بين دول أوروبـا ، وليست خاصـة بمنطقة البحـر الأحمر والجزيرة العـربيـة.ولكن يمكن أن نعتبر أن الملحق الثـالث لهذه الاتفـاقيـة الخاص بهذه المنطقة رد فعل مبـاشر لتجديد إيطـاليا لمعاهـدتها مع اليمن ، التى بلغت بنفوذ إيطاليا إلى ذروته هناك . ولكن رغم هــذا كله ، فقـد ظل الإمام معاديًا لإنجلترا فى ظاهر الأمر ، وظل على سياسته التقليـدية الخاصة بميله إلى أعدائها كيدًا لها ، واستمر فى إظهار ميلـه نحو بلاد المحور . ففى ســنة ١٩٣٧ أرسل أحد أبنائه إلى « طوكيو » ليشـارك فى افتتاح مسجد جديـد هناك[2] . وكان الميـل نحو دول المحور ظـاهرة عـامة اجتـاحت دول الشرق العربى عـامة ، إذ كانـت تمثل لدى العرب المنقذ النظيـف الذى ليس له ماض استعمارى معهم ، وبـرز هذا مثلاً فى ميل ثورة رشيد عالى الكيلانى فى العراق إلى ألمـانيا .

---

(١) الأهرام : عدد ١٩٥٧٤ فى ١٣/ ٢/ ١٩٣٩ (٢١ محرم ١٣٤٥هـ) ص ٧ .

(٢) Lenczowskis : The Middle East in the World Affairs, p. 459,

تجددت المنازعات بين إنجلترا والإمام حول منطقة « شبوة » وذلك في أواخر سنة ١٩٣٨ . وقد نقل الجرافى عن الهمدانى ، أنه قال إن : « شبوة » مدينة لحمير فيما بين « بيحان » و « حضرموت » وأحد جبلى الملح بها والآخر لأهل مأرب ، ولما اعتدت « حمير » و « مذحج » خرج أهل شبوة منها فسكنوا حضرموت ، وبه سميت « شبام » وكان الأصل في ذلك « شباه » فأبدلت « الميم من الهاء » . ويستطرد الجرافى في حديثه هو فيقول : « إنها بلاد يمنية ، وأهلها يمنيون . ولا يمترى في ذلك أحد . وقد امتد إليها أيدى أئمة اليمن كما لا يجهله التاريخ ، وهى داخلة في جغرافية اليمن الطبيعية »[1] . وقد كانت « شبوة » مدينة هامة في عصر السبئيين ، ومن الممكن أن تكون « سابوتا » عند الجغرافيين القدماء ، أو « شيبا » عاصمة الملكة « بلقيس » ملكة سبأ ، التى قامت بزيارة الملك سليمان في أورشليم . وفى هذه المدينة آثار سبئية كثيرة تحت رمال القرون الطويلة ، ويتحدث بدوها كثيرًا عن وجود أحجار منقوشة كثيرة هناك ، وهى تنتظر الكشف والتنقيب ، حتى يمكن دراسة تاريخ وحضارة هذه البقاع في أيام سليمان . وقد منع الأجانب والباحثون من زيارتها حتى ذلك الوقت للتنازع القائم بخصوصها بين الإمام وسلطات عدن . وقد استطاع الرحالة الألمانى « هانز هلفرتز » التقاط بعض الصور لمعالمها إلا أن الإمام قبض عليه وسجنه ثم أطلق سراحه بعد ذلك. وكذلك زارها فيلبى في سنة ١٩٣٦ إلا أنه اصطدم بسلطات عدن ، وهو يعتبر المكتشف الحقيقى لها ، وأول من رسم معالمها الهامة . وقد زار بعض المهندسين الأمريكيين « شبوة » بعد ذلك بحثًا عن البترول ، وقد أثار هذا اهتمام الإمام ولفت نظره إليها ، فأرسل بعض جنوده إليها مما حرك بالتالى سلطات عدن . وقد تقدم الكابتن « هاملتون » بفرقة من جنوده العرب إليها مما جعل الإمام يأمر جنده بالتقهقر منعا للحرب فانسحب هاملتون

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٥٣ .

كذلك ولم يمكث بها طويلاً ، واختـار مدينة « عياد » على حدود « شبوة » مركزًا عسكريًا لـه لتوفر المـاء فيها . وقد أدى هـذا التحفز الواضح بين السلطتين ، إلى أن انتهى الأمـر بشبوة أن ظلت كما هى مـركزًا لتجمع بـدوى بسيط نظرًا لنـدرة مياهها ، وبقيت آثـارها القديمة مدفـونة ، وكذلك أصبح الأمر بـالنسبة لثروتها البترولية المتوقع اكتشافها هناك[١] .

وقد بدأ التنازع بين الطـرفين حـول شـبوة بعد أن بـدأت إنجـلترا تنظم شـئون محمية عـدن وإدارتها بعد معاهدتها مع الإمام سـنة ١٩٣٤ ، وعندما عينت هارولد انجرامس Ingrams أول مستشـار دائم لهـا فى محميـة عـدن الشرقيـة سـنة ١٩٣٧ ، بعـد أن اطمأنت إلى تـوقف هجوم الإمام ولو نسـبيًا على المحميات بنـاء على نصوص المعاهـدة . فقد بدأ انجـرامس يؤكـد نفوذ إنجلترا فى منطقة نفوذه - على طـريقة الإنجليز - فتدخـل بين قبائل حضرموت المتنازعة فيما بينهـا ونجح فى فض منازعاتها . إلا أن النشاط الإنجليـزى هـذا ، قـد دفع الإمام إلى توسـيع منطقة نفـوذه فى هـذه المحميات ، وبدأ يؤلب قبائل هذه الجهة ومشـايخ واحـات شـبوة . والحقيقـة أن حاكم عـدن لم يزر هـذه الجهات مطلقًا بالرغم من أن المقيم البريطانى فى عـدن أكد فى سـنة ١٩٣٦ : « أن شبوة قطعًـا جزء من محمية عدن وإن لم تـدرها حكومة عـدن قط » . وفى نهاية نوفمـبر سـنة ١٩٣٨ أرسـل حـاكم عدن قـوة من رجـال القبائل تحت قيادة الكـابتن « هاملتـون » وأجـبر القائد اليمنى أن يقبـل شروط انسحاب مشرف[٢] . حسب تعبير إنجـلترا . ويـذكر الجرافى سببًا آخر لهـذا النزاع حول شـبوة فيقول : « إن بعـض ضباط عدن دخلوا مدينة شبوة متنكـرين ، ودخـل آخرون إلى محـل « العـبر » وأغروا مشـايخ البلاد بالانتماء إلى حـكومة عدن ، وتوعدوا أهل البـلاد بالطائرات ، ثم شـغلوا بالقوة موقع « العبر » الـذى فيـه

---

(١) Meule : Aden to the Hadhramout, pp. 99 - 100.

(٢) Survey ... 1939 _ 1946, dpp. 348 _9,

آبار ينتفع بها المـارون والأهـلون » . وقـد احتج الإمام يحيى ببـلاغ رسمى جـاء فيـه : « بـكل اسـتغراب وتحـير عظيم ، ألقـى إلى مسـامع الحكومة اليمنيـة ما أذاعته محطة الراديو بلندن فى يوم الاثنين ٢٤ ربيـع الثـانى سـنة ١٣٥٨هـ الموافـق ١٢ حزيـران (يونيـة) ١٩٣٩ ، عن واقعـة شـبوة ومـوقع العـبر وملحقاتها ، التى يتألف من مجموعها جانب من البلاد الشرقية الشمالية ، والتى مـا زالت يمنية محضـة منذ آلاف السـنين لم تمسهـا أيدٍ غير اليمنيين » . وقـد انتهت حـوادث شـبوة هـذه ببقائها منطقة محـرمة بين الطرفين المتنازعين[١] . والمؤكد أن سبب اهتمام بـريطانيا بشبـوة ومواجهتها للإمـام فى هـذه المنطقـة بالقـوة هو إحساسهـا بأهمية المنطقة من ناحية ثروتها البترولية . وكانت إنجلترا حريصـة على الوصـول إلى حـل نهائى بالنسبة لشبوة بعـد حوادث نوفمبر سـنة ١٩٣٨ العنيفـة ، فانتهزت فرصـة وجـود سـيف الإسلام حسين - رابع أنجـال الإمـام - فى لنـدن فى أوائل سـنة ١٩٣٩ لحضـور « مـؤتمر لنـدن » مـع وفـد الحكومات العـربية لبحث قضية فلسطين ، وتفـاوضت معه لإيجاد تقارب جـديد بين البـلدين ، ولحـل مشـكلة شـبوة ، ولـكن المبـاحثات لم تصل إلى نتيجة[٢] .

وعلى كل حال لقـد ظلت إيطاليـا صاحبـة المقام الأول فى اليمن وخـاصة بعـد تجديـد معـاهـدتها مع الإمـام سنة ١٩٣٧ . وكـان الأطبـاء هم أقـوى الشخصيات الإيطـالية نفوذًا وقـوة بين الإيطاليين المقيمين هنـاك من مهندسين وفنيين . وقد ظل الأمر هكذا حتى بعد نشـوب الحرب واشتراك إيطاليا فيها سنة ١٩٣٩ وقد لحق بـالإيطاليين هناك قليـل من ضـباط الجيش الإيطـالى الذين فروا من أثيـوبيا بعد هـزيمتهم فيها[٣] . وقد كـانت المستشفيات الإيطـالية هى

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٢) أمين سعيد : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٨٤ .

(٣) Clare Hollingworth : The Arabs and the West, p. 116.

المراكز الرئيسية للدعاية الفاشية ، وكانت توجد فى المدن الهامة ذات المراكز الاستراتيجية مثل تعز عاصمة الجنوب ، والحديدة عاصمة تهامة ، بل وفى صنعاء نفسها حيث استقرت بعثة طبية كان عددها حوالى اثنى عشر أو أكثر ، وكانت تمثل أكبر جماعة أجنبية فى المدينة . وكان النفوذ الإيطالى والدعاية الإيطالية فى اليمن تضايق الإنجليز كثيراً ، وقد حاولت القلة الإنجليزية - بالنسبة للإيطاليين - المقيمة داخل بلاد الإمام القيام بعمل دعائى يائس فى اليمن سنة ١٩٤٠ ، وحاولت إفهام اليمنيين أنه يجب على البعثة الطبية الإيطالية ألا تقوم بأى نشاط سياسى إلى جانب عملها الأصلى ، إلا أن اليمنيين كانوا أكثر استجابة للدعاية الإيطالية وكانوا يعتقدون أن الحلفاء قد خسروا الحرب ، وخاصة لأن الإيطاليون فى بداية الحرب كانوا فى الجانب الرابح « ويمسكون بأيديهم أغلب الورق »[١] .

أعلنت الحرب العالمية الثانية فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وظلت إيطاليا على الحياد حتى اشتركت فيها إلى جانب ألمانيا فى ١٠ يونية سنة ١٩٤٠ . وكانت إيطاليا منذ تجديد معاهدتها مع الإمام - وبالرغم من اتفاقيتها مع إنجلترا سنة ١٩٣٨ - تعمل جاهدة على تقوية ميناء « عصب » وتنميته ، فأصبح مستودعاً ضخماً للأسلحة والذخائر وقد أشيع قبل قيام الحرب العالمية الثانية ، أن هذه الاستعدادات الإيطالية تعتبر تمهيداً لغزو اليمن . وتلى اشتراك إيطاليا فى الحرب سقوط الصومال البريطانى فى أيديها فى أغسطس سنة ١٩٤٠ ، مما جعل مستقبل عدن نفسها فى خطر . ولكن انتصارات إيطاليا فى أفريقيا ، ونشاط دعايتها العدائية على حدود محمية عدن لم يؤد إلى شىء لصالحها فى جنوب الجزيرة العربية ، إذ انهارت إمبراطوريتهم فى أفريقيا قبل أن يحققوا أغراضهم فى هذه المنطقة .

---

(١) Survey ... 1939-1946, p. 354.

وقد فر بعض الفاشيين المتحمسين إلى اليمن مع قليل من الألمان الذين هربوا من إيران أو العربية السعودية ، إلا أنهم لم يقوموا بعمل فعال ، إذ كان الإمام حريص على ألا ينجرف فى تيار الصراع بين القوى الكبرى ، فقدم لهم « مجرد ملجأ غير مريح وبدون اكتراث »[١] . وكان الإمام قد أعلن الحياد منذ بداية الحرب ، ولكن هزيمة قوات « رومل » نهائيًا فى « معركة العلمين » قللت من ميله نحو المحور ، وجعلته يرضخ لضغط إنجلترا عليه ، فأمر فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٣ بالقبض على الإيطاليين والألمان الفارين إلى بلاده ، كما اعتقل جميع رعايا بلاد المحور هناك (٤٠ إيطاليًا وألمانيين) وأوقف عمل محطتى الإذاعة اللتين كانتا تعملان فى بلاده باسم المحور وقد تلا هذا أن قام الإمام بقطع كل علاقاته مع سلطات المحور . ولما كان الإمام لم يعلن الحرب على ألمانيا واليابان مثل باقى البلاد العربية ، فإنه لم يشارك فى مؤتمر سان فرنسيسكو ، ولكنه انضم إلى الأمم المتحدة بعد ذلك فى سنة ١٩٤٧ ، تحت تأثير المملكة السعودية[٢] . وكان موقف الإمام من الحرب عامة ، نتيجة لعزلته التقليدية ، وعدم رغبته فى المشاركة الفعلية فى التيارات الخارجية بوجه عام ، يعتبر موقفه هذا أيضاً ، صورة مكررة من موقفه فى الحرب العالمية الأولى . وقد أدت أحداث الحرب العالمية الثانية إلى خروجه من عزلته التقليدية ولو بصورة ضعيفة للغاية ، فدخل جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥ ، واشترك فى الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ ، وزارته أول بعثة أمريكية رسمية فى أبريل سنة ١٩٤٦ برئاسة الكولونيل وليم أدى Eddy وعقدت معه معاهدة تجارة وصداقة . وقد تبع هذه الزيارة إقامة علاقات دبلوماسية منظمة بينه وبين الولايات المتحدة فى ١١ مايو سنة ١٩٤٦ ، ومنحته أمريكا قرضاً بمليون دولار لشراء معدات حربية منها فى ٢٤ يناير

---

(١) Survey. 1939-1946, p. 354.

(٢) Lenczowski : the Middle East in the World Affairs, p. 459.

سنة ١٩٤٨ . وفى يوليـة التالى ، زار الأمير سيف الإسلام عبـد الله - أحـد أبنـاء الإمـام - الولايـات المتحـدة ، وأجـرى عدة محادثـات مع عـدد من رجـال الصناعة هناك[١] . وهـذا التقارب اليمنى الأمـريكى وإن جاء متأخـراً ، إلا أن الإمام كان يقصـد من ورائه البحث عن معضـد ومساند جديد ، ويبحث عن علاقـات اقتصادية وسيـاسية أخرى تحل محل علاقـاته السابقـة مع دول المحور تلك الـدول التى اختفت مؤقتـا من المسرح الـدولى نتيجة انهزامهـا فى الحرب . وكـانت أمـريكـا قـد بدأت تـأخذ - أثنـاء فترة مـا بين الحربين - طـريقهـا إلى المجال الدولى ، بعد خروجها من عزلتها التقليـدية ، وكانت قد أقامت علاقات سياسية واقتصادية مع باقى بلاد الشرق العربى ، قبل أن تصل إلى الإمام يحيى . وتـرجع عـلاقـة الأمـريكيين بـالإمـام إلى سنـة ١٩٣٠ ، عنـدمـا زاره المستر شـارلس كـرين - المليـونير الأمـريكى الـذى طـاف بكثير من دول الشرق العربى - ومهنـدس المناجم المستر كـارل تويتشل ، الـذى طاف بـاليمن بحثاً عن مـوارده المعدنيـة وخاصة البترول ، وقـد بنى هـذا المهندس عـدة جسور فى اليمن لربط صنعاء بمـوانئ البحر الأحمر اليمنية[٢] . وبعد هـذه الزيـارة - وقد توقفـت أعمال تويتشل الـذى انتقل إلى المملكة العربيـة السعوديـة للبحث عن البترول أيضـاً - لم تقم أية عـلاقات بين الإمـام والولايـات المتحدة حتى نهايـة الحرب العالمية الثانية كما رأينا .

علاقة الإمام بسائر الدول العربية :

وهنـا يبرز سـؤال هـام وهو : مـا هـو الموقف العـربى لـلإمـام يحيى ؟ أو بالأحـرى ما هى علاقـات الإمـام يحيـى بالعالم العرب ومـا موقفه من قضـايا العرب ؟ وما هو مفهوم القومية عنده ؟

(١) Lenczowski : The Middle East in the World Affairs, p. 459.

(٢) Fisher: The Middle East, p. 544.

ومن الصعب الإجابة على هذه الأسئلة إلا بعد استعراض مواقف الإمام ودراسة تاريخه من هذه الناحية ، منذ توليه الإمامة سنة ١٩٠٤ ، حتى دخوله الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ ، بل وحتى وفاته سنة ١٩٤٨ .

رأينا الإمام يثور ضد الحكم العثمانى منذ توليه الإمامة سنة ١٩٠٤ ، ولكننا لا نستطيع أن نقول إن ثوراته تلك كانت ذات دافع قومى . حقيقة لقد اشتهر اليمن بأنه « مقبرة الترك » ، ولكن الصراع لم يكن صراعاً ذا طابع قومى عربى ، وبناء على أفكار قومية يدافع عنها الإمام ، فقد كانت مطالب الإمام أثناء ثوراته ضدهم ذات طابع شخصى محلى دينى محض ، دون الارتباط بقضية عامة ، بالرغم من أن ثورات الإمام قد ارتبطت زمنيًا بحركات قومية ذات مفهومات واضحة فى شمال بلاد العرب . وقد ترجم صلح دعان سنة ١٩١١ المطالب والأغراض التى ثار من أجلها الإمام ، ولم يظهر فيها مطلب قومى أو دعوة قومية يمكن الرجوع إليها . ويتضح هذا أيضاً فى كتابات الإمام وأقواله التى سبق الإشارة إليها ، ويتضح منها أنها كانت تسيطر على الإمام أفكار إسلامية ، لا قومية عربية ، وكان يسعى لتحقيق مصالح خاصة محلية إلى جانب الاعتراف بوضعه الخاص .

ولكن هذا المفهوم الإسلامى ، والمواقف العملية الخاصة ، لا تنفى وجود علاقات بين الإمام يحيى وبين القوميين العرب فى الشام ومصر واستامبول نفسها . إذ كان هؤلاء القوميون يفكرون فى الخلاص على أيدى الإمام يحيى أو ابن السعود[1] . وكان الاعتقاد السائد بين هؤلاء الشباب ،

---

(١) كان الشريف حسين حتى قبيل الحرب العالمية الأولى - من وجهة نظر القوميين العرب - ما زال مواليا للعثمانيين ومنفذا لسياستهم فى الجزيرة العربية . أما الدور الذى أخذه ضد العثمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد كان بعد إعلان هذه الحرب - أى متأخراً بالنسبة للفترة التى نقصدها هنا - وبعد أن اتصل ابنه فيصل بالقوميين فى دمشق ، وبعد اتصال الحسين بالإنجليز فى القاهرة .

أن أفكارهم القومية السائدة بينهم لا بد لها من قوة مسلحة ، وأن هذه القوة موجودة لدى هذين الزعيمين العربيين ، ولذلك بدأوا الاتصال بهما . وقد أرسلوا إلى الإمام يحيى ضابطا عربيا يدعى « أحمد المجاهد » - من أصل يمنى وكان يعمل بالجيش العثمانى ، ثم طرد منه لنشاطه القومى - يحمل رسالة من عبد الكريم الخليل رئيس « المنتدى الأدبى العربى » فى استامبول يسأله ، عن مدى استعداده بالاشتغال بالقضية العربية . وقد عاد هذا الضابط من اليمن يحمل رد الإمام ، وقد وعد فيه بالعمل على إحياء مجد العرب والإسلام ، وأنه مستعد لنجدة إخوانه الذين يعملون معه أينما كانوا . وقد حذف من كتاب الإمام ما كان متعلقاً بمخاطبتهم كجمعية عربية ، وأصبح الكتاب يصلح لأن يكون منشوراً يستحث الأمة العربية على التمسك بأهداف التضامن ، وأرسل للنشر فى جريدة المؤيد المصرية ، فأصبح بمثابة بيان نشره الإمام يحيى فى الأقطار العربية « وهو أول منشور نشر للدعوة العامة فى الصحف من رجل عربى صاحب سلطة فعلية »[1] . ولكن يبدو أن الإمام كان يرمى من وراء الاتصال بالقوميين العرب حينئذ إلى الاستفادة من نشاطهم ضد العثمانيين وإلى تثبيت مركزه كزعيم عربى فى داخل اليمن وخارجه لخدمة قضيته الخاصة فى بلاده . وقد قام هؤلاء بخدمة جليلة للإمام بعد ذلك ، إذ نبهوه إلى المؤامرة التى يدبرها الاتحاديون ، والتى ترمى إلى تولية أحد منافسيه - ويسمى الضحيانى - الإمامة على أن يكون مواليًا لهم . وقد أرسل الضحيانى وفداً إلى الآستانة للاتفاق على خطة المؤامرة ، وكان من غريب المصادفة أن كان أحمد المجاهد الذى يحمل رسالة الإمام يركب فى نفس الباخرة التى يركبها هذا الوفد ، واستطاع بلباقته وحسن تصرفه أن يكسب ثقة الوفد . فقد ذكر لهم أنه من اليمن ، وأنه من ضباط الجيش العثمانى دون أن يذكر لهم خروجه منه ، وعرض عليهم أن يكون مترجماً لهم

---

(١) أحمد عزت الأعظمى : القضية العربية ، جـ٢ ، ص ٥ - ٧ .

لمعرفته التامة بالتركية ، فأطلعوه على مهمتهم وعلى تفاصيل خطتهم الحربية للقضاء على الإمام يحيى ، والتى أتوا للآستانة لعرضها على المسئولين هناك . وهكذا عرف عبد الكريم الخليل المؤامرة بالتفصيل . فكتب فى الحال إلى الإمام يحيى يخبره بأسرار الخطة ، وأرسل الكتاب أيضاً مع أحمد المجاهد[١] . ولكننا نرى أن هذه العلاقات لا تتعارض مع ما ذهبنا إليه من أن الإمام كان يحارب العثمانيين بدافع محلى مذهبى أكثر منه قومى .

استمر التفكير الدينى متغلباً على التفكير العربى عند الإمام حتى بعد استقلاله وخروج الترك من البلاد العربية كلها . وقد اتضح هذا فى حديث له مع أمين الريحانى فى العشرينيات الأولى من هذا القرن ، إذ أظهر الإمام ميله إلى الوحدة الإسلامية ، وحاول الريحانى إقناعه بأن : « الجامعة القومية أصح أساساً وأسهل تحقيقاً من الجامعة الدينية ، وأن من أعز العرب أعز الإسلام ، وإننا نحن المسيحيين فى سوريا مثل العرب المسلمين ، فتجمعنا القومية ولا يجمعنا الدين »[٢] . إلا أن الإمام ظل عند رأيه ، وأظهر ميله إلى الوحدة الإسلامية . وترجع هذه الميول إلى نشأة الإمام وثقافته وتاريخ أسرته الدينى من ناحية ، وإلى عدم تبلور الأفكار القومية العربية عنده بلورة كاملة واضحة من ناحية ثانية ، وأثر هذا فى موقف الإمام من العالم العربى خلال حكمه الطويل . فإذا أضفنا ظاهرة العزلة العامة التى غلف الإمام بها اليمن ، ثم قلة ثقته بالدول العربية ، وخوفه من العرب الذين يفدون إلى اليمن لاعتقاده أنهم جواسيس يعملون لحساب الدول الأجنبية ، أو حتى لا ينقلون إلى بلاده أفكاراً تقدمية ، أمكننا فهم سبب بعده عن البلدان العربية .

---

(١) أحمد عزت الأعظمى : القضية العربية ، جـ ٢ ، ص ٨ - ٩ .

(٢) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ص ١٣٢ - ١٣٣

وقد سبق الحرب اليمنية السعودية سنة ١٩٣٤ ، عقد معاهدة يمنية عراقية سنة ١٩٣٠ ، ولكنها فى الواقع محدودة فى الغاية ، من حيث موادها أو غاياتها ، فلم تشر مثلا إلى إقامة علاقات اقتصادية أو أى تنظيمات أخرى بين بلدين عربيين ، بل اقتصرت موادها على تبادل الاعتراف وسيادة الصداقة بينهما فقط[١] . (ملحق ١٦) .

وقد استمرت هذه المعاهدة القصيرة المحدودة هى كل ما يربط اليمن بالعراق حتى انضم الإمام إلى معاهدة « الأخوة العربية والتحالف » (ملحق ١٧) التى سبق عقدها بين العراق والمملكة العربية السعودية فى بغداد فى ١٠ محرم سنة ١٣٥٥ هـ (٢ أبريل ١٩٣٦) وقد حررت وثيقة الانضمام هذه - ويقال إنها كانت بخط الإمام - فى صنعاء فى ١٧ صفر سنة ١٣٥٦ هـ (مايو ١٩٣٧)[٢] .

وقد تبع الانضمام إلى الحلف عقد معاهدة تسليم المجرمين بين العراق واليمن فى أول أبريل سنة ١٩٤٦[٣] . ويعتبر دخول اليمن فى التحالف السعودى العراقى خطوة كبيرة بالنسبة لعزلة اليمن التقليدية ، وهو فى حد ذاته ذات صبغة تنظيمية خاصة بتنظيم العلاقات بين اليمن وكل من العراق والعربية السعودية وفضلا عن هذه المواد الهامة المنظمة للعلاقات ، فإن ميثاق انضمام اليمن نص فى خاتمته إلى أنه « قابل لمن أراد الدخول فيه من الدول العربية المستقلة » . وإننا إذا اعتبرنا أن هذا التحالف دليل على استعداد الإمام للخروج من عزلته بالنسبة للدول العربية وإقامة علاقات ودية مخلصة ، نجد أن الحذر والتقيد، الواضحين فى نص هذه الوثيقة، يناقض الاعتبار الأول ويقلل من قيمته.

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ .
(٢) محمد حسن : قلب اليمن ص ١٩٦ - ٢٠٠ .
(٣) نفس المرجع : ص ٢٠١ - ٢٠٤ .

وقد بدا أن الإمام يريد الخروج إلى العالم العربى والاستعانة به فى تطوير أحواله الداخلية قبل إعلان انضمام اليمن إلى المعاهدة العراقية السعودية بقليل. فأرسل بعثة عسكرية عبارة عن عشرة من الشباب فى أواخر عام ١٩٣٦ ، إلى بغداد للالتحاق با لمدرسة الحربية العراقية ، وقد أتمت دراستها هناك فى يولية سنة ١٩٣٨ وكانت هذه المجموعة هى نواة الجيش اليمنى الحديث بالرغم مما لاقاه أفرادها من عنت وتشتيت بعد عودتهم .

وكذلك ذهبت إلى العراق بعثة علمية التحقت بدار المعلمين فى بغداد ، وكانت الحكومة العراقية تتحمل نفقات هذه البعثات التى استمر إرسالها حتى إعلان الحرب العا لمية الثانية حيث توقف ذهابها إلى هناك لصعوبة المواصلات . ولم يستفد اليمن كثيراً من هذه البعثات وغيرها - مثل التى كانت تأتى بشكل فردى أو جماعى إلى المعاهد المصرية ، وخاصة الأزهر - لموقف الإمام الحذر الخائف من الإصلاح بوجه عام ، ولأن هؤلاء العائدين كانوا يحملون أفكاراً جديدة ، كان الإمام يعارضها ويحارب أصحابها . كما أرسلت الحكومة العراقية فى سنة ١٩٤٠ بعثة عسكرية برئاسة اللواء الركن إسماعيل صفوت لتنظيم وتدريب الجيش اليمنى[٢] . وقد ذكرنا قبل ذلك أنه كان يستقدم بعض الخبراء العرب فى الشئون المختلفة لم يستفد منهم أيضاً ، مثل أحمد وصفى زكريا ، الذى زار اليمن سنة ١٩٣٦ ، ومكث بها حوالى ستة أشهر قدم خلالها كثيراً من الاستشارات الزراعية . ولكن كما ذكرنا ، كانت هذه العلاقات ذات صفة فردية ، وليست ذات طابع رسمى منظم . وكان هذا يتمشى تماماً مع نظرة الإمام نحو العالم الخارجى عامة والعالم العربى خاصة ، فكانت هذه الاتصالات تعبر عن مزيج من التمسك بالعزلة ، ومن الرغبة فى الاستعانة بالدول الأجنبية ، وتدل على تردد الإمام وحذره بين هذين المتضادين .

---

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ٣ (وهو أحد أفراد هذه البعثة العسكرية العراقية ، ويوضح فى كتابه أغراض البعثة وأعمالها) .

تلى الحرب العالمية الثانية انضمام الإمام إلى جامعة الدول العربية سنة ١٩٤٥ ، وكانت خطوة متقدمة دون شك بالنسبة لموقف الإمام العام ، على الرغم مما عاب موقفه حينئذ من حذر وتردد . فقد تأخر ممثلوه عن حضور الجلسات التحضيرية التى عقد فيها الميثاق نفسه ، كما أنه لم يعط لممثله فى هذه الجلسات الحق فى عقد الميثاق ، أو التصديق على ما يتخذ من قرارات .

فقد دعا النحاس باشا رئيس الوزراء فى مصر حينئذ فى خطبة له فى مجلس الشيوخ فى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٣ ، إلى ضرورة اتخاذ خطوات رسمية لإجراء مشاورات مع الدول العربية كل منها على حدة ، لمعرفة آرائها فى توحيد جهودها ، و إنشاء تحالف أو تقارب بينها . وبدأت المباحثات مع وفد العراق فى ٣١ يونية سنة١٩٤٣ ، ومع وفد إمارة شرق الأردن فى ٢٧ أغسطس من نفس السنة ، ومع وفد المملكة السعودية فى ١١ أكتوبر ، ومع الوفد السورى فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٤٣ ، ومع الوفد اللبنانى فى ٩ يناير سنة ١٩٤٤ . وأخيراً دارت المشاورات مع مبعوث اليمن السيد « حسين الكبسى » ناظر الأوقاف العلمية فى ٦ فبراير سنة ١٩٤٤ واستغرقت جلستين : « وقد بحث فيهما موضوع التعاون بين البلاد العربية من جميع نواحيه ؛ وانتهت المشاورات بين الجانبين مؤكدة حرص القطرين (مصر-اليمن) الشقيقين على التعاون مع باقى البلاد العربية ، والعمل على تقوية الروابط وتوثيق الصلات بينهما ، وتم التفاهم بين الجانبين على الطريقة التى يمكن أن يتحقق بها هذا التعاون المرجو لخيرها جميعاً »[٢] . وقد تقرر بعد هذه المشاورات التمهيدية موعد لانعقاد لجنة تحضيرية من ممثلى هذه الدول لوضع مبادئ الميثاق ونصوصه تحدد فى يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٤٤ وكان السيد حسين الكبسى قد وصل الإسكندرية فى أوائل سبتمبر ، واتصل بالحكومة المصرية ،

(١) الأهرام : العدد ١٢٤٤٦ ، فى ٢٥/ ٩/ ١٩٤٤ ، ص ٣ .

ثم أرسل إلى صنعاء بعض البيانات الخاصة بسياسة الوحدة العربية لعرضها على الإمام وأخذ رأيه فيها ، فوصل رد الإمام في ١٣ سبتمبر ١٩٤٤ . إلا أنه حتى يوم انعقاد اللجنة التحضيرية في ٢٥ سبتمبر ، كان أمر تمثيل المملكة العربية السعودية واليمن ما زال موضع البحث والمداولة ، وانعقدت الجلسة الأولى في الموعد المحدد دون أن يحضر ممثلا هاتين الدولتين[1] . وقد دفع هذا باقي الوفود العربية إلى إرسال برقيتين إلى كل من الملك ابن السعود والإمام يحيى لاستعجال حضور ممثليهما ، فرد كل منهما بتعيين ممثله في اللجنة . وقد جاء في برقية الإمام إلى النحاس ردًا على برقيته : « أمرنا السيد حسين الكبسي بالحضور في المؤتمر التمهيدي مندوباً عنا بصفته مستمعاً ونسأل الله التوفيق »[2] . وقد حضر السيد الكبسي جلسات المؤتمر ، ولم يزد في خطبته في أول الجلسة على أنه قدم نفسه ، وأنه سيكون مستمعاً فقط لسد الفراغ الذي أشار إليه مندوبو الدول العربية المجتمعة في برقيتهم للإمام . وموقف الإمام هذا من ممثله يدل بوضوح على حذره وتردده بالنسبة للدخول في مثل هذا الارتباط الكبير ، فهو من ناحية لم يكن يوافق على منح ممثله حق المناقشة والمداولة حتى لا يتورط - عن طريق ممثله - في الارتباط بمبادئ ما . ومن ناحية ثانية ، فإنه لم يعط ممثله حق التمثيل المطلق حتى يطلعه هذا الأخير على ما يدور من مناقشات واتجاهات داخل المؤتمر . ومن ناحية ثالثة ، كان يجب أن يكون المتصرف الوحيد بالنسبة لأمر هام كهذا فلا بد من الرجوع إليه في كل شيء . والدليل على ذلك أنه على الرغم من موافقة جميع الوفود العربية في الجلسة الثامنة والأخيرة للمؤتمر في ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ على بروتوكول الجامعة (وهي الوفود السورية واللبنانية والمصرية والعراقية والأردنية)

---

(١) الأهرام : العدد ٢١٥٤٧ ، في ٢/ ٩/ ١٩٤٤ ، ص ٣ .

(٢) الأهرام : العدد ٢١٥٤٩ ، في ٢٨/ ٩/ ١٩٤٤ ، ص ٣ .

إلا أن وفدى المملكة العربية السعودية واليمن قد أرجأ إبداء رأيهما إلى ما بعد عرض البروتوكول على ملكيهما ، هذا بالرغم من أن الإمام قد أذن للسيد الكبسى بالاشتراك فى المداولات ، فحضر الجلسة الأخيرة بصفته عضواً مشتركاً فى المداولات لا مستمعاً فقط . وقد أعلن الميثاق فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤[1] .

وقد تقرر بعد ذلك إبرام الميثاق فى القاهرة فى ٢٢ مارس ١٩٤٥ ، إلا أن ممثل اليمن لم يحضر هذه الجلسة أيضاً ، فتقرر إرسال صورة من الميثاق إلى اليمن لتوقيعها وإعادتها إلى مصر لحفظها فى وزارة الخارجية المصرية . وقد تلقى النقراشى باشا رئيس الوزارة المصرية حينئذ برقية من الحكومة اليمنية تتضمن موافقتها على الميثاق ، وتأييدها للقرارات التى يصدرها المؤتمر[2] .

وقد دعت الجامعة العربية بعد ذلك أعضاءها لعقد اجتماع فى ٤ يونية سنة ١٩٤٥ خاص بالنظر فى حوادث سوريا ولبنان حينئذ ، فحضر جميع الأعضاء فى الموعد المحدود ما عدا ممثل اليمن ، مما اضطر الأمين العام للجامعة أن يرسل برقية للإمام يحيى يخبره بما اتخذته الدول الأعضاء من خطوات من أجل سوريا ولبنان ، وما بذلته هذه الدول من جهود مشتركة ، فاكتفى الإمام يحيى بالرد عليه ببرقية شكر وتأييد . كما أرسل الإمام كذلك للجامعة العربية فى القاهرة برقية يخبرها بأنه اختار نجله الأمير عبد الله لتمثيل اليمن فى اجتماع مجلس الجامعة ، إلا أن الأمير عبد الله لم يحضر هذه الاجتماعات لوصوله متأخراً بعد إصدار

---

(١) الأهرام : فى ٨/ ١٠/ ١٩٤٥ ، ص ٣ .

(٢) الأهرام : العدد ٢١٥٩٨ ، فى ٢٣/ ٢/ ١٩٤٥ ، ص ٢ .

القـرارات وحتى بعـد سفر الـوفـود . وقد عبر الأمين العـام للجـامعـة العربيـة للصحفيين عن سبب تأخر وصول ممثل اليمن لحضـور هذه الجلسات ، بأن هذا يـرجع إلى صعـوبـة المواصـلات حيث إن الأمير عبـد الله ممثل اليمن ، سيركب الطـائرة من « قمـران » وهى جـزر تواجـه السـاحل اليمنى وتقيم فيهـا إنجلترا محجراً صحيًّا للحجاج[١] .

وهكذا انضم الإمام يحيى إلى الجامعة العربية ، ويمثل هذا الانضمام موقفه تجاه العالم العربـى المشوب بالكثير من مظاهر التردد والخوف ويـرجع هذا التردد بطبيعة الحال إلى موقفه الانعزالى العام ، وخوفه من الدخول فى علاقات خارجية بوجه عام .

وكيفما كان الأمر فقد أصبح لليمن مكان عربى ودولى معترف به ، وأصبح لليمن مقعـد مثل بـاقى الـدول المستقلـة فى الأمم المتحدة وفى جـامعـة الـدول العربيـة . ولا شك أن دخول اليمن جامعـة الدول العربيـة كان من الممكن أن يعتبر نقطة تحول فى تاريخ اليمن ، إذ إن هـذا قد منح الإمام مسانـدة هيئة دولية كـانت تنقصه من أجل تحقيق مطـالبه . وقـد تـلا ذلك توقيع ميثـاق الصداقـة المصرية اليمنية (٢٢ أغسطس سنـة ١٩٤٦) فى خلال الدورة الثالثـة للجامعة حيث جرت مفـاوضات بين مصر واليمن انتهت بـالموافقة على إقـامة عـلاقات دبلومـاسية بين البلدين ، ولكن لم تقم هـذه العلاقات عمليا إلا فى عهـد الإمام أحمد سنة ١٩٥١[٢] .

---

(١) الأهرام : العدد ٢١٦٦٣ ، فى ٧/ ٦/ ١٩٤٥ ، ص ٣ .

(٢) Berrby, J, J : La Pedinsula Arabique, p. 146.

الفصل الثانى

مظاهر سياسة الإمام الداخلية

النظم الإدارية :

يعتبر الإمام يحيى مؤسس الدولة اليمنية الحديثة[1] ، وأول حاكم لها بعد استقلالها ، ولهذا ارتبط تاريخ اليمن الحديث بتاريخ حياة الإمام ، واعتبر التاريخان أمراً واحداً طوال النصف الأول من القرن العشرين . وترتبط نشأة الدول عادة بنشأة مؤسسها والظروف التاريخية التى أحاطت بهذه النشأة ، فمحاولات المؤسس ومجهوداته تخضع لظروفه وظروف شعبه ، وإلى اللحظات والمؤثرات التاريخية التى احتك بها هذا المؤسس وشعبه معاً . وقد عرضنا طوال البحث أحداث وأطوار اليمن منذ كان ولاية عثمانية حتى حقق استقلاله ، وحتى أصبح عضواً فى الجامعة العربية وهيئة الأمم . وهذا التطور العام ، وهذه الأحداث التاريخية ، تعتبر إلى حد كبير مسئولة عن النهاية التى وصل إليها ، وعن الطابع الذى شكل صورته ، إذ لا يمكن عزل صورة اليمن فى عهد الإمام يحيى عن المؤثرات أو الأسباب التى أدت إلى ظهور هذه الصورة المعينة . ونحن إذ نؤمن بأثر شخصية الحاكم – وخاصة المؤسس – فى تشكيل تاريخ دولته ، فإننا نؤمن بأثر الظروف المختلفة التى أخضعت هذا الحاكم لها ، وجعلته يلجأ إلى أساليب ووسائل معينة تنتهى به فى آخر الأمر إلى تشكيل الدولة سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا بما يلائم هذه الظروف والملابسات التى صاحبت حياته . وقد يسمح التاريخ للحاكم باللجوء إلى أساليب ووسائل معينة فى الحكم فى لحظة معينة ولفترة معينة ، ولكنه لا يسمح للحاكم أيضاً ، أن تستمر أساليبه

---

(١) وهى الجمهورية العربية اليمنية حالياً ، والمقصود « بالحديثة » هنا هو الإشارة إلى الحدود السياسية التى عرفت بها اليمن حديثاً وخاصة منذ إعلان استقلالها عقب الحرب العالمية الأولى .

ووسائلـه هذه إلى أمد غير محدود ، إذ إن موقف الحاكم إزاء أحـداث معينة ينشأ عنه بالضرورة مواقف وعناصر جديـدة تحتاج إلى موقف جديد ، ولذلك يجب أن تتناسب وسـائله وأساليبـه مع المواقف والعناصر الناشئـة وإلا أصبحت وسائل وأسـاليب الحاكم متخلفـة جامـدة ، ويصبح الحاكم نفسـه متخلفـاً جامـداً لا يصلح لحكم شعبـه المتطـور ، ويبـدو وكأنـه حجـر عثـرة فى سبيل تطـور هـذا الشعب .

وعلى هــذا فالارتبـاط بين تاريخى الإمــام واليمن ، يحتـاج منـا أن تـبرز بعض النقـاط حتى يتضح بصورة جليـة دور الإمام فى تـاريخ اليمن الحديث . يقـال دائماً إن حـكم الإمام يحيى أدى إلى عـزلة اليمن وتخـلفه ، وينسـب إلى الإمام صـفة الرجعيـة والجمـود ، وأنـه مسئول عن تأخـر اليمن حتى بالنسـبة لبـاقى البـلاد العـربية . ولا يمـكن الأخــذ بهـذه الصـفات والنعـوت على عـلاتها بل يجب توضـيح جـذورها وكشـف أسـبابها . وقـد قـال عنه أمين سـعيد إنه : « يعـد من غلاة المحـافظين فى آرائه الاجتماعية ، وهو من أنصـار القديم ودعاته والمتمسكين به مع الميل إلى الاسـتفادة من المخـترعات الحـديثة واستخدامها » ويقول عنـه أيضًا إنه : « من أنصـار الجامعة الإسـلامية وأكابر دعاتها . ولا يؤمن بمبدأ القومية ولا يـراه جـديرًا بالاهتمام ، ويفضـل عليه المبدأ الدينـي ويراه أدعى إلى القبـول والنجاح »[1]. وهـذه الآراء على الرغم من أننـا نؤمن ببعض ما جاء فيها، إلا أننا نعتبرها آراء وصفية فقط دون تعمـق أو تحليـل. وقد تكرر وصــف الإمام بالرجعيـة والجمـود فى كتـابات الصحف الإنجـليزية التى عرضناها عند تناول الحرب اليمنيـة السعودية . وكذلك وصف الإمام بأنه حاكم مطلق ، فتقول : Freya Stark أنه كان يحكم اليمن حكمًا مطلقًا ، وتقول إنهـا عنـدما تقـول مطلقـًا فإنهــا تعنى ذلك لأنه : « كـان يقبض على شــئون شــعبه الروحـية والدنيوية بين يديه كما أنه قاد جيوشـهم فى المعـارك وأرواحهم

(١) أمين سعيد : ملوك المسـلمين المعاصرين ودولهم ، ص ١٨٩ .

فى الصـــلاة طوال جيلين ، وأنه كان يعنى بأمورهم الســـياسية وحياتهم الخاصة وتجـــارتهم وملبسهم ورحلاتهم فوصــــلت يـداه إلى كل مكـان ، وهو مقـــدس وخاصــــة فى الأجـــزاء الجبليـــة من بلاده حيث يؤمن النـاس بقدســـيته »[١] .

كما أكد Scoff أوتقراطية الحـكم فى اليمن فى عهـــد الإمام يحيى ، فقـال : « إن الملكية فى اليمن تعـد من أكثر الملكيـات أوتقراطيـة فى العـالم[٢] ، ولا شـك فى أن حـكم الإمـام كان مطلقًا ؛ إذ كـان يمسـك بين يـديه بزمـام الأمـور فى بلاده ، ويركـز السـلطة كلها فى يـديه ، ولا يســمح بالتصــرف فى صــغائر الأمــــور إلا بعلمـــه وموافقتـه ، وكـان لا يوافــق على وجـــود شـــكل دســـتورى لحكم اليمن ، بل يتعمـد أن تكـون السـلطة كلها فى يـده هو دون الوزراء والأمراء أو الإداريين عمـومًا ، ولم يكن لملك اليمن « حـكومة » ولكن له « بـلاطًـا » فهو ملك أوتـوقـراطى . وكـان الإمام يعين « وزراء » ولكن هـــذه الألقاب التى يخلعهـا عليهم ليســت فى الغالب سوى ألقاب شرف ، ولا شىء غير ذلك . وكان أغلبهم من أولاده وخاصـة فى أواخـر أيامه ، وكان أحد أولاده وزيرًا للمواصــلات ، ولسنا فى حـاجة إلى القـــول بأن حركـة التنقل فى اليمن كانت محدودة إلى أقصى حـد، وتقوم فى الغالب على ظهـور البغـال والإبل ، ولم يكن هنـاك طرقًا معبدة ، ولم يهتم الإمام طوال عهـده بتعبيـد الطرق . أما البريد فإنه كـان فى صـورة بدائيـة ، كما أن التلغراف لا يـدع مجـالاً للاهتمام بشــأنه .

وكان من أهم مبادئ الإمام فى المذهب الزيـدى أنه فى الظروف الاســتثنائية إذا ما جد الجـد ، واقتضـى الأمر اتخـاذ قـرارت هامة ، يجمـع الإمـام مجلسـًا يضم وجهـاء البــلاد وعلمـاءها ، وذوى الرأى فيهـا ، ممن عـرفوا بالخـــبرة والحنكة وبعـد النظر وأصالة الرأى ، لكى يبحثوا الموقف من كل نواحيه ، ولكى يشتركوا معه فى تحمل المسئولية .

---

(١) Freya Stark : The Arab Island, p. 26,

(٢) Journal of the Royal Central Asian Soc, Vol, XXVII, 1940, p, 22,

ولكن جرت عادة الإمام يحيى أن يعمل فى أغلب الأحيان ما يتراءى له ، ولم يؤثر عنه أنه جمع مجلساً لبحث شئون الدولة إلا عند إعلان الانسحاب من « الضالع » عندما طلب الإنجليز منه ذلك ، حتى لا يتحمل المسئولية بمفرده . فالحكومة هى الإمام ، والإمام هو الحكومة ، وهو يصدرقراراته فى كل أمر من أمور الدولة ، جل أو هان أولاً بأول ، وكان من العبث محاولة العثور على وزارات للوزراء ، ونقصد الدواوين ودرجاتها البيروقراطية ، إلا ما ندر أو ما يشبه المكاتب الخاصة ببعض الشئون ، مثل تقديم المعلومات أو القيام بحسابات الإمام وهذا ما دعى إلى القول « أما مراكزهم فهى وسائد الديوان التى يجلسون عليها فى حضرة مليكهم ، وأما سكرتاريوهم فيؤخذون من بين الكتاب الذين يتجمعون فى أبهاء « المقام » (قصر الملك) وغرف الانتظار فيه »[١] . وكانت صورة الحكم فى أجزاء اليمن المختلفة صورة مصغرة من حكم الإمام نفسه ؛ إذ كان أمراء الوحدات الإدارية الكبرى يتبعون نفس النظام القائم فى العاصمة المركزية ، وكان عدد هذه الوحدات حينئذ خمسة وهى : تعز ، وحجة ، والحديدة، وإب ، وصنعاء ، (وبلغ عددها الآن ثمانية) . وكانت كل وحدة إدارية منها تسمى لواء ، وكان اللواء ينقسم إلى أقضية (جمع قضاء ويقابل عندنا المركز) ، ونواحٍ (قرى) وهذا النظام استمرار للتقسيم الإدارى فى العهد العثمانى . وكان سيوف الإسلام أو أنجال الإمام وخاصة فى العشر سنوات الأخيرة من حكمه ، هم الذين يديرون الألوية ، ويعاونهم عدد من (العمال) الموظفين ومديرى النواحى : « وكان لهؤلاء الأمراء صلاحيات غير محدودة ، فهم أمراء الجيش المرابط فى مناطقهم ، وأمراء الشرطة ، والجباة ، وحكام الشرع ، ومأمورى الخزائن ، والمسئولون عن كل شىء أمام جلالة الإمام والدهم ، وهم يقلدون جلالة الإمام فى مظهره ، وطريقة حكمهم للرعايا ، وحلهم

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ١٠٢ - ١٠٣ .

وترحالهم ، وحتى فى طريقة إصدار الرسائل والتحارير والأوامر الإدارية والجباية ومقابلة الناس »(١) .

وكما قلنا إنه نظرًا لحرص الإمام على الانفراد بالتصرف فى كل شىء ، فكان على جميع الحكام والعمال أن يرجعوا فى قراراتهم وأحكامهم - ولا سيما ما يقتضى منها الصرف من بيت المال - إلى « الحضرة الشريفة » أى إلى الإمام ، فهو الذى يشرف مباشرة على الصرف من بيت مال المسلمين مهما كان نوعه ، ويشرف حتى على أمور الموظفين الصغار : « فالمستحق لرفع درجته ولو كان نصف دينار مثلاً لا بد أن تصدر به إرادة ملكية خاصة ، وعلى هذا نقيس جميع مصروفات مرافق الدولة »(٢) .

من هذا يتضح أن نظام الحكم فى اليمن كان ذا شكل خاص مطلق فى طبيعته ، إذ كان الإمام يقبض على زمام الأمور كلها بين يديه ، ويتصرف فى كل شىء بإرادته ، ولهذا شكل نظام الحكم بالصورة التى تتفق مع آرائه ، وتنفذ أغراضه . وكان إلى جانب سيطرته على كل شىء وتصريفه لكل الأمور يستعين ببعض الكفاءات التى حوله ، ولكن فى صورة محدودة تبلورت فى الاستشارة فقط ، وفى تنفيذ أغراضه ، وإرادته كما كان هؤلاء مسئولين أمامه فقط ويستمدون سلطاتهم منه . ويرجع هذا النظام الخاص الذى خالف الصور الدستورية الأخرى القائمة فى البلاد العربية على الأقل إلى عاملين : غلبة الطابع الدينى والقبلى عند الإمام ، وملاءمة هذا النظام للظروف التاريخية التى عاشها وعمل على بقائها كما هى ، ويمكن مناقشة وتوضيح أثرهما .

فمن ناحية العامل الأول، فقد رأينا أن الإمام قد نشأ نشأة دينية بحتة ،

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ١٥٩ .

(٢) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ١١٠ - ١١١ (وكان سيف الإسلام أحمد أميرًا لتعز . وأمير الحديدة هو سيف الإسلام عبد الله مع توليه وزارتى المعارف والدفاع . وأمير إب هو سيف الإسلام الحسن . وأمير صنعاء هو سيف الإسلام الحسين) .

فهو لم يدرس إلا التاريخ الإسلامى والنظم والشرائع الإسلامية ، ولم يحدث فى حياته قط أن تعلم علومًا حديثة ، أو سافر خارج بلاده ليطالع حضارات البلاد الأخرى . وكان إذا سمع عن صورة الحياة والنظم خارج بلاده كان يقف منها موقفًا عدائيًا أو موقفًا حذرًا على الأقل . وإلى جانب هذا، فنحن نعرف أنه كان يعتنق المذهب الزيدى ، بل إنه نشأ وسط أعلى طبقات الزيدية فكان ابن إمامها ، وأصبح هو بعد ذلك الإمام نفسه . وهذا المذهب يفترض فى الإمام كما عرفنا أربعة عشر شرطًا منها أن يكون عالمًا مجتهدًا .

وانحصر العلم عند الإمام فى النواحى الإسلامية ، فكان يتمسك بصور الحياة الإسلامية الأولى فى حياته وفى طريقة حكمه حتى قيل عنه - وهذا ما كان يسعى إليه - إنه : « خلاصة الخلاصة »[1] . وقد قيل إنه كان لديه مكتبة ضخمة ولكنها كانت ذات طابع دينى . ونظرًا للنشأة الدينية وللزعامة الدينية فإن الشكل الوحيد للحكم الذى كان يتمسك به هو الشكل الإسلامى الأول ، وهو ينحصر فى وجود النبى أو الخليفة وحوله كبار المسلمين يستشيرهم ، ويكونون أدواته التنفيذية فى نفس الوقت على أن يكون له الرأى الأول فى كل شىء . وكان يؤكد هذه الصورة عند الإمام ويجعله أشد تمسكًا بها أنه كان من سلالة الرسول ، لذلك رأى أنه لا بد أن يتمسك بتعاليمه وسنته بحذافيرها دون تغيير أو تطوير حتى لا يعد ذلك خروجًا على أوامر جده الأكبر . وعمل الإمام على تثبيت هذه الصورة عند شعب اليمن وخاصة أنه شعب متشبع بالروح الدينية المذهبية كما كان يؤكدها بوجه خاص عند الزيديين ، وهم عصبة الإمام وأسباب قوته . وكان يشجع التعصب المذهبى عند بعض الزيديين ، وخاصة إذا كان ذلك لخدمة مصالحه هو ، وهؤلاء كانوا يكرهون منه الخروج على هذه الصورة الإسلامية

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب جـ ١ ، ص ١٥٩ .

التى لا يعرفون غيرها ، والتى لا يرغبون فى تطويرها لتتلاءم مع مقتضيات العصر الحديث . وموقف هؤلاء منه يرجع إلى أن الزيديين قد تربوا منذ الأئمة الأوائل على تقديس أئمتهم ، وهو ماينطبق أيضًا على الإمام يحيى ، فكان الناس يأتون إليه من أماكن بعيدة للتبرك به والتماس الشفاء عنده . وقد كان الإمام مع تركيزه السلطة كلها فى يده ، يعمل على الاتصال بالأهالى مباشرة : « فكان يجلس فى فصل الصيف فى أحد أفنية « المقام » (القصر) تحت ظل شجرة كبيرة يحيط به رجال دولته وجنوده حيث يقصده الناس لعرض شكاواهم ومظلماتهم فيستمع إلى الجميع ، ويجيب عليهم جميعًا كذلك »[1] . وكان أتباعه - وخاصة المتعصبون منهم - يكرهون من الإمام عدم التقيد الضيق بالأساليب الإسلامية الأولى ، بل وكانوا يمتعضون من استعمال الآلات الحديثة ، فقد حاول الإمام ذات مرة أن يركب سيارة ليذهب بها إلى المسجد لحضور صلاة الجمعة ، فاعترض البعض وأجبروه على عدم استعمالها . فمن المعروف أنه : « أنه كان لدى الإمام سيارة أتته كهدية، وبعد أن فحصها وتعجب من صنعها ، أمر بإيداعها فى أحد المخازن ، ولكنه تحت إلحاح راغب بك وزير خارجيته ، قرر استعمال السيارة للذهاب بها إلى المسجد ، وعندما ظهرت على باب « المقام » (القصر) تجمعت حولها الجماهير استغرابًا ودهشة ، ولكن عندما ظهر الإمام وهم بركوبها ، برز له جماعة من كبار أتباعه المتعصبين وقال أحدهم للإمام : « أتجرؤ يا أمير المؤمنين على ركوب هذه الآلة الجهنمية الممقوتة » فأجاب الإمام - وكان لا يرغب فى إثارة قلاقل دينية - قائلاً : « أنا . . حتى ولا أفكر فى ذلك » ثم وضع سيفه الذهبى على رقبته وهو ممسك به بيديه كالميزان على الطريقة البدوية وتوجه على قدميه نحو المسجد »[2] . وكان الإمام يرمى من وراء هذا

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢) نفس المرجع ص ٦٩ - ٧٠ .

السلوك عدم التصادم بالشعور السائد عند بعض أتباعه ، بل وتقويته ، وذلك بالتظاهر بالرضوخ لهم.

ولم يكن موقف الإمام من الدين هو الأساس الوحيد لنظام الحكم فى اليمن ، فقد كان هناك الشكل الاجتماعى للمجتمع اليمنى ، وهو الذى يغلب عليه شكل القبيلة باعتبارها الوحدة الاجتماعية له . وقد كان نظام حياة القبيلة ونظام الحكم فيها شكلاً عامًّا يسود اليمن كله . وقد كان يمثل أمام الإمام نظام الحكم العملى المطبق فعلا . فكان على رأس القبيلة الشيخ وهو صاحب السلطة الزمنية والدينية فيها ، وهو أجل أفرادها قدرًا ، وصاحب الكلمة العليا بينهم . وكان إلى جانب شيخ القبيلة أكابر رجالها ، وهم يمثلون حاشية الشيخ وبلاطه ، أو بمعنى آخر مستشاريه ومنفذى إرادته فى نفس الوقت ، وكان يلى ذلك باقى أفراد القبيلة وهم رعية الشيخ . وكان هذا النظام الهرمى المعترف به هو أساس نظام حكم الإمام من ناحية الشكل مع وجود الفوارق فى السلطات والأجهزة الإدارية . فكان الإمام يبدو وكأنه شيخ قبيلة كبير ، ويعتبر نفسه مسئولاً عن إدارتها وسياستها بالأسلوب الذى يوافقها ، والذى تألفه بالفعل لأن هذه القبيلة الكبيرة تنقسم إلى قبائل أصغر ، وبتعبير قبلى إلى عشائر وبطون وأفخاذ . وهذه المقارنة التى ذهبنا إليها بين النظام عند القبيلة ونظام حكم الإمام نقصد منه ، **أولاً** : توضيح أن نظام الحكم عند الإمام كان امتدادًا لأفكاره القبلية ، **وثانيًا** : أن المقارنة توضح تناسب حكم الإمام يحيى مع النظم التى وجدها سائدة عند شعبه فى هذه الفترة . وأنه حافظ على الأوضاع القائمة – مهما كانت– دون تطويرها . وهذه النظم القبلية كانت تلفظ أنفاسها حينئذ أو كادت ، وكانت تغطى وراءها نظامًا إقطاعيًّا عريضًا . ولكن الإمام كان يحافظ على الروح القبلية لما فيها من عقائد ونظم اجتماعية تجبر الأهالى على الخضوع لأوضاع بالية فاسدة ، تحت شعار المحافظة على التقاليد المتوارثة .

ومن هذا يتضح نظام حكم الإمام يحيى ، والأسس التى قام عليها هذا النظام.وقد ظهر أثر هذا النظام فى مختلف قطاعات الحياة اليمنية الاجتماعية والإدارية . فمثلاً كان الإمام لا يسمح بوجود آلات موسيقية غير موسيقى الجيش لأنه يؤمن أن الموسيقى نوع من اللهو والعبث ، أما الموسيقى العسكرية فكان ولوعًا بها كثيرًا : « لأنها تنشط الجند وتخلق فيهم روح النظام والحماس والشجاعة » كما قال . ويتضح هذا من حديث لراغب بك مع نزيه العظم عندما رأى عنده « عود » يستعمله ابنه ، وقد قال راغب بك كذلك : « وهذا العود الذى تراه عندى هو عود قديم جلبه ابنى معه من الخارج وعندما يعزف عليه يسجن نفسه فى غرفة بعيدة عن الطريق ويغلق الأبواب والنوافذ حتى لا يسمعه أحد »[١] . ويتضح غلبة التقاليد الإسلامية أيضًا فى باقى نواحى الحياة الاجتماعية ، إذ تمسك الإمام بالألقاب الإسلامية الفخمة التى انتشرت إلى حد كبير فى العصور الإسلامية المختلفة ، وخاصة فى عصور التأخر مثل « القاضى العلامة » و « الفقيه الفهامة » وغيرها[٢] .

وكذلك كان الحال بالنسبة للنظم المالية والإدارية ، فقد أبقى الإمام الألقاب القديمة لحكامه وموظفيه ، فكان حكام الأقاليم مثلاً يسمون «العمال» كما حرص على لفظ « الزكاة» وجمعها ، واستخدم لفظ « بيت المال » وهذه الأسماء كلها تنتسب إلى العصور الوسطى .

وكان يأخذ أعشار الأرض عينًا ، أما الثمار فتثمن ويدفع أصحابها «العشر» نقدًا ، وإلى جانب ذلك كان الإمام يأخذ « زكاة » المواشى والدواجن والدواب وزكاة التجارة والمخازن ، وكذلك زكاة رمضان وزكاة حلى

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢١٧ .

(٢) المقتطف : مجلد ٩١ ، جـ ٤ ، عدد أول نوفمبر ١٩٣٧ / ٧ شعبان ١٣٥٦هـ .

النساء من ذهب وفضة ، وفوق ذلك كان يأخذ إعانة الجهاد عند الحاجة . هذا إلى جانب الرسم المفروض على اليهود وكان يعتبرهم « أهل ذمة » وكانوا يدفعون الجزية ، وهى ثلاث درجات : فكان يفرض ثلاثة ريالات فى السنة على الغنى منهم ، وريالين على المتوسط الحال ، وريالا ونصف على الفقير . وكانت كل هذه الضرائب فى اليمن تدعى زكاة ، وكانت تقسم إلى قسمين : ما يدفع من الجنس وهو العشور ، وما يدفع نقدًا . وكان كل ما يجمع من « العشور » و « الأموال » يحفظ فى بيت المال وله فروع فى كل الأقضية ، ويحفظ دائمًا فى هذه المستودعات كثير من الحبوب وغيرها من لوازم العيش التى لا يصرف منها شىء إلا بأمر الإمام ، وكانت الجمارك والرسوم المفروضة على القوافل تؤلف جانبًا آخر من دخل الإمام[1] .

من هذا يتضح أثر العامل الأول على شكل نظام الحكم فى اليمن فى عهد الإمام يحيى ، أما أثر العامل الثانى – وهو الظروف التاريخية – فيمكن بيان أثرها على تطور النظم الداخلية إلى ما فيه خير البلاد .

رأينا أن الإمام بدأ حياته السياسية بالدخول فى حرب عنيفة مع الأتراك، وكان كل منهما مشغول بالحرب أو بالاستعداد للحرب ، وكان هذا يستهلك طاقة الشعب وثرواته دون أن يجد الوقت للالتفات إلى زراعته وتجارته. وهذا ما دفع نزيه العظم إلى القول عن أثر العثمانيين ونظامهم وحروبهم فى تأخر اليمن : « أن اليمانيين منذ القدم أهل جد ونشاط ، وإذا رأيناهم اليوم متأخرين عن غيرهم من الأمم فلا شك أن ذلك يعود إلى الإمبراطورية العثمانية التى أهملت شأن اليمن كما أهملت غيره من الأقطار العربية كل الإهمال . وكانت تعتبر بلاد اليمن مستعمرة حقيرة ، وتعامل أهلها معاملة سيئة ولم يكن

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ١٥٤ – ١٥٥ .

لها غير جباية الضرائب وإرسالها إلى العاصمة العثمانية إشباعًا لبطن عاهلها ورجاله . وإذا طاف المرء بلاد اليمن من أقصاها إلى أقصاها ، لا يجد للدولة العثمانية أثرًا من آثار المدينة غير الحصون والقلاع وبعض المستشفيات العسكرية والأسلاك البرقية ومدرسة أو مدرستين صناعيتين . وكان رجال تركيا لا يرسلون إلى اليمن إلا كل مغضوب عليه من الموظفين الملكيين والعسكريين ، غير ناظرين إلى المقدرة العلمية والأهلية والشخصية ، فكان هؤلاء الموظفون يسيئون استعمال وظائفهم ، ويرتكبون الموبقات والمحرمات ويتناولون الهدايا والرشوات وهذا مما أثار خواطر اليمانيين وجعلهم فى احتراب دائم مع الحكومة العثمانية »[١] . ورغم صحة هذا الحديث فى جملته إلا أنه يحمل طابع المبالغة ومهاجمة الحكم العثمانى للدفاع عن حكم الإمام يحيى – وقد اشتهر نزيه العظم بذلك . والحقيقة أن العثمانيين قاموا ببعض الإصلاحات بقدر ما سمحت لهم ظروفهم وهذا ما أوضحناه قبل ذلك .

وكان هانز هلفرتز الألمانى له وجهة نظر أخرى ، ويرجع سبب الاضطراب فى اليمن أيام الحكم العثمانى إلى تعلق اليمنيين بفكرة الإمامة بوجه عام ، وأن المذهب الزيدى بطبيعته كان يتيح الفرصة لتنازع رجالات المذهب على الإمامة ، وأن كل قبيلة مهما صغرت أو كبرت كانت تحاول الحصول على الاستقلال بأية صورة وبأى قدر ، وأن هذا الاضطراب والتحلل الذى كان يسود الحياة اليمنية هو الذى أجبر الإمام فيما بعد على استعمال الوسائل العنيفة لتثبيت حكمه[٢] . وعلى كل حال لقد اجتمعت الظروف المختلفة سواء النابعة من الداخل أو الآتية من الخارج على أن يبدأ الإمام حياته السياسية

---

(١) نزيه العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٥٥ – ٥٦ .

(٢) Hans Helfritz : The Yemen, a Sccret Journey, p. 123.

بـالحرب ، وإستمـر فى ثوراتـه حتى سنـة ١٩١١ عنـدما عقـد صلح دعـان مع الأتراك ، ولكن هذا الصلح لم يكن يعنى نهاية الخصـومة أو هدوء الحال . وبعد الحرب العالميـة الأولى وخروج الترك دخل الإمـام كذلك فى حـروب مستمرة مع كثير من الجهـات والعنـاصر التى سبق أن أشرنـا إليهـا ، وهــذه الحروب لم تهدأ أوارها نسبيًـا حتى عـام ١٩٣٤ . وكان هذا يعنـى بالضرورة استمـرار استهلاك طاقـة الشعب وثرواته فى سبيل تـدعيم الدولة الجديـدة وتحقيق استقلالها ، فظل الشعب يئن تحت وطأة الحرب القاسية .

وقـد عبر صاحب اســـتراحة صغيرة فى الطريق بين « إب » و « يـريم » لأمين الريحانى عن حالة الاضطراب السائدة فى اليمن عندما طلب الريحانى منه - فى أثناء رحلته من عدن إلى صنعاء برًّا - بعض اللبن فقال له الرجل : «لا غنم عندنـا ولا بقر ولا ماعز ، ولـو كان عندنا فليس من يـرعاها ، شبابنـا فى عسكر الإمام ، وأولادنـا هاربـون من التجنيـد ، و « العمال » أخذوا أغنـامنا كلهـا زكاة وضرائب لبيت المـــال »[1] . وهذا الحديث يبرز بـوضوح الفقر الشديـد والحالة القلقة وسوء نظام الحكم التى صاحبت فترة حكم الإمام بعد الاستقلال .

ونحن وإن كنا نقـول إن حروب الإمـام استمرت طـوال عهده ، فإنما نعنى ذلك ، بالرغم من أننـا قد قسمنا عهده إلى فترتين من حيث حـدة هذه الحـرب وقسـوتها . وتتضح صفـة الاستمـرار فى العهــد الثـانى فى نـاحيتين : الأولى فى محاولاته المســتمرة فى تدعيم نفوذه وحكمـه فى الداخـل ، ومن ناحية ثانيـة ، فى أن معاهدة سـنة ١٩٣٤ مع إنجـــلترا لم تكن إلا هـدنة بين الطرفين ، إذ إنهـا لم تحـل مشـــكلة الحدود . وقـد يبرز استعداده الـدائم وتحفزه بـالنسبة لـلأوضاع الداخلية ، رواية الجرافى عن زيارة بعض زعماء قبـائل تهامة للإمام سـنة ١٩٤٠ للتعبير عن خضوعهم وولائهم . فيقول: «وفى شعبان من هذه السنة (١٣٥٩هـ ١٩٤٠م) وصل إلى صنعاء لزيارة الإمام وفد كبير يضم أعيان تهامة وذوى الرأى فيهـا ، ويـرافقهم سيف الإسـلام عبـد الله ، وكـان حينئـذ أمير لـواء الحديـدة،

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ١ ، ص ١١١ .

وقد نـزل الوفد بـدار الضيافة ، وكـان لهذه الزيارة مغـزى عظيم فى تأكيد روابط الأخوة بين الجبال والتهائم اليمنية »[1] . والجرافى نفسه - وقد عرف بميـوله نحو الإمام - يفطن لأهمية هـذه الزيارة ، فوصفها بـأنها لتأكيد روابط الأخوة رغم أنها كانت تتم بعـد حروب ومصادمات ، أو تحت التهديـد على الأقل . ويلاحظ أن هذه الـزيارات كانت تتكـرر ، فقد ذكر الجرافى نفسـه ، الزيارة التى تمت قبـــل ذلك ، بعد انتهاء الحرب اليمنية السعوديـة ، وكان سيف الإسلام أحمد هو الذى صاحب تلك الزيارة .

وعلى كل حال ، فإنه يمكن تقسيم عهد الإمام من حيث الأحداث العنيفة التى لاقته إلى فترتين : فترة حــرب (حتى ســنة ١٩٣٤) وفترة اســتعداد لأى حـــرب (من ١٩٣٤ - ١٩٤٨) وكـانت الفترة الثانيـة طبعًا تتميـز عن الأولى بـالهدوء والاســتقرار النسبى . ونحن إذا افترضنـا أن الفترة الأولى كانت مليئـة بالأحداث التى شغلت الإمام عن القيام بـالإصلاحات الداخلية - رغم أن هذا افتراضًـا فقط إذ لم يكن العيب فى وجود المشـــاغل بل كان فى ســـوء النظـام الذى وضـــع للدولة - فإننـا نرى أن الفترة الأخيرة ذات أهمية كبيرة لـه من عدة نواحٍ . وتتلخص فى أن الإمام عند بدايتها ، كان إلى حد كبير قد وضع بوجه عام أسس الدولـة الجديدة ، وكان عليه أن يعمـل على تطوير هذه الأسس بما فيـــه خير البلاد بشىء من الســـرعة حتى يعوض مـا فاتـه ، وكان عليـــه أن يعيـد النظـر - فى ضـــوء الظروف الجـــديدة - فى الأوضاع والأســاليب التى أوجدتها حالـة الحرب لعدم تناسبهـا أو قدرتها على الاستمرار ، وكـان عليه أن يهتم بكل شىء أهمله قبل ذلك مثل الـزراعة والتجـارة وطرق المواصـــلات والنظم المـالية وغيرهــا من شئـون دولتـه . ونحن نـرجع أهميـة هـذه الفترة (١٩٣٤ - ١٩٤٨) كذلك إلى أنها مسئولـة عن تخلف اليمن وتجمده وعزلته ، لأننـــا إذا كنا نقـــدر أثـر الحروب التى خـاضهـا الإمام فى أحـــوال بـلاده الداخليـــة وأوضـاعهـا

---

(١) الجرافى : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٢٥٥ .

العـامة ، فإننـا كذلك نقـدر أهميـة الفترة الثـانيـة من حيث إمكان القيـام بالأعمـال المفيـدة والتطـوير الـلازم خـلالها . (ولـكن يبـدو أن الإمـام كان قـد أصبح كبير السـن ومن الصـعب عليـه حينئـذ أن يـؤمن بضـرورة التغيـير والتطويـر بمـا يخالف ما جاهد من أجله خلال السـنوات الثلاثين المـاضية من حكمه) .

فالإمام كـان فى هذه الفترة وفى هـذا السن ما زال يعيش المـاضى ويجـتر حروبه وأعماله سـواء فى الداخل أو الخارج ، وما زال يؤمن بها أرسـاه وبصحته ، فكان من الصعب أن نتوقع منه أعمالاً وإصلاحات سريعة مفيدة تتطلب فى حد ذاتها همة الشـباب .

وقد انعكسـت آثار هذه العوامل المختلفة فى مظاهـر الحيـاة فى اليمن ، فإلى جانب أثـرها الواضـح الذى عـرضناه فى السـياسة الخارجية ، فقـد تأثرت مختلف نواحى الحياة الداخلية بهذه العـوامل أيضـًا . فقد ظل التعليم متخلفًا ، واقتصـر فى أغلبه على التعـليم الأولى الدينى فى المسـاجد والمدارس الصغيرة، وتولى العلماء والفقهاء تعليم النشء ، وكان أغلـب ذلك كله على نفقة الأهالى . وإن كـان الإمام كما ذكـرنا قبـل ذلك - قد أنشأ القليل من المدارس العلميـة - صناعيـة وزراعية وأرسل بعض البعثـات إلى الخارج ، إلا أن التعليم ظل متخلفًا طوال حيـاته وقـاصرًا - إلى جانب التعليم الأولى الـدينى - على تخريج وإعداد الموظفين للـدولة سـواء الفنيين أو غيرهم ، وقد أرجع الـريحانى تخلف التعليم فى اليمن وعـدم اهتمام الإمام بـه إلى أمرين : « أولهما رغبـة الإمام فى عـدم تعميمه حتى ينفـرد بـه فيصـبح أعلم قومـه ، أمـا ثانيهما ، فهـو أنه منـذ تـولى الحـكم ، وهـو وأعـداؤه فى احـتراب ، فـكيف لـه أن يهتم بالمـدارس (! ؟) »[1] . وهـذه الإشـارة وإن كانت تنطبـق تمـامًا عـلى فـترة حـكم الإمـام الأولى حيث

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ١٥٩ .

تمت زيارة الريحانى ، فهى لا تنطبق على باقى فترة حكمه حيث كان من الممكن العمل على نشر التعليم .

وقد اتضح التخلف كذلك فى اهتمام الإمام بالشئون الصحية ، فبالرغم من أن إيطاليا قد قامت بإنشاء عدد من المستشفيات بناء على طلب الإمام ، إلا أنها - كما رأينا - كانت قليلة يغلفها الإهمال . كما رأينا كذلك أنه قد أرسل قليلا من الشباب ليدرسوا الطب فى مصر وإيطاليا ، إلا أن هذه المجهودات كلها كانت ضعيفة ولا تتناسب مع احتياجات شعبه . فقد وصف طبيب إيطالى لنزيه العظم حالة شعب اليمن الصحية بقوله : « .. ولا شك أنهم أقوياء جدًّا ، وأجسامهم تقاوم جميع الأمراض مقاومة عنيفة ، لأنه لا طب عندهم ولا دواء منذ القدم ، والأمراض المتفشية فى اليمن تفشيًّا مريعاً هى الجدرى وحمى التيفود والملاريا ، والأهالى فقراء ولا يحصلون على قوتهم الضرورى إلا بشق الأنفس ، وهم يتزوجون نساء متعددة ولكن وفيات أطفالهم تبلغ ثمانية فى المائة »[1] .

وتأثرت الزراعة كذلك بالعوامل السياسية فتأخرت رغم أنها الحرفة الرئيسية لشعب اليمن ، ورغم صلاحية أجزاء واسعة للزراعة هناك ، ورغم وفرة المياه . ومن المعروف أن الزراعة فى اليمن تعتمد أساساً على الأمطار ، لذلك كان على الإمام أن : « يتغلب على عوامل القحط بالرجوع إلى وسائط الرى وخزن المياه بإعادة تشييد السدود التى برع بها اليمانيون منذ أقدم الأزمنة ، وخزن مياه الأمطار فيها بطريقة حديثة »[2] . وكان يمكن للإمام أن يستعين بالمهندسين والشركات من الدول العربية وهما متوافران ولكنه لم يفعل ، وهذا يدفعنا إلى مخالفة نزيه العظم فى إلقائه تبعة تأخر

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ١ ، ص ٦ .

(٢) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ٨٤ .

الزراعـة على الشعب وعلى كسله وتواكلـه ، إذ لا بد لإنهاض الزراعـة من تعاون الحكومة مع الشعب ، لأن بعض وسائل الاهتمام بـالزراعة ورفع شأنها تحتاج إلى مجهود ومـال كبيرين لا يمكن لـلأفراد وحدهم القيـام بها . ونزيـه العظم يقص رواية ذات دلالـة كبيرة لتأكيد ما ذهب إليـه ، فيقول إنه كان فى زيـارة للقاضى حسين مطهر حاكم الجوف عندمـا حضر أحد أشراف الإقليم ؛ وصاحب الغيل المعروف « بغيل مراد » فسألـه العظم عن بلاده وأحواله فقـال : « إننا ولله الحمد على أحسن حال ، ولكن بـلادنا فقيرة وجهال ، ولا نعـــرف كيف نستفيد من أرضنـا » فقال لـه العظم ثـانية إن بـلادهم تصلح لـزراعة القطن ، وهى زراعـة رابحة ولكنهم لا يهتمـون بها ، فأعاد الـرجل قوله بـأنهم فقراء : « ولا نملك من الوسـائل الزراعية ما يسـاعدنا على تنمية زراعـة القطن وغيره من المزروعات » . وقد سأل العظم القاضى حسين عن حقيقـة هذا الرجل وعن صدق كـلامه بعد انصرافه فأجـاب القاضى بقـوله : « كلا ليس هـذا الرجل بـالفقير ، فهو يملك أرضـاً واسعـة وعنـده الخدم والحشم ، ولكـن كغيره من شيـوخ القبـائل كسـول وكسول جدًّا ، ويفضل أن ينام على الطوى على أن يبذل جهوداً فى الكد والعمل المنتج »[(١)] .

ويكمل العظم روايته ، فيؤيـد القاضى فى رأيه فى البدو ، وذكر أنـه شاهد كثيراً من البقاع فى اليمن أثناء رحلاته ، صالحة للـزراعة لو أعطيت قليلا من العناية ، ولكننا عنـد رأينا من أنـه لا بد من تضافـر جهود الحكـومة والشعب فى الاهتمام بالـزراعة لضخامة المشروعـات التى تحتاجها الـزراعة فى اليمن ، والتى لا يمكن للأفراد القيام بها بمفردهم .

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ٢٣٤ .

ويمكن بوجه عام متابعة مظاهر التخلف والجمود فى مختلف نواحى الحياة اليمنية فى عهد الإمام يحيى بشكل كبير . وهذا ما يدفع الريحانى إلى أن يقول : « وكأنك فى السياحة فى تلك البلاد السعيدة (؟ !) تعود فجأة إلى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) لا مدارس ، ولا جرائد ، ولا مطابع ، ولا أدوية ، ولا أطباء ، ولا مستشفيات فى اليمن. إن الإمام هو كل شىء، هو العالم، والطبيب ، والمحامى ، والكاهن »[1] . وهذا القول فيه أكثر من دلالة . فمن ناحية فإن الحياة هناك ما زالت تحتفظ بطابعها القديم ويتمسكون به جدًّا . ومن ناحية أخرى يتضح أن الإمام هو كل شىء ، وهذه حقيقة واضحة ، وهذا مما يزيد من مسئولية الإمام ، وأنه كان عليه أن يعمل على تطوير حياة شعبه ، وعلى تلبية حاجياته ، ولكن الإمام لم يستطع التغيير ، وكان يعيش الماضى دائماً ويتبع الأساليب القديمة ، وقد وضح هذا فى كثير من المظاهر التى ذكرناها وغيرها ، فالإمام مثلًا حتى نهاية حياته الطويلة ، لم يقم بتغيير النظم المالية والإدارية التى وضعها العثمانيون . فإذا عرفنا مثلا أن : « حكومة اليمن لم تعن إلى هذا اليوم (أواخر أيام الإمام) بطبع أوراق خاصة بمعاملاتها وهى لا تزال تستعمل دفاتر الدولة العثمانية وأوراقها »[2] . فإن معنى هذا أن هذه النظم ظلت على حالها حوالى أربعين عاماً ، وأن الإمام لم يقم حتى بتجديد هذه الأمور البسيطة ، بل ومما يزيد السخرية ما يقال بأن تلك الدفاتر لم تستعمل استعمالا صحيحاً بل استعمل ظهر الورق الأبيض فقط . وكذلك الحال فى تدريب الجيش بالرغم من أن الجيش كان موضع عناية الإمام واهتمامه فيقول محمد حسن : إن « تدريب هذا الجيش كما شهدناه فى بدء زيارتنا لليمن ، هو القيام بمسيرات

---

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب ، جـ ١ ، ص ١٦٤ .

(٢) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ٦٥ .

وإتقان بعض الإيعازات والحركات التركية ، التى كانت موجودة فى الدولة العثمانية ، ويدير هذا الجيش بقية من الرجال العثمانيين والعسكريين الذين آثروا البقاء فى اليمن تحت ظل الدولة الإمامية الحديثة ، وهم ما زالوا حتى الآن يحملون الشارات والرتب العثمانية ويرتدون اللباس العثمانى »[1] . ويذكر بعد ذلك نظام التجنيد ، وحياة الجند ، ونظام الجيش نفسه ، وكلها تبرز حقيقة واحدة هى : بقاء النظم القديمة البالية على ما كانت عليه بالرغم من اعتماد الإمام على الجيش واهتمامه به ، وبالرغم من مرور فترة طويلة على خروج الترك . ولكن يجب الإشارة إلى أهمية خطوة الإمام ، وهى استدعاؤه البعثة العسكرية العراقية لتدريب جيشه ، وعلى الرغم من أنها جاءت متأخرة فهذه الصفة وغيرها من الصفات ، مثل البطء الشديد ، والحذر ، والتردد والتريث الذى يشبه الخمول ، قد صبغت كل أعمال الإمام .

ويبدو أن الإمام كان لا يؤمن إلا بالعنف والحرب باعتبارهما الوسيلة الوحيدة لتحقيق أغراضه ، مثل الاستقلال أو المحافظة عليه ، ويظهر هذا من حديث بين نزيه العظم (كانت آخر زيارة للعظم لليمن سنة ١٩٣٦ تقريبا) وبين الإمام يطلب فيه الأول أن يرد الإمام على الدعايات التى تنشرها الصحف ، ولكن الإمام كان لا يريد ذلك ، بل يرى أن الرد سيأخذ وقته ويشغله عن الأمور الهامة ، فقال العظم : « ولكن يا مولاى إن للجرائد تأثيرا لا يستهان به فى الدعايات » فقال الإمام : « أيوجد فى البلاد العربية بلد فيها جرائد أكثر من مصر » فقال العظم إن بها الكثير من الجرائد المتقنة وإنها تفوق الجرائد فى البلاد العربية وبعض البلاد الأوروبية ، فقال الإمام : « وهل حققت هذه الجرائد الكثيرة المتقنة لمصر استقلالها »

---

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، ص : ١٣٦ (زارت البعثة العراقية العسكرية اليمن فى أوائل سنة ١٩٤٠) .

فقال العظم : كلا ولكنها أثارت الرأى العام فى أوروبا بأن هناك قضية مصرية وأن هذه القضية لم تحل بعد ولا تزال موضع مشادة عنيفة بين مصر والإنجليز » فقال الإمام « حسناً .. حسناً » ، ونهض فنهض العظم [1] . وهذا معناه عدم اقتناع الإمام بكلام « العظم » وعدم اقتناعه عامة بأسلوب الصحافة فى تحقيق الاستقلال ، أو حتى بأثر الصحافة فى نشر الوعى . وقد ظهر كذلك أثر الظروف التاريخية الأولى فى موقفه من العالم الخارجى عموماً ، وظلت هذه الآثار تهيمن على تفكير الإمام بالنسبة للأجانب طوال فترة حكمه ، فقد رأينا أنه رفض منح امتياز استغلال مملحة « الصليف » إلى أى شركة أجنبية لأن مثل هذه الامتيازات تعتبر بداية تدخل الأجانب فى شئون البلاد ، وضرب لذلك مثلا ما حدث فى الصين والهند . ورأيناه كذلك يتردد فى دخول الجامعة العربية ، ويقف منها موقف الحذر المشاهد ، لأنه خاف أن تكون حركة إنجليزية ترمى إلى التدخل فى شئون البلاد العربية ، أو توحيدها تحت سيطرتهم عن طريق السيطرة على جامعة الدول العربية . وكان يفسر ذلك بأن النحاس باشا أشار فى خطبته المشهورة فى مجلس الشيوخ المصرى فى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٣ إلى تصريحات المستر « إيدن » وزير خارجية إنجلترا بخصوص ترحيب وتأييد بريطانيا بكل حركة تجمع بين العرب ، لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية بينهم ، وأنه - أى النحاس باشا - يفكر منذ صدور هذه التصريحات فى كيفية اتخاذ التدابير اللازمة لتقريب وجهات نظر الحكومات العربية ، ومعرفة رأيها فى التعاون فى الأوجه المختلفة [2] .

ظاهرة الرهائن :

ونحب أن نشير أخيراً إلى ظاهرة « الرهائن » باعتبارها ظاهرة بارزة فى اليمن ، وباعتبارها وسيلة لجأ إليها الإمام لفرض سيادته ، وضمان إخلاص

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، ص ٦٥ .

(٢) الأهرام : العدد ٢١٤٤٦ ، فى ٢٥/٩/١٩٤٤ ، ص ١ .

وطاعة القبائل والجهات المختلفة اليمنية . ولا شك أن هذه الظاهرة ظاهرة قبلية قديمة ، كانت القبائل تلجأ إليها فيما بينها عند قيام الحروب ، أو عقد الاتفاقيات ، إلا أن هذه الظاهرة قد استمرت طوال عهد الإمام يحيى بالرغم من تغير الظروف التى دعت إليها ، لإيمانه بها ولاعتبارها طريقة حكيمة فى فرض نفوذه فى اليمن . ونحن إذ نشير إليها ، فإننا نقصد تأكيد حقيقة هامة ، وهى أن الإمام ظل طوال عهده يتبع الأساليب والوسائل القديمة ، وأن هذا هو ما صبغ حكمه عامة بالجمود والتأخر ، هذا إلى جانب توضيح طريقة حكمه . وقد كانت ظاهرة الرهائن موضع مناقشات كثيرة ، وتعرض الإمام بسببها للهجوم العنيف ، لذلك نحب أن نعرضها أولا قبل الحكم عليها .

رأينا أن سيادة الإمام بعد أن خرج الأتراك من اليمن كانت لا تمتد إلا على العناصر الزيدية فقط ، إلا أنه أخذ يوسع نطاق نفوذه فى الجهات المختلفة . وكان أثناء ذلك يصطدم بعناصر لا تعترف بسيادته عليها ، فكان يلجأ إلى القوة لإخضاعها ، وتبع هذا أنه كان يأخذ رهينة من شيوخ القبائل أو أصحاب النفوذ فى الجهات المختلفة ، وهى دائماً ما تكون الابن أو الأخ أو أقرب الناس إلى الشخص الذى يرغب الإمام فى إخضاعه له . وكان يحتفظ بهذه الرهينة فى صنعاء أو الحديدة أو أى مدينة بعيدة عن مركز أو وطن الشخص نفسه . وكان يعتقد أنه بهذا يضمن ولاء هؤلاء الشيوخ والرؤساء وحسن سلوكهم ، لأنه كان من غير المعقول أن تقوم هذه الشخصيات المعارضة بأية أعمال عدائية ضد الإمام ، وهى تعرف أن لديه ابناً أو أخاً أو قريباً عزيزاً يمكنه أن ينتقم منه ، ويعنى هذا أن يدفع الشخص الرهين ثمن أفعال أبيه أو أخيه ضد الإمام . ويقال إن أغلبهم : « كان من الأحداث الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثامنة عشرة . ويمثلون كل القبائل ، وهذه القبائل تستبدلهم كل بضعة أشهر بغيرهم من الصبية »[1] . ولكن يبدو أن تغيير شخصية الرهينة لم يكن هو

(١) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٨٤ .

المتبع دائماً ، إذ يقول هانز هلفرتز : « إذا كان أحد هؤلاء الرهائن - الذين يكونون غالباً صغار السن - سعيد الحظ فإنه يقضى حياته بالقرب من الملك ، فيمكنه بذلك أن يخلق لنفسه مستقبلا باهراً »[1] . وقد اختلف الكتّاب فى عدد هؤلاء الصبية وفى طريقة حياتهم ومعاملتهم ، فيقول سلفاتور أبونتى إن عددهم بلغ أكثر من ألف ، منهم ثمانمائة فى صنعاء ، ومائتان فى الحديدة ، وكلهم من الأحداث . ويقيم هؤلاء الرهائن فى مدينة صنعاء فى « القصر » وهو حصن العاصمة اليمنية المنيع ، وهذا الحصن قلعة عظيمة تكسبها مداخلها الملتوية وجدرانها العالية الخالية من الفتحات منظراً قاسياً مخيفاً . وقد وضع لهم نظام وسط بين نظام الجنود ، ونظام الأيتام ، ونظام المسجونين ، فهم يشتركون أحياناً فى الاستعراضات العسكرية ، ويسيرون فى صفوف الجيش بدون أن يحملوا سلاحاً . وفى اليمن يخجل الشاب كل الخجل إذا ما ظهر أمام الجمهور بدون أن يحمل على الأقل خنجراً فى خصره . والقبائل التى أخذت منها هذه الرهائن هى التى تتولى الإنفاق على طعامهم وملبسهم . وكذلك تفعل أسر المسجونين فى الجرائم العادية ، فهى التى ترسل إليهم المأكل والملبس : « ألا يكفى أن تقدم لهم الحكومة من عندها المسكن والقيود (! ؟) »[2] . أما محمد حسن ، فيقول : « إن الإمام خصص بيتاً سمى « بيت الرهائن » ووضع فيه ما يقرب من ٤٠٠ فتى وغلام من أولاد المتنفذين فى المملكة أو من أولاد الشيوخ ، ويوضعون تحت حراسة الجند »[3] . أما هانز هلفرتز فيقول : «إن هؤلاء الرهائن يعتقلون، إما فى العاصمة ، وإما فى مدينة أخرى ، غالباً ما تكون بعيدة عن مركزه ، وهم يتركون أحراراً فى حركاتهم داخل المدينة المختارة ، ولكن عليهم ألا يغادروها .

---

(١) Hans Helfritz : The Yemen, A Secret Journey, pp. 129-130.

(٢) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٨٤ .

(٣) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

وقد قدر عدد هؤلاء الذين يعتبرون سجناء الدولة فى سنة ١٩٣٤ ، بحوالى أربعة آلاف رهينة »[١] . واختلاف العدد مسألة غير هـامة إذ كان لا يمكن حصرهم أو معـرفتهم بالضبط ، أمـا عن حياتهم ومعـاملتهم فيبـدو أن المعاملـة تختلف من شخص لآخـر حسب أهميته وخطـورته ، ولكـن يلاحظ أنهم جميعـاً كانـوا تحت الحراسة والمراقبـة سواء فى البيـوت التى يـوضعون فيهـا ، أو إذا تركـوا طلقاء فى المدينة . وظاهـرة تجولهم داخل المدن التى يوضعون فيها ليست ظاهـرة غريبة إذ كان السجين العـــادى فى بعض الحـــالات - ولطائفة خاصة من السجناء - « يسمح لهم بـالتجـوال داخل المدينـة وهم مقيـدون بالحديـد ، ليحصلـوا على أرزاقهم ويعودوا بعدها إلى سجونهم » .

وهذه الظاهرة كانت دائماً موضع استغراب ، وأحياناً اشمئزاز من يرونها أو يسمعـون عنها ، وهـذا ما حـدث بـالفعل لأمين الريحانى إذ يقـول : « سمعت بالرهائن (عندما كان) فى « لحج » فاستغربتها واستنكرتها ، وكدت أنكر صحة مـا سمعت ، إلا أن أغـرب الأمور هـى أقربها فى بعض الأحـايين إلى الحقيقـة ، فـالإمام يحيى يتقـاضى من كل مـوظف من مـوظفى حكـومته الكبـار الملكيين والعسكريين رهينـة واحدة ، ابنـاً أو أخاً أو نسيبـاً عزيـزاً يبقيه فى حـوزته كفـالة الإخلاص والاستقـامة فى الخدمة وضمانـة الصدق والـوفاء فى التابعيـة . وهؤلاء الرهائن عند الإمام على ما قيل أربعة آلاف يقيمون ، فى المدن المختلفة ، كلٌّ بعيد عن أهله ومسقط رأسه فتعلم الحكومة بعضهم وتأسر البعض ، وتمنح الآخرين بكفالة أحد وجهاء المدينة حرية الجولان فيها »[٣] .

والحقيقة أن وجود هذه الظاهـرة فى اليمن فى القرن العشرين تثير الدهشة ،

---

(١) Hans Helfritz : The Yemen, A Secret Journey, pp. 129-130.

(٢) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ١٢٠ .

(٣) أمين الريحانى : ملوك العرب جـ١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

فهى ظاهـرة عاشت فى العصور القديمـة والمتوسطة ، ولكنها لا تـلائم العصور الحديثـة . ورغم أنه من المعـروف أن بلـدان العالم لا تسير فى مـراحل حضاريـة واحدة ، وأن الظـروف التاريخيـة الخاصة تنشـأ عنها فى العـادة مظاهـر اجتماعية معينة رغم اختلاف الأزمنـة ، إلا أن وجود ظاهرة الرهـائن فى اليمن يجعلنا نقول إن الإمام كان يعيش ظروفـاً تاريخية قديمة ، ويتبع نظماً سياسية بـالية بالرغم من أنـه حكم اليمن فى النصف الأول من القرن العشرين . ونحن هنـا لسنا بصـدد الدفاع عنهـا أو الهجوم عليها ، بل إننا نحب أن نتناولها بشكل مـوضوعى يلائم ظـروف وأوضاع اليمن الخاصـة حينذاك . فمن نـاحيـة ، نحن لا نسلم بما قالـه محمد حسن عن فائدة هذا الأسلوب فى الحـــكم ، إذ إنه يقول : « فأنت ترى أن ما يفعله بيت الـرهائن فى اليمن من نتائج تتمثل فى الأمن والهـــدوء والاستقرار ما لا يفعلـه أى قانون دستـورى فى الممالك الشرقية التى منيت بـالقلاقل والفتن والاضطراب »[١] . فنحن نرى أنه إذا كان هناك فتـن واضطرابات فى باقى البلاد العربية التى يشير إليهـا ، والتى تتبع النظم الدستورية ، فإن هـذا ليس ناتجاً عن النظم الـدستورية بـل هو ناتـج من عدم استقـرار هذه النظم ورسـوخها ، وأن علاج هذه الفتن هو التوسع فى تطبيق النظم الدستورية وتثبيتها ، وليس ذم هذه النظم وتفضيل طريقة الرهائن عليها . فطـريقة الرهائن : « ليست الطريقة المثلى التى من الممكن اتبـاعهـا لتكويـن وحدة روحيـة متينـة فى اليمن ، بل إنها على العكس تحيى الأحقاد وتجدد الخلافـات القائمة[٢] . ونحن نميل إلى هـذا الرأى الأخير ، إذ يجب أن نتذكر أن أهم أسباب نفور شيوخ المحميات من حكم الإمام يحيى وميلهم إلى الإنجليز ، هـو خوفهم الشـــديد من أن يأخذ الإمام الـرهائن منهم ، وقد اتضح ذلك من نص حديث سلطان الحواشب (إحدى المحميات) مع نزيه العظم الذى سبق أن ذكرناه .

(١) أمين الريحانى : ملوك العرب جـ ١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى (ترجمة طه فوزى) ص ٨٣ - ٨٤ .

ونحن إذا أردنا ألا ننكر أن الإمام قد استطاع أن يضع أسس دولة - مهما كان كيانها ونظامها - فى بلد عاشت مدة طويلة فى اضطرابات وفتن ، وإذا افترضنا أن العثمانيين لم يخلفوا له إلا تركة مثقلة ، وأنه لم يكن أمامه إلا أن يتبع أسلوباً أوتوقراطيًّا دقيقاً حتى يحقق آماله ، فإننا لا نؤمن بأن تسود وسائله ونظمه الخاصة فترات حكمه كلها . فتحقيق الاستقلال السياسى - من وجود تطور اجتماعى واقتصادى وإدارى حتى تتكامل هذه النواحى كلها فتضمن بذلك بقاء الشكل السياسى دون زعزعة أو انهيار ، فمثلا إذا وضعنا فى الاعتبار ، أن نظام الرهائن - كما قيل - « لم يكن شيئاً فى حد ذاته »[1] ، أو أنه : « الطريقة الوحيدة التى تستطيع حكومة - تقوم على الشعور الدينى - أن تستعملها لكى تكون فى مأمن من دسائس أقليات تخالفها فى العقيدة الدينية » إلا أنه فى حد ذاته ليس الطريقة المثلى لاستمرار الولاء والخضوع ، ولا يجب أن يستمر باعتباره طريقة فى الحكم ، بل كان يجب أن يتطور فى شكله حتى ينتهى تماماً أو يحل محله نظاماً آخر بعد انتهاء الظروف الخاصة التى أوجبت وجوده ، إذ كيف يخضع شعب لحكومة يشعر أنها تأسر أبناءه ليستمر خضوعه لها ؟ وأخيراً نشير إلى خطأ رأى سلفاتور أبونتى السابق فى أن الإمام كان يفرق بين الزيود والشوافع عند أخذ الرهائن ، فقد أخذها من الجميع دون استثناء ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه كان يأخذ الرهائن من القبائل الزيدية أكثر منهم من القبائل الشافعية ، لأنه كان يدرك تماماً قوة هؤلاء ويعرف مدى خطورتهم .

---

(١) قال بعض السادة اليمنيين الرسميين فى مصر بأن المقصود من نظام الرهائن هو ترغيب النشء من الرهائن فى حكم الإمام وذلك عند تربية هؤلاء بالقرب من الحكومة .

نهاية حكم الإمام :

أدت أعمال الإمام المختلفة التى ظهرت طوال عهده الطويل إلى خلق روح التذمر بين عناصر الشعب . وقامت بعض العناصر الوطنية المخلصة تطالب بالحد من سلطة الإمام ؛ واتباع النظم الدستورية ، والقيام بالإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية اللازمة . ولكن الإمام يحيى كان يقف من كل هذه المطالب موقفاً جامداً معارضاً . وحارب دعاتها حرباً شديداً ، مما أدى بالكثير من هؤلاء إلى الهرب إلى الخارج - وخاصة إلى عدن والقاهرة - بعيداً عن قبضة الإمام . وتمكن هؤلاء - وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية - من إنشاء حزب « الأحرار اليمنيين » كما أصدروا جريدة « صوت اليمن » لنشر دعوتهم وتوضيح أغراضهم ، وقد وضعوا فيها بعد دستوراً لهم تضمن كل مطالبهم ، عرف باسم « الميثاق المقدس » وأعلنوا التمسك به والعمل على تنفيذه ، وأخذت حركة المعارضة فى الازدياد ، حتى اضطر ابن الإمام ، سيف الإسلام إبراهيم ، إلى الهرب إلى عدن وإعلان انضمامه إلى حزب الأحرار هناك ، بعد أن رفض والده الاستماع إلى نصائحه ، وسجنه عندما أعلن معارضته لنظم الحكم السائدة فى اليمن . وقد تمكن إبراهيم من الهرب من السجن ولقب نفسه فى عدن باسم « سيف الحق » إبراهيم - بدلا من « سيف الإسلام » الذى يلقب به أبناء الإمام - تعبيراً عن تمرده على تقاليد أسرته . وقد أزعج الإمام اشتداد حركة المعارضة فى عدن ، فولى ابنه سيف الإسلام أحمد أمر لواء « تعز » ليكون على مقربة من محمية عدن ، وليتمكن من القضاء على عناصر المعارضة هناك بالاتفاق مع سلطات عدن الإنجليزية . وكان اشتداد حركة اليمنيين الأحرار فى عدن مثار إزعاج لحكام الجزيرة العربية ، وخاصة ابن السعود يخاف أن تتسع هذه القلاقل أبعد من الحدود اليمنية، ويخاف أن يكون لها آثار أبعد فيها بعد»[1].

---

(١) Philby : Arabian Jubilee, pp. 180-190.

وقد وصف بعض المؤرخين الـذين كانـوا يدافعون عن حكـم الإمام يحيى - مثل الجرافى - هذه الفترة فقال : « قامت دعاية مغرضـة بمدينة عدن ضد هذا الملك العظيم الـذى أوجـد اليمن ، والـذى كان أول زعيـم عربى طـالب بـاستقـلال العرب . وتظـاهر ناشرو هذه الـدعاية ضد الإمـام وطريقة حكمه للبـلاد باسم الإصلاح . وقد بدأ بنشر هذه الدعاية جماعة من اليمنيين المقيمين بعدن ، الذين سمـوا أنفسهم « حـزب الأحـرار » وانضم إليهم آخـرون ، وأنشأوا لهم جـريـدة سموها « صوت اليمن » وأعانتهم فى دعايتهم هذه جريدة كانت تنشر فى مصر اسمها جـريدة « الصداقـة » . وقد أخـذت كلتا الجريدتين فى نشر كل مـا يشوه سمعة اليمن ، وسياسـة الحكومة اليمنية المتوكلية ، وغررا بما زخـرفاه من الأقوال كثيراً من النـاس الذين اعتقدوا أنهم يطالبون حقيقة بالإصلاح »[1] .

وإلى جانب عدم اتفاقنـا مع الجرافى فى رأيه فإننا نحب أن نشير إلى حقيقة هامـة ، وهى أنه لا بـد من ظهور فئة معـارضة لأى نظـام حكم فى أى بقعة من بقاع العـالم على مر التاريخ مهما كانت صـلاحية هذا الحكم ، وهذا هـو أساس تطـور النظم السياسيـة فى التاريخ . وكـان بعض الحكام يسمحـون للمعارضـة بالظهـور ، حتى يعرفوا مطالب الـرعية واحتياجاتها ، وحتى يـوائموا بين نظمهم وبين التطورات الـدقيقة الخفيـة أولا بأول ، وبذلـك تختفى المصادمـات العنيفة المفاجئـة بين الحاكم وبين تلك المعارضة عندمـا تتسع ويشتد ساعـدها . ولكن الإمام لم يسمح بظهور معارضة ، إيماناً منه بصـلاحية نظمه وأوضاعه التى أقرها فى المـاضى وتمســك بهـا ، ولإيمانـه أن المعارضين الـذين ظهروا فى عهـده

اكتفينا هنا بإشارة قصيرة إلى حركة المعـارضة التى ظهرت ضد حكم الإمام يحيى ولكن عذرنا فى ذلك أننا نعد بحثاً خاصًّا مستقلا مستفيضاً عن « الحركة الوطنية اليمنية » من حيث نشأتها وتطورها وأبرز ملامحها وأثرها فى تاريخ اليمن الحديث والمعاصر .

(١) الجرافى : المقتطب من تاريخ اليمن ، ص ١٥٧ .

كـانوا ينسـاقون وراء الـدعـايات الأجنبيـة ذات الأطماع الاستعمارية فى بـلاده ، ولخوفـه الشديـد أن تنهـار مجهـوداته إذا مست النظم التـى وضعها بـالتغيير أو التطوير . وقد وصف محمد حسن المعارضة فى اليمن بقوله : « لا توجد فى اليمن معـارضـة تستطيع أن تظهـر رأيها كما هـــو المألـوف فى العـراق ومصر والممالك الأخرى ، فلا جـرائد ولا أحزاب ولا هيئات ولا نواد ولا تشكيـلات سياسية ولا جمعيات ثقافية »[١] .

وأدى ازدياد وطأة المعارضة وموقف الإمـام منها إلى قيام صدام مسلح كان الإمام يحيى نفسـه ضحية له . ففـى ديسمبر سنة ١٩٤٧ اشتد المرض بـالإمام ، وتـولى عبـد الله الـــوزيـر زمـام الأمـور ، فـأسرع البعض بتهنئتـه ونشرت بعض الصحف المصريـة – نقلا عن أخبـار عدن – نبأ وفـاة الإمام وتـولى ابن الوزيـر الحكم : « وكذبت الرياض فى الحال فى ١٦ ينايـر سنة ١٩٤٨ ما نشر فى القاهرة وبغداد عن إغتيـال الإمام ، وقيـام حكومـة ديمقراطيـة ، وأن السيد ابن الـوزير أصبح رئيساً للوزارة وأصبح الأمير إبراهيم رئيساً للجمهورية »[٢] وعجلت هذه الكـذبـة الكبيرة بالحوادث وكـانت من أكبر أسبـاب ثـورة ١٩٤٨ ؛ إذ أدت إلى كشف عناصر الثـورة وخططها قبل إتمام الاستعدادات اللازمـة . فقد حدث أن شفى الإمام من مـرضه ، فخاف رجـال المعارضة الـذين فى صنعاء على أنفسهم وخاصة لأن الإمام شرع فى اتخاذ التدابير الـلازمة للقضاء عليهم ، فاستدعى ولى عهده سيف الإسلام أحمد للحضور من تعز إلى صنعاء . وهنا دبر الثوار أمرهـم : « فاجتمعوا فى صنعاء ، وحضر الاجتماع الفضيل الورتلانى (من الجزائر) وكان قد وصل اليمن ، ودخله باسم العمل فى إدارة الشركة التجارية اليمنية ، وكذلك

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ١٠٨ .

(٢) Philby : Saudi Arabia, p. 349.

الضابط العراقى الرئيس جمال جميل ، وكان قد بقى باليمن لتدريب الجيش الدفاعى[1] . وقرروا قتل الإمام غيلة عند خروجه إلى مزارعه حول صنعاء للنزهة ، وندبوا لهذا الشيخ على ناصر القردعى ومعه خمسة عشر رجلا ، واغتيل الإمام ومن كان معه فى السيارة[2] .وقد أسرع ابن الوزير بعد ذلك فاستولى على الحكم ، وأعلن فى اليوم التالى لمقتل الإمام مبايعته بالإمامة ، وأن الأهالى انتخبوه : « إمامًا شرعيًا ، وملكًا دستوريًا منفذًا لدستور الأمة ، كما أعرب عن استعداده للاسترشاد بآراء جامعة الدول العربية فى حدود ميثاقها»[3]. وهذا ما جاء فى الكتب الكثيرة التى أرسلها ابن الوزير لرؤساء الدول العربية وملوكها ، وإلى أمانة جامعة الدول العربية . وقد طلب ابن الوزير كذلك من جامعة الدول العربية إرسال الطائرات - فضلاً عن التأييد - لإقرار الحال واستتباب الأمن فى اليمن . ويلاحظ كذلك أن رجال الثورة أذاعوا أن الإمام مات موتة طبيعية وبالسكتة القلبية ، ولكن الحقيقة عرفت بعد ذلك . وقد طلب رجال الثورة من الأمين العام لجامعة الدول العربية زيارة اليمن حيث يشاهد - كما جاء فى برقية حسين الكبسى وزير خارجية ابن الوزير- «بناء جديدًا على قواعد جديدة ، تضعها حكومة ديموقراطية فى ظل ملك ديموقراطى »[4] . ولكن الأمانة العامة فضلت أن ترسل بعثة تمهيدية تمثلها للاطلاع على الأحوال هناك بعد الانقلاب ، وتمهد لزيارة وفد جامعة الدول العربية لليمن . وقد قررت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية : « إيفاد لجنة تضم ستة أعضاء يمثلون الدول العربية برياسة عبد الرحمن عزام الأمين العام إلى صنعاء إجابة لدعوة ملك اليمن الجديد ،

---

(١) عضو البعثة العسكرية العراقية ثم بقى فى اليمن بعد رجوعها .

(٢) الجراقى : المقتطف من تاريخ اليمن ص ٣٥٩ .

(٣) الأهرام : العدد ٢٢٥٠٢ ، فى ١٩٤٨/٢/٢٠ ص ١ .

(٤) الأهرام نفس العدد والصفحة .

لحل ما قد يكون هناك من مشكلات » [١] . وقد قامت البعثة الخاصة التمهيدية بالفعل بزيارة صنعاء ، فاستقلت طائرة خاصة إلى هناك لاستطلاع الأحوال ، ونزلت الطائرة بجدة لأخذ الوقود الكافى للذهاب إلى صنعاء والرجوع منها ، وقد وصلت البعثة إلى صنعاء ورأت هدوء الحال هناك ، وأبرق حسين الكبسى إلى أمانة الجامعة العربية بوصولها ، وشكر الأمانة على هذا الاهتمام . إلا أن هذا الهدوء لم يستمر طويلاً إذ بدأ سيف الإسلام أحمد يعمل على استرجاع العرش ، فخرج من تعز عقب إعلان الانقلاب مباشرة إلى « حجة »[٢] . وعمل على جمع القبائل حوله مستغلاً فقرها وحاجتها ، وأغراها بالغنائم الوفيرة ، فأباح لها نهب المدن المختلفة وخاصة صنعاء بما فيها من مخازن وقصور خاصة بالحكومة ، وأحرز سيف الإسلام أحمد نجاحًا فى زحفه حتى حاصر صنعاء وأصبح مركز الحكم الجديد حرجًا للغاية ، ولم يعد نفوذه يتعدى مدينة صنعاء[٣] ، رغم أن جنوب الهضبة اليمنية ووسطها وتهامة ظلت مدة طويلة موالية للثورة .

وقد وجدت الحكومة الجديدة الصد من الدول العربية ، كما لاقت دعواتها للمساعدة آذانًا صماء ، فلم يصلها أى تأييد أو معونة ، بالرغم من أن إرسال بعثة تمهيدية من الجامعة العربية ، والتفكير فى إرسال وفد خاص لليمن كان يعتبر اعترافًا ضمنيًا بالوضع القائم هناك . وقد وقف الملك ابن السعود من الانقلاب موقفًا عدائيًا صريحًا ، فلم يرد أولاً على البرقية التى أرسلها ابن الوزير له عقب قيام الثورة ، كما قابل وفد ابن الوزير الذى زار الرياض طلبًا للمساعدة بفتور شديد . وقد كان ابن السعود يهمه الأمر كثيرًا ، ويخاف انتشار هذه الأفكار والأعمال الثورية فى بقاع الجزيرة ، لذلك وقف

---

(١) الأهرام : العدد ٢٢٥٠٣ فى ٢٢/ ٢/ ١٩٤٨ .

(٢) الأهرام : العدد ٢٢٥٠٢ فى ٢٠/ ٢/ ١٩٤٨ ، ص ١

(٣) Philby : Saudi Arabia, p. 350.

هذا الموقف العدائى . وقد ظهر ذكاء ابن السعود وسياسته فى أنه سمح لوفد ابن الوزير أن يتكلم أمامه كثيرًا فى اجتماع عام ، وأن يشرح أعماله وأغراضه حتى انتهى من حديثه وعرف منه كل شىء ، عندئذ صرخ فى وجه أعضاء الوفد غاضبًا : « كيف تستطيعون الحضور إلى وتطلبون معونتى وأنا صديق سيدكم » ثم أشار بأصبعه إليهم وقال : « أنتم أيها الناس قتلة . . وقد أتيتم إلى كضيوف عندى ، وأسمعتمونى ما عندكم ، وأنا لا أستطيع إلا أن أقول لكم : اتركوا بلادى »[1] . أما وفد جامعة الدول العربية فلم يصل إلا إلى جدة ، إذ استدعاه الملك عبد العزيز إلى الرياض وأبقاه هناك للمماطلة . وقد أفهم الملك الوفد بأن : الوضع قد التهب فى اليمن بعدما بدأ ولى العهد يعمل للاستيلاء على الحكم ، وأن مطار صنعاء قد حرقه البدو وبعض العناصر الفوضوية ، لذلك فضل الوفد أن ينتظر ليرى ما يستقر عليه الأمر أخيرًا[2] .

وكان الملك عبد العزيز يلعب بذلك دورًا خطيرًا فى تاريخ اليمن فى تلك الفترة . فقد نجحت خطته فى تعطيل وفد جامعة الدول العربية عن مواصلة سيره إلى « صنعاء » حتى لا يقوى بذلك ساعد الثورة . وأرسلت « صنعاء » وفدها إلى الرياض لتستعجل سفر وفد الجامعة إليها ، ولكن خاب مسعاه - ووفد صنعاء هذا هو الذى طرده الملك عبد العزيز بعد مقابلته - وعمل الملك كذلك بالاتفاق مع القاهرة وعمان على ألا يقابل وفد «صنعاء » أمين الجامعة فى الرياض بحجة مرض الأمين ، ففشل الوفد فى توضيح أغراض الثورة ومطالبها ، هذا فضلاً عن مساعدته لسيف الإسلام أحمد بالمال والسلاح . وفى أثناء ذلك استطاعت قوات سيف الإسلام أحمد أن تدخل صنعاء فى ١٢ مارس سنة ١٩٤٨ وأخضعت ابن الوزير وأعوانه وقبضت

---

(١) Philby : Saudi Arabia, p. 101.

(٢) Philby : Arabian, Jubilee, p. 191.

عليهم وأرسلتهم مكبلين إلى « حجة » المقر المؤقت للملك الجديد الإمام أحمد ، وتم إعدامهم هناك . أما « سيف الحق إبراهيم » فقد سجن فى قصر صغير بجوار قصر الإمام فى « حجة » ولكنه مات مسمومًا بعد حوالى ٣ أشهر .

ونحب أن نشير إلى أمرين هامين بخصوص هذه الثورة وخاصة أنها تعتبر نهاية لحكم الإمام يحيى ونهاية لحياته .

الأمر الأول هو معرفة موقف الجهات المختلفة الخارجية من هذه الثورة ، ونقصد بالذات معرفة موقف البلاد العربية وإنجلترا لأن الأمر كان يهمهم بشكل مباشر . تبلور موقف الحكومات العربية من هذه الثورة فى صورة معينة ، هى الصد والحذر ، وذلك لخوفها من انتشار روح الثورة خارج حدود اليمن ، ولأن عناصر الثورة لم تكن بالقوة بحيث تستطيع أن تقنع الحكومات العربية بأهميتها ورسوخها وبقدرتها على المحافظة على الأمن داخل اليمن ، ولأن هذه الأحداث قد انتهت بسرعة على يد قوات ولى عهد الإمام يحيى ، فلم تلبث حكومة الثورة فى الحكم إلا حوالى شهر .

وقد اتضح الموقف العربى بجلاء فى موقف ابن السعود العدائى الذى شرحناه قبل ذلك ، وفى موقف جامعة الدول العربية التى فضلت اتخاذ خطوات تدريجية د ون الاندفاع لاتخاذ موقف معين . وكان موقف الجامعة يعكس بوضوح موقف الحكومات العربية من الثورة اليمنية ، ويعبر عن رغبتها فى القضاء عليها خوفًا من انتشار عدواها إلى باقى أجزاء الوطن العربى . وعلى كل حال لم تلق الثورة إلا تأييدًا أدبيًا قليلاً من ناحية الجماعات الشعبية العربية وخاصة جماعة الإخوان المسلمين فى مصر ، وقد ذهب بعضهم إلى صنعاء قبل الانقلاب بقليل[1] . أما إنجلترا فقد كانت تميل فى الحقيقة إلى أن تقف موقفًا حذرًا من الثورة . فهى من ناحية كانت تكره الإمام

---

(١) Philby : Saudi Arabia, p. 350.

يحيى لموقفه العدائى ودعـايته ضدها لخدمة مصالحه على الرغم مـن أنه قد عقد معهـا معاهـدة ١٩٣٤ . ولذلك كـان يهمها إزاحتـه من طريقهـا ، وجعلت من عـدن ملجأ أمينًا للعنـاصر المعاديـة للإمـام ، فتركز فيهـا نشاط تلك العنـاصر بالـرغم من أنها كانت رسميًّـا تطالبهم بألا يقـوموا بأى نشـــاط سيـاسى معادٍ لـلإمـام حيث إنها حليفة لـه ، كما تقضى معـاهـدة سنة ١٩٣٤ . وكـان قصـد إنجلترا من وراء إيـوائهم فى عدن هـو مساومـة الإمام بـاستمرار والتلـويح بهم كورقـة رابحة فى أيـديها . وكانت إنجلترا كـذلك تجبر هـؤلاء عند الضرورة على وقف نشـاطهم ، أو على الخروج من عـــدن إذا اقتضت الحاجـة ، أو إذا هـاجموا الاستعمار الإنجليـزى بعدن . ويقـال إن حاكم عـدن قد تبـادل المكاتبـات مع الأمير إبراهيم عند فراره إلى عدن ، وأن الحاكم قد طلب من الأمير بألا يقوم بأى نشاط سيـاسى ضد الإمام ، وأن الأمير إبـراهيم قد تعهد بهذا فعـلاً ، ولكن كان هذا كلـه شكلاً رسميًّا فقط ، فمن المعـروف أن كلا الطـرفين لم يراعيا مـا تعهدا به(١) . ومن ناحية ثانية ، كانت إنجـلترا تخاف أن تتهم بمســاعدة الثورة حتى لا يقال عنهـا إنها تحاول التدخل فى شئون اليمـن الداخلية ، وبـذلك تثير ثائرة القـوى الأخـــرى المعنيـة بأمر اليمن ، ولكنهـا فى نفس الـوقت أرسلت بارجـة حربيـة رست أمام الحديدة . ومن ناحيـة ثالثة ، كانت إنجلترا تـرقب الأحداث بيقظة شـديدة ، لأنه كـان يهمها معرفـة موقف حكام اليمن الجدد منهـا . وكان رجال الثـورة على درجة من الوعى فلم يرغبـوا فى إثارة العداء معها بعـد قيامهم بالثورة مباشرة . فأرسل حسين الكبسى وزير الخارجيـة برقية إلى حاكم عدن قال فيهـا : « إن الحكومـة اليمنيـة يسرها أن تعتمـد من هـذه اللحظـة على صداقـة بريطانيا المؤسسة على علاقـات الجوار الوديَّة ، وإنى لأفضل أن تكون بيننا وبين بريطـانيا هذه العلاقـات الوديَّة ، على أن تكـون مع أية دولة غربيـة أخرى ، وأن اليمن الحرة ستقدر حسن نياتكم حق التقدير »(٢) .

---

(١) الأهرام : العدد ٢٢٥٠٤ فى ٢٢/ ٣/ ١٩٤٨ ، ص ١ .

(٢) الأهرام : العدد ٢٢٥٢٠ فى ٢٠/ ٢/ ١٩٤٨ ، ص ٤٠ .

والأمر الثانى الذى نحب أن نشير إليه هو : ما هى دلالة الثورة فى تاريخ اليمن الحديث ؟ وما هو تعقيبنا عليها ؟ وما هى نتيجتها وآثارها ؟

لا شك أن الثورة كانت حدثًا كبيرًا فى حد ذاته فى تاريخ اليمن ، فهى تعبر عن طبيعة الشعب هناك ، وموقفه من حكم الإمام يحيى ، وتوضح أن النظم التى وضعها الإمام كانت غير صالحة ولا يمكن أن تستمر . ولكننا إذا كنا نعتبر أن الثورة هى عمل يؤدى إلى تغير أنظمة الحكم وأشخاصه ، فإننا يمكن أن نعتبر أن هذه الثورة - بالمفهوم الذى أشرنا إليه - كان أمرًا متوقعًا ، وكان الكثير من العناصر الداخلية والقوى الخارجية تنتظر وقوعه إن عاجلاً أو آجلاً . ولكننا أيضًا نحب أن نؤكد حقيقة هامة ، وهى أن حادثة الاغتيال لم تكن الشىء المتوقع حدوثه ، بل كان الشىء الوحيد المتوقع هو حدوث تغير ما ، وأن التغيير كان أمرًا ضروريًا تقتضيه مصلحة اليمن .

ولكن أحداث ثورة ١٩٤٨ وإمكانياتها الضعيفة ، والظروف الداخلية والخارجية التى أحاطت بها ، جعلتها تبدو كأنها انقلاب وسرعان ما فشل . فلم تستطع الثورة أن تعبر عن نفسها أو أن توضح أغراضها ، ولم تؤد إلى تغيير يذكر ، وإن ظلت فى نفس الوقت الشرارة الأولى ذات الدلالات الواضحة والأثر الكبير فى تاريخ اليمن الحديث . حقيقة تمكنت الثورة من قتل الإمام ، والإعلان عن وجود كيانات وطنية حرة ، ولكنها لم تتمكن - نظرًا لعمرها القصير - من أن تغير شيئًا من الأوضاع ، فبمقارنة سريعة بين عهد الإمام يحيى وعهد الإمام أحمد يبدو أن الانقلاب كان حدثًا عارضًا فى تاريخ اليمن ، إذ عادت عجلة الأحداث هناك إلى ما كانت عليه ، وسار

الإمام أحمد على نفس السياسة التى رسمها الإمام يحيى . وسبب ذلك أن التطور التاريخى لحكم الإمام يحيى الطويل زمنيًا ، قد أدى إلى رسوخ نظم وأوضاع معينة ، ولذلك فإننا نرى أنه كان يجب العمل على تطوير هذه النظم والأوضاع نفسها داخل الإطار التاريخى الخاص الذى عاشه اليمن ، على أن يحدث هذا كله فى خطوات سريعة مناسبة ، ولكنها حازمة فى نفس الوقت ، إذ إن الأمور التى وجدها الإمام والتى أوجدها هو وعمل على تثبيتها ، كانت قد أصبحت أوضاعًا قائمة بذاتها ، وبالتالى كان لا يمكن حلها أو التخلص منها مباشرة ، بل كان لا بد من تطوير يشمل هذه النواحى كلها حتى يمكن التخلص منها . وليس المقصود بالتطور هنا هو أنه كان هناك أمل فى تطوير حكم الإمام يحيى أو أنه يصلح لذلك ، بل المقصود هو أن يعمل الوطنيون على استغلال تناقضات هذا الحكم لتوسيع القاعدة الوطنية - من الناحية الكمية والكيفية - حتى لا تبدو الثورة حينذاك وكأنها صراع بين أسرتين - أى صراع شخصى - على الحكم ، وهما أسرة حميد الدين وأسرة ابن الوزير ، إذ لم يكن لابن الوزير قاعدة شعبية عريضة ، غير هؤلاء القلة من أبناء اليمن - مثل النعمان والزبيرى - الذين آمنوا بالطريق الإصلاحى لإنقاذ بلادهم ، فالتفوا حول ابن الوزير باعتباره أكثر ميلاً للإصلاح ومستنيرًا بالنسبة للإمام يحيى .

وعلى كل حال ، فقد نجح الإمام أحمد فى استرداد عرش أبيه ، ولكنه سار فى نفس الطريق الذى سار عليه والده ، وبنفس الأسلوب . فكان عهده امتدادًا لعهد أبيه ، وهذا يدل على مدى أثر الإمام يحيى فى تاريخ اليمن الحديث.



الخـاتمـــة [1] :

هكذا بدأ عهد الإمام يحيى . . وهكذا انتهى . . وقد استمر فترة طويلة .

وقد رأينا أن الإمام اتبع نظام حكم غريب لا يتلاءم مع مقتضيات العصر أو احتياجات شعبـه ، فأدى هذا بالتالى إلى تخلف اليمن وانعـزاله عن التيارات الحضاريـة العالميـة المتطورة بـاستمرار . وقـد يقال إن عنـاصر المجتمع اليمنى وظـروفه التـاريخيـة والسياسيـة وغيرهـا قد ألـزمت الإمـام بنظم معينة كـان من الصعب عليه تغييرها ، ولكننا نرفض هذا الحديث ، فإن العناصر المختلفة تحمل متناقضـــاتها فى داخلهـا ، وتعمل دائمًا على التطــور نتيجــة تفـاعل تـراكماتها المستمر . ولكـن الإمام لم يستجب لحتميـة التاريخ ، وبـذل جهده فى المحـافظة على كل ما وجده من نظم وأوضـاع وحارب كل تطوير وتجديـد ، أو كل مطالبة بذلك - ولهذا كان الإمام يحيى نفسه ضحية سياسته وأفـكاره - وعاش أثر تلك السياسة فى تاريخ اليمن طويلاً هنـاك بعد وفاته ، واستمرت الأسس التى تدعم وجودها أو التى دعم وجودها أو التى وضعها باقية تسيطر على أحداث اليمن .

وفى نفس الوقت استمـرت قوى المعارضـة فى تزايد ونمـو - وهى عنـاصر تختلف فيما بينها من حيث الطبقة التى تنتمى إليهـا المصالح التى تدافع عنها أو المطالب التى تنـادى بها - وقامت أكثر من محاولة لتغيير نظم الحكم والإطـاحة بأسرة حميد الـدين - وهى أسرة الإمام يحيـى - عن الحكم ، وكان أهمهـا انقلاب عام ١٩٥٥ الـذى استمر أسبوعًا فقط ، تمكن الإمـام أحمد بعده من القبض على رجالـه وأعدم زعيم الانقلاب وهـو « أحمد الثلايا » . واستمرت هـذه المحاولات بعـد ذلك حتى قـامت ثـورة ٢٦ سبتمبر سنـة ١٩٦٢ ، وأعلنت انتهـاء حكم الأئمة وقيام الحكم الجمهورى فى اليمن .

وكما قلنا إن قتل الإمام يحيى لم يؤد إلى إحداث التغيير المطلوب - نظرًا لبقاء العناصر والنظم التى حرص عليها الإمام كما هى - فإن إعلان الجمهورية فى اليمن لا يعتبر إلا نقطة انطلاق فقط فى طريق طويل شاق . فلا شك أن بناء اليمن الحديث - بعد التأخر الذى عاناه - يحتاج مجهودًا ثوريًا بطوليًا كبيرًا للتمكن من رفع مستوى الحياة هناك ، ومواجهة المشكلات المتراكمة التى حرص الأئمة على المحافظة عليها حتى يتمكنوا فى النهاية من البقاء على السطح ، يرفعهم التخلف والمتناقضات والتحكم فى مقدرات الشعب . ولا تقتصر المشكلات التى تواجه زعماء الثورة على النواحى المادية والحضارية فحسب ، بل إنها ذات طابع معنوى أيضًا . وهى تتمثل فى حاجة اليمن إلى الوحدة الوطنية ورفع مستوى الوعى الوطنى وذلك بقيادة حكومة ثورية وبالاستعانة بقوى المثقفين ، حتى يشعر البعض المتمرد من القبائل الجبلية - التى تتستر وراء الاستقلال الذاتى أو الاختلاف المذهبى أو حتى التى يدفعها فقرها المادى إلى التمرد - بأهمية الإندماج والمشاركة فى بناء أركان الجمهورية الفتية .

ولا شك أيضًا فى أن الحكومة اليمنية تحتاج أثناء عملية البناء إلى تعاون دولى ، وخاصة من الجهات العربية ، وعلى رأسها الجمهورية العربية المتحدة ، التى أخذت - فى شكل بطولى واضح - زمام المبادرة ، ووضعت كل إمكانياتها فى خدمة الجمهورية العربية اليمنية منذ قيام الثورة .

الملاحق

(١) وهى مرتبة حسبما ورد الإشارة إليها فى الرسالة . وقد حرصنا على جمع هذه المجموعة من الخطابات والمعاهدات لأهميتها ولإكمال الفائدة . وهى تشمل - بوجه خاص - المعاهدات التى عقدها الإمام يحيى مع الدول المختلفة .

- ١ -

كتاب الإمام يحيى
إلى وفد مكة من قبل السلطان العثمانى [(١)]
١٨ شعبان ١٣٢٥ (أكتوبر سنة ١٩٠٧)

شرح الإمام فى خطابه الطويل هذا وجهة نظره فى كيفية استقرار الأحوال فى اليمن . وهاجم فيه الولاة والموظفين العثمانيين باعتبارهم مصدر الفساد والاضطراب ، واتهمهم بالخروج على أوامر الدين ، ولكنه كان يعلن ولاءه للسلطان العثمانى وخضوعه له وبين فيه أيضًا ضرورة الاعتراف بوضعه الخاص حتى يتمكن من مراقبة تطبيق الشريعة والسهر على حمايتها . ويتضح فى الخطاب الصبغة الدينية بشكل كبير ، كما أنه يعبر خير تعبير عن أسلوب ذلك العهد فى اليمن . وقد أشرنا إليه فى الرسالة عند الكلام عن المجهودات السلمية لإنهاء المنازعات بين الإمام يحيى والسلطات العثمانية (راجع ص ٧٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه . والصلاة والسلام على القائل من كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار . وعلى آله المطهرين من الأرجاس ، المصطفين على كافة الناس ، وعلى صحابته الراشدين ، أولى العفة والعزيمة فى الدين .

---

(١) الواسعى . تاريخ اليمن ، ص ٢١١ - ٢١٨ .

أما بعـد ، فإنه وصل إلينا كتـاب جليل من علماء مهابط التنـزيل ومعارج ميكائيل وجبرائيل ، السيـد الجليل عبد الله بن عبـاس ، ورفقائه العلماء التسعـة الأكيـاس : وأفـرغ الله عليهم سحـائب الـرضـوان والتسليم . وأوضح بحميـد سعيهم الصراط المستقيم وصرف عنهم كل شيطـان رجيم ، ونزههم عن خـدمة ضمير كل جبار أثيم ، ووفقهم إلى مطابقة مـراده ومر اد سلطان الإسلام وحامى حمى الدين القويم . متضمنًا للنصيحة ، معـرفا بهادهم الإسلام من تكالب ذوى الملل القبيحة ، ملوحا بها لم يكن من مواد ، ومن حـاد الله ورسوله ، ومعرفًا بها هو المعـروف من حق وقدر سلطـان الإسـلام أيد الله بـه الدين ، ونصره على الكفـرة والمشركين . فنقول :

الحمد لله الذى قيض لنا من يفهم الخطاب ، ويعرف الخطأ من الصواب ، ويدرك مـدارك الأحكام . ويحكم الشرع الذى ارتضـــاه لنا العـلام . وها نحن نقدم نفثة مصـدور ، وزفرة محرور . اعلموا حماكم الله تعـالى أن الله ، ولله الحمد ، اختـار لنـا دينًا قويمًا هو أشرف الأديـان ، فبعث الله به أفضل الرسل سيـد ولد عدنان . وأكمل له ذلك الدين ، فقال : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم﴾ ثم قبض الله رسـولـه إليه ، وقـد أوضح المنهج وأزال العـوج عن خـير القـرون . فما زال الإسـلام ينمو ويـرتفع ، والضـلال ينقص ويتضع . وكـان كلما حدثـت بدعـة أزيلت ، أو مظلمـة ارتفعت ، حتى تولى ذو الملـك العضوض ، فتنـاقص ذلك التمام ، وتكاثـر الفساد من عـام لعام . واختلـف على الدين الـولاة ، ومدت إلى جـانب أعناقهـا لإبتلاع الإسـلام العـداة . ولمعت نيران الشر ، وظهر الفحشـاء والمنكر . وكان ما كان من مغلوب وغالب ، ومطلوب وطالب . ومكن الله الدولة العثمانية من الحماية للدين ، وحفظ حوزته من الكفرة المعتدين .

وكـانت بـلاد اليمن بيـد أسلافنـا من آل الأكـرمين من المائة الثـالثـة إلى التاريخ(١) ، ولم ينفك قـائم الحق عنها إمـا متوليًـا لجميعها أو بعضهـا ، كما هو معـروف فى تواريخ اليمن . وكـانت المعـارك مستمرة بين أسـلافنا ومن نـاوأهم

---

(١) يقصد إلى الآن (أى تاريخ كتابة الخطاب) .

لرغبة أهل اليمن فى ولاية ساداتهم وأولاد نبيهم رضى الله عنهم ، واعتقادهم وجوب توليهم ونصرتهم ، وكما يعرفونه من أحوالهم وأن لا إرادة لهم غير الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر المخوف ، وإقامة الشريعة وتعديل المسائل ، وإرشاد الجاهل ، وتقريب المؤمنين ، وإبعاد الظالمين . ثم لما توجه أحمد مختار باشا من الحضرة السلطانية إلى اليمن ، وكان قائمًا ذلك الوقت الإمام محسن ابن أحمد وكان بينه وبين المأمورين ملاحم . ثم بعث الإمام شرف الدين ولا زال ظلم المأمورين يتضاعف من عام إلى عام وتنوعهم فى المعاصى وارتكاب الشهوات ظاهرًا بلا حياء ولا احتشام . ولما ظهر شيء أو زاد كثرت البغضاء في قلوب أهل اليمن للمأمورين ، فالإيمان يمان والحكمة يمانية ، حتى قام والدنا رضى الله عنه ، وقد ضرب ضلال المأمورين بجرانه . وتطاردت أفراس شهواتهم فى حلبة الفجور وميدانه ، فكانت بينه وبين المأمورين ما كان حتى مضى لسبيله ، ولحق بحزب جده الأمين وجيله . فانتصبنا لذلك المقام ، حين نفر أهل اليمن من مأمورى السلطنة على الدوام . ولم نقم والله لدرهم ولا دينار ولا لطلب علو ولا فخار . ولكنه أكرهنا على ذلك قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ ونحوها من صرائح الكتاب والسنة .

ثم كان بين أهل اليمن و المأمورين ما كان ، وكان منا غاية الإحسان لاتباع سلطان الإسلام ، كما قد عرفه ممن له بها كان أى إلمام . وعقد الصلح بيننا وبين المأمورين مؤكدًا بذمة الله وذمة رسوله مع إغفال النظر عن إمنكان الغدر وخفر الذمم .

فلم يرغمنا إلا محررات من الحاج أحمد فيضى باشا ، مشعرًا بها تقشعر منه الجلود من نقضه تلك العقود ، وخفره لتلك الذمم والعهود . فراجعناه ونصحناه وأعلمناه بما فى خفر ذمة الله من التعرض للوبال والاستعجال للنكال ، فما زاده إلا شدة وثقة بما كانت فى يده غير الله من العدد والعدة ، وكان

ما كان من إخراب الدور وسفك الدماء وذهاب الأموال ، ولم يكن منا إلا مجرد الدفاع المأمور به شرعًا ، ثم أردنا لسكون والانشغال بما أماته المأمورون من إحياء العلم الشريف وإقامة شريعة الله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتعليم الناس معالم الدين ، وإرسال المعلمين إلى القرى لتعليم أهلها الصلوات ، فلم يشعرنا إلا تجاوز يوسف باشا الحدود ، وتبنيد الأبناد وتجنيد الجنود ، وإدخاله إلى طرف بلاد حاشد وإلى ما هو بأيدينا فلم يسعنا السكون فكان ما كان . نعم والمأمورون لم يزالوا يثيرون غضب السلطان على أهل اليمن ، ويستنجدون منه الأجناد المترادفة والأموال اللمتكاثرة ويشيرون باستئصال أهل البيت النبوى والدين المصطفوى . وينسبونا عندهم إلى الخوارج والرافضة وربما يخرجوننا عن دائرة الملة المحمدية ولا والله ما لنا مذهب غير ما كان عليه خير القرون والسلف الصالحون ، وإنا لنبرأ إلى الله من الخوارج والروافض وأهل البدع المحدثة ، والمأمورون يعرفون ذلك منا لكنه حداهم على ذلك ما جبلوا عليه من حب جمع الأموال والتسلق لأخذها من غير الوجه الحلال ، ولم يتم ذلك إلا باستمرار القتال ، والتنقل من حال إلى حال فتراهم يحسبون على الأموال الميرية ما يأخذونه على الأهالى بيد العدوان ، ويضاعفون أجر الحيوانات على أنهم كثيرًا ما يغتصبونها ولا يعطون أهلها شيئًا وهم مع ذلك على اللذات و الشهوات عاكفون وعلى التفنن فى الفجور يتنافس منهم المتنافسون فتنكرهم المساجد والجوامع ، ويجحدهم شهر الصوم الذى هو لكل خير ج امع . وتعرفهم الكئوس والأقداح ، وتصافيهم أرباب القدوح الملاح . وكل هذا بين واضح سترونه عيانًا إن لم يضرب عنكم الحجاب ، وتوصد الأبواب . ومع ذلك تراهم يصادقون لرابطة عداوتنا كل ضال ، حتى أنهم ليقربون الباطنية الكفرة ويعطونهم كثيرًا من الأموال . ولا وأيم الله ، ما هذا دينونتهم الجامعة غير عدواتهم آل محمد ، مع أن مصادقتهم لمثل الباطنية فيما يزيدنا إلى الناس

حبًّا ويـزيدهم إلى النـاس كراهة وبغضًـا ، واسألوا أهل الإنصـاف عن جميع ما حررنـاه . ولقد أكثـر المـأمورون على سلطـان الإسلام تـزويدات الكـلام ، حتى خيلوا إليه أن محاربتنا أقدم من محاربة الكفـار الطغام وشغلوه بمحاربة آل النبى المختار . وفى خلال المدة السابقة أرسل سلطان الإسلام ، أيد الله به شريعة سيد الأنـام ، هيئة بعـد هيئة ، ومفتشين بعـد مفتشين ، وكلما خـرج أحد منهم تلقـاه المـأمورون بالإحسان وأدخلوا عليه من يتكلم بمرادهم ، وحالوا بينه وبين ما هو مأمور بإمضائه . وسيكـون ذلك أو نوع منه معكم أو قد كـان ، حتى لقد أرسلنا كتبًـا عديـدة إلى الباب العـالى من طرق شتى لم يعـد لنا جـواب رأسًا لاحتفـال المـأمورين بردها عن ذلك الباب .

وأمـا الأحـكام الشرعية فما كأنهم أمـروا بغـير هـدمها ومحـو اسمهـا ، وطمس رسمها . فإنا لله وإنـا إليه راجعـون . عودًا على بدء ، النصيحـة مقبولة إن شـاء الله تعالى ، غير أنَّـا نحب أن تطلعوا على مـا دار بيننا وبين الـوالى أحمد فيضى ومن كاتب إلينا من المأمورين لتعرفـوا مسلكنا فى الإنصاف . وبعدنا عن الميل والاعتسـاف . وستعرفـون حقيقة الحال وهـا نحن ننشدكم الله والإسـلام ، وهل تجدون ناسخاً لـلأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر المخوف ؟ أم هل تجدون من محرم للدفـاع على الأموال والأعراض والنفـوس والبنات والبنين ؟ أم هل من مـانع لقتال من أضـاع أركان الإسـلام ؟ أم هل من تثريب على من اقتفى الأثـر بـآيات قـرناء القـرآن والحجـة على الأمة فى كل عصر وأوان ، الـذين أوجب الله محبتهم على كل بنى الإنسان ؟ أم هل من ناسخ لآيات : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله** ﴾ . وإنا نحـذركم من دسائس المـأمورين فإن لهم طرقـاً إلى جلب أمثالكم إلى اتباع مقاصدهم ، كما انتخبوا لخدمة أفكارهم أناساً من أهل اليمن ، وجعلوا لهم آلهة فى كل مكان حتى بلغ بهم الحال إلى أن أرسلـوهم للوفادة للبـاب العالى للتعبير عنهم بما علمـوهم كما يفعلـونـه إذا وصل مثل حضراتكم أو مفتش فهم

يمرون عليه فى كل يوم بأماكن الأمراء ، ويدلسون بأقوال لا يعبأون ولا يبالون بظهور الكذب فيها والافتراء . ثم ابحثوا عن العلة الباعثة فإن من عرف الداء عرف الدواء .

وإنا نمد إلى الله أكف الابتهال أن يجعل على أيديكم جبر كسر اليمن الميمون ، وأن يقذف فى قلب سلطان الإسلام الرأفة والرحمة باستدراك حشاشة أهله فهم مؤمنون .

وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

حرر فى ١٨ شعبان المعظم سنة ١٣٢٥ هـ .

- ٢ -

نص شروط الاتفاق(١)

الذى تم بين الإمام يحيى واللواء أحمد عزت باشا

(المعروف باتفاق « دعان »)

أول شهر ذى القعدة عام ١٣٢٩هـ (١٩١١م)

يعتبر هذا الاتفاق ترضية للطرفين المتنازعين - الإمام والعثمانيين - وهو نتيجة مجهودات حربية وسلمية طويلة ، وقد اعترف العثمانيين فيه للإمام بالشخصية الخاصة وبعض النفوذ الدينى باعتباره زعيماً لطائفة دينية معينة.والاتفاق فى جملته عبارة عن مواد تنظيمية لتحديد العلاقة بين الإمام والعثمانيين ، ولتحديد اختصاصات الولاة والموظفين العثمانيين ، ولتوضيح مدى سيطرة العاصمة العثمانية على ولاية اليمن . ونصت مواد الاتفاق كذلك على نظم الحكم هناك ، وطريقة جمع الضرائب ، وسير العمل فى المحاكم المختلفة ، ومراعاة الشريعة الإسلامية فى المسائل المختلفة ، وغير ذلك من الأمور الإدارية . (راجع ص ١٣٦) .

١ - ينتخب الإمام حكاماً لمذهب الزيدية ، وتبلغ الولاية ذلك ، وهذه تخبر الآستانة لتصدق المشيخة على ذلك الانتخاب .

٢ - تشكل محكمة استئنافية للنظر فى الشكوى التى يعرضها الإمام .

٣ - يكون مركز هذه المحكمة صنعاء ، وينتخب الإمام رئيسها وأعضاءها وتصدق على تعيينهم الحكومة .

(١) الواسعى . تاريخ اليمن ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٩ .

ودعان : قرية صغيرة تقع فوق قمة جبل شمال غربى مدينة عمران .

٤ - يرسل الحكم بالقصاص إلى الآستانة للتصديق عليه من المشيخة وصدور الإرادة السنية به ، وذلك بعد أن يسعى الحاكم فى التراضى ولا يفلح ، ولا ينفذ الحكم إلا بعد التصديق وصدور الإرادة بشرط أن لا يتجاوز أربعة أشـــهر .

٥ - إذا أساء أحد المأمورين (الحكام والعمال) الاستعمال فى الوظيفة يحق للإمام أن يبين ذلك للولاية .

٦ - يحق للحكومة أن تعين حكاماً للشرع من غير اليمانيين فى البلاد التى يسكنها الذين يتمذهبون بالمذهب الشافعى والحنفى .

٧ - تتشكل محاكم مختلطة من حكام الشافعية والزيدية للنظر فى دعاوى المذاهب المختلفة .

٨ - تعين الحكومة « محافظين » تحت اسم « مباشرين » للمحاكم السيارة التى تتجول فى القرى للفصل فى الدعاوى الشرعية ، وذلك دفعاً للمشقات التى يتكبدها أرباب المصالح فى الذهاب والإياب إلى مراكز الحكومة .

٩ - تكون مسائل الأوقاف والوصايا منوطة بالإمام .

١٠ - الحكومة تنصب الحكام للشافعية والحنفية فيما عدا الجبال .

١١ - صدور عفو عام عن الجرائم السياسية والتكاليف والضرائب الأميرية التى سلفت .

١٢ - عدم جباية التكاليف الأميرية لمدة عشر سنوات من أهالى «أرحب» و « خولان » لفقرهم وخراب بلادهم وارتباطهم التام بالحكومة .

١٣ - تؤخذ التكاليف الأميرية بحسب الشرع .

١٤ - إذا حصلت الشكوى من جباة الأموال الأميرية لحكام الشرع أو للحكومة فعلى هذه أن تشترك مع الحكام فى التحقيق ، وتنفذ الحكم الذى يحكم به عليهم .

١٥ - يحق للزيدية تقديم الهدايا إما توًّا وإما بواسطة مشايخ الدولة أو الحكام .

١٦ - على الإمام أن يسلم عشر حاصلاته للحكومة .

١٧ - عدم جباية الأموال من جبل الشرق(١) لمدة عشر سنوات .

١٨ - يخلى الإمام سبيل الرهائن الموجودين عنده من أهالى صنعاء وما جاورها وحراز وعمران .

١٩ - يمكن لمأمورى الحكومة وأتباع الإمام أن يتجولوا فى أنحاء اليمن بشرط أن لا يخلوا بالسكينة والأمن .

٢٠ - يجب على الفريقين أن لا يتعديا الحدود المعينة لهما بعد صدور الفرمان السلطانى بالتصديق على هذه الشروط .

وإكمالا لهذه الشروط عين الإمام حكاماً وكتاباً للمراكز والنواحى ونظاراً للوقف الداخلى والخارجى وللوصايا .

---

(١) مخلاف من مخاليف آنس وأهله فى غاية الفقر وبيوتهم تخربت مما حصل من المحاربة .

- ٣ -

خطاب سعيد باشا فى لحج
إلى القائد العثمانى أحمد توفيق باشا فى صنعاء [١]
٢ نوفمبر سنة ١٩١٨

على سعيد باشا هو قائد القوات العثمانية التى زحفت جنوبا إلى المحميات أثناء الحرب العالمية الأولى، وحاولت مهاجمة عدن وفشلت؛ مما اضطرها إلى الاستقرار فى لحج وما حولها من المحميات، حتى دعا الأمر إلى الانسحاب عند إعلان الهدنة العامة وانهزام الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى، أما أحمد توفيق باشا فهو قائد عثمانى آخر للقوات العثمانية التى بقيت فى اليمن. وأهمية الخطاب تتمثل فى عدة نواح: أولها: أنه يحدد الأراضى التى استولى عليها على سعيد باشا وظلت تحت قبضته حتى انسحب منها. وثانيها: أن الخطاب يحمل رد على سعيد باشا على التهم الموجهة إليه بأنه سلم ما فى حوزته للإنجليز، ويعدد المجهودات والمتاعب التى واجهها هو وقواته فى هذه الحرب، ويرد التهم إلى قائليها الذين فى صنعاء - وهم الإمام، والوالى والقادة العثمانيين - وأنهم لم يشاركوا فى هذه الحملة بمجهود يذكر إلا إلقاء التهم وإطلاق الإشاعات. وثالثها: أن الخطاب يحمل نداء إلى الإمام أو من يهمه أمر المحميات بالحضور إلى الجنوب لاستلام ما تحت يده، ويشير تصريحاً وتلميحاً إلى تقاعد هؤلاء فى محاربة الإنجليز. وقد كان الأحرار اليمنيون فى القاهرة يرون أن هذا الخطاب (والخطاب التالى) وثيقتان هامتان تدينان الإمام يحيى بالتقاعد عن تلبية هذا النداء، وعدم انتهازه الفرصة لاسترجاع المحميات، وطرد الإنجليز من الجنوب العربى كله، وضم هذه البقاع إلى اليمن الأم، كما كان الحال قبل دخول الإنجليز المنطقة. (راجع ص ٢٢٣).

---

(١) أحمد فضل العبدلى: هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن، ص ٢٥١ - ٢٥٤.

« إن القلاع المهمة والأراضى التى استرددناها من الإنجليز مثل قلعة باب المندب والشيخ سعيد وسواحل المخاوذ باب وكذا النواحى التسع الموجودة الآن تحت أشغالنا وتأثيرنا وهى :

لحج ، والصبيحة ، والحواشب ، والضـالع ، ويافع العليـا والسفلى ، وبلاد الفضلى ، تلك النواحى بـاعتبارهـا أوسع من لواء تعز فى داخـل جنوبى اليمن ، وعلى الساحل من باب المندب إلى شقرة ما عـدا شبه جزيرة عدن ، فجميع هذه الأراضى المذكورة فى قبضتنـا ونحن المحافظـون عليها . وأما البلـدان التى تعود تابعيتهـا إلينا حضرمـوت ، وبلاد الصومـال حتى بلاد الـدناكل ، وقـد عقدت مقاولاتهم بتـابعيتنا وأوراق المقاومة المعقـودة محفوظة بأيـدينا تحت أسماء كل من الأمراء والمشـايخ وعقال وأهـالى البلدان المذكـورة . أما المواقع والخطـط الحربية والنقط المهمة الموجودة فيها قواتنا العسكرية ، وعليها المدار والمقابلة لباب عدن والشيخ عثمان فهى كما سيأتى :

(الـدرب . وبير نـاصر . ودار هيثم المسمى دار المشـايخ . والمجهـالـة ، وكـدمة الأصلع . وبير جـابر . والمحـاط . وبما أن حكـومتنا المتبـوعة قـد قبلت أساسـات الصلح مع حكومـة إنكلترة وحلفائهـا ، وعقدت الهدنـة بتاريخ ١٨ تشرين أول سنة ١٣٣٤ رومى ، وبعـد أن أرست مراكب الإنكليـز وحلفائهم فى مـراسى دار السعادة بـالصورة الـودية ، وسـويت أمور وضع المهـادنة ، فبهـذه الصـورة التى هى عن قواعـد الهدنـة المبلغة رسميًّـا من حكومـة إنكلترة حصل هيجان عظيم بين العسـاكر والأهـالى وفى داخل الخطط الحربية فتـلافيت الأمر مسرعاً لأجل تسكين ذلك الهيجـان ، ولكى نفهـم من قريب نوايا العـدو ، وكان ضروريًّا أن تلاقيت مع والى وقومندان عدن لأجل هذا الغرض ، ولتأمين المخابرة بين اليمن ودار السعادة لا لغرض آخر يـوجب الشك وسوء الظن . وكما ظهر لى من جواب سيادة الإمام بتعبير كلمة (لقد ساءنا) قاصداً بهذا التعبير تقبيحى ،

ومـا حملـه على ذلك إلا مقـاصـدكم وأغـراضكم الخصـوصيـة لبعض أسبـاب كاشتراككم مع والى ولاية اليمن بنشرياتكم و إشاعـاتكم غير اللائقة والمخالفة للحقيقة ، قـاصدين بـذلك إهانتى عنـد عموم أهالى اليمـن المحترمين ، الذين ليس لهم وقوف على الحقيقة لسوء تفسيركم لها .

ولكنى قانع وقـائل إن كل ذلك ليس له عنـــدى أهمية بمثقال الذرة ، لما لى من ســوابق الخـدم ، خصــوصًا فى هـذه التربة المقدسة اليمانية ، وما قمت به من المحـافظة والمدافعـة والثبـات والمحـاربة المتواصـلة ضـد العدو فى باب المنــدب وبــاب عـدن منـذ أربع ســنوات ، وكل ذلك بمسـاعدة ومظـاهرة رؤســـاء مجاهـدى وأهــالى لواء تعز ، لمـا بذلـوا من أرواحهم وأموالهم خـدمة للدين والوطن .

أما حضرة الإمـام ، ووالى الولاية ، وجنـابكم ، فـلم يكن لكم نصـــيب فى شيء من المعونة المــادية أو الفعلية نحونا ســوى الكلام لا غير ، مـع حرماننا من كل شىء .

ويشهد على ذلك كل من أرباب الشرف وأصحـاب الوجـدان ، من عموم أهالى اليمن من ذكر وأنثى حتى الصبيان . وفوق كل شىء ، فالتواريخ والوثائق ستبين ذلك بـالصراحة . والحاصل أن لليمن مفتـاحين مهمين ، هما لحج وباب المندب ، اللذين هما من أهم ما يكون لسلامة ومحافظة عموم اليمن ، فكل من له علاقـة وصلاحية من الـذوات فليشرف سريعًا لـلاستلام . أما نحن فقـد أمرت حكومتنـا المتبوعة المفخمـة بإجازتنـا ، وختمت وظيفتنا ، فلسنا مأذونين بـالبقاء بصفة محاربين فى هذا الوطن الذى نعتبره وطننا الثـانى . وقد كفانا ما لقيناه نحن العسـاكـر العثمانيين والفـدائيون فى هـذه المدة الطـائلـة من المتـاعب المضنيـة لـلأجسـاد ، والمفاداة بأرواحنـا العـزيـزة ضـد العدو وتحت قـذائف الطيـارات والمدافع (والمـكاين) وبين الـرمـال والجبـوت من غير مـاء فى أيـام الصيف

الجهنمى ونحن معرضون للحميات لشدة الرطوبة فى داخل الخنادق أيام الشتاء من جهـة ، ومن الجهـة الأخـرى كل هـذه الدمـاء التى أرقنـاهـا والأرواح التى أزهقناهـا فى هذا السبيل ، إنما هى للمحـافظة على عـرض وشرف ووجدان أهل اليمن المقـدس الـذى هـو من ضمن الحرمين الشريفين من تجاوز الأعـداء . والحالة هذه مع كونى لا زلت ولم أزل مضحيًـا بروحى ليلاً ونهارًا فى سبيل الدين والوطن ، وبحسب الوظيفة مع الحرمان الكلى ، ففـوق كل هذا يرمونا من بعيد بما يسهل على طبـاعهم ، ولكنـه عنـدنـا من أغلظ القـول ، مشيعين فيى حـزم وإصرار أنى لمقابل بعض المنـافع الخسيسة سأعيد لحجـا وما حوليها لـلأعداء . فإننا نـرجوكم خاصـة ، أن تتفضلوا بـالتبليغ لمن يلزم ، ليسارع بإرسـال أء كائن يكون ممن له حمية وطنية قهرمانيـة ، بالوفود إلى باب المندب وإلى لحج لاستلامهما قبل فوات الوقت . ومع أنى لا أقبل أصلا أن أكافأ بالتهم المهينة التى يقصدون بإذاعتهـا وافترائها أن يلصقـوها بـى ، ولمن المفتريات مـردودة ومعادة لمذيعيهـا وقائليها وناشريها بتمامها » .

٢ تشرين ثانى سنة ١٩٣٤ رومى

قائد منطقة الحركات بلحج

أمير اللواء

على سـعيد

- ٤ -

الخطاب الموجه من اللواء سعيد باشا إلى اللواء حسين باشا بصنعاء ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٨

اللـواء حسين باشـا قـائد عثمانى آخـر باليمـن ، وكان بصنعـاء حينئذ ، وهذا الخطاب يشبـه الخطاب السابق ، ويحمل نفس الدلالات والأغراض . ولـكن يـلاحظ هنا أن على سعيد باشـا يكثر من الإشادة بالجهـود التى بذلها هو وجنده ، ويحمـل اليمنيين عامة والإمام خـاصة مسئولية المحافظـة على بلادهم وحدودهم . ويذكر أنـه وقواته تحملوا هذه المسئـولية مدة أربع سنـوات أثناء اشتعال الحرب العامـة وأن هذا هو واجب عرب اليمن الآن .

وهو يستغرب فى هذا الخطاب أمر القيادة العثمانية بصنعاء الذى يقضى بضرورة البقاء فى المحميـات وعدم تسليمهـا للإنجليـز ، إذ إنه يرى أن حكم ذلك يرجع إلى السلطنة العثمانية فى استانبول فقط ، وإلى ظروف الحرب العـالمية الأولى العـامة ، بل ويشير إلى أمـر هام فى نفس الوقت - وهو أن واجب القيادة والشعب اليمنى هو مساعدة الجيوش العثمانية فى اليمن على الوصول إلى أهاليهم وأوطانهم سالمين . (راجع ص ٢٢٣) .

حضرة أمير اللواء حسين باشا المتعاقد بصنعاء .

إن إشعاركم بخصـــوص وقوع بعض مظـاهرات وطنيـة فى صنعاء كما وقع

(١) أحمد فضل العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

فى بداية الحرب العمومية ، وفى حرب طرابلس الغرب ، وإن تأمينات حضرة الإمام القوية فى غاية الوطنية والديانة لهو موجب للسرور .

إن مثل هذه المظاهرات لم تبد لحد الآن فعلياتها التامة بالمال والرجال لمصلحة الحكومة السنية . نتمنى أن نسمع ونرى تحقيق وقوعها بعد الآن ، وإجرائها فعلاً وتمامًا من أصحاب البلاد الحقيقيين ، أريد أن أؤمل بعد هذه المظاهرات ، أن أولاد اليمن لا يكونون متفرجين ، كما كان الواقع منذ أربع سنين ، ولسان حالهم يقول نحن نرتاح وعساكر الترك يحافظون على حدود بلادنا ، بل يسعى كل صغير وكبير منهم ويتقدم بالغيرة التى لا تعرف الملل إلى إيفاء واجباتهم الدينية والوطنية . أما نحن الأغراب ، فجهادنا المملوء بالشرف فى الدفاع داخل الخنادق مع الحرمان التام من الوسائل قد ختم. ومن الآن فإن دور الجهاد حربيًا وسياسيًا وإداريًا لإخواننا العرب ، فالوظيفة الإنسانية الأولى التى تترتب على عموم أولاد اليمن ، أن يقوموا بالمعونة من كل الوجوه للعثمانيين فى إيصالهم إلى أوطانهم وأمهاتهم سالمين ، وأن يبذلوا المروءة والسعى فى ذلك شكرًا ومكافأة للعثمانيين للمحافظة على وطنهم إلى الآن ، واستشهاد الآلاف منهم فى سبيل دفع العدو من أن يستولى على شبر من أرضهم .

وأؤمل أن يعترف بذلك حضرة الإمام فقبل كل أحد ، إن الواجبات القطعية للأحوال العمومية ، والأوامر الصريحة من مركز السلطنة ، يستلزم مع الأسف وداع العثمانيين لإخوانهم العرب المحترمين بعيون دامعة . ولم يبق محل هناك للتفسير والتأويل . وإنى أنتظر وصول كتابكم الذى ذكرتموه ، ولكنى أستغرب التوصية لنا بالثبات من جنابكم . فالتمدح بالنفس عيب . وإنما التلغرافات الواردة من كل الجهات أجبرتنى على القول بأنه لا ينكر أحد ما لقيناه فى اليمن مدة أربع سنين من دروس الثبات والغيرة والشجاعة ،

وما بعثناه فى هذا الفيلق الذى كان فى حالة العجز والجمود فى بداية الحرب ، من روح الحركة والفتح والاسترداد للبلاد ، وجعلناه مثالاً لمن يقتدى به . ويعترف لى بذلك المخالفون أهل الحسد ، وإنى وإن كنت أشكر كلمات جنابكم ، وكلمات حضرة الإمام اللطيفة ، ولكنى أحتج على مثل تلك التواصى من الذين لا عمل لهم ولا أمل منذ أربع سنين سوى إملاء رؤوسهم ومعدهم ببخار العرق (الخمر) وملء صناديقهم بذهب هو ثمن دماء أولاد العثمانيين ، إن العساكر جميعًا بلحج مراض (مرضى) ومسببو مصائبهم بصنعاء ، فإذا أمكن انتظارنا فى لحج للأمر الأخير من حكومتنا ، فسنجتهد يا حضرة الباشا المحترم » .

قائد منطقة الحركات بلحج

أمير اللواء

على سعيد

١٢ تشرين ثان سنة ١٣٣٤ رومى

- ٥ -

المعاهدة اليمنية الإيطالية[1]

٢ سبتمبر سنة ١٩١٨

ترجع أهمية هذه المعاهدة إلى أنها أول معاهدة يعقدها الإمام يحيى مع دولة أجنبية ، وإلى أنها أول اعتراف دولى باستقلال اليمن وبأن الإمام ملكًا مستقلاً . وتعتبر المعاهدة كذلك تتويجًا لمجهودات إيطاليا الدبلوماسية فى المنطقة ، وفى مجال منافستها الاستعمارية مع إنجلترا بالذات .

وقد أدى هذا التعاهد إلى أن إيطاليا تمتعت بالحظوة والنفوذ فى اليمن طوال عهد الإمام يحيى - بل حتى نهاية حكم أسرته . وحرصت المعاهدة على تنظيم العلاقات بين الدولتين ، كما نصت على أن تقدم إيطاليا كل مساعدة إقتصادية وفنية لليمن ، وأن تقوم بينهما علاقات تجارية . وكانت مدة سريان المعاهدة عشر سنوات وجددت فعلاً عند نهاية هذه المدة . ونظرًا لأهميتها وللظروف التى لابستها حينئذ ، فقد نشر نصها فى صحف القاهرة وبغداد ودمشق فى آن واحد . وقد تبادلت الدولتان التصديق عليها فى ٢٢ ديسمبر ١٩٢٦ . وقد راجعنا هذا النص على ما نشر بالأهرام يومئذ . (راجع ص ٢٩١) .

مادة ١ : تعترف حكومة جلالة ملك إيطاليا باستقلال حكومة اليمن وملكها جلالة الإمام يحيى الاستقلال المطلق الكامل . ومع هذا فلا تداخل (تتدخل) حكومة إيطاليا المشار إليها فى مملكة جلالة ملك اليمن الإمام بأى أمر من الأمور التى تناقض ما فى الفقرة الأولى من هذه المادة .

(١) الواسعى : تاريخ اليمن ، ص ٣٤٥ - ٣٤٨

Hurewitz : Diplomacy in the Near and Middle Fast, Vol. II, pp. 146 - 147.

مادة ٢ : تتعهد الدولتان بتسهيل التبادل فى التجارة بين بلاديهما .

مادة ٣ : حكـومة جـلالة ملك اليمـن تصرح بأنها ترغب أن تجلب طلبـاتها من إيطاليـا ، وذلك فى الأشياء والآلات الفنية التى تساعـد بجلب الفائدة فى نمو اقتصاد اليمن ونفعه ، وكذلك فى الأشخاص الفنيين . والحكومة الإيطـاليـة تصرح بأنها تبـذل جهدهـا حتى يصير إرسـال الأشخـاص والآلات الفنية والأشياء بأنسب وجه فى الأنواع والأثمان والرواتب .

مادة ٤ : مـا ذكر فى المـادة الثانيـة والثالثـة لا يمنع حريـة الطرفين فى التجـارة والمطلوبات .

مـادة ٥ : ليس لأحـد من تجار المملكتين أن يجلب ويتجـر فيما تمنعـه إحـدى الدولتين فى بلادها ، ولكل من الـدولتين أن تصادر ما جلب إلى بلادها مما تمنع جلبه والتجارة فيه بعد الإشعار .

مادة ٦ : هذه المعـاهدة لا يكـون معمولاً بها إلا من حين تصل إلى جـلالة ملك اليمن الإمام يحيى مصدقة من جلالة ملك إيطاليا .

مادة ٧ : تكـون هذه المعـاهدة جـارية ومعمـول بها لمدة عشر سنوات من بعـد تصديقها ، كما فى المادة السادسة ، وقبل انقضاء مدة هذه المعاهدة بستة أشهر إذا أراد الطـرفان تبـديلها بغيرها أو تمديـدها ، كـانت المذاكرة فى ذلك .

مـادة ٨ : ولمـا حـرر فى هـذه المواد فجـلالـة ملك اليمن الإمـام يحيى وسعـادة كفـاليرى غاسبـارينى بـالـوكالـة عن ملك إيطاليـا قـد أمضـيا هـذه المعـاهـدة المحـررة من نسـختين متطـابقتين باللـغة العـربية والإيطاليـة . ولعـدم وجـود من يعـرف الترجمـة عن اللغـة الإيطـالية معـرفة تـامة لـدن جـلالة مـلك اليمـن ، ولأن المفاوضـة التى تمت

بين الطرفين بعقـــد الودية التجــارية كان التفاهم فيها باللغة العربية ، ولأن سـعادة كفاليرى غاسبارينى قد تأكد أن النص العربى هو مطابق للنص الإيطالى تمامًا ، لذلك اتفقنا بأنه إذا نشأت شــكوك أو اختلاف فى تفسير النصين العـربى والإيطـالى ، فـالطـرفـان يعتمـــــدان النص العــربى وتفســيره بأصــول اللغة العربية واعتبار هـذا شرطًا .



- ٦ -

معاهدة مكة المكرمة[1]

بين الملك عبد العزيز آل السعود وبين الحسن الإدريسى

١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٤٥هـ (٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٦م)

توضح هذه المعاهدة نوع العلاقات التى كان من الممكن أن تنشأ بين الوحدات السياسية فى الجزيرة العربية حتى النصف الأول من القرن العشرين . وهى معاهدة حماية فى المقام الأول أدت إليها الظروف التاريخية الخاصة بالمنطقة ، وكانت نتيجة مباشرة لضعف الإمارة الإدريسية الذاتى بعد وفاة مؤسسها السيد محمد الإدريسى ، ومحاولة الإمام يحيى الاستيلاء على الإمارة بالقوة ، مما دفع الأدارسة إلى الالتجاء إلى ابن السعود . وتنص المعاهدة على أن يتمتع الأدارسة باستقلالهم الذاتى فى إدارة إمارتهم ، على أن يكونوا تحت حماية الملك عبد العزيز آل السعود ، ويتضح فى المعاهدة بعض القيود التى فرضت على الإمارة - وخاصة فى الشئون الخارجية .

وتعتبر المعاهدة نقطة انطلاق النزاع بين المملكة اليمنية والمملكة السعودية . الذى انتهى بحرب عام ١٩٣٤ بين الدولتين ، كما تعتبر المعاهدة بداية اندماج عسير فى المملكة السعودية. (راجع ص ٣٢٣).

« رغبة فى توحيد الكلمة ، وحفظًا لكيان البلاد العربية ، وتقوية الروابط بين أمراء الجزيرة العربية ، قد اتفق صاحب جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وصاحب السيادة إمام عسير السيد الحسن بن على الإدريسى على عقد الاتفاقية الآتية :

(١) المنار : المجلد ٢٧ ، الجزء ١٠ ، ص ٧٩٨ - ٦٩٩ .

المادة الأولى : يعترف سيادة الإمام السيد الحسن بن على الإدريسى بأن الحدود القديمة الموضحة فى اتفاقية ١٠ صفر سنة ١٣٣٩هـ المنعقدة بين سلطان نجد و بين الإمام السيد محمد بن على الإدريسى ، والتى كانت خاضعة للأدارسة فى ذلك التاريخ ، تحت سيادة جلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بموجب هذه الاتفاقية .

المادة الثانية : لا يجوز لإمام عسير أن يدخل فى مفاوضات سياسية مع أى حكومة ، وكذلك لا يجوز أن يمنح أى امتياز اقتصادى إلا بعد الموافقة على ذلك من صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها .

المادة الثالثة : لا يجوز لإمام عسير إشهار الحرب ، وإبرام الصلح ، إلا بموافقة صاحب الجلالة ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها .

المادة الرابعة : لا يجوز لإمام عسير التنازل عن جزء من أراضى عسير المبينة فى المادة الأولى .

المادة الخامسة : يعترف ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها ، بحكم إمام عسير الحالى على الأراضى المبينة فى المادة الأولى مدى حياته ومن بعده لمن يتفق عليه الأدارسة وأهل العقد والحل التابعين لإمامته .

المادة السادسة : يعترف ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها بأن إدرة بلاد عسير الداخلية والنظر فى شئون عشائرها ، من نصب وعزل وغير ذلك من الشئون الداخلية ، من حقوق إمام عسير ، على أن تكون الأحكام وفق الشرع والعدل كما هى فى الحكومتين .

المادة السابعة : يتعهد ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها ، بدفع كل تعدٍ داخلى أو خارجى يقع على أراضى عسير المبينة فى المادة الأولى وذلك بالاتفاق بين الطرفين حسب مقتضيات الأحوال ودواعى المصلحة.

المادة الثامنة : يتعهد الطرفان بالمحافظة على هذه المعاهدة والقيام بواجبها .

المادة التاسعة : تكون هذه المعاهدة معمولاً بها بعد التصديق عليها من الطرفين الساميين .

المادة العاشرة : دونت هذه الاتفاقية باللغة العربية من صورتين تحفظ كل صورة لدى فريق من الحكومتين المتعاقدتين .

المادة الحادية عشر : تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة مكة المكرمة .

وقعت هذه المعاهدة فى ١٤ ربيع الآخر ١٣٤٥هـ الموافق ٢١ أكتوبر ١٩٢٦م .



- ٧ -

معاهدة جدة[1]

بين بريطانيا والملك عبد العزيز آل السعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

٢١ ربيع الأول سنة ١٣٤٦هـ (١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٧م)

كان الغرض من عقد هذه المعاهدة هو الاعتراف باستقلال المملكة العربية السعودية واستقلال ملكها وهى تلغى فى نفس الوقت معاهدة الحماية التى عقدت سنة ١٩١٥ بين بريطانيا وبين عبد العزيز آل سعود أمير نجد حينئذ، ويتضح هذا من نص المادة (٩). ويلاحظ أن بريطانيا حرصت فيها على تحقيق جميع مصالحها، مثل قيام العلاقات الودية بين البلدين، وتسهيل تأدية فريضة الحج للمسلمين الذين تحت حكم بريطانيا أو حمايتها، وتعهد ابن السعود بالحرص على العلاقات الودية مع الكويت والبحرين ومشايخ قطر والساحل العمانى، الذين لهم معاهدات خاصة مع بريطانيا والرجوع إلى النص الإنجليزى للمعاهدة إذا اقتضت الحاجة (راجع ص ٣٣٤).

المادة الأولى : الاعتراف بالاستقلال المطلق لمالك صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها .

المادة الثانية : سيادة السلم والصداقة بينهما، والمحافظة على حسن

---

(١) المنار : المجلد ٢٨، الجزء ٨، ص ٦٠٢ - ٦٠٦ (العدد الصادر فى ٣٠ ربيع الآخر ١٣٤٦هـ الموافق ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٢٧) ونقلتها جريدة المنار عن جريدة «أم القرى» السعودية الصادرة فى مكة فى ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٤٦هـ.

العـلاقات ، وعـدم استعمال بلد كل منهما قـاعـدة عدوانيـة ضد الأخـرى ، أو للأعمال غير المشروعة .

المادة الثالثة : تسهيل أداء الحج للـرعـايـا البريطـانيين ، والأشخـاص المتمتعين بالحماية البريطانية من المسلمين .

المادة الرابعة : تسـليم مخلفـات الحجـاج إلى المعتمد البريطانى لمـن لا يوجد من يخلفه معه .

المادة الخامسة : الاعتراف بجنسية رعـايا كل منهما عنـدما يـوجدون فى بلاد الآخر ، على أن تراعى قواعد القانون الدولى .

المادة السادسة : يتعهد ملـك الحجاز ونجد بعـلاقات الـود والسلم مع الكـويت والبحرين ومشـايخ قطر والسـاحل العمانى ، الـذين لهم معاهـدات خاصة مع صاحب الجلالة البريطانية .

المادة السابعة : التعهد بـالتعاون بكل الوسائل الممكنـة على إبطال تجارة الرقيق .

المادة الثامنة : إبرام هذه المعاهدة ، وتعتبر نافذة من تاريخ تبادل الإبرام ويعمل بهـا لمدة ٧ سـنوات . وتبقى نافـذة إذا لم يعلن أحـد الفريقين قبل انتهاء ٧ سنوات بستـة أشهر رغبته فى إبطالها ، وتعتبر بـاطلة بعد مرور ستـة أشهر من تاريخ إعلان أحدهما إبطالها للآخر .

المادة التاسعة : المعاهـدة المعقودة بينهما فى ٢٦/ ١٢/ ١٩١٥ ملغـاة من تاريخ إبرام المعاهدة .

المادة العاشرة : دونت باللغتين العربية والإنجليزية ، وعند الاختلاف يرجع إلى النص الإنجليزى .

المادة الحادية عشر : تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة جدة .

وقعت فى جدة يوم الجمعة ١٨ ذى القعدة ١٣٤٥هـ (٢٠ مايو سنة ١٩٢٧م) وتبودل الإبرام فى ٢١ ربيع الأول سنة ١٤٣٦هـ (١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٧م) .



- ٨ -

معاهدة صنعاء(١)

بين المملكة المتوكلية اليمنية والاتحاد السوفيتى

١١ جمادى الأول سنة ١٣٤٧هـ (أول نوفمبر ١٩٢٧م)

أحدثت هـذه المعاهدة دويًّا كبيرًا فى الأوساط الدولية والعـربية عند عقـدها ؛ لأنها كانت أول معاهـدة تعقدها بلـد عربى مع الاتحاد السوفيتى ، فى وقت كان الشرق العربى مغلقًا أمام السوفيت نظرًا لوقوع معظم بلـدانـه تحت الاستعمارين الإنجليـزى والفـرنسى . وقـد انتهـز الاتحاد السوفيتى الفرصة فأسرع إلى الاتصـال بالإمام يحيى والملك عبد العزيـز ، لأنهما كانـا الحاكمين العربيين المستقلين حينئـذ ، كما استغل الإمام يحيى الفرصة أيضًا ، فعقد هذه المعـاهدة لتقوية جانبه فى نزاعه مع إنجلترا ، ولإجبـارهم على التفـاهم معـه . وتحمل المعـاهـدة طـابع التودد والتعـاطف ، وتشير فى مقدمتها إلى أنها بـداية لعلاقـات أقوى وأعمق . وتنص المعـاهـدة - إلى جـانب الاعتراف بـاستقـلال اليمن وباستقلال ملكها الإمام يحيى - تنـص على تنظيم العلاقات التجارية بين البلدين ، وعلى ترتيب إقامة رعايا كل منهما فى بلد الآخر . (راجع ص ٣٣٨) .

بنـاء على الاستصـواب والاستنسـاب المتقـابل من كل من حكـومـة اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشـتراكية من طرف ، ومن حضـــرة صـاحب الجلالة ملك اليمن الإمام يحيى ابن الإمام محمـد حميد الدين وحكومتـه من طرف آخر ،

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ١٨٧ - ١٨٩ .
J C. Hurewitz, : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol, II, pp. 177 _ 178.

ورغبة الطرفين فى تأسيس المناسبات الرسمية الاعتيادية ، وفتح الصلات الاقتصادية بين بلاديهما ، وترقيتها وبنائها على أساس الصدق فى تنظيم العلاقات الودية بين الحكومتين وشعوبهما ، والاعتراف بالتساوى بين الطرفين فى كافة الحقوق وأحكامها العامة المرعية بين الدول والملل .

قد اتفق الطرفان المشار إليهما على عقد معاهدة الود والصداقة والتجارة هذه ، واعتبارها كمقدمة لما تستدعيه وتقتضيه الظروف المستقبلة عند ترقى الصلات الاقتصادية بين البلدين وتوسعها من إجراء المذكرات والسعى من الحكومتين المشار إليهما فى تنظيم الاتفاقات اللازمة كمثل تجارة وغيرها ، مما يرتضيه الطرفان ، فقررا الآن ما هو آت :

المادة الأولى : تعترف حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية بالاستقلال الكامل المطلق لحكومة اليمن ولملكها صاحب الجلالة الإمام يحيى ابن الإمام محمد حميد الدين . ويقدر صاحب الجلالة ملك اليمن وحكومته صورة الاحترام الخالص والحسيات الجميلة التى تضمرها حكومة اتحاد الجمهويات السوفيتية الاشتراكية لدولة اليمن وشعبها وسائر الشعوب الشرقية، ووفاقًا لهذا فقد تأسس بين الطرفين المتعاهدين المناسبات الرسمية بموجب المقدمة المحررة آنفًا .

المادة الثانية : يتعهد الطرفان المتعاقدان بتسهيل المبادلات التجارية بين الدولتين ، ووفقًا لهذا التعهد يكون لكل من رعايا الدولتين فى بلاد الدولة الأخرى بعد الحصول على الإذن منها الدخول والإقامة طبق نظمها ، والعمل بالتجارة وإجراء معاملاتها التى تقتضيها على شريطة أن يكون فصل القضايا التى تحدث لكل من رعايا الطرفين فى المحاكم المحلية للدولة التى يوجدون فيها وفق نظمها ، وأن ما كان ممنوع الاتجار به فى قوانين إحدى الدولتين فلكل منهما منع أو مصادرة ما وجد فى بلدها من ذلك . ويتعهد

الطرفان المتعاقدان أن يساعدا بتطبيق كل تسهيل موافق للنظم المحلية فى معاملات رعايا الدولتين فى التجارة فيما يختص بالضرائب والرسوم الجمركية .

المادة الثالثة : توضع هذه المعاهدة فى موضع التطبيق وإجراء من الحكومتين بعد إمضائها وتصديقها على مقتضى الأصول الرسمية المعتادة من طرف حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية اعتبارًا من يوم وصول التصريح الرسمى من الحكومة المشار إليها إلى جلالة ملك اليمن الإمام يحيى.

المادة الرابعة : معاهدة الود والصداقة والتجارة هذه معمول بها وموضوعة فى موضع العمل والتطبيق مدة عشر سنوات اعتبارًا من التاريخ الذى ذكر فى المادة الثالثة ، وعند انقضاء المدة المذكورة يمكن تمديدها أو تبديلها بغيرها راجعًا إلى رغبات الطرفين المتعاقدين وما سيتفقان عليه فى المستقبل .

المادة الخامسة : تسمى هذه المعاهدة معاهدة صنعاء ، وهى تشتمل على مقدمة وخاتمة وخمس مواد ، هذه المادة إحداها ، وقد نظمت فى نسختين باللغة العربية لتداولهما بين الطرفين المتعاقدين .

الخاتمة : لكى تكون هذه المعاهدة مهيأة لاكتسابها صفة التصديق النهائى ، حسبما نصت عليه المادة الثالثة والرابعة ، قد أمضيت فى صنعاء عاصمة اليمن من طرف معتمد حكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية حضره آسناخوف بالنيابة عن حكومته المشار إليها ، ومن طرف الإمام حضرة القاضى محمد راغب المندوب عن جلالة ملك اليمن الإمام المشار إليه ، بعد اتفاقهما على ما حوته من العبارات والمعانى الدالة عليها اتفاقًا تامًّا كاملاً ، وتحريرها فى ١٧ جمادى الأولى ١٣٤٧ هـ الموافق أول نوفمبر سنة ١٩٢٨ م .

- ٩ -

معاهدة (العرو)[١]

بين المملكة المتوكلية والمملكة العربية السعودية

(وقعت فى ١٥ ديسمبر ١٩٣١ ، ووفق عليها فى يناير ١٩٣٢)

تعتبر هذه المعاهدة محاولة لإنهاء النزاع الذى نشب بين الإمام يحيى والملك عبد العزيز بعد أن أعلن الأخير حمايته على الأدارسة فى عسير . وقام هذا النزاع بسبب الاختلاف بين الملكين حول ملكية جبل « عرو » فى عسير على الحدود اليمنة السعودية . وقد انتهى النزاع بتنازل الملك عبد العزيز عن ملكية هذا الجبل للإمام يحيى . والمعاهدة تقليدية فى جوهرها فهى تنص على حسن الجوار والمحافظة على العلاقات الودية بينهما ، كما تنظم إقامة رعايا كل منهما فى الأخرى ، وتسليم هؤلاء لحكومتهم إذا اقتضت الضرورة ، وغير ذلك من المسائل التى تهم بلدين متجاورين تربطهما علاقات طيبة.(راجع ص ٣٤٦).

حسب الأمر من سيادة الإمام الأعظم يحيى بن محمد حميد الدين ، وجلالة الملك المعظم عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، قد اجتمعنا من طرف الملكين لعقدة اتفاقية بين الحكومتين بموجب المواد المبينة أدناه .

المادة الأولى : أن يكون على الدولتين المحافظة على الصداقة وحسن الجوار وتوثيق عرى المحبة وعدم إدخال الضرر ببلاد كل منهما على الآخر .

المادة الثانية : يكون على كل من الدولتين تسليم المجرمين السياسيين وغير السياسيين المحدثين بعد هذه الاتفاقية، كل حكومة عند طلب حكومته له.

---

(١) وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات اليمنية السعودية (الكتاب الأخضر) ص ٢٢ - ٢٣ .

Survey of International Affairs, 1934, p, 313.

المادة الثالثة : يكون على كل من الدولتين معاملة رعـايا الدولة الأخرى فى بلادها فى جميع الحقوق طبق الأحكام الشرعية .

المادة الرابعة : يكون على كل من الدولتين الضبط والتسليم لرعايا الدولة الأخرى فى كل الحقوق الشرعية فيما أشكل ولم ينهه الأمراء ولا العمال فمرجعه إلى الملك والإمام .

المادة الخامسة : على كل من الدولتين عدم قبول من يفـر من طاعة دولته كبيرًا أو صغيرًا مستخدمًا أو غير مستخدم وإرجاعه إلى دولته حالاً .

المادة السادسة : إذا حـدث حادث من أحـد رعايـا الحكومتين فى بـلاد الأخرى فعلى المحدث أن يحاكم فى المحاكم التى وقع فيها الحادث .

المادة السابعة : منع الأمـراء والعمال عن التـداخل بالـرعـايا مما يحدث القلق ويوقع سوء التفاهم بين الدولتين .

المادة الثامنة : أن كل من يسكن من رعـايا الطـرفين فى بـلاد الآخر بعـد هذه الاتفاقية وتطلبه حكومته فإنه يساق إلى حكومته حالا .

هذا مـا حصل به التراضى بين المنـدوبين على أن يكون العمل بهذه الثمان مواد بعـد مصادقـة وموافقـة الملكين المعظمين عليها (وتحرر مـا ذكر أعـلاه من صـورتين بين كل فـريق صـورة بتـاريخ اليـوم الخامس من شهـر شعبـان سنـة ١٣٥٠هـ - ١٥ ديسمبر سنة ١٩٣١) .

صـدق على هـذه المعـاهـدة وأصبحت سـاريـة المفعـول فى ١٥ رمضـان ١٣٥٠هـ (يناير سنة ١٩٣٢) .



- ١٠ -

معاهدة الصداقة والتعاون المتبادل
بين اليمن وبريطانيا[١]
١١ فبراير ١٩٣٤

تأخر عقد هذه المعاهدة طويلاً نظرًا للظروف الخاصة بالعلاقات اليمنية البريطانية ، فمنذ نهاية الحرب العالمية الأولى والدولتان على خلاف ؛ مما أعطى إيطاليا والاتحاد السوفيتى الفرصة إلى أن يسبقا بريطانيا فى عقد معاهدتيهما مع الإمام يحيى . وتعتبر المعاهدة أول اعتراف رسمى من جانب بريطانيا باستقلال اليمن ، وباستقلال ملكها الإمام يحيى .

وقد أخرت بريطانيا إبرام هذه المعاهدة إلى سبتمبر سنة ١٩٣٤ ، وذلك حتى ينفذ الإمام يحيى مطالبها كلها ، وهى الإفراج عن الأسرى الذين قبض عليهم الإمام من أهالى المحميات ، والجلاء عن أجزاء المحميات التى احتلها الإمام أثناء الفترات السابقة .

ويلاحظ أن إنجلترا هى التى أحرزت الكثير من وراء عقد هذه المعاهدة ، فهى تنص على تأجيل البت فى مسألة الحدود ، وإلزام الإمام بمراعاة علاقات الود وحسن الجوار ، وجعل مدة العمل بالمعاهدة أربعين عامًا - وهى مدة طويلة تلفت النظر . وقد تحدثنا عن المعاهدة كثيرًا فى الرسالة وعن مقدماتها وعواملها ونتائجها ، وذلك نظرًا لأهميتها ولآثارها فيما بعد . (راجع ص ٣٧٢) .

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ٢١٢ - ٢١٤ .
Hurewitz, : Diplomacy in the Near and Middle East, Vol, II, pp. 196 _ 197 .

المقــدمة : بما أن لجلالة ملك اليمن حضــرة الإمـام من جهـة ، وملك بريطـانيا العظمى وأيرلنـدا والممالك البريطانيــة خلف البحـار وقيصــر الهند من الجهـة الأخــرى ، رغبة فى الـوصول إلى معـاهدة على أســاس الصــداقة والتعــاون لمنفعـة الفـريقين ، قـد قررا عقــد هــذه المعاهــدة ، وعينا بصــفة المندوبين المفوضــين .

عن جـلالة ملك اليمن حضرة الإمـام حضرة صـاحب السعادة القـاضى محمد راغب بن رفيق .

وعن جلالـة ملك بريطـانيا العظمى وأيـرلندا والممالك البريطـانية خلف البحـار وقيصر الهنـد وأيـرلنـدا الشماليــة حضرة صـاحب السعـادة اللفتيننت كولـونيل برنـارد راودون ريلى س . ى . أوب المحــترم اللذين بعـد تبليغ أوراق تفويضهما وتحقيق صحتها على شكل حسن اتفقا على ما يأتى :

المـادة الأولى : يعترف جـلالة ملك بـريطانيـا العظمى وأيرلنـدا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند باستقلال جلالة ملك اليمن حضرة الإمام ومملكته استقلالاً كاملاً مطلقًا فى جميع الأمور مهما كان نوعها .

المادة الثانية : يسود السلم والصداقة بين الفـريقين المتعاهدين الساميين اللذيـن يتعهدان بالمحـافظة على حسن العـلائق (العلاقـات) بينهما من جميع الوجــوه .

المادة الثالثة : يؤجل البت فى مسألة الحدود اليمنيـة إلى أن تتم مفاوضات تجرى بينهما قبل انتهاء مدة هذه المعاهدة بما يوافق الفريقان المتعاهدان الساميان عليه بصورة ودية وباتفاق كامل بدون إحداث أى منازعة أو مخالفة .

وإلى أن تتم المفاوضـات المشار إليها فى الفقـرة السالفة الـذكر فالفـريقان المتعاقـدان الساميان يـوافقان على بقاء الـوضع القائم بالنسبـة للحدود كما هى

عليه عند تاريخ توقيع هذه المعاهـدة ، وأن يمنعا بكل ما لديهما من الوسائل أى تعد مـن قواتهما فى الحدود المذكورة ، وأى تـدخل من أتباعهما أو مـن جانبهما فى شئون الأهالى القاطنين فى الجانب الآخر من الحدود المذكورة .

المـادة الرابعة : سيعقد الفـريقان المتعـاهدان الساميان بعـد أن تصبح المعـاهدة الحاليـة نـافـذة المفعول ، وبنـاء على الموافقـة المتبـادلة ، مـا يلـزم من المعاهـدات لتنظيم الأمور التجـارية والاقتصـادية على أسـاس المبادئ الـدولية العــامة .

المادة الخامسة :

١ - رعايـا كل من الفريقين المتعـاهدين الساميين الـذين يرغبـون فى التجارة فى أقاليم الفريق الآخـر يكونون تابعين للقوانين والأحكـام المحلية ، ويتمتعون بنفس المعاملة التى يتمتع بها رعايا الدولة الأكثر رعاية .

٢ - كـذلك سفن كل من الفـريقين المتعـاقدين السـاميين وشحنـاتها تتمتع فى موانى الفريق الآخر بنفس المعاملة التى تتمتع بها سفن الدولة الأكثر رعاية وشحناتها ، وتعـامل ركاب تلك السفن فى موانى بلاد الفـريق الآخر بنفس ما يعامل به من كان فى سفن الدولة الأكثر رعاية هنالك .

٣ - تنفيذا لأغـراض هذه المادة فإن مـا يتعلق بجلالـة ملك بريطـانيا العظمى وأيرلندا والممالك البريطانية خلف البحار وقيصر الهند .

(أ) كلمة (أقاليم) ينبغى أن يعد معناها مملكة بريطانيا العظمى المتحدة وأيرلنـدا الشمالية والهنـد وجميع مستعمرات جـلالته والبـلاد المحمية وجميع البـلاد المنتـدب عليهـا من قبل حكـومة جـلالتـه فى المملكـة المتحدة .

(ب) كلمة (رعايـا) ينبغى أن يعد معناها جميع رعايا جـلالته أينما سكنوا ، وجميع أهالى البـلاد التى تحت حماية جلالته ، وكـذلك جميع الشركات المؤسسة فى أى بلد من بلاد جلالته تعتبر من رعايا جلالته .

(جـ) كلمة (سفن) ينبغى أن يعـد معناها جميع السفن التجاريـة المسجلة فى أى بلد من بلاد اتحاد الشعوب البريطانية .

المـادة السادسـة : هـذه المعاهـدة تكون أسـاسًـا لكل الاتفاقيـات التى ستعقد بعـد ذلك بين الفـريقين المتعاهديـن الساميين حـاليًا ومستقبـلاً بقصد تقويـة الود والصـداقة ، ويتعهـد الفريقان المتعـاهدان السـاميان بعـدم تقديم المساعدة لأى عمل موجه ضد الـود والصداقة المخلصة القائمة بينهما أو التستر عليه .

المادة السابعة : يصدق على هذه المعاهدة بأسرع وقت ممكن بعد التوقيع، وتتبـادل وثائق التصـديق فى صنعاء ، ويعمل بها من تـاريخ تبادل التصـديق ، وتبقى معمـولاً بها لمدة أربعين سنة . وتقـريـرًا لذلك وقع المنـدوبـان المفوضـان المشـار إليهما إمضاءهما على المعـاهدة الحاضرة ، وقـد كتبت هـذه المعاهـدة من نسختين باللغتين الإنجليـزية والعربيـة ، وإذا نشأت شكوك فى تفسير شىء من هـذه المواد فالفريقان المتعاهدان الســاميان يعتمدان النص العـربى .

حررت فى صنعاء اليمن فى يوم ٢٦ من شهـر شوال سنة ١٣٥٢هـ الموافق ١١ فبراير سنة ١٩٣٤م .



- ١١ -

معاهدة الطائف[١]

بين المملكة المتوكلية اليمنية والمملكة العربية السعودية

٦ صفر سنة ١٣٥٣هـ (١٩ مايو سنة ١٩٣٤م)

أنهت هـذه المعاهـدة المنازعـات التى كانت قـائمـة بين اليمن والمملكة السعودية بسبب الاختلاف على ملكية بعض مناطق الحدود ، وغيرهـا من المسـائل المعلقـة التى تنشب عـادة بين بلـدين تجاورت حدودهما وتشابكت مصالحهما .

وتعتبر المعاهـدة نتيجة مباشرة للحـرب التى دارت رحـاها لمدة سبعة أسابيع ، والتى نصت المعاهدة فى مادتها الأولى على وقفها . وقـد اتصـفت المعـاهدة حينئـذ بأنها « أنشـودة من أناشـيد الوحـدة العـربية » . وهى رغم المبـالغة فى هـذا الوصف - معاهـدة شاملـة ، احتوت على كثير من التفصيلات مثـل : تحديد نقاط الحـدود والقبائل ، أو القـرى التى يمـر بها خط الحدود ، وكـذلك تنظيم العـلاقـات بين حكام هـذه المناطق ، وغير ذلك من الأمور الخاصة بتنظيم العـلاقات بين جـارتين عـربيتين ، ولـذلك كلـه فهى تعتبر أطـول معاهـدة عقـدها الإمام يحيى . ويـلاحظ أن هـذه المعـاهدة نصـت على ضم منطقتى عسـير ونجـران إلى المملكـة العربيـة السعـودية كما أنها

(١) نزيـه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص ١٩٢ - ٢٠٢ (ونظرًا لأهميتها واهتمام العالم العربى حينئذ بأحداث الحرب اليمنية السعودية ، فقد نشرت جميع الجرائد العـربيـة فى عـواصـم العـالم العـربى نص هـذه المعـاهـدة ، انظـر الأهـرام فى ١٩٣٤/٦/٢٤ ، ص ٢) .

توضح نوع العلاقات والصلات التى ربطت بين البلدين . وقد ألحق بالمعهد نص آخر عرف « بعهد التحكيم » يبين كيفية إنهاء المشاكل التى يمكن أن تثور بين البلدين - وخاصة مشاكل الحدود - عن طريق التحكيم ، حتى لا تؤدى هذه المشاكل إلى قيام الحرب بين البلدين مرة أخرى . وقد نالت هذه المعاهدة اهتمامنا كثيرًا فى الرسالة . (راجع ص ٤٠٦) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده .

نحن الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ملك المملكة اليمانية ، بما أنه قد عقدت بيننا ـ وبين حضرة صاحب الجلالة الملك الإمام عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة السعودية ، معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية لإنهاء حالة الحرب الواقعة لسوء الحظ بيننا وبين جلالته ، ولتأسيس علاقات الصداقة الإسلامية بين بلاديهما ، ووقعها مندوب مفوض من قبلنا ومندوب مفوض من قبل جلالته وكلاهما حائزان للصلاحية التامة المتقابلة، وذلك فى مدينة جدة فى اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف وهى مدرجة مع عهد التحكيم والكتب الملحقة بها فيما يلى :

معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية
بين المملكة اليمانية وبين المملكة العربية السعودية

حضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ملك اليمن من جهة.

وحضرة صاحب الجلالة الإمام عبد العزيز عبد الرحمن الفيصل آل سعود ملك المملكة العربية السعودية من جهة أخرى .

رغبة منهما فى إنهاء حالة الحرب التى كانت قائمة لسوء الحظ فيما بينهما وبين حكومتيهما وشعبيهما ، ورغبة فى جمع كلمة الأمة الإسلامية العربية ورفع شأنها وحفظ كرامتها واستقلالها .

ونظرًا لضرورة تأسيس علاقات عهدية ثابتة بينهما وبين حكومتيهما وبلاديهما على أساس المنافع المشتركة والمصالح المتبادلة :

وحبًّا فى تثبيت الحدود بين بلاديهما وإنشاء علاقات حسن الجوار وربط الصداقة الإسلامية فيما بينهما وتقوية دعائم السلم والسكينة بين بلاديهما وشعبيهما .

ورغبة فى أن يكونا عضدًا واحدًا أمام الملمات المفاجئة وبنيانًا متراصًّا للمحافظة على سلامة الجزيرة العربية قررا عقد معاهدة صداقة إسلامية وأخوة عربية فيما بينهما ، وانتدبا لذلك الغرض مندوبين مفوضين عنهما وهما :

عن حضرة صاحب الجلالة ملك اليمن حضرة صاحب السيادة السيد عبد الله بن أحمد الوزير .

وعن حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية حضرة صاحب السمو الملكى الأمير خالد بن عبد العزيز نجل جلالته ونائب رئيس مجلس الوكلاء .

وقد منح جلالة الملكين لمندوبيهما الآنفى الذكر الصلاحية التامة والتفويض المطلق . وبعد أن اطلع المندوبان المذكوران على أوراق التفويض التى بيد كل منهما فوجداها موافقة للأصول ، قررا باسم مليكيهما الاتفاق على المواد الآتية :

المادة الأولى : تنتهى حالة الحرب القائمة بين مملكة اليمن والمملكة العربية السعودية بمجرد التوقيع على هذه المعاهدة ، وتنشأ فورًا بين جلالة

الملكين وبلاديهما وشعبيهما حـالة سلم دائم وصـداقة وطيـدة ، وأخوة إسـلامية عربية دائمة لا يمكن الإخلال بها جميعها أو بعضها . ويتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بأن يحلا بـروح الود والصداقة جميع المنازعات والاختـلافات التى قد تقع بينهما ، وبأن يسود علاقتهما روح الإخاء الإسـلامى العربى فى سائر المواقف والحالات ، ويشهـدان الله على حسن نـوايـاهما ورغبتهما الصادقـة فى الـوفـاق ، والاتفـاق سرًا وعلنًـا ، ويـرجـوان منه سبحـانـه وتعـالى أن يـوفقهما وخلفـاءهما وورثاءهما وحكومتيهما إلى السير على هذه الخطة القـويمة التى فيها رضاء الخالق وعز قومهما ودينهما .

المادة الثانيـة : يعترف كل من الفـريقين السـاميين المتعـاقـدين لـلآخـر بـاستقلال كل من المملكتين إستقـلالاً تـامًا مطلقًـا وبملكيته عليهـا ، فيعترف حضرة صـاحب الجلالة الإمـام يحيى بن محمـد حميد الـدين ملك اليمن لحضرة صـاحب الجلالة الإمـام عبد العـزيـز ولخلفائه الشرعيين ، بـاستقلال المملكـة العـربية السـعودية استقـلالاً تـامًا مطلقًـا ، وبـالملكية على المملكـة العربيـة السعوديـة ، ويعترف حضرة صاحب الجلالة الإمام عبـد العزيز بن عبـد الرحمن الفيصـل آل السعـود ملك المملكة العربية السعوديـة لحضرة صاحب الجلالة الإمام يحيى ولخلفائه الشرعيين باستقلال مملـكة اليمن استقلالا تامًا ، وبالملكية على مملكة اليمن . ويسقط كل منهما أى حق يـدعيه فى قسم أو أقسـام من بلاد الآخر خـارج الحدود القطعية المبينة فى صلب هـذه المعاهدة . إن جلالـة الإمام الملك يحيى يتنـازل بهذه المعاهدة عن أى حق يـدعيه بـاسم الوحـدة اليمانية أو غيرها فى البلاد التى هى بموجب هذه المعاهدة تابعة للمملكة العربية السعودية من البلاد التى كانت بيد الأدارسـة أو آل عايض أو فى نجران وبلاد يام ، كما أن جلالـة الإمام عبـد العزيز يتنـازل بهذه المعاهـدة عن أى حق يدعيـه من حماية واحتلال أو غيرهما فى البـلاد التى هى بموجب هـذه المعاهدة تـابعة لليمن من البلاد التى كانت بيد الأدارسة أو غيرها .

المادة الثالثة : يتفق الفريقان الساميان المتعـاقدان على الطريقة التى تكون بها الصـلات والمراجعات بما فيهـا حفظ مصـالح الطرفين وبما لا ضرر فيـه على أيهما ، على أن يكون ما يمنحه أحد الفريقين السـاميين المتعاقدين للآخر أقل مما يمنحه لفـريق ثالث ولا يـوجب هذا على أى الفـريقين أن يمنح الآخر أكثـر مما يقابله بمثله .

المادة الرابعة : خط الحدود الـذى يفصل بين بـلاد كل من الفـريقين الساميين المتعاقـدين موضح بالتفصيل الكـافى فيما يلى ، ويعتبر هذا الخط خطًّا فاصلاً قطعيًّا بين البلاد التى تخضع لكل منهما :

يبـدأ خط الحـدود بين المملـكتين اعتبـارًا مـن النقطة الفاصـلة بين «ميدى » و « الموسم » على سـاحل البحـر الأحمـر إلى جبـال تهـامة فى الجهـة الشـرقية ، ثم يرجع شمالاً إلى أن ينتهى إلى الحـدود الغربيـة الشمالية التى بين « بنى جماعة » ومن يقابلهم من جهـة الغـرب والشمال ثم ينحـرف إلى جهة الشرق إلى أن ينتهى إلى مـا بـين حـدود « نقعـة » و « وعـار » التابعتـين لقبيـلة « وائـلة » وبين حـدود « يـام » ثم ينحـرف إلى أن يبلغ مضيق «مـروان » و « عقبـة رفادة » ، ثم ينحـرف إلى جهـة الشـرق حتى ينتهى من جهة الشـرق إلى أطراف الحـدود بين من عـدا « يـام » من « همـدان بن زيد وائلى » وغـيره وبـين « يـام » فـكل مـا عن يمـين الخط المذكور الصـاعد من النقطـة المذكورة التى على سـاحل البحـر إلى منتهى الحـدود فى جميع جهات الجبـال فهـو من المملكة اليمانيـة ، وكـل مـا هو عن يسـار الخـط المذكور فهـو من المملكة العربية السعودية ، فما هو فى جهـة اليمين المذكـورة هـو « ميـدى » و « حـرض » وبعض قبيـلة « الحـرث » و « المـير » وجبـال «الظاهر » و « شـذا » و « الضيعـة » وبعض « العبـادل » وجميع بلاد وجبـال « رازح » و « منـبه » مـع « عـرو آل مشـيخ » وجميـع بلاد وجبـال « بنى جمـاعة » و « سحـار الشام يباد » وما يليها ومحل « مريصعـة » من سحار الشام

وعمـوم « سحار » و « نقعـة » و « وعـار » و عمـوم « وائـلة » وكذا الفـرع مـع « عقبة نهـوقة » وعمـوم من عـدا « يـام » و « وادعـة ظهـران » من « همـدان ابن زيـد » هؤلاء المذكـورون وبـلادهم بحـدودها المعلـومـة ، وكل ما هـو بين الجهـات المذكـورة وما يليهـا ممـا لم يـذكر اسمـه ، ممـا كان مرتبطـًا ارتباطـًا فعليًّا أو تحت ثبـوت يـد المملكة اليمـانية قبـل سـنة ١٣٥٢ هـ ، كل ذلك هـو فى جهـة اليمين فهو من المملـكة اليمانيـة ، ومـا هـو فى جهة اليســار المـذكورة وهو « الموســم » و « وعـلان » وأكـثر « الحـرث » و « الخـوبة » و « الجـابرى » وأكـثر « العبـادل » وجميـع « فيفـا » و « بنى مـالك » و « بنى حـريض » و « آل تليـد » و « قحطـان » و « ظهـران وادعة » وجميع « وادعـة ظهـران » مع مضيق « مـروان » و « عقبـة رفادة » ومـا خلفها من جهـة الشرق والشمال من « يام » و « نجـران » و « الحضـن » و « زور وادعة » وسـائر من هـو فى نجـران من « وائـلة » وكل مـا هـو تحت « عقبة نهوقـة » إلى أطـراف نجـران ويام من جهة الشرق ، هؤلاء المذكـورون وبلادهم بحدودها المعلومة ، وكل ما هـو بين الجهات المذكورة ومـا يليها ممـا لم يذكر اسمـه مما كان مـرتبطًا ارتباطاً فعليًّا أو تحت ثبـوت يد المملـكة العربية السعوديـة قبل سنة ١٣٥٢ هـ ، كل ذلك هو فى جهة يسار الخط المذكور فهو من المملكة العربية السعودية ، وما ذكر من يـام ونجـران و « الحضـن » و « زور وادعة » وسائر من هـو فى نجـران من وائـلة ، فهو بنـاء على ما كـان من تحـكيم جـلالة الإمام يحيى لجـلالة الملك عبـد العزيـز فى « يام » والحكم من جـلالـة الملك عبد العـزيز بأن جميعهـا تتبع المملكة العربيـة السعودية ، وحيث إن « الحضـن » و « زور وادعـة » ومن هـو من وائلـة فى نجـران هم من وائلـة ، ولم يكن دخـولهم فى المملكـة العـربية السـعودية إلا لمـا ذكـر ، فـذلك لا يمنعـهم ولا يمنـع إخـوانهم وائـلة من التمتع بالصـلات والمواصـلات والتعاون المعتـاد والمتعارف به . ثم يمتـد هذا

الخط من نهاية الحدوود المذكورة آنفًا بين أطراف قبائل المملكة العربية السعودية وأطراف من عدا « يام » من « همدان بن زيد » وسائر قبائل اليمن ، فللمملكة اليمانية كل الأطراف والبلاد اليمانية إلى منتهى حدود اليمن من جميع الجهات وللمملكة العربية السعودية كل الأطراف والبلاد إلى منتهى حدودها من جميع الجهات ، وكل ما ذكر فى هذه المادة من نقط شمال وجنوب وشرق وغرب فهو باعتبار كثرة اتجاه ميل خط الحدود فى اتجاه الجهات المذكورة ، وكثيرًا ما يميل لتداخل ما إلى كل من المملكتين . أما تعيين وتثبيت الخط المذكور وتمييز القبائل وتحديد ديارها على أكمل الوجوه ، فيكون إجراؤه بواسطة هيئة مؤلفة من عدد متساو من الفريقين بصورة ودية أخوية بدون حيف بحسب العرف والعادة الثابتة عند القبائل .

المادة الخامسة : نظرًا لرغبة كل من الفريقين الساميين المتعاقدين فى دوام السلم والطمأنينة والسكون وعدم إيجاد أى شىء يشوش الأفكار بين المملكتين فإنهما يتعهدان تعهدًا متقابلاً بعدم إحداث أى بناء محصن فى مسافة خمسة كيلو مترات من كل جانب من جانبى الحدود فى كل المواقع والجهات على طول خط الحدود .

المادة السادسة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يسحب جنده فورًا عن البلاد التى أصبحت بموجب هذه المعاهدة تابعة للفريق الآخر مع صون الأهلين والجند عن كل ضرر .

المادة السابعة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يمنع كل منهما أهالى مملكته عن كل ضرر وعدوان على أهالى المملكة الأخرى فى كل جهة وطريق ، وبأن يمنع الغزو بين أهل البوادى من الطرفين ، ويرد كل ما ثبت أخذه بالتحقيق الشرعى من بعد إبرام هذه المعاهدة وضمان ما تلف

وبما يلزم بـالشرع فيما وقع مع جنايـة قتل أو جرح ، بـالعقوبـة الحاسمة على من ثبت منهم العـدوان . ويظـل العمــل بهذه المــادة ســاريًــا إلى أن يـوضع بين الفريقين اتفاق آخر لكيفية التحقيق وتقدير الضرر والخسائر .

المادة الثامنة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين تعهدًا متقابلاً بأن يمتنعا عن الرجوع للقـوة لحل المشكلات بينهما وبأن يعملا جهدهما لحل ما يمكن أن ينشأ بينهما من اختـلاف ، سواء كـان سببـه منشؤه هـذه المعاهـدة أو تفسير كل أو بعض مـوادهـا ، أم كان نـاشئًـا عن أى سبب آخـر بالمراجعـات الودية . وفى حـالة عدم إمكان التوفيق بهذه الطـريقة ، يتعهد كل منهما بأن يلجأ إلى التحكيم الذى تـوضح شروطه وكيفية طلبـه وحصولـه فى ملحق مرافق بهذه المعاهدة ، ولهذا الملحق نفس القوة والنفوذ اللـذين لهذه المعاهدة ويحسب جزءًا منها أو بعضًا متممًا للكل فيها .

المادة التاسعة : يتعهـد كل من الفريقين السـاميين المتعاقـدين بأن يمنع بكل ما لديه من الوســائل المـادية والمعنوية ، استعمال بلاده قاعدة ومركزًا لأى عمـل عـدوانى أو شروع فيـه أو اســتعداد لـه ضـد بلاد الفريق الآخــر ، كما أنه يتعهد باتخاذ التدابير الآتية بمجــرد وصول طلب خاطئ من حكومة الفريق الآخر وهى :

١ - إن كان الساعى فى عمل الفساد من رعايا الحكومة المطلوبة منها اتخاذ التـدابير ، فبعـد التحقيق الشرعى وثبـوت ذلك يؤدب فـورًا من قبل حكـومتـه بالأدب الرادع الذى يقضى على فعله ويمنع وقوع أمثاله .

٢ - وإن كان الســاعى فى عمل الفســاد من رعايا الحكومة الطالبة اتخاذ التدابير ، فإنه يلقى القبض عليـه فورًا من قبل الحكومة المطلوبة منهـا ويســلم إلى حكومتـه الطالبة ، وليس للحكومـة المطلوب منها التسليم عــذر عن إنفـاذ الطلب ، وعليها اتخــاذ كافة الإجـراءات لمنع فرار الشخص المطلـوب أو تمكينه

من الهرب وفى الأحـوال التـى يتمكن فيهـا الشخص المطلـوب مـن الفـرار فإن الحكومـة التى فر من أراضيها تتعهـد بعدم السماح لـه بالعودة إلى أراضيهـا مرة أخرى ، وإن تمكن من العودة إليها يلقى القبض عليه ويسلم إلى حكومته .

٣ - وإن كـان الساعـى فى عمل الفساد من رعـايـا حكـومة ثـالثـة ، فإن الحكومة المطلوب منها والتى يوجـد الشخص على أراضيها ، تقوم فورًا وبمجرد تلقيهـا الطلب من الحكـومة الأخـرى بطـرده من بـلادها ، وعـده شخصًـا غير مرغوب فيه ، ويمنع من العودة إليها فى المستقبل .

المادة العاشرة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعـاقدين بعدم قبول من يفر عن طاعـة دولته كبيرًا كان أم صغيرًا ، موظفًا كـان أم غير موظف ، فردًا كـان أم جماعة ، ويتخـذ كل من الفريقين السـاميين المتعـاقدين كـافة التـدابير الفعالة من إدارية وعسكرية وغيرهـا لمنع دخول هؤلاء الفارين إلى حدود بلاده ، فإن تمكن أحدهم أو كلهم من اجتيـاز خط الحدود بالدخول فى أراضيـه فيكون عليه واجب نزع السلاح من الملتجئ وإلقـاء القبض عليه ، وتسليمه إلى حكومة بلاد الفار منهـا ، وفى حالة إمكان القبض عليـه تتخذ كافة الـوسائل لطرده من البلاد التى لجأ إليها إلى بلاد الحكومة التى يتبعها .

المادة الحادية عشرة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بمنع الأمراء والعمال والموظفين التابعين له من الداخل بأى وجه كان مع رعايا الفريق الآخر بـالذات أو بـالواسطـة ، ويتعهد بـاتخاذ كامل التدابير التـى تمنع حدوث القلق أو توقع سوء التفاهم بسبب الأعمال المذكورة .

المادة الثانية عشرة : يعترف كل من الفـريقين الساميين المتعـاقـدين بأن أهل كل جهـة من الجهات الصـائرة إلى الفريق الآخـر بموجب هـذه المعاهـدة رعيـة لذلك الفـريق الآخـر . ويتعهـد كل منهمـا بعـدم قبـول أى شخص ، أو أشخاص من رعـايا الفريق الآخـر رعية له إلا بموافقـة ذلك الفريق ، وبأن

تكـون معاملـة رعـايا كل من الفـريقين فى بـلاد الفريق الآخـر طبقًـا للأحكـام الشرعية المحلية .

المادة الثالثة عشرة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بإعلان العفو الشـامل الكامل ، عن سائر الإجـرام ، والأعمال العدائية ، التى يكـون قد ارتكبهـا فرد أو أفـراد من رعـايا الفـريق الآخـر المقيمين فى بلاده (أى فى بـلاد الفريق الـذى منه إصدار العفو) كما أنه يتعهـد بإصدار عفو عام شـامل كامل عن أفـراد رعــاياه الذين لجــأوا أو انحــازوا أو بأى شــكل مـن الأشــكال انضـــموا إلى الفـريق الآخـــر ، من كل جنايـة ، ومال أخـذوا منذ لجــأوا إلى الفريق الآخر إلى عددهم كائنًا ما كان ما بلغ ، وبعدم السماح بإجراء أى نوع من الإيـذاء أو التعقيب أو التضييق بسبب ذلك الالتجـاء ، أو الانحيـاز أو الشكل الذى انضموا بموجبه ، وإذا حصل ريب عنـد أى الفريقين بوقوع شىء مخالف لهذا العهد كان لمن حصل عنـده الريب أو الشك من الفريقين مـراجعة الفريق الآخـر لأجل اجتماع المنـدوبين ، الموقعين على هـذه المعاهـدة ، وإن تعـذر على أحدهما الحضور فينيب عنه آخر له كامل الصلاحية والاطلاع على تلك النواحى ممن له كامل الرغبة والعناية بصلاح ذات البين والوفاء بحقوق الطرفين بالحضور لتحقيق الأمـر ، حتى لا يحصـــل أى حيف ولا نـزاع ، وما يقـــرره المندوبـان يـكون نافذًا .

المادة الرابعة عشرة : يتعهد كل من الفـريقين الساميين المتعاقـدين برد وتسـليم أمـلاك رعـايا الذين يعفى عنهم إليهم أو إلى ورثتهم ، عنـد رجـوعهم إلى وطنهم خاضـــعين لأحـكام مملـكتهم ، وكــذلك يتعهـــد الفريقـــان السـاميان المتعــاقدان بعـــدم حجز أى شىء من الحقـــوق والأمـــلاك التى تكون لرعـــايا الفريق الآخــــر فى بلاده ولا يعـــرقل اســـتثمارها أو أى نوع من أنواع التصـــرفات الشرعية فيهـا .

المادة الخامسة عشرة : يتعهد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين بعدم المداخلة مع فريق ثالث سواء كان فردًا أم هيئة أم حكومة ، أو الاتفاق معه على أى أمر يخل بمصلحة الفريق الآخر أو يضر ببلاده أو يكون من ورائه إحداث المشكلات والصعوبات له أو يعرض منافعها ومصالحها أو كيانها للأخطار .

المادة السادسة عشرة : يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان اللذان تجمعهما روابط الإخوة الإسلامية ، والعنصرية العربية ، أن أمتهما أمة واحدة ، وأنهما لا يريدان بأحد شرًّا ، وأنهما يعملان جهدهما لأجل ترقية شئون أمتهما فى ظل الطمأنينة والسكون ، وأن يبذلا وسعهما فى سائر المواقف لما فيه الخير لبلاديهما وأمتهما غير قاصدين بهذا أية عداوة على أية أمة .

المادة السابعة عشرة : فى حالة حصول اعتداء خارجى على بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتحتم على الفريق الآخر أن ينفذ التعهدات الآتية:

أولاً : الوقوف على الحياد التام سرًّا وعلنًا .

ثانيًا : المعاونة الأدبية والمعنوية الممكنة .

ثالثًا : الشروع فى المذاكرة مع الفريق الآخر لمعرفة أنجع الطرق لضمان سلامة بلاد ذلك الفريق الآخر ومنع الضرر عنهما والوقوف فى موقف لا يمكن تأويله بأنه تعضيد للمعتدى الخارجى .

المادة الثامنة عشرة : فى حالة حصول فتن واعتداءات داخلية فى بلاد أحد الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهد كل منهما تعهدًا متقابلاً بما يأتى :

أولاً : اتخاذ التدابير الفعالة اللازمة لعدم تمكين المعتدين أو الثائرين من الاستفادة من أراضيه .

ثانيًا : منع التجاء اللاجئين إلى بلاده ، وتسليمهم أو طردهم إذا لجأوا إليها كما هو موضح (فى المادة التاسعة والعاشرة أعلاه) .

ثالثًا : منع رعاياه من الاشتراك مع المعتدين أو الثائرين وعدم تشجيعهم أو تموينهم .

رابعًا : منع الإمدادات ، والأرزاق ، والمؤن والذخائر ، عن المعتدين أو الثائرين ..

المادة التاسعة عشرة : يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان رغبتهما فى عمل كل ممكن لتسهيل المواصلات البريدية والبرقية وتزويد الاتصال بين بلاديهما وتسهيل تبادل السلع والحاصلات الزراعية والتجارية بينهما . وفى إجراء مفاوضات تفصيلية ، من أجل عقد اتفاق جمركى ، يصون مصالح بلاديهما الاقتصادية بتوحيد الرسوم الجمركية فى عموم البلدين ، أو بنظام خاص بصورة كاملة لمصالح الفريقين ، وليس فى هذه المادة ما يقيد حرية أحد الفريقين الساميين المتعاقدين فى أى شىء حتى يتم عقد الاتفاق المشار إليه .

المادة العشرون : يعلن كل من الفريقين الساميين المتعاقدين استعداده لأن يأذن لممثليه ومندوبيه فى الخارج إن وجدوا بالنيابة عن الفريق الآخر متى أراد الفريق الآخر ذلك فى أى شىء ، وفى أى وقت ، ومن المفهوم أنه حينما يوجد فى ذلك العمل الشخصى فى كل من الطرفين ، فى مكان واحد ، فإنهما يتراجعان فيما بينهما لتوحيد خطتهما ، للعمل العائد لمصلحة البلدين ، التى هى كلمة واحدة ، ومن المفهوم أن هذه المادة لا تقيد حرية أحد الجانبين بأية صورة كانت فى أى حق له كما أنه لا يمكن أن تفسر بحجز حرية أحدهما أو إضراره لسلوك هذه الطريقة .

المادة الحادية والعشرون : يلغى ما تضمنته الاتفاقية الموقع عليها فى ٥ شعبان سنة ١٣٥٠ هـ على كل حال اعتبارًا من تاريخ هذه المعاهدة .

المادة الثانية والعشرون : تبرم هذه المعاهدة وتصدق من قبل حضرة صاحبى الجلالة الملكين فى أقرب مدة ممكنة نظرًا لمصلحة الطرفين فى ذلك ،

وتصبح نافذة المفعول من تاريخ تبادل قرارات إبرامها مع استثناء ما نص عليه فى المادة الأولى من إنهاء حالة الحرب بمجرد التوقيع . وتظل سارية المفعول مدة عشرين سنة قمرية تامة ، ويمكن تجديدها أو تعديلها خلال الستة الأشهر التى تسبق تاريخ انتهاء مفعولها ، فإن لم تجدد أو تعدل فى ذلك التاريخ تظل سارية المفعول إلى ما بعد ستة أشهر من إعلان أحد الفريقين المتعاقدين الفريق الآخر رغبته فى التعديل .

المادة الثالثة والعشرون : تسمى هذه المعاهدة بمعاهدة الطائف ، وقد حررت من نسختين باللغة العربية الشريفة بيد كل من الفريقين الساميين المتعاقدين نسخة ، وإشهادًا بالواقع وضع كل من المندوبين المفوضين توقيعه . (٦ صفر سنة ١٣٥٣هـ - ١٩/ ٥/ ١٩٣٤) (عن اليمن عبد الله بن أحمد الوزير) ، (و عن السعودية الأمير خالد بن عبد العزيز آل سعود) .

عهد التحكيم بين مملكة اليمن وبين المملكة العربية السعودية

بما أن حضرة صاحبى الجلالة الإمامين الملك يحيى ملك اليمن . والملك عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية ، قد اتفقا بموجب المادة الثامنة من معاهدة الصلح والصداقة وحسن التفاهم المسماة بمعاهدة « الطائف » على أن يحيلا إلى التحكيم أى نزاع أو اختلاف ، ينشأ عن العلاقات بينهما وبين حكومتيهما وبلاديهما متى عجزت سائر المراجعات الودية عن حله ، فإن الفريقين الساميين المتعاقدين يتعهدان بإجراء التحكيم على الصورة المبينة فى المواد الآتية:

المادة الأولى : يتعهد كلٌّ من الفريقين الساميين المتعاقدين بأن يقبل بإحالة القضية المتنازع عليها على التحكيم خلال شهر واحد من خلال استلام طلب إجراء التحكيم من الفريق الآخر إليه .

المادة الثانية : يجرى التحكيم من قبل هيئة مؤلفة من عدد متساوٍ من المحكمين ينتخب كل فريق نصفهم ، ومن حكم وازع ينتخب باتفاق الفريقين الساميين المتعاقدين ، وإن لم يتفقا على ذلك يرشح كل منهما شخصًا ، فإن قبل أحد الفريقين المرشح الذى يقدمه الفريق الآخر فيصبح وازعًا ، وإن لم يكن الاتفاق على ذلك تجرى القرعة أيهما يكون وازعًا ، مع العلم بأن القرعة لا تجرى إلا على الأشخاص المقبولين من الطرفين ، فمن وقعت القرعة عليه أصبح رئيسًا لهيئة التحكيم ووازعًا للفصل فى القضية ، وإن لم يحصل الاتفاق على الأشخاص المقبولين من الطرفين ، تجرى المراجعات فيما بعد إلى أن يحصل الاتفاق على ذلك .

المادة الثالثة : يجب أن يتم اختيار لجنة التحكيم ورئيسها خلال شهر واحد من بعد انقضاء الشهر المعين لإجابة الفريق المطلوب منه الموافقة على التحكيم لقبوله لطلب الفريق الآخر ، وتجتمع هيئة المحكمين فى المكان الذى يتم الاتفاق عليه فى مدة لا تزيد عن شهر واحد بعد انقضاء الشهرين المعينين فى أول المادة ، وعلى هيئة المحكمين أن تعطى حكمها خلال مدة لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تزيد عن شهر واحد بعد انقضاء المدة التى عينت للاجتماع كما هو مبين أعلاه . ويعطى حكم هيئة التحكيم بالأكثرية ، ويكون الحكم ملزمًا للفريقين ، ويصبح تنفيذه واجبًا بمجرد صدوره وتبليغه . ولكل من الفريقين الساميين المتعاقدين أن يعين الشخص أو الأشخاص الذين يريدهم للدفاع عن وجهة نظره أمام هيئة التحكيم ، وتقديم البيانات والحجج اللازمة لذلك .

المادة الرابعة : أجور محكمى كل فريق عليه ، وأجور رئيس هية التحكيم مناصفة بينهما ، وكذلك الحكم فى نفقات المحاكمة الأخرى .

المادة الخامسة : ويعتبر هذا العهد جزءًا متممًا لمعاهدة « الطائف » الموقع عليها فى هـذا اليوم السادس من شهـر صفر سنة ثلاث وخمسين بعـد الثلاثمائة والألف ويظل سارى المفعول مدة سريان المعاهدة المذكورة .

وقـد حرر هـذا من نسختين بـاللغة العـربيـة يكـون بيد كل من الفـريقين الساميين المتعاقدين نسخة وقرارًا بذلك جرى توقيعه فى اليوم السادس من شهر صفر سنة ثلاث وخمسين بعد الثلاثمائة والألف .

(وقعه كذلك ابن الوزير ، وخالد بن عبد العزيز) .

* * *

- ١٢ -

المعاهدة اليمنية الهولندية[1]

١٥ ذى القعدة سنة ١٣٥١هـ (١٢ مارس ١٩٣٣م)

تعتبر هذه المعاهدة نموذجًا لعدد من المعاهدات القليلة التى عقدها الإمام يحيى طوال عهده الطويل . وهى جميعًا تنص على الاعتراف بدولة اليمن وباستقلال ملكها الإمام يحيى - ولو ضمنيًا - فى ديباجة كل منها وعلى سيادة السلم والصداقة بين كل منها .

وإلى جانب ذلك فهى تقضى بتبادل التجارة بين البلدين ، وتنظم إقامة رعايا كل منهما فى بلد الأخرى ، وتبين كيفية معاملة تلك التجارة وهؤلاء الرعايا فى كل منهما ، وهذه المعاهدة - وأمثالها - لا تزيد على أنها مفتاح لنوع من العلاقات المحددة بين البلدين ، وبداية لتبادل التجارة بينهما . وإلى جانب ذلك فهناك ملاحظة هامة ، وهى أن هذه المعاهدة - وأمثالها كذلك - تنص على أنه سيكون هناك علاقات دبلوماسية بين البلدين ، ولكن لم تقم هذه العلاقات طوال عهد الإمام ؛ إذ من المعروف أنه لم يسمح بإقامة علاقة دبلوماسية أو تبادل الممثلين الدبلوماسيين مع أية دولة أجنبية . ومدة سريان هذه المعاهدة كانت خمس سنوات فقط ، وأن تجدد إذا رغب الطرفان ، وهذه هى عادة الإمام ، وهذا يدل على مدى التحديد الذى يرمى إليه عند عقد المعاهدات ، وإلى مدى الحذر الذى يواجه به العالم الخارجى عندما يبدأ فى إقامة العلاقات بينهما . (راجع ٤١٦) .

حضرة صاحب الجلالة ملك (قطعة) اليمن المستقلة وحاكمها المطلق الإمام يحيى ابن الإمام محمد بن يحيى حميد الدين المعظم .

---

(١) الدكتور أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٢٢٥ - ٢٢٧ .

وحضرة صاحبة الجلالة المعظمة ملكة بلاد هولندة المستقلة وحاكمتها المطلقة ويلهلمين المبجلة .

رغبة منهما فى تأسيس روابط الصداقة بين الدولتين وتوثيق عراها على قاعدة القوانين الدولية العامة قد قررا عقد معاهدة صداقة ولهذا عين :

من طرف جلالة ملك اليمن الإمام يحيى حضرة الكاتب الأول لعرش الدولة اليمنية صاحب السعادة القاضى محمد راغب بن رفيق .

ومن طرف جلالة ملكة هولندة حضرة مفوض جلالتها بجدة صاحب السعادة المسيو . ك . أدريانة ، مندوبين مفوضين عنهما ، وقد اتفقا على المواد الآتية :

المادة الأولى : يسود بين دولة اليمن ودولة هولنده وبين رعايا كلتا الدولتين سلام لا يمس وصداقة خالصة مطلقة .

المادة الثانية : سيكون من كل من الفريقين الساميين المتعاهدين أثناء العلاقات السياسية والقنصلية بينهما فى الوقت الذى سيقرران تعيينه وعند ذلك يتمتع الممثلون السياسيون والقنصليون من كل منهما فى بلاد الأخرى بالمعاملة المقررة بمبادئ القانون الدولى العامة بشرط أن تكون هذه المعاملة متساوية .

المادة الثالثة : كل من رعايا الفريقين الساميين المتعاقدين الذين يقصدون التجارة فى بلاد الفريق الآخر يكونون تابعين للقوانين والأحكام المحلية ويتمتعون بنفس المعاملة التى يتمتع بها رعايا الدولة الأكثر رعاية من كل الوجوه . وكذلك تعامل سفن كل من الفريقين المتعاهدين وشحناتها فى الموانى

الفريق الآخر بنفس المعاملة التى تتمتع بها سفن الدولة الأكثر رعاية وشحناتها من كل الوجوه .

المادة الرابعة : حاصلات أرض كل من الفريقين المتعاهدين ومصنوعاتها تعامل فى دخولها إلى بلاد الفريق الآخر فيما يتعلق بتعيين مقادير الرسوم والضرائب الجمركية وأخذها بنفس المعاملة التى تعامل بها حاصلات ومصنوعات الدولة الأكثر رعاية ، وكذلك تأكيدًا لهذا تعامل حاصلات الأرض والمصنوعات التى تخرج من بلاد أحد الفريقين إلى بلاد الفريق الآخر فيما يتعلق بتعيين مقادير الرسوم والضرائب الجمركية وأخذها بنفس المعاملة التى تعامل بها حاصلات الأرض والمصنوعات التى تخرج إلى بلاد الدولة الأكثر رعاية .

المادة الخامسة : لقد دونت هذه المعاهدة فى نسختين أصليتين متساويتين باللغة العربية واللغة الهولندية ، وإذا نشأت شكوك فى تفسير مادة من المواد ، أو تفسير قسم من أى مادة كانت ، فالطرفان يعتمدان النص العربى . ومن حيث إنها كانت فى ملحقات مملكة هولندة فى خارج أوروبا بعض قوانين وأحكام مخالفة لقوانين وأحكام بلاد هولندة فى أوروبا ، فقد اتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على أن تطبيق هذه المعاهدة فيما يخص دولة هولندة سيكون مقتصرًا على بلاد مملكة هولندة الأوروباوية وسيكون إبرامها وتبادل الوثائق بأقرب وقت ، وتصير نافذة المفعول بمجرد تبادل الوثائق المبرمة .

وقد اتفق الفريقان المتعاهدان على عقد هذه المعاهدة لمدة خمس سنوات اعتبارًا من تاريخ تبادل الوثائق المبرمة على أنه إذا أراد أحد الفريقين المتعاهدين إلغاء هذه المعاهدة بعد انقضاء مدتها يجب أن يشعر الفريق الآخر بمراده قبل انتهاء المدة بستة أشهر وإلا استمرت هذه المعاهدة ، ولا تلغى إلا بعد مضى

ستة أشهر من حين إشعار أحد الفريقين للآخـر بإرادته إلغاءها . وتبييناً لهذا قد صار تـوقيع هذه المعـاهدة من حضرتى مفـوضى الفريقين المشـار إليهما ووضعا أختامهما عليها.

حـــرر بصـــنعاء اليمن بتاريخـــه ١٥ ذى القعـدة ســـنة ١٣٥١ هـ الموافق ١٢ مارس سنة ١٩٣٣م .

محمد راغب بن رفيق　　　　　　كورنليس ادريانة



- ١٣ -

المعاهدة اليمنية الأثيوبية(١)

١٧ ذى الحجة سنة ١٣٥٣هـ (٢٢ مارس سنة ١٩٣٥م)

تعتبر هذ المعاهدة نموذجاً آخر مثل المعاهدة اليمنية الهولندية . وهى تنص على سيادة السلام والصداقة بين البلدين وعلى تبادل التجارة وتوسيع قاعدتها ، كما تنظم إقامة رعايا كل منهما فى البلد الأخرى . وتبرز المعاهدة أيضاً الحرص على علاقات الود والصداقة ، وعلى أن تعامل كل منهما تجارة ورعايا البلد الأخرى معاملة تجارة ورعايا الدولة الأكثر رعاية . ونصت المعاهدة على إقامة علاقات دبلوماسية وتبادل الدبلوماسيين بينهما ، ولكن لم يحدث شىء من هذا طوال عهد الإمام يحيى . ويلاحظ أن مدة العمل بهذه المعاهدة خمس سنوات فقط أيضاً ، على أن تجدد إذا لم ترغب إحدى الدولتين فى إنهاء العمل بها (راجع ص ٤١٦) .

إن حضرة صاحب الجلالة ملك أثيوبية قداماى هيلاسلاس الأول المعظم ، وحضرة صاحب الجلالة ملك وحاكم اليمن المطلق الإمام يحيى ابن الإمام محمد بن يحيى حميد الدين المبجل .

رغبة منهما فى تأسيس روابط الصداقة والمحبة بين الدولتين الغاليتين ، وتوثيق عراها على قاعدة القوانين الدولية العامة قد قررا عقد معاهدة صداقة وتجارة ولهذا الغرض عين :

من طرف حضرة صاحب الجلالة إمبراطور أثيوبية : حضرة صاحب السعادة سافى تزوز مسيقل ، وصاحب العزة ليج اندراكه ماساى .

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ١ ، ص١٨٩ - ١٩١ ، الدكتور أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ .

من طرف حضرة الجلالة ملك اليمن الإمام : حضرة صاحب السعادة القاضى محمد راغب بن رفيق .

مندوبين مفوضين من الدولتين المشار إليهما . وقد اتفقوا بعد تثبت وثائق اعتمادهم ، على المواد الآتية :

المادة الأولى : يفتح بين الإمبراطورية الأثيوبية والمملكة اليمانية سلام دائم وصداقة تامة مطلقة .

المادةالثانية : يتفق الفريقان الساميان المتعاقدان على تقوية علاقتهما الودية والتجارية وعلى أن يسهلا تبادل المنتجات بينهما .

المادة الثالثة : لكل من رعايا الإمبراطورية الأثيوبية والمملكة اليمنية الحرية فى الدخول والإقامة للتجارة فى بلاد الفريق الآخر من المتعاقدين الساميين اللذين اتفقا على أن يعاملوهم وتجارتهم بالأحكام المحلية ، ويتمتعوا بما يتمتع به رعايا الدولة الأكثر رعاية .

المادة الرابعة : من المتفق عليه أن رعايا الفريقين الساميين المتعاقدين يكونون فى كل أمورهم ومعاملاتهم خاضعين للقوانين والمحاكم المتبعة عادة فى البلاد المقيمين بها .

المادة الخامسة : سيكون من الفريقين الساميين المتعاقدين فى الوقت المناسب وبموافقتهما إنشاء سفارة وقنصليات ، وإلى أن يكون إنشاء العلاقات السياسية والقنصلية هذه يتفقان على أن يعطى لرعايا كل منهما المقيمين فى بلاد الفريق الآخر المساعدة والصيانة اللازمة .

المادة السادسة : بهذه المعاهدة لا يسمح الفريقان الساميان المتعاقدان لأى حركة ضد صداقتهما الصميمة ، ويجتهدان فى التقرب أكثر مما هما عليه الآن

فى المعـاونـة وفى ازديـاد عـلاقتهما ، وعلى روح هذه المعـاهـدة تبنى الاتفـاقـات والمعاهدات التى سيكون عقدها فى المستقبل بينهما .

المادة السابعة : تكون مدة هـذه المعاهدة خمس سنوات ابتـداء من تاريخ تبادل حجج التصديق بينهما ، وتتجدد بنفسها كل مرة خمس سنوات أخر ، إن لم ترفض المعاملة بها إحدى الدولتين المتعاقدتين قبل ستة أشهر من انتهائها .

وتبـادل حجج التصـديق يكـون فى صنعاء فى أقـرب مـدة ممكنـة ، وبهذه المعاهدة يلغى كل ما قبلها .

وتقريراً لذلك وقع المفوضـون المشار إليهم إمضاءاتهم على المعاهدة هذه ، ووضعوا أختامهم عليها ، ولهذه المعاهدة نسختـان باللغتين الإمهارية والعربية ، وحيث إن أصل ومنبع اللسانين المشار إليهما متحـد ، فعند اللزوم للتفسير يعتبر النص العربى .

وحـرر فى صنعاء اليمن فى ١٧ ذى الحجـة سنة ١٣٥٣ الموافق ٢٢ مـارس سنة ١٩٣٥ .

محمد راغب بن رفيق   ليج اندركه ماساى   ساف تزوز مسيقل

- ١٤ -

المعاهدة اليمنية الفرنسية[1]

٣ صفر سنة ١٣٥٥هـ (٢٥ أبريل سنة ١٩٣٦م)

هذه المعاهدة هى أول اعتراف رسمى فرنسى باستقلال اليمن وباستقلال ملكها الإمام يحيى ، ولذلك نصت مادتها الأولى على ذلك . وإلى جانب هذا نصت المعاهدة على سيادة السلم والصداقة بين البلدين ، وعلى تبادل التجارة بينهما والنظر فى عقد اتفاقيات خاصة بالمسائل الاقتصادية فيما بعد ، وعلى أن تعامل كل منهما تجارة ورعايا الدولة الأخرى معاملة تجارة ورعايا الدولة الأكثر رعاية ، ونصت المادة الثالثة منها على تبادل الممثلين الدبلوماسيين بين البلدين ، ولكن لم يحدث ذلك إلا متأخراً بعد وفاة الإمام يحيى .

ويلاحظ هنا أمران ، أولهما أن مدة العمل بهذه المعاهدة هى عشر سنوات - وهى أطول نسبيًا من المعاهدات الأخرى - ولكننا نرى أن ذلك قد يرجع إلى حرص فرنسا على ألا تقل مدة العمل بمعاهدتها مع الإمام عن مدة معاهدتى كل من إيطاليا والاتحاد السوفيتى مع الإمام . وثانيهما ، أنه بالرغم من التنافس الاستعمارى التقليدى بين إنجلترا وفرنسا ، إلا أن الأخيرة لن تعقد معاهدتها مع الإمام يحيى إلا متأخراً - بالنسبة لإيطاليا والاتحاد السوفيتى رغم وجود نفس الظروف المهيأة - وبعد أن عقدت إنجلترا معاهداتها مع الإمام يحيى . وقد يرجع ذلك إلى أن إنجلترا كانت تعتبر الجزيرة العربية مجال نفوذ خاص لها - فى فترة ما بين الحربين على الأقل - وكانت فرنسا لا تمانع فى ذلك حينئذ ، بل ويقال إن إنجلترا حرصت على الإشارة إلى هذا التخصيص أثناء مؤتمر الصلح الذى عقد عقب نهاية الحرب العالمية الأولى . ورغم عقد هذه المعاهدة (اليمنية الفرنسية) فقد ظلت علاقة البلدين بعضهما

---

(١) الدكتور أحمد فخرى : اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٢٣١ - ٢٣٣ .

ببعض محدودة للغايـة حتى نهاية حكم الإمام يحيى ، ولم تستفد فـرنسا من ورائها كثيراً ، ويرجع ذلك إلى سياسـة الإمام يحيى الخارجية عامة . (راجع ص ٤١٦) .

حضرة صاحب الجلالـة الإمام يحيى ابن الإمام محمد بن يحيى حميـد الدين ملك اليمن .

ورئيس الجمهورية الفرنسية

رغبة منهما فى توطيد روابط الصداقة التى تجمعهما ، وتسهيلا للعلاقات بين الدولتين ، قد قررا لهذا الغرض عقـد معاهدة بواسطة مندوبيهما المفوضين عنهما والموقعين أدنـاه اللذين بعـد أن تبـادلا أوراق اعتمادهما ، ووجداهـا مطابقـة للأصول ، اتفقا على الأحكام الآتية :

المادة الأولى : تعترف حكومة الجمهـورية الفرنسية بـدون قيد ولا شرط بأن مملكة اليمن دولة حرة ذات سيادة واستقلال .

المادة الثانيـة : يسود سلم ثـابت وصداقة دائمـة بين حكومة الجمهـورية الفرنسيـة وصاحب الجلالـة ملك اليمن وحكومته ورعـاياهما بـدون أى استثناء للأشخاص والأماكن .

المادة الثالثة : يفوض أو يعين كل من الفريقين السـاميين المتعاقدين لدى الفـريق الآخر ومـوافقتـه ، فى وقت يصير الاتفـاق على تحديده ، ممثلين ووكـلاء سياسيين أو قنصليين ينتخبهم ، ويتمتع هؤلاء فى بلاد مقرهم على أن يكون ذلك بطـريقـة المقابلـة بـالمثل بجميع الحقـوق والامتيازات المصطلح عليهـا دوليـا ، وبالمعاملة الممنوحة لممثلى ووكلاء أولى الأمم بالتفضيل .

المادة الرابعـة : إن رعايـا الفريقين الساميين المتعـاقدين الـذين يقصدون بـلاد الفريق الآخـر للتجارة أو الصنـاعة أو أى غـرض مباح ، يتمتعـون فى ظل

القوانين والأنظمة السارية المفعول فى تلك البلاد بمطلق السلامة والصيانة فيما يتعلق بأشخاصهم وأموالهم ، كما أنهم يتمتعون أيضاً بالمعاملة الممنوحة لرعايا أولى الأمم بالتفضيل .

المادة الخامسة : تتمتع سفن وشحنات كل من الفريقين الساميين المتعاقدين فى مرافق الفريق الآخر بالمعاملة الممنوحة إلى سفن وشحنات أولى الأمم بالتفضيل ، على أن هذا الحكم لا يطبق على النقليات التى تجرى بين مرافئ واقعة فى بلاد خاضعة لسلطة نفس أحد الفريقين الساميين المتعاقدين .

المادة السادسة : لكل من الفريقين الساميين المتعاقدين حق النظر فى الفرصة المناسبة لهما فيما بعد لعقد اتفاقيات خاصة لترتيب جميع الأمور التى تهم علاقاتهما المتبادلة ، والتى لم يشر إليها فى هذه المعاهدة كمثل الأمور الاقتصادية .

المادة السابعة : وسيتفاوض أيضاً الفريقان الساميان المتعاقدان فيما بعد إذا قضت الحاجة بعقد اتفاقيات خاصة تتعلق بتعيين العلاقات بين مملكة اليمن من جهة ودول سوريا ولبنان من جهة أخرى ، حيث إن أحكام هذه المعاهدة لا تسرى على هذه العلاقات .

المادة الثامنة : سيجرى إبرام هذه المعاهدة ، ويجرى تبادل قرارات إبرامها فى صنعاء فى أقرب وقت مكن ، وتصبح هذه المعاهدة نافذة المفعول من تاريخ تبادل قرارات الإبرام ، ولمدة عشر سنوات اعتباراً من هذا التاريخ الأخير وإذا لم يعلن أحد الفريقين الساميين المتعاقدين للفريق الآخر عزمه قبل ستة أشهر من انتهاء السنوات العشر على إلغاء هذه المعاهدة ؛ فإنها تعتبر مجددة بطبيعتها لمدة عشر سنوات أخرى .

المادة التاسعة : لقد جرى توقيع هذه المعاهدة فى صنعاء اليمن على نسختين أصليتين باللغتين الفرنسية والعربية ، ولكل منهما قوة واحدة وقيمة واحدة ، وعند وقوع خلاف فى التفسير فالمعتبر النسخة العربية .

تحريراً فى ثالث صفر المظفر سنة ألف وثلاثمائة وخمس وخمسين هجرية الموافق خامس وعشرين أبريل سنة ألف وتسعمائة وست وثلاثين ميلادية .

محمد راغب بن رفيق　　　　　　　　مغره

- ١٥ -

المعاهدة اليمنية البلجيكية[1]

٢٣ رمضان سنة ١٣٥٥هـ (٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦م)

تعتبر هذه المعاهدة إحدى المعاهدات المتشابهة التى عقدها الإمام يحيى مع بعض الدول الأوروبية، ويلاحظ أن هذه المعاهدات - الهولندية والفرنسية والبلجيكية - عقدت فى أوقات متقاربة، كما أنها لدول تقع كلها فى منطقة غرب أوروبا.

وتدل هذه الملاحظة على تهيؤ الظروف الخارجية والداخلية الخاصة باليمن نسبيًا لعقد هذه المعاهدات، ويدل على هذا، أنها كانت محدودة فى جوهرها من ناحية، وعلى أنها كانت تنصب فى أغلبها على النواحى التجارية من ناحية أخرى. وتنص هذه المعاهدة على سيادة السلم والصداقة بين البلدين، وعلى تبادل التجارة بينهما، وعلى أن تعامل كل منهما تجارة ورعايا الدولة الأخرى معاملة تجارة ورعايا الدولة الأكثر رعاية. وأشارت المعاهدة كذلك على أنه سينظر فيما بعد فى إقامة علاقات دبلوماسية وفى تبادل الدبلوماسيين بينهما، ولكن لم يحدث ذلك أثناء حكم الإمام يحيى. ويتأكد هنا أيضاً رغبة الإمام فى تحديد علاقاته مع الدول الأجنبية، وحذره عند إقامة هذه العلاقات، فقد حافظ على المدة التقليدية التى يسمح بها للعمل بالمعاهدات المختلفة، وهى مدة خمس سنوات فقط، على أن ينظر فى تجديدها أو إنهائها عند نهاية هذه المدة. (راجع ص ٤١٦).

---

(١) الدكتور أحمد فخرى: اليمن ماضيها وحاضرها، ص ٢٣٤ - ٢٣٦.

صاحب الجلالة ليوبولد الثالث ملك البلجيكا عاملا من جانبه ، ومن جانب حضرة صاحب الفخامة الملكية غراندواوشس لوكسمبورغى وبناء على الاتفاق بينهما .

وصاحب الجلالة ملك البلاد اليمنية المستقلة وحاكمها المطلق الإمام يحيى ابن الإمام محمد بن يحيى حميد الدين .

رغبة منهما فى تأسيس الروابط الودية وتقوية المناسبات التجارية بين الاتحاد البلجيكى واللوكسمبورغى الاقتصادى وبين المملكة اليمنية ، قررا عقد معاهدة تجارية وعينا لأجلها مفوضين من جانبيهما :

من صاحب الجلالة ملك بلجيكا : صاحب السعادة المندوب المفوض ليوتنان كولونيل المسيو شريف إبراهيم ديوبى المحترم .

ومن صاحب الجلالة ملك اليمن : صاحب السعادة القاضى عز الإسلام محمد راغب بن رفيق المحترم .

اللذان بعد تعاطى وثائق الصلاحية الكاملة لكل منهما وجداها موافقة لأصولها فاتفقا على المواد الآتية :

المادة الأولى : يسود بين المملكة البلجيكية وبين المملكة اليمانية سلام عام ومحبة دائمة .

المادة الثانية : بلجيكا واليمن سيؤسسان فى الوقت الذى سيقرانه بينهما آتيًا المناسبات الدبلوماسية والقنصلية والممثلين والدبلوماسيين والقنصليين فيعاملون فى كلتا الجهتين بالمعاملة الموافقة لأساسيات الحقوق الدولية العامة المعمول بها .

المادة الثالثة : التبعية البلجيكية والتبعية اليمنية يتعاطون التجارة فى اليمن وفى بلجيكا بالمقابلة وبكل أمنية ومع تابعيتهم للقوانين والنظامات

المحليـــة سيستفيدون من كل الوجـــوه بالمعـــاملة التى تطبق على تبعـة الملـة الأكبر رعاية :

وكذلك سفن المتعاهدين السـاميين وشحناتها فى موانى المملكتين تعامل من كل الوجوه بالمعاملة التى تطبق على سفن وشحنات الملة الأكثر رعاية .

المادة الرابعة : المحصولات الأرضية والصناعيـة فى المملكتين عند إدخالها إلى بلاديها بـالمقابلـة تعامل كل الـوجوه فى رسـوم الدخـالية والأجـور المنضمة وصورة جبـايتها بعين المعـاملة التى تطبق على محصولات الملـة الأكثر رعـاية فى إدخالاتها . والمحصـولات الأرضية والصنـاعية فى المملكتين عنـد إخراجهـا من بلاديها بـالمقابلـة تعامل أيضـاً من كل الـوجوه فى رسـوم الإخراجـات والأجور المنضمة وصـورة جبايتها بعين المعـاملة التى تطبق على المحصولات الإخـراجية العائدة إلى الملة الأكثر رعاية فى إخراجاتها .

المادة الخامسـة : أحكـام المادتين الثـالثـة والرابعـة المنـدرجتين فى هـذه المعاهدة لا تطبق فى قونغو البلجيكيـة وكذلك فى أملاك رواندا - أوريندى التى تحت انتداب الدولة البلجيكية .

المادة السادسة : المعاهدة هذه التى سيجرى تصديقها عقدت لمدة خمس سنوات اعتباراً من يـوم تبادل وثائق الإبرام وتنفيذ أحكامهـا اعتباراً من التاريخ المذكور . وإذا أراد أحـد المتعاهدين إلغـاء أحكام المعاهدة الحاضرة عنـد ختام مدتها فعليه أن يخبر الطـرف الثانى قبل انقضاء مدتها بستـة أشهر ، وإذا لم يكن منه الإخبار بـذلك ، استمر اعتبارها لستة أشهر أخـرى إلى أن يخبر أحد الطرفين إلى الطرف الثانى بتصميمه على إعطاء النهاية لأحكام المعاهدة .

وهـذه المعاهـدة دونت فى نسختين أصليتين متسـاويتين باللغـة الفرنسيـة

واللغة العـربية ؛ وإذا نشأت شكـوك فى تفسير مادة مـن مواد المعاهـدة أو قسم منها فالطرفان يعتمدان النص العربى .

تقريراً لـلأحكام المندرجة أعلى هذا قد أمضى المفـوضان المذكور اسميهما أولا فى هذه المعاهدة ووضعا ختميهما عليها .

حررت فى صنعاء اليمن فى ٢٣ رمضان سنة ١٣٦٥ الموافق ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٦ .

محمد راغب بن رفيق　　　　شريف إبراهيم الديوبى

- ١٦ -

المعاهدة اليمنية العراقية[1]

٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٤٩هـ (١٩٦٠م)

هى أول معـاهدة عقدهـا الإمام يحيـى مع دولة عـربية ، كما أنها أقصر معاهدة عقدها بوجه عام . وهذا كله يلفت الانتباه ، وإنا نعتقد أن سبب تقـاربـه مع العـراق هـو أنـه كـان على عـرش العـراق ملك هاشمى ، وكان الإمـام يعتز كثيراً بأنه من نسل الـرسول . كما نعتقد أن سبب قصرها هـى طبيعة الإمام الحذرة ، ومـوقفه العـام بالنسبـة للعالم الخارجى . وتشمل المعاهدة ثلاث مواد فقط ، وتقتصر على اعتراف كل منهما بالأخـرى (مادة ١) ، وعلى سيادة السـلم والصـداقة بين البلدين (مادة ٢) . (راجع من ٤٤٦) .

رغبة فى تأسيس علاقات صداقـة ودية بين مملكتى اليمن والعراق ، تمهيداً لتنفيذ سعى وأمنية زعماء الأمة الإسلامية لتوحيد كلمة الأمة العربية :

قرر كل من صاحبى الجلالة ملك العراق فيصل الأول ابن الملك حسين . وملك اليمن الإمام يحيى بن محمد حميد الدين ، إجـراء معاهدة ، وعينا مفوضين منهما لعقدها وهما :

عن جلالة ملك العراق صاحب السعادة طه باشا الهاشمى .

وعن صـاحب الجلالـة ملك اليمن صـاحب الفضيلة القـاضى عبـد الله العمرى اللذان بعد أن اتفقا على وثائق تفويضهما ، اتفقا على ما يأتى :

---

(١) نزيه مؤيد العظم : رحلة فى بلاد العربية السعيدة ، جـ ١ ، ص٢٠٩ .

المادة الأولى : يعترف صاحب الجلالة ملك اليمن بالمملكة العراقية ، ويعترف صاحب الجلالة ملك العراق بالمملكة اليمنية .

المادة الثانية : يسود سلم دائم وصداقة وطيدة بين المملكتين المتعاقدتين .

المادة الثالثة : حررت هذه المعاهدة من نسختين باللغة العربية ، وتصير نافذة من تاريخ تناولها بعد إبرامها من قبل الملكين المتعاقدين ، ويجرى التبادل فى المحل الذى يتفق عليه الفريقان .

حررت فى صنعاء فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٤٩ هـ .

طه باشا الهاشمى   عبد الله بن حسين العمرى

- ١٧ -

وثيقة انضمام الإمام يحيى إلى معاهدة

« الأخوة العربية والتحالف »

بين المملكة العربية السعودية والمملكة العراقية[١]

١٧ صفر ١٨٥٦ هـ (مايو ١٩٣٧ م)

بالرغم مما عرف عن الإمام يحيى من تقوقع وانعزالية ، فإن انضمامه إلى معاهدة الأخوة والتحالف يعتبر خطوة تلفت النظر بالنسبة لسياسته الخارجية بوجه عام . وهذه المعاهدة وانضمام الإمام إليها تعتبر حلفا مبكرا بين الملكيات العربية الثلاث - السعودية والعراقية واليمنية - وتعاون وثيق بينهم . ويلاحظ أن الإمام يحيى لم ينضم إلى معاهدة الأخوة السعودية والعراقية نفسها ، بل إنه اختار بعض موادها فقط ، وأعلن انضمامه إلى المعاهدة على أساسها ، وهذا سبب كتابة المواد فى هذا الانضمام بدلا من الاكتفاء بإعلان الانضمام فحسب . ويقال إن الإمام يحيى كتب هذه الوثيقة بخط يده . ويلاحظ هنا أن المعاهدة دفاعية أكثر منها هجومية ، كما أنها تعبر عن تعاون الملكيات الثلاث للمحافظة على نظمها القائمة أكثر من أى شىء آخر . وهى تنظم طريقة التعاون بين الحكومات الثلاث ، وتقضى بضرورة التشاور فيما يهمهم من الأمور ، وبضرورة اللجوء إلى طريقة التحكيم عند نشوب أى نزاع بينهم .

---

(١) محمد حسن : قلب اليمن ، ص ١٩٦ - ٢٠٠ .

وتنص أيضاً على أنه إذا حدث اعتداء عسكرى على أحد الأطراف ، فعلى الباقى أن يتقدما بالمعونة اللازمة لرد الاعتداء ، أما إذا حدث خلاف بين دولة أجنبية وبين أحد الأطراف فعلى باقى الأطراف التدخل لحل النزاع بكافة الطرق السلمية . ويلاحظ أن المعاهدة نصت كذلك على التشاور والتعاون بكافة الطرق والوسائل بين الأطراف الثلاث إذا قامت فتنة أو ثار تمرد داخل إحداها ، ونظمت المعاهدة كيفية التعاون ومد يد المساعدة حتى يمكن القضاء على الاضطراب الداخلى . وإلى جانب ذلك ، فهذه المعاهدة قد أجازت أن يمثل أحد أطرافها باقى الأطراف فى النواحى الدبلوماسية والقنصلية ، وخاصة فى البلاد التى ليس لأحدهم ممثلون فيها ، مع رعاية مصالح رعاياها ، دون أن يمس ذلك أو يخل بحرية أو بحقوق هذه الدولة فى المجال الدولى .

ويجب الإشارة إلى أن المعاهدة قد أتاحت الفرصة لأعضائها لتبادل البعثات الفنية - سواء ثقافية أو عسكرية - أو إرسال البعثات للتعليم إلى إحداها - وقد يكون هذا دافع الإمام فى إرسال بعثة دراسية للعراق قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية ، وإحضار بعثة عسكرية عراقية إلى اليمن لتدريب الجيش الإمامى . وكانت مدة العمل بالمعاهدة عشر سنوات ، وتجدد إذا رأى المتعاقدون ذلك . (راجع ص ٤٤٦) .

نحن ملك اليمن الإمام يحيى بن محمد حميد الدين غفر الله له آمين .

نصرح بعد إنعام نظرنا فى معاهدة الأخوة العربية والتحالف المنعقدة بين صاحب الجلالة ملك العراق وصاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعودية الموقع عليها فى بغداد فى اليوم العاشر من شهر محرم الحرام من العام الخامس والخمسين بعد الثلاثمائة والألف هجرية . وبناء على الروابط الإسلامية والوحدة القومية التى تربطنا بجلالتهما ، وحيث إنا نشعر كما يشعر جلالتهما

بالحاجة الماسة للتعاون فيما بيننا وبينهما ، والتفاهم فى الشئون التى تهم مصلحة مملكتيهما ومملكتنا ، وبغية المحافظة على سلامة بلادنا وبلاديهما ، قد انضممنا إلى معاهدة « الأخوة العربية والتحالف » الآنفة الذكر مع درج المواد التى اشتركنا ووافقنا عليها نصًا ومعنى وتخصيصاً وتماماً ، والمواد المذكورة كما يلى :

المادة الأولى : يتعهد كل من الفرقاء الساميين المتعاهدين تعهداً متقابلا بأن لا يقوم بأى تفاهم أو اتفاق مع فريق آخر على أمر ضد مصلحة أحد الفرقاء المتعاقدين الساميين أو مملكته أو مصالحها إذا كان من شأنه تعريض سلامة مملكته أو مصالحها للأخطار أو الأضرار ، وسيتشاور الفرقاء السامون المتعاقدون فيما بينهم كلما اقتضى الحال لتنفيذ الأغراض المختصة بالروابط الإسلامية والقومية العربية التى رمت إليها مقدمة معاهدة الحلف .

المادة الثانية : يتعهد الفرقاء السامون المتعاقدون بأن يحسموا ما عساه يحدث من الاختلافات التى تقع بينهم بطرق المفاوضة إلى طريق التحكيم التى تنص عليها المادة الثامنة من معاهدة الطائف المعقودة بين المملكة اليمانية وبين المملكة العربية السعودية فى السادس من شهر صفر الخير سنة الثلاث والخمسين بعد الثلاثمائة والألف .

المادة الثالثة : إذا أدى نزاع بين أحد الفرقاء الساميين المتعاقدين ودولة أخرى إلى حالة يترتب عليها خطر يؤول إلى الحرب ، يوحد الفرقاء السامون المتعاقدون حينئذ مساعيهم لتسوية ذلك النزاع بالوسائل السلمية وبالمفاوضة الودية .

المادة الرابعة : فى حالة وقوع اعتداء على أحد الفرقاء الساميين المتعاقدين من جانب دولة أخرى بالرغم من المساعى المبذولة وفق أحكام المادة الثالثة ، وكذلك فى حالة وقوع اعتداء مفاجئ لا يتسع معه الوقت لتطبيق أحكام المادة

الثالثة المذكورة ، حينئذ يتحتم على الفرقاء الساميين المتعاقدين أن يتشاوروا فى ماهية التدابير التى يجوز القيام بها بقصد توحيد مساعيهم بالطرق النافعة والمفيدة لرد الاعتداء المذكور ، ويعتبر من أعمال التعدى :

١ - إعلان الحرب .

٢ - استيلاء دولة على إحدى دول الحلف بقوة مسلحة ولو بدون إعلان حرب .

٣ - هجوم دولة بقواتها البرية أو البحرية أو الجوية على بلاد إحدى دول الحلف أو بواخره أو طياراته ولو بدون إعلان حرب .

٤ - إعانة أو إسعاف المعتدى بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

المادة الخامسة : فى حالة حدوث اختلاف أو اضطراب أو فتنة فى بلاد أحد الفرقاء الساميين المتعاقدين يتعهد كل منهم تعهداً متقابلا بما يلى :

١ - اتخاذ كل ما يمكن من التدابير :

(أ) لعدم تمكين المتمردين من الاستفادة من أراضيه ضد مصلحة الفريقين المتعاقدين الساميين الآخرين .

(ب) ولمنع رعاياها من الاشتراك فى الاحتلال أو الاضطراب أو الفتنة أو مساعدة المتمردين أو تشجيعهم .

(جـ) ولمنع إيصال أى نوع من المساعدات إلى المتمردين من بلاديها مباشرة أو بالواسطة .

٢ - عند التجاء المتمردين لأراضى أحد الفرقاء المتعاقدين الساميين على الفريق المذكور أن يجردهم من السلاح ، ويبعدهم حالا لمنطقة لا يمكنهم أن يأتوا منها بأى ضرر لبلاد الفريق الآخر حتى يبت فى مصيرهم بين الفرقاء الساميين المتعاقدين .

٣ - إذا اقتضى الأمر اتخاذ تـدابير مشتركة لقمع الاحتـلال أو الاضطراب أو الفتنة ، يتشـاور حينئذ الفـرقاء السـامون فى طـريقة التعاون الموافـق الواجب اتباعها لهذا الغرض .

المادة السادسة : يجوز أن يقوم الممثلـون الدبلوماسيـون والقنصليون لكل من الفرقـاء المتعاقـدين الساميين بتمثيل مصـالح الفريق الآخـر عندمـا يرغب ويطلب ذلك فى البلاد الأجنبيـة التى ليس فيها ممثلون لـذلك الفريق ، وليس فى هذا ما يمس بأى صورة من الصور بحرية ذلك الفريق فى تعيين ممثلين مستقلين له إذا أراد ذلك .

المادة السابعة : من المتفق عليـه لدى الفـرقاء المتعـاقدين السـاميين أنه ليس فى هـذا مـا يمس أو يخل بحقـوق وحريـة وتعهـدات حكـومات الفـرقـاء الساميين المتعاقدين مع الدول والحكومـات الأخرى والهيئات الدولية وبعلاقاتها معها .

المادة الثامنة : إذا قام أحد الفـرقاء الساميين المتعاقدين بـاعتداء منه على دولة أخرى فللفريقين الساميين المتعاقـدين الآخرين إنهاء أحكام هذه المعاهدة معه بـدون سبق إنذار ، على أن هـذا الإنهاء لا يؤثـر على الصداقـة والمحبة التى تربط ممالك الفرقاء الساميين ، ولا يخل بالمعاهدات الأخرى والاتفاقيات المعروفة المعقودة والجارية بينهم .

المادة التاسعة : إذا أراد وطلب أحـد الفـرقـاء السـاميين بعثـة فنيـة من الفريقين الآخرين لتقويم ثقافة إسلامية عربية أو عسكرية ، أو أراد إرسال بعثة إلى مملكة الفريقين الآخرين للتدريس والتعلم بعد المراجعة فى هذا فله ذلك .

المادة العاشرة : يعتبر هذا الانضمام إلى معاهدة الحلف نـافذًا من تاريخ إقراره من قبل حكومتى العـراق والمملكة العربية السـعودية ، ويبقى مرعيًا إلى أن تنتهى السـنوات العشر التى اعتـبرت من تاريخ تنفيذ المعاهـدات الآنفة

من قبل الحكومتين المشار إليهما ، وتعتبر متجـددة لمدة عشر سنوات أخرى إذا لم يخبر أحد الفرقـاء الساميين المتعاقدين الفريقين المتعاقـدين الساميين والآخرين برغبته فى إنهائها قبل سنة من تاريخ انتهاء أجلها .

خاتمـة : هذه المواد العشر المصرح بها التى أمضيناها ووقعنا ختمنا عليها طبق المقدمة المندرجة أعلا هذا تقريـرًا لانضمامنا إلى معاهدة « الأخـوة العربية والتحـالف ، وهى موافقـة للمواد المندرجة فى المعاهدة المشـــار إليها الأصـلية ما عدا بعض موادها التى لا تتعلق بشئون مملكتنا الخاصة ، وهذا التحالف قابل لمن أراد الدخول فيه من الدول المستقلة . وبالله نسـتعين ﴿ **فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين** ﴾ .

حاشـية : وسيكون تقـديم نسخة مختـومة وممضـاة طبق هـذا التقـرير إلى حضرة صاحب الجلالة ملك المملكة العربية السعـودية لإلحاقها بنسخة معاهدة الحلف الأصلية الثانية الموجودة لدى جلالته .



المراجع العربية

الوثائق :

وزارة الخارجية السعودية : بيان عن العلاقات بين المملكة السعودية والإمام يحيى حميد الدين .

(يسمى : الكتاب الأخضر السعودى) .

مكة - مطبعة أم القرى (١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م) .

الكتب :

أحمد فخرى (الدكتور) : اليمن ماضيها وحاضرها .

القاهرة - مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية - ١٩٥٧ .

أحمد فضل بن على محسن العبدلى : هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن.

القاهرة - المطبعة السلفية ، ١٣١٥ - ١٩٣٢ .

أحمد عزت الأعظمى : القضية العربية ؛ أسبابها ومقدماتها وتطورها ونتائجها . جزء ٢ .

بغداد - مطبعة الشعب - الطبعة الأولى - ١٣٤٩ - ١٩٣١ .

أمين الريحانى : ملوك العرب (جزء أول) .

بيروت - دار الريحانى للطبع والنشر - الطبعة الثالثة ، ١٩٥١ .

تاريخ نجد الحديث وملحقاته .

بيروت - دار الريحانى للطبع والنشر - الطبعة الثانية ، ١٩٥٤ .

أمين محمد سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم .

القاهرة - مطبعة الحلبى - ١٩٣٣ .

اليمن ، تاريخه السياسى منذ استقلالة فى القرن الثالث الهجرى .
القاهرة - دار إحياء الكتب العربية - الطبعة الأولى ، ١٩٥٩ .
توفيق برو : العرب والترك فى العهد الدستورى (١٩٠٨ - ١٩١٤) .
رسالة ماجستير غير منشورة ومحفوظة فى مكتبة معهد الدراسات العربية العالية (١٩٦٠) (نشرت الآن وأصبحت من مطبوعات المعهد) .
جورج أنطونيوس : يقظة العرب (ترجمة حيدر الركابى) .
دمشق - مطبعة الترقى - ١٩٤٦ .
جمال حمدان : دراسات فى العالم العربى .
القاهرة - مطبعة النهضة - ١٩٥٨ .
حافظ وهبة : جزيرة العرب فى القرن العشرين .
القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- الطبعة الثانية - ١٩٤٦ .
حسين بن أحمد العرشى : بلوغ المرام فى شرح مسلك الختام فيمن تولى ملك اليمن من ملك وإمام .
القاهرة - مطبعة البرتيرى - طبعة ١٩٣٩ .
ساطع الحصرى : محاضرات فى نشوء الفكرة القومية .
القاهرة - مطبعة الرسالة - الطبعة الأولى - ١٩٥١ .
سلفاتور أبونتى : مملكة الإمام يحيى ، رحلة فى بلاد العربية السعيدة . (ترجمة طه فوزى عن الإيطالية) .
القاهرة - مطبعة السعادة ؛ ١٣٦٦ - ١٩٤٧ .
الشهرستانى أبو الفتح بن أبى القاسم عبد الكريم بن أبى بكر : (٤٦٧- ٥٤٨) الملل والنحل ، جزء ١ .
القاهرة - الطبعة الأولى - ١٣١٧ - ١٨٠٩ .

صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية (جزءان) .
بيروت - دار مكتبة الحياة - الطبعة الأولى - ١٩٥٧ .
محمد حسن : قلب اليمن .
بغداد - مطبعة المعارف - الطبعة الأولى - ١٩٤٧ .
محمد بن أحمد عيسى العقيلي : من تاريخ المخلاف السليماني .
الرياض - مطابع الرياض - ١٩٥٨ . جزءان .
عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني : تاريخ اليمن (المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن) .
القاهرة - المطبعة السلفية - ١٩٢٧ - ١٣٤٦هـ .
عبد الله عبد الكريم الجرافي : المقتطف من تاريخ اليمن .
القاهرة - مطبعة الحلبي - ١٩٥١ .
نجم الدين عمارة بن أبي الحسن اليمني : تاريخ اليمن .
لندن - مطبعة كلبرت - ١٣٠٩ (١٨٩١) .
نزيه مؤيد العظم : رحلة في بلاد العربية السعيدة .
القاهرة - مطبعة الحلبي (لم يذكر تاريخ الطبعة) .
والتر لاكور : الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط (ترجمة لجنة) .
بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٥٩ .

الدوريات :

الأمانة العامة لجامعة الدول العربية : حلقات الدراسات الاجتماعية - الدورة الخامسة ١٦ - ٢٥ مايو ١٩٥٦ .

المجلات :

المقتطف : المجلد ٥٩ الجزء ٣ .
المجلد ٨٤ الجزء ٥ .
المجلد ٩٠ الجزء ١ ، ٣ .
المجلد ٩١ الجزء ٢ ، ٤ .

المنـار: المجلد ١٥ الجزء ٢، ٦.
المجلد ١٦ الجزء ٤، ٥، ٦.
المجلد ٢٦ الجزء ٧.
المجلد ٢٧ الجزء ١٠.
المجلد ٢٨ الجزء ٨.
المجلد ٣٣ الجزء ٥.
المجلد ٣٤ الجزء ١.

الجـرائد:

الأهـرام: عـام ١٩٠٩، ١٩١٠، ١٩١٣، ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٨، ١٩٣٤.
المؤيد: عام ١٩٠٩، ١٩١٠، ١٩١١، ١٩١٣.
اللـواء: عام ١٩١٢.



المراجع الأفرنجية

الوثائق

Hurewitz, J. C. : Diplomacy in the Near and Midde East,
Vol. I, 11. U.S.A. Princeton, 1956. First Pub.

الكتب

Berreby, J.J. : La Péninsule Arabique,
Payot. Paris, 1958.

Brémond, E. : Yémen et Saudia.
Charles - Lavauzelle & Cie, Paris, lére Ed., 1937.

Burry, G. W. : Arabia Infelix or the Turks in Yemen.
Macmillan & Co., London, 1915.

Earle, E. M. : Turkey. The Great Powers and the Baghdad Railway.
Macmillan, New York, First Ed., 1935.

Fisher, S. N. : The Middle East. A History.
Routledge & Kegan Paul Ltd., London, First Ed., 1960.

Fisher, W. B. : The Middle East, A Physical, Social, and Regional,
Methuen & Co., London. First Pub., 1950.

Helfritz, H. : The Yemen, A Secret Journey,
Allen & Unwin, London, Translated by M. Heron _ First
Pub. in English 1958 (in Germany 1956).

Hogarth, D. G. : The Nearer East.
H. Frowde, London, 1905.

Arabia.
Calrendon Pr. Oxford, 1922, First ed.

Hollingorth, C. : The Arabs and the West .
Methuen & Co. Ltd., London. First Ed., 1952.

Jacob, H. : Kings of Arabia.
Mills & Boon, London. 1923.

Lenczowski, G. : The Middle East, in World Affairs.
U.S.A. (Cornell) Second edition, 1956.

Philby, H. St. J. B. : Arabia.
Ernest Benn Ltd., London. 1930 First Ed.

Arabian Highlands.
First Pub. Ocford, 1952 (The Middle East Institute).

Arabian Jubliee.
Robert Hale Ltd., London, 1952. First Pub.

Saudi Arabia.
Ernest Benn Ltd., London, 1955. First Pub.

Reilly, B. : Aden and The Yemen.
Her Majesty's Stationery Office, London, 1960.

Rihani, Ameen : Arabian Peak and Desert, Travels in Yemen
Constable & Co. Ltd., London. 1930.

Sanger, Richard H. : The Arabian Peninsula.
Corn ell Univ. Pr., New York, 1954. First Pub.

Seton-Williams, M. V. : Britain and the Arab States.
Luzac & Co., London. 1948.

Stark, Freya : The Arab Island.
A. A. Knopf, New York, First Ed., 1945.

Van der Meulen, D. : Aden to the Hadheramout.
Joan Murry, Londo,1947, Second Ed.

Wavel, A. J. B. : A Modern Pilgrim in Mecca.
Constable & Co. Ltd. London. 1954. Second Ed.

Wilson, A. T. : The Persian Gulf.
Allen & Unwin, London. 1954. Second Ed.

الدوريـــات

Survery of International Affairs : Royal Institute of International Affairs.
Year 1925 Vol. I.
Survery of International Affairs : Year 1928.
Survery of International Affairs : Year 1930.
Survery of International Affairs : Year 1934.
Survery of International Affairs : Year 1939 - 1946.

المجـــلات

Correspiondance d'Orient, Revue économique, Politique, Littéraire. Vol. I, 1911 _ (15 Février 1911).

Journal of The Royal Central Aisan Socety : The Royal Central Asian Soc. Vol. XXVII. Part 1.
Revue de Monde Musulman : Mission Scientifique de Maroc.
Revue de Monde Musulman : Vol. IV, No. 1.
Revue de Monde Musulman : Vol. IX, No. 9.
Revue de Monde Musulman : Vol. XXVV, No. 12.

❊ ❊ ❊

ملاحظات خاصة بالمراجع

تميز هذا الموضوع بقلة مراجعه بوجه عام ؛ ولكن رغم ذلك فقد اتصفت أغلب المراجع بصفات خاصة أعطت لكل منها مظاهر قوتها أو ضعفها على السواء . فبعض المراجع تميز بأنه لمؤرخين يمنيين مثل كتاب الواسعى ، وكتاب الجرافى ، ولكن أهميتها لم ترجعا إلى أنهما يمنيين فحسب - بل لأنهما اتخذا خطة الدفاع عن الإمام ونظمه خطة لهما. وقد استفدت كثيراً من وجهة النظر هذه - شبه الرسمية تقريبا بل والزيدية أيضا - لأنهما أوضحا وجهة نظرهما فى تاريخ اليمن القريب . والبعض الآخر من المراجع كان عبارة عن كتب رحالة، ومثل هذه الكتابات تهتم بصفة خاصة بالأحوال الاجتماعية والعمرانية فى فترة معينة لا تزيد عن العام على الأكثر ، وهذا يبعدها أساسا عن أنها كتب تاريخية بالمعنى المعروف . ومثال ذلك كتب الريحانى (ملوك العرب) والعظم ومحمد حسن . ويلاحظ أن هذه المراجع اختلفت فيما بينها تبعاً لعمق نظرة الكاتب ونوع ثقافته . وإلى جانب ذلك فقد كانت بعض المراجع خاصة بتاريخ اليمن أو بفترة منه مثل كتاب jacob أو .... bremond و سلفاتور ابونتى ، أما البعض الآخر - وهذا أغلبها - فكان يعالج أساساً موضوعات أخرى مثل تاريخ الشرق الأوسط أو تاريخ الجزيرة العربية أو خاص بالإمبراطورية العثمانية ولكنها إلى جانب ذلك اهتمت بتاريخ اليمن أو بعضاً منه مثل كتاب .... Lenzowsi أو Sanger أو حافظة وهبة أو كتب Philby الأربعة .

وهذه الأمور كلها تطلبت كثيراً من الحذر واليقظة ، كما احتاجت الجهد والوقت ، وذلك حتى يمكن استخلاص المادة التاريخية اللازمة ، وحتى يمكن

ربط أجزاء البحث بعضه ببعض . وأحب هنا أن أشير بإيجاز إلى بعض المراجع بصفة خاصة على سبيل المثال لا الحصر .

سار الواسعى والجرافى فى كتابيهما على طريقة المؤرخين المسلمين الأوائل ، فقد استعملا التاريخ الهجرى ، كما ذكرا الأحداث مرتبة عاما وراء آخر . وقد شمل كتاب الجرافى كل عهد الإمام يحيى حتى مقتله ، أما كتاب الواسعى فقد توقفت أحداثه عند عام ١٣٤٦ هـ . وقد اتضح تحيزهما إلى جانب الإمام بشكل كبير ، وهذا ما دفعنى إلى أن أقول عنهما إنهما شبه رسميين ، أما زيديتهما فقد اتضحت فى أسلوبهما واهتمامهما بذكر تاريخ الأئمة الزيديين فى اليمن . فالواسعى مثلا يبدأ كتابه بذكر الأئمة الشيعة منذ الإمام على بن أبى طالب ثم يخصص الحديث عن الزيديين بالذات وتاريخهم فى اليمن - وذلك كله بشكل موجز - حتى عهد الإمام يحيى فيبدأ فى التوسع والتفصيل .

أما مقدمة كتابه فتوضح اتجاهه بشكل كبير فقد استهلها بالآتى : «الحمد لله الذى خص قطر اليمن الميمون بالإيمان دون سائر الأقطار ، فالإيمان يمان والحكمة يمانية بقول المصطفى المختار ، وجلل هذا القطر بالشرف المنيف والكرم المدرار ، وفضل أهله بالإيمان وملوكهم بالعدل على سائر الأمصار ، أحمده أن جعلنى من أهله ..... » ويتضح تحيزهما إلى جانب الإمام فى مدحهما الدائم ونظمه وذمهما لكل معارضى الإمام وأعدائه ، فالجرافى مثلا ينعت العناصر اليمنية الثائرة فى عهد الإمام بأقسى النعوت ويتهمها بالتمرد والخروج دون أن يذكر أسباب الثورات أو يحللها بل يركز كل اهتمامه على ذكر انتصار جيوش الإمام «الظافرة» أما الواسعى فقد هاجم الإدريسى . عندما بدأ الخلاف يدب بينه وبين الإمام يحيى .

ويعتبر كتاب الريحانى (ملوك العرب) من أهم المراجع العربية التى

تناولت تـاريخ الجزيرة العـربية فى العشرينيات من هـذا القرن . وكـان الريحانى (توفى سنة ١٩٤٠) مؤرخـاً وأديباً ورحالة ، طاف بأنحاء الجزيـرة العربية واتصل بملوكها ورؤسائها وشيوخها ، كما اتصل أيضا بكثير من الشخصيات العادية فى الجزيرة ليعرف آراءها ومواقفها من أحـداث عصرها ، لذلك كان كتابه معبراً عن الـواقع ، يتصف بالعمق والإخـلاص والموضـوعية . ورغم أن الكتـاب بجزئيـه عبارة عـن وصف لرحلتـه فى أنحاء الجزيرة ، إلا أن الـريحانى حاول فيـه تقصى تاريخ المناطق التى زراها ، وهذا ممـا رفع من شأن الكتاب . وكان الريحانى يحلل وينقد كـل ما يراه أو يسمعـه فى نزاهـة تامـة ووعى كبير ، وهذا يـرجع إلى عمق ثقافتـه وكثرة رحلاتـه . وقد احتلت زيارتـه لليمن القسم الثانى من الجزء الأول من كتابه .

أما كتابى العظم ومحمد حسن فلم يكونـا على درجة نزاهة كتاب الريحانى أو عمق نظـراتـه بل كـانـا على العكس يتصفـان بالتحيـز إلى جـانب الإمـام ، ويدافعـان عن كل أعماله ونظمه دون استثنـاء . فيلاحظ مثلا أن العظم عنـدما يتناول ظـاهرة عزلة اليمن بـالنقد لم يوجه حـديثه أو نصحه بالأحـرى إلى الإمام يحيى بل وجه حديثه إلى ملوك ورؤساء العـرب عامة وحثهم على الأخذ بالحضارة الغربية وأسـاليبها . أما محمد حسن فيهـاجم مثلا النظم الدستـورية السائدة فى البلاد العربيـة عندما مدح نظم الإمام الأوتقراطيـة وقال عنها إنها حققت الأمن والسـلام لليمن . وقـد قـام العظم بـزيارة اليمن ثـلاث مـرات ، الأولى عـام ١٩٢٧، والأخيرة عـام ١٩٣٦ . وكتابـه عبـارة عن مجمـوعة المقـالات التى كـان ينشرها فى الجرائد والمجلات العربية عقب كل زيـارة ، إلى جانب ما أضافه بعد ذلك عند إخـراج كتابه وخاصة الجزء الخاص بـالمعاهدات التى كـان الإمام قد أبرمها حتى ذلك الوقت .

ويلاحظ أن هذه الكتب الثلاث سالفة الذكر تكمل بعضها البعض من الناحية الزمنية ، وهذا مما أكمل فائدتها بوجه عام .

ورغم الملاحظات التى أبديتها فإن هذه المراجع قد أمدتنى بالمادة الوفيرة المتنوعة . ومن المعروف أن محمد حسن هو عضو البعثة العسكرية العراقية التى ذهبت إلى اليمن لتدريب الجيش سنة ١٩٣٩ ، فكان يرى الأمور عن كثب ، وذكر كثيراً من الحقائق بالرغم من تحيزه الذى أشرت إليه .

أما الكتاب الأخضر السعودى فكان فى الحقيقة وثيقة هامة ، أنار كثيراً تطور الخلاف الذى أدى إلى نشوب الحرب بين اليمن والمملكة العربية السعودية . ورغم أهميته هذه فقد كنت حذراً عند الرجوع إليه ، فهو مهما بلغت دقته يعبر عن وجهة النظر السعودية فى الخلاف ، أو هذا ما اعتقدته أنا على الأقل . وقد تمنيت مخلصاً أن يكون اليمن قد أصدر كتابا مثله حتى أستطيع المقارنة والتمحيص ولكنه لم يفعل .

أما كتاب العبدلى - أحد أبناء سلاطين لحج - فهو محاولة لا بأس بها لكتابة تاريخ لحج وما يعرف حالياً بالمحميات . ورغم ما يتميز به الكتاب من دفاع عن أسرته الحاكمة ، فقد كان للعبدلى آراء صائبة فى أحداث هذه المنطقة وخاصة التى عاصرها . وقد أوضح الكتاب عدة نقاط كنت فى حاجة إليها مثل حالة جنوب الجزيرة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وزحف الترك إلى لحج لمهاجمة الإنجليز فى عدن ، وقد اهتم الكتاب كذلك ببيان الخطوات التى اتخذها الترك فى اليمن عند خروجهم من المنطقة عامة وتسليمهم الحكم للإمام ، وتحدث عن الخلاف بين الإمام والإنجليز والحرب بينهما عقب الحرب العالمية الأولى .

أما المراجع الإنجليزية عامة فقد تناولت تاريخ اليمن من وجهة نظر

إنجليزية ، فقد دافعت عن حقوق إنجلترا فى عدن ومحمياتها ، واعتبرت هجوم الإمام على المحميات اعتداء على حقوقها هناك . ولكن رغم هذا فقد كانت هذه المراجع موضوعية فى نواح أخرى ، مما كان له فائدة كبيرة بالنسبة للبحث . ويعتبر كتاب Jacob ومجلة Survey of International Affairs من أهم المراجع الإنجليزية . وهذان المرجعان يكملان بعضهما البعض من الناحية الزمنية ، فقد انتهت أحداث الأول فى أوائل العشرينيات من هذا القرن ، بينما بدأ الثانى من عام ١٩٢٥ . وكانت المقالات الخاصة باليمن فى هذه المجلة خير معين لى من ناحية تسلسل الأحداث منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى أواخر عهد الإمام يحيى .

أما جيكوب فكان يشغل منصب المعاون الأول للمقيم البريطانى فى عدن ثم وكيلا سياسيًا لمرتفعات عدن . وفى أثناء الحرب العالمية الأولى شغل منصب المستشار الخاص بشئون جنوب غرب الجزيرة العربية لدى المندوبين الساميين بالقاهرة وهما السير ويجنالد وينجت والفيكونت اللنبى وهذه الوظائف التى شغلها - إلى جانب تحدثه بالعربية ومعرفته لعادات البلاد وتقاليدها - رفعت كثيراً من أهمية هذا الكتاب . ويلاحظ أن جيكوب كان يحمل القرآن دائماً معه أثناء إقامته فى منطقة عدن ومحمياتها ، كما كان يحفظ كثيراً من الأمثال العربية والمحلية ويستخدمها فى كتاباته وأقواله/ويعتبر كتابه وثيقة تاريخية هامة لتاريخ هذه المنطقة منذ دخول تركيا اليمن للمرة الثانية حتى خروجها منه وحتى تاريخ طبعه أيضاً . ومن المعروف أن جيكوب هذا هو صاحب البعثة المعروفة باسمه التى ذهبت إلى اليمن عقب الحرب العالمية الأولى . وقد أوضح جيكوب فى كتابه أحوال هذه المنطقة المضطربة حينذاك ، والعلاقات بين العناصر المختلفة الموجودة هناك ، وتكلم عن الإمام يحيى بكثير من الأمانة . ومن الطريف أن

أذكر أنه قد قيل عنه - تصويراً لاهتمامه بالإمام يحيى واليمن - إن علاقته باليمن تشبه علاقة فيلبى بالسعودية ولورانس بالحجاز .

أما كتب فيلبى فمن المعروف أنها اهتمت أساساً بالتاريخ السعودى ، ولكنها أفادت كثيراً فى توضيح العلاقات اليمنية السعودية وتطور الخلاف بينهما . وقد اهتم فيلبى كذلك بتاريخ وأوضاع جهات عسير ونجران ، وهى الجهات التى دار حولها الخلاف .

وهانز هلفرتز رحالة ألمانى دخل اليمن دون إذن الإمام لمشاهدة آثار اليمن لأن الإمام كان لا يشجع مثل هذه الزيارات ، ولكن الإمام قبض عليه وسجنه فترة من الزمن . وكتابه يعتبر من المراجع الهامة فقد تناول شخصية الإمام وحكمه وأعماله بالتحليل والنقد دون قسوة أو تحيز بالرغم من موقف الإمام منه . فمن آرائه مثلا أنه لا يجب الحكم على الإمام من وجهة النظر الأوروبية ، لأن أوروبا على درجة كبيرة من الحضارة ، بل يجب دراسة أحوال الإمام وظروفه عن كثب أولا قبل الحكم عليه .

وأحب أخيراً أن أذكر حقيقة هامة ، وهى أن الجرائد والمجلات المصرية قد أجبرتنى على الرجوع إليها والاهتمام بها ، وذلك لا لأنها أمدتنى بالمادة التاريخية اللازمة والتى أحسست بالحاجة إليها فى بعض المراحل فحسب - بل لقيمة هذه المادة ودسامتها . وقد استعنت بالجرائد والمجلات التى ذكرتها قبل ذلك فقط لاعتدالها التى عرفت به فى تاريخ الصحافة المصرية ، وذلك بالرغم من أن جريدة المنار قد مالت إلى الجانب السعودى أثناء النزاع اليمنى السعودى . وكانت جريدة الأهرام هى أكثر هذه الجرائد أهمية وصدقاً واعتدالا ، فلم تنحز إلى جانب العثمانيين ضد الإمام ، كما لم تفعل ذلك أيضاً أثناء النزاع اليمنى

السعودى ، بعكس جريدة المؤيد التى أظهرت عطفها على المسائل العربية عامة وقضية اليمن بالذات . وإنى أذكر - على سبيل المثال - أن جريدة الأهرام قالت فى أحد أعدادها الصادر فى حوالى عام ١٩١١ إن كثيراً من أخبار اليمن مشكوك فيها لأن العثمانيين متعمدون طمس الحقائق وإصدار البلاغات الكاذبة ، وكانت فى نفس الوقت تحاول تحرى الحقيقة من جانبها وهذا مما رفع شأنها بالنسبة للموضوع .

وإنى إذ أقصر الحديث عن بعض المراجع فقط فإنى لا أغمط أهمية باقى المراجع ، فقد تكاملت جميعها دون استثناء فى تكوين الصورة الأخيرة لهذه الرسالة .

الفهارس

الكشــاف العــام

(خ)

(د)

(ن)

الفهـــــرس

صفحة

القسم الأول

تمهيد فى جغرافية اليمن وتاريخه وأحواله الاجتماعية

القسم الثانى

اليمن تحت الحكم العثمانى
(١٩٠٤ - ١٩١٨)

الباب الأول

الإمام يحيى منذ توليه الإمامة حتى عقد صلح « دعان »
١٩٠٤ - ١٩١١

صفحة

الباب الثانى

الحكم العثمانى منذ عقد الصلح مع الإمام حتى نهاية الحرب العالمية الأولى
١٩١١ - ١٩١٨

صفحة

القسم الثالث

اليمن بعد الاستقلال
١٩١٩ - ١٩٤٨

الباب الأول
تدعيم الاستقلال
١٩١٩ - ١٩٣٤

صفحة

□○□○□○□

الملاحـــق

صدر للمؤلف

١ - تكوين اليمن الحديث ؛ اليمن والإمـام يحيى ؛ ١٩٠٤ - ١٩٤٨ م .

أربع طبعات : ١٩٦٣ ، ١٩٧٠ ، ١٩٨٤ ، ١٩٩٣ .

٢ - الفتح العثماني الأول لليمن ؛ ١٥٣٨ - ١٦٣٥ م .

أربع طبعات : ١٩٦٩ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٧ ، ١٩٩٢ .

٣ - نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر .

طبعتان : ١٩٧٤ ، ١٩٨٩ .

٤ - مجلة الحكمة اليمانية (١٩٣٨ - ١٩٤١) وحركة الإصلاح فى اليمن .

طبعتان : ١٩٧٦ ، ١٩٨٨ .

٥ - العمليات البحـرية البريطـانية ضد اليمـن إبان الحكم التركى ؛ ١٩١٤ - ١٩١٩ .

طبعة واحـــدة : ١٩٨١ .

٦ - وثائق يمنية ؛ دراسة وثائقية تاريخية ؛ نشر وتعليق .

طبعتان : ١٩٨٢ ، ١٩٨٥ .

رقم الإيداع ٨٢٨٤ لسنة ١٩٩٣
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 00 — 5675 — 8



توزيع
دار الأمين للنشر والتوزيع
ت : ٣٥٥٨٤٦١